معرفة النفس الإنسانية
في
الكتاب والسنة

علم النفس

المجلد الأول

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصري　　دار الكتاب اللبناني

علم النفس

المجلد الأول

معرفة النفس الإنسانية
في
الكتاب والسنة

علم النفس

١

مجمع البيان الحديث

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

I.S.B.N
9953 - 483 - 56 - 6

دار الكتاب المصري
القاهرة
٣٣ شارع قصر النيل ـ تلفون: ٢٣٩٢٢١٦٨/ ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب.: ١٥٦ ـ عتبه ـ الرمز البريدي: ١١٥١١ القاهرة ـ ج.م.ع
فاكسميلي: ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
FAX: (202) 23924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق البريستول ـ بيروت
تلفون: ٧٣٥٧٣٢ / ٠١ ـ ص.ب.: ١١/٨٣٣٠
بيروت ـ لبنان ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

الطبعة الثانية الجديدة والمتجددة منقحة ومزيدة
١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م

Second Edition
A.D. 2008 - H. 1429

Website: - www.daralkitabalmasri.com
E-mail: - info@daralkitabalmasri.com

[redacted]

إلى جدّي علي، وجدّتي آسيا،

إلى والدي عاطف ووالدتي فاطمة،

اللهمّ ارحمهم جميعاً كما ربّوني صغيرا.

إلى بعض نفسي التي أسكنُ إليها،

إلى التي ألهمها الله تعالى فشجعتني على اخراج

هذا الكتاب إلى حيّز الوجود،

زوجتي خديجة هاشم الزين.

إلى من هم نجوم يضيئون في زوايا الدنيا، ويعملون

بقضاء الله تعالى، فلم يعبدوا إلاّ إيّاه،

وبوالديهم احسانًا ...

إليكم يا أولادي: خير الله، خيرات، سناء، هدى،

محمد أسامه، محمّد المهدي، علي، حسن، مريم، عبير.

إلى كل من أنار لي الطريق للهدى.

إلى كل من أعانني في سبيل اعلاء كلمة الله.

أهدي كتابي هذا.

سميح عاطف الزين

قصّة النفس الإنسانية، من بداية خلقها إلى غاية رجوعها إلى ربها، قصّة متسلسلة متشعبة. وقد أتى القرآن الكريم على فصول هذه القصة بما يقرب من ثلاثمائة آية. وهذه الآيات البينات وغيرها تعالج مختلف حالات النفس الإنسانية: خلقاً وتكويناً، ومسارَ حياة، ومآلاً بعد الموت. ومن عجب أنّ كثيراً من العلماء يبحثون عن معرفة النفس الإنسانية في غير كتاب الله فلا يجدونها.

ومن تلك الآيات التي تبين رحلةَ النفس الإنسانية في كتاب الله قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[2]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[5]، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[6]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[7]، ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[8]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ

(١) سورة النساء، الآية: ١.
(٢) سورة ق، الآية: ١٦.
(٣) سورة الشمس، الآية: ٧.
(٤) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٦) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٨) سورة الطارق، الآية: ٤.

ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[9]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[10]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[11]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[12]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾[13]، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[14]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[15]، ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[16]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[17]، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾[18]، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[19]، ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾[20]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[21]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[22].

---

(٩) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(١٠) سورة الرعد، الآية: ١١.
(١١) سورة يونس، الآية: ١٠٠.
(١٢) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(١٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(١٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(١٥) سورة القيامة، الآية: ٢.
(١٦) سورة الزمر، الآية: ٥٦.
(١٧) سورة البقرة، الآية: ٤٨.
(١٨) سورة النحل، الآية: ١١١.
(١٩) سورة آل عمران، الآية: ٢٥.
(٢٠) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٢١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٢٢) سورة الفجر، الآية: ٣٠.

هذا الكتاب
يحتاجه كل إنسان،
... أحد من الناس
عنه، لأن ما
... الإنسان



النفس:

نشوؤها وتكوينها

تآلفها وتمازجها

طاقاتها ودوافعها

حاجاتها ورغباتها

استقامتها وانحرافها

ضلالها وهداها

صحّتها وسقمها

داؤها ودواؤها

تلك موضوعات حاول هذا الكتاب معالجتها.
وبعد ذلك هل يمكن لأحد من الناس
الاستغناء عنه يا ترى؟

لقد تطرقنا في المجلد الأول من هذا الكتاب لبحث كثيرٍ مما يُسمَّى «الأمراض النفسية»، ومعالجة الأمور المتعلقة بمجاهدة النفس والتي من شأنها أنْ توصِلَ إلى الأمان النفسي، ومن ثم إلى السعادة النفسية وقد جاءت تلك المعالجات أحياناً في صلب المواضيع، وأحياناً في خواتيمها هذا بالإضافة إلى تكرار بعضِ الآيات القرآنية، أو جزءٍ من آية مباركة، وتوضيح المعاني والمقاصد التي تتضمنها بما يتناسب والموضوع الذي تتناوله..

والمجلد الثاني يتضمن مختلف المعالجات النفسية وفق عناوينها وأسمائها، بعد شرح الأمراض النفسية التي وضعت لها تلك المعالجات، أي أننا نشخِّص الداء ونَصِفُ الدواء

ولنا أدعوك أيها القارئُ الكريم الى أن تكون في حالة يقظةٍ، انتباه وتفكّر أثناء قراءتك لهذا الكتاب، الذي يحتاجُهُ كل واحدٍ منا ـ حسبما نرى ـ مهما كان واسع الاطلاع، لأنَّه يتعلق بوجوده كياناً ونَفْساً ولا يظنَّنّ أحد من الناس نفسه خالياً من مرضٍ نفسي، لأنَّه لا يوجد إنسانٌ حيٌّ إلاَّ وتدهمه الحياة بالمشكلات والمصاعب، أو يتأثر بالعوامل التي تسبب له أعراضاً كثيرة من القلق، والهمّ، والاضطراب، والتردّد، والضجر وما إلى ذلك من الانفعالات التي قد تخلُّ باستقراره النفسي وطمأنينته، بحيث لا يسلمُ أحدٌ من ذلك، إلاَّ الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى لمعالجة النفوس وشفائها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾

سورة يونس، الآية: ٥٧

الشفاء بمعنى الدواء لإزالة الداء، ومرض النفس
أشد ضرراً من مرض البدن، والأمراض النفسية
أصعب وأعسر، وأطباؤها أقلُ وأنْدَر . .

والشفاء من الأمراض النفسية أجلّ وأكبر . .

هذا الكتاب يصف لها الدواء ويعالجها
حتى يصلَ بها إلى الشفاء
بإذن الله العليم الحكيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

معرفة النفس الانسانية

تَلَمُّسُ الفكر الفلسفي للنفس

حكاية النفس مع الفلاسفة قديمة قدم الفلسفة نفسها.. ذلك أَنَّ معرفة ماهية النفس أو حقيقتها، وعلاقتها بالبدن، وتلمُّس القوى الكامنة فيها وتأثيرها على تصرف الإنسان، ثم إلى أين تؤول بعد الحياة، وما هو مصيرها.. كل ذلك وغيره ممَّا يتَّصل بالنفس، كان مثارَ الاهتمام من قبل الفلاسفة منذ عصور قديمة.

وعلى الرغم من تشعب آراء الفلاسفة حول ماهية النفس فقد اتفقوا على وصفها بأنها «جوهر روحاني بسيط، مجرد عن المادة، قائم بذاته، لا حيّز له. وهو لا يتغير بتغير الظواهر النفسية، ولا يتبدّل بتبدّلها».

ومما لا ريب فيه أَنَّ النفس متعلقة بالبدن، فهي التي تعيّن بها نوعَ حركته، وكيفية تسييره. إلاَّ أنها في النهاية مفارقة لهذا البدن، لأنها من تكوين مختلف، فهو ينحل ويفنى، بينما هي لا يطالها الانحلال أو الفناء، بل تبقى بعد انحلال البدن، وتنتقل إلى عالم

جديد. على أنها ما دامت في البدن، فهي الباعث على التلقّي، والتخزين، وحدوث الإحساس، والتفكير، وانبعاث العواطف والمشاعر، أي هي المصدر لكل ما يعتلج في داخل الإنسان، وما يتبدَّى عنه من حركات وسكنات. وقد اتفق الفلاسفة على أن في النفس ـ هذا الجوهر ـ قوى متعددة: كقوة الذاكرة، وقوة الإرادة، وقوة التخيل، وقوة الاستدلال وقوة الإحساس، وقوة الشعور، وقوة الإدراك، وقوة التمييز إلخ...

وكان يطلق على الأبحاث التي تدور حول النفس «علم الروح» أو «علم العقل». إذ لم يميز القدامى ما بين «النفس» و«الروح»، بل كانتا، في نظرهم، شيئاً واحداً، ماورائياً، غير ظاهر للعيان. أما اليوم فقد بتنا نفرّق ما بين الروح والنفس، فالروح هي التي تجعل البدن كائناً حيّاً، ولكننا لا نعلم عنها شيئاً، ولا عن ماهيتها، وكيف تعمل وأين تذهب بعد فناء البدن، فهي سرُّ الحياة لا يعلمها إلا الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، بينما النفس هي كل ما يتفاعل في العقل والقلب، ويؤثر على البدن وقيامِهِ بوظائفه.

وقد ظلَّ «علم الروح» أو «علم العقل» متداولاً طوال القرون الوسطى، واستعمله الفلاسفة اللاهوتيون أنفسهم، إلى أن ظهر «علم النفس» ـ كما هو معروف في الوقت الحاضر ـ والذي تعود تسميته إلى أصل يوناني، إذ هي مشتقة من اللفظتين اليونانيتين psychû (روح) وlogos (علم).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

النفس لدى فلاسفة اليونان

اقتبس اليونانيون مفاهيم شتى عن النفس، وذلك من خلال معتقدات الشرق القديمة وأساطيره. ومن تلك المعتقدات نظرية التناسخ التي تقول بانتقال الروح من إنسان لإنسان، وهي هندية المصدر. والعقيدة الزرادشتية التي تقول بأنَّ هنالك نفسين تسيطران على العالم: إحداهما شريرة والأخرى خيرة. ومنها أيضاً النزعة الفرعونية التي كانت تعتقد بفكرة الخلود، من حيث إنَّ الروح تفارق الجسد مؤقتاً، لتعود إليه فيما بعد. من هنا نشأت عند الفراعنة عملية حفظ الأجسام (التحنيط) من أجل أنْ تبقى مستعدة لاستقبال الأرواح التي ترجع إليها بعد الذهاب من هذه الحياة. .

ونجد مثل تلك المعتقدات الغيبية لدى جميع الأمم الساميّة، بل إن جميع القبائل والشعوب، ولا سيما البدائية منها، تظنُّ أنَّ هناك نفوساً شريرة هي التي تحدث الأمراض في الناس. كما أنَّ وجود الشيطان أمرٌ يقيني لدى شعوب الغرب والشرق على السواء. وكثيراً ما قامت معتقدات الشعوب في السابق على أنَّ الشياطين أو الجان هي الأكثر تأثيراً في أفعال الناس، والسيطرة على حياتهم! . .

وقد عرف اليونانيون تلك المعتقدات ولكنهم لم يبقوها في إطارها الخرافي أو الوهمي، بل أنشأوا حولها تصورات عن النفس وفق مذاهب ونظريات متعددة، شملت أيضاً العقل والمنطق. فسقراط مثلاً هو صاحب الشعار المكتوب على مدخل معبد «دلفي»: «اعرف نفسك بنفسك». ولا يزال هذا الشعار يتردد حتى اليوم على ألسنة الناس باعتباره قيمة معنوية هامة لمعرفة الإنسان نفسه. ويعتبر سقراط

من أكثر الفلاسفة القدامى اهتماماً بمعرفة النفس وطبيعتها ومصيرها، ولا سيما في أبحاثه عن العقل وعلاقته بالنفس.

أما أفلاطون فقال بأن النفس هي جوهر الحياة.. وقسم النفس إلى ثلاثة أقسام: النفس، والنفس الشهوانية، والنفس العاقلة. إلاَّ أن هذه الأقسام تشكل في النهاية وحدة لا تتجزَّأ، أي إنَّ النفس واحدة وإنْ تعددت قواها أو اتجاهاتها. وهي جوهر باقٍ، خالد لا يفنى أبداً. لذلك اعتقد أفلاطون بالتقمّص أي بعودة الروح إلى جسد ما. وهذه العودة تُفرض على النفس، بصورة دائمة، كلما فني الجسد الذي كانت فيه من قبل..

وبعد أفلاطون، أنشأ تلميذُهُ أرسطو مذهباً منظماً عن النفس، يقوم على اعتبار النفس جزءاً من علم الطبيعة. إذ إنَّ العقل عنده هو الأصل، وهو مبدأ الحياة في الإنسان. وعن هذا العقل تصدر الظواهر النفسية جميعها.

هذه لمحة سريعة وخاطفة عن معتقدات فلاسفة اليونان في النفس. وسوف يكون نهجنا في البحث على هذا النمط بحيث لا نتوخى إلاَّ الإلمام السريع بمختلف النظريات أو المدارس أو المناهج التي قام عليها علم النفس من قبل ومن بعدُ، لأنَّ غايتنا هي معرفة النفس الإنسانية من مصدرها الحقيقي، من ينبوعها الصافي والأصيل، من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ولذلك لا نجد حاجة في الاقتباس من أي مصدر آخر، أو التوسع في مفاهيم علم النفس إلاَّ بقدر ما يفرض علينا البحث بصورةٍ موجزةٍ.

النفس عند فلاسفة العرب

لقد تأثر فلاسفة العرب بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ بعيد، بل كانت أبحاثهم الفلسفية تستقي من مختلف نظريات الفلاسفة اليونان، فتماشيها أو تزيد عليها، ومن ثَمَّ تتخذ منهجاً خاصاً في محاولة توفيقية ما بين الفكر اليوناني والفكر الإسلامي. ذلك أنَّ ما جاء به القرآن الكريم من آيات تتحدث عن النفس، وما انتهت إليه أحاديث الرسول ﷺ حولها، جعلت أولئك الفلاسفة يكوِّنون مفاهيم جديدة عن النفس وخاصة فيما يعود إلى مصيرها بعد هذه الحياة الدنيا، باعتبارها محل الثواب والعقاب في الآخرة.

وقد بحث معظم فلاسفة العرب في النفس، ولا سيما الفارابي وابن سينا. لكن آراء ابن سينا تبقى ذات الشأن الأهم، نظراً لما أحدثت من تأثير في الفكر الأوروبي، لا سيما إبّان القرون الوسطى. ولذا سوف نكتفي هنا ببعض ما ذهب إليه ابن سينا حول النفس، بصورة مختصرة، للإشارة إلى تبيان أفكار هذا الفيلسوف.

وعلى هذا يمكن القول بأنَّ أول ما قام به ابن سينا هو التدليل أو البرهان على إثبات وجود النفس. وكانت براهينه التالية:

١ ـ البرهان الطبيعي: الذي يدل على أنَّ الحركة في الجسم تأتي من شيء. وهذا الشيء هو النفس.

٢ ـ خصائص الإنسان: التي لا توجد عند الحيوان، كالنطق، والانفعالات من ضحك أو بكاء أو خجل.. وهي خصائص أوجدها الله ـ تعالى ـ في النفس الإنسانية.

٣ ـ برهان الاستمرار: ويعني أنَّ النفس باقية ومستمرة وإنْ في عالم آخر غير الدنيا، بينما البدن في تحلل وانتقاص. ولذا فالنفس مغايرة للبدن.

٤ ـ برهان وحدة النفس : بمعنى أَنَّ وظائف النفس عديدة، مختلفة، وتنتفع من بعضها البعض. ولكن النفس مع ذلك واحدة، جامعة، تنظّم جميع تلك الوظائف وتربط فيما بينها بما يؤلف في النهاية وحدة متماسكة.

٥ ـ برهان الرجل الطائر: ويقوم هذا البرهان على الافتراض التالي: «لو أنَّ الإنسان خلق دفعة واحدة وخلق كاملاً، وهو يهوي في هواء أو خلاء هوياً لا يصدمه فيه قوام الهواء صدماً... وفرّق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تُقَسْ.. لا يثبت هذا الرجل طرفاً من أعضائه، ولا باطناً من أحشائه، ولا قلباً، ولا دماغاً ولا شيئاً من الأشياء من خارج، ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً، بل كان يثبت ذاته. ولو أمكنه في تلك الحالة أن يتخيل يداً أو عضواً آخر، لم يتخيله جزءاً من ذاته ولا شرطاً في ذاته».

ويقول ابن سينا إنَّ النفس جوهر مغاير للجسم، وهي تستطيع أن تكون بدون بدن، ولكنها لا تكون قبله بل توجد معه. من أجل ذلك تبقى ولا تفنى بفناء الجسد. وهي واحدة بالنوع ولكنها كثيرة بالعدد.

والنفس عند ابن سينا ثلاثة أقسام:

١ ـ النفس النباتية وهي «كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى».

٢ ـ النفس الحيوانية وهي محركة (شهوانية وغضبية)، ومدركة. ومنها المفكرة، الوهمية، الحافظة، الذاكرة...

٣ ـ النفس الإنسانية وهي عاملة (العقل العملي) وعاقلة (العقل النظري).

وتتم المعرفة في النفس إمّا بالإدراك الحسي الظاهر، أي عن طريق الحواس الخمس: السمع، البصر، الشم، اللمس والذوق، وإمّا بالإدراك الحسي الباطن، ومركزه الدماغ، أي الإدراك العقلي (العقل ووظيفته).

وقد كان لآراء ابن سينا في النفس تأثير كبير في الغرب، ومنها على سبيل المثال: نظرية الحدس، التي قال بها فيما بعد «برغسون». وبرهان الرجل الطائر وهو قريب من استنتاج ديكارت الذي يقول فيه: «أنا أفكر فإذن أنا موجود». وذلك إلى جانب إيمانه بأنَّ لبعض النفوس تأثيراً في أجسام الآخرين، أي إنها قادرةٌ على تحريك هذه الأجسام.. إلى ما هنالك من النظريات التي ابتكرها ابن سينا، ولا تزال أبحاث علم النفس الحديثة تأخذ بكثير منها.

النفس في فلسفة القرون الوسطى

ظهر في القرون الوسطى بعض الفلاسفة اللاهوتيين، الذين كانت مناقشاتهم، في غالبها، تدور حول طبيعة السيد المسيح ابن مريم عليه السلام من الناحيتين اللاهوتية والناسوتية وما ينبثق من ذلك من مفاهيم روحية، كما برز غيرهم من الفلاسفة الذين كانت لهم اتجاهات متعددة في الأبحاث الفلسفية..

ويرى كثيرون أن الفلسفة الحديثة بدأت مع «ديكارت» صاحب النزعة الميكانيكية والنزعة الذاتية في تفسيره للإنسان، إذْ ميّز ما بين النفس والبدن، وأعطى الأهمية الأولى للعقل، معتبراً أن المعرفة ـ وهي من نتاج العقل ـ إنما تتم بواسطة النفس. أما البدن فيقوم بالحركة الآلية، المتغيرة، المتبدلة. وعلى هذا فإنَّ ما هو في النفس يكون روحانياً، بينما كل ما هو في البدن يكون حركياً، وقد يكون غامضاً. تلك هي الثنائية ـ ما بين النفس والجسد ـ التي أخذ بها ديكارت. وقد ظلت آراؤه سائدة حتى عهد قريب، حين رفضت المدارس النفسية المعاصرة نظريته الثنائية، وراحت تنادي بوحدة الإنسان ككل، غير قابل للتجزئة. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لديكارت تأثير كبير، برز في دعوته للبحث المنهجي الحر، القائم على الشك. وقد مهد الطريق في مجال بحوث النفس أمام غيره من الفلاسفة، ولا سيما «لوك» و«كونديلاَّك» اللذان قالا بالمذهب الترابطي أو مذهب تداعي المعاني، بمعنى أنَّ الفكر هو عبارة عن ترابط معانٍ، وهذا الترابط يحصل بشكل تلقائي. وعلى ذلك فالإدراك يكون عبارة عن مجموعة من الأحاسيس، التي يشكل كل واحد منها جزءاً من هذه المجموعة، فيكون الإدراك، بمختلف أجزائه ـ أحاسيسه ـ هو الذي ينتج العمليات الذهنية العليا، والأفكار المعقدة، مع ما يطرأ عليها من تحولات وما تُقدم من نماذج.

وبعد المذهب الترابطي، نادى «دي بيران» بفلسفة مادية طبيعية، واستعمل في مجال علم النفس، منهج الاستبطان وذلك من خلال تحليلة للـ«أنا» التي تدرك بالجهد الإرادي وحده: «أنا أريد، فإذن أنا موجود». وقد كان للأخلاق والدين مكان بارز في آراء هذا

الفيلسوف، إذ كان يؤمن بأنَّ الدين قادر على أنْ يحل كل مشكلة يمكن أن تطرحها الفلسفة. . .

ثم جاءت فيما بعد الفلسفة المعروفة بـ«الانتقائية» التي تجمع وتؤالف ـ بشكل منهجي ـ بين مختلف الآراء والأفكار والنظريات التي توافقها، مهما كان مصدرها وأياً كان المذهب الفكري الذي تنتمي إليه. وقد حمل أصحاب هذه الفلسفة لواء التعليم والثقافة ونقلوه إلى أوائل القرن العشرين الميلادي الذي حفل بأبحاث متقدمة في مجال علم النفس.

علم النفس كعلم مستقل

عرفنا أن أصل «علم النفس» يعود إلى اللفظتين اليونانيتين: روح وعلم. لكنه في اللغات الأوروبية اتخذ التسمية التي جرى تعريبها بكلمة «السيكولوجيا». والاستعمال النهائي للـ«سيكولوجيا» يعود إلى العالم الألماني (كريستيان وولف wolf) في المؤلفات التي كتبها. وقد ظلت قليلة الاستعمال في القرن الثامن عشر، حتى اعتمدها (كانت) في أبحاثه، فانتشرت وأصبحت سائدة في جميع أبحاث علم النفس. وقد جهد علم النفس ـ إبّان القرن التاسع عشر ـ ليستقلَّ عن الفلسفة، ويكوِّن مناهجه الخاصة به، فراحت المجلات التي تُعنى بـ«علم النفس» تتكاثر تدريجياً في المانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وتزداد معها المؤلفات والدراسات في هذا الحقل حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما أنشيء أول مختبر لـ«علم النفس» في ليبتسغ (عام ١٨٧٩م). وظلت أبحاث علم النفس تزداد بشكل ملحوظ حتى حلّ القرن العشرون، فإذا بـ«علم النفس» قد شقَّ طريقه كسائر العلوم

الأخرى، واستقل عن الفلسفة كعلم خاص له مناهجه وقوانينه ومجالاته الخاصة به وحده. حتى أنَّ أحدهم عبَّر عن ذلك بقوله: «لقد صارت سائر العقول المستقيمة متفقة اليوم - عام ١٩٠٣ - على الإقرار بأنَّ علم النفس هو علم على ذات الدرجة التي هي للفيزياء والفيزيولوجيا».

المنهج الصحيح في معرفة النفس

يجب علينا، قبل توضيح المناهج التي اعتمدت في بحوث علم النفس، أن نحدد المنهج الذي يأخذ، أكثر من غيره، بالمفاهيم الأساسية التي تتعلق بمعرفة نفس الإنسان. ذلك أن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربي الذي يهددها بالوقوع في الاجتهاد الذاتي، والتأويلات الفردية النابعة من الهوى والظن.. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1].

ونبادر فوراً إلى القول بأنَّ من أرادَ معرفة النفس الإنسانية على حقيقتها، عليه أنْ يتتبَّع المفاهيم المتعلقة بهذه المعرفة من خلال النصوص القرآنية، وليس من فكرة الصراع وتكوين الشخصية في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل التي ينادون بها!.. ولا من فكرة «اللاشعور» التي جعل منها اليهود ضربة موجهة لعقل الإنسان وإرادته الواعية. ولا من خلال قَدَريةِ الحَتْمِيّةِ النفسيةِ التي جعلها علم النفس الغربي ميراثاً مفروضاً وقدراً محتوماً لا يستطيع الإنسان منه خلاصاً.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٨.

لقد اتضح أنَّ معظم علماء النفس الغربيين لا يغوصون في أعماق النفس لمعرفة ما تنطوي عليه، وإنَّما يدرسون السلوك النفسي فحسب، ولهذا فإن معارفهم حول حقيقة النفس الإنسانية وأوصافها وخصائصها، هي مجرد دراسةٍ للمظاهر النفسية قامت على التخمينات والاجتهادات الذاتية.. ولذلك يجب أنْ نوقِنَ بأنَّ مجالَ التعرّف إلى النفس الإنسانية لا بدَّ وأن يُستقى من كتاب الله تعالى ومن هدي السنة النبوية الشريفة. إذْ شتان ما بين آفاق الحكمة الإلهية وشطحات الفكر البشري الذاتي. فحين يقول الله عزّ وعلا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[(١)]. ينبري أصحاب المدرسة الشخصية والتحليل النفسيّ، وعلى رأسهم «فرويد» ليعلنوا أنَّ القانون الذي يحكم دنيا الناس ـ في مختلف حالاتهم النفسية ـ هو قانون الغاب الذي يقرر: «إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب».

المصطلحات النفسية

يذهب البعض إلى إنكار أهمية المصطلحات، ويرددون عبارةً اشتهرت كثيراً وهي: لا مشاحة[(٢)] في الاصطلاح. لكنَّ هذا القول مرفوض من جانب المفكرين بشكل قاطع. فالمصطلح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة معينة في الأذهان. فإذا كان المصطلح ـ المتفق عليه ـ ينطوي على خلل معيّن في التصورات انتقل هذا الخلل إلى بقية مفاهيم الموضوع الذي يكون مدار البحث..

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

(٢) معنى المشاحة «لا مشاحة في الأمر»، أي إنه بينٌ ثابت لا مناقشة فيه.

وإننا نأخذ مثالاً لمصطلحين في علم النفس الغربي وما يقابلهما في المفهوم الإسلامي، حتى يتبين لنا الفارق في الاتجاهات لمعرفة النفس:

١ ـ «الكبت» ويقابله في الإسلام «الكظم»

على الرغم من أنَّ النظريات الجديدة في علم النفس لم تعد تعترف بنظرية «اللاشعور» وأغفلت هذا المصطلح تماماً في أبحاثها، إلاَّ أنَّ مصطلح «الكبت» لا يزال يستخدم في كتابات العديد من المفكرين الغربيين والمستغربين، وهو يعني لديهم أنَّ الإنسان مغلوبٌ على أمره، وأنَّ الحتمية النفسية هي قدره المحتوم. علماً بأنَّ الكبت ـ عند الغربيين ـ هو مصطلح نفسي حديث، وهو عمل تلقائي يخفي ما في النفس بصورة لا شعورية، أو لا إرادية، وهو يتعلق دائماً بنوع من الغيظ، أي الغضب الدفين. ولذلك، تقول: كبتَ فلانٌ غيظَه في قلبه، أي لم يُخرجْهُ.

أما «الكظم» في المفهوم الإسلامي فهو القدرة على الإمساك بالهيجان النفسيّ من غضبٍ وثورة وأذى. فعندما نقول: كظم غيظَهُ يعني أنه أمسك نفسه من الغضب. وصاحبه يكون في موقف اختيار، أي حينما يكظم غيظه يختار عادة الأفضل والأصلح، ولذلك يحضُّنا القرآن الكريم على مسارعة المغفرة وكظم الغيظ لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾[1] أي القادرين على إظهاره مع القدرة على ما ينتج منه من فعل. وهذا يعني أنَّ فعل

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣ و١٣٤.

الكظم يكون واقعاً عن وعي الفرد وليس ناشئاً عن الكبت النفسي الذي يقول به علماء الغرب. وأما لفظ الكبت كما جاء في القرآن الكريم فهو مصدر للفعل «كَبَتَ» يقال: كبت الله العدوَّ أي أذلَّهُ وأخزاه. قال تعالى: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] أي كما أُذِلَّ وأُخزيَ الذين من قبلهم وقال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾[2] أي يُذلهم ويُخزيهم.

٢ ـ الحتمية يقابلها في الإسلام مصطلح الفطرة

ظهر مصطلح «الحتمية» بشكل واضح في علوم الميكانيكا، ثم انتقل إلى العلوم الإنسانية كالأخلاق والتاريخ وعلم النفس.

إن مصطلح «الحتمية» يقرر أن السّلوك يخضع، وفقاً لعلم النفس الغربي، للتكوين الطفولي في السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان.

والبديل لمصطلح (الحتمية) هو مصطلح (الفطرة) في المفهوم الإسلامي، وهذا الأخير هو أفضل وأشمل. فالفطرة موجودة في الإنسان كما هي موجودة في الناموس الكوني. يقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[3]، أي الخلقة التي جبل الله عليها تكوين الإنسان، أما بالنسبة إلى الكون فيقول عزَّ من قائل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، أي خالقهما ابتداءً بإبداع من غير احتذاءٍ ولا مثال.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

هذه الفطرة المشار إليها في الآيتين الكريمتين تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية فيما يتعلق بالسلوك البشري. فهي لا تلتزم بقواعدها التعسفية التي تجعل الإنسان مجبراً على سلوكٍ معيَّن، بل هي تفتح باب معرفة النفس، ومن ثمَّ الالتجاء إلى الله تعالى والسير على صراطه المستقيم. فهو ـ سبحانه ـ الذي يملك أن يقلّب النفس، ويغيّر ما فيها حتى تصحَّ مما يعتريها. فمثلاً إذا أرادَ إنسان أن يتوبَ إلى الله تعالى ويسير على صراطه المستقيم، فإنَّه جلَّ جلاله يقبل التوبة عن عباده، ويجعل للنفس بهذه التوبة ميلاداً جديداً يجبُّ ما قبله، وبحيث يرجع الإنسان إلى فطرته ويكون من أهل الاستقامة والصلاح.

وانطلاقاً من هذين المصطلحين نقول للذين يكتبون أو يحاضرون في علم النفس: عليهم أنْ يتحققوا من المفاهيم الإسلامية أولاً ثم يعودوا إلى نمط الفكر الغربي، حتى لا يقعوا في متاهات المصطلحات التي تتنافى مع حقيقة معرفة النفس، وتكون في أكثر الأحيان غير مطابقة لمدلولاتها.

مناهج البحث في علم النفس

إن مناهج البحث في «علم النفس» كثيرة ومتنوعة، لأن هذه المناهج من وضع الإنسان، والإنسان لا يستطيع أن يحيط بمعرفة النفس من جميع جوانبها.

وعلم النفس ليس من العلوم الطبيعية أو العلوم المادية التي تخضع لقوانين معينة وقواعد محددة، بل هو علم يتناول الإنسان في أعماقه، وانعكاس ما يجري في هذه الأعماق على سلوكه الخارجي، ما يجعل من العسير وضع معايير ثابتة تحدد هذا الإنسان، وتضعه في

أطر ودوائر مرسومة، أو ضمن مقاييس تحدد درجة انفعالاته النفسية . . وقد يكون ممكناً مراقبة السلوك الخارجي للإنسان ومعرفة اتجاهات صاحبه، ولكن المعرفة للسلوك الخارجي تكون محدودة ومتغيرة من إنسان لآخر. أما سبر أغوار النفس، والوقوف على أسرارها فمن الصعب جداً ـ إن لم يكن من المستحيل ـ بلوغهما وفقاً للمعايير الفكرية التي يضعها الناس، أياً كانت اختصاصاتهم ومداركهم، ومهما بلغت من العمق أو القوة. . ذلك أن الجوهر النفساني، بنظرنا، هو من الأسرار المتعلقة بخلق الإنسان، وتكوينه من جسد وروح ونفس. فالله تعالى خلق الجسم الإنساني، ثم أمدَّه بالروح ـ بنفخة منه سبحانه ـ ثم جعل النفس، بعد الجسد والروح، لتكون محلاً للاكتساب والمعرفة والإدراك والانفعال. . . وقد تفرَّد سبحانه بخلق الإنسان، وبعلمه وحدَهُ تعالى بما أودعَ في تكوينه من الروح والنفس، فلا يمكن إذاً للعقل البشري أن يحيط بمكنونات هذا الخلق على حقيقته. من هنا نجد تلك التعددية في مذاهب «علم النفس» ومناهجه، وكثرة الآراء والتشعبات في نظرياته، حتى لنرى المدرسة الواحدة تتبع نظريات عدة ومختلفة، بل وربما ـ أحيانا ـ متناقضة فيما بينها، ما يؤكد نظرتنا إلى صعوبة معرفة النفس الإنسانية، من خلال ما هو قائم اليوم من نظريات ومناهج كنظرية الحدس، أو نظرية الاستبطان، أو المدارس الذاتية أو المناهج التجريبية السلوكية. . . بل إن الغرب ـ وذلك منتهى الخطأ ـ يحاول أن يقيس الإنسان على الحيوان، فأنشأ علماً خاصاً سماه «علم نفس الحيوان»، إلى جانب علم النفس البيولوجي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس التربوي. . . إلخ. . .

ونظراً لتلك التعددية ـ التي لا تقع تحت حصر ـ ليس من الحكمة في بحثنا هذا التعرض لمدارس «علم النفس» وتسمياتها وتعدادها ومناهجها وطرقها وأساليبها في العمل. . بل سنكتفي بجولة فكرية عامة، مختصرة إلى أقصى حد، تبين منطلقات أو ركائز «علم النفس» في المعرفة، والمناهج الكبرى أو الاتجاهات الرئيسة التي اعتمدها هذا العلم للوصول إلى الغايات التي يهدف إليها. . ولعلَّ في هذا الاختصار ما هو أجدى نفعاً ليكون المجال مفتوحاً أكثر لمعرفة النفس وفقاً للمفاهيم الإسلامية.

ويمكن القول بأن علم النفس ـ كعلم موضوعي مثل سائر العلوم الأخرى كما يذهب إليه العاملون فيه والداعون إليه ـ قد اتخذ، منذ بداية القرن العشرين، عدة وجوه لاهتماماته، كان أبرزها الاتجاهات الذاتية والموضوعية، والاتجاهات التجريبية، والاتجاهات العيادية، حتى ظهر أخيراً الاتجاه القائل بالتوفيق أو التوحيد ما بين المنهجين الأسَاسِيَّيْنِ: التجريبي والعيادي.

الاتجاهات الذاتية والموضوعية

اتخذت هذه الاتجاهات وجهين رئيسيين:

الأول: يقوم على دراسة الظواهر النفسية، لاستخراج نماذج عامة (كما يفعل علماء النبات والحيوان الذين يقسمون النباتات والحيوانات إلى أجناس وأنواع محددة لدراسة كل نوع أو جنس على حدة)، أي إنَّه يتم تجميع الظواهر النفسية المتشابهة، وتصنيفها في زمرٍ أو مجموعات، تكون لكل مجموعة منها مواصفات محددة ومتجانسة ومتقاربة قدر الإمكان. . ومن هذه المجموعات يتمّ تأليف

نماذج نفسية، وأنواع خلقية، وطبائع وسجايا كلية. على أن ذلك يقتضي البحث عن منشأ الطبائع والسجايا، وعن العوامل التي تؤثر في تكوينها. وهذا ما يعرف بـ«علم الأثولوجيا» أو علم الأخلاق والعادات، كما ذهب إليه «ستيوارت ميل».

الثاني: وهو لا يكتفي بتأليف النماذج النفسية العامة، أو الأنواع الخلقية، أو الطبائع والسجايا العامة التي توجد في النفس الإنسانية، بل يحاول كشف القوانين العامة التي تخضع لها تلك الظواهر النفسية. أي إنه يحاول أن يضع قوانين نفسية كما يفعل علم الحياة (الفيزيولوجيا) الخاص بالحيوان والنبات وذلك من خلال بحثه في وظائف الحياة العامة.

وعلى هذا فإن «علم النفس»، وهو يشمل جميع الطبائع، والأنواع الخلقية العامة، يعمل على البحث في الوظائف النفسية، والتفاعلات الذهنية، توخياً لكشف قوانينها العامة.. وبذلك تكون غاية «علم النفس» الوصول إلى معرفة العلاقات الثابتة التي تربط مختلف التفاعلات النفسية ببعضها، وذلك عن طريق القوانين التي توضع لها، ما دامت الظواهر النفسية ـ بحسب هذا الاتجاه ـ تخضع لقوانين خاصة بها، تماماً كما تخضع الظواهر الطبيعية للقوانين العائدة لها.

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن «علم الأخلاق والعادات» ذاته إنما يحتاج إلى هذه السيكولوجيا القائمة على دراسة الظواهر النفسية وقوانينها، لأن تحديد الأنواع النفسية لا يمكن أن يحصل إلا إذا عرفت قوانين الظواهر النفسية. ويدللون على ذلك بأن علم

البيولوجيا لم يتوصل إلى تصنيف الموجودات الحيَّة، بصورة طبيعية ومعقولة، إلا بعد أن تقدم أشواطاً بعيدة في معرفة ماهية الحياة، ووظائف الأعضاء.

النظرية الذاتية

إلاَّ أنَّ الاتجاه القائم على مقارنة «علم النفس» بسائر العلوم الأخرى ـ كالفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها ـ دحضه الفلاسفة المعروفون بفلاسفة التجربة، الذين أمكنهم فصل هذا العلم عن الروحانيات وعوالم ما بعد الطبيعة، وذلك عندما قرروا تأسيس «علم النفس» على الملاحظة، وعلى الاستقصاء الذاتي في البحث، بحيث يرجع العالِمُ ـ وفق الطريقة الذاتية ـ إلى نفسه، فيصف ما يجري فيها من أحوال داخلية، ويصوغ على أساس تلك الملاحظة، وفي ضوء التقصّي الذاتي، نظريته في علم النفس.. أي ما أمكنه الوصول إليه من أفكار وفق تجاربه الذاتية..

وقد اعتمدت الطريقة الذاتية على التحليل النفسي، وذلك بإرجاع الحياة النفسية إلى عناصرها الأولى.. ومن أشهر القائلين بالنظرية الذاتية «جيمس ميل» و«ستيوارت ميل».

النظرية الموضوعية

ومقابل النظرية الذاتية وجدت النظرية الموضوعية، وعلماء التاريخ الطبيعي هم أصحاب هذه النظرية. ذلك أنه من خلال دراستهم للحيوان، قاموا بوصف طبائع الحيوانات وغرائزها، ثم قابلوها بعادات الإنسان وسلوكه، ليصلوا بالتالي إلى تأسيس ما عرف بـ«السيكولوجيا المقارنة».

أهم طرق علم النفس

وإلى جانب البحث النظري الصرف، ابتدع علماء النفس طرائق عديدة لتوضيح نظرياتهم أو تركيزها على أسس جديدة. وأبرز تلك الطرق كانت: طريقة التنويم المغناطيسي، وطريقة التحليل النفسي. وهذه الطريقة الأخيرة أوجدها الطبيب النمساوي «سيغموند فرويد». وقد توخّى من خلالها، وعن طريق التحليل النفسي، النفاذ إلى أعماق اللاشعور. أي إلى باطن النفس حيث لا يستطيع الإنسان، في أحواله العادية، أن يدرك ما يختزنه هذا الباطن في أعماقه، إلاَّ أنْ يُستخرج منه بدون وعي، وبصورة لاشعورية. وكان تركيز «فرويد» منصبّاً على تشخيص الأمراض العقلية، وتحليل الأحلام، ودراسة التصرفات الخاطئة والأفعال اللاإرادية.. وجميعها تعتبر أحوالاً نفسية خفية من شأنها أن تؤدي إلى إحداث الاضطرابات النفسية.

وعلى الرغم من الشهرة التي لقيتها الطريقة الفرويدية في مجالات علم النفس، ومثلها طريقة التنويم المغناطيسي، إلاَّ أن الأبحاث والتجارب قد أثبتت فيما بعد، عدم قدرة كل من هاتين الطريقتين على معرفة حقيقة الأحوال النفسية ، ولا سيما بعدما ثبت بالبرهان عدم نجاحهما في التطبيق العملي، حيث تبين أنَّ التنويم المغناطيسي ـ مثلاً ـ لا يؤثر في جميع الأشخاص على حد سواء، لا بل هنالك أشخاص لا يمكن تنويمهم مغناطيسياً أبداً، كما أثبت ذلك «فرويد» نفسه. وقد اتبَّعَهُ فرويد لفترة من الزمن ثم تخلى عنه لعدم جدواه، كي يعتمد طريقة «التداعي الحر» وهي الطريقة التي يستلقي فيها المريض على أريكة، ويتولى الباحث أو الطبيب النفساني تشجيعه على التعبير عن كل ما يدور في ذهنه، كما يطلب إليه أن يتحدث عن

أحلامه، وفي أثناء ذلك يدوّن الملاحظات والبيانات التي يعود إلى تحليلها في البحث عن الرغبات والمخاوف والأفكار والذكريات التي تكمن في داخل المريض بعيداً عن شعوره ووعيه بها. . وهذا جلُّ ما ذهب إليه «فرويد» أخيراً.

وحتى طريقة التحليل النفسي تلك التي اتبعها «فرويد» لا تؤدي إلى النتائج المرجوة في معالجة النفس البشرية، ما دام هنالك ابتعاد عن حقيقة هذه النفس، وعدم معرفتها عن طريق المصدر الوحيد الذي أوجدها، وهو الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا ما يجعل جميع أبحاث «فرويد» القائمة على «اللاشعور» واهية من أساسها؛ ولا سيما أنَّ الشعور ـ في الحقيقة ـ هو أول مرتبة في وصول النفس إلى إدراك المعنى، بحيث يترادف هذا الشعور مع الإحساس، أي مع الإدراك بالحس الظاهر. والشعور في علم النفس، هو الحدس النفسي الذي نطّلع به على حالاتنا الداخلية. وبذلك يتبين أن وجود حالات نفسية لاشعورية محال، بل إن اللاشعور يتناقض مع الشعور، لأن وجود أحدهما يلغي الآخر.

قد يكون ـ من الناحية الافتراضية ـ للحياة اللاشعورية معنى من الوجهة الفيزيولوجية، إذ لا يمنع وجود شيء فيزيولوجي لاشعوري كما لو افترضنا أنَّ الشعرةَ في الرأس، أو الظفر في الأصبع ليس لهما شعور؛ أما من الوجهة النفسية فلا يعقل ـ إطلاقاً ـ وجود اللاشعور، لأنك لا تستطيع أن تتصور نفساً لا تشعر، أو عقلاً لا يعقل.

وإذا سلّمنا بنظرية «اللاشعور» وخلّوها من التناقض لم نسلَم من الاعتراض. فقد يقال لنا: كيف يمكن إدراك اللاشعور ومعرفته؟ فإما

أن يكون اللاشعور نفسياً، وإما أن يكون غير نفسي. وهذا الأخير لا دخل له في بحثنا. فأما إذا كان نفسياً فإنه لا يدرك بالملاحظة الخارجية أو بالملاحظة الداخلية لأن آلة هذا الإدراك هي الشعور. وإذاً فإن وجود الحالات اللاشعورية وعدم وجودها سِيّان.

هذا وقد عمدت بعض الاتجاهات إلى التفريق بين علم الأمراض النفسية، وعلم الأمراض العقلية، معتبرةً أنَّ النوع الثاني هو أحد فروع علم الطب البيولوجي الذي يهتم بمعرفة الأمراض التي تصيب الدماغ ـ أي مركز التعقّل ـ وأسباب وجودها، وتطورها، وبيان طرق معالجتها، في حين أن علم الأمراض النفسية علم نظري مجرد، يحلل الحوادث المرضية ويبحث في علاقات الاضطرابات النفسية، ليضع لها ـ حسب زعمهم ـ طرائق العلاج الخاصة، كتلك التي تطبق في حقل الحالات المرضية.

بل ذهبت بعض الأبحاث في علم النفس إلى القول بوجود سيكولوجيا شعبية عفوية، يعتمد عليها الناسُ في حياتهم وعلاقاتهم. وهذه السيكولوجيا الشعبية هي مزيج من التجربة والملاحظة والاستنتاج، يستعملها رجل السياسة، كما يستعملها رجل الإدارة، أو التاجر أو القائد العسكري، الذين يكمن نجاحهم في مدى معرفتهم بأحوال مَنْ يتعاطون معهم، وفي إدراكهم لحالاتهم النفسية.

ويقال أيضاً ـ في هذا المجال ـ إن الحياة نفسها تقتضي أن يكون لدى كل إنسان إلمام بشيء من هذه السيكولوجيا الشعبية. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك، معتبرين أنه ربما كانت هذه السيكولوجيا هي وراء نجاح أولئك القادة، من السياسيين والعسكريين، الذين كانوا

يستفيدون من الظروف، ويسخِّرونها لمصالحهم، لأنهم كانوا يعرفون «من أين تؤكل الكتف»، فيخاطبون جماهيرهم بما يثير في نفوسها الحماسة، ويدفعها للانقياد إلى رغباتهم، وإطاعة أوامرهم. . .

وبالإضافة إلى تلك النظريات والطرق التي اتبعت في علم النفس، وجدت أيضاً المناهج، ولعل أكثرها انتشاراً المنهجان: التجريبي والعيادي.

المنهج التجريبي

ويقوم على مراحل ثلاث: الملاحظة، وضع الفرضية، إجراء التجربة. وهذا المنهج استقرائي، أي إنه ينطلق من الحوادث ليبحث عن الأسباب، وينشىء من ثمة القوانين. . وقد يطرح فكرة فرضية ثم لا يلبث أن يعود إلى الحوادث لمراقبة تلك الفكرة والتحقق منها.

ويعتمد المنهج التجريبي في مجالات دراسته على التعلم والإدراك، حيث يجري تحديد الظروف بدقة متناهية، لإجراء التجربة موضوع البحث أو الدراسة. وهو منهج ـ كما يدل عليه اسمه ـ يُخضع الإنسان للمراقبة والتجربة. غير أنَّ المشكلة تكمن في هذا الإنسان ـ الذي هو موضوع البحث ـ هل يتقبل الظروف التي يوضع بها لإجراء التجربة عليه بذات التفاعلات النفسية التي كان عليها قبل إدخاله تحت ظل هذه الظروف؟ وما مدى تجاوبه مع الباحث؟ وهل يقبل بأنْ يفشي له جميع أسراره؟ أو أنْ يطلعه على المشاعر التي تُعشّش في أعماقه، ويكون غيرَ راغبٍ في إظهارها؟ فما مدى نفع التجربة ـ في أيٍّ من تلك الأحوال ـ وما القوانين التي يمكن أن يصوغها هذا المنهج التجريبي في معرفة النفس البشرية؟ فالإنسان ليس مادةً مختبرية مثل

ورقة الشجرة أو مثل الحجر الصلب، أو قضيب الحديد، التي يمكن تحليلها ومعرفة عناصرها التي تتكون منها. . . إنه بشر من لحم ودم، وكتلة من العواطف والانفعالات والإرادة والعقل، ومختلف العناصر أو العوامل المعنوية التي تكوّن شخصيته التي يتميز بها عن الآخرين. . فكيف نجعله مادة للاختبار والتجربة، ونطبق عليه قوانين المختبرات والتجارب والتحاليل؟!

المنهج العيادي

يقوم هذا المنهج على مراقبة سلوك الشخص، وما يصدر عنه من أقوال وأفعال، عندما يكون مستلقياً على سرير في عيادة، والطبيب النفساني أو الباحث بقربه يحاول أن يؤانسه، وأن يدفعه إلى التعبير عما يجول في داخله، وفي الوقت ذاته يسجل كل كلمة أو حركة يقوم بها هذا الشخص. . وقد تطول الجلسات العيادية ويطول تدوين الملاحظات، ليعود الطبيب أو المعالج من بعدها لمطابقة نتائج اختباراته هذه على القوانين العامة الموضوعة. وهناك مقاييس ودرجات، يعمد بواسطتها إلى قياس هذا الشخص وتحديد ما يريد لديه: إن لناحية درجة ذكائه، أو مدى تخلفه العقلي، أو قوة الاضطرابات النفسية عنده إلخ. . .

ويطبق المنهج العيادي على المرضى من الناس وغير المرضى. . وهو يبحث في الحالات الفردية فقط، كحالة إنسان بالغ لمعرفة الاضطرابات التي تسيطر عليه، أو كحالة الطفل الذي يبدو أنه يعاني مشكلة معينة. . ممّا يتبيّن معه أنَّ الطريقة التي يتبعها المنهج العيادي تتأثر بدرجة كبيرة بما هو معروف بالتحليل النفسي الذي اعتمده «فرويد» وغيره.

ومن المقارنة بين المنهجين التجريبي والعيادي، يمكن استخلاص ما يلي: إن المنهج التجريبي «يستخدم الكمية، ويستعمل الملاحظات والآلات والمقاييس والاختبارات».. أما المنهج العيادي (أو الإكلينيكي) فيقوم على العلاقة الحميمة بين الباحث والمريض، وعلى تعميق دراسة حالة فردية يؤخذ فيها الفرد على أنه وحدة متكاملة بحدّ ذاته، ما يجعل المنهج التجريبي يتمتع بصفات أعمَّ وأوسع وأشمل، تجعله أقرب للموضوعية من المنهج العيادي الذي هو أقرب إلى الفردي والخاص، لأنه يهتم بدراسة فرد معين، ويتعمق بدراسة الأحوال النفسية عند هذا الفرد.

ولا مجال للمفاضلة بين المنهجين، لأنَّ كلاً منهما يذهب في مجال خاص به يختلف عن مجال المنهج الآخر، وإنْ كان كل منهما يستفيد من النتائج التي يتوصل إليها الآخر، أما من حيث القيمة العلمية، وفي مجال المعرفة، فيذهب كثيرون إلى اعتبار المنهج العيادي أرفع مستوىً من المنهج التجريبي.

المنهج التوفيقي أو نظرية «لاغاش»

يعتبر «لاغاش» أنَّ تعدد مدارس علم النفس، أكان من حيث الموضوع، أم المنهج، أم القواعد التي تضعها كل مدرسة، إنما هو تعدد في الظاهر فقط، لأنَّ جميع السيكولوجيات تستقي من مصدر واحد هو النفس البشرية. ولذلك رأى «لاغاش» أن من الضروري توحيد [علوم النفس]، وإنْ كان يغلب عليها اتجاهان رئيسيان هما: الاتجاه الطبيعي والاتجاه الإنساني.

فأما الاتجاه الطبيعي فيتمثل بالمدرسة السلوكية، التي تهتم

«بدراسة السلوك بكل مباحثه الخارجية والداخلية، أي دراسة ردود الفعل التي هي مادية». وتكون غاية هذا المنهج في النهاية صياغة قوانين مشابهة لقوانين الطبيعة، وإقامة علاقات تهدف إلى شرح الظواهر، أي إعادتها إلى المكوّنات والعناصر والأسباب الابتدائية الأولى.

وأما الاتجاه الإنساني فهو عكس الاتجاه الطبيعي، يأخذ الأحداث النفسية على أنها حالات وعي، أو تجارب معيشة أو تعبيرات... فيكون بالتالي موضوع علم النفس غير مرتكز على السلوك الملاحظ، بل على السلوك المعيش، أو الوجود المعيش...

ويعتبر «لاغاش» أنَّ كل مدرسة من مدارس علم النفس تأخذ بالاتجاهين معاً لتداخلهما مع بعضهما، ولا تتفرَّد باعتماد اتجاه واحد فقط، ومن هنا دعوته إلى توحيد الاتجاهين. وهذا ما يؤدي ـ بنظره ـ إلى وجود «علم نفس واحد» لا علوم نفس متعددة.. وإذا ما وجدت متفرعات لعلم النفس الواحد، فهي جميعها تأخذ من بعضها، وتتداخل بشكل قوي لتعود وتصبّ كلها في الاتجاهين: الطبيعي والإنساني. وكل من هذين الاتجاهين يتمتع بمحتوى متحرك غير جامد، ويتطابق في العمل مع الطريقة التجريبية والطريقة العيادية. وذلك كله يُظهر أن هاتين الطريقتين لا تستغني إحداهما عن الأخرى، بل إنهما تتكاملان، لأنَّ الغرض في النهاية هو دراسة التصرف الإنساني بكليته، أي دراسة الإنسان ككل واحد لا يتجزأ.

وقد يكون «لاغاش» ذهب بعيداً في نزعته التوفيقية هذه، لأنَّ الأسس التي يقوم عليها المنهج التجريبي ليست هي ذاتها الأسس التي

يقوم عليها المنهج العيادي. بل إن الفصل بين المنهجين في الأساليب والطرق هو أبعد بكثير مما ذهب إليه «لاغاش». ثم إنَّ واقع علوم النفس تثبت، كما قلنا، اختلاف المدارس وتعدد المناهج وتنوع الطرق، فلا يمكن بالتالي اعتماد ذلك التوحيد مع وجود الاختلافات والتناقضات فيها.

تلك لمحات وجيزة عما ذهبت إليه [علوم النفس] بنظريّاتها ومذاهبها المتعددة، وقد أوجدها الغرب بحسب نظرته إلى الحياة والإنسان، وما تفرع عنها من معارف وعلوم.

نظرة في علوم النفس والاجتماع والتربية

أما نحن فإننا نرى عكس ما يراه الغرب، في محاولاته و«علومه» لمعرفة النفس الإنسانية. فعندما نأخذ بتعاليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة كحقائق مطلقة ـ في كل شيء ـ تتكون لدينا معرفة تختلف عن معرفة الغرب حول طرائق التفكير والتصور.. إنَّ الغرب وأتباعه في مناهجهم الفكرية، يحاولون فهم سلوك الإنسان وفقاً لقوانين ومقاييس اصطناعية، وبحسب اختبارات وتجارب معملية مادية صِرفة.. بل كثيراً ما يقيسون السلوك الإنساني على ردود فعل الحيوان بعد إجراء التجارب عليه، ولا سيما الحيوان الضعيف كالفأر والأرنب. وكل ذلك لصياغة تلك النظريات المترجرجة، والتصورات الخاطئة التي لا تلامس حقيقة خلق الإنسان من جسد وروح ونفس، والتي هي أبعد ما تكون عن معرفة النفس الإنسانية على حقيقتها، حتى صار يظهر لدى الناس ـ من جراء تلك النظريات والتصورات ـ تشابكٌ بين الأفكار المستمدَّة من الطريقةِ العقليةِ، والأفكارِ المستمدّةِ منَ

الطريقةِ العلميةِ التجريبية. ونظراً لهذا التشابكِ فإنهم يعتبرونَ أبحاثهم ودراساتهم حول النفس أو الاجتماع أو التربيةِ علوماً، ويعتبرونَ أفكارَها علميةً، لأنها قامَتْ على ملاحظات جرَى تتبّعها على الأطفالِ في ظروف مختلفة، أو على أعمال مختلفة لأشخاصٍ مختلفينَ في ظروفٍ مختلفةٍ، فسمّوا تكرارَ هذه الملاحظات تجاربَ. والحقيقةُ أنّ كل ما أوجدوه من أفكار حول ما يسمونه علومِ النفسِ أو الاجتماعِ أو التربيةِ، لَيْسَتْ أفكاراً علمية، لأنّ التجاربَ العلميةَ تقوم على إخضاع المادّةِ لظروفٍ وعواملَ غير ظروفها وعوامِلِها الأصليةِ، وملاحظة أثر هذا الإِخضاع وتتبّع نتائجه، كما يحصل في تجارب الفيزياء أو الكيمياء أو غيرها من التجارب، على شتى أشياء الطبيعة وموجوداتها. . .

هذا في حين أن ملاحظةَ الإنسان في أوقات وأحوال مختلفة، كملاحظة الطفل مثلاً في أحوال وأعمار مختلفة، وملاحظةِ الجماعات في بلدان وظروف مختلفة، لا يمكن أن تدخلَ في بحث التجارب العلميةِ، ولا تُعتبرُ طريقةً علميةً، بل تُعتبرُ ملاحظة وتكرارَ ملاحظةٍ واستنتاج فحسب، ولذلك فهي طريقة عقلية. وعلى هذا فإنّ أفكار ما يسمى «علم النفس» أو «علم الاجتماع» أو «علوم التربية»، تعتبر أفكاراً عقلية، وتتخذ المفهوم الثقافي أكثر بكثير مما تتخذ المفهوم العلمي.

كما أنّ علومَ النفسِ والاجتماعِ والتربيةِ ـ وفقاً للمفاهيم السائدة ـ تعتبر من الأمور الظنية القابلة للخطأ، وليستْ منَ الأمورِ القطعيّةِ، لذلك لا يصحّ أن تُتخذَ أساساً للحُكْمِ على الأشياءِ، ولا يجوزُ أن يُسْتَدَلّ بها على صحةِ الأشياءِ، أو عدمِ صحّتِهَا، لأنها ليستْ من قبيلِ

الحقائقِ العلميةِ، أو القوانين العلمية، بَل هي معارف ظنيّة. وهي وإنْ تَمَّ التوصل إليها بالطريقةِ العقليةِ، إلا أنها ليستْ من قبيلِ الحكمِ بوجودِ الشيء، بلْ من قبيلِ الحكمِ على حقيقةِ الشيءِ أو عدمه وهذا الحكمُ ظنيّ قطعاً، فيهِ قابليةُ الخطأ.

يضاف إلى ذلك أن هذه المعارفَ الثلاثَ المعروفة بعلوم: النفس والاجتماع والتربية، إنما هي مبنيّة على أُسس مغلوطة، ما يجعل كثيراً من الأفكارِ التي تحتويها أفكاراً مغلوطةً. فلو أخذنا مثلاً علمَ النفسِ لوجدناه مبنياً في مجمله على نظرتِه إلى الغرائز والدماغ، لأنه يعتبر أنّ في الإنسان غرائزَ كثيرة، منها ما اكتُشِفَ ومنها ما لم يُكتشفْ. ولقد بنى علماءُ النفسِ على هذه النظرةِ للغرائزِ نظرياتٍ خاطئةً، فكان ذلكَ من الأسبابِ التي أدّتْ إلى الخطأ في كثيرٍ من الأفكارِ الموجودةِ في علم النفسِ. أمّا الدّماغُ، فعِلْمُ النفسِ يعتبرُهُ مُقَسّماً إلى مناطقَ، وكلّ منطقة لها قابليةٌ خاصّةٌ، وفي بعضِ الأدمغةِ قابلياتٌ ليستْ موجودةً في أدمغة أُخرى، وبناء على ذلكَ فإنّ بعضَ الناسِ فيهم قابليةٌ لفَهْم اللغات، وليس فيهم قابليةٌ لفَهْم الرياضيات، وبالعكس. وهكذا بُنَيتْ هذه النظرةُ الخاطئةُ على نظرّيات خاطئة.

والحقيقةُ في هذا كلّه: أنّ المُشاهدة بالحسّ من تتبع الفعل، وردّ الفعلِ، تثبت أنّ في الإنسانِ طاقةً حيويّةٍ ذات مظهرين:

المظهر الأول: يتمثل في الحاجات العضوية كالجوعِ والعطشِ والتنفّس والنعاس وقضاءِ الحاجةِ وما إلى ذلك. . .

المظهر الثاني: يتمثّلُ في الغرائز الثلاثِ: غريزة التدينِ، وغريزة النوعِ، وغريزةِ حبِّ البقاءِ. وهذهِ الغرائزُ تتمثل كل واحدة منها بشعور

معين، كالتديّن الذي يُشعر الإنسان بعجزه أمام خالقه، والشعور ببقاء النوع للحفاظ على الجنس البشري، والشعور بالحفاظ على الحياة حتى لا يعرِّض الإنسان نفسه للمخاطر، ولا يوجدُ غرائز أخرى غير تلك الغرائز الثلاث. وأمَّا ما يسمونه غرائز غيرَها فهي مظاهر للغرائز الثلاث مهما تعددت وتنوعت هذه المظاهر..

أمّا من ناحيةِ الدماغِ فالحقيقة أنّهُ واحدٌ، وأنَّ تفاوتَ الأفكار واختلافَها ناجمٌ عن تفاوُتِ المحسوساتِ والمعلوماتِ السابقةِ، وقوّةِ الربطِ لدى كل فرد وحده. ولا توجَدُ في دماغٍ قابليةٌ لا توجدُ في دماغ آخر، بل توجد في جميع الأدمغة قابلية التفكير في كلّ شيء. والأدمغةُ تتفاوتُ في قوةِ الرّبطِ وفي قوّةِ الإحسَاسِ، كما تتفاوتُ الحواس الخمسُ قوّةً وضعفاً. لذلكَ يمكنُ إعطاءُ كلِّ فرْدٍ المعلومات، وتكون لديه القابليةُ لهضمِها إذا أُعطيها بالطريقة التي تتوافق مع قوة الربط لديه، ما يعني أنه لا أساسَ لما جاءَ في علمِ النَّفسِ حول القابلياتِ في الأدمغة.

علم الاجتماع

أمّا علمُ الاجتماع فقد بُني على نظرتِه للفردِ والمجتمع، من حيث وجود فطرة في الإنسان تنتقلُ من الفردِ إلى الأسرةِ، وإلى الجماعةِ، وإلى المجتمع، وعلى اعتبار أَنَّ المجتمعَ إنّما يتكوّن من أفرادٍ، لذلك كانت المجتمعاتِ منفصلةً، وما يصلحُ لمجتمعٍ لا يصلحُ لآخر.. وبنى علماءُ الاجتماع على هذه النظرةِ نظريّاتٍ متعددة، نشأت عن الأفكار الخاطئة التي قام عليها علم الاجتماعِ.

وأمّا ما جاءَ في علمِ الاجتماعِ عنِ الجماعةِ من أنها أسرعُ إدراكاً

للأمور وأقوى إثارةً للمشاعرِ منَ الفردِ، فصحّةُ هذا القولِ لم تأتِ من ناحيةِ النظرةِ إلى المجتمعِ، بل أَتَتْ منْ ناحية غلبةِ المعلوماتِ الكثيرةِ المتكرّرةِ على المعلوماتِ الفرديةِ.

وعلى هذا فإنّ علمَ الاجتماعِ يمكن اعتباره فاسداً، لأنّهُ مبنيّ على نظرةٍ فاسدةٍ، وما صحَّ من نظرياته أتت صحته من كونه ناتجاً من سببٍ آخر..

علوم التربية

وكذلك الأمر بالنسبة إلى علوم التربية،فإنها بُنيت على «علم النفسِ» الذي قام على ملاحظة أحوال الأطفال وتحليلها وعلى تأثرها بنظريات «علمِ الاجتماعِ»، ما جعلَ الصحيحَ فيها يختلطُ بالفاسد، لأنَّ ما بنيَ على علمِ النفسِ، وتأثّر بعلم الاجتماعِ كان فاسداً في الأصل، وفسادُهُ أدى إلى انتشار الأفكار التربوية الفاسدة، ما جعل مناهج التعليم وطرقه غير صالحة في مجملها. فاعتبار طفلٍ لديه قابلية لبعض العلوم وليس عنده قابلية لغيرها هو خطأ بعينه، لذلكَ كانَ تقسيمُ التعليمِ إلى فروع علمية، وأخرى تقنية، وأدبية يُعدّ تقسيماً خاطئاً، ما أدّى إلى حرمانِ الكثيرينَ منْ تعلّمِ بعضِ العلومِ، أو حرمانِ غيرهم حتى من مواصلةِ التعليمِ.

أمّا علوم التربية المبنيّة على ملاحظةِ أحوال الأطفالِ، وأعمالِ الأفرادِ في ظروفٍ مختلفةٍ، فإنَّ ما كانَ موافقاً للواقع، كالتعب والراحة والنشاط الذهني وما شاكل ذلك، يُعتبر صحيحاً في جملته. وما كان غير موافق للواقع كتقسيم السنة إلى ثلاثة فصولٍ وإعطاء ثلاثة أشهرٍ عطلةً للتلميذ وما شاكل ذلك، فإنَّهُ خطأ في جملتِهِ.

ومنْ هنا جاءَ خطأ النظرياتِ التربويةِ وفسادُ علومِ التربيةِ في جملتها، ولا سيما ما بُنِيَ على علمِ النفسِ التقليدي وتأثّرَ بعلمِ الاجتماعِ الظنّي.

وفي الموضوع الذي نعالجه في هذا الكتاب، أي موضوع «معرفة النفس» لدى الإنسان، لا نجد حاجةً للبحث في تفصيل تكوين الإنسان العضوي. ذلك أن تكوين هذا الإنسان العظيم في خلقه، والمعقد في تركيبه، لم يُكتشف بعدُ من خاصياته إلاّ القليل القليل، وبقي ما لم يكتشف منها ـ وهو الكثير ـ سرّاً مغلقاً لم تصل إليه العلوم العصرية حتى اليوم.

ولنأخذ مثلاً واحداً عن جزء من تكوين الإنسان العضوي: الدّماغ. فلو سألنا معظم المتخصصين في جراحة الدماغ: هل المعلومات التي تعرفونها عن الدماغ كافية ووافية؟ وهل استطاع التشريح الذي قمتم به أن يكتشف جميع خلايا الدماغ ووظائف كل خلية، وارتباطها بخلايا الأعضاء الأخرى في الجسد؟ وهل توصلتم إلى معرفة كيفية تكوين كل خلية في الدماغ على حدة، أو السبب الذي جعل الخلايا ترتبط بالذاكرة، أو المشاعر، أو الحواس؟ إلى ما هنالك من الأسئلة التي لو أجابوا عنها لقالوا إننا لا نملك إلاّ القليل من المعلومات حول هذا الجزء العضوي، وهي معلومات لا تزال محدودة بالنسبة إلى طاقاته...

هذا بالنسبة إلى قدرة الإنسان على الإحاطة بكنه مادّةٍ خاضعة للتشريح والاختبار والتجربة بين يديه، التي هي الدماغ.. وهي قدرة محدودة قاصرة. فكيف به بالنسبة إلى قدرته على الإحاطة بحقيقة

نفس الإنسان، وبما يعتمل في داخلها، والنفس ليست مادةً ماثلةً بين يديه أو واقعةً تحت حواسّه وخاضعة للتشريح؟!

تبارك الله الذي أحاط بكل شيء عِلْماً!

أما السبب الرئيسي الذي أوقع تلك العلوم بما وقعت فيه من أخطاء فهو كونها تعيش في ظل مناخات فكرية، وظروف وأوضاع حياتية لم تكن صالحة لحياة الناس في الأصل، ما أدى إلى فشل التطبيق العملي للنظريات والمبادئ التي كانت وراءها، فكيف ذلك؟

فشل النظامين الرأسمالي والاشتراكي

كنّا قد قلنا من قبل، أي في الطبعة الأولى من هذا الكتاب: إنَّ كل الدلائل والتحاليل الموضوعية والواقعية تشير إلى فشل النظامين الاشتراكي والرأسمالي.. فالاتحاد السوفياتي الذي حمل لواء النظام الاشتراكي الشيوعي منذ عام ١٩١٧ لم يعد قادراً على إقناع الشعوب التي تدور في فلكه بأنْ تبقى على ما هي عليه من شظف العيش والتقشف، والحرمان من البحبوحة والرفاهية التي وعد بها النظام الاشتراكي من دون أن يفي بوعده. والدليل على ذلك ما حدث أواخر القرن العشرين من تغيّر جذريّ معادٍ للشيوعية، في أنظمة ألمانيا الشرقية، ورومانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وقبلهما ـ بقليل ـ ما حدث في الصين وبولندا والمجر. كما أن رياح التغيير اجتاحت بعد ذلك جمهوريات روسيّا السوفياتية، في انقلاب جذري على الشيوعية التي تهاوت من الداخل، على الرغم من ادعاءات المنظِّرين والمدافعين عن النظام الذي ساد بضعة عقودٍ من الزمان.

هذا الكلام الذي سقناه عام ١٩٩١، لم تتأخر الأحداث في

إثبات صحته، عندما انفرط عقد «الاتحاد السوفياتي» وعادت الدول التي كانت تنضوي تحت لوائه إلى استقلاليتها.

وليست الرأسمالية بنظام أفضل لبني البشر، فها هي تحكم على نفسها بنفسها أيضاً، من خلال البلد الذي يتزعّم محورها كله، ونعني به الولايات المتحدة الأميركية... فالشعب الأميركي الذي يمثل اثنين بالمئة (٢٪) من سكان العالم، يستهلك، كما تقول الدراسات المعنية بالموضوع، حوالى ستين بالمئة (٦٠٪) من مخدرات العالم. وهذا الاستهلاك إنّما يتمّ في ظل رأسمالية مؤسساتيّةٍ مبرمجةٍ لتسلب الفقير وتعطي الغني، وتبني الأمجاد على المؤامرات التي تحوكها ضدَّ أي بلدٍ ـ أو دولةٍ ـ في العالم لا يماشيها في سياساتها!!.. فضلاً عن هيمنتها بصورة ظاهرة أو خفيّةٍ على ثروات وخيرات معظم بلدان العالم الثالث، من أجل تأمين المصالح الحيوية الأميركية في الدرجة الأولى، ومنْ ثم تأمين بعض مصالح الدول الحليفة لها في أوروبا، في الوقت الذي تعمل فيه الولايات المتحدة الأميركية على منع إتمام قيام «الوحدة الأوروبية»، لئلا تصير الدولة الاتحادية المزعومة شريكاً لها في زعامة العالم، ولعلَّ ما حصل في الاستفتاء على مشروع دستور الوحدة الأوروبية، ورفضه في فرنسا أولاً، ومن ثم في دولٍ أخرى، مؤشر بارزٌ على إفشال قيام هذه الوحدة!.. كما أن النموَّ الاقتصادي الصيني يؤرق الولايات المتحدة الأميركية، وهي تخاف انطلاق المارد الشرقي إلى العالم، لئلا يقضي على الزعامة التي تتربع على عرشها في هذه الحقبة من التاريخ البشري.. فهذه نماذج عن واقع الحياة، أو عن التصورات لأعظم دولة رأسمالية.

أما فيما خص جوهر النظام الرأسمالي بالذات، فإنَّه فشل في

تحقيق التوازن الاجتماعي والغذائي والصحي والتعليمي لشعوب الدول التي تطبق هذا النظام، فضلاً عن فشله في تحقيق السلام النفسي للأفراد في تلك الدول، تماماً كما فشل النظام الاشتراكي في تأمين وفرة السلع الغذائية، وإشاعة أجواء الحرية في الدول التي اعتمدته!!

وفي ضوء المعطيات المتوافرة عن النظامين، فإنَّ القرن الحادي والعشرين سوف يشهد أزمات قادمة قد تأتي بويلات مؤكدة ليست بقدرة هذين النظامين مواجهتها، وربما أتت بتغييرات من شأنها أن تقلب المقاييس الحاليّة رأساً على عقب، لتولّد نظاماً يكون جديراً بكرامة الإنسان.

وما اعتقادنا بحتمية هذا الانقلاب إلاَّ لأنَّ غالبية الناس قد ارتمت في أحضان الرأسمالية أو الاشتراكية لفترات طويلة من الزمن، بعدت أثناءها بكليتها عن الله سبحانه وتعالى.. وانحازت الدول لهذه القوة أو تلك دون الانحياز إلى الله - جلَّ وعلا - ودون التفكير في الأنفس البشرية التي تعيش في ظل تلك الدول. وأهمّ ما في هذا التفكير أنه يعزّز الدوافع النفسية التي تحثُّ الناس على العودة إلى فطرتهم، والتوجه نحو خالقهم ليعبدوه ويشكروه على ما وهبهم من النعم والخيرات... ولأنَّ ما حصل لم يكن كذلك فقد ضاع الناس في طلب الحياة الدنيا ومادياتها، لكثرة الأعباء التي تتزايد على كاهلهم يوماً بعد يوم، ولشدة الأزمات المفتعلة من حولهم، حتى صارت نفوس الناس أسيرة هذه الفوضى العارمة التي تعم الشرق والغرب على حدٍّ سواءٍ.

وضياع النفس يعني ضياع الشخصية، وضياع الإنسان. . وهذا الضياع هو الذي يجعل إنسان اليوم بمثابة صورة مهزوزة بحيث لا يُدرك قيمة نفسه، ولا يُفكر في مكرمة خلقه. فإلى متى يظل عمى البصائر، مقوِّضاً للقيم الدينية والمثل الإنسانية معاً؟!

ولم تصل الأحوال بالناس في الغرب والشرق إلى هذا الحد إلاَّ بسبب اتباع الطريقة العلمية في بحث كل شيء، والمغالاة في تقدير هذه الطريقة، وتطبيقها على شتى الأبحاث والمناهج لمختلف العلوم. من هنا كان المأزق الذي أوقع فيه الغربُ نفسَهُ، وأوقع معه العالم الإسلامي، وذلك باعتماده مناهج للتفكير ـ في أبحاث العلوم الإنسانية ـ لا تستقيم مع القيم الإنسانية، أو مع حقيقة الحياة والوجود الإنساني فيها. . بل لو نظرنا لأبعد من الواقع الحالي، لوجدنا أنَّ مختلف المناهج التي استنَّها الناس قديماً وحديثاً، لم تستطع ـ وهذا طبيعي ـ مراعاة مختلف محتويات أو مكنونات النفس الإنسانية لكثرة تشعبها وتشابكها من ناحية، وتناغمها وتناسقها من ناحية ثانية. ولعلَّ هذا الأمر لا يقتصر على معرفة حقيقة نفس الإنسان، بل ويشمل الحياة البشرية كلها، عبر تاريخها الطويل، حيث تقلّبت الأفكار باتباع مناهج كانت معادية للحياة نفسها، لأنها لم تركن إلى المنهج القويم الذي يراعي شؤون الحياة، ويراعي حق الله تعالى في خلقه، وتدبيره سبحانه لهذا الخلق.

وعليهِ فإن المنهاج الوحيد الذي يراعي مختلف اعتبارات الحياة، وشؤون الإنسان، هو منهاج الله تعالى. فقد خلق ـ سبحانه ـ الأرض وأمدَّها بكل مقومات الحياة، لتكون صالحة لحياة الإنسان، ووهبه ـ من جملة مواهبه السنيّة ـ قوةَ البصيرة التي تستجلي الحق

والصواب، ثم أنزل له ـ من عليائه ـ رسالاتٍ تبين له المنهج القويم الذي يجب أن يسير عليه، فكان حتمياً أن يوافق هذا المنهج الوجود الإنساني، لأنه منزَّل من خالق الإنسان، وهو أعلم ـ سبحانه ـ بحقيقة تكوينه وفطرته، وبما أودع فيه من طاقات، وبما افترض عليه القيام به من وظائف. فيكون منهج الله تعالى هو وحدَهُ القادر على تحقيق السلام النفسي، وتأمين التوازن الحياتي لهذا الإنسان عندما يمارس مختلف وجوه نشاطه من أجل خيره الفردي، وخير الجماعة، وخير البشرية كلها على حد سواء.. فأين تلك المناهج التي ابتكرها الإنسان، قديماً وحديثاً من منهاج الخالق العظيم الذي وحده يجعل الإنسانَ خليفةً لله تعالى في الأرض؟!. ولو أخذنا ما ابتكره الإنسان لمعرفة النفس، كمثال على منهجية تفكيره، لرأينا أن مختلف المناهج حول نفس الإنسان كانت تراوح بين الإفراط والتفريط، بين الكبت والتهور، بين تقييد الميول الفطرية أو إطلاق العنان لها بلا ضوابط ثابتة.

ولم تلتزم الجماعاتُ البشرية جادّة الاعتدال في يوم من الأيام، ولم يقع التوازن في تصوراتها، وفي مختلف جوانب حياتها، إلاَّ عندما كانت تسْتقي من منهاج الدين الذي ارتضاه الله ـ وهو العليم الحكيم ـ للناس كافة فكان الدين عند الله الإسلام، وهو العقيدة، وهو المبدأ، وفيه المنهج القويم للحياة. وقد بدأ الإسلام مع آدم عليه السلام واكتمل ببعثة محمد ﷺ، وهو وحده الذي يكفل للإنسان إقامة شريعة الله تعالى على الارض، فتستقيم حينئذٍ الحياة الإنسانية ويسيرُ الناس على الطريق المستقيم: تفكيراً وقولاً ونهجاً وعقلاً.

الطريقة العقلية هي الأساس للتفكير

إنَّ منهج الإسلام الحق هو منهج الحياة، وإن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، وقد أُنزل إلى الإنسان من ربِّه تعالى، ليهتدي إلى الحقائق التي تُصلح شأنه في الحياة الدنيا وتجعله يفوز في الحياة الآخرة. ومن يتتبَّع الأسلوب القرآني في البيان والتبيين يجد أنَّه قد سلك الطريقة العقلية، أكان في إقامته البرهان، أم في بيانه الأحكام. فإذا كانت هذه هي طريقة القرآن ـ وهو كتاب الله، وهو قول الحق تبارك وتعالى ـ فقد وجب على الإنسان أن يعتمد هذه الطريقة العقلية أساساً للتفكير في حياته.

والأدلة على إقامة البرهان تبدو واضحة في هذه الآيات المباركة الكريمة: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾(1). ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(2). ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(3). ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾(4) إلى كثير من آيات القرآن التي تأمر باستعمال الحواس لنقل الواقع، حتى يتم التوصل إلى النتائج الحقة.. وهذه الطريقة في إقامة البرهان، إنْ هي إلا دعوة للعقل كي يتفكر في الكائنات الحسية الموجودة في دنيا الواقع التي تشكل البراهين على قدرة الله تعالى في الخلق. وما دام البرهانُ حسياً، فما على العقل إلاَّ أن يدركه.

وأما الأدلة على بيان الأحكام فمثلها أيضاً في هذه الآيات المبيّنة

---

(1) سورة الطارق، الآية: ٥.

(2) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

(3) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(4) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

من كتاب الله. يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[1]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[2]. ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[3]. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[4]. ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[5]. ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[6]. ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[7]. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[8]. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[9]، إلى غيرها من الآيات الكريمة التي تعطي كلها أحكاماً محسوسة لوقائع حسية، سواء أكان الأمر عائداً إلى الحكم نفسه أم إلى الواقعة التي جاء بها الحكم.. فالأمر كله يتعلق بالطريقة العقلية.

والقرآن الكريم، عندما يعتمد الطريقة العقلية أساساً للتفكير، فإنما يخاطب الفكر من حيث هو «الحكم على الواقع»، كي يمكن من ثَمَّ تطبيقُ حكم الفكر على الوقائع التي يتناولها، ليصوغ بالتالي الحقيقة التي تطابق الفكر على الواقع وتصدقه، باعتبارها الغاية التي يجري البحث للوصول إليها. وما من مطّلع عارفٍ، أو عالم محقق، أو منصف باحث عادل إلاَّ ويعرف أنَّ القرآن لم يأتِ إلاَّ بالحقائق، وأنَّ كلَّ حقائقه ـ جميعاً ـ هي حقائق نهائية وقاطعة بصورة مطلقة، بخلاف ما يصل إليه الجهد الإنساني ويسميه حقائق عن طريق التجارب، فهذه

(١) سورة المائدة: الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.
(٧) سورة النساء، الآية: ٨٤.
(٨) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.
(٩) سورة الطلاق، الآية: ٦.

تبقى - على الرغم من كل الأدوات المتاحة التي يستعملها الناس - حقائق غير نهائية، وغير قاطعة، لأنها مقيدة بحدود التجارب البشرية والأدوات والظروف التي تمليها. فيصبح من الخطأ المنهجي - وبحكم المنهج العلمي الذي يقيمه الإنسان ذاته - أنْ تُعلّقَ الحقائق القرآنية النهائية التي هي من صنع الله العلي العليم، على حقائق غير نهائية، هي من نتاج جهد بشري قابل دائماً للتغيير، أو معرض في كل حين للوقوع في الخطأ.

هذا فيما يتعلق بالحقائق العلمية التي تبقى كذلك إلى أن يثبت العكس، ما يجعلها أقرب إلى الفرضيات والنظريات العملية - أكثر من كونها حقائق نهائية - من مثل النظريات الكونية أو نظريات علم الفلك، أو مختلف النظريات التي بحثت في نشأة الإنسان وأطواره، أو التي تهتم بحياة الإنسان (كعلم النفس أو علم الاجتماع أو علم التربية)، أو النظريات التي وضعت حول نشوء المجتمعات وتطورها، وما إلى ذلك. . فكلّ تلك العلوم والنظريات لا يمكن اعتبارها حقائق علمية قاطعة، حتى بقياس الإنسان نفسه، أي بقياس العلماء في مختلف الميادين. . ولكنّ قيمتها الفكرية، - سواء سميت علوماً أو قيل عنها نظرياتٍ وفرضيات - تبقى في صلاحها أحياناً كسبل ممهدة، أو كأمثلة من أجل تفسير أكبر قدر ممكن من الظواهر: كونيةً كانت أو حياتية أو مجتمعية أو نفسية. وصلاحيتها تظل قائمة إلى حين ظهور نظرية جديدة، أو فرضية جديدة تفسر قدراً أكبر من إحدى الظواهر، أو تفسر هذه الظواهر بصورة أدق وأعمق، وربما أشمل وأعم. . من أجل ذلك تكون جميع هذه النظريات والفرضيات قابلة - دائماً - للتعديل والتبديل، أو النقص والإضافة، بل إنها قد تنقلب رأساً على

عقب بظهور أدوات كشف جديدة، أو بتفسيرات جديدة لمجموعة الملاحظات القديمة. . لذلك يمكن القول بأنَّ كل ما ينتجه الفكر البشري حول تفسير الظواهر العلمية ما هو إلاّ بمثابة نظريات أو فرضيات قابلة للتغيير، ما يجعلها بعيدة عن مفهوم الحقيقة العلمية المطلقة.

وهذا بخلاف القرآن الكريم الذي يخلو ـ تماماً ـ من النظريات والفرضيات بصورة مطلقة. وقد قامت محاولات وصدرت مؤلفات للربط ما بين بعض الإشارات القرآنية والعلوم البشرية، ولا سيما ما يتعلق منها بالفلك أو الطب أو نشأة الإنسان أو غيرها. . وكل محاولة من هذا القبيل غير جائزة في الأصل، إذ إنها تحمل في طياتها خطأً منهجياً لا يليق بجلال القرآن الكريم، كما أنَّ تلك المحاولات تنطوي على مغالطات كثيرة بعيدة كل البعد عن المفاهيم التي تحملها آيات القرآن. ومن تلك المغالطات نقتصر على إيراد ثلاث هي:

المغالطة الأولى: وتكمن في التفكير أو الشعور الذي جعل البعض يتوهم بأن للعلوم السيطرة التامة على الوجود البشري كله، ما يجعل القرآن مجرد تابع لتلك العلوم. وهذا في الحقيقة نوع من التفكير أو الشعور الانهزامي، أو هو هزيمة داخلية في نفوس أصحاب هذه المقولة. .

وقد دفع الوهمُ بهؤلاء المهزومين إلى القيام بمحاولات ترمي إلى ربط حقائق القرآن بتفسيرات واستدلالات مأخوذة من العلوم البشرية. . ولم يدرك هؤلاء الباحثون أو المفسرون أنَّ القرآن الكريم هو كتابٌ من عند الله تعالى، فمواضيعه إذاً كاملة، وحقائقه نهائية. . وكما لم يدركوا أنَّ القرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية، ولم ينزل

ليكون علماً تجريبياً، فليس هو كتاب طب مثلاً، أو كتاب فلك، أو فيزياء أو كيمياء.. ليس شيء من ذلك في القرآن الكريم، كما يحاول بعض المتحمسين له الادعاء بذلك، ولا يجوز لهؤلاء المتحمسين - ذوي النيات الطيبة - أن يؤخذوا بأبحاث البعض من أهل الكيد والدس الذين يزرعون في كل بلدٍ فريقاً من الاختصاصيين والعلماء، ويضعون تحت تصرفهم إمكاناتٍ مالية كبيرة، لوضع دراسات مبطنة هدفها المسّ بالقرآن الكريم وإظهاره بأنه مخالف لعلومهم و«منجزاتهم الرائعة»، وهو - على كل حال - أجلّ من أن يمسّ لأنه محفوظ من رب العالمين. لذلك فالقرآن المجيد هو غير العلوم التي هي من عند الناس، وهي العلوم ذاتها التي لا تزال تنقض اليوم ما أثبتته بالأمس، وتبرهن أيضاً أن ما توصلت إليه يظل محلاً للنظر، أي إنه غير نهائي ولا هو مطلق. وهذا طبيعي لأنه مقيد باحتمالات وإمكانيات وأدوات هي ذاتها غير قادرة على إعطاء حقيقة واحدة تتصف بالنهائية والإطلاق. وقد أكد القرآن الكريم هذه المحدودية للطاقة الفكرية لدى الإنسان، وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].. بالقياس - طبعاً - إلى علم الله الواسع. وأكّدها في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[2]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

المغالطة الثانية: وهي الفهم السيئ لطبيعة القرآن ووظيفته. فهذا الكتاب المبين قد تنزَّل ليعالج بناء الإنسان بما يوائم ويوفّق ما بين طبيعته البشرية وطبيعة الوجود كله وفقاً للسنن الإلّهية، وبما تسمح به طبيعة الإنسان بالنسبة إلى طبيعة الوجود، حتى لا يكون هناك تصادم بين الإنسان والكون، بل ـ على العكس ـ تكون هناك أُلْفة بينهما، فيحاول الإنسان التعرف إلى أسرار الكون، ويستخدم قدراته لاستجلاء أبعاده وخفاياه، التي يمكنه أن يكتشفها بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، والعقل هو الذي يهديه إلى ذلك. وما وُهب الإنسان هذا العقل من خالقه تعالى إلاَّ لكي يعمل ويكشف من العلم ما يقدر عليه، لا أنْ يتلقى هذا العلم تلقياً بالبداهة. إذاً فالقرآن الكريم يحثُّ الإنسان على التفكير، واستعمال العقل، والتبصّر بكل شيءٍ في الوجود حتى يكون قادراً على القيام بمهمة الاستخلاف في الأرض.

المغالطة الثالثة: وهي التأويل للنصوص القرآنية، وبطريقة فيها كثير من التحمّل والتكلّف، من أجل حمل هذه النصوص على نظريات وفرضيات ليس لها صفة الثبات والاستقرار، بل وجديدها في كل يوم يطمس قديمها.

وقد قلنا بأن مثل هذا التأويل لا يتفق وجلال القرآن الكريم، الذي يأبى ـ هو ذاته ـ أن تؤوَّل نصوصه، أو بعض آياته، وفقاً لتلك النظريات والفرضيات التي لا تلامس جلال معانيه، ولا تداني سموَّ وظائفه.. ثم إن القرآن ـ بطبيعته ـ يخالفُ اتباع كل المناهج الأرضية التي فيها احتمال الخطأ والفرضيات.

إذاً لا مجال لتأويل النصوص القرآنية بما هو بعيد عنها، وبما

تناقضه بحقائقها، بل ومحظور ـ على الناس ـ تفسير هذه النصوص لجعلها مطابقة للعلوم.. صحيح أن في القرآن الكريم إشارات على بعض العلوم، لكنها تبقى في دائرة الإشارة أو التنبيه أو التلميح فقط، لأن القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً غايته تفصيل العلوم، ولذا فهو ـ وإن أشار إلى بعضها ـ لا يبحث في منطلقاتها ولانهاياتها.

غير أنَّ ذلك لا يعني أبداً أن القرآن ضد العلم والمعرفة، بل على العكس إنه يحضّ على العلم، ويطلب من الإنسان بإلحاح أن يتعلم، وبرهاننا على ذلك آيات كثيرة تشيد بالعلم وأهله. قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وهو ـ سبحانه ـ عندما أنزل القرآن، على قلب محمد خاتم النبيين ﷺ كانت أولى الآيات المنزلة تحضُّ على إعطاء العلم الأهمية التي يستحقها، والتي يدل عليها قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]. بل إن المكرمة التي تكرَّم بها الخالق ـ عزّ وجلّ ـ على آدم عليه السلام، وعلى بني آدم جميعاً، هي مكرمة العلم بواسطة العقل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3].. وهذا ما يفرض على الإنسان أن يبحث وينقّب كي يكشف كل يوم عن علم، وأن ينتفع بهذا العلم، لأن الغاية من كل علم هي نفع الإنسان وخيره.. بل نحن المسلمين، وإنْ كنا نعتبر معظم العلوم التي تتعلق بفهم حقيقة ماهية الكون والإنسان والحياة مجرد فرضيات ونظريات، علينا أنْ ننتفع منها إذا كان من شأنها أن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٢) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١.

تزيدنا معرفةً بحقيقة وجود الله تعالى، وبالكون والحياة والإنسان، لأنّ في ذلك كله ما ينشئ لدينا الفكر المدرك لتلك الحقائق ويساعدنا على فهم نصوص قرآننا المجيد، من دون اللجوء إلى تطبيق العلوم على القرآن كما أشرنا إليه آنفاً.

ولذلك كان لزاماً علينا، أن نميز بين نوعين من الإنجازات العلمية:

نوع يمثل الحقائق الثابتة النهائية التي تمّ التوصُّل إليها عن طريق البحث والتنقيب، كتلك التي تتعلق بعلم الفلك، ومنها على سبيل المثال ما يتناول الأرض ودورانها وحركتها في الفضاء[1] أو ما يتناول البرزخ الفاصل بين المياه العذبة والمياه المالحة في البحار[2]...

---

(١) يقول الله تعالى في سورة المرسلات: ٢٥، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا۝أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾.
وكَفَتَ يعني ضمَّ. والكِفاتُ، في معاجم اللغة العربية، هو: الطائر الذي يطير مسرعاً وهو قابض بجناحيه على شيءٍ يخصّه.
فهذه الآية الكريمة، كان يمكن أن يقتصر تفسيرها على أنّ الأرض تضم المخلوقات: الأحياء على ظهرها والأموات في جوفها. إلاّ أنّه بعد الاكتشافات العلمية حول الأرض ودورانها وثبوت صحة هذه الاكتشافات، فقد أمكن فهم المعنى الذي تتناوله الآية الكريمة على النحو التالي: ألم نجعل الأرض كالطائر تسير في الفضاء بسرعة وهي حاضنة لكم يا بني البشر أحياءً وأمواتاً، كما هي حاضنة لغيركم من مخلوقات الله تعالى، على الرغم من تلك السرعة القصوى التي تدور بها في فلكها؟ وهكذا يكون الاكتشاف العلمي للأرض بصورته النهائية، قد أكّد قطعية النص القرآني.

(٢) يقول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۝بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ و٢٠].
المارج: المضطرب، المتحرك، وقيل المختلط، ويقال: مرج الأمر: اختلط.
والبرزخ: الحاجز بين الشيئين. مرج البحرين: خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتهما؛ وتقسيم الماء على هذا النحو من الكرة الأرضيّة لم يأتِ مصادفةً، ولا جزافاً؛ فهو مقدَّر تقديراً عجيباً، وتصبّ جميع الأنهار، تقريباً، في البحار، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغيّر طبيعة البحار، ولا تبغي عليها، ولا يتجاوز كل منها حدّه المقدّر ووظيفته المرسومة.
ومستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر =

ونوع آخر يمثل المظاهر الآنِيَّة القابلة للتغيير والنقض، والتي تمَّ التوصُّل إليها عن طريق الملاحظة والاختبار.

وهذا النوع لا يُعَوَّل عليه في فهم إشارات أو تلميحات القرآن الكريم، لأنه قد يُنتقض بما يغيّره أو يُلغيه، بينما الحقائق القرآنية قطعية ونهائية... قال تعالى في وصف كتابه المجيد: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(1).

ولا يخفى أنّ الاكتشافات العلمية، ليست إلاّ إدراكاً لأشياء موجودة أصلاً في هذا الكون، وهي بطبيعة الحال من خالق هذا الكون وصانعه.. ومع ذلك فإنَّ هذه الاكتشافات تعتبر ذات فضل كبير على بني البشر، إذ إنها كشفت عن بعض البصائر غشاوتها، وعن بعض القلوب أقفالها، وردّتها إلى الإيمان الصحيح بالله العليِّ القدير الذي، بفضله، وبما علَّم الإنسان، اهتدى إلى رؤية بديع صنعه ـ تعالى ـ في هذا الكون العجيب من خلال تلك الاكتشافات.. ومثل ذلك يأخذ بأواصر المسلمين من الإيمان التبعيّ التقليديّ، إلى الإيمان المستنير القائم على هدي الله ورؤية عظمته في عجائب خلقه... وممّا نفى الريب كذلك، من قلوب أهل الكتاب من ذوي الاختصاص في علوم

= على الأنهار التي تمر خلاله وتصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه المالح، فيحولها عن وظيفتها، ويبغي على طبيعتها، ما دام هناك حاجز من نفس طبيعتها، هو من صنع الله العليم الخبير. وبالإضافة إلى ذلك فقد كشف علم البحار أنَّ هنالك أنهاراً من المياه العذبة التي تتدفق في قاع المحيطات أو البحار، ولا تختلط مياهها الحلوة بالمياه المالحة التي تحيط بها، وأنَّ الحيوانات التي تعيش في مثل تلك الأنهار لا يمكنها أن تعيش في مياه البحر بجانبها، والعكس بالعكس.. وهذا من صنع الخالق العظيم الذي أوجد برزخاً (حاجزاً) بين مياه البحر والنهر الذي يجري فيه توكيداً لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

(1) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

البحار أو الفلك، أو الطب[١]... إلخ فاهتدوا، وأقبلوا على الإسلام يتخذونه ديناً، وعلى القرآن يجعلونه هادياً، بعدما رأوا الحقائق الثابتة التي يتضمنها كتابُ الله ماثلة أمام أعينهم، من دون أنْ تدركها العقول من قبل. علماً بأنَّ القرآن الكريم، أنزله ربّ العالمين على قلب نبيّه محمد ﷺ، وصدق حيث يقول: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾[٢]. وعلى الرغم مما تقدم، فلا بدَّ من إلقاء نظرة سريعة على العلاقة ما بين القرآن الكريم والعلوم البشرية.

القرآن والعلوم البشرية

ونبادر فوراً إلى القول بأنَّ القرآن الكريم، في حقيقته، كرسالة سماوية، شيء، والعلوم البشرية شيء آخر. ولذلك كان الانتفاع

---

(١) فقد ورد في كثير من آيات الله البيّنات إشارات حسيّة، واضحة إلى حقائق طبية، ولكنْ أسرارها بقيت بعيدة عن مدارك البشر، ومنها الآية المباركة ٩٢ من سورة يونس، التي بقي الناس عنها غافلين حتى أواخر القرن الماضي حيث قيّض الله تعالى لطبيب فرنسي، جرّاح، هو «موريس بوكاي» أن يزيل الغفلة عنها. ففي القرآن الكريم: أنّ موسى عليه السلام عندما خرج ببني إسرائيل من مصر، تتبّعَهم الطاغية فرعون بجنوده، حتى إذا بلغوا شاطىء البحر، لم يعد أمامهم مفرّ من الوقوع في قبضة فرعون وجنوده، أو الخوض في لجة البحر فيقضون غرقاً. عندها أنزل الوحي على سيدنا موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ فانفلق البحر اثني عشرَ درباً لاثني عشرَ سبطاً هم أبناء إسرائيل (أي يعقوب عليه السلام) فعبروا تلك الممرات، التي وجدت بأمر الله تعالى، مثل لمح البصر، حتى الشاطىء الثاني. ولمّا سارع فرعون وجنده للحاق، نزل بهم حكم الله تعالى بإغراقهم، فأعادَ البحرَ إلى عهده، وغرق جند فرعون جميعاً، حتى إذا أدرك فرعونُ أنّه غارقٌ لا محالة قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فجاءه الردّ، فوراً من العليّ الأعلى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩١ و٩٢]. وبعد مُضي ثلاثة آلاف سنة، جاء الطبيب الجراح «بوكاي» ليثبت علمياً سرّ الآي القرآني المعجز، عندما أكّدَ أن إحدى المومياءات الموجودة في متحف مصر، ما هي إلا مومياء فرعون نفسه الذي لحقَ موسى وبني إسرائيل.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.

بالعلوم شيئاً، وكان تأويل النصوص القرآنية، بما يوافق تلك العلوم، شيئاً آخر. . فلا علم هو الذي يثبت الحقائق القرآنية ـ وإن كان يكشف بعض أسرارها ـ ولا انتفاع بعلمٍ هو الذي يبعث على حب القرآن، والتعلق بروائع بيانه، وعظيم محتواه. . ذلك أنَّ للقرآن المجيد طبيعة خاصة، قادرة على أن تجذب إليها كل عقل نيّر، وقلب سليم، وأن تغرس فيهما محبة هذا القرآن والتمسك بأهدابه. . لا بل إنَّ طبيعة القرآن، باتباعه الطريقة العقلية للتفكير، هي التي تدفع بالإنسان إلى التفكّر والتأمل والتبصّر ليأتي دور العمل النافع الخيِّر. وها هو القرآن يأخذ بيدنا لنكون عقلانيين عالمين، عاملين في آن واحد. يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١). هذا عن العقل والتفكير، أما عن العمل فيقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

ومن إعجاز القرآن الكريم، أنه أُنزِلَ من لدن الحكيم العليم ليخرج الناسَ من الجهل والظلمات إلى العلم والنور، ليخلصهم من الكفر ويهديهم إلى الإيمان. يخاطب الله تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٣).

ومن خصائص القرآن الأخرى، أنَّ الله تعالى أنزله للناس كي يُريهم ما يشاءُ سبحانه من روعة صنعه، وعظيم إحكامه، ودقة نظامه. . . ومثل هذا التدبّر للنصوص القرآنية هو الذي يكشف مدى

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١.

مدلولاتها في تصوراتنا، ومدى معانيها في أفكارنا.. فالدعوة - إذاً - عظيمة الشأن، وواسعة المدى في تدبّر القرآن: إنْ لمعرفة حقيقة الخلق في الآفاق أو في الأنفس، وإنْ في العمل الذي يقوم على المعرفة والفعل.. وهذا يجب أن يكون وفقاً لنصوص القرآن وحدها، بحقائقها النهائية والمطلقة، من غير أن نحمّلها ما لا تحمل من افتراضات ونظريات علمية، ومن غير أن نجعل لهذه الفرضيات والنظريات المقام الأول، ثم نلحق بها آيات القرآن إلحاقاً، وكأنها تبعٌ لها. ولعلَّ في بعض الأمثلة ما يوضح هذا الأمر.

يقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1].

من الثابت أنَّ الكون قائم على نظام دقيق، وعلى إحكام متناهٍ، رغم اتساعه الهائل، ومداه الشاسع وما فيه من عوالم المجرات والأجرام والنجوم التي لا تزال بعيدة عن متناول معرفة الإنسان. ولقد أُتيح لعلم الفلك أن يكتشف كل يوم جديداً في هذا الكون، ولكنَّ اكتشافاته، يبدو أنها لم تكُ شيئاً يذكر - منذ بدأت عام ١٦٠٩ عندما نظر العالم الإيطالي (غاليليو) بأول تلسكوب أرضي إلى نجوم الكون ومجراته - بالقياس إلى ما تكشفت معرفته اليوم. ففي عام ١٩٩٠ ميلادي بالذات، أمكن رواد المكوك الفضائي الأميركي «ديسكفوري» أن يضعوا تلسكوباً عملاقاً خارج الأرض أسموه «هابل» (Hubble) وقدَّروا له أن يدور حولها خمسة عشر عاماً، لتوفير أكبر قدر ممكن من المعلومات عن حوالى عشرين ترليون نجم وكوكب، كما قدر هذا العدد حتى الآن، بحيث ستكون لعلماء الفلك قدرة أكبر على اكتشاف

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.

ومعرفة ما غمض من أسرار كثيرة عن هذا الكون العظيم، الذي خلقه الله بإحكام وتقدير، والذي لا يزال حوالى تسعين بالمئة من أبعاده أمراً عمياً خاضعاً للتأويلات والاجتهادات الفلكية.

وإنَّهُ لإنجازٌ يحمل بصمات جهود جبارة عندما ركّز الإنسانُ «مرآة قطرها ٢,٤ متر بحيث يمكن من خلالها تركيز الضوء على أي نسق أو منظومة من الكاميرات والآلات، وتسجيل وتحليل الإشعاعات وتحويلها إلى نبضات إلكترونية وإرسالها إلى الأرض بمعدل لم يعهده أحد من قبل، حيث يمكن من خلال (هابل) إرسال معلومات تكفي لملء موسوعة مكوّنة من ثلاثين جزءاً خلال ٤٢ دقيقة». ومع ذلك كله، فإنَّ هذا الاكتشاف لا يزال بعيداً عن بلوغ آيات الخلاق العليم في آفاق الكون. . .

ومما لا شك فيه أن إضافة ما سيقدمه «هابل» من معلومات دقيقة وهامة إلى ما تتولاه سائر التلسكوبات الأرضية العملاقة الأخرى، سيبين للناس إعجاز الهندسة الإلهية وعظمتها، وسيرى العلماء ما لم تقع عليه عين بشر من قبل، ما قد يمكنهم من حلِّ العديد من الرموز والأسرار التي لا يزال العقل البشري أشبه بطفل إزاء حلها.

لقد كان العلماء ينظرون إلى الكون من خلال المنظار الضوئي المرئي الذي تستخدم معه التلسكوبات البصرية ذات المرايا أو العدسات والتي تقوم بتجميع الضوء واستنباط المعلومات الفلكية منه وتحليلها بأجهزة خاصة؛ أو من خلال موجات الراديو التي تستقبلها التلسكوبات العاملة بهذه الموجات. أما عمل «هابل» فيهدف إلى استقبال وتجميع الموجات التي لا تستطيع التلسكوبات الأرضية

تجميعها إلا بمقادير ضئيلة للغاية، لأنَّ الغلاف الجوي يمنع وصولها إلى الأرض بشكل شبه تام، ومنها موجات الأشعة البنفسجية، وتحت الحمراء. لذلك فإنَّ إطلاق تلسكوب جديد فيما وراء الغلاف الجوي سوف يساعد على التقاط هذه الموجات والحصول منها على معلومات مما لا يقدر غيره من التلسكوبات على ذلك.

وهكذا فإن مهمة «هابل» سوف تكون متعددة، ومنها البحث عن اكتشاف مجرات ونجوم وكواكب جديدة، وتتبع موجات المدّ العالية من الطاقة التي تدور في دوامات بسرعة مخيفة حول الثقوب السوداء في أعماق الكون. ويقوم «هابل» بتلك المهمة من خلال تتبع والتقاط ما يسمى الخلفية الإشعاعية الكونية، وهي عبارة عن موجات كهرومغناطيسية ميكرومترية اكتشفت عام ١٩٦٤م.

هذه الآفاق الجديدة لتقدم الاكتشافات العلمية وتطورها تنبىء بقدرة الله تعالى، الخالق العظيم، والمدبّر الحكيم لهذا الكون الهائل. ولا يزال المدى بعيداً أمام الإنسان للإحاطة ولو بقليل من معجزة خلق الكون، ودلالتها الساطعة على قدرة الخالق، وعظيم حكمته، وبديع صنعه.

وهكذا يتبين لنا أنَّ الله تعالى خلق هذا الكون بكل ما فيه من مخلوقات صغيرة وكبيرة وفق تقديره الحكيم. وما كان عَمَلُ الجبابرة من العلماء إلاَّ محاولة تلَمُّس نقطة من بحر هذا الخلق العظيم.. فالشكل الكروي للأرض، وما تحمل فوق سطحها وفي سمائها وما تحتوي في باطنها.. وارتباطها بالشمس: إنْ من حيث بعدها عنها، أو تلقي ضوئها وأشعتها، ووجود قمرها أيضاً على بعد محددٍ منها، وحجمها بالنسبة إلى حجم الشمس وحجم القمر.. فضلاً عن نظام

الجاذبية، ودورة الأرض حول نفسها، ودورتها حول الشمس، وما ينتج من الجاذبية والدوران من ليل ونهار وفصول، وما ينزل من مطر، أو تتصاعد من أبخرة وغازات. . كلُّ هذه الخصائص، وآلاف غيرها، هي التي جعلت الأرض صالحة للحياة. ولولا التوافق والانسجام بين مختلف تلك الخصائص التي تختص كل واحدة بعنصر معيّن يكمّل العناصر الأخرى، لما كانت هنالك حياة على الأرض.

ومن البديهي القول: إن خلق الأرض بكل تلك الخصائص ليس فلتة عارضة ولا مصادفة عابرة، بل هو خلق مقدر تقديراً بكل دقة وإحكام.

ومما لا شك فيه أنَّ ما توصلت إليه العلوم من كشفٍ للعناصر التي جعلت الأرض صالحة للحياة، يساعدنا في إدراك المدلول القرآني: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]. . وبكل تأكيد هنالك انتفاع من النظريات او الاكتشافات لعلمية، لأنها تقودنا إلى معرفة المعاني المقصودة من هذا النص القرآني، والتي يعبر عنها بـ«التقدير».

وقس على ذلك أي أمر أو أية قضية ـ سواء تعلقت بآفاق الكون أو بالإنسان ـ يشير إليها القرآن، من قريب أو بعيد. فعلينا أن نتقصّى ما توصل إليه الجهد البشري حول ذاك الأمر أو تلك القضية حتى نستطيع أن نفهم المعنى القرآني فهماً صحيحاً. وهذا ليس جائزاً فقط، بل مطلوب تحرّيه ولا سيما من علماء المسلمين.

ولكن ما هو غير جائز ولا مقبول، أن نعتبر القرآن الكريم أنه كتاب علوم، ويحتوي ـ صراحةً ـ على جميع العلوم التي توصَّل إليها

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.

الإنسان، أو أن نؤمن بنظرية علمية لا تتطابق والقرآن الكريم، أو نعتقد بفرضية فكرية تكون مخالفة للمدلول القرآني. ولنأخذ مثلاً على ذلك: نشأة الإنسان..

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[(١)]..

هذه هي الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم: أَنَّ النشأة الأولى للإنسان كانت من تراب الأرض أو صلصالها، وأنَّ هذا الجسد الترابي ـ في أصله ـ دخلته الحياة عندما نفخ الله تعالى فيه من روحه، ثم منحه ميزة المعرفة عندما علمه المعاني الكلية للأشياء جميعاً..

ومع أنَّ هذه النشأة يبّينها بوضوح القرآن المنزَّل من الخالق الحكيم، فإنَّ علماء الغرب صاغوا نظرية معاكسة لهذه الحقيقة القرآنية، عندما ابتدع (دالاس) و(داروين) نظرية النشوء والارتقاء التي تعتبر أن نشوء الحياة بدأ من خلية واحدة تكوّنت في الماء، ثم راحت هذه الخلية تتطور، وتنتقل من نوع إلى نوع حتى وصلت إلى مرحلة الإنسان.. بمعنى أنَّ أصل الكائنات الحية جميعها من النبات والحيوان والإنسان، هو ذاته بدأ من خلية واحدة لها ذات الخصائص والميزات!...

فإذا حاول بعضهم ـ بحجة التأويل أو التفسير ـ أن يقول بأنَّ خلق الإنسان من طين الأرض ينطبق على نظرية النشوء والارتقاء، فإن هذا ليس من التأويل أو التفسير بشيء، بل هو أكبر الخطأ وأشد المغالطة، لأنه يتعارض مع النص القرآني تماماً، ولا يألفه العقل البشري.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

ولذلك نحن نقول لمن يريد أنْ يُؤوِّل نصاً في القرآن على هواه: لا! لم يُشِرِ القرآنُ قَطّ إلى نظرية «النشوء والارتقاء». وليس فيه أي نص أو معنىً يدل ـ ولو تلميحاً ـ على هذه النظرية. هذا ـ على الأقل ـ بالنسبة إلى القرآن الكريم. . .

أما بالنسبة إلى النظرية ذاتها فلم تتمتع بمواصفات الثبات والإطلاق في يوم من الأيام، بدليل ما دخل عليها من تعديل في أقل من قرنٍ، كاد يغيرها كلياً. كما ظهر أن نظريات الوراثة تنقضها برمتها، لأنها تقول بأنَّ كل نوع من أنواع الكائنات الحية يحتفظ بخصائصه، ولا يمكن أن ينتقل إلى نوع آخر. . فالإنسان يولد إنساناً، ويتطور في داخل الجنس البشري، فلا يمكن أن يكون من الحيوان ويتطور إلى إنسان. وكذلك كل حيوان أو نبات: فالأسد يبقى أسداً ولا يتحول إلى حمار، والكلب، والفيل، والسمكة، والضفدعة، والعنكبوت كلها كذلك. . . وزهرة الأقحوان تبقى أقحواناً، وشجرة التين تبقى تيناً، والزيتونة تبقى زيتونةً، وكذلك الرمان، والعنب، والبصل، والأرز والذرة، والقمح، والعدس. . فكل نوع يبقى على نوعه، ولو دخل عليه بعض التهجين، بتوليد أشكال جديدة من النوع نفسه، قد تختلف باللون، والطعم، لكنها تبقى من ذات الفصيلة الزراعية ولم تنقلب إلى فصليةٍ أخرى. . وهذا ما يجعل نظرية النشوء والارتقاء معرضة للنقض والبطلان، وأبعد من أنْ تكون حقيقة علمية نهائية، بخلاف الحقيقة القرآنية التي هي نهائية، أولاً لأنها ثابتة بقولٍ من الله العزيز القدير خالق الإنسان وكل شيء، وثانياً لأنها تثبت أصل النشأة الأولى للإنسان دون الولوج في تفصيلات هذه النشأة. فهي إذاً نهائية في النقطة التي تستهدفها «وهي خلق الإنسان من طين» أي أصل النشأة

الأولى، ثم يبيّن القرآن الكريم أن الله تعالى بعدما خلق الإنسان الأول، الذي هو آدم عليه السلام من صلصال كالفخار، وبعدما خلق زوجَهُ حوّاء من ضلعِهِ أودع في أصلاب الرجل، وفي أتراب المرأة نظام الخلق البشري المستمر منذ آدم وإلى يوم القيامة كما سيتبيّن معنا لاحقاً في بحث «الخلق». هذا ما تستهدفه الحقائق القرآنية بلا زيادة ولا نقصان. وليس للعقل البشري، إذا أرادَ أنْ يهتدي إلى هذه الحقائق، إلاَّ أنْ يبحث عن أصلها في القرآن وأنْ يكون صادقاً في بحثه، لا أنْ يتخيل مجرد تخيلات لا تمت إلى الحقيقة بصلة..

الطريقة العقلية وقيمة الإنسان

وما أوردناه إنَّما كان للتأكيد على أنَّ الطريقة العقلية التي اعتمدها القرآن الكريم، هي التي يجب أنْ تكون الأساس للتفكير، إلى أي جهة توجّه فكر الإنسان، وفي أي مجال بَحَثَ. وسواء أتناولت أبحاثُهُ الفكرية الفلك أم الطب أم الفيزياء أم الكيمياء أم العلوم الإنسانية، أم الفنون الأدبية وغيرها.. وهذا ما يستدعي بصورة أَوْلى وأشدّ اعتماد هذه الطريقة عندما يكون البحث عن معرفة النفس الإنسانية. وإلاَّ ضاعت جميع جهودنا عبثاً، وضاع معها الإنسان في متاهات النظريات والتقوّلات ـ والمقصود هو خلاف ذلك تماماً ـ لأنَّ الإنسان مخلوق مميز بتركيبه وطبيعته ووظيفته على هذه الأرض. وقد تفرّد عن مخلوقات الأرض جميعاً في خَلْقه ومصيره. والإسلام قد قرّر التصور الصحيح والكامل عن الإنسان من الناحيتين: العضوية (الخِلْقَة والتركيب)، والمعنوية (الروح والنفس) كما يتبيّن ذلك من نصوص القرآن المجيد، فضلاً عن الوظيفة التي قدّر الله تعالى له من مدى خطورة المهمة التي ندب إليها هذا الكائن البشري! وأهمية الأمانة التي

ارتضى حملها. . إلاَّ أنَّه وفي مقابل ما يتمتع به الإنسان من خصائص أهَّلته لأنْ يكون خليفةً لله العلي العظيم في الأرض، وسيداً على مخلوقاتها، فإنَّ القرآن الكريم يؤكد أنَّ هذا الإنسان خلق ضعيفاً وأنَّه محل ابتلاء في حياته، ومحاسب يوم القيامة على أعماله في دار الدنيا، التي يتقرر في ضوئها مصيره في الآخرة: في الجنة أو في النار!. .

ووجود الإنسان على الأرض سيداً لمخلوقاتها، لا ينفي عنه تبعة الطاعة لخالقه، وعبوديته لربه تعالى الذي خلقه فسواه فعدله. . من هنا كان تكليفه بالاستخلاف وبحمل الأمانة. وبمقدار ما وهبه الله تعالى من قوىً، فقد جعله في مواجهة ومصارعة قوى الأرض العاتية، من براكين وفيضانات ورياح وأمطار، وفي الوقت نفسه سلّطه، ليس فقط على مخلوقات الأرض الأخرى؛ بل وعلى ثرواتها وخيراتها الوفيرة. وله أن ينشىء فيها وينمّي ما يشاء لمنافعه، بل وأن يغيّر في معالم موجوداتها من الجبال والأودية والسهول والأنهار إلخ. . . ولكنه في النهاية يجب أن يقرن ذلك كله بإقرار العبودية لربه، رب السماوات والأرض، وأن يحفظ عهده مع خالقه ومدبره. وقد هداه القرآن الكريم إلى خلق الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]. وفي تفسير مدلولات بعض هذه الآيات الكريمة

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩ ـ ١٢.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ألا إنَّ الأرض التي تُقلّكم، والسماءَ التي تُظلّكمُ، مطيعتان لربّكم، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما تَوَجُّعاً عليكم، ولا زُلفةً إليكم، ولا لخيرٍ ترجُوانِهِ منكم، ولكن أُمِرَتا بمنافِعِكم فأطاعتا، وأُقِيمَتا على حدود مصالحكم فقامتا».

عطاء جزيل من رب العالمين لإنسان الأرض، حتى بات هذا الإنسان ـ وربما كل فردٍ منه ـ عالَماً قائماً بذاته، فكان جديراً ألاَّ تُبنى معرفة النفس في الإنسان إلاَّ وفق هذا المعطى الشامل، الذي يأخذ الإنسان كوحدة لا تتجزأ، وككلٍّ لا يتفتت، لأن الغاية في النهاية بناءُ الإنسان المتكامل، الذي يقدر أن يحافظ على التراث الإنساني الذي وصل إليه من الماضي، وأن يشيد عوامل التقدم والتطور في الحاضر، وأن يصوغ الإمكانات القويمة لمستقبلٍ أفضل وأرفع... ولن يقدر على ذلك إلاَّ الإنسان الذي يجمع إلى عطاء ربّه الجسدي فضلَهُ سبحانه عليه في التفوق الفكري والتصور الذهني والصحة النفسية، أي العناصر التي تزيد من صفات التكامل الذي يتيح الترقي والإنتاج في جميع مجالات الفكر البشري.. وإلاَّ كان الأمر بخلاف ذلك، أي عندما يهمل الإنسان وجوده ويتنكّر لنفسه ويجهل نعمة خَلْقه فإنه يصل إلى مرتبة الحيوان، ويصبح أدنى إلى البهيمية أو الجماد، ويضيع عن كل قيمة إنسانية ـ بعد أن يخسر نفسه كلياً ـ مما يخالف فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وبالتالي يجحد نعمة الخالق وفضله عليه..

ولأن المعوَّل عليه دائماً هو نفس الإنسان، فقد وجب الاهتمام بهذه النفس من خلال تربية واعية حكيمة وفاعلة، ومن خلال دراسات ومناهج تعرف قيمة الإنسان وقدره، بعيدة عن المعطيات الحاضرة في «علم النفس» كما هي معروفة وشائعة اليوم في الغرب والشرق.

ومعرفة النفس لا بد أن تبدأ من منطلق صحيح، من منفذ يمكِّن من الولوج إلى داخل النفس. فما هو هذا المنفذ، أو ما هو هذا الباب الذي يمكِّن من الوصول إلى أعماق النفس البشرية؟

المدخل لمعرفة النفس البشرية

لقد استخدمت في أبحاث علم النفس طرق عديدة ومختلفة ـ كما رأينا ـ وقد يكون بعضها صالحاً في حدوده الدنيا، وبعضها فاسداً في أصله، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الباحثين لم يدخلوا إلى معرفة نفس الإنسان من الباب الأصلح، ونعني به الباب الذي أوجدَهُ رب العالمين وخالقُ النفس، كي يلجه أهل العلم والمعرفة لمعرفة النفس. أي كما أنه لا يمكن الدخول إلى البيت بصورة عادية إلاّ من بابه، فكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر العلوم والمعارف التي يجب أن نلج إليها من مداخل أبوابها. . وهذا ما تدلنا عليه التربية القرآنية للمؤمنين، فقد كانوا يحتاطون كثيراً وهم في حالة الإحرام للعمرة أو الحج، فجعلوا كوّاتٍ في جدر بيوتهم حتى يدخلوا فيها لحين فكِّ الإحرام، فأنزل الله تعالى الآي الحق الذي يأمرهم بالدخول من الأبواب بقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[1]. والمقصود ليس البيوت التي نسكن فحسب، بل وأيضاً المسائل والقضايا التي تشغل بال الإنسان، ويريد معالجات لها. فيكون من المعاني الأخرى للنص القرآني: لا تطرقوا الأمور، ولا تبحثوا في القضايا والمسائل من جهات جانبية أو ملتوية، بل اقصدوا المنافذ والجهات المستقيمة، ولا تسلكوا سبل المعرفة إلاَّ باتباع المنهج الصائب الذي يقود إلى حقيقة المعرفة، أية معرفة. . ولا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

خلاف بين العقلاء على أنَّ منهج الله تعالى يسمو على المناهج جميعاً، وأنَّ أبواب الله المشرعة للمعرفة لا تعدّ ولا تحصى، هي وحدها التي توصل إلى المداخل الآمنة والسليمة. لذا كانت وهمية - إلى حد بعيد - تلك المناهج التي اتبعوها في معرفة النفس البشرية، لأنها لم تتخذ منهج الله تعالى باباً موصلاً، وسبيلاً قويماً لذلك...

وليس تجديفاً على الحقيقة القول بأنَّ من يتبع منهج الله تعالى في أي أمر من الأمور، لا بدَّ أنْ يهتدي إلى الحقائق المتعلقة بهذا الأمر، ومن يخالف هذا المنهج ويبعد عنه، فإنه يكون قد ضلَّ وأضلَّ معاً. ولا مجال للمقارنة بين علم ربّانيٍّ نُعطاه من الله تعالى، وعلوم وضعيةٍ نأخذها من بني البشر. وهذا ما ينطبق على الأنفس البشريةَ التي يجب علينا اتباع ما أنزل الله تعالى بشأنها من آيات بيّنات، تدلّ على المنهج الذي يجب أن نعتمده لمعرفة نفوسنا. لأن هذا المنهج هو من صنع الله تعالى، تماماً كما هي النفس من صنعه - سبحانه - وخلقه. وليس هنالك أدنى شك بأنَّ من يخلُقُ هو أدرى وأعلم بما خَلَق. وفي القياس على الفعل البشري - مع الفارق الكبير بين الله تعالى الخالق والإنسان المخلوق، نجد أن من يخترع آلة أو أداةً، مثلاً، يكون أكثر معرفة من غيره بكيفية تركيبها وتشغيلها وإدارتها واستخدامها، كما أنه أدرى بكيفية معالجة أعطالها وإصلاحها عندما يطرأ عليها عطل أو تصاب بخلل.. فإذا أيقن الإنسانُ أن الله تعالى هو خالق النفس، وهذا ما ينبغي له أن يؤمن به ويستيقن منه - رغم إنكار المنكرين وجحود الجاحدين - فهو إذن سبحانه وتعالى أعلم بِما أودع فيها من طاقات وأسرار، لذا كان محتماً أن نهتدي إلى معرفة هذه النفس عن طريق ما هدانا الله تعالى إليه. لأنه - سبحانه - هو الذي

خلق الإنسان، وهو أعلم بطبيعته وأسرار تكوينه وخفايا نفسه. حيث يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(1)]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[(2)]. فيكون سبيلنا لمعرفة النفس هو القرآن الكريم، كتاب الله، والسنة النبوية الشريفة التي بيَّنت هذا الكتاب للناس، وليس سواهما.

والقرآن الكريم الذي تنزَّل لهداية الإنسان ولتعليمه وتنظيم حياته، إنَّما هو كتابٌ يهدف لإصلاح الإنسان. لذا نجد فيه وصفاً لأحوال النفس البشرية، ولأسباب انحرافها ومرضها وطرق تربيتها وتهذيبها وعلاجها، مثلما نجد فيه كثيراً من الحقائق الأخرى عن خلق الإنسان في الأصل، وعن نظام الخلق المودع في سلالة آدم لاستمرار الحياة البشرية..

ونجد أيضاً في الحديث النبوي الشريف ما يوضّح تلك الحقائق التي أوردها القرآن الكريم عن الإنسان وحياته النفسية.. ولذلك فإنَّ ما أتى به الكتاب والسنة عن الحياة النفسية يعتبر حقائق مطلقة ويقينية، وعلينا أن نأخذها مسلمات لبحث معرفة النفس.

والقرآن المجيد ـ بوصفه كتابَ الله تعالى المنزَّل للإنسان ـ قد قام رسول الله ﷺ بتبلغيه للناس حتى يسيروا على هديه، ثم أُمِرَ الذين اهتدوا بهديه أن يحملوه دعوةً واضحةً خالصةً لوجه الله تعالى كي يغنوا الفكر البشري، والنفس البشرية، بوفرة أدلته وفيوض آلائه حول خلق الإنسان، وما أودع فيه خالقه من حواس وأعضاء، ولكل منها وظائفه

---

(1) سورة الملك، الآية: ١٤.

(2) سورة ق، الآية: ١٦.

وخواصه، كما وفَّر له المعارف حول خلق السماوات والأرض وارتباط الإنسان بهما. . . إلى كثير من المعارف التي لا مجال لذكرها الآن. . هذا الكتاب المبين يجب أن نرتكز عليه في معرفة وجودنا الإنساني، وفي معرفة النفس البشرية، كجوهرٍ حتمي في الخلق البشري، لأنَّ فيه الطريق المستقيم الذي يقود الإنسان إلى بلوغ النضوج الفكري، والتكامل الحياتي. وليس فيه قطّ مدعاة لمغالاة مغالٍ، أو كيد كائد، أو كراهية متعصب. . كما لا مجال للتستر وراء تأويله أو تفسيره بغرض العنصرية والحقد. . إنه كتاب مجيد، وقرآن حكيم، من لدن قدير، أنزله منهجاً للحياة كلها، منهجاً لتقويم علاقات الفرد والمجتمع، بل وسائر العلاقات الإنسانية من دون أن يدخل في جزئيات أو تفصيلات علمية بحتة.

وفي القرآن نجد خطاباً للفرد، وخطاباً للجماعة. إنه يواجه هذا الإنسان في فرديته، وفي نزعته الجماعية، ونزعته الإنسانية. فهو إذاً يخاطب جميع العقول والقلوب، يخاطب الناس، كل الناس، لإنشاء تصور خاص عن الوجود، ولإقامة نظام خاص في الحياة، وتكوين مجتمع خاص في العلاقات.

لقد أمرَ الله تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أن يبلِّغ هذا القرآن «للإنسان»، وليس لأمة واحدة أو لشعب واحد. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾(١). وما كان على الرسول إلاَّ البلاغ المبين. فالذين آمنوا به وبما أنزل إليه من ربه، عليهم أن ينشئوا أمةً جديدة في الأرض تضطلع بدور خاص في قيادة البشرية، فتبني نموذجاً فريداً من

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

العلاقات المجتمعية والإنسانية غير مسبوق بنموذج مماثل، وتعيش حياة نموذجية غير موجودة من قبل، وتقرر قواعد لهذه الحياة غير معروفة من غيرها.. ثم على هذه الأمة أن تقود الناسَ جميعاً إلى الحياة النموذجية والمجتمع النموذجي، فيستريح الناس من كثرة المشاكل والمآزق التي يتخبطون فيها، وتعمر الأرضُ بما يملأها من آيات الإيمان والتقديس، والروابط الأخلاقية الفاضلة، والعلاقات القائمة على التعاون والتكافل والتضامن من أجل البِرِّ بالناس ونشر الخير لهم..

هذا ما أراده القرآن الكريم عموماً، وما يواجه به العقول والنفوس معاً.

المدنية الحاضرة والإنسان

إن الإنسان في هذه الحياة، هو ابن بيئته ومحيطه لا ابن طبيعته ومزاجه. بمعنى أنَّ الأوضاع التي تحيط بالإنسان غالباً ما يكون تأثيرها قوياً عليه، إلى الحد الذي يمكن أن نتصوَّر بأنها هي التي تقرر له حياة القلق أو حياة الطمأنينة.

والأوضاع التي تحيط بالإنسان هي كل ما يؤثر فيه كفرد، وكعضوٍ في المجتمع عليه التزامات تجاه أسرته وأقاربه وأصدقائه، وكمواطن يتأثر بما يحدث في وطنه، وكإنسان يشغله ما يجري في هذا العالم. وهي أوضاع كما نعلم كثيرة جداً ومتنوعة، وتكون متقلّبة متغيرة بصورة دائمة. فإذا تغيّرت نحو السيئ أو الأسوأ ساد القلق حياة الإنسان واستبدّ به الاضطراب النفسي، ما يوقعه في الكآبة والانقباض، ويجعله عرضةً لأمراضٍ نفسيّة معقدة. أما إذا تغيّرت

الأوضاع نحو الحسن أو الأحسن، فإن الراحة تعمّ حياة الإنسان ويغدو مرتاحاً إلى حاضره ومطمئناً إلى غده. من هنا، إذا نظرنا إلى الواقع نظرة جدية، نلاحظ أنَّ كل حادثٍ ـ وربما كل خبر ـ من شأنه أن يترك أثراً في نفس الإنسان، إمَّا أن يكون بليغاً وإمَّا أن يكون عابراً، وذلك بحسب درجة تأثّره واهتمامه بما حصل. ولعلَّ هذا التأثر من أهم خصائص النفس البشرية وفقاً لما خلقها عليه الله تعالى حيث يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ ثم أشار سبحانه إلى مدى تأثرها بما يجري في حياة الإنسان، فقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾. من هنا كان بإمكان الإنسان أن يحصل على الطمأنينة أو السكينة في نفسه مهما تقلبت الأوضاع من حوله، رخاءً أو شدّةً، عن طريق الإيمان بالله تعالى. فالإيمان يريح بال الإنسان، ويسلّحه بالصبر، وينزل في قلبه السكينة، ويجعله غيرَ بَطِرٍ من نعيمٍ، ولا خائفٍ من ضَرٍّ حتى لو أدّى به إلى الموت. يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1]. ويقول الرسول الأكرم: **«عجباً لأمر المؤمن فإنْ أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن، إنْ أصابته سَرّاءُ شكَرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضَرّاء صَبَرَ، فكان خيراً له»**[2]. إذاً فالسبيلُ الأقوم لطمأنينة النفس هو الإيمان الحقُّ وطريقِهِ اتباع القرآن الكريم. ولكن ـ ويا للأسف ـ لم يُراعِ الناسُ هذا القرآن وحقائقه، لأنهم لا يريدون مراعاة أنفسهم ومصالحهم. لذلك أهملوا طريقة القرآن، وتركوا منهج الله تعالى، وابتدعوا طرائق ومناهج للمعرفة وأنماطاً للعيش، ما خدمت الإنسانَ إلاّ بالشيء القليل. وخير

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٥ ـ ٦.

(٢) صحيح مسلم باب الزهد، ص٢٦٤.

ما ينبئ عن ذلك عيش الإنسان بواقعه الراهن. فهو على الرغم من أَنَّهُ أقام حضارات ومدنياتٍ وصروحاً للعلم والمعرفة والعمران، لا يزال القلق يعشش في نفسه، ولا يزال الشقاء يخيم على حياته. بل نجده كلما أوغل في المدنية كانت مدنياته سبباً زائداً في إرهاقه وتعاسته وضياعه. لقد أرهقت المدنيات المادية حياته، وأدخلت إلى نفسه الاضطراب وإلى جسمه الأمراض، حتى قضت على أسباب الطمأنينة والسعادة عنده، رغم كل المظاهر البراقة التي تخدعهم بها المدنية!...

ويعبّر «أليكس كاريل» وهو أحد كُتَّاب الغرب، عن هذه الحالة التعيسة التي وصل إليها الإنسان المتمدن في كتابه عن الإنسان، وعنوانه: «الإنسان ذلك المجهول». فيقول: «إنَّ الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا.. فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، ومن شهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة إلى حجمنا وشكلنا..

«ومن الواضح أنَّ العلم لا يتبع أية خطة، وإنما يتطور اعتباطاً. وبالجملة إنَّ الاختراعات تتطور دون إدراك سابق لنتائجها.. ومع ذلك فقد أحدثت هذه النتائج ثورة في العالم، وأوصلت حضارتنا إلى ما هي عليه الآن.. ولقد تقبَّل الإنسان المنازل التي تستخدم التدفئة بالبخار والإضاءة الكهربائية والمصاعد، لسبب واحد فقط هو أنَّ هذه المخترعات والاكتشافات مغرية ومريحة، لكن لم يحسب أي حساب لتأثيرها المحتمل فيما بعد على البشر..

«إنَّ المدنية العصرية تتكون من مبان هائلة، بينما تمتلئ شوارعها الضيقة بمخلفات البترول وذرات الفحم والغازات السامة. وتزدان هذه الشوارع بالمطاعم والبارات التي تقدم للناس الكحول التي تحرق الكبد وتحجب العقل، كما تقدم الأطعمة الكيماوية المغشوشة فتسمم الأجساد والنفوس.. وتمزق أعصابَ القوم المنهكين ضوضاءُ سيارات الأجرة والنقل والأوتوبيس، وتحتشد في أسواقها المحصورة الجماهير الغفيرة بصورة دائمة. وهكذا يتضح أنَّ من خططوا لهذه المدن لم يقيموا وزناً لخير سكانها».

هذا ما ذهب إليه أحد كُتَّاب الغرب نفسه، وهذه هي النتائج التي يحصدها الناس اليوم من العلوم العصريّة، ومن اعتمادهم الطرق والمناهج الفكرية على اختلافها وتناقضها.

وإنه لمن الثابت أنَّ المجتمعات الأكثر شقاءً وإرهاقاً لأفرادها ومجموعاتها، هي المجتمعات الأكثر مدنيةً وتقدماً تقنياً. وتغلب على حياة أفراد هذه المجتمعات الميول المادية على اختلافها، لأنهم ابتعدوا عن القيم المعنوية، وتركوا ـ أو كادوا أن يتركوا ـ الإيمان بالله نهائياً. فالعقلية الغربية السائدة اجمالاً، لا تنكر حقيقة وجود الله تعالى، لكنها لا ترى فائدة ـ وهي أيضاً لا تفسح مجالاً ـ لتطبيق أوامر الله تعالى ونواهيه على النظم التي تعيش في ظلها. حتى أنها اصطنعت نمطاً جديداً للتفكير يقوم على العجز الفكري للإحاطة بالحياة ككل. وبات الأوروبي أو الأميركي أكثر ميلاً لأنْ ينسب الأهمية العلمية إلى العلوم التجريبية، أو إلى الأفكار التي يؤمِّل منها أنْ تؤثر في صلات الإنسان المجتمعية بطريقة ملموسة.. وبما أن حقيقة وجود الله تعالى لا تقع تحت هذا النمط الفكري القائم على المعادلات المادية

والحسية، فإن التفكير المهيمن على الغرب يميل ـ ابتداءً ـ إلى إسقاط النظام الفكري المنسوب إلى منهج الله تعالى من دائرة الاعتبارات المادية أو العملية، إسقاطاً نهائياً.

وتسيطر على العالم الغربي اليوم المغريات المادية، ولا أثر للروحانية فيها إلاَّ قليلاً... وتغلب على الناس هناك مادية تملك عليهم القلوب والعقول، وتُخضِعُ لها الشعور والإحساس. وهذه المادية هي التي تتحكم بالنفوس من غير أنْ يكون للديانات السماوية عموماً، والنصرانية خصوصاً ـ باعتبارها دين تلك البلدان ـ إلا تأثير يسير، اللَّهُمَّ إلاَّ من حيث التعصب لبعض الطقوس والمعتقدات التي لا يرضى الله سبحانه عنها. وهذا ما يتضّح لكل ملاحظ لا ينخدع بمظاهر الاحتفالات الكنسيَّة، ولا يغتَرُّ بالمناسبات التي تجذب كثيراً من الناس للترويح عن النفس، أكثر من انجذابهم إلى أداء الفرائض الدينية!...

لا بل إنَّ المجتمعات في الغرب التي تدّعي المدنية، لا تقيم اعتباراً لمكرمة الخلق البشري، وهي تهدر قيمة الإنسان ـ في جزء كبير منها ـ سواء شعرت بذلك أو لم تشعر.. فها هنَّ معظم نساء الغرب يسعينَ منذ الصباح الباكر وراء لقمة العيش، هذا عدا كثيرات من ذوات الحظ التعيس والمنكود، اللواتي يقدمن على بيع أجسادهنَّ من أجل تأمين المال الذي يمكّنهنَّ من مواجهة أعباء الحياة. فبئس هذا الظلم للمرأة كفردٍ، وبئس تلك المجتمعات كجماعات إنسانية. ولا يعتقدنَّ أحد أننا ضد عمل المرأة ومشاركتها للرجل، ولكنَّ هناك فارقاً كبيراً بين العمل الذي يُشغل المرأة ويُرهقها حتى يكاد يصرفها عن واجبات بيتها وعائلتها، وعملٍ قد يترك لها مجالاً أوسع لتحقيق

رسالتها في الوجود البشري. فهي قبل كل شيء أمٌّ، وربةُ منزل، وسيدةٌ مصونةٌ في المجتمع، وعلى عاتقها أمانة مقدسة في تهذيب النفس الإنسانية من خلال تربية أطفالها تربية سليمة، كما يقع على عاتقها جزء كبير من مسؤولية صقل المشاعر الأسرية، وتوطيد العلاقات الإنسانية، بحيث لا تعدل مهامها تلك أية أعمال أخرى قد تقوم بها، مهما كانت نتائجها وآثارها على المجتمع.

وأما من حيث العلاقة بين الرجل والمراة - باعتبارها الأساس للحفاظ على كيان المرأة - في نظر الإسلام، فهي علاقة نظيفة محترمة، هدفها خدمة النوع البشري عن طريق الإنجاب الذي يأتي من علاقة زوجية شرعية، لا من روابط الزنى والسفاح. إذْ إنَّ بقاء النوع البشري، بل وتقدمه في مضامير المدنية والحضارة، يتوقف على المرأة مثلما يتوقف على الرجل، فلا يجوز والحالة هذه إرهاق المرأة وإبعادها عن دورها الذي اختاره الله تعالى لها. وكل عمل بخلاف ذلك إنما يعني تجاهل حقيقة الإنسان في نفسه، وهدر قدرٍ كبير من قيمة هذه النفس ولو في نصفها الآخر - على الأقل - الذي تكوّنه المرأة.

المزيد من معرفة النفس

من هنا كانت دعوتنا إلى مزيد من معرفة نفس الإنسان، لكي يمكن إعادة بناء المجتمعات البشرية وفقاً لمستلزمات إنسانية الإنسان. وليست هذه الدعوة إلا لأنَّ هناك نظرتين مختلفتين إلى واقع الحياة وطرق العيش، تسودان العالم كله اليوم. وهاتان النظرتان هما:

النظرة الأولى: تقوم على انقسام الناس إلى فئتين: فئة الذين يريدون العيش بالسلوك الحسن والعمل الصالح على مختلف مستويات

العلاقات بين الناس، وفئة الذين لا يفرقون في سلوكهم وأعمالهم بين قطبي رحى تلك العلاقات: قطب الشرف والنزاهة وقطب الفسق والفساد، مهما تنوعت بواعثهما وأساليبهما. والفئة الثانية هي على ما يبدو، الغالبة على الناس الذين يريدون هذه الحياة الدنيا داراً للوجاهة والاستكبار، وساحة للصراع على النفوذ والمال، مثلما يريدونها داراً للَّهو والمتع، ونيل أكبر قدر من اللذائذ وإشباع الشهوات. فكان من الطبيعي أنْ تكبَّر الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية عند معظم الناس، لأنهم يعيشون في ظل تلك الظروف والأوضاع التي تضغط عليهم لشدة تبايناتها وتقلباتها، وإنْ كانَ مقدار تأثر الإنسان بطرق عيشه مرتبطاً إلى حدٍّ بعيدٍ بنوعية التربية التي قد تلقاها، فإذا كانت تربيته صالحة، فقد يساعده على تقبل مختلف الاحتمالات التي قد تواجهه.. فمثلاً إذا استيقن أنَّ الأوضاع تفرض عليه القبول بشظف العيش، فالرغيف الواحد قد يكفيهُ. أما إذا انصبَّت ميوله على تأمين البحبوحة في العيش، فإنَّ نفسه لا تعود تصبر على الشظف والفقر، بل تطمع دائماً لزيادة الكسب وجمع المال.. فالنفس قد تكون في حالة رضىً أو سخط بحسب الظروف التي تحيط بالإنسان، وبما يربي نفسه عليه. يقول الشاعر:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتَها ... وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

والله تعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]. وهذا يعني أنَّ الإنسان قد يتجاوز حدَّه ويستكبر شأنه، ويعدو طوره عندما يتوهم أنه أصبح مستغنياً - في الحالة التي يكون

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ و٧.

عليها من الغنى أو الجاه أو الصحة ـ عن خالقه، إلاَّ من عصمه الله تعالى ورأى في عطاء ربه له وإغنائه، نعمةً تستحق مزيداً من الشكر والحمد.

النظرة الثانية: وهي النظرة التي تقوم على مفاهيم إسلامية. فالنظرة الإسلامية ترى أنَّ الإنسان هو محلٌّ للابتلاء في حياته، وأنَّ هذه الدنيا هي دار اختبار له وامتحان. وهذا الاختبار هو الذي يقرر مصيره ومقامه يوم القيامة، يومَ يحاسب الإنسان على كل ما قام به في حياته في دار الدنيا. إنه يوم امتحان لا يجوز أنْ يُنسى، بل على العكس يجب الاستعداد له بكل عزم وثبات، وبكل إيمان وإخلاص، لأنه لا مجال وقت الامتحان للهوٍ أو عبثٍ، ولا لعذر وندم، بل هنالك نتائج تترتب على أعمال سابقة، فإما الفوز وإما الخسران.

وقد يقدر الإنسان أن يفلت من الامتحان في هذه الدنيا، فلا يحاسبُ من أحد على ما يأتيه، أما يوم الآخرة ـ يوم القيامة ـ فلا مجال للهروب منه أو الإفلات من قبضته، إنه محتوم على الإنسان أن يمرَّ فيه، لتجازى كل نفس بما كسبت..

ومن خلال النظرة الإسلامية هذه تنطلق جميع الأعمال وجميع المفاهيم والقيم، بما فيها العبادات التي يؤديها الإنسان سواء في منزله أو في أماكن العبادة. إلاَّ أنَّ لمكان العبادة وفق هذه النظرة، مكانة خاصة من التقدير والاحترام، فلا يجوز أنْ يكون بيتٌ يعبد فيه الله تعالى محلاً لأيِّ لهوٍ أو عبث أو تفكير بغير العبادة والصلاة. والذين يحاولون الخروج على هذه الاعتبارات الدينية يلحقهم اللوم من الناس، والذم من الله تعالى.

ونحن المسلمين تعني لنا هذه النظرة بجديتها الالتزام بها بصورة كاملة، لأنها إحدى السبل أو المفاهيم التي نبني على أساسها نفوسنا وشخصيتنا الإسلامية، وفقاً لما يريده الله تعالى ورسوله الكريم. وقد يكون المزيد من معرفة النفس ضرورة لنا لا غنى عنها، لأنه يوقفنا على حدود قدراتنا، وحدود المجهول الذي لا حيلة لنا وراءه. ومعرفة النفس ضرورية لنا أيضاً لكي نحدّد في ضوئها ما الذي نملك القدرة عليه، وما الذي لا نملك التصرف فيه ويخرج عن طوقنا الإنساني. وعندما نعرف ـ تمام المعرفة ـ ما الذي يريده الله تعالى منّا، ولا نشغل أنفسنا بالذي لا يريده الله تعالى منا، فإننا نلتزم عندها حدودَ الله تعالى وحدود طاقتنا البشرية، فلا نهدر هذه الطاقة بلا جدوى، ولا نتخبَّط في هذه الحياة بلا هدى، كما يفعل الكثيرون منا اليوم، من غير تفكير أو شعور، فيعيشون بلا مبالاة كلّية، من دون أن يتحرّجوا من شيء!...

ثم إنَّ من الواجب الديني على المسلمين أنْ يعرفوا النفس على حقيقتها، لأنها هي محل الثواب والعقاب يوم الحساب. فعندما خلق الله تعالى الإنسان، خلق جسده أولاً من سلالةٍ من طين، ثم أمدَّه بالروح التي تهبه الحياة. ولكن هذا التكوين من جسد وروح لم يضفِ على هذا المخلوق قيمة إنسانية، أي إنه لم يصبح إنساناً إلا بعد أن أمدَّه خالقه بملكة المعرفة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]. ولكن أين تكمن المعرفة؟ إنها في النفس. وهنا تأتي الآية القرآنية الكريمة لتدل على إيجاد النفس، وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٧.

وهكذا صرنا نعرف أنَّ خلق الإنسان اكتمل بهذه النفس التي فيها ملكة العلم والمعرفة، أي الملكة التي تقدر على الربط والتميز والإدراك، لتكون هذه النفس محلاً للاختيار والاختبار، مثلما هي محل للحساب يوم الدين . .

وهنا لا بد من إعادة التأكيد على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: هو أن معرفة النفس لدى الإنسان، بمفهوم الإسلام، تقضي أن لا تكون منفصلة عما يحيط بها من ظروف وظواهر مختلفة، كما تقضي بتجاوز حالاتها الظاهرة إلى حالاتها الداخلية، وما يحيط بها في الخفاء غير الملموس أو المحسوس لبني البشر.

الأمر الثاني: هو أنَّ تكوين الإنسان من جسد وروح ونفس لا يعني أنَّ أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة منفصل عن الآخر، أو يعمل بمعزل عن غيره. بل ـ على العكس ـ إن هذه العناصر متآلفة، متواصلة، متفاعلة بارتباط وثيق وتمازج كلي، بحيث يتوقف وجود أحدها على العنصرين الآخرين. وعليه فإذا تُوفِّيت النفس أو ذهبت إلى غير رجعة، خرجت الروح وفني الجسد. وإذا خرجت الروح ذهبت النفس وفني الجسد أيضاً. وإذا قطع الرأس أو توقف القلب أو احترق الجسد أو أصيب بما يعطِّل الحياة فيه، خرجت الروح وأجابت النفس.

الأمر الثالث: هو أنَّ الإسلام يأخذ التكوين الإنساني كُلاً لا يتجزأ. فهو من ناحية الجسد يقصد هذه الصورة الرائعة للإنسان بجميع أعضائه الخارجية الداخلية، والوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء بدقة متناهية من أصغر شعيرة عصبية إلى أكبر عضو في جسد الإنسان.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]. . ويظهر هذا التقويم الأحسن بهذا المظهر الجسماني الذي يمتاز به المخلوق البشري عن سائر المخلوقات الأخرى من كائنات حية أو غير حية.

وأما من ناحية النفس فقد أورد القرآن الكريم بشأنها آيات كثيرة تبين جميع أحوالها، وهذه الأحوال ستكون مدار أبحاثنا في هذا الكتاب.

وأما عن الروح، فكما قلنا، أمرها مخفيٌّ عنا، وحقيقتها مطوية عن مداركنا. لقد أرادَ الله تعالى أن يبقي الروح سراً لحكمة ربانية، فما علينا إلاً أن نتقبَّل هذه الحكمة لأنها في مصلحتنا بلا ريب. فالله سبحانه وتعالى لا يريد لعباده إلا الخير، لأنه هو اللطيف الخبير.

ونحن لو شرَّحنا الجسد واطلعنا على تركيبه، لأمكن لنا في حال المرض العضوي معالجة ما يطرأ عليه أو يصيبه من خلل في الأعضاء والوظائف، ويعود الجسد بعد المعالجة معافىً سليماً.

وكذلك النفس إذا مرضت فإنَّ علينا محاولة علاجها بما علَّمنا الله تعالى ورسوله الكريم، من معالجاتٍ مبيَّنة في مصادرنا الإسلامية.

بقيت الروح ـ التي لا نعلم عنها شيئاً ـ فلا نستطيع أن نقول بأنها تمرّ في حالات من المعافاة أو السقم كما لا يجوز ان ننفي ذلك. . وهنا نقف عاجزين فعلاً لأنَّ الروح من أمر الله ـ تعالى ـ ولا علم لنا أكثر من ذلك. .

وعندما يقف الإنسان على حقيقة الأفكار الإسلامية المتعلقة

(١) سورة التين، الآية: ٤.

بالوجود الإنساني، فإنَّه يجد أن منطلقاتها وأسسها الصحيحة مبنية على معرفة النفس الإنسانية دون الدخول في ماهية الروح وابتداع النظريات حولها، لأنها شأنٌ ربانيّ، فلا سبيل للإنسان لمعرفتها.. وأهمية معرفة النفس أنها تجعل الإنسان قادراً على توطين نفسه على التكامل في وجوده كله، لأن الإنسان مدعو لأن يتكامل في هذا الوجود. وهذا التكامل ليس موقوفاً على صغر الإنسان أو كبره، ولا على غناه أو فقره، ولا هو مرتبط بالمركز الأُسَري أو المجتمعي، كما أنه ليس مقصوراً على بيئة معينة، أو على زمن دون آخر... إنه عمل متواصل وجهد دائم، يجب على الإنسان أنْ يوطِّنَ نفسه عليه في كل مراحل حياته، وأن يقوّمها ويدربها على جليل الأعمال، وعلى اعتناق القيم السامية والسبل القويمة... وقد يستدعي منه ذلك في أحيان كثيرة قهر النفس، لأن النفس أمارة بالسوء، فعليه أن يمارس هذا القهر مهما عظمت آلامه، لكي تعود النفس إلى الاستقامة وتنأى عن الانحرافات، فيتحقق للإنسان تكامله، وتتحقق له إنسانيته. وقديماً قال الشاعر:

يا خادمَ الجسم كَمْ تَسعى لخدمتِهِ   أتطلبُ الربحَ مما فيه خسرانُ

أَقبلْ على النفسِ فاستكمِلْ فضائِلها   فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

وتوطين النفس على التكامل هو أقوى دافع للإنسان كي يكون سليم الطويَّة نقيَّ السريرة. فالأصل هو الداخل في الإنسان، هذه الأعماق في النفس التي تنطوي على الأسرار، وتخبئ الأفكار وتحتوي العواطف، وجميعها تتفاعل في النفس بحركية وديناميكية لا تهدأ ولا تستكين.

والمظهر الخارجي له أيضاً تأثيره على النفس، وبقدر ما يحاول

الإنسان المحافظة على لياقة هذا المظهر وإتقانه بكياسة واتزان، بقدر ما يحس بنوع من الارتياح الداخلي... هذا ما لم يغترَّ الإنسان بنفسه ويزهو بمظهره، وعندئذٍ يطيح بنعمة الخلق التي وهبه إياها الله تعالى.

وقد دلَّنا القرآن الكريم على هذا الاغترار. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[1]. وهذا الاغترار يأتي قبل كل شيء من نفس الإنسان، فيظهر متكبراً متعجرفاً لا يعجبه شيء إلاَّ هواه، أو ظنّه القدرة في نفسه.. بل ويتطاول بهذا التكبر إلى حد الغرور الذي يُنسيه أنَّ كلَّ ما فيه من نعمة، إنّما هو من عطاء ربه الكريم الذي خلقه فسواه فعدله. وهذا الغرور هو ما يجعله يجحد فضل الله تعالى الذي يقدر أن يصوره كما يشاء، وأن يركبه على الصورة التي يشاء... بل قد ينسيه كِبْرُهُ أن خالقه قادرٌ على أن ينكّسه في خلقه ساعة يشاء وكيفما يشاء، فتعساً للمتكبرين المغترين على جحودهم، وَصَغَارِ نفوسهم!

وعندما نذكر أمراض النفس فإن الغاية تكون العمل على شفائها من تلك الأمراض التي تتخبط بها. فالنفس ـ كما الجسد ـ لها عللُها وأمراضُها. ولكنَّ أمراض النفس غالباً ما تكون أشد إيلاماً في وقعها، وربما كانت معالجتها أصعب من أمراض الجسد، إذ إن ذلك أن الوصفات العلاجية أو العمليات الجراحية للجسد قد تشفي المريض أو المصاب، إذا ما صحَّ التشخيص أو نجحت الجراحة. بينما أمراض النفس قلَّما تكون الوصفات والمعالجات لها ناجعة وشافية، إلاَّ إذا

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

توصلنا إلى معرفة هذه النفس على حقيقتها، وكانت لديها هي القابلية أو الاستعداد للشفاء. وهذه الصعوبة في معالجة النفس متأتية من طبيعة النفس الخفية، وما قد تحمل في طياتها من غموض وتعقيد. فقد يشعر الإنسان أحياناً بالانقباض أو الحبور من غير أنْ يعرف سبباً لهذا أو ذاك، ومثله شعوره بالقلق أو الراحة، بالكبت أو الانفراج.. إنها أحوال نفسية متنوعة ومتعددة الأسباب والمظاهر، والإنسان غالباً ما يجهل تلك الأسباب في دخل نفسه.. لذلك كان هناك تلازم بين صحة النفس وتكاملها، وبين مرض النفس وانحطاطها. وكما هو معروف، فإن أمراض النفس لا تنعكس على أصحابها وحدهم، بل كثيراً ما يتأثر الآخرون بأمراضهم، ولا سيما الأقربون إليهم، وخاصةً المحبين منهم.

وبما أنَّ الإنسان يعيش مع غيره وعليه التزامات مادية وأدبية ودينية، كانت صحة النفس من الحاجات الضرورية التي يجب الاهتمام بها، لما لها من تأثير على حياته الفردية والعائلية والمجتمعية والإنسانية. وترتبط صحة النفس بمدى علاجها الذي لا يكون إلا بمعرفة كافيةٍ لهذه النفس.

مصادر معرفة النفس

إن معرفة النفس الإنسانية لا تستقيم إلا بفهم دقيق للتصور الإسلامي للإنسان، والوقوف على وجهة نظر الإسلام في العوامل المكوّنة للشخصية السوية والصحة النفسية، أو أسباب أمراض النفس، وما ينجم عنها من سلوك منحرف يخالف منهج الحياة.

والأبحاث في النفس التي تدرَّسُ اليوم في المدارس والجامعات

العربية والإسلامية مأخوذة جميعها من الغرب والشرق. وقد أشرنا إلى أنهم يعتمدون في وصف الإنسان وفي ما يسمى «علم النفس»، على نتائج البحوث التي يجرونها في بلادهم، ووفق تصورات وفلسفات خاصة بهم، تختلف عن تصوراتنا ومفاهيمنا الإسلامية..

فإذا أخذنا اهتمام «فرويد» مثلاً بالميل الجنسي، نجد أن اهتمامه يرجع في الأساس إلى ثقافة العصر الذي عاش فيه هذا الطبيب النمساوي، حيث كان الجنس يعتبر رذيلة مشينة وعملية سيئة، وعلى الإنسان الفاضل الابتعاد عنها بل ومقاومتها، ولذلك جاءت أبحاث «فرويد» مبالغاً فيها لدرجة أنه فسَّر جميع الأمراض النفسية على أنها ناشئة عن الكبت الجنسي.

والمجتمعات الغربية اليوم يغلب عليها الاتجاه المادي، وديانتها ليست النصرانية ـ على حقيقتها ـ كما أنزلت على قلب السيد المسيح ابن مريم عليه السلام، بل صارت ـ بحسب الممارسات الفعلية ـ بمثابة مادّية تخيم على العقول والنفوس أكثر منها عقيدة دينية، هدفها خير الإنسان ورفع شأنه!.. ولذلك كان ابتعادها التام عن الموضوعات التي تهتم بالنواحي الدينية، وحصر اهتمامها الكليّ بالنواحي المادية وحدها في مختلف المجالات.

ونحن، وإن كنا نحاول مراجعة ما وصلت إليه تلك الأبحاث والدراسات عن الإنسان وأحواله النفسية، إلاَّ أن جهودنا سوف تنصب على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كمصدرين أساسيين لمعرفة النفس الإنسانية، لأن هدفنا أن نقدم للجيل الصاعد وللأجيال القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ منطلقات وقواعد يرتكز عليها في معرفة النفس، لا

مجرد نظريات تصاغ، أو تجارب على أشخاص أو حيوانات تقاس عليها بقية الناس، أو ابتداع مقاييس وقوانين تعتمد لمعالجة المرضى.. أبداً لن نحاول ذلك، ولن نتأثر أيضاً بالاستنتاج الذي انتهى إليه الفلاسفة أو أهل المنطق وعلم الكلام. فكل ذلك لن يكون له علاقة بمواضيعنا إلا بالقدر الزهيد الذي يُوضِّح البحث أو يوجب إعطاء فكرة معينة..

لذلك، ولأنَّ الهدف الوصول إلى فهم أدق ومعرفة أعمق بالنفس الإنسانية، سوف يكون اعتمادنا على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ومن ثمَّ التوصلُ إلى فهم سليم لهما؛ ذلك أنَّ في هذين المصدرين يجد الإنسان الباحث ما يغني ويحقق الغاية المنشودة بعد بذل الوسع في الجهد، والإخلاص في النية والعمل.

والقرآن المجيد يتناول النفس الإنسانية في كثير من آياته الكريمة التي أوردنا ما تيسَّر منها في مطلع هذا الكتاب.. على أنَّ ما يجذب الانتباه توكيدُ القرآن على أنَّ فيه شفاء لما في الصدور (النفوس) كما في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1]؛ وبأنه تعالى قد أنزل في هذا القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين، بقول العزيز الحكيم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]. وكما أنَّ في القرآن الكريم الشفاء، فإنَّ فيه أيضاً الهدى بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3]. وذلك لأنَّ في الهدى شفاءً للنفس من الأمراض التي قد تعتريها،

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.

باعتبار أنَّ الهدى هو تهذيب للنفس وصقلها، مثلما هو مقوم للسلوك الذي يعكس ما في النفس كأنَّه مرآتُها. .

وفي مفاهيمنا الإسلامية أنَّ الرسالات السماوية ما أنزلت إلاَّ لمعالجة الإنسان في نفسه ووجوده، ورد النفوس الشاردة التائهة في صحارى الكفر والشرك إلى واحة الحق والإيمان، وإصلاح تلك النفوس بعد أن تمرغت في أوحال الفسق والفجور. فما من رسالة سماوية إلاَّ وكانت تهدف لإصلاح نفوس الناس، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وتعاليم الله تعالى إلى عباده تفرض عليهم أن يحاسبوا أنفسهم في كل حين، حساباً ذاتياً دقيقاً وشديداً، على ما أدركت تلك النفوس وميزت واختارت، وعلى ما سعت وباشرت وعملت. فإن كان في إدراكها زيغ أو انحراف وجب تقويمه، وإن كان في عملها تقصير أو نقصان وجب تلافيه أو إكماله، وإن كان منها ظلم أو فساد اقتضى نبذه واقتلاعه. . أما إذا جهل الإنسان هذا التقويم التهذيبي اليومي، أو تجاهل مساوئ نفسه وشرورها، كما يفعل كثيرون، على الرغم من معرفتهم لما تحتويه عقيدتهم الدينية من تهذيب للنفس وتقويم لاعوجاجها، فإن مثل هذا الإنسان لا يكون جاهلاً لحقيقة نفسه وحسب، بل ومنكراً لمكرمته الإنسانية، وجاحداً لاستخلافه في الأرض. وإنسان يصل إلى هذا الدرك من الانحطاط قد يكون عزله عن مجتمعه أفضل له ولغيره، بل وعزله لنفسه أجدر من بقائه ضالاً مُضِلاً، وذلك لكي لا يزداد غياً على غيٍّ وفسقاً على فسقٍ ونفاقاً على نفاقٍ يطال بآثارهِ جميع من حوله. . .

والرسول الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ الذي اختارَه رب العالمين سيِّد المرسلين والبشر أجمعين، لكونه حاملَ الدين القيم، وصاحب الخلق العظيم[1]، هو الذي يوجهنا إلى تهذيب نفوسنا، وتقويم اعوجاجها بصورة دائمة ومتواصلة، في ما يأتيه الإنسانُ يومياً، لما لهذا التقويم من أهمية في حياتنا. فيقول ﷺ: «**مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فهُوَ مَغْبُونٌ، ومَنْ كانَ غدُهُ شراً مِنْ يومِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، ومَنْ لم يَتَفَقَّدِ النُّقْصانَ في عملِهِ كانَ النُّقصانُ في عقلِهِ، ومَنْ كانَ النُّقْصانُ في عَمَلِهِ وعقلِهِ فالموتُ خيرٌ له مِنْ حياتِهِ**»[2].

هذا القانون التهذيبي الذي سنَّهُ محمد ﷺ، هو قانون يصلح لكل زمان ومكان من أجل محاسبة النفس وتقويمها نحو الصلاح والفلاح. وليس في محاسبة النفس أي خسارة للإنسان، بل قد يكون في محاسبتها ربح وفير ودائم لها، لأنَّ مثل هذه المحاسبة قد تفضي إلى صحتها وسلامتها.. ومحاسبة النفس ـ في الاصطلاح الإسلامي ـ إنما تعني مجاهدتها، التي لا تقل شأناً عن الجهاد في سبيل الله تعالى بل هما جهادان سواء بسواء. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]. ويقول الرسول ﷺ لأصحابه في عودة لهم من إحدى الحروب: «**انتهيتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر**». فقالوا له: «وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟». قال ﷺ: «**هو جهاد النفس**»[4].

---

(١) قوله تعالى في الآية ٤ من سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

(٢) رواه الديلمي، كشف الخفاء، الجزء الثاني، ص٢٣٣.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩

(٤) كنز العمال، الجزء الرابع، رقم ١١٧٧٩ ـ عن جابر.

ومجمل القول أن الخالق العظيم ـ جلّ وعلا ـ إلى جانب ما جعل في الأرض وفي آفاق الكون من آياتٍ تدلّ على حقيقة وجوده، وعلى قدرته البالغة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[1]، وعلى مشيئته المطلقة لأنَّ ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، فقد جعل في نفس الإنسان آياتٍ للموقنين توجّه إلى ما في هذه النفس من خصائص ومزايا. فهو سبحانه خلق هذه النفس، وجعل فيها قابليّة التكاثر، فخلق زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم طالبهم جميعاً بالتّقوى.

وهو سبحانه الذي أودع في هذه النفس حين خلْقها، نوازعها نحو الخير ونحو الشر، وظلّلَها بظل رحمته حتى لا تُغلَّب الميلَ إلى السوء على الميل إلى الحسن، ثُمَّ تركها تخوض معترك الحياة وأقام عليها حافظاً، وجعلها رهينةً بما تعمل، وعرّفها أنه سبحانه يعلم رغباتها وميولها.

وهكذا فإن من يتدبّر الآيات البيّنات التي ورد فيها ذكُر النفس في القرآن الكريم، يرى أنّ رعاية الله تعالى تظلُّ مُلازمةً لهذه النفس منذ خَلْقِها، ثم خِلالَ مسارِها في دار الدنيا، وإلى حين موتها. ويرى كذلك أن رحمته ـ سبحانه ـ تحيط النفس المطمئنة طوال رحلتها هذه كي تظل مطهّرةً من أدرانِ الذّنوب، مطمئنةً بنقاوةِ الإيمان.. إلى أن تَرْجِعَ إلى ربِّها راضيةً مرضيّةً، فيدخلها في عباده ويدخلها في جنّته.. أمّا ما يعتري النفوس من الاضطرابات والزيغ عن الحق واتباع الباطل،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠، وآيات كثيرة أخرى في عدد من السور.
(٢) سورة يس: الآية: ٨٢.

والضلال والإضلال والفساد والإفساد.. فهو من عمل الإنسان وما كسبت يداه... فهو من ظُلمه لنفسه، وظُلمه لغيره، وما الله يريد ظلماً للعباد!...

وفَّقنا الله تعالى إلى ما فيه مرضاته، وهدانا سبله لكي نتمكن من تحقيق الغاية التي آلينا على أنفسنا بلوغها في هذا الكتاب، وهي معرفة نفس الإنسان معرفة حقيقية، من خلال المنظور القرآنيّ والسنّة النبويّة الشريفة. وذلك بعون الله تعالى، والله ولي التوفيق.

الفصل الأول

- الخلق
- النّفس

البحث الأول

الخلق

كلُّ من يدقق في آيات القرآن المجيد، يتبين له مقدار الأهمية التي يوليها كثير من آيات هذا الكتاب المبين للخلق. . . فهي تتناول كيفية خلق السماوات والأرض بجميع أجزائها، والمادة الأولى التي كانت تتكون منها وهي الماء. فأما السماوات فقد خلقها الله وسوّاها بناءً دقيقاً متناسقاً على اتساع وامتداد لا يعلم مداهما إلاَّ خالقهما العظيم. وقد جعلها سبع سماواتٍ طِباقاً (فوق بعضها البعض) من غير تماسٍّ أو احتكاك، وبغير عمدٍ، وذات بروج وكواكب وزينة للناظرين، بحيث لا يوجد في هذا الخلق أي تباين أو عدم تناسب واتساق، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾(2). وأما

---

(1) سورة الملك، الآيتان: ٣ و٤.

(2) سورة ق، الآيتان: ٦ و٧.

الأرض فقد خلقها الله سبحانه كروية سابحة في الفضاء، وفي الوقت نفسه مدَّها وطحاها لتكون ذات سطح، فيه السهول والأودية والجبالُ والرواسي والبحار، وأنبت فيها من كل زوج بهيج، أي من مختلف أصناف النباتات التي تبتهج لها النفوس وترتاح لمنظرها. . .

وكلُّ هذا الخلق على كثرة أنواعه وأشكاله وألوانه، الذي أوجده الرحمن، ليس فيه أي تفاوت أو تباين، بل جميعه قائم على نظام دقيق من الشمول والاتساق والانضباط والتلاحم، بما يعجز الفكر البشري عن تصوره أو اكتشاف أسراره. . وهاتان آيتان كريمتان تتبيّن منهما دقة هذا الخلق وتسييره كما شاء الله تعالى له وقدَّر. وذلك من جملة الحوار الذي كان يدور بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون الطاغية، إذ يسأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

لم يكنْ فرعون ليريد أنْ يعترف بأنَّ رب موسى وهارون هو ربه، عندما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[2]. ولذلك حاول أن يتهرب من هذه الحقيقة بدافع العناد والتجبُّر المتأتيين عن اعتقاده الواهم بأنه هو ربهما. فجاءه جواب موسى قطعي الثبوت والشمولية يبين الصفة التي تفردت بها العزة الإلّهية عندما قال له موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. ذلكم الله ربُّنا ربُّ السماوات والأرض، وربُّ جميع المخلوقات، الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها والخلقة التي فطره عليها. «ثم» أرشد كل مخلوق إلى

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٩ و٥٠.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٧.

وظيفته التي خلقه لها، وهداه إلى ما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها. [ولفظة «ثم» لا تدل على أن هناك افتراقاً زمنياً بين خلق المخلوق وخلق وظيفته، وإنما هو افتراق في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه].

وهذا البيان الذي يلخّصه النص القرآني على لسان موسى عليه السلام، فيه أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا والخلائق والأحياء. وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل مع الكائنات الأخرى.. حتى الحصى الصغيرة أو حبة الرمل أو ذرة التراب، لكل منها خاصيةٌ ووظيفةٌ تؤديها في تفاعلها وتناسقها مع غيرها من الكائنات .. وكلها تعمل منفردة ومجتمعة، ضمن إطار السنن والقوانين والنظم المودعة في تكوينها وفطرتها، من غير تعارض أو خلل أو فتور في لحظة من اللحظات!.

فكل كائن من الكائنات يعتبر عالماً بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، وضمن السنن العامة الكونية، التي تسير جميعها في توافق وانتظام تامَّين..

والإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة بالكائنات، فإنه يقف أمام المعرفة الحقيقية لكل كائنٍ منها ـ بمفرده ـ مقصراً، محدوداً في دراسة خواصّ هذا الكائن ووظائفه وأمراضه وعلاجه، من غير أن تتناول هذه الدراسة كيفية هدايته إلى وظيفته ـ وهي الأهم ـ فذلك خارج تماماً عن طوق الإنسان وقدرته، لأنه هو نفسه آية من خلق الله: وهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها، للوظيفة التي خلق لها، كأي شيء من

الأشياء. فسبحان الله الخالق، والرب الواحد «ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى».

وقد تناولنا موضوع الخلق هنا بعددٍ يسيرٍ فقط من الآيات القرآنية الكريمة، فالآيات التي تتحدث عن الخلق كثيرة وكثيرة جداً، إذ يكفي الإشارة إلى أن لفظة «الخلق» وحدها قد وردت في القرآن الكريم ما يزيد على مئتي مرة. لذلك اكتفينا بالقدر اللازم من الآيات التي يمكننا من خلالها صوغ موضوعنا ضمن إطاره العام الشامل، ونعني به موضوع: معرفة نفس الإنسان. وسوف يكون هكذا الحال بالنسبة إلى كل المواضيع الأخرى التي تتعلق بهذه النفس، وليس بخلقها فقط. ولا سيما أن الخلق يتناول كل ما في الكون والحياة والإنسان، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وبحثنا يتناول خلق الكون إجمالاً، وخلق الإنسان حَصْراً...

أولاً: خلق الكون

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[1].

أيتها المخلوقات في السماوات والأرض، وأنتم خاصةً يا بني البشر ـ على هذه الأرض ـ الذين أُنزِلَ إليكم هذا القرآن، اعلموا أنَّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض. وقد خلقها بتدبير وإتقان وبحكمة بالغة، يدبّر كل أمر وفق حكمته السنيّة فاعبدوه، أفلا تَذَكَّرون؟ ولكن لماذا هذا التذكير؟ لأن القضية الأساسية في العقيدة هي: قضية الألوهية وقضية الربوبية.. ذلك أنَّ بعض الشعوب قد اتخذوا من دون الله آلهةً من التصورات، مثل إله الخير وإله الشر وإله الحب وإله الظلمات.. أو اتخذوا من دون الله آلهة من الأصنام، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾[2].. أو ظنَّ بعضٍ البشر أنهم آلهة، كظنّ فرعون أنْ ليس من إلهٍ غيره لبني قومه كما يدلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[3]، وقوله تعالى على لسان أهل الكهف: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾[4] أي: من دون الله... ولكنْ يبدو أنَّ قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي أو إنكارٍ قاطعٍ من المشركين. ويدل التاريخ البشري على أن الفطرة البشرية لا تستطيع التخلي عن الاعتقاد

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٣ ـ ٦.

(٢) سورة يس: الآية: ٧٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٥.

بوجود إله لهذا الكون، إلا في حالات نادرة غير سوية، وحتى في هذه الحالات فكثيراً ما يقولون بأنَّ هنالك قوة مسيّرة لهذا الكون ولكنهم يجهلون كنه هذه القوة!.. أما القضية الأخرى في الاعتقاد الديني فهي قضية الربوبية، لأنَّ البشر كانوا يعبدون في معظم الحقبات، مع الله «أرباباً» يتوجهون إليهم بالعبادة، إما ليقربوهم إلى الله زلفى، وإما ليكونوا شفعاء لهم عنده سبحانه. وأحياناً كان بعض الأفراد من البشر يدَّعون الربوبية، وهم الحكام الوثنيون القدامى كالنمرود أيام إبراهيم عليه السلام، وفرعون أيام موسى عليه السلام وأشباههما.. فأولئك الحكام كانوا يشرِّعون لأنفسهم شرائع خاصة لحكم الناس واستعبادهم حتى يصل بهم الأمر إلى ادعاء الربوبية. وذلك منتهى الجهل والضلال والكفر..

والقرآن الكريم لا يريد أن يدخل هنا في جدل ذهني حول قضية الألوهية ولا حول قضية الربوبية، بل يحاول أنْ يذكِّر الناس مخاطباً فيهم الفطرة البشرية التي فطرهم الله تعالى عليها. وبهذا التوجه إلى المنطق الفطري يقول لهم: إنَّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض، أفلا تتذكَّرون؟ وإن كنتم لا تتذكرون هذه الحقيقة فانظروا إلى ما حولكم في خلق السماوات والأرض: هذه الشمس المضيئة، وهذا القمر المنير، وما ترونه من تعاقب الليل والنهار، وهذا الطير الغادي القافز الذي لا يستقر على حال، وهذا النبت النامي المتطلع إلى النمو والحياة، وهذه الأرحام التي تدفع، والقبور التي تبلع، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة في تدافع وانطلاق.. هذه المخلوقات كلها أفلا تدركها حواسكم؟ بلى.. إذن من خلقها؟ إن ربّكم الله الذي يستحق العبادة هو هذا الخالق، «الذي خلق السماوات والأرض في ستة

أيام». . ولكنَّ هذه الأيام الستة لا تدخل في المقاييس الزمنية التي أوجدتموها. ولا علاقة لهذه المقاييس، لا من قريب ولا من بعيد، بما يريده الله تعالى من هذا العدد، فهو غيب من غيب الله ربكم، لا يعرف الإنسان كنهَهُ وسرَّه. إنه فقط إشارة إلى حكمة التدبير والتقدير والنظام الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والاستواء على العرش كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزّه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان، لذلك لا يجوز السؤال: أين كان ـ سبحانه ـ قبل أن يستوي على العرش؟ فلفظة «ثم» تفيد هنا البعد المعنوي، لأنَّ القاعدة الكلية في الإسلام هي تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات، وعن مقتضيات الزمان والمكان. . . لا يقدر الإنسان أن يعرف، وليس له أن يدخل في جدل ذهني حول هذا الأمر، بل عليه أن يؤمن بالقاعدة الكلية المذكورة، ثم ينصرف إلى التأمل في نفسه وفي هذا الكون وآياته، ليدرك عظمة الخالق وقدرته سبحانه في تدبير الأمر كله.

وقد تكون هناك نظريات علمية كثيرة حول تكوين الكون، وما فيه من عجيب الصنع ودقة التركيب، وما فيه من نُظُم محكمةٍ تربُط بين مختلف أجزائه، وتجعله متماسكاً على الشكل الذّي هو فيه. . مثل هذه النظريات موجودة ولا شك، ولكن ليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات «العلمية» ـ حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق عليها، كما يبين لنا ذلك بعض العلماء في أحيان كثيرة ـ وقد أثبتنا في المقدمة ونعيد التكرار هنا للتأكيد بأن النظريات «العلمية» قابلة للتغيير أو التبديل بنظريات جديدة، وكثيراً ما

اهتدى العلماء إلى فَرْضٍ جديد، وجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى. . وهذا ما لا يتفق مع القرآن لأن النص صادق بذاته، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقررها هذا النص أو لم يهتدِ، مع الإشارة هنا إلى أنَّ هنالك فرقاً بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية. فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة ـ وإن كانت دائماً احتمالية وليست قطعية ـ أما النظرية العلمية فهي قائمة على افتراض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب. ومن ثَمَّ لا يُحمل القرآن عليها ولا تُحمل هي على القرآن. . فلها طريق غير طريق القرآن، ومجال غير مجال القرآن.

ولعلَّ القول بأن النظريات «العلمية» تتوافق مع النصوص القرآنية يتجافى مع جدّية الإيمان بالقرآن الكريم واليقين بصحة ما فيه، والاعتقاد بأنه من لدن حكيم خبير، أحكم آياته عن حكمة، وفصّلها عن علم ودراية. بل إنَّ العملَ بذلك يعتبر هزيمة للإيمان بالقرآن، ناشئة عن الفتنة «بالعلم»، وإعطائه أكبر من مجاله الطبيعي الذي لا يصدق ولا يوثق به إلا في دائرته، وإلى حين من الزمن، حتى يأتي علم آخر ينقضه وينسفه من أساسه. لذلك ننصح من يحسب أنه بتطبيق القرآن على «العلم» إنما يخدم القرآن ويخدم الحقيقة، ننصحه بأن يبتعد عن هذا الأمر حتى لا يعتبر إيمانه ناقصاً. فالحقائق العلمية التجريبية قد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل طاقته ويصل إلى النتائج التي يصل إليها، في حين أنّ القرآن تكفَّل بتربية هذا العقل على الصحة والسلامة والاستقامة وتحريره من الأوهام والأساطير والخرافات. كما عمل القرآن على إقامة نظام للحياة يكون لهذا العقل فيه مجاله الواسع بما يقوي الإيمان وتنتفع به البشرية. . ولم يتعرض

القرآن للحقائق «العلمية» إلا تلميحاً، مثل أن الماء أصل الحياة، والعنصر المشترك في جميع الأحياء، ومثل أنَّ جميع الأحياء أزواج، حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث. وقد ساق القرآنُ هذه الحقائق ليعرف الإنسان أصل الحياة، أو الأسس التي تقوم عليها وجود الكائنات الحية، وفي ذلك ما فيه من بيان للعقل البشري وتمهيد السبل أمامه للبحث في تلك الأسس.

وبعد هذا الاستطراد، لا بد لنا من العودة إلى النص القرآني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. وهذا يعني أنه سبحانه خلق السماوات والأرض في هذا الأمد بما فيهما من منافع، لتكون صالحة ومجهزة لحياة الجنس البشري. كما جهز الإنسان باستعدادات وطاقات، وبنى قانون وجوده على ذات القانون الذي يحكم الكون - أي الإحكام والانتظام - ثم ترك له (للإنسان) الاختيار في حياته أنْ يتجه إلى الهدى فيعينه الله تعالى عليه ويهديه سواء السبيل، أو أنْ يتجه إلى الضلال فيمد الله تعالى له فيه.. أي إنه سبحانه ترككم أيها الناس لاختياركم، لأجل أن يختبركم بالبلاء فيعلم أيكم أحسن عملاً، أي أطوع لله خالقه.. فكأن خلق السماوات والأرض فيما يعنينا نحن البشر - مع سيطرة الله سبحانه على مقاليدهما - كان من أجل ابتلاء الإنسان، ليعظم هذا الابتلاء، ويشعر الناس بأهمية خلقهم وبجدية ابتلائهم، وبأنَّ من وراء ما يقومون به في حياتهم هذه ما يجازون عليه: إما خيراً فنعيم، وإما شراً فجحيم.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

وكما في القرآن الكريم هذا البيان للخلق، فإن فيه أيضاً إيقاظاً للوعي عند الكافرين إلى كثير من الحقائق التي يرونها من حولهم ويدركونها بحواسهم، أنَّ الله جعل من الماء كل شيء حي كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. وأنَّ في الأرض الجبالَ العاليةَ حتى لا تميد بمن عليها ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾. وأنَّ الفجاج والسبل وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية من أجل هدايتهم إلى وظائفهم وتحصيل أرزاقهم، وتعارفهم فيما بينهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾... فهذه كلها من الأشياء المحسوسة، والعقل يدلُّ على أنها ليست من صنع الإنسان. والقرآن الكريم يؤكد للناس أنها من صنع الله تعالى، أفلا يؤمنون بعد ذلك بربوبيته ـ سبحانه ـ وبأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له؟!

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ والسماء كل ما علا، ونحن نرى إذا نظرنا إلى الفضاء فوقنا ما يشبه القبة العالية، التي تتسع ـ مع بُعدِها ـ لكل ما تقع عليه أبصارنا من الكواكب المضيئة. فهذه القبة أو السماء العالية قد جعلها الله تعالى سقفاً للأرض، محفوظاً من الخلل في هذا النظام الكوني الدقيق، ومحفوظاً من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذي تتنزل منه آيات الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١).

وهذه أيضاً حقيقة قرآنية أصبحت ثابتة بالتجارب والبحوث العلمية. فالشمس كرة سابحة في فلك خاص بها. والقمر كرة سابحة في فلك الشمس، ومثله الأرض الكروية التي من دورتها حول نفسها

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

يتعاقب الليل والنهار، كما تتعاقب الفصول من دورتها حول الشمس. وقد رأى الإنسان بأم العين في رحلته إلى القمر، كيف أنَّ الأرض كرة تسبح في الفضاء، ومع هذا السبح الطويل والسريع لا يشعر سكانها بشيء منه ما لم تهتزَّ الأرض وترتجف بالزلازل مثلاً، وإلى بعضٍ من الوقت يسير.. وما تلك الحركة للأرض وعمّارها إلاَّ لأنها ممسوكة بالنظام الدقيق الذي يسيّرها، وبالنظام المتكامل الذي يسيّر الكون بأسره.. فهذه الظواهر الكونية آيات معروضة للناس، فكيف يُعرضون عن التفكر بآيات الله وجميل صنعه في خلقه؟ ونحن نقول: إنَّ هذه الظواهر لجديرة بأن تهدي القلب إلى وحدانية الخالق المدبر القدير.

يقول الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه عن خلق الله تعالى للعالَم: «أنشأَ الخلقَ إنشاءً، وابتدأَهُ ابتداءً، بلا رويَّة أَجالها[(١)]، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة[(٢)] نفسٍ اضطربَ فيها. أَحالَ الأشياءَ لأوقاتِها، وَلاءَمَ بين مختلفاتها، وغَرَزَ[(٣)] غرائِزَها، وألزَمَها أشباهها، عالماً بها قبلَ ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها[(٤)]. ثم أنشأ ـ سبحانه ـ فَتْقَ الأجواءِ، وشَقَّ الأرجاء، وسَكَائِكَ الهواء، فأجرى فيها ماءَ مُتلاطِماً تيارُهُ، متراكماً زخّارُهُ[(٥)]. حَمَلَهُ على مَتْنِ الريحِ العاصفةِ، والزَعْزَعِ[(٦)] القاصِفَةِ،

(١) دون أن يفكر فيها ملياً.

(٢) قصير.

(٣) وضع فيها.

(٤) جوانبها.

(٥) على وزن فعّال للمبالغة من زخر. زخر البحر: طمى وامتلأ.

(٦) لا يقف أمامها شيء.

فأَمَرَها بردِّهِ، وسلَّطَها على شَدِّه، وقَرَنَها إلى حَدِّهِ. الهواءُ مِنْ تحتِها فتيقٌ[١]، والماءُ من فوقِها دفيقٌ[٢]. ثم أنشأَ ـ سبحانه ـ ريحاً اعْتَقَمَ مهبَّها، وأدامَ مُرَبَّها[٣]، وأعصفَ مَجْراها، وأبْعَدَ مَنْشَاهَا، فأَمَرَها بتَصْفيق[٤] الماء الزَّخَّار، وإثارة مَوْج البِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ[٥] مَخْضَ السِّقاءِ، وعَصَفَتْ به عَصْفَهَا بالفَضَاء، تَرُدُّ أولَهُ إلى آخرِهِ، وساجِيْهِ[٦] إلى مائِرِهِ[٧]، حتى عبَّ عُبابُهُ، وَرَمى بالزبد ركامُهُ[٨]، فرفَعَهُ في هواء مُنْفَتِقٍ، وجوٍّ مُنْفَهِقٍ[٩]، فسَوَّى منه سبعَ سَماواتٍ، جَعَلَ سُفْلاهنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً[١٠]، وعلياهنَّ سَقْفاً مَحْفوظاً، وسَمْكاً مَرْفُوعاً، بغيرِ عَمَدٍ يَدعُمُها، ولا دسارٍ[١١] ينظُمُها. ثم زيَّنها بزينةِ الكواكبِ، وضياءِ الثواقبِ[١٢]، وأجرى فيها سِراجاً مُسْتَطيراً[١٣]، وقَمَراً مُنيراً، في فَلَكٍ دائرٍ، وسقفٍ سائرٍ، ورَقيمٍ[١٤] مائرٍ».

---

(١) مفتوق.
(٢) متدفق بشدة.
(٣) ملازمة.
(٤) تحريك.
(٥) حرّك بشدة.
(٦) ساكن.
(٧) متحرك.
(٨) متجمع.
(٩) مفتوح.
(١٠) لا يسيل.
(١١) مسمار.
(١٢) الثواقب: شهاب ثاقب: أي مضيء.
(١٣) منتشر الضياء.
(١٤) من أسماء الفلك.

ثانياً: خلق الإنسان

إنَّ خلْقَ الإنسان على هذه الأرض كان بتقدير الله العزيز الحكيم، لأنَّ من يتتبع آيات القرآن المبين يجد هذا الترابط بين الأصل الذي نشأ منه الإنسان، وهو التراب أو الطين، وبين هذه الأرض التي أوجدها الله تعالى وحدَها من بين الكواكب السيارة في النظام الشمسي صالحة للحياة. فلا بد إذن من إلقاء نظرة وجيزة على هذه الأرض، حتى تُفهم فيما بعد النصوص القرآنية المتعلّقة بخلق الإنسان.. وتجدر بنا الاستعانة هنا باكتشافات علماء الفلك التي لا تتعارض مطلقاً مع ظاهر النصوص القرآنية. وهذه الاكتشافات قد دلت على أنّ هنالك مجرة يقع النظام الشمسي (الشمس وكواكبها) في طرفها. وقد أطلق على هذه المجرة اسم «درب التبانة» أو «الدرب اللبنية». ويقع وراء هذه المجرة عالم من السُّدُم، وفي هذا العالم سديم(١) أطلقوا عليه اسم «سديم المرأة المسلسلة»، وهو يبعد عن الأرض مليون سنة ضوئية (يقطع الضوء ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، أي إن مسافة السنة الضوئية تبلغ ستة آلاف مليار ميل تقريباً). ويقدر العلماء حتى الآن، أن هنالك حوالى خمسمائة ألف سديم، ويقولون إنه مع تقدم الآلات التي يستخدمونها، يمكن أن يصل هذا العدد إلى أكثر من مليون سديم.

هذه فكرة وجيزة جداً عن مدى اتساع الكون.. والأرض لا تعدو كونها جزءاً ضئيلاً جداً جداً في الكون الشاسع. وهي مرتبطة

---

(١) بقع في الكرة السماوية ضعيفة النور، منها ما يتجمّع فيه غازات مضيئة؛ ومنها ما يضمُّ العديد من الكواكب.

بهذه الشمس التي نراها، والتي يقع مدارها على طرف مجرة «درب التبانة». . وقد ثبت حتى الآن أنَّ الأرض ـ من بين الكواكب السيارة في النظام الشمسي[(١)]، وقد اكتشف فيها حتى اليوم اثنا عشر كوكباً ـ هي وحدها صالحة للحياة، لأن جميع الجهود التي بذلت حتى الآن لاكتشاف حياة على سطح القمر أو المريخ أو الزهرة ـ وهي من كواكب المجموعة الشمسية ـ قد اصطدمت بالفشل، ولم تظهر آثار للحياة بعد على تلك الكواكب. . . أما الأرض فهي السيارة الوحيدة التي تصلح للحياة، كما هو ثابت ومؤكد. . وهي تمتاز بكثافة وجاذبيَّة خاصتين بها وحدها. وهي على مسافة من الشمس والقمر تجعل النور والضوء يأتيان إليها بمقدار محسوبٍ من اعتدال الحرارة والبرودة بما لا يحرق كائناتها أو يجمدها. وهي تقوم بدورة يومية حول نفسها يحدث منها الليل والنهار، وتقوم بدورة سنوية حول الشمس تحدث منها الفصول. وهي مزودة ـ بصورة خاصة ـ بالماء والهواء، لأنهما من أهم العوامل الطبيعية التي أوجدها الله تعالى، وخصَّ بهما الأرض لجعلها صالحة للحياة. لذلك نجد كلَّ هذه الكائنات الحية من النبات والطير والحيوان والإنسان تعج على سطحها وفي بطون بحارها وأنهارها، وكلها تحتاج إلى الماء والهواء.

ولا يغيبنَّ عن بال أحد أنَّ مشيئة الله تعالى هي التي قضت بخلق هذه الكائنات جميعاً؛ وهو سبحانه الذي أحكَمَ السُّنَنَ والأنظمة لجميع مخلوقاته، وهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وجعله يصل إلى ما وصَلَ إليه ـ وما سوف يصل إليه ـ من المعارف والعلوم، ولا سيما ما

---

(١) جرى إلى الآن اكتشاف اثني عشر كوكباً منها.

يتعلق بتلك الكائنات الحية على الأرض، وأجناسها وتكاثرها وتنقلاتها وطرق معايشها. . ولأنَّ ذلك الخلق كله لا يدخل في صلب موضوعنا، فلا بدَّ أن نقصر البحث إذاً على هذا الإنسان الذي سادَ على مخلوقات الأرض جميعاً، فكيف نجد نشأته؟ ولماذا كان خلقه مزوداً بهذا العقل الذي امتاز به على سائر تلك المخلوقات التي تعايشه؟

يجيب القرآن الكريم، كتاب الله المبين، فوراً بأن خلق الإنسان إنما كان لاستخلافه في الأرض، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] . . فهذه إرادة الله تعالى من خلق الإنسان ليكون خليفته في الأرض، فيعمرها بما يملك من طاقاتٍ وقدرات أودعها خالقُهُ فيه وخصَّهُ بها دون غيره من الكائنات الحية على الأرض. ومن يتتبع آيات القرآن المبين يعرف جيداً أن النشأة الأولى للإنسان كانت من تراب الأرض وطينها. وهذا ما يؤدي للربط بين جعل الأرض صالحة للحياة وإنشاء الإنسان منها. وليس هذا وحسب، بل إنَّ الإنسان الذي يعيش حياته على هذه الأرض لا بد وأن يموت، ثم يفنى في غبار الأرض أو ترابها الذي نشأ منه أول مرة. فكم هي عظيمة هذه الدلالة، وكم هي مبيِّنة هذه الآية في خلق الإنسان وإماتته. فقد شاء خالقه أن يجبل الإنسان الأول ـ وهو آدم عليه السلام ـ من طين الأرض وصلصالها، ويخلطه بمائها، ثم يسويه على الصورة التي يريد. وما أن يلفحه هواؤها، وتشويه حرارة شمسها حتى يتماسك جسده ويشتد. ثم ينفخ فيه ربُّهُ وخالقه ـ تبارك وتعالى ـ من روحه، فتدخله الروح ويستوي بشراً حياً، ليضرب في بقاع

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الأرض، فيشرب من مائها ويأكل من أرزاقها، ثم ينشئ ما طاب له من المنشآت هو وذريته، فتعمر الأرض ويتحقق الاستخلاف..

أما كيف كان تكوين الإنسان الذي نعرفه اليوم والذي لم يتغير قط منذ خلق آدم عليه السلام، وكيف كانت له هذه الحواس والأعضاء والأطراف والقلب والدماغ... فذلك عائد كله إلى الأنظمة التي أودعها الخالق تعالى في تكوين الإنسان الأول، ثم أوجَدَ نظام الزوجية بين الرجل والمرأة، أو بين الذكر والأنثى ـ لتكاثر الجنس البشري واستمراريته بالتعاقب من سلالةٍ إلى سلالة، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وقد يثار السؤال: ولكن كيف لهذا الجسم ـ الذي سوّاه الله تعالى من التراب ـ أنْ يصير هذه الكتلة من اللحم والدم وهذه الأعضاء الداخلية، والحواس الخارجية، وهذه الشرايين والأوردة، بل وهذه الشعيرات الدقيقة التي لا تحصى، وأن يقوم كل عضو بوظيفة محددة له، بحيث تعمل جميعها متناغمة متناسقة حتى تكون هذه الحياة للإنسان؟ أو قد يسأل: من أين لجسم ترابي أن يحتوي على النطق وعلى التفكير، وعلى السمع والبصر والشم واللمس، وعلى العاطفة والإحساس؟.. وما ينبثق منها جميعاً من علائق وروابط ووشائج بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وبني جنسه، وبين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان والجماد!... وعن يقين نجيب: إنَّ الله تعالى عندما نفخ من روحه في ذلك الجسم الترابي وهو سبحانه ما هو عليه من اقتدار وقوة وتقدير، قد فعلت نفختُهُ فعلها في التراب المكوَّن، فاستوى بشراً سوياً مزوَّداً بطاقاته وقدراته التي تتجسَّدُ في حياة كل كائن بشري...

وها هي التجارب والاختبارات تثبت أن مادة الكون ذاته تتكون

من ذرات العناصر الأربعة: التراب، الماء، النار والهواء، وأن كلاً منها يتكون بدوره من عناصر أخرى، وأن هذه العناصر المتفرعة تتكون من أجزاء صغيرة، وكل جزء منها يتألف من أجزاء أصغر بكثير يطلق عليها اسم الذرات (Atomes). وكل ذرة تبلغ من الصغر حداً كبيراً، إذ قدّر قطر الذرة الواحدة بجزء من خمسين مليون جزء من البوصة[١]، ووزن الذرة يتراوح بين جزأين و٣٩٥ جزءاً من مليون مليار مليار جزء من الغرام...

وهذا الحجم للذرة يراه العلماء كبيراً بالنسبة إلى حجم الأجزاء التي تتكون منها وهي: الإلكترونات والبروتونات. وللدلالة على ذلك يعتبر الفرق بين حجم الذرة وحجم الإلكترون فيها كالفرق بين غرفة وذرة غبار فيها. فتأمل دقة تلك المقاييس.. وكثرة تلك العناصر.. ثم ماذا تحتوي هذه العناصر، وماذا يتفاعل في داخلها؟

يقول أهل العلم إنَّ للذرة غلافاً تدور فيه نواة واحدة أو نويات كثيرة. والغلاف مؤلف من إلكترون واحد أو إلكترونات كثيرة بحسب نوع العنصر. أما النواة فتتألف من بروتون واحد أو بروتونات كثيرة، ومن نيوترون واحد أو نيوترونات كثيرة إلاّ الهيدروجين فلا يوجد فيه نيوترونات.

والإلكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة، والبروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة. والنيوترون عبارة عن وحدة كهربائية لا سالبة ولا موجبة (محايدة Neutre).

وبمقتضى هذا التحليل تكُونُ مادةُ العالم كله ـ والجسم البشري

---

(١) البوصة هي الإنش، أي ٢,٥٤ ملليمتر.

منه ـ عبارة عن وحدات أو شحنات كهربائية. أي إنَّ المادة التي يتألف منها العالم هي عبارة عن طاقات كهربائية متجمدة بشكل ذرات وعناصر. وكان «آينشتين» (Einstein) أول من توصل إلى نظرية «النسبية» التي تقول: «إنَّ المادة والقوة شيء واحد». وقد أثبتت التجارب صحة ما وصل إليه عندما أمكن اكتشاف الذرة وتحويل مادتها إلى قوة. وما دامت المادة والقوة شيئاً واحداً، وقد أمكن تحويل المادة إلى قوة كما ثبت بتحطيم الذرة، فلا شيء يمنع أنْ يثبت يوماً تحول القوة إلى مادة.. وهذا ليس ببعيد، وهو أقرب إلى الإيمان بإمكان خلق مادة العالم من العدم.

بعد هذا الاستطراد، نحن نؤمن إيماناً جازماً مطلقاً بأنَّ الله تعالى هو الخالق، وهو على كل شيء قدير. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. فلا نسألنَّ بعدها كيف خَلَقَ آدمَ من تراب، وكيف جعلَه على هذا التكوين والتقويم، وكيف أودع في ذريته ـ أو في الجنس البشري ـ النظم الدقيقة التي تربط بين أول خلق وتتابع هذا الخلق. والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2].

ولكن، ومن باب المثال فقط، نقول إنَّ عُزيراً قد تساءل من قبل ـ عندما مرَّ على بيت المقدس راكباً حماره ومعه طعامه وشرابه وقد رآها مهدَّمة بعد خرابها على يد بختنصَّر ـ تساءل قائلاً: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾(1) ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(2) وفي قصة عزير ـ وهي معروفة عند أهل الكتاب ـ عدة عظات، أبرزها:

- أنَّ الله تعالى هو الذي يحيي ويميت.. فقد أمات عزيراً مئة عام ثم أحياه على الخلقة نفسها التي كان عليها.
- أنه سبحانه قادر على إبقاء الأشياء وخواصها إلى أي مدى زمني يشاء، كما أبقى طعام عزير وشرابه على حالهما، لم يتغير طعمهما ولا لونهما بعد مئة عامٍ.
- إنه تعالى دلَّ على كيفية بعض أسرار خلقه للكائن الحي، إذْ أمَرَ عُزيراً بأنْ ينظر إلى حماره، فما وجَدَ منه شيئاً إلاَّ بعض عظامٍ بالية، ثم أَراهُ كيف أعادَ تركيب هيكل العظام، وكيف كساها لحماً، ثم أودع في أحشاء الحمار كل أعضائه ثم أنشأَهُ حياً كما كان قبل مئة عامٍ.
- إنَّهُ جلّ جلاله جعل عزيرا آيةً للناس على الموت والبعث..

وعلى المنهج نفسه يقرر القرآن الكريم، مرة أخرى، حقيقة خلق الإنسان، وما أودع الله تعالى فيه من بديع الخلق وجمال الخلقة ورفيع القيمة، بعد أن يبين أن أصله من ماء مهين، وذلك بقوله تعالى:

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ذلك القادرُ على أن يفعَلَ ذلك كله هو الله تعالى، المطلع على الغائب والحاضر، الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض وهو العزيز القوي القادر على الخلق، الرحيم فيما يريد وفي ما يدبر للخلائق.. ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.. من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام.. من الخلية البسيطة إلى أعقد الأجسام.. كلها يتجلى فيها حسن الخلقة والإتقان والإبداع..

ومن إحسانه تعالى أنه بدأ خلق هذا الإنسان من طين. ثم جعل نسله من ماء النطفة الذي هو المرحلة الأولى في تطور الجنين. ومن النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، إلى كمال التكوين الجنيني، في هذه السلالة التي تبدأ بالماء المهين.. وفي هذا النظام الذي أودعه الله تعالى في أصلاب الرجال وترائب النساء وأرحامهنَّ، يبقى الخلق البشري هو ذاته: أصلُهُ من طين، وهي الخلية الحية الأولى التي نشأ منها الإنسان. ثم كان التكوين الكامل لأول إنسان، ومن جملة هذا التكوين أنَّ يخرج من صلبه «ماء» هو عبارة عن نطفة فيها ملايين الحيوانات الزاحفة، التي تصل إلى بويضة المرأة. وبعد التفاعل الذي يحصل في هذه البويضة يبدأ التكوين الجنيني، وتمتد تلك الرحلة المعقدة حتى يخرج المولودُ بعد الحمل على هذه الصورة الحسنة الجميلة، التي أحسن الله تعالى خلقها وأتقن صنعها. والإنسان غافل

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ٦ ـ ٩.

تماماً عما جرى أثناء تلك الرحلة من الماء المهين إلى المولود الحسن الجميل. .

وبهذه المناسبة، لا بد من الإشارة ثانيةً إلى فساد نظرية النشوء والارتقاء التي تقول بأنَّ الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية، وأن هنالك حلقات نشوء وارتقاء تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان. إن هذه النظرية خاطئة وقد سفَّهتها نظرية الوراثة ـ التي لم يكن «دارون» قد عرفها ـ وهي تقول بأن التطور في الخلق من نوع إلى نوع ضرب من المستحيل. فلا يمكن أن يتطور نوع القرد إلى إنسان، ولا يمكن أن يتطور نوع النبات إلى حيوان، لأن هناك عوامل وراثي كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتم أنْ يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج أبداً عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد. فالأسد أصله أسد وسيظل أسداً على توالي القرون. وكذلك الحصان والثور والقرد والإنسان. . وكل ما يمكن أن يقع ـ حسب نظريات الوراثة ـ هو الارتقاء في حدود النوع نفسه دون الانتقال إلى نوع آخر. . ونظرية الوراثة هذه، التي شهد بحقيقتها العلماء المتقدمون، والتي هي أساس البحوث اليوم، تبطل نظرية دارون التي أخذ بها أناس مخدوعون، وظلوا زمناً يزعمون أنها حقيقة علمية غير قابلة للنقض.

وهكذا يتبين صدق القرآن الذي لا يحيد عن صوابية خلق الإنسان، مهما تراءى من نظريات وأبحاث. . فهذا الإنسان أنشأه الله تعالى من طين الأرض، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، ليستوي بشراً فيه خصائص التناسل الذي يبدأ بتلك النقطة الصغيرة من الماء الضعيف

(المني) ويحصل فيما بعد الانقسام في الخلية الواحدة والتكاثر، ثم التنويع في أصناف الخلايا المتعددة ذات الطبيعة المختلفة والوظيفة المختلفة، التي تتكاثر هي بدورها لتقوم كل مجموعة من تلك الخلايا بتكوين العضو الذي اختُصَّت بتكوينه، وللوظيفة التي اختُصَّ بها.. وكل عضوٍ يتكوَّن من خلايا معينة يحتوي بدوره على أجزاء ذات وظائف خاصة وطبيعة خاصة، تكونها خلايا أكثرُ تخصصاً في داخل العضو الواحد...

مَنْ ذا الذي أوجد تلك الخلايا والأعضاء، وأوجد خصائصها ووظائفها غيرُ الله تعالى؟ غيرُ تلك النفخة من روح الله تعالى التي جعلت من هذا الكائن العضوي إنساناً ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنساني مميز عن سائر الكائنات العضوية الحيوانية؟! أجل، إنَّهُ الله تعالى الخالق العظيم، الذي جعل من الماء المهين إنساناً كريماً.. وهو سبحانه هو الذي أودع في الخلية البشرية الصغيرة الضعيفة قدرةً عظيمةً على التكاثر والنماء، والتطور والتحول، والتجمع والتخصص. ثم أودعها كل تلك الخصائص والاستعدادات والوظائف العليا التي تجعل من الإنسان إنساناً.

ومع هذا الفضل من الله تعالى، ومع كل هذا الفيض الرباني، فإن الناس لا يشكرون خالقهم على فضله، والقليل القليل منهم من يشكر خالقه على نعمة خلقه، وكرم وجوده..

خلق الإنسان بقلب واحد

يقول الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾(١).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

إنه قولٌ كريم، يبيّنٍ حقيقة واقعة.. ولكنَّ هذه الحقيقة على بداهتها وبساطتها إنما تدلُّ على أهم مقومات خلق الإنسان، وأهم مقومات حياته من الناحيتين الفيزيولوجية والنفسية..

أما من الناحية الفيزيولوجية، فمن المعروف أن القلب هو العضلة الصنوبرية التي تنظم الدورة الدموية في الجسم، وذلك بتوزيع الدم النقي على كل الأعضاء والأجهزة الموجودة فيه، بما في ذلك الشعيرات الدموية الرفيعة الدقيقة التي تغطي مساحة الجسم كله، ليعود الدم الذي يحمل الأوساخ والغازات السامة إلى القلب، فيقذفه إلى الرئتين، اللتين تتوليان تنقيته من جديد من خلال استنشاق الأوكسيجين.. فإذا كان للإنسان قلبان: واحد على الشمال وآخر على اليمين، فإنَّ حركتهما لن تكون واحدة، بينما يجب أن يقوما بوظيفة واحدة. فالاختلال في الحركة يؤدي إلى التضارب والتشابك والتضاد في الوظيفة نفسها، ما يفقد الجسم توازنه، ومنهجية عمل أعضائه وأجهزته. وبذلك يموت الإنسان، أو يعيش باضطراب دائم، فلا يقدر على شيء.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الناحية النفسية، حيث تتوزع الأفكار والمشاعر والأحاسيس والمفاهيم والتصورات بين القلبين، وما يترتب على ذلك من عدم استقرار في الحالات الشعورية والأعمال العقلية. إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش بعاطفتين أو شعورين تجاه الشيء الواحد، ولا أن يكون له تصوران مختلفان في القضية الواحدة، بينما بالقلب الواحد لا يمكنه أن يتجه إلاَّ إلى أفق واحد، وأن يكون له ميزان واحد يزن به القيم، ويقوّم به الأحداث والأشياء، وأن يكون له تصور كلي واحد للحياة والوجود كله.. ومن ثم فهو بالقلب الواحد

لا يعبد إلاَّ إلهاً واحداً، ولا يدين إلاّ لرب واحد، ولا ينهج إلاَّ نهجاً واحداً. . فسبحان الله الذي قدَّر بحكمته الجليلة هذا الخلق السويَّ للإنسان، فجعل له قلباً واحداً حتى يستطيع أن يعيش حياة طبيعيةً، لا يحكمها من داخلها التضادُّ والتباين وعدم الاتزان.

الموتُ والحياة دليل على النشأة الأخرى

إنَّ النصوص القرآنية الكريمة التي تتحدث عن حقيقة الخلق كثيرة، ولكنَّ بعضها يتناول حقيقة أخرى محسوسة مثلها وهي الموت. هذا القَدَرُ الذي قدَّرَه الله تعالى، فخلقَ الموتَ والحياةَ ليبلو الناسَ أيّهم أحسن عملاً، لا يملك أحدٌ إلاَّ الله سبحانه وتعالى تقديره. فهو ـ جلَّت قدرته ـ كما أنشأ النشأة الأولى، قادرٌ بعد الموت والفناء، على إنشاء النشأة الثانية، ويبعث مَنْ في القبور، بكامل الهيئة التي كانوا عليها في الحياة الدنيا. . فسبحان الذي تعزَّزَ بالقدرة والبقاء، وقهر عبادَه بالموت والفناء، عندما يبين لنا ظاهراً من أسرار خلقنا، ويقدم لنا البراهين الحسية من واقع وجودنا. . يقول تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١)؛ فهذه النصوص، بمنطوق البينة الواضحة والأسلوب البياني المعهودين في القرآن الكريم، تأخذ الإنسان الذي ينكر حقيقة وجود الله تعالى، وينكر تبعاً لذلك أنه سبحانه هو خالقُ النشأة الأولى، وقادرٌ على النشأة الثانية، لتضعَهُ أمام حقيقةٍ لا يمكنُهُ أن يكذِّبَ بها، أو أن يقدم برهاناً

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٥٧ ـ ٦٢.

يدحضها، وهي: حقيقة خلق الإنسان من هذا المني.. فيسألُ الله تعالى ـ وهو غنيٌّ عن السؤال ـ ولكن ليلقي الحجة على ذوي الألباب: أفرأيتم ما تمنونَ، وقت هذه اللذة الجنسية التي تستمتعون بها، من هذا الماء الذي يخرج من أصلاب الرجال ويختلط بالماء الذي يخرج من أتراب النساء.. أأنتم تخلقونه؟ أم نحن الخالقون له ليصير بشراً؟! فأنتم كما تعلمون، لا تخلقونه، بل وعاجزون كل العجز عن أن تخلقوه.. فاعلموا إذن، أننا نحن الخالقون له، لأنَّ الخلق كله من إرادتنا، ويخضع كله لمشيئتنا ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[1]. فهذه هي البراهين على إرادتنا ومشيئتا وقدرتنا في خلقكم.. من هذا الماء الضعيف الذي نخلق فيه القدرة عندما نجعله في الرحم، على التخلّق، لأن يصير جنيناً في بطن أمه إلى الوقت الذي نقدّره، فيخرج بشراً سويّاً. فنحن القادرون على ذلك، ونِعْمَ القادرون نحن، لأن خلقكم من حسن صنعنا وتصويرنا.. ولقد أثبت علم الأجنة هذه الحقائق القرآنية، بعد قرون عديدة من نزول القرآن، ليستدلّ الإنسان من العلم على قدرة الله تعالى في الخلق..

وإذا لم تكن البراهين العقلية والعلمية كافية، فهذا الموت الذي قدَّره الله تعالى بأقدارٍ متفاوتة من الآجال بينكم، بحيث يموت الصغير والشاب والشيخ والهرم، دونما قاعدة مسبقة لذلك، ودونما قدرة لأحدٍ على دفعه أو ردّه. ودونما سلطان لأحدٍ على الإفلات منه، أفلا يشكل هذا الموت دليلاً قاطعاً على أنَّ الذي يُميتُ في الأجل والوقت

---

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

الذي يقدّره، هو الذي يخلقكم أيضاً في الأجل المقدر، والوقت المعلوم لهذا الخلق.. فإن كنتم تصدقون، أو لا تصدّقون، فهذا أمر إلّهي، وما الله بعاجز عن أن يميت الناس إن شاء، ويبدّلهم بأناس آخرين أمثالهم، لأنَّ من سننه تعالى في خلقه أنْ يبقى الجنس البشري على الأرض إلى يوم القيامة، وأن ينشئكم ـ بعد أن يميتكم ـ في العالم المغيّب عنكم، العالم المجهول، في النشأة الثانية يوم البعث، التي لا تعلمون عنها شيئاً.

ولئن كنتم قد علمتم النشأة الأولى بالولادة التي تشهدونها في كل حين.. ولئن كنتم قد علمتم كيفية هذه النشأة بما اهتدى إليه العلم، أفلا تهتدون فتعلمون أنَّ القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى!..

بهذه البساطة والسهولة يبيّن القرآن المجيد قصة الحياة والموت والبعث، بحيث تقف الفطرة البشرية أمام المنطق الذي لا تملك أن تجادل فيه، لأنه مأخوذ من بديهيتها، ومن مشاهدات الناس اليومية في حياتهم حيث يرون الحياة تتفتح مع كل مولود جديد، ويرون الموت يفني كلَّ كائن حي..

وبهذه الطريقة من العرض والإيضاح، يقدم القرآن الكريم الأدلة العقلية والشواهد الحسية على خلق الإنسان، وموته، وبعثه..

إنها طريقة الله العليم الحكيم، ومبدع الكون، وخالق الإنسان، ومنزل القرآن، علَّ الإنسان يتفكَّر ويتأمل ويستنتج، فيؤمن، ويتعبّد لخالقه وباعثه..

غفلة الإنسان عن علم الله تعالى بخَلْقه في السماوات والأرض

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[1] إنه خطاب الله تعالى لمخلوقه «الإنسان» الذي من شأنه أن يبلغ شغاف قلبه وينفذ إلى أعماقه، لمن كان عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.. إنه خطابُ الربّ الكريم، الذي يقبل القليل ويعفو عن كثير يعاتب فيه هذا الإنسان، بعتاب الجليل القادر المقتدر، على تقصيره بحق ربه، الذي تكرم عليه بما خلقهُ عليه وسوّاه وعدله، في أحسن صورة، وأكمل تركيب.. إذ كيف لهذا الإنسان أنْ يغفل عن كل هذا العطاء، وعن كل هذه النعمة في خلقه، فيغرّه بربه تعالى الغرور، فلا يشكر له نعمةً، ولا يحمدُ له فضلاً، لا بل ويعصيه ويخالف أمره، حتى يصير ساهياً لاهياً سادراً عن كل شيءٍ حتى عن قيمة خلقِهِ، ومكرمة وجوده البشري.. إنه الخطاب الذي يستحقُّ الفعل والشعورَ للاستيقاظ من الغفلة، ولكنه يحمل في الوقت نفسه الوعيد الخفي لمن لا يهزُّ كيانَهُ خطاب سيده ومولاه، فلا يفيق من غفلته، ولا يعمل بما يليق بخلقه..

ولو أردنا الوقوف عن حسن تصوير الإنسان، وجمال تكوينه وخلقه السويّ المعتدل لوجدنا من عجائب الإبداع ما يذهل، لأنه يفوق كل تصوراتنا عن دقة الصنع وإحكام التدبير والتسيير، من الخلية الصغيرة في الإنسان إلى أكبر أعضائه.. ولقد أجادت مصنّفاتٌ كثيرة بوصف كمال التكوين الإنساني، عضوياً ونفسياً، وكان للعلوم الطبية دورها الأبرز في الكشف عن كيفية تركيب كل عضو، وكل وظيفة،

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

وكل حركة تحصل في داخل الإنسان، وفي ما يبدر منه من قول أو فعل أو سلوك. ولعلَّ في بعض الأمثلة البسيطة عن جارحةٍ أو حاسّةٍ ما، يجعل العاقلَ يخشع لقدرة المصور العظيم، وحكمة الخلاّق العليم في خلق هذا الإنسان وتكوينه..

اليــد

هي جارحة صغيرة نستعملها في كل شيء، لأنها أداة حركتنا الظاهرية في المأكل والملبس، والأخذ والعطاء، والإشارة والتوكيد.. إنها آلة بتركيب بسيط من سبع وعشرين عظمة، وتسع عشرة مجموعة من العضلات، ولكنها الآلة الدائبة التي لا تكف عن العمل والاستعمال والحمل، بحيث لا يمكن ابتكار أداة بمثل هذا التركيب البسيط ليد الإنسان، ويمكنها أن تضارعها في التكيّف للقيام بوظيفتها واستعمال أكثر الأدوات والأشياء التي يحتاجها الإنسان، لا بل وعلى التحكم في كيفية إدارتها وتسييرها.. ولعلَّ أبسط الأمثلة على عمل اليد أننا عندما نقرأ كتاباً فإنَّ الضغط بالأصابع هو الذي يجعلنا نقلّب صفحاته، وننقل عنه كتابةً ما نريد ونغلقه، ونضعه في المكتبة.. ثم أليست هذه اليد هي الأداة التنفيذية لنشاط العقل فيما خص استعمال أجهزة الحاسوب الإلكتروني (Computers) والإنترنت والآلات الحاسبة التي أصبحت جزءاً من حياة الإنسان اليومية؟ أوليست هي التي نكتب بها المعاهدات والمواثيق، ونقوم بكلّ المعاملات والارتباطات بواسطة التوقيع بأيدينا التي لا تتماثل بين إنسانٍ وآخر، وتشكل الهوية الحقيقية التي تميّز كل واحد عن مليارات الناس الموجودة اليوم، فضلاً عمّا هلك من الناس منذ عهد آدم وحتى الساعة.. فأية أداة، وأية آلة، يمكن أن تحمل هذه البصمة العجيبة؟ ثم أليست هذه البصمة هي التي

تثبت هوية المجرم، وتخلّص البريء؟!.. وصدق العلي العظيم بقوله الحق: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾(١) بل قادرين على أنْ نعيد تركيب هذا الإنسان يوم القيامة على الهيئة نفسها التي كان عليها في الدنيا، حتى الأصابع نعيد عظامها كما كانت مع صغرها، لأن يدَيْه سوف تنطق وتخبر عما كان يقوم به من الأعمال فلا يقدر على إنكارها: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢)...

هذه أهمية اليد في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، فسبحان الله الخلّاق العليم..

الأذن

ولنأخذ من حاسة السمع هذه، الجزء الأوسط، أي الأذن الوسطى ما بين الأذن الخارجية والأذن الداخلية. فنجد فيها سلسلة من أربعة آلاف حنية ـ كل حِنْيَةٍ على شكل قوس ـ وهي دقيقة ومعقدة بالشكل والحجم، وتتدرج بنظام بالغ الحاسية، يجعل من هذه الحنيّات وكأنها آلة موسيقية في عملها. أما وظيفتها فقد أعدَّتها الخلايا الجرثومية التي قامت بتكوينها لتكون جهاز التقاط ينقل إلى الدماغ أي صوت مهما كان قوياً أو خفيفاً، من صوت الرعد القاصف إلى حفيف الشجر، ومن هدير طائرة تخرق جدار الصوت إلى خرير المياه، ومن الصراخ إلى الهمس.. وتلعب الأذن دوراً هاماً في اعتدال الجسم والشعور بتوازنه، فإذا أصيبت بأي خلل من جراء التهابٍ، على سبيل

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٥.

المثال، أحسَّ الإنسان بثقل ووجع في الرأس، ووهن في جسمه، قد يفقده السيطرة على نفسه.

أما تأثيرها في الحياة فقد لا تقع مفاعيله تحت حصر؛ وهذه بعض الآيات مما أورد القرآنُ الكريم عن أهمية السمع.. يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١). فهذه حال مَن لا يتعظون من سماع أخبار الماضين، وما حلَّ بهم من الهلاك لعدم انصياعهم إلى الحق. وعندما يريد أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنْ يبين عقم عقيدة الشرك، فإنه ينفذ إلى ذلك من خلال السمع والبصر، فيلقي الحجة على أبيه بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾(٢)، ويشبّه الله ـ جلت عظمته ـ الكفار بالموتى والصمّ والعمي، فيقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(٤)، والمعنى: إنما يستجيب لدعاء الإيمان الذين يسمعون دعواتِ الحقِ إليه سماع تفهّم وتدبّر واعتبار. والكفار في عدم السماع لنداء الإيمان والحق هم بمثابة الموتى الذين لا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون.. إلى كثير من الآيات القرآنية التي تبين الآثار التي تترتّب على السمع في الدنيا والآخرة.

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٢.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٨٠ و٨١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

العيـن

وهي حاسة البصر، تحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من الخلايا التي تستقبل الضوء، وتشكل أطراف الأعصاب في العين. ونظراً لرقة شفافها وحساسيتها فقد جعل الخالق لها غطاءً هو الجفن، وكذلك الأهداب لحمايتها. فالجفن يعمل بصورة آلية وبحركة دائبة لا تنقطع دونما إرادة من الإنسان، فإذا تعرضت العين لأي خطر من الخارج، غبارٍ، أو ذرةٍ في الهواء، أو أي جسم آخر، أغلَقَ عليها حتى يمنعه من الدخول إليها؛ كما يكسر من حدة وهج الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال. وحركة الجفن المتواصلة هي التي تجعل العين تحفظ السائل الذي يحيط بها، وتمنع جفافها، وهذا السائل هو أقوى مطهّر للعين عندما ينزل منها، فنسميه الدموع..

وكما للأذن، فكذلك للعين آثار بعيدة في حياة الإنسان، ولعلَّ الخُلفةَ أعظم نعمة يمتنُّ بها الخالق علينا، ولذلك يُسمَّى الولد «قرة عين» لما يبعث في نفوسنا من طمأنينة وراحة ومشاعر حب وأمل، كما عبَّرت زوجة فرعون التي لم تلد، عندما التقطوا موسى وهو لا يزال طفلاً رضيعاً، وأراد زوجها قتله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(١). بل جعلَ الله تعالى الزوجةَ والولدَ «قرةَ عين» للإنسان بقوله المبين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(٢). وقد أجملَ ربُّ العالمين نعيمَ الجنة بما تقرُّ به الأعين فيها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1]. ومن اكتمال الخلق البشري أن يكون للناس أرجل يمشون بها، وأيدٍ يعملون بها، وأعينٌ يبصرون بها، وآذانٌ يسمعون بها. ولذلك يُنكرُ تعالى على من يتعبَّدون لأوثانٍ لا تملك شيئاً من ذلك، كيف لا يعقلون هذه الحقيقة في الموازنة بين خلقهم بهذا الكمال، وتلك الجمادات الباهتة التي يتخذونها شركاء لا تنفع ولا تضر بشيء. فيقول عزَّ وعلا: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[2]. وعن تمكين الناس في الأرض بما جُعِلَ لهم من الحواس والعقل، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾[3]، حتى إذا لم يُغنهم من تلك الملكات العظيمة من شيء ولم ينتفعوا بها، بل جحدوا بها فعموا وكذَّبُوا بالحجج البينة التي تدعوهم للإيمان، حاق بهم العذاب كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[4]. أي ونزل بهم العذابُ الذي كانوا يُتوعَّدونَه.. ويكفي للدلالة على عظيم ميزة السمع والبصر أنَّ الله ـ جلّت قدرتُهُ ـ يصف نفسه بأنه سميع بصير بقوله الحق المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[5]، وأنه سبحانه وتعالى بصير بعباده، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[6]، وأنه عزَّ وجلَّ

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٥.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٦) سورة آل عمران، الآيتان: ١٥ و٢٠.

بصير بما يعملون، لقوله الكريم: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

أرأيتَ إلى تلك اليد العاملة، والأذن الصاغية، والعين الجارحة، كم لها من تأثير على حياتنا الدنيا والآخرة؟ وإذا كان الحيوان الأعجم يشارك في هذه الأعضاء، بل وفي غيرهما كثير، مثل القلب والكبد والمعدة وجهاز التنفس وما إلى ذلك، فإنَّ خصائصنا النطقية والعقلية والنفسية، وخصائص صورنا وأجسامنا، فريدة عن خصائص وأجسام سائر الكائنات الحية الأخرى، وهي التي تعطينا سمة «الإنسانية»، فكان خليقاً بنا أن نستخدمها لما أُعِدَّت له في الأصل، حتى نلتقي مع أُناسنا، ونرتقي في إنسانيتنا..

أما العنصرُ الذي يدبُّ الحياة فينا ويجعل لخلقنا قيمةً ومعنى، فهو الروح التي جعلها الخالق سراً مغلقاً على عقولنا، فلا ندري ما هي، وأين تكمن في أجسامنا، وكيف تحرّك كلَّ خلية من خلايانا. يقول ربُّنا تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. وجلُّ ما نعرف عن الروح ما أخبرنا به القرآن الكريم من أنها نفحة من روح الله، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾[3]، أي إنَّ الخالق العظيم سوّى آدم من صلصال الأرض وترابها، وجعل هيئته على هذه الصورة التي نحن علينا، ونفخ فيه من روحه، فدبت فيه الحياة واستوى فيه كلُّ شيءٍ من خصائصه الإنسانية التي جعلته أحسن مخلوقات الأرض.. ما يعني أنَّ كلَّ خلقنا وإيجادنا

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٩.

وسمتنا الإنسانية هي هبة الله تعالى، خالقنا، فكان أعلم بنا وبخلقنا من أنفسنا، ومع ذلك فالإنسان غافل عن هذه الحقيقة..

ونسألُ هذا الغافل: لو أنَّ إنساناً مثلَهُ أعطاهُ عطيّةً أو وضعَهُ في منصب أو قدَّم له أية خدمةٍ، فماذا كان يفعل إلاَّ أن تكون ممتنّاً، شكوراً له؟ فما بالك أيها الغافلُ بربك الكريم الذي وهبك هذا الخلق وما يضم في أروقته الفيزيولوجية من الأعضاء والأجهزة والتراكيب، وما يحتوي في دهاليزه النفسية من الملكات والطاقات والسجايا؟ فما بالك تغفل عن ذلك كله، إلاَّ أنْ يكون الغرور والجهل قد أكلا رأسك، والجحود والتكبر قد أذهبا عقلك، وإلاَّ أنْ يكون الشيطانُ قد ضمَّكَ إلى قبيله، فصرت عبداً له بمطامعك وأهوائك، بدلاً من أن تكون عبداً لربك بعقلك وإيمانك!.. حذارِ أيها الإنسان أن تغترّ بربك الكريم الذي خلقَك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك، فتكون من الغافلين، وتكون من الذين وصفهم الله ـ جلَّ جلاله ـ بقوله المبين: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(2).

أيحسب الإنسانُ أنْ يترك سدىً: فيعيث في الأرض فساداً.. يغزو، يقتل، يسلب، يظلم، يدمر، تحت شتى الذرائع أو حتى بلا ذرائع!.. أيحسب الإنسانُ أنْ يُترك سدى: فيكذب القرآنَ ويقولُ هو

---

(1) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

من تأليف محمد، ثم يقدم كتاباً يسميه «الفرقان» ويقول إنَّه أفضل من كتاب الله المجيد؟!..

قد ينطلي ذلك على الناس البسطاء، الذين لفهَّم الجهلُ والضلال، والغفلة..

ولكن الحقيقة التي يجب أنْ يوقن بها الإنسان أنَّ ربَّهُ الذي خلقه قد جعل عليه من الملائكة رقيباً يحصي عليه كل قول وكل فعل وكل أمر يصدره لغيره.. أين منه أية آلة تسجيل عرفها أو سيعرفها الإنسان لدقته وصدقه ودأبه!. والحقيقة الأهم التي يجب أنْ يؤمن بها الإنسان أنَّ ربَّه أقرب إليه من حبل الوريد، يرى عمل يديه، ومشيَ رجليه، ونظر عينيه، ويسمع قول لسانه، ويطّلع على خافية قلبه وعلى أنفاس صدره.. يقول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

هذه الحقيقة القرآنية يجب ألاَّ تغيب عن بال الإنسان، بل يجب أنْ يصدّقها. فقد كان المشركون يتآمرون على النبيِّ ﷺ في مكة، في الزمن الذي كان يتنزل القرآن الكريم على قلبه الشريف، فيعقدون الاجتماعات السرية لذلك، وبغباء ما بعده غباء.. كانوا يتواصَوْن فيقول بعضهم لبعض: اكتموا شركم، واخفتوا أصواتكم فلا يسمعكم إله محمد، ولا يصل خبركم إلى محمد.. فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.. فافعلوا ما تفعلون، وقولوا ما تقولون سرّاً أو علانيةً، فلا تتوهموا أنَّ الله تعالى لا يعلم به، لأنه يعلم السرَّ الذي يودعه إنسان لإنسانٍ، بل ويعلم ما هو

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٣ و١٤.

أخفى من السرّ، أي ما يحدّث به الإنسانُ نفسَهُ، وما ينطوي عليه قلبُهُ من النيات، إنْ خفيت وإنْ ظهرت. . والعلّةُ واضحة فهو سبحانه الذي خلق الإنسان، وخلق له نفسَهُ وقلبَهُ، ألا يعلَمُ إذن مَنْ خلق؟ وهو سبحانه اللطيف بعلمه، فلا يجازي العاصي والمسيء، والمنافق، والمتآمر والخبيث. . بل يلطف به، ويمهله حتى يستوفي أجله. وهو سبحانه الخبير بعباده، وبما يصلح لهم من عقابٍ فوري ينزله بهم من حيث لا يعلمون، أو بتأخير هذا العذاب إلى وقت معلوم مقضيٍّ به بزمانه ومكانه، وفقاً لما قدَّر لهم العليمُ الحكيم. .

وليس بدْعاً أنْ يطَّلعَ الخالقُ العظيمُ على ما كان المشركون يتآمرون في السرّ للقضاء على دعوة النبي ﷺ ووأدها في المهد، فيحذّرهم سبحانه وتعالى ألاَّ يتمادوا في غيّهم وضلالهم. . وربما يحلو للبعض أنْ ينكرَ ذلك بسبب كفره، وجهله بحقيقة الخالق العظيم. ولكنْ لو اطّلع على القرآن الكريم، فسوف يجد أنَّ الآيات كانت ترافق الأحداث، حَدَثاً بحدَث، لتقرِّر الواقع الذي يعايشه المسلمون، ولتعطي الأحكام التي تشكل مناهجَ للناس على مدى الحياة. وإن عجب هذا الكافرُ من تحذير القادر المقتدر للمشركين في مكة، فالقرآنُ يزيده عُجباً، وهو يبيّن من الآيات الكريمة التي ترقب ليس الأحداث العامة وحسب، بل والحدَث الفردي في آن معاً. . مثالُهُ قصة خولة بنت ثعلبة - في المدينة المنورة - التي ظنّت أنّها حُرّمت على زوجها أوس بن الصامت عندما قال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وفقاً لحكم الجاهلية، الذي كان يعتبر الظهار طلاقاً يوجب الفرقة بين الزوجين. فجاءت إلى النبي ﷺ تشتكي حالها، وماذا تفعل؟! وما كادت تنهي جدالها مع النبي ﷺ حتى أنزل الله تعالى قرآناً

بقوله الحكيم: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[1].

هذان حدثان مختلفان في الزمان والمكان والتوجّه (تآمر المشركين، وقصة خولة بنت ثعلبة). ولكنهما من الأدلة الحسية والبراهين الثبوتية التي تؤكد الحقيقة القرآنية، وهي أن الله تعالى عليم بخلقه البشري جملةً وتفصيلاً، يعلم سرّ كل فردٍ وعلانيته وهو عليم بذات الصدور.. ولذلك نجد أنه سبحانه وتعالى قد بيّن في (سورة الملك) الحقيقة التي تخاطب الناس، كل الناس، والتي يجب أن تبقى ماثلة في الأذهان بقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ثم بيّن في (سورة يس) رعايته لرسوله محمد ﷺ لإيناس قلبه من عنت ما يلاقيه، فيخاطبُهُ بقوله العزيز: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[2].. إنها الحقيقة ذاتها، وهي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]، فهو سبحانه الخلّاق لكل شيء، وهو سبحانه العليم بكل شيء.. بل وربُّنا ـ جلَّ جلاله ـ أعلم منّا بما في نفوسنا، وبما نضمُر من الخير أو الشر، ومن الإيمان أو الكفر، ومن الهدى أو الضلال ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾[4] فكيف بما نقول ونفعل ونصنع، والذي يؤكده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[5]...

ولتَخْشَعْ يا بني آدمَ، ولتخشَ الله ربك وأنتَ تسمعُ ما يخبرك به القرآنُ عن عبادة المخلوقات غيرك في السماوات والأرض من

---

(1) سورة المجادلة، الآية: ١.
(2) سورة يس، الآية: ٧٦.
(3) سورة الحجر، الآية: ٨٦.
(4) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.
(5) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

الملائكة والطير، وتسبيحها لله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1]؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].. واستمع أيضاً أيها الإنسان إلى ما يقرره القرآن من هذه الحقيقة عن علم الله جلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[3]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[4] علماً ومشيئةً وقدرةً، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بقوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5].

أجل، عجيب أمر هذا الإنسان (والقرآن يقرر هذه الحقائق عن علم الله تعالى ومشيئته وقدرته)، ثم يجادل في آيات الله بغير علم ولا كتاب!... فقد جاء العاص بن وائل إلى النبي ﷺ وقد أخذ بيده عظماً، ففتَّهُ وقال للنبي ﷺ: «أترى يُحيي اللَّهُ هذا بعدَما بَلِيَ ورمَّ»؟ فقال له ﷺ: «نعم ويُدخِلُكَ النارَ»[6].. ويبيّن القرآن المجيد ذلك الحدث، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[7].. ولذلك نجد القرآن الكريم يحاول دائماً أنْ يشدَّ انتباه الإنسان إلى

---

(١) سورة النور، الآية ٤١.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٤.
(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ٥ و٦.
(٦) الطبرسي، تفسير سورة يس.
(٧) يس، الآيات: ٧٧ ـ ٧٩.

حقيقة خلقِهِ من نطفةٍ صغيرة، من الماء المهين الضعيف الذي لا حول فيه ولا طول له، لولا قدرة الله تعالى التي أودعت في هذا المنيّ من الخلايا الجرثومية التي تقوم بتخليقه طوراً فطوراً في بطن أمه، ليخرج من ثم طفلاً، ثم يصيّرُهُ خالقه بشراً سوياً. والآيات التي تخاطب عقل الإنسان وتعرّفه وتذكّره بخلقه من ضعف، وبفضل الله تعالى عليه بما جَعَلَ فيه من قوةٍ بعد ضعف.. نعم، إنَّ مثل هذه الآيات كثيرة في كتاب الله المبين، وقد وردت في عدة سورٍ، كما رأينا في بحث مراحل النمو لدى الإنسان، وكما نرى في هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[1]؛ فالقرآن يجهد بأن ينتشل الإنسانَ من ضلاله، ويحميه من سوء مغبَّةِ إنكاره لأنعم الله تعالى عليه، وذلك بما يبيّن له من حقائق عن خلقِهِ، أصبحت من بديهيات العلمِ اليومَ؛ حتى إذا لم يهتدِ الإنسانُ ويقرَّ ويصدّقْ بآيات الله، فالمسؤولية تقع على عاتقه، لأنَّ الله ـ جلَّت عظمته ـ قد توعَّد المكذبين بآيات الله والضالين عن الحق، بالويل الذي هو العذاب المهين. ولذلك يأتي التعقيب بعد تذكير الإنسان بخلقه من ضعف، وبأنّ الله تعالى بمشيئته وقدرته، ونعم القادر هو، قد جعل من بعد ضعفه قوة، حتى يخوض غمار الحياة وهو على بصيرةٍ من أمره.. أجل، يأتي التعقيب بقوله الحق: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.. أولئك الذين ينكرون حقيقة وجود الله عزَّ وعلا، وحقيقة أنه خالقهم وعليم بأحوالهم، وأنه سبحانه يبعثهم يومَ القيامة للحساب والجزاء، والذين يكذبون بآيات الله في ما أنزل

(١) سورة المرسلات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٤.

تعالى من كتاب على رسله.. كل أولئك من المكذبين، فويلٌ يومئذٍ، يوم يأتي الحساب، للمكذبين من عقاب الله الشديد.

ولا بدَّ أخيراً من الإشارة إلى أنَّ القرآن الكريم عندما يُعنى بتقرير تلك الحقائق عن علم الله تعالى بكل خلقه، وبخلق الإنسان فيما يفعل ويُسرُّ أو يعلن، فإنّما لكي يعي تلك الحقائق أولئك الذين يعملون بالسر ـ قبل غيرهم ـ من تدبير المؤامرات ووضع الخطط ورسم الأهداف وتسخير أجهزة المخابرات، وغير ذلك مما يحيكون ويكيدون.. كي يعي هؤلاء، أنَّ أمورهم السريّة وإن خفيت على الناس، فإنها لا تخفى على إله الناس، ولا يغيب منها شيء عن رب العالمين!.

ثم إنَّ استقرار تلك الحقائق التي يُعنى القرآن الكريم بتقريرها في قلب المؤمن، توفّر له إدراكاً صحيحاً للأمور، فوق ما تودع في قلبه من يقظة وتقوى وإيمان، تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض: أمانة العقيدة، وأمانة العدالة، وأمانة الصدق، وأمانة التجرّد لله تعالى في القول والعمل والنيّة. وهذا لا يتحقق إلاَّ حين يستيقن المؤمن بأن قلبه ـ وما يكمن فيه من السرّ والنيّة ـ بيد الله تعالى، لأنه هو الذي خلقه، وهو اللطيف به، الخبير بأقواله وأعماله..

تناسق خلق الإنسان مع بناء الكون

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

كل شيء في الكون: الكواكب والنجوم والأفلاك والمجرات،

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

وكل ما تتكون منه من العناصر، وما ينبعث منها من الأشعة والأضواء، وما تحمل في جوفها أو يوجد على سطحها من كائن صغير أو كبير، ساكن أو متحرك، معلوم ـ للإنسان ـ أو مجهول.. إنما خلقَهُ الله تعالى بالقدر الذي يتناسب مع ماهيته والوظيفة التي أُعدَّ لها، ليكون كل شيء قائماً على الدقة والإحكام، وعلى التناسق والانتظام، فلا يتحول أي شيء عن السنن الكونية التي أوجدها الخالق لتسيير هذا الكون.

وعلى سبيل المثال فقد أمكن العلماء في العصر الحديث تحديد أبعاد النجوم التي جرى اكتشافها، وأحجامها، وكتلها، وجاذبية بعضها لبعض، لا بل ولقد أمكنهم وهم يوغلون في أبعاد الكون، من تحديد مواقع لنجوم لم يروها، لأن المناظير (téléscopes) التي يستعملونها لا تستطيع بعدُ التقاطها. أما تحديد مواقعها فقد بني على قانون التناسق، واحتساب الأبعاد وفقاً للنسب التي قدَّروها، والتي يعتقدون أنها نسب ثابتة، لا يطرأ عليها خلل أو اضطراب.. فهل ما قدَّر الإنسان في تلك النسب إلاَّ مما خلَقَ الله تعالى بقدر؟!.

وهذه الأرض، وهي جزء من هذا الكون المترامي، الذي تعبر أشعةٌ منه ملايين السنين الضوئية لتصل إلينا، هي في منظومة هذا التناسق في أرجاء الكون، إنْ بين مختلف أرجائها، وإنْ في حركتها وارتباطها بالنظام الشمسي، وإنْ في مختلف الكائنات الموجودة على سطحها.. فترى فيها الجبال والوديان، والتلال والسهول، والصحارى والغابات، والبحار والأنهار واليابسة وحركة المدّ والجزر، مثلما يغمرها نور الشمس وضوء القمر، ويتعاقب عليها الليل والنهار،

ويغطيها الظلام والنور.. وكل ذلك بقَدَرٍ: حسابهُ، وحركتهُ، والنظُم التي تحكمه، التي أوجدها الخالقُ العظيم.. فإذا كان هذا القَدَر المقدور، فلا نعجب من نظام آخر في توازن الأحياء على أرضنا، كما في هذه الجوارح من الطير (كالنسر والعقاب والصقر) التي جُعلتْ قليلة العدد، لأنها قليلة البيض والتفريخ، فضلاً عن أنها طويلة الأعمار ولا تعيش إلا في مواطن عالية عادة، وهي قليلة العدد، فلو كانت هذه الجوارح، التي تتغذى على صغار الطيور والعصافير كثيرة التفريخ، وتعيش في كل ناحية من الأرض، لقضت بأعمارها الطويلة على الطائر الصغير، وبذلك تكون قد قضت على مصدر رئيسي من مصادر طعامها وطعام الإنسان، وذهبت بالدور والوظيفة اللذين عهدهما الخالق إلى كل جنس ونوع من الطيور الصغيرة. ومثال آخر هذه الذبابة الصغيرة الضعيفة الواهية، فإنها تبيض ملايين البويضات، لكنها لا تعيش لأكثر من أسبوعين. فلو كانت أعمارها لبضعة أشهر، أو لأقل بضع من السنين، لكانت بتفريخها تلك الكميات الكبيرة من بيوضها غطت الأرض، فلا ترى إلاَّ ذباباً يملأ البيوت والشوارع والأشجار والمزروعات، ولغدت حياة أجناسٍ كثيرةٍ من الأحياء، وأولها الإنسان، مستحيلة على هذه الأرض. وكذلك الجرادة، التي يمكن أن تهاجر إلى مواطن بعيدة، فلو كانت تعيش في كل مكانٍ في الأرض، لاختلَّت معيشة الإنسان.. ولكنَّ تدبير العزيز الحكيم، بالقَدَر الذي قدَّره لتلك المخلوقات في أرضنا، بين تكاثرها وقصر عمرها (الذباب)، وبين قلة عددها وطول عمرها (الجوارح من الطير) وبين طاقتها على الالتهام وحصرها في أماكن محدودة (الجراد) أرانا النسور والذباب والجراد، وهذا الذي نأنس به من كثرة أنواع الأشجار

والمزروعات، لذا كانت هذه الاستمرارية لحياة الإنسان على هذه الأرض. .

إنه تقدير في الخلق، وتقدير في المكان، وتقدير في الزمان، فهل عرف الإنسان قدرة الخالق العظيم الذي خَلَقَ كلَّ شيءٍ بقَدَر؟! وهذا الإنسان نفسه، هو جرم في الأرض، وجرم في الكون، فكان هذا التناسق في خلقه، ليكون منسجماً مع وجوده في الكون. . وقد أدرك الشاعر هذا المعنى، فقال للإنسان:

أتحسبُ أنَّك جرمٌ صغيرٌ   وفيك انْطَوَى العالمُ الأكبر

أما تناسقُهُ في خلقه، فبما جعله الله تعالى في أحسن تصوير، وبما أودع فيه من أرقى الخصائص، وبما وهبه من الطاقة الحيوية والمزايا البشرية والإنسانية، كما دلَّ عليه الخالق الباري المصور بقوله المبين: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[1]. . وما تلك الطاقة الحيوية والمزايا البشرية والإنسانية (العقل والمشاعر)، إلاَّ لتنتظم حركة الإنسان في العمل والكدح، مع حركة أجرام الكون التي تسير كلٌّ لغاياتها ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]. أوَحَسبتَ أيها الإنسان أنّك خُلقت عبثاً، أو أنك أتيت إلى هذه الدنيا في نزهة للراحة والترفيه؟! أبداً. لقد خُلقت لتكابدَ العناءَ والشقاء. . لتعمل وتجهد وتكدّ من

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٧.

(٢) سورة يس، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

أجل نفسك، ومن أجل الناس حولك، ومن أجل عمارة الأرض، فتلاقي ربك تعالى بنفس راضية مرضية، أو بحمل أثقالك وأثقال مع أثقالك. . فحياتك منظومة من العمل، للتوافق مع منظومة حركة أمك الأرض، ومع منظومة جرميّتك في الكون. . وهذا ما يقرره القرآن الكريم بقول رب العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ * لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[2]؛ إنه قَسَمُ الله تعالى العظيم، وهو سبحانه لا يقسم بشيء إلاَّ أن يكون عظيماً، والعدول عن القسم تعظيم أكبر للشيء لأنه يكون عظيماً في قيمته ومقداره، عظيماً في أصله ومآله، وعظيماً في مدلولاته وأبعاده. . فعندما يقول عزَّ وعلا: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، فالبلد هو مكة الحرام، وفيها بيتُ الله، المسجد الحرام. وفي مكة ولد محمد بن عبد الله، وظل حلاً (مقيماً) فيها حتى هجرته إلى المدينة المنورة، ثم إنَّ إبراهيم عليه السلام هو الذي حرَّم مكة من قبل، فكل ذلك تبيانٌ لجلال القسم، الذي يزيد مكة وبيتها حرمةً وشرفاً وتعظيماً، ويزيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللذين أقاما قواعدَ البيت العتيق، شرفاً وكرامةً وتعظيماً، ليأتي من ثَمَّ للقسم الجليل مدلوله العظيم. . فهو في الأصل خطاب للنبي الأكرم محمد ﷺ: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلٌ بهذا البلد»، وقد تلقاهُ ﷺ وهو حلٌّ بمكة، بلده الذي ولد فيه وعاش فيه قبل بعثه وبعده، على مدى ثلاثة وخمسين عاماً، ولو لم يخرجْهُ أهلُها بالتآمر على قتله، لما هاجَرَ إلى

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٢) سورة البلد، الآيات: ١ ـ ٤.

المدينة المنورة، ولكان ظلّ ينشر من مكة الإسلام أعظم الرسالات السماوية، وأكملها عقيدةً وشُرعةً ومنهاجاً، وأتمّها نعمةً أنعمها الله تعالى وارتضاها ديناً للناس جميعاً في الأرض. فكان للقسم كل تلك المدلولات العظيمة، التي تجعل لمحمد ﷺ شرفاً وكرامة ومزيداً من الرفعة..

أما لماذا هذا القسم، وبكل المعاني والقيم والمدلولات التي يحملها لكي يكون سابقاً على قسم ثانٍ لا يقل عنه شأناً وقيمةً، لأنه يتناول الوجود البشري على هذه الأرض، في أدق وأخطر طور من أطوار هذا الوجود، وهو التوالد، الذي لولاه لما كان لحياة البشر أن تستمر على هذه الأرض.. فالوالد (الآباء والأمهات) وما ولد (من الأولاد بنين وبناتٍ)، هو الأصل في حفظ النوع البشري واستمراره..

والقسم الأول على جلاله وعظمه، والقسم الثاني على شأنه وقيمته للتوكيد على دور الإنسان في العمل والإعمار والإنتاج، وإقامة العلاقات في شتى الميادين والمجالات في الحياة الإنسانية.. وهو دور جليل يتطلب بذل الجهود، وتحمل المكابدة والمشقة، ومواجهة كل صعوبة أو أزمة، ومعالجة كل مشكلة، وإيجاد الحل لكل مسألة.. فهو دور محكم ومترابط في منطلقاته وآفاقه، فكان لا بدَّ أن يخلق الله تعالى الإنسان في «كبدٍ» حتى يقوم بالمهمات الجسيمة التي فرضها عليه خلقهُ ووجوده، لكي يكابد مشاق الحياة، لأنَّ معنى «الكَبَدْ» ـ لغةً ـ المشقة والشدّة؛ فالإنسان مجبول على المشقة والكدّ والمعاناة في حمله وولادته، «حملته أمُّهُ كرهاً ووضعته كرهاً»، وفي زمن رضاعه وإلى فطامه خلال حولين كاملين، إلى أن يبدأ رحلة العمر،

وإلى حين أجل موته، فيستمر في الجهاد والكد والكفاح. ومن هنا يمكن القول بأنه ما من مخلوقٍ يمكن أن يكابد ويشقى مثل ابن آدم، مع أنه أضعف مخلوقات الأرض!.

وتختلف طرق «الكبد» باختلاف عقول الناس ومفاهيمهم والاتجاهات والأهداف التي يعملون لها.. إلى أن تستقر نتائج ذلك كله على عاتق الإنسان، يوم يلاقي ربَّه سبحانه وتعالى، بحيث يؤدي به «كَبَدُهُ» في الدنيا إما إلى الجنة، وإما إلى النار في الآخرة.. وهنالك لا يكون إلاَّ خلودُ نعيم للسعداء، أو الكَبَد الأكبر للأشقياء!.. وعلى الإنسان أن يختار وهو لا يزال هنا في هذه الحياة الدنيا..

المبحث الثاني

النفس

قلنا إنَّ الإنسان يتكوّن من: جسد وروح ونفس.

والنفس هي غير الروح. ويخلط كثيرون بينهما عند كلامهم على التكوين البشري. . فالروح سر إلٓهي أودعه الله سبحانه في الكائن الحي. والإنسان مهما بلغ من علم ومعرفة، لا يقدر على كشف هذا السر. ولو أرادَ الله سبحانه أن يعلم الإنسان شيئاً عن الروح لكان هداه الطريق إلى هذا العلم في قرآنه المبين. ولكنه ـ سبحانه ـ شاءَ أن يبقيه سراً مغلقاً على الإنسان، ولذلك عندما كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن أمر الروح وماهيتها، نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] . . وجُلُّ ما يمكن أن نعرف عن الروح أنها هي باعث الحركة في الكائن الحي، أما ما هي؟ وهل لها شكل معين؟ وأين تكمن في الكائن الحي، وكيف تدخُلُ وتخرج منه؟! فتلك أمور من غيب الله الذي لا يعلمه إلاَّ هو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

سبحانه، بحيث لا يمكن أحداً أن يصل إلى أي علم في البحث عن الروح! . .

وأما النفس فهي العقل والقلب وما ينشأ عنها من إدراكٍ وتمييزٍ وغرائز وحاجات عضويةٍ. ولذلك فإننا نرى الآيات القرآنية عندما تتحدث عن النفس، فإنما تعيّنُ خصائصها وصفاتها، ومن قبيل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[5].

ولا يمكن أن نجد مثل هذه الأوصاف للروح، فلا يمكن بالتالي البحث عن إيجاد مقارنة أو تبيان فوارق بين النفس والروح. ولكنهما ترتبطان ارتباطاً وثيقاً في حياة الكائن الحي. وقد فسَّر ارتباطهما في حياة الجنس البشري كل من ابن عباس ﷺ والإمام محمد الباقر عليه السلام، وذلك بالاستناد إلى آيات الله البينات. فيقول ابن عباس: «يوجد في بني آدم نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس. فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها التنفس والتحرك. فإذا نام الإنسان قبض الله سبحانه نفسه ولم يقبض روحه، واذا مات قبض الله سبحانه

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ و٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٤) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ و١٥.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

نفسه وروحه». ويفسر الإمام محمد الباقر عليه السلام هذا الأمر فيقول: «ما من إنسان ينام إلا وتعرج نفسُهُ إلى سماء الله وتبقى روحه في بدنه، ويصير بينهما شعاع كشعاع الشمس، فإذا أذن الله بقبض الروح أجابت النفس، وإذا أذن الله ببقاء الروح رجعت النفس». يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١). ويُمكن أنْ نُلمَّ من معاني هذه الآية الكريمة: أنَّ الله تعالى يجعل الأنفسَ تستوفي أجلَها حين الموت، أما الأنفس التي لم تستوفِ بعدُ أجلها، أي لم تمت، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يتوفَّاها وقت النوم، فيمسك كل نفس قضى عليها الموت فلا ترجع إلى جسدها الذي كانت فيه، ويرسل الأخرى التي لم يقض عليها الموت، لترجعَ إلى جسدها فيعاودُ الإنسانُ إدراكه وتمييزه وكافة نشاطاته، لأنَّ الروح بقيت في جسده ولم تفارقه. والنفس المرسلة أو المرجعة تبقى إلى الأجل المحدد لها، أي إلى وقت موتها، وليس إلى وقت توفِّيها، لأن في الآية المباركة تمييزاً ما بين الوفاة والموت كما يلاحَظ. إذ بالوفاة تعود النفس إلى الجسد، بينما في الموت لا رجعة لها إليه قبل يوم القيامة. وإنَّ في وفاة الأنفس، إن بالموت أو وقت النوم، ورجوع تلك التي يرسلها الله تعالى إلى آجالها، لآيات لقومٍ يتفكرون، فيعلمون أنَّ القادر على ذلك قادر على بعث الإنسان من جديد يوم القيامة. فهل يتفكَّرُ الناس ويعلمون؟

وهذا التوفّي للأنفس هو من الخصائص التي تفرَّد القرآنُ الكريمُ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

بإبرازها للدلالة على قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وتسيير حياته.. وذلك مع التأكيد أنَّ هذا الكتاب المجيد قد عالج خبايا النفس الإنسانية بدقةٍ متناهية وشمول تام، وكشف عن مكنوناتها الدفينة، ووجّهها قِبَلَ الوجهة التي فيها صلاحها ورضا الله عنها.. وكل ذلك عن طريق القصة أو المثل أو العظة أو الأحكام المتعلقة بهداية الإنسان في نفسه، وبسلوكه النابع من نفسه.

خلق النفس بالاستعدادات

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[(١)].

لقد بات واضحاً مما سبق به القول، أنَّ الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان إنما خلقه من طين الأرض ونفخَ فيه من روحه، ثم أودع في الجنس البشري النظام الذي يقوم عليه الخلق المتتابع، بحيث يكون لكل فردٍ من بني آدم خصائصه النفسية والذاتية، بل والفيزيولوجية التي تميزه عن سائر البشر جميعاً. وهذا التمييز قائم في كل فرد أياً كانت النظريات التي تتحدث عن عوامل الوراثة وتأثير البيئة والاكتساب بالجهد الشخصي، وما إلى ذلك.. ففي داخل كل إنسان نفس؛ وهذه النفس هي من خلق الله تعالى. وهو سبحانه عندما يسوّي هذه النفس، أي يخلقها، فإنه يجعل فيها طبيعة مزدوجة من حيث الاستعداد والاتجاه، أي إنها تكون مزودة باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال.. وتأتي ميزة الإنسان عن سائر مخلوقات

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

الله الحية ـ بعد أنْ وضع الله تعالى فيه تلك الاستعدادات ـ بقدرته على التميز بين ما هو خير وما هو شر، وبقدرته على توجيه نفسه إلى الخير أو إلى الشر.. من هنا كانت تلك القدرة للإنسان كامنة في كيانه، وهي ما يعبر عنه القرآن الكريم بالإلهام تارة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، ويعبر عنها بالهداية تارة أخرى، كما في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وكما في سورة الإنسان أو الدهر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]. ففي الإنسان إذن، قدرة كامنة في صميم تكوينه على صورة استعداد.. والرسالات السماوية، والتوجيهات من أهل العلم والذكر، والعوامل الخارجية إنما وظيفتها أنْ توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها، وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً، لأنها مخلوقة فطرة، وكائنةٌ طبعاً، وكامنة إلهاماً.

وفي ذات الإنسان إلى جانب تلك الاستعدادات الفطرية الكامنة فيه، قوة أخرى واعية مدركة موجهة، هي القادرة على الاختيار والتوجيه، وهي التي تُناط بها التبعة. فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر.. فقد أفلح. ومن لم يستخدم تلك القوة، بل عمل على إضعافها أو توجيهها في الاتجاه الآخر، أي نحو استعداد الشر، وتغليبه على استعداد الخير.. فقد خاب. وهذا ما يعبر عنه النص القرآني بقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾. ومثل هذا الخلق للإنسان: باستعداداته الفطرية وبالقوة الواعية المالكة

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٢ و٣.

للتصرف فيه، هو الذي يرفع قيمة هذا الكائن الإنساني حين يجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه، ويمنحه حرية الاختيار ـ ولكن في نطاق مشيئة الله تعالى التي لا يفلت منها شيء ـ . . . فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم، وذلك بما يجعله من ذوي المنزلة العالية في هذا الوجود، تليق بالخليقة التي سوَّاها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه، وفضلها على كثير ممن خلق من العالمين.

وإنَّ سنةَ الله تعالى في خلق البشر سنةٌ عامة وثابتة، من حيثُ الاستعداد الذاتي في الإنسان للهدى والإيمان، أو للضلال والكفر. فإذا اختار الإنسان طريق الهدى والإيمان ـ وفق تلك السنّة الإلهية ـ فإنه تعالى يأخذ بيد هذا الإنسان، ويقوّي نفسه لينتصر فيها استعداد الخير على الشر، والإيمان على الكفر. ولذلك فإن نفس الإنسان لا تبلغ الإيمان إلاّ إذا كان مسارها وفق مشيئته تعالى وبإذنه، لأنه يريد الخير للإنسان، بل ويحبُّ لعبده أنْ يكون مؤمناً مهتدياً. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]. ولكن إذا خالف الإنسان سنة الله تعالى في خلقه، وجعل استعداد الشر والكفر يغلب على نفسه، فإنه يكون قد عطل مداركه وخالف طريق الخير ودلائل الإيمان، ولذلك يقع الرجس عليه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]. بمعنى أنَّ الإنسان ينال هذا الرجس ـ الذي هو أبشع الدنس النفسي ـ بسبب تعطيله لمداركه في التعقل والتدبر، وانتهائه بهذا إلى التكذيب والكفر. . ومصيره حتماً إلى النار لأن الرجس يمكن أن يأتي بمعنى «العذاب». . فالنفس الإنسانية إذا رغبت في الإيمان

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٠.

وسلكت طريقه فإنها لا تُمنع عنه، بل على العكس، فتظهر لها السبل ميسّرة أمامها لذلك، والطرق ممهدة، ودلائل الإيمان متسارعة باتجاهها، وذلك لأنه تعالى قد أعدَّ لها تلك السبل والطرق والدلائل، فآمنت بإذنه تعالى وفازت في الدنيا والآخرة. ولذا يكون الأمر عائداً دوماً لاختيار الإنسان، ولكن وفق مشيئة الله تعالى المطلقة.. فالإيمان يهدي إلى العمل الصالح، والكفر يقود إلى العمل السيئ، وعلى كلٍّ جزاء، من ثواب وعقاب. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]. وحاشا الله تعالى أن يظلم عباده، بل ظلمهم يأتي من أنفسهم لأنَّ العدل الإلّهي يقضي بأن ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾، أي لها ما كسبت من العمل الصالح الذي يرفعها، وعليها ما اكتسبت من العمل السيئ الذي يحطّها، وما الله بظلامٍ للعبيد.

ونفس الإنسان وما فيها من استعداد للخير أو الشر تبقى موضع علم الله تعالى، ولذلك يحذر ـ سبحانه ـ الإنسان من أن يبطن الشر في نفسه، وهو يتوهم أنه بعيدٌ عن عين الرقيب التي لا تنام. يقول الله تعـالـى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾.. فيه تنبيه وتحذير، وفيه تأكيد جازم بأنَّ الله تعالى يعلم ما في أنفسكم أيها الناس، وما تخبّئُهُ صدورُكم. ولو علمتم ذلك لكان أولى بكم أنْ تخشوا الله تعالى الذي يطّلعُ على سرائركم..

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

نعم إنَّ نفس الإنسان قد تمتلئ بالهواجس المستكنة والمشاعر المكنونة في علاقتها مع ربها، أو في علاقاتها مع الناس. وتلك العلاقات الكامنة في القلوب، الغائرة في طيات الضمائر، يجب أن تحكمها الخشية والحياء من الله تعالى، والحذر من غضبه. ولأنَّ الله سبحانه يطّلع على خفايا الأنفس ومكامنها، ويعلم السرَّ والجهر، فإنَّه يتلطف بعباده ويحذّرهم ـ فاحذروه ـ من خبث النيات ونفاق القلوب، وسوء التفكير، فهو ـ سبحانه ـ يعلم ما في أنفسكم، ويؤاخذكم عليه مؤاخذة العالم، القادر، المقتدر.. وهو تحذير فيه هزة للضمير الذي يستشعر الخوف والرهبة من أمر الله تعالى، فإذا صحا الضمير البشري، وارتعش رعشة التقوى والتحرّج، عاد فكسب الطمأنينة والثقة بعفوه تعالى وغفرانه وحلمه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر خطيئة النفس التي تستشعر وجود الله تعالى وعلمه ببواطنها، ويحلم على عبده فلا يعجّل له بالعقوبة، فلعلَّ عبدَهُ الخاطئ يتوبُ.

النفس اللوّامة

ومن حكمة الله السنيّة أن يبيّن لنا تحرّج النفس البشرية وهي متيقظة خائفة متوجسة، لا تتوانى عن المحاسبة في كل حين لأجل أنْ تتبين حقيقة هواها، وتحذر من خداعها وهي التي يصفها البارئُ بأنها «النفس اللّوامة».. والتي تقابلها بصورة مختلفة تماماً نفس أخرى هي «النفس الفاجرة»، أي نفس ذاك الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور، والذي يكذب ويتولى عن الحق دونما حساب لنفسه، ودونما تلوّم أو تحرج أو مبالاة.

ولبيان أهمية النفس اللّوامة فإنَّ الله سبحانه وتعالى يقرنها ـ في وَهَج التلميح بالقسمِ الجليل ـ بيوم القيامة على ما في هذه القيامة من

عظمة وتأثير، ليس على مصير الإنسان وحده بل وعلى الكون كله.. يقول الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(١). مما لا يدع مجالاً للشك بأنهما أمران عظيمان عند الله تعالى: يوم القيامة والنفس اللوّامة.

والتعبير القرآني الجليل، في هذا التلويح بالقَسَم مع العدول عنه ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أوقع في الحس من القَسَم المباشر. وهذا هو الأسلوب القرآني للدلالة على أهمية الأمرين.

والقرآن الكريم يبيِّن ثلاثة أنواع من النفس البشرية: النفس الفاجرة، والنفس اللوّامة، والنفس المطمئنة. والنفس اللوّامة قد تكون هي النفس التي تندم على ما فات وتلوم عليه. ولكن يستدل من ظاهر التنزيل أن النفس اللوّامة هي التي تلوم صاحبها على فعل الشر، وما لا يستقيم وفطرة الإنسان، أو على التقصير في عمل الخير، وتندم على ما فات.

والمؤمن يلجأ عادة إلى محاسبة نفسه على كل صغيرة وكبيرة: في كل كلمة يقولها، أو عمل يأتيه، أو شيء يريده، أو نية ينويها.. ونفسه هي محل هذه المحاسبة لأنها إمّا أن تأمره بالسوء، وإمَّا أنْ تجعله يتحسَّر على عمل الخير لماذا لم يقم به على أحسن وجه. وهي تندم عندما تنزلق بصاحبها مع هواه، فلا تردعه ولا توقفه عند حده، ولا تردّه عن غيّه أو ضلاله.. أي إنَّ لومَها يكون على صاحبها الذي جعلها تماشيه، وتلوّمها على حالها لأنها أطاعته واندفعت معه فيما يسوؤه ويسوؤها.

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١ و٢.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ إرادةَ الاختيار التي منحها الله تعالى للإنسان، تجعله مسؤولاً في النهاية، لأنَّ نفسه موكولة إليه. وبما أنَّه موكل بها، عليه أن يرشدها إلى الخير ويقودها إلى الأحسن. أما إذا انتهى بها إلى الشر، فهو مكلفٌ بها، وحجةٌ عليها؛ ويوم القيامة لن تُقبل منه معذرةٌ، ولو أبدى شتى المعاذير عما آتاه في الدنيا، ما دام يملك البصيرة والإرادة، وتشهد عليه جوارحه يوم الحساب. وهذا ما ينبّه إليه القرآن الكريم، بقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[1].

إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء

ليلاحظِ الإنسانُ أنَّه كما في هذه الدنيا كثيرٌ من المتاع والزينة والفتنة.. كذلك في نفس الإنسان أيضاً شهوات ورغائب وأهواء كثيرة.. وزينة الحياة الدنيا قد تغري الإنسان وتجذبُهُ إلى اتباع شهواته، ولكن بفعل وساوس الشيطان ونزعاته، الذي يزين للإنسان أعماله ويدفعه لارتكاب الفواحش ولو أنفق في سبيلها ماله كله. أما إذا شاء أن ينفق في سبيل الله، فإنَّ الشيطان يتصدى له ويعده الفقر والذل والشماتة، وهذا كلهُ من ضعف الإنسان، لأنَّ من أقوى كوامن هذا الضعف حب الشهوات واتباع الأهواء.. بما يجعل لإبليس سلطاناً على هؤلاء الناس المتعلقين بأهداب الدنيا..

هذان العاملان: حبُّ النفس للشهوات، ونفاذ الشيطان إليها بالإغواء، هما أكثر العوامل التي يستهدفها القرآن الكريم لتبيان ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ حيث إن «الألف» و«اللام» في كلمة النفس ـ هنا ـ

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ و١٥.

للجنس، فيكون المعنى: أنَّ كل النفوس تأمر بالسوء، ولذلك جاء الاستدراك سريعاً وفي سياق النص نفسه في الآية: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، أي إلاّ ما رحم الله تعالى من النفوس، فعصمها من الانقياد للأهواء والشهوات والمتع، التي هي أكثر العناوين دلالة على السوء في نفس الإنسان! . .

وقد ورد هذا التبيان لـ «النفس» في قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، وتحديداً في موقف امرأة العزيز في مصر من يوسف عليه السلام، وخذلانه لها في الاستجابة لرغباتها. . وفي سياق القصة أنَّ امرأة العزيز راودته عن نفسه فأبى واستعصم، ثم أودع السجن ـ ظلماً ـ تلافياً لعواقب الفضيحة. . ولكن يشاء الله السميع العليم أن يظهر الحق، فجاءت امرأة العزيز إلى الملك، وقد بدت مؤمنة، متحرّجة، لتعلن الحقيقة: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

أما يوسف عليه السلام من جهته، وبعد أن بلغَهُ خبرُ اعتراف امرأة العزيز ووضَحَ الحقُّ وبانَ، فقد أراد أن يعلن براءته التامة، ولاسيما عدم خيانة العزيز مع زوجته، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾(٢).

تكليف النفس قدر طاقتها

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٢.

الوسع: هو دون الطاقة، فيكون المعنى أنَّ الله تعالى عندما فرض التكاليف على عباده، ألزم كل واحدٍ من هؤلاء العباد بقدر ما يستطيع القيام به من الطاعات، وإنْ كان ذلك دون طاقته. وهذه الرحمة الربانية قد خصَّ المولى بها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا يكلفون بأكثر من طاقاتهم، بل بأقل مما يطيقون، أي قدر وسعهم، أو بقدر استطاعتهم القيام بالتكاليف. أولئك أصحاب الجنة يدخلونها برحمة الله الواسعة وبفضله العظيم، وليس فقط بالأعمال الصالحة النابعة من إيمانهم. ولولا رحمة الله تعالى لما كفى عملهم ـ في حدود الوسع والطاقة ـ لدخول الجنة. وهذا ما عناه رسول الله ﷺ عندما قال: «**لن يُدخلَ أحداً منكم الجنةَ عملُهُ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلاَّ أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضل**»[(1)].

ولكن، لماذا هذه الرحمة التي تصل بالمؤمن إلى الجنة؟

لأنَّ الله تبارك وتعالى علم أنَّ في خلقِهِ من بني آدم عجزاً وقصوراً، بحيث لا يمكن أن تفيَ أعمالهم الصالحة الاستحقاق لدخول الجنة، بل ولا تفي بحقِّ نعمة واحدةٍ من نعم الله تعالى عليهم التي لا تُعدُّ ولا تحصى؛ فكتب على نفسه سبحانه الرحمة، وقبل منهم جهد المُقِلِّ القاصر الضعيف، وكتب لهم بهذا الجهد الجنة فضلاً منه ورحمة، فاستحقوها بما عملوا من الصالحات التي مهدت للرحمة الربانية.

---

(١) البخاري، رقاق، ص١٨.

الإنسان لا يملك لنفسه إلاّ ما شاء الله تعالى

إنَّ المؤمن الصادق الذي يقيم الطاعات لرب العالمين، ويعبده حق العبادة حتى يأتيه اليقين، مثل هذا الإنسان يردُّ كلّ أمر وكلَّ شأنٍ وكل عمل ـ في كل آنٍ وحين ـ إلى الله سبحانه وتعالى، لأنَّه يعلم بأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق كلَّ شيءٍ بقدر، وأنه تبارك وتعالى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض لكل مخلوق من مخلوقاته بحيث لا يملك أحدٌ من هذه المخلوقات لنفسه شيئاً إلاّ أن يشاء الله. أي بتعبير آخر، إنَّ الله ـ تعالى ـ بمشيئته المطلقة هو صاحب الأمر والتدبير، فلا يشاركه أو ينازعه أحدٌ في أمره وتدبيره، وهذا ما يعرفه المؤمن حق المعرفة، ويوقن به حق اليقين، بحيث لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلاّ ما شاءَ الله...

أما المشرك فهو في جهل وعمىً مطبقين عن هذه الحقيقة، ولذلك كان المشركون عندما تتنزَّل الآيات القرآنية التي تتوعَّدهم بالعذاب يقولون للنبيِّ ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].. ولكن النبيَّ ﷺ كان يجيب بأنه لا يملك أن ينزلَ الله تعالى قضاءه بهم، وأن مهمته هي تبليغ الدعوة الإسلامية ليؤمن من آمن عن بيِّنةٍ، ويكفر من كفر عن بيّنةٍ.. أما أمره وأمر الرسالة التي يحمل، بل وأمر الناس جميعاً ـ باعتباره رسولاً للناس كافة ـ فمردُّه كله إلى الله عزَّ وجلَّ. ولم يكن المشركون ليقنعوا بالحجج التي يقدمها لهم رسول الله، بل ظلّوا يصرّون على أنْ ينزلَ العذاب بهم، إنْ كان هو والوحي الذي يُنزَّل عليه صادقين.. فنزل أمر رب العزّة والجلال ليزيح هذا العبء عن كاهل رسوله الكريم، ويجيبهم بقول الحق المبين: ﴿قُل لَّآ

(١) سورة يونس، الآية: ٤٨.

أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١].

إذاً هم يطلبون العذابَ ـ تحدّياً وسخريةً ـ الذي يهلكهم، ولكنَّ التنزيل الحكيم يبيّن لهم أنّه لا شأن للنبي بهذا الأمر، وأن هلاكهم مثل هلاك الأمم غيرهم هو أجلٌ محتوم عند رب العالمين، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون..

وهلاك الأمم عندما يحلّ أجلُهم إمَّا أنْ يكون هلاكاً حسياً بالدمار والفناء، مثل عادٍ وثمود وقوم لوط وكثيرٍ من الأمم الغابرة غيرهم.. وإمَّا أن يكون هلاكاً معنوياً، وذلك بتفكيك أواصر روابطهم ويلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض.. المهم أنَّ لكل أمة أجلَها ـ وهو ما قدِّر للأمم جميعاً ـ ويكون هذا الأجل إما لمدة زمنية تعود بعدها الأمة للحياة وتلعب دورها من جديد في الوجود البشري، وإما أنها تضمحلّ وتنمحي شخصيتها وتنتهي كأمة، وإن بقيت منها جماعات أو أفراد كما حلَّ بالهنود الحمر في بلاد أميركا... وكل ذلك وفقاً لسنة الله تعالى التي لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّلُ.. والأمة الإسلامية خاضعة هي الأخرى، مثل غيرها من الأمم لسنة الله تعالى في الهلاك.. صحيح أنها خير أمة أخرجت للناس بقول الحق المبين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٢]، ولكنها لم تحافظ على كيانها كأمة موحدة تحمل راية الإسلام وتنشرها في ربوع الأرض، ما أودى بها إلى الهلاك المعنوي، بانهزامها على أيدي أعدائها.. وإلاَّ فما بالها وهي ترى الكافرين ـ ولاسيما في هذه الحقبة من تاريخها الطويل ـ

(١) سورة يونس، الآية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

يمارسون على شعوبها الإسلامية أعتى ألوان الظلم.. ثم يتهمون المسلمين بالإرهاب!..

وهم يضعون حكاماً على بلاد المسلمين ليتولوا عنهم ضربَ وحدة الأمة الإسلامية في الصميم!.

وهم الذين يدنسون القرآن ويتهجمون على رسول الله ﷺ في أكثر من موضع على سطح الكرة الأرضية!.

وهم الذين يدنسون المسجد الأقصى، ويعملون على هدمه! وفي حريق هذا المسجد على يد يهودي متعصّب حاقد، أكبر البرهان على المخطط اليهودي، ليس لتدنيس الأقصى وحسب، بل لهدمه، وبناء هيكل سليمان عليه السلام على أنقاضه!!

وهم الذين يحتلون بلاداً للمسلمين بالقوة العسكرية، ويعذبون أبناءها بالسجون، أو يقتلونهم بالأسلحة الفتاكة!.

وهم الذين يسلبون ثروات البلاد الإسلامية وخيراتها بالخطط الاقتصادية والمالية والسياسية التي ينفذونها بالاحتلال المباشر ـ أفغانستان والعراق ـ أو ينفذها عملاؤهم من داخل بلاد المسلمين!...

ومع ذلك كله، فلا تزال الأمة الإسلامية غير مجتمعة على توحيد صفوف أبنائها، والوقوف في وجه أولئك الأعداء لدرء أخطارهم عنها، وعن الإسلام ذاته!.

إلامَ تنتظر الأمة الإسلامية ـ من خلال العلماء والفقهاء والدعاة الصالحين ومن يؤيد دعوة الحق معهم ـ لتقول للمسلمين جميعاً: كفى تفرقةً وتنابذاً وخلافاً فيما بينكم، وعودوا جميعاً إلى قرآنكم الكريم وربكم العظيم حتى تكونوا إخوةً في السّراء والضراء، سلماً على من

سالمكم، وحرباً على من عاداكم؟! وإلامَ ينتظر القادة المخلصون ـ المكلفون من ربهم شرعاً ـ ليعلنوا الجهاد المقدس ـ كما يفعل أعداء المسلمين بإعلان الحرب الصليبية عليهم ـ حتى تتخلَّص الأمة من أسباب الضعف والهوان، وتدفع شر هذا البلاء الذي يحيق بها، لتعود كما أرادها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خير أمةٍ أخرجت للناس؟!

أجل إنَّ الأمة الإسلامية اليوم في حالة من التفكك والهلاك المعنوي، وستبقى على هذه الحال إلى أن يقيّض الله تعالى لها أسباب النهوض، فتعود بعدها للحياة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتنشر الخير والسلام بين الناس وفقاً للدور الإيماني والإنساني الذي أناطه الله تعالى بها..

وإذا كان المشركون منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة قد كذبوا محمداً رسول الله ﷺ، واستكبروا عن الاستجابة لدعوته إلى دين الله، حتى وصَلَ بهم الكفرُ إلى أنْ يتحدّوه بإنزال العذاب بهم إنْ كان صادقاً فيما يدعوهم إليه.. أجل، إذا كان ذلك، فمن عجبٍ أن يكون كثير من الناس اليوم ـ وبعد هذا التقدم في العلوم والتقنيات والمعارف ـ أشبه بأولئك المشركين فكرياً وسلوكياً، وإلاَّ فكيف ينكرون على القرآن دعوته للهداية والصلاح، وكيف ينكرون على الإسلام أن يكون دين الله الحق؟!!.. بل وكيف لا يعودون إلى الرسالات السماوية الأخرى ويطبقون تعاليمها الأصيلة، بدل أن يزوِّروها ويدخلوا عليها من التحريف ما يذهب بتلك الأصالة؟!!..وما بال كثير من الناس يتفلّتون من منهج الله القويم، فبدل أن يسيروا على تشريع الله التام الكامل، يتبعون هذه التشريعات الوضعية التي غالباً ما تكون ناقصة، ولا تلبي حاجات الناس

وتطلعاتهم.. ولو فعل الناس ما فيه خيرٌ لصلاحهم بنبذ التعصب الديني، واتباع شرع الله تعالى لعباده، لكان ذلك أصفى لقلوبهم ونفوسهم، ولعرفوا أنّ الإيمان الديني الحق هو سبيلهم الوحيد للانعتاق من ربقة المادية والتعصب والكراهية والمفاسد والمطامع، والخلاص من كل شرور الدنيا وآثامها. والإنسان بإيمانه يكون أقرب إلى ربه تعالى، كما ربه أقرب إليه من حبل الوريد.

النفس وحبُّ الخير

من طبيعة الإنسان أن يكون شديد الحرص على الخير لنفسه، جزوعاً من الشرِّ والضُّر. وأعجب ما في هذا الإنسان أنه يطلب الخير دائماً، ويجهد في العمل لنيل مطالبه. فإن أعطاه الله، بطر واستعلى على الآخرين، وإذا مسَّه الضرُ - ولو قليلاً - ضعف وتخاذل، ثم لا يلبث بعد كشف الضر أن يعود إلى استعلائه وغروره، حتى ليكاد ينسى - أو يتناسى - أنَّه فانٍ لا محالة، وسيدركه الموت عاجلاً أو آجلاً، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور.. بل ويدّعي - بنوع من التوهّم والخيلاء أنَّه حتى لو بعث يوم القيامة، فإنَّ له منزلةً خاصةً عند ربه وذلك كما في ظنِّهِ الواهم الذي يبيّنه قولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[1].

(١) سورة فصلت، الآيات: ٤٩ - ٥١.

إنه رسم دقيق للنفس البشرية وهو يصورها في تقلبها، وضعفها، ومرائها، وحبها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسراء، وجزعها من الضراء..

والإنسان ذو النفس المتقلّبة الملحاحة لا يسأم ولا يكف عن دعاء الخير. إنه يلحُّ فيه دون أن يملَّ، ويتمنَّى لو يستديم تدفق الخير عليه بلا انقطاع أبداً..

ولكن هذا الإنسان إذا ما مسَّته شدة أو وقع به ضرر، تجده يفقد الأمل والرجاء، ويضيق صدره ويكبر همه، وييأس من رحمة الله ويقنط من رعايته، حتى لكأنَّ الخير غابَ عنه إلى الأبد، ولكأنَّ الشدة باقية عليه إلى الأبد.. وهذه حال مَن ثقته قليلة بربه تعالى، ورباطه به ـ سبحانه ـ ضعيف!.

على أنَّ هذا الإنسان إذا ما أذاقه الله تعالى رحمة منه من بعد ضراء مسته، لم يعرف ولم يدرك أنَّ ذلك فضلٌ من ربه، ورحمةٌ يتكرم بها سبحانه على عباده وعبيده.. ومثل هذا الإنسان الذي يغيب عنه إدراك فضل الله تبارك وتعالى، يتصور أنَّ النعمة التي حلَّت به والرخاء الذي أوتيه قد استحقهما بجهده وحذلقته، فيقول: هذا من عملي، وقد نلت ما عملت له، وسوف يبقى لي ويدوم عليَّ! وعندما ينسى المصدر الحقيقي للنعمة والرخاء يصير تصرفُهُ محكوماً، وكأنَّه لا قيامة ولا نشورُ ولا حساب ولا آخرة، فيقول تعبيراً عما يجيش في نفسه ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾!... وحتى لو عادَ له بعضٌ من وعي، واستدرك أنه لا محالة ميت، وأن الرجعة إلى الله تعالى لا محيد عنها ـ لأنه يرى في واقع الحياة أنَّ الناس يموتون، وأنْ لا أحداً منهم يبقى ـ

حتى في مثل هذا الموقف، يتوهم ويظن أنه لو رُجِعَ إلى ربه لكانت له وجاهته الخاصة عنده سبحانه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾!..

إنه غرورٌ.. غرور في النعمة.. غرور في التفاخر بعودة النعمة.. غرور في الاستعلاء على الناس ظناً بقدرته ومواهبه.. غرور بالآخرة وبالساعة.. غرور بالله تعالى العلي العظيم.. إنه الغرور الماحق الذي يحيق بنفس هذا الإنسان حتى تجعله مغتراً ـ على هذه الشاكلة ـ بكل شيء، حتى بربه سبحانه وبحسابه يوم القيامة.. وعند هذا الاغترار الذي يجعله يظن أنَّ له عند ربه مقاماً خاصاً، يجيء التهديد في موضعه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.. وهذا هو المصير الذي ينتظر الإنسان السادر في غفلته.. فقد غرَّته نفسه فلا يفكر بموازين الله الدقيقة التي تُوزن فيها مثقال الذرة من الخير ـ الذي يؤتيه الإنسان ـ كما يوزن فيها مثقال الذرة من الشر ـ الذي يفتريه الإنسان ـ، وكله يوم الدينونة محسوب، والمحاسَبُ هو هذا الإنسان نفسه على ما صنعت يداه في الدنيا.. هذه هي عدالة الله تعالى وهي تُنَبِّئُ ـ وتخبر بصورة مسبقة ـ الذين كفروا بأنَّ عذابهم غليظٌ بما عملوا، لأنَّ ما أَتَوْا من الأعمال كان بسبب كفرهم.. وعلى الرغم من هذا التهديد والوعيد فإنَّ الغرور يظل يفعل فعله في النفوس، ويدفع الكافرين إلى مزيدٍ من المظالم والجرائم التي يرتكبونها بحق الناس.. فبئس هكذا اغترار بالنفس يقود إلى هذا العذاب الغليظ!.

ومرة أخرى يأتي التعقيب بأنَّ ما من نعمةٍ على الإنسان إلاَّ وهي من الله سبحانه الذي يحذّر من نكران النعمة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ . . أعرض عن ذكر ربه بالشكر والامتنان، ونأى عن عبادته وطاعته، ثاني عطفه مزهواً بنفسه، مقبلاً بجوارحه يتقلّب على شهوات الدنيا ومتاعها، ويغوص في ملذاتها وفجورها. حتى إذا مسَّه الشر عاد يتخاذل ويتهاوى، ويصغر ويتضاءل، ويتضرع ولا يمل الضراعة، فهو ذو ﴿دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

أية دقة هي هذه الدقة الفائقة في تسجيل كلّ صغيرةٍ وكلّ كبيرةٍ في نفس الإنسان! إنه خالقه ـ سبحانه ـ الذي يصفه، خالقه وحده الذي عرف مسالك نفسه وتراكيبها، ويعرف أنَّ نفسه تظل تدور في هذه المسالك الملتوية المنحرفة. . إلاَّ أن تهتدي إلى الطريق المستقيم. . فتستقيم. .

قتل النفس البشرية

يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

يذكر القرآن الكريم قصة «قابيل وهابيل» ـ ابنَيْ آدم عليه السلام ـ وقتْل أحد الأخوين لأخيه، ثم عجزه عن أن يواري سوأته، حتى بعث الله تعالى غراباً فدلَّه على طريقة دفن الجثة في التراب[2]. . إنَّ تلك القصة وما تحمل في طياتها من عبرٍ وعظات ـ باعتبار القتل جريمة ضد الحياة التي هي هبة من الله تعالى لمخلوقاته ـ إنما تؤلف ركيزة شعورية لاستنكار الجريمة، وقاعدة للتشريع الذي يُفرَض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، وهو القصاص العادل الذي ينزل به إن هو أقدم عليها

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) تراجع الآيات من ٢٧ ـ ٣١ من سورة المائدة التي تورد محتوى قتل قابيل لأخيه هابيل.

بعد أنْ يعلم آلام القصاص الذي ينتظره.. من أجل ذلك يبين الله تعالى عظم جريمة قتل النفس البشرية، وعظم الدفاع عنها والعمل على إنقاذها من القتل. والآية ٣٢ المباركة من سورة المائدة تفيد بأن قتل نفس واحدة بغير نفس - أي في غير قصاصٍ لقتل نفس محترمة، وفي غير دفع فسادٍ في الأرض - يعدل قتل النّاس جميعاً، لأن حق الحياة واحد لكل نفس. فقتل واحدة من هذه الأنفس هو اعتداء على حق الحياة ذاته الذي تشترك فيه كل النفوس. وقتل نفس واحدة بغير حق يجعل الناس كلهم خصماء القاتل، وقد وَتَرَهم وِتْر من قصد قتلهم جميعاً، فأوصل إليهم من المكروه ما يشبه القتل الذي حل بالمقتول، فكأنَّما قتلهم جميعاً.

وكذلك دفع القتل عن النفس أو استنقاذها من الموت غرقاً أو حرقاً أو اختناقاً أو اعتداءً أو مرضاً.. أو استنقاذها من ضلال هو أشبه بالموت بالمقياس المعنوي.. أو أي إنقاذ لنفس مشرفة على الموت، فإنَّ مثل هذا الإنقاذ له شأن عظيم عند الله تعالى لأنه إحياءٌ للنفس المحترمة، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً.. بمعنى أن أجرَهُ على الله تعالى أجرُ من أحياهم جميعاً، لأنَّ في إسدائه إليهم هذا المعروف، وهو إحياء نظير لهم في الإنسانية أو أخٍ لهم في الإيمان، إنما هو بمنزلة من أحيا كل واحدٍ منهم، إذ في عمله هذا صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً.

هذا ما كتبه الله تعالى على بني إسرائيل لأنهم كانوا يتجاوزون حدود شريعتهم ويعمدون إلى قتل أنبيائهم، وقتل بعضهم لبعض بدون حق..

وهذا ما كتبه الله تعالى على جميع الناس في قرآنه الكريم، لأنَّ

جريمة القتل تبقى قتلاً للنفس التي حرَّم الله تعالى قتلها إلا بالحق. وقتل النفس لا يكون إلا بقتل نفس - وفقاً لشروط القتل العمد وأسبابه - أو فسادٍ في الأرض، على اختلاف أنواع الفساد..

كل نفس عليها حافظ

والله تعالى عندما حرَّم القتل، فقد كان هذا رحمةً منه تعالى لصون الحياة. وقد جعلَ - سبحانه - على كل نفس حافظاً يحفظ عنها كل ما تقوم به، ويعينها على خيرها وزكاتها. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾[1]. هذا قسم من الله تعالى بالسماء والطارق. وقبل أن يعلمنا سبحانه على ماذا يقسم يسألنا: أتدرون ما الطارق؟ وكأنه أمر يتجاوز إدراكنا وعلمنا. وهذا صحيح لأنه لو لم يأتِ الجواب على السؤال الاستفهامي لما عرفنا ما هو الطارق. ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ.

لقد بات القسم واضحاً.. إنه قسم عظيم بالسماء والنجم الثاقب، لما يحمل كلٌّ منهما من دلالات على عظمة الخلق في السماء وعلى قوة الشهب التي تسير بسرعة هائلة في الفضاء، وتحرق أو تحطِّم كل ما تصطدم به أو تنفذ إليه.. ومثل هذا القسم من القدير المقتدر من شأنه أن يوقر في الأذهان والقلوب أَنَّ كلَّ نفسٍ عليها من أمر الله رقيب حافظ. فما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ويحصي عليها ويحفظ عنها. وهو موكل بها بأمر الله تعالى، كي يعينها لأنَّها مستودع الأسرار والأفكار، ولأنَّ العمل والجزاء منوطان بها.

---

(١) سورة الطارق، الآيات: ١ - ٣.

فالإنسان إذن ليس متروكاً سدىً، يفعل ما يشاء من غير حافظ يحفظ عنه كل شيء، أو بلا رقيب أو حارس يمكن أن يحميه من مخاطر كثيرة قد يتعرض لها في حياته.. أبداً ليس الأمر هكذا، بل هنالك إحصاء لكل حركات الإنسان وسكناته بدقة متناهية، يحصيها عليه هذا الرقيب الحافظ، الموكل به من ربه تعالى..

وهذا النص يلقي في النفس إيحاءً رهيباً، حيث تحس بأنها ليست قطُّ في خلوة وبلا رقابة. فهنالك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد عن كل شريك، وحين تتخفى عن كل عين، وتأمن من كل طارق.. هنالك الحافظ الرقيب الذي ينفذ إلى أعماقها، ويكشف عما تبطنه في ثناياها، ويطرق عليها أبوابها كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر. ويجمع القسم بين مشهدٍ كوني هو السماء، وحقيقة إيمانية هي: أنَّ الله تعالى الذي خلق السماء هو الذي خلق النفس، وكما أوكل بحفظ السماء، فقد أوكل بحفظ النفس، ما يجعل الخلق متناسقاً في الأنفس وفي الآفاق. قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾(1). سنريهم حججنا ودلائلنا في أقطار السماوات من الشمس والقمر والنجوم النيِّرات، وفي أقطار الأرض من الحيوان والأشجار والنبات، وفي أنفسهم من لطائف الصنعة وبدائع الحكمة، حتى يتبين لهم الحق.

وعندما يتبيّن للنفس الحق، وتشعر بأنها مراقبة بأمر الله تعالى، وأنَّ كلَّ شيء محصيٌّ عليها، لزم أن تكسب ما يهديها ويوصلها إلى الجنة ويبعدها عن النار. وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة

---

(1) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1].

والله تعالى اللطيف الخبير لم يترك نفوس الناس حيارى، لتسير في الدروب بلا دليل أو هداية.. بل بيّن لها الطريق المستقيم الذي يمكن أنْ تسلكه إلى ربها على بصيرة من أمرها. فلها أنْ تختار هذا الطريق فتفوز، ولها أنْ تسلك غيره فتردى.. لأن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها، وهي مجزيَّةٌ بما تكسبه باختيارها، ومحاسبةٌ على أعمالها وأوزارها.

مراحل النمو لدى الإنسان

من الاهتمامات البارزة في علم النفس، دراسة مراحل النموّ التي يمرُّ فيها الإنسان، وتأثير عوامل الوراثة والبيئة في تكوين بنيته الجسدية والنفسية..

وأهمية دراسة مراحل النمو تلك، كما يقول علماء النفس، أنَّها تمكّن من معرفة شخصية الطفل خلال المراحل الأولى لنموّه، ومعرفة العوامل المؤثرة في شخصيته وسلوكه، بحيث يصبح بالإمكان لاحقاً، السيطرة على تلك العوامل لإعداد الطفل إعداداً صحيحاً، قد يجعله بمنأى عن الاضطرابات النفسية والانحراف، وقادراً على التكيّف مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه. ويبدو، أنه على الرغم من كثرة الأبحاث التي قدمها علماء النفس، والتجارب التي أجروها ـ على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الحيوان والإنسان ـ فقد جاءت نظرياتهم مختلفة حول مراحل النموّ، وبناء الشخصية المتكاملة، ما يستدعي التعرف ولو بنظرة سريعة ومختصرة، إلى خلاصة ما توصلت إليه أهم المدارس التي نشأت في الغرب، وكان اهتمامها منصباً على دراسة وبحث علم نفس النموّ لدى الإنسان. .

ولما كان العلم الحديث، ولا سيما علم الأجنة قد بيّن بصورة واضحة كيفية حصول الحمل وتكوين الجنين، فإننا سوف نستفيد مما قدَّمه هذا العلم، لنعود ونبحث في مختلف المراحل التي يمرّ فيها الإنسان من طور الرضاعة والطفولة، إلى طور الفتوة والشباب، وصولاً إلى مرحلة النضوج الفكري والشيخوخة وذلك من خلال ما توصّل إليه المفسرون والمفكرون من فهم للآيات القرآنية، ولما جاءت به السنة النبوية التي تدلُّ جميعها على أنَّ يدَ العناية الإلهية هي التي تتدرَّج بالإنسان منذ أن يكون نطفة من منيٍّ يُمنى حتى يصير بشراً سويّاً.

أولاً: أهم نظريات علم نفس النمو في الفكر الغربي

١ ـ نظرية التحليل النفسي ـ الجنسي:

ويغلب على هذه النظرية الطابع البيولوجي، لأن صاحبها سيغموند فرويد كان متخصصاً في طب الأعصاب؛ وتدور أفكاره حول وجود طاقة كامنة في الإنسان يسميها (ليبيدو libido) تنبعث من غريزة أساسية هي غريزة الجنس والعدوان (Sex and aggression). وتدخل هذه الطاقة أثناء نمو الطفل، في صدام حتمي مع المجتمع

والقيم السائدة فيه، ونتيجة هذا الصدام هي التي تحدد الصورة عن شخصية كل فرد. .

ويعوّل «فرويد» كثيراً على فهم النظام النفسي الداخلي للإنسان، والتحوّلات الكيفية التي يمرّ بها، مع التركيز على مدى انتظام مراحل من النموّ فيما يسميه فرويد (عملية التثبيت Fixation)، التي تعود بأسبابها إما إلى إسرافٍ في الإشباع، أو إلى إحباطٍ ناجم عن عدم الإشباع. فعندما تتشبَّث العوامل المؤثرة في نفس الإنسان خلال تلك المرحلة وتثبت في ذهنه، فإنها تجعله يتعلق بتلك المرحلة لناحية شعوره باللذة من الإشباع. أو لناحية التعويضِ عن الحرمان من اللذة بسبب النقص في الإشباع. أما إذا لم يكن هنالك إفراط ولا تفريط، فإنه يحصل الإشباع الصحيح الذي ينقل الطفل إلى مرحلة أعلى من النضوج النفسي، ويكون مترافقاً دائماً مع النضوج الفيزيولوجي. . ويرى «فرويد» بأنَّ الطفل إنما يستمد إشباعه لطاقته الغريزية في كل مرحلةٍ من مراحل نموه، من خلال عضو معين في جسمه؛ لذلك سمَّى مراحل النمو بأسماء أعضاء الإِشباع. فقال: إنَّ المرحلة الأولى هي «المرحلة الفميّة» ـ نسبةً إلى الفم ـ وتنقسم إلى فميّةٍ مبكرة يتمثل الإشباع النموذجي فيها بالرضاعة ومصّ الأصابع، وهي مرحلة أخذ. . وإلى فميّةٍ متأخرة تبدأ مع بروز الأسنان وعملية العضّ، وتتميز هذه المرحلة بثنائية العاطفة، أي حب الطفل وكراهيته للأشياء والأشخاص؛ تبعاً لما تؤمّن له علاقته بالأشياء من حوله، أو بالأشخاص الذين يحيطون به، من إشباع أو عدم إشباع. . .

والمرحلة التالية بعد المرحلة الفميّة سماها «فرويد» «المرحلة الشَّرجية»، وهي تمتد على مدى العامين الثاني والثالث حيث يحصل

الطفل على اللّذة خلالهما من الغشاء الداخلي لفتحة الشرج عند الخروج. وميزة هذه المرحلة استمرارية الثنائية في المشاعر، وظهور نزعة للعطاء، مع حب الأخذ. .

ثم تليها المرحلة القضيبية خلال العامين الثالث والرابع، وفيها ينتقل مركز الإشباع إلى الأعضاء التناسلية، مع بدء اهتمام الطفل الذكر بالنظر إلى أبيه كمنافس له في حب الأم، وبدء ميل الطفلة إلى أبيها، بحيث تشعر بالغيرة من أمها. . وقد سمى «فرويد» هذه الظاهرة بعقدة أوديب[١]. .

ويزعم «فرويد» أنه في الظروف الطبيعية للنمو يتوحَّد الطفل الذكر مع أبيه، والطفلة مع أمها، ويقصد بالتوحّد: الإِعجاب والمحاكاة والاقتداء. فإذا ظهر ما يخالف ذلك فمعناه وجود خللٍ في النمو النفسي.

ثم تأتي مرحلة (الكُمون) وتمتد من السادسة وحتى سن البلوغ، وخلال هذه المرحلة ينشغل الطفل عن ذاته بالأشخاص الذين من حوله، ولاسيما أهله وأترابه؛ ودافعه إلى ذلك جذب انتباههم إليه لكي ينال إعجابهم واهتمامهم به، وبكل ما يفعل. . ويقول «فرويد» إن هذه المرحلة تعتبر مرحلة هدوء من الناحية الانفعالية. .

وأما المرحلة الأخيرة، فهي مرحلة النضوج التي تتكامل فيها الميول الجنسية؛ وعلامة نجاحها في نظر «فرويد» تظهر من خلال الاتصال الجنسي الطبيعي مع فردٍ راشدٍ من الجنس الآخر. . .

---

(١) نسبة إلى رواية إغريقية عن ملك يدعى «أوديب» الذي دفعه تعلقه وحبه لأمه لأن يقتل أباه كي يتزوجها. .

ويبدو من مجمل آراء «فرويد» أنه يجعل مظهراً واحداً من مظاهر غريزة النوع، أي الشعور الجنسي، الأساس لجميع مظاهر الغرائز لدى الإنسان، لا بل ويسمى الشعور الجنسي «الغريزة الجنسية» التي تشكل المحور الذي تدور حوله مختلف ميول الإنسان ونشاطاته، بحيث إنَّ كل تصرفاته تنطلق من دوافع جنسية، وغايتها تحقيق الإشباع الجنسي. . وهذا ما جعل نظريته موضع انتقادٍ شديدٍ. من قبل كثير من الباحثين، ولاسيما من بعض تلامذته أنفسهم. .

٢ ـ نظرية التحليل النفسي ـ الاجتماعي

أسس لهذه النظرية أحد تلامذة «فرويد»، واسمه «إيريك إيركسون»؛ الذي خالف أستاذه في عدة أمور، وذلك بإعادة تشكيل مراحل النمو للطفل من خلال تركيزه على الطابع الاجتماعي والثقافي، بدلاً من الطابع العضوي الجنسي، ومن غير أن يبتعد كثيراً عن النموذج الفرويدي. . كما قام بتوسيع إطار علاقة الطفل بالبيئة التي يعيش فيها لتشمل المجتمع بدلاً من الاقتصار على علاقته بوالديه كما فعل «فرويد». .

وقد اعتبر «إيركسون» أن مرحلة الطفولة ليست بذات أهمية كبيرة نظراً لإمكانية تخطّي كثير من المشاكل التي تنشأ خلالها عن تجارب سلبية تشكل ما يعرف بالأزمات أو الفترات الحرجة (Critical periods). . وقد قَسَّمَ مراحل النمو النفسي بحسب نظريته إلى ثمانية مراحل مستخدماً لكل مرحلة تعبير «الإحساس»، إشارة إلى الشعور الوجداني بالنجاح أو الفشل في مواجهة الأزمة ضمن المرحلة الواحدة. .

المرحلة الأولى: الإحساس بالثقة بدلاً من الإحساس بالشك، وهي تشمل العامين الأولين من حياة الطفل، وترتبط الثقة بالإشباع العاطفي، والإشباع المادي ـ الغذائي ـ الذي تقدمه الأم لوليدها في هذه المرحلة. فكلما كانت عاطفة الأم قوية واهتمامها منصبّاً على إشباع جوعه، عزَّز ذلك الثقة لديه. أما إذا شعر ببرودة العاطفة لدى أمه وعدم تجاوبها مع حاجاته وابتعادها عنه، فإنَّ ذلك يؤدي إلى تكوين شخصية عديمة الثقة لدى هذا الطفل. .

المرحلة الثانية: الإحساس بالذاتية المستقلة، مقابل الإحساس بالخجل، وتمتد من عمر السنتين إلى الثلاث. واجتياز هذه المرحلة بنجاح يعتمد على قدرة الطفل في السيطرة على بيئته، والقيام ببعض الأعمال البسيطة دون أن يعتمد فيها على الغير، ودون تردّدٍ أو خوفٍ من الفشل. .

المرحلة الثالثة: الإحساس بالمبادرة، أي المبادأة مقابل الإحساس بالذنب. وتتراوح بين سن الرابعة والخامسة، وترتكز على طبيعة علاقة الطفل بالبيئة التي يعيش فيها، حيث يمكن أن يمرَّ بعلاقات تتفاوت بين تجارب تشعره بالمرارة والألم، أو تجارب تشعره باللذة والارتياح. .

المرحلة الرابعة: الإحساس بالإنجاز مقابل الإحساس بالنقص. وتمتد هذه المرحلة ما بين السابعة والحادية عشرة، وهي تمتاز بزيادة احتكاك الطفل مع أترابه، وبروز طبائعه الاجتماعية، ويرتبط نجاح هذه المرحلة بمقدار نجاح علاقات الطفل مع غيره، وتعامله مع وسطه. .

المرحلة الخامسة: الإحساس بالهويّة مقابل الإحساس

بالاضطراب. وهي مرحلة المراهقة التي ترسم الخطوط العريضة للصورة التي ستكون عليها شخصية الإنسان، إذ تتبلور خلالها ذاتيته التي تؤهله لإثبات وجوده في بيئته، واقترابه من النضوج الذهني. .

المرحلة السادسة: الإحساس بالألفة مقابل الإحساس بالعزلة. . وهي مرحلة النضوج الاجتماعي الذي يتأتى من أمرين: العلاقة مع الآخرين، وظهور الألفة والمودة في الصلات التي يقيمها مع الناس.

المرحلة السابعة: الإحساس بالأبوة أو الأمومة مقابل الانطواء على الذات. . وهي تتطلب مستوى كافياً من النضوج الجسدي والشعوري، والقدرة على العطاء والاعتناء بالغير، ومدى تحمل المسؤولية بدلاً من الأنانية وتجنّب المسؤولية. .

المرحلة الثامنة: الإحساس بالتكامل مقابل الإحساس باليأس. . ويعبُر هذه المرحلة بنجاح من وصل إلى تقبُّل دوره في الحياة، وأحسنَ الظنَّ بنفسه على إمكانية أدائه للمهام المناطة بهذا الدور، ما يؤدي إلى الشعور بالرضا والاطمئنان النفسي. ويقابل ذلك، الشعور بالاشمئزاز والسخط وعدم الرضا، وكل ما يجعل الإنسان في حالة من اليأس، لا يتقبَّل معه الحياة بروح الوعي والعزم على خوض معترك الحياة بالجدية اللازمة.

المدرسة السلوكية

يهتم السلوكيون بدراسة تأثير البيئة على سلوك الطفل، والعلاقة بين ما يثيره (stimulus) والاستجابة (response) للإثارة، من دون البحث عن محاولة إرجاعه إلى مرحلة الطفولة المبكرة، كما يفعل المحللون النفسيون.

وتذهب هذه المدرسة إلى القول بأنه تصدر عن الطفل استجابات عديدة نتيجة لتفاعله مع محيطه، فتتحول الاستجابات التي أعقبتها لذة، أو التي قوبلت بالتعزيز والدعم لتصبح جزءاً من سلوكه، وبالمقابل تتلاشى الاستجابات التي يعقبها ألم، أو لا تلاقي دعماً أو تعزيزاً..

وفي مجال معالجة السلوك، كمعالجة طفل مصاب بالقلق، أو الخوف من سلطة المدرسة، فإنَّ المعالج السلوكي لا يبحث عن ذكريات الطفولة، ولا يعالج الخوف على أنه نتاج لعوامل لا شعورية، أو صراعات أوديبية في المراحل المبكرة من النمو الجنسي، بل يجعل هدفه الرئيس القضاء على أسباب القلق، أو تحرير الطفل من عقدة الخوف التي لازمته، أي إنه يعمل على التغيير المباشر للمشكلة، فينظر إلى الاضطرابات على أنها سلوك شاذ أمكن اكتسابه به بفعل أخطاء في عملية التعلم[١]، بحيث يكون عليه تشخيص الأسباب التي أدت إلى هذا التعلّم المَرَضي، ثم السعي لإزالتها..

ومن رواد هذه المدرسة الطبيب الروسي «إيفان بافلوف» (Pavlov) و«جون واطسون» و«سكينر» الذين أجروا تجارب عديدة، ودراسات عملية لسلوك الحيوان، وذلك لاعتقادهم بأنَّ القواعد التي يتغيّر على أساسها السلوك عند كل الكائنات الحية واحدة في عملية النمو أو التعلّم. كما يعتقد أصحاب هذه المدرسة بأن السلوك المعقد محكوم بالمبادئ نفسها التي تحكم السلوك البسيط. وقد واجه هذا الاتجاه في دراسة الظواهر النفسية اعتراضات عديدة، وذلك لإغفاله

(١) عالم المعرفة، العدد ١٨٠، العلاج السلوكي للطفل، ص٣٧ و٣٨.

كثيراً من جوانب النفس البشرية كالتفكير والوجدان، وما يماثلها من الملكات الكامنة في النفس.

٣ ـ المدرسة المعرفية

يُعتبر «جان بياجيه» (Jean Piaget) أبرز أعلام الاتجاه المعرفي في القرن العشرين، وقد كان له الدور الأكبر في التأسيس لهذا الاتجاه تنظيراً واختباراً. .

ويهتم أصحاب هذه المدرسة بدراسة تطور عمليات المعرفة أثناء النمو من خلال منظاري البنية العقلية والوظائف العقلية، إذ يرون بأن الفارق بين الراشد والطفل فرقٌ كيفيٌّ يرتبط بطرق التفكير، وليس فرقاً كميّاً يتعلق بكمية المعلومات والمخزون الفكري، وبأنَّ الأطفال يعرفون أكثر مما يتكلمون. .

والتفكير عند بياجيه له وظيفتان محكومتان بصفة الثبات، وهما التنظيم والتكيّف اللذان ينبنيان على عمليتين: عملية التمثيل (Assimilation) وهي عملية إدماج المعلومات المكتسبة في البناء المعرفيّ، وعملية الاستيعاب (Accomodation) وتهدف إلى توجيه معلومات الطفل لتتلاءم مع كل جديد يتعرف إليه فيثيره. . فعندما يتعلم الطفل كلمة «عصفور» مثلاً، ويربطها بصورة العصفور التي انتقلت إلى ذهنه عبر الحواس؛ وعندما يتعلم أن العصفور يطير، فإنه يشير إلى الفراشة التي يراها تطير على أنها عصفور، ففي ذهنه أنّ كل ما يطير هو عصفور، ولكن عندما يقال له إنّ هذه فراشة وليست عصفوراً، يتعدَّل المفهوم في ذهنه ليصبح: ليس كل ما يطير عصفوراً، وبذلك تتغيّر لديه المعاني الداخلية عن الأشياء لتتناسب مع المعلومات

الجديدة التي اكتسبها. والذكاء لدى المعرفيين يشمل التكيّف البيولوجي (الجسدي) مع البيئة التي يعيش فيها الطفل، ومع النشاط الفعلي الذي يقوم به في هذه البيئة. وقد قسَّم بياجيه تطور الذكاء لدى الطفل إلى أربع مراحل رئيسية:

١ ـ المرحلة الحسية الحركية: وتمتد ما بين الولادة ونهاية العام الثاني، حيث ينشغل الطفل بمعرفة كل ما تقع عليه حواسه وما يمكن أن يدركه من خلال سلوكه الحركي.

٢ ـ مرحلة التفكير الرمزي (ما قبل العملي)، وتمتد من نهاية العام الثاني إلى العام السابع. وتنقسم إلى طورين ينتقل خلالهما الطفل من تصنيفات بسيطة للمدركات الحسية وعلاقتها ببعضها إلى تصنيفات أكثر صعوبة، وإدراك ثبات خصائص الأشياء عند تغير شكلها، مثل إدراك ثبات كمية المياه عندما نسكبها من إناء مستدير إلى إناء مستطيل، وتغير شكلها تبعاً لشكل الإناء الجديد الذي وضعت فيه.

٣ ـ مرحلة التفكير الواقعي ـ المادي: وتمتد من نهاية السنة السابعة إلى نهاية السنة الحادية عشرة، حيث يصبح بإمكان الإنسان تصنيف الموجودات إلى كائنات حية وجمادات مثلاً، كما يتكوّن لديه مفهوم الزمن.. إلاَّ أنه لا يقدر خلال هذه المرحلة على التفكير المجرَّد عن المحسوسات.

٤ ـ مرحلة التفكير المجرَّد: وهي ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، وفيها يصبح الإنسان ناضجاً. ويستمر في هذا النضوج إلى نهاية عمره، فيكون قادراً على التفكير المجرّد، وحل

المشكلات التي تتطلب التفكير الفرضي الاستدلالي، أي إنه ينظر إلى الواقع من زاوية المبدأ الفكري الذي يؤمن به لتحقيق أهدافه في الحياة..

تلك هي خلاصة الاتجاهات التي اعتمدتها كل من تلك النظريات أو المدارس التي نادى بها علماء النفس في الغرب، من خلال أبحاثهم في مراحل النمو لدى الإنسان.. وقد علّلت كل منها مقومات قواه النفسية، وسلوكه في بعض جوانب من حياته النفسية تبعاً لما استندت إليه من فكرٍ فلسفي أو علم تجريبي، ما جعلها بعيدة عن أن تقدم نظرة شاملة لكل معالم النفس الإنسانية..

بل وحتى العلم التجريبي الذي قام به علماء النفس في الغرب كان مقتصراً على عينات من الأشخاص الذين أخضعهم لتجاربه. والأدهى أنه قام بتجارب على الحيوانات، وأراد تطبيق نتائجها على الإنسان الذي يختلف اختلافاً كلياً في تكوينه البيولوجي والنفساني عن الحيوان، ولا سيما هذا التكوين النفساني الذي نجد الفوارق فيه شاسعة بين إنسانٍ وآخر، فكيف بين الإنسان والحيوان.. فكان من الطبيعي أن تقصّر تلك النظريات والمدارس عن تقديم مذاهب نفسية قادرة على تمكين الإنسان من اعتناق عقيدة التوحيد، وامتلاك المفاهيم الصحيحة عن الحقائق والمثل العليا والقيم المعنوية والإنسانية.. ولذلك نجد الطابع المادي هو الذي يغلب على حياة الإنسان في الغرب من جراء المناخات الفكرية التي يعيشها، سواء كانت تتعلق بالأمور السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، أو بالمناخات الفكرية ولاسيما تلك التي تبحث في النفس. وهذا الطابع المادي هو الذي يبعد الإنسان ـ أينما وجد ـ عن الروحانية التي من شأنها أن تسمو

بالإنسان إلى معارج الرقى. والتكامل في حياته!..

وقد أدرك كثير من المفكرين والباحثين في الغرب تأثيرات المناخات المادية الفكرية والحياتية ـ على الإنسان الغربي، وقصور مدارس علم النفس في نظرتها الجزئية للإنسان، فقام البعض ممن يعدون أنفسهم من الخبراء المعنيين، بمحاولات توفيقية بين مختلف مذاهب علم النفس، وذلك لناحية دمج بعض النظريات مع نظريات أخرى.. فظهرت مدارس جديدة مثل مدرسة المعرفية السلوكية (Cognitive behavioral)، والمدرسة المعرفية السلوكية ـ الاجتماعية (Cognitive bchavioral social) وغيرهما من المدارس، التي لم تستطع على الرغم من الجهود التوفيقية التي بذلتها، أن تقدم دراسة شاملة متكاملة تراعي مختلف جوانب النفس الإنسانية، ومختلف مظاهر السلوك لدى الإنسان.. وليس هذا من باب التقصير الفكري ولا النقص في الاختبارات التجريبية، وإنما سببه عدم قدرة العقل البشري على الإحاطة بكل معالم النفس الإنسانية، لأنه لا يعلم هذه النفس بكل مقوماتها ومكنوناتها إلاَّ خالقها سبحانه وتعالى..

من هنا، يمكن أنْ نقول بأنَّ على المعنيين بدراسات وأبحاث علم النفس في الغرب إذا ما أرادوا أن يعرفوا فعلاً حقيقة خلق الإنسان وما أودع الله تعالى فيه من ملكات وطاقات حيوية (بيولوجية ونفسية)، وأنْ يقدّموا، من ثَمَّ، مناهج فكرية تكون أقرب إلى معالجة الاضطرابات والأمراض التي تعتري النفس.. أجل، نقول: إذا شاء علماء النفس في الغرب أن يصلوا إلى ذلك فما عليهم إلاَّ الولوج من الباب الأوحد الذي يدخلهم إلى عوالم النفس وآفاقها الواسعة، ألا وهو القرآن الكريم وسنة محمد رسول الله ﷺ.. وليست هذه الدعوة

مقصورة على علماء النفس في الغرب، بل وعلى علماء النفس من المسلمين وسائر العلماء في مشارق الأرض ومغاربها. . ونحن على يقين ـ إن شاء الله ـ بأنهم سوف يجدون في كتاب الله وسنة رسوله ما يجعلهم قادرين على تقديم مناهج فكرية عملية، من شأنها أن تصحح مسيرة الإنسان وتجعلها مسيرة إنسانية عملية؛ إن على صعيد معرفة النفس الإنسانية، أو على مختلف العلوم والمعارف الأخرى. .

ولذلك كانت محاولتنا في دراسة بعض معالم النفس الإنسانية، من خلال نظرة الإسلام للإنسان وفقاً للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتي نبتهل إلى الله تعالى أن يجعلها محاولة موفقة يمكن أن تفيد الإنسان في معرفة نفسه. .

ثانياً: مراحل النمو لدى الإنسان في الفكر الإسلامي

يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

إذن، فأصل الخلق البشري جميعاً من نفس واحدة، هي نفس أبينا آدم عليه السلام. ومن نفسه، من أحد أجزاء جسمه خلقت زوجه حوَّاء، لتكون من كيانه البيولوجي والنفساني، فيكون التمازج بين نفسهما أقربَ وآلف للعيش معاً في حياة زوجية قوامها السكينة والاطمئنان، وعمادها التفاهم والانسجام. .

وليست هذه مقاصد الحياة الزوجية وحدها، إذ لا بدَّ لاستمرار

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

الحياة البشرية على الأرض من ذرية لآدم وحواء، فكان نظام الزوجية بما أودع الخالق في صلب الرجل وأتراب المرأة من عوامل للإنجاب، بحيث لا يخرج أحد من البشر إلى عالم الوجود إلاَّ باجتماع الزوجين: الذكر والأنثى؛ إلاَّ أنْ يشاء الخالق العظيم خلاف ذلك، ولحكمة يريدها، كما هو الحال في خلق عيسى ابن مريم ﷺ، الذي كان خلقاً فريداً وحيداً من أمٍّ دون أب، أي من أنثى بلا ذكرٍ، ليجعله تعالى آية للعالمين.. ومن دلائل عظمة الله تعالى في خلقه أنْ جعل نظام الزوجية ليس مقصوراً على بني آدم وحدهم، بل جعله نظاماً أصيلاً ومطّرداً في سائر خلق الكائنات الحية، ومنها هذه الأنعام التي جعلها ثمانية أزواج، قد بيّنها الخلّاق العليم في قرآنه المبين(١).

وليس ذكر الأنعام بعد ذكر خلقنا نحن البشر مباشرةً ودونما فاصل من القول، إلاَّ للتوكيد ـ كما نفهم من مقاصد النص القرآني الكريم ـ على نظام الزوجية، وإنَّ ما يسري على خلق الناس من ذكر وأنثى، إنَّما يسري أيضاً على خلق هذه الأنعام من ذكر وأنثى، بل وعلى غيرها من الحيوان والطير والنبات بمختلف الأنواع والأجناس والأشكال.. مع الفارق بأنَّ خلق أي كائن حي قد يحصل بالتزاوج والتراحم بين الذكر والأنثى، بينما خلق الإنسان يجب أن يكون ثمرةً للتزاوج، ولكن من خلال علاقة مقدَّسة أمَرَ الله تعالى بها في محكم الشرائع التي أنزلها على الناس؛ فلا يجوز بالتالي لأحد الزوجين الاعتداء على هذه العلاقة الطاهرة المقدسة بأية علاقة أخرى غير

---

(١) يقول تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الآيتان ١٤٣ و١٤٤ من سورة الأنعام.

شرعية، من شأنها أن تدنس طهارتها وتذهب بقدسيتها. . كما لا يجوز لأحد من الزوجين أن يفرِّط بشيءٍ من هذه العلاقة، وإلاَّ فإنما يكون قد فرَّط بجزء من كيانه، وعمل على فكّ العروة الوثقى التي تجمعه مع شريك حياته، فضلاً عما يرتكب من معصية لمخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى، لأنه حرَّم أية علاقة بين الرجل والمرأة خارج الأحكام الشرعية والنظامية المفروضة أصولاً. .

يضاف إلى ذلك أنَّ النصَّ القرآني يوحي بما لهذه الأنعام من تأثير على حياتنا ووجودنا، وذلك بما تمدُّنا به من غذاء ومنافع أخرى، قد وردَ ذكرها في بعض السور كما في سورتي النحل ويس[(١)] . .

أرأيت إلى هذا الربط بين خلق الإنسان الذي يحتاج إلى الغذاء، وخلق هذه الأنعام التي تمدّه بأجود أنواع الغذاء كما يصفه رب العالمين بقوله الكريم: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾؛ فأي دلالة أجلُّ وأعظم على قدرة الخالق بما يمنّ على الإنسان في خلقه، وبما يسخّر من المخلوقات الأخرى لحفظ حياته؟

وأما خلقنا في بطون أمهاتنا ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾، فالظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم وظلمة المشيمة[(٢)] . . و﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، فمعناه الأطوار أو المراحل التي يمرُّ فيها خلق الجنين من نطفة ثم من علقة ثم من مضغةٍ مخلّقةٍ وفقاً

(١) يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ سورة النحل، الآية: ٦٦. . ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يس، الآيات: ٧١ ـ ٧٣.

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار، السعودية للنشر والتوزيع، طبعة ١١.

للترتيب القرآني.. فهذه المراحل هي ذاتها التي جاء علم الأجنّة يفصّلها من خلال احتكامه إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهي كالتالي:

١ ـ تكوين الجنين

إنَّ تخلّق الجنين كما توصَّل إليه علم الأجنّة[١]، أمره منوطٌ ببويضة المرأة ومنيّ الرجل (اجتماع الزوجين: الذكر والأنثى)؛ إذ تتكوّن عند المرأة كلَّ شهرٍ، بويضةٌ مثل بيضة الدجاجة في الشكل، ولكنها أصغر منها بكثيرٍ؛ فقطرها يتراوح بين جزءٍ وجزءين من عشرة أجزاء من المليمتر (mm)، ووزنها لا يزيد على جزءٍ من مليون جزء من غرام (gr) وفيها محٌّ (Cytoplasme)، وفي داخل هذا المحّ النواة الجرثومية (le noyau) التي يبلغ قطرها جزءاً واحداً من سبعمئة جزءٍ من القيراط. وفي هذه النواة تكمن نطفة جرثومية هي (le nucléolc) التي يبلغ قطرها جزءاً من ثلاثة آلاف جزء من القيراط.. فتلك البويضة ـ وبهذه المقادير الجزئية التي قدَّرتها حكمةُ الخالق العظيم منذ أن خلق حوّاء ـ تتكوّن في ظلمة المبيض، ضمن حويصلة تسبح في سائل يُسمى السائل «الألبوميني». فإذا نمت هذه الحويصلة، وازداد السائل الذي في باطنها، يتمدَّد غشاؤها ويرقُّ ثم ينفجرُ لتخرج منها البويضة، ومن المبيض كله، ثم تسير في قناةٍ (بوق) ضيّقةٍ ورفيعةٍ قطرها قطر شعرة، وهي تمتدّ ما بين المبيض والرحم الذي تختبئ وراءه، حتى تصل إلى فم القناة المرتبط بالرحم فتقف فيه.. فإذا حصل الجماعُ بين الرجل والمرأة، وقذف الرجل السائل المنوي، فإنَّ هذا المنيّ يكون

---

(١) قصة الإيمان (بين الفلسفة والعلم والقرآن) الشيخ نديم الجسر، توزيع دار العربية ط٣، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م (بتصرّف).

ممتلئاً بالحيوانات المنوية التي يربو عددها على مئتي مليون حيوان، وكل حيوان منها صغير جداً جداً بالمقارنة مع البويضة التي تتكوَّن من تلك المقادير التي أشرنا إليها، إذ يبلغ طوله حوالى ستين جزءاً من ألف جزء من المليمتر (mm) وتسبح تلك الحيوانات في رحم المرأة بسرعة كبيرة في السائل المنويّ، وتكون سباحتها بحركةٍ لولبيّة وكأنها في سباقٍ محموم للوصول إلى البويضة، إلاَّ أنَّ جوهر كل حيوان منوي معقود في رأسه، الذي جُعلَ مكوّزاً وله عنقٌ لولبيٌّ يمتدُّ منه إلى الوراء ذنبٌ طويل لكي يضرب به الماء الذي يسبح فيه، ويمكّنه من أنْ يقذف بنفسه إلى الأمام. وجُعل هذا الذنب معقوداً بأنشوطة لينفكَّ عن جسم الحيوان إذا قُدّر له الدخول إلى بويضة المرأة، ولكن لا يصل إلى هذه البويضة إلاَّ ما كان أقوى الحيوانات المنوية وأسرعها سبحاً، وهو الذي يقدر على اختراق الباب الخاص الذي يصل ما بين فم القناة والرحم. ويسمى هذا الباب (باب الجاذبية (Cone d'attraction)، فإذا اخترقه الحيوان ودخل إلى البويضة من خلال رأسه المكوّز، أُغلق الباب، فتنقطع الجاذبية عن الحيوانات المنويَّة الأخرى التي تموت بعد إغلاق الباب. وقد يحصل أنْ يخترق الباب ويدخل إلى البويضة أكثر من حيوانٍ منويٍّ واحد، فيقوم كل منها بتلقيح البويضة، وفي هذه الحال يحصل الحمل بالتوائم. . فإذا استقرت البويضة التي جرى تلقيحها بالرحم، انفتحت خلايا غشائه المخاطي، واتسعت الشعيرات الدموية التي تغذيه، ونشطت الغدد حتى يتمكن الرحم من الإمساك بالبويضة الملقحة. . أما إذا لم يتم التلقيح أو التزاوج ما بين مني الرجل وبويضة المرأة فمعنى ذلك موتهما، وكانت الدورة الشهرية للمرأة. أما إذا جرى التزاوج وفقاً لما قُدِّر له، فإنَّه يبدأ العمل المشترك

ما بين حيوان الرجل المنوي وبويضة المرأة في تكوين الجنين[1]، فيمشج هذان الشريكان: كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النووي (الكروموزومات: Chromosomes) وما فيها من الخِلَقِ المخلَّقة (الجينات: Gênes) التي خلَّقتها وقدَّرتها وسوَّتها قدرة القادر المقدّر منذ السلالة الأولى في خلق آدم من طين الأرض وصلصالها (سلالة من طين)، إلى هذه السلالة (سلالة من ماء مهين)، ومن هذا التزاوج أو الاختلاط تتكوَّن (النطفة الأمشاج) التي دلَّ عليها أحسن الخالقين بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾[2].

إذن فالكروموزومات والجينات هي عناصر التخطيط والتخليق والتسوية التي يخلّق الله ـ جلَّت قدرته ـ بها المضغة لتكون بشراً سوّياً، إنساناً فرداً يتميّز عن غيره من الناس بكل صفاته الجسدية والعقلية والنفسية: من ذكورة وأنوثة وهيئةٍ ولونٍ وقوة وذكاء وخُلُقٍ، وما إلى ذلك من الخصائص والمزايا التي ترسم لكل فردٍ الخطوط الأولى لمسيرته في الحياة..

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الناس في الماضي كانوا يعرفون أنَّ الجنين يتكوَّنُ من التلاقح بين بيضة الأنثى وماء الذكر، وأنه يرث من أبويْه وأجداده كثيراً من صفاتهم، ولكنهم ما كانوا يعرفون ما هي البويضة وما هو الحيوان المنوي، وما تركيبهما وما خلاياهما وما أنواعهما ووظائفهما، وكيف يتم التلاقح، وكيف يحصل التوارث.. حتى نزل القرآن، وتقدَّم العلم، وانطلق علم الأجنة بالذات ليكشف أكثر أسرار الخلق البشري العجيب، بل وليحدد الفترات الزمنية التي

(١) ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ـ الآية ٨٨ من سورة النمل.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢.

تتعاقب متلاحقة في تكوين الجنين.. إذ تسري البويضة حوالى ٧٢ ساعة حتى تصل إلى فم تلك القناة الدقيقة الرفيعة التي تصل ما بين المبيض والرحم، وبعد أنْ يتم التلقيح وتتكون (النطفة الأمشاج) تسير هذه النطفة المخلَّقة ببطء خلال فترة أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر، لتلتصق بجدار الرحم، فتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة العلقة وخلال الأسبوع الثاني من التلقيح تنقسم خلايا العلقة إلى طبقة خارجية (أكتودرم)، وطبقة داخلية (انتودرم)، ثم تظهر في الأسبوع الثالث الطبقة المتوسطة (ميزودرم). ومنذ اليوم الحادي والعشرين تبدأ الكتل البدنية بالتكون، فتتكوَّن العظام والعضلات في الأسبوعين الخامس والسادس؛ ثم تكتسي العظام باللحم والعضلات في الأسبوع السادس والأسبوع السابع. وبصورة أدق فإنَّ (النطفة الأمشاج) وخلال فترة انتقالها إلى الرحم تقوم بتقسيم نفسها إلى أقسام عديدة لكي تهيّئ كل قسم وتعده للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد، وفي حفظه وحمايته ووقايته أو في تغذيته.. وعندما تلتصق بجدار الرحم تبدأ خلايا الأقسام بعملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم، لتجعل حول الجنين عدة غلافات.. أما الغلاف الأول الظاهر الذي يحيط بجميع الأغشية ويسمى (السَّلى Chorion) فتتخذ من جانبه الملتصق بجدار الرحم وسيلة للتغذية الأولية، ثم لتكوين المشيمة، وتتخذ من جانبه الظاهر غير الملتصق بجدار الرحم وسيلة لحماية الجنين وحفظه. أما الغلاف الثاني الباطن فتنسجه بعد ذلك تحت الكوريون ليحيط بالجنين إحاطة كاملة من وراء غلاف مائي يحيط بالجنين إحاطة مباشرة، ليقيه مع الغلافين الأولين من كل صدمة أو رجَّة تأتي من الخارج..

وتبدأ في الوقت نفسه الخلايا الجرثومية (المخلَّقة) التي تكوّن الجنين عملها، وهي تتطوَّر من نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ على الترتيب الذي ذكره القرآن الكريم. ومن هذه المضغة المخططة المخلَّقة بكروموزوماتها المختلطة وجيناتها يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء، كما بدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا المحيّة غير المخلّقة؛ فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادئ القلب، وأخرى بتكوين مبادئ المخ، وغيرها بتكوين مبادئ العمود الفقري، إلى جانب الخلايا التي تقوم بتكوين مبادئ الأحشاء من الجهاز الهضمي والتنفسي والتناسلي، التي تقوم بتكوين العظام والعضلات والأوردة والشرايين والشعيرات الدموية في دائرة اختصاصه.. فلا ينتهي الشهر الرابع إلاً ويكون الجنين قد اكتمل تكوينه وبدأت أجهزته جميعها في العمل، بما في ذلك القلب والسمع، أما البصر فيتأخر في النمو عن تلك المدة.. والمشيمة العجيبة التي أشرنا إليها تتكوّن من خلايا الكوريون وجيوب الدم الرحمية، وتتصل بسرّة الجنين بحبل يسمى الحبل السرّي، وهو الذي يحمل إلى الجنين عناصر الغذاء والأوكسيجين التي تستخلصها المشيمة من دم الأم، ثم يحمل هذا الحبل من الجنين إلى المشيمة، في وريد آخر ما يتكوّن في جسم الجنين من أقذار وسموم، حتى إذا خرج الجنين من بطن أمه إلى عالم النور والهواء والغذاء قطعت المشيمة والحبل وسُدَّ باب السرَّة إلى مدى العمر..

أما عن نوع الجنين من حيث الذكورة أو الأنوثة، فقد بيّنت الدراسات العلمية أن الحيوانات المنوية لدى الرجل تكون على نوعين:

نوع يحمل «كروموزوم الذكورة»، وأخر يحمل «كروموزوم الأنوثة»، أما بويضة المرأة فلا تحمل إلاَّ «كروموزومات الأنوثة» فقط. فإن كان الحيوان المنوي الذي قام بتلقيح البويضة يحمل الكروموزومات الذكورية كان الجنين ذكراً، وإن كان يحمل كروموزومات الأنوثة كان الجنين أنثى.. ولا يمكن تمييز الجنين إلاَّ في الأسبوع السادس من الحمل، إذ في مرحلة المضغة ينشأ ما يشبه البرعمين على جانبي الحبل الظهري (الذي سيؤلف العمود الفقري)، فإن جاء الجنين ذكراً، يكوّن هذان البرعمان نسيجاً يشبه الخصيتين، وإن جاء أنثى فإنهما يكوّنان في الأسبوع العاشر نسيجاً يشبه المبيضين. وتلتصق الخصيتان على جانبي العمود الفقري في الظهر، وتنزلان من مكانهما بعد مرور ستة أشهر على الحمل، لتستقرا في كيس، يسميه الباحثون، «كيس الصفن»..

هذه المعلومات الدقيقة التي توصل إليها العلم الحديث حول تكوين الجنين قد أشار إليها القرآن الكريم، عندما بيّن المراحل المختلفة للحمل وتكوين الجنين. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(٣). وعلى هذا فإن مراحل الخلق كما

(١) سورة المرسلات: ٢١.
(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٣.

هو واضح من النصوص القرآنية الكريمة هي: مرحلة النطفة (الماء المهين)، فمرحلة العلقة (وسميت كذلك لأنها تعلق بجدار الرحم وتبدأ في الانقسام إلى خلايا عديدة متنوعة)، فمرحلة المضغة المخلّقة (التي يجري فيها تخلّق الأعضاء والأجهزة)، ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر... هذا الإنسان بجسمه وسمعه وبصره وفؤاده.. أما كيف يتم التحوّل إلى خلق آخر تنبض فيه الحياة، أي غير ما كانت عليه الخلايا الجرثومية من الكروموزومات والجينات، فذلك ما يبيّنه رسول الله ﷺ الذي يتلقى الوحي عن ربه تبارك وتعالى، أحسن الخالقين.. فعن حذيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلةً بَعَثَ اللَّهُ إليها مَلَكاً فَصَوَّرَها، وجَعَلَ سمْعَها وبَصَرَها وجِلْدَهَا ولَحْمَهَا وعِظَامَها**»، ثم قال: يا ربِّ: أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا ربِّ: أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك: ثم يقول: يا ربِّ رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصفحة في يده فلا يزيدُ على ما أُمِرَ ولا يُنقِصُ»[(١)].

وعن ابن مسعود أنَّ الرسول ﷺ قال: «**إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ في بطنِ أمِهِ أربعينَ يوماً نُطفةً، ثم يكون عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَلُ المَلَكُ فينفُخُ فيه الروحَ، ويُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ: رزقُهُ وأجَلُهُ وعَمَلُهُ، وشقيٌ أو سعيدٌ**»[(٢)] من هذين الحديثين، يتبين أنه بعد مرور اثنتين وأربعين ليلة، أي حوالى ستة أسابيع، على تكوين النطفة الأمشاج، تبدأ مرحلة العلقة، ثم مرحلة المضغة التي يبدأ فيها

---

(١) صحيح مسلم، باب القدر، رقم ٣.

(٢) أحمد بن حنبل، الجزء الأول، رقم ٣٧٤.

التخليق، كما دلَّ على ذلك علم الأجنة. . ومع ذلك فقد يبدو ـ في الظاهر ـ أنَّ هنالك اختلافاً فيما روي عن حذيفة من حديث، وما روى ابنُ مسعود في حديث آخر حول بعث الملك ومدة التخليق، إذ يذكر حذيفة أنه يتم بعد ٤٢ ليلة، بينما يذكر ابن مسعود أنه يحصل بعد ١٢٠ ليلة. . وقد حاول بعض علماء المسلمين إزالة هذا التناقض الظاهري؛ فقال ابن قيم الجوزية: «. . . فحديث حذيفة يدلّ على أنَّ ابتداء التخليق عقيب الأربعين ليلة الأولى، وحديث ابن مسعود يدلّ على أنه عقيب الأربعين الثالثة من الليالي، فكيف يجمع بينهما؟ قيل: أما حديث حذيفة فصريح في كون ذلك بعد الأربعين. وأما حديث ابن مسعود فليس فيه تعرّض لوقت التصوير والتخليق، وإنما فيه بيان أطوار النطفة وتنقلها بعد كل أربعين، وأنه بعد الأربعين الثالثة ينفخ فيه الروح. وهذا لم يتعرض له حديث حذيفة لناحية أنَّ ابتداء تصويرها وتخليقها بعد الأربعين الأولى، واختص حديث ابن مسعود بأن نفخ الروح فيه بعد الأربعين الثالثة. واشترك الحديثان في استئذان الملك ربَّه سبحانه في تقدير شأن المولود خلال ذلك، فتصادقت كلمات رسول الله ﷺ وصدَّق بعضها بعضاً».

ويبدو واضحاً أن بداية التخليق أو التصوير حسب التعبير القرآني ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تكون في الاثنتين والأربعين ليلة الأولى منذ التلقيح. ثم تتتابع عمليات هذا التخليق على مدى مئة وعشرين يوماً اعتباراً من لحظة تكوين «النطفة الأمشاج»، وفي نهاية هذه المدة التي تبلغ أربعة أشهر، يجري نفخ الروح في الجنين، وما قدّر له الله تعالى وهذا ما تحسّ به الحوامل من حركة الأجنة في بطونها، وما أثبته كذلك علم الأجنّة. وبنفخ الروح (في الشهر الرابع) يبدأ الجنين ينبض

بالحياة، فيقدر على الحركة ويسمع قرقعة الغازات في بطن أمه، وحتى الأصوات الخارجية. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. لا بل أوضحت النصوص القرآنية مراحل الحمل والتكوين والإسقاط ومختلف مراحل عمر الإنسان بصورة أدق وأكثر تفصيلاً، وذلك بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1].

أما أصل الإنسان من تراب الأرض وصلصالها فالآيات القرآنية واضحة المعاني والدلالات على ذلك. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]؛ وفي معرض تبيان الفوارق بين توجّه كل من الكافر والمؤمن، فإنَّ من الحجة البالغة التي يلقيها المؤمن على صاحبه وهو يحاوره إنكاره عليه أن يكفر بالله ربّه الذي خلقه من تراب.. يقول تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۞ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الكهف، الآيتان: ٣٧ و٣٨.

نَّارٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تبيّن أصل خلق الإنسان من تراب الأرض وصلصالها. .

وأما فيما خصَّ مراحل الحمل وتكوين الجنين، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾، فقد بيّنا تلك المراحل من ناحيتي المعاني للنصوص القرآنية، وما توصل إليه علم الأجنة بهذا الخصوص كما رأينا. .

وبقي أن نفهم معنى التعبير القرآني: «وغير مخلّقةٍ» فالمضغة غير المخلّقة هي النطفة الأمشاج التي لم يكتب لها أن تتكوَّن جنيناً وتصير بشراً سوياً؛ فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**إذا علقَت النُطفَةُ في الرَّحِم بَعَثَ اللَّهُ مَلَكاً فقال: يا ربِّ مخلَّقةً أو غير مخلَّقة؟ فإن قضى سبحانَهُ بأنها غيرُ مخلَّقة، فجَّتها الأرحامُ دماً**»[3]، وهذا يعني حالات السقط أو الإجهاض التي تحصل، والتي يعود أمرها إلى ما يشاء العزيز الحكيم. وكذلك الأمر فقد يحصل أن تُسقط الحامل جنينَها وهي على عتبة الولادة، فهذا مردُّهُ أيضاً إلى مشيئة الله تعالى التي تعيّن الآجالَ للأجنّة كما للمواليد، كما يؤكده قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[4]. . ويدخل في معاني هذا القول الكريم أيضاً مدة الحمل، إذ هي في الغالب تسعة أشهر، ولكن ثبت علمياً أنَّ الجنين بعد اكتمال تخلّقه، وعلى الصورة

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٤ و١٥.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٦.
(٣) أحمد بن حنبل، الجزء الرابع، رقم ٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٥.

التي قدَّرها له خالقه في نهاية الشهر الرابع ـ يمكن أنْ يولد ويعيش إذا أكمل الشهر السادس في بطن أمه. ولذلك نرى أحياناً حالات من الولادة المبكرة، ولاسيما في الشهر السابع أو الثامن للحمل، وكله من أمر الله تعالى، الذي وحده سبحانه يحدد الأجل الذي يقرّ فيه الأجنة في الأرحام، كما يحدد منذ تكوين (النطفة الأمشاج) جنس الجنين من ذكر أو أنثى، وذلك قبل أن يخرجه إلى عالم النور والحياة في هذه الدنيا.

٢ ـ تأثير حالة الأم الصحية على الجنين

من الملاحظ أنَّ الحامل قد تتعرض لشيء من الاضطرابات الجسدية والنفسية خلال مدة معينة من الحمل، مثل تعرضها للقيء أو تقلّب شهيتها للطعام أو شعورها بالإرهاق والقلق أو ميلها إلى النوم وما إلى ذلك من التقلبات التي تسمى أعراض الوحام. فهذه الفترة الحرجة توجب على من يحيطون بالحامل أنْ يأخذوها بعين الاعتبار، وأنْ يبذلوا قصارى الجهد لكي تبقى بمنأى عن تأثيرات الانزعاج البدني أو الاضطرابات العصبية، لأنَّها من شأنها أنْ تؤثر على نمو الجنين، وقد تسبب له عوارض لا تنعكس عليه وهو لا يزال في بطن أمه فحسب، بل وقد ترافقه طوال عمره..

وقد راعى الإسلام وضع الحامل من خلال اهتمامات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالصحة البدنية والنفسية للأم، ولاسيما في طوري الحمل والرضاعة، ومن قبيل ذلك:

ـ **العناية بالغذاء**: فقد رأينا أنَّ الجنين يتغذّى من دم أمه، وهذا يعني أنَّه كلما كان غذاء الأم كاملاً ومختاراً، ولاسيما أثناء حملها،

كلما ساعد ذلك على نموّ الجنين في بطنها بصورة طبيعية. لذلك نجد تفاوتاً في أوزان المواليد تبعاً لنوعية الأغذية التي تناولها أمهاتهم في أثناء الحمل. ولا يخفى أنَّ الله تعالى قد جعل لأنواع الأغذية خصائص مفيدة جداً للإنسان، كما توصل إليه الطب الغذائي في أيامنا؛ وهذا ما نجده في القرآن الكريم عندما أوحى الله تعالى للطاهرة مريم بنت عمران أنْ تأكل من رطب النخلة التي وضعت ابنها عيسى عليه السلام قرب جذعها، وذلك بقوله المجيد: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[1].. ولو أردنا أنْ نتبيّن مقاصد هذه الآيات الكريمة، فلا بدَّ من العودة إلى الظروف التي عاشتها مريم عليها السلام منذ حملها وحتى وضعها لوليدها، إذ يكفي أنها كانت تعيش في حالة من الخوف والقلق على ما قد يتهمها به الناس، وما قد تلوك به ألسنة السوء سمعتها... وهذا ما تتبيّنه عندما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[2]؛ فقد كان الخوف يُداخلها من جميع الجوانب، حتى الخوف على نظافة بدنها وعلى طعامها وشرابها، لكي تؤمن الرضاع لمولودها.. فكانت عناية الله تعالى الذي جعل الماء يسري بالقرب منها، وكانت عناية الله تعالى أن منحتها القوة كي تهزّ بجذع النخلة لتساقط عليها رطباً جنياً، هذا الغذاء الذي يعتبر من أجود وأكمل أنواع الأغذية ـ كما ثبت علمياً ـ وأكثرها فائدة للنفساء خاصة، لأنه يمكنها من استعادة قواها، ويجعلها تدرُّ حليباً فيه الفائدة القصوى لرضيعها. كما أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان ينصح بقوله: «أَطْعِمُوا

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.
(٢) سورة مريم، الآيات: ٢٣.

المرأةَ في شهرِها الذي تلدُ فيه التمرَ، فإنَّ ولدَها يكونُ حليماً تقياً»[1].

ففي النص القرآني، كما في الحديث النبوي تتعدى آثار هذا الغذاء من ثمار شجرة النخل فوائد الصحة البدنية إلى الصحة النفسية، حيث يظهر ذلك جلياً بقوله تعالى للسيدة مريم عليها السلام: «وقرّي عَيْناً» أي بدل هذا الخوف كله الذي يداخلك اطمئنّي نفساً، وارتاحي فؤاداً، فلا تجوعي ولا تعطشي أنت ووليدك، ولن يصلوا إليك وأنت تحملين لهم ابنك إلاَّ أذىً من تجنّي القول.. وكذلك قول رسول الله ﷺ: **«فإنَّ ولدها يكون حليماً تقياً»**، إذ لو رجعنا إلى التفسيرات والأبحاث حول الحلم والتقوى لتبين لنا مقدار ما تحمل هاتان الصفتان من حسن الخُلُق وقوة الإيمان في حياة الولد الذي تأكل أمه التمر في آخر شهر حملها به.. والإمام جعفر الصادق عليه السلام يشير بدوره إلى أهمية فاكهة السفرجل التي تأكلها الحوامل بقوله: **«أَطْعِمُوا حِبَالَكُم السَّفَرْجَلَ فإنه يُحسِّنُ أولادَكُمْ»**[2]. وفي قولٍ آخر له، وقد نظر إلى غلام حسن الخلقة: **«ينبغي أن يكون أبو هذا الولد أكلَ سفرجلاً ليلةَ الجُماع»**[3].

وقد جاء القرآن الكريم بالحكم الشرعي الذي يحرّم فيه بعض المأكولات والمشروبات حفاظاً على صحة الإنسان البدنية والنفسية قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ

---

(١) مكارم الأخلاق، الطبرسي، منشورات الأعلمي ١٩٩٧، ط٦، ص٨٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٨.
(٣) نفس المرجع.
(٤) سورة المائدة، الآية ٣.

﴿وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[١] . .

فالتحريم الوارد في هذه النصوص القرآنية الكريمة لبعض المأكولات والمشروبات هو حكم شرعي عام، فكان من الأولى أن ينسحب على المرأة الحامل، لأن الآثار المضرّة التي تخلّفها تلك الأطعمة مثل أكل لحم الحيوان الميت أو لحم الخنزير، أو شرب الخمر أو الدم تتعدى إلى الجنين الذي يتغذى من دمها. وعلى سبيل المثال، فقد ثبت طبياً: «أنَّ إدمان الخمر يحدث تغييراً كيميائياً في الدم، ويعرض سرعة نمو الجنين للتأخر لتأثيره في غذائه وتنفّسه»[٢].

- الترخيص للحامل والمرضع بعدم الصوم: فالصوم بنصوص القرآن الكريم ركن من أركان الإسلام، إلاَّ أن الشرع قد رخص بعدم الصوم لمن كان عنده عذر شرعي كالمريض والمسافر؛ هذا وقد اتفق جميع الفقهاء المسلمين على أنَّ للحامل والمرضع عدم الصوم إذا خافت على نفسها أو ولدها، نظراً لتاثير نقص الغذاء على صحتها، وعلى جنينها أو رضيعها. . بل وأجاز الشرع للحامل أو المرضع عدم الصوم إذا خافت على صحة جنينها أو رضيعها[٣] دون خوفها على نفسها، فرخَّص لها بالإفطار حفاظاً على نموّه، وعدم تعرّضه لأي أذى من نقص الغذاء. .

- تأثير عامل السن على نمو الطفل: وتأثير عامل سن الأهل على الجنين، أو على قدرات الطفل أو أوجه قصوره، تناوله كثير من

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠ و٩١.

(٢) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، عصام عيتاوي، مؤســة الوفاء، ط١، ١٩٨٢، ص١٩ (عن: الطفولة والمراهقة للمؤلف حامد عبد السلام).

(٣) تيسير الوصول إلى جامع الأصول، ج٢، ص٣١٣.

الأبحاث والدراسات.. فمثلاً قال أبو الحسن الماوردي: «إنَّ أنجب الأطفال خَلْقاً وخُلقاً من كان سنُّ أمه بين العشرين والثلاثين، وسن أبيه بين الثلاثين والخمسين». فالطفل الذي يكون أبوه قد تجاوز الخمسين وأمه دون العشرين، كما في حالات الزواج التي يكون سببها الهرب من الفقر، أو حبّ الظهور، أو طلب المال وحياة الرفاهية.. تظهر عليه سمات التشوّه، ولاسيما في الخَلْق، وتزداد نسبة التشوّه بصورة مطّردة كلما ازداد عمر الأب، أو ازدادت الفوارق في السن بين الأبوين[1].

على أنَّ عامل السن للوالدين ليس وحده الحاسم في نموّ الجنين أو الطفل، إذ كثير من حالات الزواج في سن متأخرة ـ للرجال خاصة ـ تظهر سلامة الأولاد جسدياً، بل وتدل على تفوقهم في دراساتهم. كما أننا قد نجد في الأسرة الواحدة فوارق كبيرة بين الأولاد، ولاسيما لناحية درجة الذكاء، فضلاً عن أنه قد يُخلق في الأسرة نفسها ولدٌ معوَّق دون سائر إخوته وأخواته.. مما لا يمكن معه وضع قواعد عامة ونهائية للتدليل على أسباب الإعاقات التي قد تحصل للجنين أو للطفل ولا سيما في مراحل نموه الأولى، بل يجب دراسة كل حالة على حدة لمعرفة عوامل الوراثة أو عوامل التغذية، أو عوامل الاضطرابات النفسية التي قد تكون كامنة وراء إعاقة النموّ أو الإصابة بالتشويه الجسدي أو التخلف العقلي. ولذلك نجد الأطباء ينصحون الأم بعدم تعاطي المخدرات والمسكرات، والابتعاد عن التدخين في فترة الحمل، إضافة إلى عدم تعرضها للاضطرابات النفسية... وكذلك

---

(١) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، المرجع السابق، ص٢١.

الأمر بالنسبة إلى الأب، الذي يلزمه مراعاة أوضاعه الصحية، ولاسيما الحالات المرضية، والأسباب الكامنة وراء ضعف حيواناته المنوية التي قد تكون من مسببات التشويه الخَلْقي والنفسي للولد.. ويبقى أمر الله تعالى، وما للمولود الجديد من حياة، بحيث لا يمكننا مناقشة السر أو الحكم الإلّهية من ولادة الأعمى أو الأعرج أو الأصم أو الأبكم، وغيرها من حالات الإعاقة التي قد توجد.. وفي كل الأحوال نشكر الله على ما منَّ علينا من نعمة الصحة وهبة الأبناء، ونسأله ونضرع إليه ألاَّ يبلونا في أنفسنا، ولا في أبنائنا..

وخلاصة القول أنّ الإسلام قد تبنّى الأسس للصحة العامة، كما نجد في كثير من الأحكام الشرعية مثل الصوم وتحريم بعض المأكولات وتحريم شرب الخمر، وذلك انطلاقاً من قاعدة عامة وهي الحث على أكل الطيبات من الرزق الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٢ و١٧٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢)، إلى غيرها من الآيات الكريمة التي تحضُّ المؤمنين والناس أجمعين على الطيباتِ من الطعام، والحلال من الرزق، لأنَّ في ذلك سلامة للأبدان وسلامة النفوس، وهذا يشمل الرجال والنساء، إلاَّ أن انعكاسه على الأبناء حتميٌّ لا محالة، فترى أولاد من يكدُّ ويحصّل رزقه الحلالَ بعرق جبينه أصحَّاء النفوس، فيما ترى كثيراً من الأولاد الذين يطعمهم أهلُهم من المال الحرام سقامى في أبدانِهم أو في نفوسهم، بل وغالباً ما يكونون ـ عندما يكبرون ـ من ذوي الخلق السيّئ، دون أن يدري الأهل أنَّ سبب ذلك كله هو المال الحرام الذي أطعموهم وكسوهم منه!.. فحذارِ أيها الإنسان مغبة ما تجني يداك لأنك إن لم تَلْقَهُ في نفسك، فسوف تلقاه في أسرتك!.. وقد اهتمّ الرسول ﷺ بالصحة العامة اهتماماً بالغاً، كما تدلُّ على ذلك سيرته الشريفة في حياته الخاصة، وسنته لأمته من بعده.. ومن قبيل ذلك أنه ﷺ قد أشاد بعلم الطب ودعا إلى التخصص به، ففي الحديث المشهور: «العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان».. كما أمر بالتداوي بقوله ﷺ: **«تَداوَوْا، فما أَنْزَلَ الله داءَ إلاَّ أنزلَ له دواءَ إلاَّ السأم فإنه لا دواء له»**(٣).

ـ وفي حديث: إلاَّ الهرم فلا دواء له.

أما الاهتمام بالصحة النفسية: فالإسلام ينطلق في ذلك من

---

(١) سورة النحل: ١١٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.

(٣) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، المرجع السابق، ص٤٨، (عن: دعائم الإسلام، ص٣٢).
وجاء في مجمع الزوائد للطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس تداووا فإن الله عزّ وجلّ لم يخلق داء إلا خلق له شفاء إلا السأم» والسأم الموت.

البيت الزوجي، من هذه البيئة العائلية التي لا يكون تأثيرها على الوالدين، بل تكون آثارها الهامة على حياة الأبناء، اعتباراً من عهد التكوين الجنيني، إلى أن ينفصل الأبناء عن ذويهم وينشئوا لأنفسهم أسرهم الخاصة. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]؛ فهنا تكمن بعض أسرار استمرارية الوجود الإنساني، في هذا البيت الأسري، في هذه العلاقة بين الزوج والزوجة، وقوامها الأول الحبُّ الذي تسكن إليه أفئدتُها، وتركن فيها نفس كل منهما إلى صنوها وعشيرها وشريكها وسكنها في الحياة.. ومن البديهي القول بأنَّ الرابطة الزوجية رابطة مقدَّسة أمر الله تعالى بها لحفظ الزوجين من دنس الخيانة الزوجية ـ في النفس والشرف والمال ـ ومن عوامل الكراهية وفساد الأخلاق وغيرها من العلاقات المحرَّمة التي تتفشّى في مختلف المجتمعات اليوم، ولاسيما علاقات الزنا التي تغلب عليها النزعة الحيوانية أكثر بكثير من النزعة الإنسانية. فالإسلام يحرّم العلاقة غير الشرعية، حتى أنه يمنع اجتماع المرأة مع الرجل غير المحرم، كما عهد به رسولُ الله ﷺ لأمته بقوله: «ما اجْتَمَعَ رجلٌ وامرأةٌ إلاَّ كانَ الشيطانُ ثالثَهما»، إنّما جعل هذا التحريم لحماية الإنسان من نفسه الأمّارة بالسوء، ولحماية البيت الزوجي من أية شائبة قد تمسُّ طهره وصفاءه وإنسانيته.. فالزوجة كما يتبين من النص القرآني، هي سكنٌ لزوجها يقرّ ويرتاح إليها، فتحظى نفسه بالسكينة والطمأنينة من أثقال نفسه وأعباء حياته.. كما تسكن هي إليه، وتطمئن إلى جواره

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

وحماه.. فتلفّهما الرحمة والبركة، وتستقيم حياتهما على المودة والوقار والتراحم والتعاون.. فسبحان الله الذي خلق الإنسان ﴿مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1]، وجعل البيت الزوجي يقوم على تلك الأواصر الطيبة، والعلاقات الإنسانية، ثم وضَعَ على عاتق الزوجين مسؤولية جسيمة يشتركان فيها لإنجاب الأولاد، وبناء الأسرة المؤمنة الشريفة التي تعبّر عن معاني الإنسانية بأسمى مراقيها.. وفي هذا البيت الزوجي الذي تعبق أجواؤه بالإيمان والمودة والرحمة، لا بدَّ أن ينعكس طيب الحياة فيه على نفسية الزوجة الحامل، فينمو الجنين في بطنها نموّاً طبيعياً وسليماً، طبقاً لما قدَّره له ـ قبل كل شيء ـ اللطيف الخبير، وساعد عليه أمان أمه واستقرارها واطمئنانها في عدم تعرّضها ـ في ظل تلك الأجواء الطيبة ـ للاضطرابات النفسية والانفعالات العصبية، ولاسيما انفعالات الألم والحزن والغضب التي قد تنجم عن الشجار العائلي، أو عن عدم اكتراث الزوج للتقلبات التي تطرأ على حياة الزوجة الحامل، وهو ما نشاهده في البيت الذي يكون همُّ الرجل فيه انصرافه إلى شهواته، ومشاغله أكثر من اهتماماته بحياة عائلته.. فالبيت الزوجي هو الركن الركين لبناء الأسرة، وعلاقة الزوجين ببعضهما هي الأساس المتين لإنجاب البنين، فكلما كان هذا البيت يحفل بالإيمان والأمان، ويعبق بشذا الألفة والمودة، كلما انعكس ذلك إيجاباً على الزوجة الحامل، وعلى الجنين في بطنها. يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إذا أتى أهلَهُ بقلبٍ ساكنٍ وعروقٍ هادئةٍ، وبدنٍ غيرِ مضطربٍ، استكنَّتْ

(١) سورة القيامة، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

النطفةُ في الرحم فخرجَ المولودُ يُشبهُ أباهُ وأمَّهُ»[1]، مما يتبيّن معه أنَّ الحالة النفسية للحامل ـ كما للزوج ـ كثيراً ما يكون لها تأثير مباشر على حياة الجنين في بطنها، ولذلك يقول الرسول الأعظم ﷺ: «الشقيُّ مَنْ شَقِيَ في بطنِ أمّهِ، والسعيدُ سعيدٌ في بطنِ أمّهِ»[2].

٣ ـ تأثير عوامل الوراثة والاكتساب

لعلَّ من المواضيع الهامة التي كانت مثار اختلاف بين الفلاسفة ومنظّري علم النفس، دور كل من الوراثة والاكتساب في تكوين شخصية الطفل. فالفلاسفة المثاليون والعقلانيون أمثال «أفلاطون» و«ديكارت»، يعتقدون بوجود قدر كبير من المعلومات والطبائع الأولية التي تولد مع الإنسان؛ بينما يقول التجريبيون أمثال «جون لوك» و«داڤيد هيوم» إنَّ ذهن الإنسان يكون عند الولادة «صفحة بيضاء خالية من أي نقشٍ»، وبالتالي فهم يعتقدون بأنَّ الطبائع والأفكار تُكتسب عن طريق الحواس، وعبر التفاعل البيئي والاجتماعي. ويؤيد هذا الاتجاه علماء النفس السلوكيون، ومنهم الأميركي «جون واطسن» في أوائل القرن العشرين، الذي طرح نظريته حول عوامل الاكتساب، فقال: «ائتوني بدزينة من الأولاد الأسوياء، ومكاناً خاصاً بي لتربيتهم فيه، وأنا أضمن لكم أنني قادر على تدريب أي واحدٍ منهم اختاره عشوائياً ليكون طبيباً أو محامياً، أو بائعاً أو قائداً، أو حتى مجرماً أو سارقاً، دون أي اعتبار لمذهبه وميوله وقدراته وهواياته، وحتى عرق أجداده».

ويقول علماء الوراثة اليوم بأهمية الجينات المتوارثة، وخاصة من

---

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٧٩.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٤٣.

حيث الخصائص الجسمية الفيزيولوجية، بل ويعتبر بعضهم أنَّ جزءاً من الطبائع الخُلُقية ينتقل عبر الوراثة، ويكون من ثم تفاعل بين الطبائع الداخلية الموروثة والبيئة والمجتمع. ومن شأن هذا التفاعل أن يعزز الطبائع الموروثة، أو أن يطمسها إلى حدٍّ ما؛ أي إنَّ تلك تكون بمثابة استعدادات أولية لدى الإنسان، وهي مرنة وقابلة للتكيّف والتغيير..

ومن ناحية ثانية فإنَّ بعض الفلاسفة أمثال «لوك» و«هيوم» و«هوبس» يعتبرون أن الإنسان مفطور بطبيعته على الشر، وأنَّ ما يقوّمه هو المجتمع والقانون الذي يحكمه؛ بينما ينظر آخرون أمثال «روسو» و«ستالوتزي» إلى الطبيعة الإنسانية على أنّها خيرة في أصولها[1]، وأنَّ الإنسان قد ينحرف أو يكتسب طبائع مذمومة بفعل احتكاكه بالمجتمع..

كما أنَّ الفكر الفلسفي الديني لدى المسيحيين، كانت له نظرته الخاصة إلى الطبيعة الإنسانية، «فنجد فلاسفة المسيحية التقليدية يأخذون بمبدأ الخطيئة الأصلية التي تقول بأنَّ الإنسان فقد قدرته على الوصول إلى الحقائق بارتكاب آدم الزلَّة الكبرى. وهذه الزلَّة لم تقتصر عليه وحده، وإنَّما تعدَّته إلى سائر أبنائه من البشر أجمعين، ولذا كان عليهم أن يمرّوا بخبرة من نوع معين حتى يستطيعوا أنْ يتغلّبوا على هذه الوصمة»[2]. أي بتعبير آخر إنَّ آدم عليه السلام عندما أزلَّهُ الشيطان وأكل هو وزوجه حواء من الشجرة التي نهاهما ربُّهما عن الاقتراب منها، وذلك كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا

(١) التربية عبر التاريخ، د. عبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٠، ص٣٥.
(٢) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، عصام عيتاوي، مؤسسة الوفاء، ط١، ١٩٨٢، ص٣٤ و٣٥ (عن: التوجيه الفلسفي الاجتماعي للتربية ص٧٥).

﴿مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)]، حينئذٍ اقترف أبو البشرية الخطيئة الأصلية فتوارثتها البشرية جميعها، فكان الإنسان من جرّائها، مفطوراً على الشر، وفقاً لذلك المفهوم الفلسفي لدى المسيحيين، ولا يُصلحه إلاَّ ولادته الروحية من خلال التزامه بالتعاليم الكنسية والممارسات الدينية، وأساس ذلك كل إيمانه بالسيد المسيح عليه السلام بأنَّه المخلّص، وقد مات على الصليب لتمحى ذنوب المؤمنين به..

أما الإسلام فإنه ينظر إلى الإنسان على أنه مخلوق كريم على خالقه، فهو سبحانه وتعالى عندما خلق آدم عليه السلام قد أوحى إليه علم مسميات الأشياء ومعانيها كلها، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٢)]، أي ألقى في روعه وفي قلبه كلَّ شيء يتعلق بحياة الإنسان وما حوله، بل وفي الآفاق من علم ومعرفة. ولكنَّ هذا العلم اللدني من الله تعالى لآدم عليه السلام قد جعله سبحانه علماً كمونياً أي كامناً في ذريته، أي في هذه السلالة التي هي من ماء مهين، وذلك بما أودع في كل آدمي من قوى وملكات تجعله قادراً على الإدراك والتمييز، وعلى التعلّم والاكتساب. بمعنى أنَّ الإنسان عندما يولد لا يكون لديه شيء من العلم، بل تكون لديه القابلية والقدرة على التعلم من خلال تلك القوى والملكات المودعة في أصل خلقه، يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[(٣)]، مما يتبيّن معه أنَّ علم الإنسان يكون مكتسباً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

وليس موروثاً؛ وهذا أيضاً ما يشير إليه قول رسول الله ﷺ: **«إنما العلمُ بالتعلُّم والحُلْمُ بالتحَلُّم»**[1]. وأما ما يولد مع الإنسان من الطبائع جبلّياً فمردُّهُ إلى الفطرة المركوزة في خلق الإنسان، أي الفطرة التي خلقه الله تعالى عليها، مصداقاً لقوله الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[2].

فالصفات التي يمتاز بها الإنسان باستعداداته الفطرية هي من كوامن النفس كما ورد في الحديث عن أشبح عبد القيس.. فقد قال له رسول الله ﷺ: **«إنَّ فيك لخصلتين يحبهما الله تعالى: الحلمُ والأناةُ»**، وحين سأل الأشبحُ إنْ كان قد جُبلَ على هاتين الخصلتين كان ردّ رسول الله ﷺ بالإيجاب.. وهذا ما يهدينا إليه كثير من الآيات القرآنية. يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[4].. النجدين هما طريق الخير وطريق الشر.. فهذه النصوص الكريمة وغيرها تدلُّ على أنَّ في نفس الإنسان كوامن واستعدادات قد جبل عليها، ولكن يبقى عليه هو أن يختار بين الخير والشر، الحق والباطل، الحسن والقبيح، العدل والظلم.. وما إلى ذلك من المسميات والمعاني التي تجعله ممن أفلح في تزكية نفسه، أو من خابَ بما يحملها من الأثقال والأوزار.. بما يجعل طبيعة الإنسان ليست شريرة في أصلها، كما ادَّعت ذلك بعض المذاهب الفكرية، بل

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة. ص٢٧ رقم٤٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.
(٤) سورة البلد، الآيات: ٨ ـ ١٠.

يجعلها مفطورة على الخير والصلاح. وأمّا ما يكتسب الإنسان بخلاف ذلك فهو من صنع يده. ولعلَّ أكبر الشواهد على ذلك أنَّ آدم عليه السلام بعد أنْ فقد العزم بما أزَلَّهُ الشيطان، عادَ وتابَ فتوجَّهَ هو وزوجُهُ إلى ربهما بالاستغفار وطلب الرحمة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].. وكانت الاستجابة من ربهما تعالى فتاب عليهما، لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، وهذا يعني أن الخطيئة لا تُوَرَّثُ ،ولا تَتناقَلُ عبر الأجيال، بل يُلزِمُ كلُ إنسان بأفعاله وأقواله ونياته.. والآيات القرآنية التي تهدينا إلى ذلك كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[6]..

وليس الدين في الإسلام من الموروثات، لأنَّ الإنسان يولد على الفطرة، كما يدلُّ عليه قول الله تعالى في الآية ٤٠ من سورة الروم، التي أشرنا إليها قبل قليل؛ وكما يبيّنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[7]. فهذه الفطرة، إذا قُدِّرَ للإنسان التوجيه الصحيح والتربية السليمة، «هي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٦) سورة النجم، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.
(٧) البحار، ج٢، ص٨٧.

التي ترشح الإنسان لخير مصير عقليٍّ وخُلُقيٍ ودينيٍّ وحضاريٍّ، وهي ما يجب أن يقرر نوع التربية الملائمة التي تؤهل الإنسان ليخطَّ هذا المصير بنفسه. وقد أكَّد هذا المفهوم أنَّ ما يتوارثه المجتمع من دينٍ أو فكرٍ أو معتقداتٍ أو حضارةٍ هو الذي يحكم عليه أو يحكم له، بقدر ملاءمته أو عدم ملاءمته حاجات هذه الفطرة»[1]. .

وأهمية الإسلام أنَّه يلامس الفطرة، ويدعو لإعمال مقوماتها من خلال ما أودع الله تعالى في الإنسان من خصائص، ولاسيما هذا العقل الذي جعله سيداً لكل الكائنات في الأرض. ولذلك جُعل كل عاقلٍ بالغٍ مكلَّفاً مباشرة بمعرفة هذا الدين واتباعه من خلال القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة، والمفاهيم الإسلامية التي يقدمها أصحاب الاجتهاد والفكر والرأي، وتكون موافقة للكتاب والسنة. وبما أنْ ليس لكل إنسان طاقة أو إمكانية لبلوغ هذه المعرفة، فقد هوَّنَ عليه خالقه هذا الأمر من خلال اللجوء إلى أهل العلم ليأخذ عنهم أركان الدين وأصوله، ولاسيما الأحكام الشرعية وكل ما يتعلق بأوامر الله تعالى ونواهيه وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] فإذا علمها من أهل العلم صار عليه أن يطبقها في حياته وحياة عائلته عن طريق الفهم والاقتناع والمثل في الإيمان والعمل الصالح. أما ما يركن إليه مما ألفه من أهله أو بيئته دون البحث وبذل الجهد الشخصي، والاكتفاء بالتقليد الأعمى، فهذا ما يجعله مقصراً في تكليفه ولو بعض الشيء. . ومن هنا كان الأجر العظيم للإنسان غير المسلم الذي يهتدي إلى الإسلام ويعتنقه وهو مخلص لله تعالى،

(١) مجلة الفكر العربي، عدد ٢٢، ص٢٩١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

ولاسيما من أهل الكتاب، الذين يعتنقون الإسلام فيوفّيهم ربُّهم الكريم أجرهم مرتين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]. ومن هنا كانت مخاطبة الإسلام للإنسان بصورة مباشرة، ودعوته لإعمال العقل واستخدام وسائل العلم والمعرفة التي تهديه إلى الدين القيم، وانتهاج الصراط المستقيم قولاً وفعلاً وسراً وعلانية، لأنَّ الإنسان في نهاية المطاف، هو المسؤول عن تصرفاته وسلوكه ومصيره، بما يملك من الجوارح والملكات، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2]. أي ولا تتّبع أيها الإنسان من الدين ما ليس لك به علم، فإنَّ اتباعك هذا محض جهل وأنتَ محاسبٌ عليه. ومن هنا كان باطلاً ما يدّعيه الإنسان من أنه ورث العقيدة الدينية عن آبائه، ولاسيما إذا كانت هذه العقيدة مما يخالف الفطرة ولا تستقيم مع العقل، كما هي الحال في دعوى المشركين والكفار الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، مدّعين عدم التخلي عن العقيدة التي توارثوها عن الآباء والأجداد، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[4].. فهذا

(١) سورة القصص، الآيات: ٥٢ ـ ٥٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٦٩ و٧٠.

التقليد الأعمى الموروث، إنما بُعث الأنبياء والرسل لمحاربته ولهداية العُمْيِ عن ضلالتهم تلك، واعتناق عقيدة التوحيد التي ترفع من قيمة الإنسان، وتعلي من شأنه الفردي والاجتماعي. وتظهر نتيجة عدم الاستجابة لدعوات أولئك المبعوثين من ربهم تبارك وتعالى. بدعاء النبي نوح عليه السلام، وهو يناجي ربَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1]. فقد أرسل الله تعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، كما يخبرنا القرآن الكريم في سورة العنكبوت[2]، وهو يدعوهم إلى اعتناق عقيدة التوحيد والدخول في الإسلام ولا من مجيب!.. لا، بل وكانوا يكذّبونه ويتوعَّدونه هو ومن اتبعه من المؤمنين بالأذى والعذاب إنْ لم يكفَّ عن دعوته، حتى ضاق بهم ذرعاً، ولم يعد قادراً على احتمال إنكارهم وجحودهم لأنعم الله تعالى التي كان يذكّرهم بها، وهو يدعوهم سرّاً وعلانية لعبادة الله تعالى.. فكان دعاؤه إلى ربه أنْ يهلكهم، وألاَّ يترك على الأرض كلها من الكافرين ديّاراً، أي صاحب دار من ديارهم أو بيوتهم التي لا يلدون فيها إلاَّ فاجراً يعيث في الأرض فساداً، أو كَفّاراً يُضلُّ العبادَ إضلالاً!.. ولم يكن دعاءُ النبي نوح عليه السلام إلاَّ من قلبٍ أثقله الكافرون بالألم والحسرة بعدما ثبت له بالتجربة، وخلال تلك المدة الطويلة التي قضاها في الدعوة، أنه لم ينفع مع أولئك الكافرين لا ترغيب ولا ترهيب، فقد بقي دأبهم على الكفر يتوارثه الأبناء عن الآباء، حتى

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة العنكبوت، الآيتان: ١٤ و١٥.

امتلأت نفسُهُ كراهية لأعمالهم، فرغب إلى ربه تعالى أن يطهّر الأرض من الشر الذي يستفحل باستفحال الكفر، والظلم الذي يستشري من انتشار الشرك..

ولا تقف آثار دعاء النبي نوح عليه السلام عند حدود إهلاك الكافرين، بل تتعداها لأنْ يُبقِيَ اللَّهُ تعالى في الأرض الذريَّة الصالحة من الذين آمنوا به وبدعوته، أي الذرية التي تحفظ ميثاق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي أخذه على النبيين وعلى بني آدم أجمعين، وهم في الأصلاب، بأنْ يؤمنوا به ويعبدونه فلا إله إلاَّ هو، رب السماوات والأرض، كما يعبر عنه قول يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)..

وبمقتضى ذلك الميثاق حَملتِ الذريةُ الصالحة لواء عقيدة التوحيد على مرّ العصور، وهي تدعو لعبادة الله إلهاً واحداً لا شريك له، وتلك الذرية الصالحة من آدم ونوح عليهما السلام هي التي يدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣ و٣٤.

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾[1]. فقوله: «من ذرية آدم» أي إدريس؛ «وممّن حملنا مع نوحٍ» ابنُه سام ومن ذريته إبراهيم، «ومن ذرية إبراهيم» ولداه إسماعيل ـ ومن ذريته محمد ﷺ ـ، وإسحاق، ومن ذرية إسحاق ابنه إسرائيل وهو يعقوب، ومن ذريته موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ـ عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ـ. . وقوله: «وممّن هدينا واجتبينا» من عباده الصالحين الذين ينتسبون إلى تلك الذريات الصالحة بالقرابة، أو بصلة الدين والإيمان. .

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ البيت الزوجي الذي تقوم الحياة فيه على السكينة والمودة والرحمة، يفترض أنْ يكون بمثابة محراب لعبادة الله تعالى، حيث ينشأ الأبناء منذ نعومة أظفارهم على سماع ذكر الله تعالى، وتأثُّرهم برؤية الأهل في القيام بالصلاة والصوم وإيتاء الزكاة، وما إلى ذلك من الفرائض والطاعات التي فيها الاستجابة الكاملة لأوامر الله تعالى ونواهيه. . فضلاً عن مراقبة هؤلاء الأهل في تعاملهم مع ذوي القربى، ولاسيما التواصل مع ذوي الرحم، ومعاشرة الناس بالحسنى، وما إلى ذلك من مكارم الأخلاق التي تنطبع في أذهان الأبناء ولاسيما الأطفال، فتنمو في نفوسهم بذور الإيمان والتقوى، وتتغلغل في أعماقهم مشاعر الألفة والمحبة، فيشُبُّوا وقد استقاموا على الطريقة التي ترضي الله تعالى وتحفل بالخير والبركة. على أنَّ ذلك كله لا يعفيهم من أنْ يتحرّوا الرشد بأنفسهم، وأن يكون إيمانهم بالإضافة إلى جو البيت مبنياً على العقل، والإيمان بما أنزل الله

(١) سورة مريم، الآية: ٥٨.

عزَّ وعَلاَ من كتاب، وما بعث من نبيٍّ أو رسولٍ، والتصديق بقضايا الغيب من مثل يوم القيامة، والبعث والحساب، والجنة والنار . .

وهذا بخلاف البيت الذي يتربّى فيه الأبناء على الكفر أو الشرك أو الإِلحاد، حيث تكون غايتُهم منصبَّةً على متاع الحياة الدنيا وزخرفها، فلا يحفلون بالقيم المعنوية والمثل الإنسانية، ولا يفكرون بحياة أخروية، لأنَّ كل شيء في حياتهم يكون قائماً على المادية البحتة، واقتناص الفرص التي توفر لهم نيل مطالبهم مهما كانت الوسيلة لذلك! . . ومن أجل ألاَّ تعمَّ هذه المادية دنيا الأرض، ومن أجل ألاَّ تكون الغلبة دائماً لأولئك الجبابرة الذين يُضلّون عباد الله ويعيثون في الأرض فساداً، كان دعاء النبي نوح عليه السلام إلى ربه تعالى ألاَّ يترك على الأرض من الكافرين ديّارا، بل يهلك كل فجّار كفّارٍ، ويدمر ديارهم جميعاً، فتبقى عقيدة التوحيد التي تسود في دنيا الناس، لأنها الأساس المتين للتربية الصالحة، والعمادُ الحقيقي للبناء الإيماني والفكري والأخلاقي والسلوكي والاجتماعي في حياة الناس . .

٤ ـ المراحل الأخرى للنمو لدى الإنسان

لقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه المخلوق الأرضي الذي عهد إليه ربُّهُ تعالى بأمرين أساسيين:

الأول: عبادة الله تعالى، فلا يشرك بعبادة ربّه أحداً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

والثاني: استخلافه في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وهذا الاستخلاف من أجل أنْ تقوم عمارة الأرض على الإيمان والعلوم والمعارف ضمن العلاقات الإنسانية التي تفترض التعاون ونشر السلام والأمن في مختلف بقاعها، وصيانة حقوق الأفراد والجماعات دونما افتئات من قوي على ضعيفٍ، ودونما استعباد وظلم وقهر وفسادٍ.. كما حصل فعلاً من المساوئ والشرور عبر التاريخ البشري، وهو ما أُلهِمَ الملائكةُ أنْ يُبدوه لربهم العزيز الحكيم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[2] أي يُفسد فيها بالمعاصي، ويسفك الدماء بالقتل!.. وكما لا يزال قائماً بين الناس، بل ويزداد ويستشري ـ على ما نرى ونسمع في أيامنا هذه ـ على الرغم من الحضارات التي أنشأها الإنسان على مرّ العصور، والمدنيات التي كانت ترافقها، ولا سيما المدنيات الحاليّة، في أكبر وأعظم ثورة فكرية معلوماتية وتقنية التي وصلت إليه ما نشهد من مظاهر التقدم في مختلف الميادين، ولكن من غير مراعاة فعلية للغاية الجوهرية من استخلاف الإنسان في الأرض!..

ولذلك كانت الدولة الإسلامية التي أنشأها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة واستمرت على عهد الخلافة الراشدة، حالةً فريدةً من نوعها لم يعرفها أي قطر من أقطار الأرض، ولا أية جماعة من الجماعات البشرية من قبلُ ومن بعدُ، وذلك لأنَّ تلك الدولة قد حكمت بما أنزل الله تعالى ـ وهي الخاصيّة التي جعلتها أرقى نظام للحكم السياسي والاجتماعي والعدلي والأمني ـ حتى إذا راح الحاكم الإسلامي ـ وليس الحكم الإسلامي ـ يتهاون بإقامة الحاكمية لله تعالى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ويؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، كما يعبّر عن ذلك هارون الرشيد عندما سأله وزيره الأول ابن الربيع عن الخلافة، فقال ما مؤداه: والله لو طلبها ابني لقطعت رأسه قبل أنْ أدعَهُ يصل إليها.. أجل، في ظل هذه الذهنية التي تختلف كلّياً عما يريد الإسلام من قيام الدولة، وعلى الرغم من كل مظاهر القوة والانتشار التي مرَّت فيها الخلافة الإسلامية منذ العهد الأموي وحتى نهاية العهد العثماني، فإنَّ الفسادَ كان قد أغوى الحكام وانتشر بين المحكومين، فكان من المحتوم أنْ يسري الضعف في نفوس المسلمين وبلادهم من زمنٍ إلى زمنٍ، وأن تزول الخلافة الإسلامية من الوجود، فلا يبقى من مظاهر الحكم الإسلامي إلاّ عناوين معينة في هذه الدولة أو تلك.. وهذا ما أدّى بالمسلمين إلى الأحوال التي هم عليها، والتي كان رسولُ الله ﷺ قد حذَّر منها كما روي في الحديث عنه: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»**.. فقال قائل: أوَمن قلّةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل...»**[(١)].

إذن فالإسلام لا ينظر إلى الوجود الإنساني بمفاهيم مجتزأة عن الفرد أو الشعب أو نظام الحكم وما إلى ذلك.. بل ينظر إلى هذا الوجود بنظرة شمولية تكاملية تتناول الفرد في مختلف مراحل حياته، والمجتمع والدولة من جميع جوانبها، كما يتناول نظام الحكم ومختلف المناهج التي يجب أنْ يُبنى عليها، حتى تكون مسيرة الإنسان على الأرض مسيرةً يحكمها التكامل والاستمرار، وتنتظمها حركة التاريخ وفقاً للسنن الكونية التي جعلها الله تعالى سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتحوَّل عن مسارها المرسوم لها.. من هنا ضرورة تربية الإنسان المسلم وفقاً لهذه

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب الملاحم.

النظرة الشمولية، بحيث تبدأ تربيته منذ أنْ يطل المولود الجديد على شخصيته، وتلقّيه العلوم والمعارف الأساسية التي تتناسب وطاقاته الفكرية والاستيعابية، وجميعها تعده لأنْ يلعب الدور الذي يكون قد تهيّأ له في الحياة. «إذ يكون الطفل في سنواته الأولى على أقصى درجة من المرونة والقابلية للتطبُّع، لأنه في تلك السنوات تتشكَّل عقليته وعقيدته الدينية وقيمه الخلقية والوجدانية بفعل البيئة التي ينشأ فيها»[1]. ففي البيت وبين أبويْه وأخوته، تتفتَّح أولى مداركه على الوعي، فيتعلّم النطق ويكتسب اللغة، ويحاكي تصرفات الذين يحيطون به، ويتأثر بالعادات والتقاليد الموروثة.. بحيث يتكيّف مع كل ما يجعله ينتمي إلى عائلته وأقربائه والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه..

ولا تقلُّ المدرسة عن البيت تأثيراً في تربية الطفل، بل قد يكون تأثيرها أقوى لاكتساب مهاراته الفكرية بما يتلقَّى من معلِّميه ومرّبيه، وتنمية مهاراته الجسدية بما يمارس من ألعابٍ رياضية.. إلاَّ أنه كلما كان التعاون وثيقاً بين البيت والمدرسة، انعكس ذلك إيجاباً على تنمية مواهب الطفل وتكوين شخصيته، يضاف إلى ذلك ما لعوامل الوراثة من تأثير على حياة الطفل، بما يتوالد معه من طاقات فكرية وجسدية، قد تنطوي على حالات من القوة أو الضعف، تكون جديرة أنْ تؤخذ بعين الاعتبار لتثبيت وتنمية ما هو صحيح منها، وتلافي ـ إنْ أمكن ـ ما هو القاصر أو الغثّ منها. وعلى الرغم من ذلك فإنَّ تأثير التربية قد يتجاوز عوامل الوراثة إلى درجةٍ قد يمكن معها وقف قانون الوراثة إلى حدٍّ ما، إلاَّ في الموارد التي تكون الصفات الوراثية ذات طابعٍ حتميٍّ،

---

(١) مجلة الفكر العربي، عدد ٢١، ص٢٩٢.

فلا يمكن حينئذٍ لعوامل التربية والاكتساب أنْ تغيّرها مهما كان لها من فاعلية وتأثير.. بمعنى «أنَّ البيئة كلما كانت غنيةٍ بمحتواها، كانت إيجابية الأثر في نموّ الصغير، وذلك طوال السنوات الأثنتي عشرة الأولى من حياته، خصوصاً السنوات الثلاث الأولى منها»[1]، ومن هنا يبرز الدور الرئيسي للأهل في تأمين المناخ الأسري الذي يتناسب ومتطلبات أولادهم وحاجاتهم الضرورية، وتعويدهم المهارات اليدوية والفكرية الأولية وتلقينهم أدب السلوك، فضلاً عن توفير أجواء الهدوء والسكينة، وتوطيد وشائج المحبة والحنان، وترسيخ أواصر الحب والإيثار، وما إلى هنالك من «عوامل النماء السيكوفيزيولوجي»[2].

وفي مثل هذه الأسرة التي يتقارب أعضاؤها ويتحاكَوْن ويتناغَوْنَ، بل وفي هذا البيت الزوجي الذي يعبق ـ وفقاً للمفاهيم الإسلامية ـ بشذا الإيمان، وترفرف فيه معاني المودة والرحمة ـ كما قلنا قبلُ ـ لا بدَّ وأنْ يأخذ الأهل بالمفاهيم والقيم التي قد تنسحب بآثارها على حياة أبنائهم، وترافقهم على مدى العمر، ولعلَّ أهمَّها:

١ ـ أن يكون الأب والأم صالحين: ومن أولى أمارات صلاحهما أن يكونا مؤمنين ملتزمين بأحكام وتعاليم الدين، كما نصح رسول الله ﷺ بذلك، عندما سأله أحدهم عن صفات الزوجة التي يختارها، فقال له: «اظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاك»[3]. بل وكان الرسول الأكرم يؤكد على تحرّي سلامة الصحة البدنية والنفسية في الطرفين قبل الزواج، ومن ذلك قوله ﷺ: «أَنْكِحُوا الأَكُفَّاء وانْكَحُوا

(١) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، عصام عيناوي، مؤسسة الوفاء، ط١، ١٩٨٢، ص٤٥.
(٢) التربية ما قبل المدرسة والبيئة، إيلي قسطون، مقال في جريدة البيرق، ١٩٨٢.
(٣) صحيح مسلم، باب الرضاع، رقم ٥٣.

فيهم واختاروا لنُطَفِكم»[1]، وفي حديث آخر: «تَخَيَّروا لنطفكم فإنَّ العرقَ دسَّاسٌ»[2]. وعن الحسين عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إيَّاكم وتزوُّجَ الحمقاء، فإنَّ صحبتَها بَلَاءٌ وولدَها ضَيَاعٌ»[3]. هذه الأحاديث وغيرها تشير إلى ضرورة سلامة الزوجين حذراً من إصابة الأولاد ببعض العاهات التي قد تنتقل إليهما من الأبوين، والتي يكون الأهل مسؤولين عنها في حال إهمال ضرورة إجراء الفحوصات الطبية والمخبرية قبل الزواج، وفي حال التغاضي عن وجود مشاكل نفسية لدى الرجل أو المرأة من شأنها أنْ تؤثر على مصير الأولاد.. وبالإضافة إلى العوامل الصحية والنفسية، هنالك إجماع لدى خبراء التربية على أنَّ الأم يجب أن تكون على مستوى معين من الثقافة التي تمكّنها من معرفة أصول التربية، لأنها تقع على عاتقها قبل غيرها مسؤولية تلقين الأبناء، ولاسيما في مرحلة الطفولة، معاني الأشياء والقيم فإدراكها لهذه المعاني، فضلاً عن تمتعها بالخلق الحسن وقيامها بموجبات الأمومة من مختلف جوانبها، يعطي تربيتها ثماراً طيّبةً، ولذلك قال الشاعر:

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها أعددتَ شعباً طيبَ الأعراق

وتتكافأ مسؤولية الأب مع مسؤولية الأم في تربية الأبناء؛ فهو ولئن كان يعمل خارج المنزل ليحصل قوته وقوت عياله، ولئن كانت انشغالاته في الحياة واسعة، إلاَّ أنَّ ذلك لا يعفيه من الاهتمام المباشر برعاية شؤون زوجه وأطفاله.. إذ لا يكفي أن يؤمن لهم الغذاء

(١) مكارم الأخلاق، الطبرسي، منشورات الأعلمي، ط٦، ١٧٢، ص١٩٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٢٩.
(٣) فروع الكافي، ج٢، ص١٣.

والطبابة واللباس وما إلى ذلك من الأشياء التي تنمي مهاراتهم كالألعاب وغيرها، بل وعليه أن يعرف كلَّ شاردة وواردة عما يجري داخل أسرته، لكي يُشعر زوجَهُ باهتمامه بها، ويُشعر أبناءه بأنه قريب منهم، يحبهم ويحنو عليهم، ويذود عنهم من كلٍّ ما قد يؤذيهم في أبدانهم ونفوسهم. . فالإسلام ينظر إلى الأب الصالح ـ والأم الصالحة ـ من زاوية إنسانية وإيمانية، حتى أنّه ليُؤجَر على ما ينفق على أهله، كما يدلُّ عليه قولُ رسول الله ﷺ: **«دينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ الله، ودينارٌ أنفقتَهُ في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقْتَ بِه على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقتَهُ على أهلِكَ، أعظمُها أجراً الذي أنفقتَهُ على أهلِكَ»**[1]، فهذا الحديث الشريف، وبما يكتنز من المضامين العظيمة للإنفاق: في سبيل الله، وفي سبيل تحرير الإنسان من الرّقّ الجاهلي والعبودية الحالية، ومن أجل التصدّق على المساكين، فكل ذلك بقيمه وأبعاده السامية أجرُهُ دون الأجر الذي يناله الرجلُ في الإنفاق على أهله. . فالرجل عندما يكون الراعي الصالح لأهله، يكافئه الإسلامُ على هذه الرعاية بما يستحق من الأجر الذي يناله ليس في هذه الدنيا وحسب، بما يظهر من صلاح في أهله؛ بل وفي الآخرة حيث يُثاب على رعايته تلك التي أولاها كامل عنايته وجهده. . فالأم والأب هما القدوة الحسنة لأبنائهما، ويتمثّلانها بالسيرة الشريفة للمصطفى ﷺ بقوله الكريم: **«خيرُكُم خيرُكُم لأهلِه وأنا خيرُكم لأَهلي»**[2]. فهذا الرسول ﷺ الذي جعلَهُ ربُّهُ تبارك وتعالى أسوةً حسنة لجميع الناس، فقال عزَّ من قائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ

---

(١) فروع الكافي، ج٢، ص ١٣.

(٢) سنن ابن ماجه، باب حسن معاشرة النساء، رقم ١٩٧٧.

اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]. أجل، هذا الرسولُ الأعظم يجب أن يتخذه الأهلُ الأسوةَ الحسنة، كي يجعلا من نفسيهما قدوةً صالحة لأبنائهما. . فلا يبخَلنَّ أحدٌ من الأهل ـ أمّاً وأباً ـ على نفسه بالاطلاع على السيرة النبوية الشريفة، وما تحفل به حياة خاتم النبيين محمد ﷺ من القيم والمثل ومكارم الأخلاق و«الخلق العظيم»، التي تضمن عوامل الأمن والأمان والطمأنينة لمن يتبّعها ويسير على هديها. .

٢ ـ عدم التمييز بين الأولاد بسبب الجنس: إذ تعاقبت على الجنس البشري عهودٌ من الظلام جعلته ينظر إلى الرجل نظرةً متمايزة عن المرأة. ففي الغرب كانت الثقة بالمرأة معدومة، ولعلَّ السبب تلك الحروب الدامية التي كانت تجري بين رجال الإقطاع من جهة، أو بينهم وبين الملوك من جهة ثانية. . فكان الرجال الذين يسعون لخوض غمار تلك الحروب، يُلبِسون نساءهم ما كان يسمى «حزام الأمان» حتى لا يخُنَّهم في غيابهم. . ولم تكن جاهلية العرب أقلَّ قسوةً حيال المرأة، حيث تقوم حياتهم على غزو القبائل بعضها بعضاً، وما يُحدث هذا الغزو من جوعٍ وفقرٍ وسَبْيٍ وعارٍ، حتى تكوّنت لدى كثير من تلك القبائل ذهنيةٌ عقيمة، تمثلت بقتل الأولاد ـ وخاصة البنات ـ خشية من الفقر أو خوفاً من العار. . فجاء الإسلام ليقضي على تلك الذهنية السقيمة، ويحلَّ محلَّها نمطاً من التفكير الذي يجعل رزق الأولاد بيد الله تعالى، بحيث لا يحرّم وأْدَ البنات فقط، بل ويتوعَّد كل من يقدم على ذلك بالعذاب الأليم. . لذلك نجد القرآن الكريم يصوّر حالة الرجل الذي يُخبرُ بمولودة جديدة أدق التصوير،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1]. ثم يبيّن الوعيدَ الذي يتهدد به الخالقُ من يئد البنات بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[2]؛ كما يحرّم قتل الأولاد من فقر يخافونه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[4].. بل إنَّ مختلف الذرائع التي أوجدت التمايز بين الذكور والأناث، لم تُعطِ المرأةُ كاملَ حقوقها المدنية والسياسية، سواء في الغرب أو في الشرق، إلاَّ في عهودٍ متأخرة، قد جاء الإسلام لينقضها من أساسها، ويجعل المرأة على نفس المساواة مع الرجل في الحياة. والسيرة النبوية الشريفة حاملة بالأحاديث التي ترفع من شأن المرأة، وتعلي مكانتها؛ فقد روي أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ما زالَ جبرائيلُ يُوصِيني بأمرِ النِساء حتى ظَنَنْتُ أنه سيُحرِّمُ طلاقَهنَّ»**[5]؛ وأنّه قال: **«اتَّقُوا الله عزَّ وجلَّ بالنساء، فإنهنَّ عوانٌ بين أيديكم، أخذتموهُنَّ على أَماناتِ الله لما استَحْلَلْتُمْ من فروجهنَّ بكلمة الله وكتابه، فإنَّ لهنَّ عليكم حقاً وواجباً لما استحللتم من أجسامهنَّ وبما واصَلْتُمْ من أبدانِهنَّ، ويَحْمِلْنَ أولادَكُمْ في أحشائِهِنَّ فاشفَقُوا عليهنَّ، وطيِّبُوا قلوبَهُنَّ حتى يَقِفْنَ معكم، ولا تُكرِهُوا النساءَ،**

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ و٥٩.

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٨ و٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

(٥) مكارم الأخلاق، المرجع السابق، ص٢٢٣.

ولا تَسخَطُوا بهنَّ، ولا تَأخُذوا ممَّا آتيتموهُنَّ شيئاً إلاَّ برضاهنَّ»[1].

وعن رعاية البنات وضرورة تنشئتهنَّ تنشئةً صحيحةً، قال رسول الله: «من ابتُلِيَ بهذه البَنِيَّاتِ بشيءٍ فأحسَنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْراً من النار»[2]، كما قال ﷺ: «من عالَ جاريتَيْنِ حتَّى تبلُغَا جاءَ يومَ القيامةِ أنا وهو كهاتين» ـ وَضَمَّ إصبعيه الوسطى والسبّابة ـ ولكي يقضي الرسول الأعظم على أي تمييز بين الذكر والأنثى، قال: «خيرُ أولادِكُمْ البناتُ»[3]، وعلى سيرة رسول الله ﷺ سارَ أهلُ البيت في تقدير المرأة ورفع كيانها، فقال الإمامُ جعفرُ الصادق عليه السلام: «البناتُ حسناتٌ والبنونَ نعمةٌ، فالحسناتُ يُثابُ عليها، والنعمةُ يُسأَلُ عنها»[4]، كما أُثِرَ عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كان إذا بُشِّر بمولود لا يسأل إنْ كان ذكراً أو أنثى بل يقول: أسويٌّ؟ فإذا قيل له: نعم، قال: الحمدُ لله الذي لم يَخْلُقْهُ مُشوَّهاً[5].

ومن زاوية نظر الإسلام للزواج على أنَّهُ علاقة مقدسة، وأنَّ للمرأة الحقَّ بألاَّ تتزوج إلاَّ برضاها، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تُنكَحُ الأيِّمُ حتى تُستأذَنَ»[6]، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت». ويروى أنَّ امرأةً جاءت النبيَّ ﷺ تشتكي أباها من تزويجها، فقالت: «إنَّ أبي قد زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيستَهُ، فجعل ﷺ الأمرَ إليها؛ إنْ شاءتْ ظلَّت على زواجها أو طلبتِ الطلاقَ،

(1) مستدرك الوسائل، ج٦، ص٥٥٠.
(2) مكارم الأخلاق، المرجع السابق، ص٢١٩.
(3) مكارم الأخلاق، ص٢١٩.
(4) نفس المرجع.
(5) نفس المرجع، ص١١٩، والمحاسن والمساري للبيهقي، ج٤، ط إيران، ١٨٨١م.
(6) وروي في صحيح البخاري «حتى تُستأمر».

فقالت: قد أَجَزْتُ ما صنَع أبي ولكنْ أردتُ أنْ أُعلِمَ النساء أنَّهُ ليس إلى الآباءِ من شيء»[١]. . مما يبدو واضحاً أنَّهُ لا يجوز أن تُستكرَهَ المرأة، ثيّباً كانت أو بكراً، على الزواج ممَّنْ لا ترتضيه لها زوجاً . .

وإذا كان الإسلام يشدّد على احترام المرأة وصيانة حقوقها، ولاسيما الزوجة، فإنه بالمقابل قد راعى ما للزوج من حقوق، كما في هذا الحديث الجامع عن رسول الله ﷺ حيث قال: «**إنَّما الدُنيا متاعٌ، وليس مِنْ متاعِ الدُّنيا شيءٌ أفضل مِنَ المرأةِ الصالحةِ، وما استفادَ المُؤمِنُ مِنْ بعدِ تَقْوَى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خيراً لَهُ مِنْ زوجةٍ صالِحَةٍ إنْ أَمَرَها أطاعَتْهُ، وإنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإنْ أقسَمَ عليها أَبَرَّتْهُ، وإنْ غابَ عنها نَصَحَتْهُ في نَفْسِهَا وَمَالِهِ**»[٢]. وروى أنَّه لما قدم معاذ بن جبل من الشام، تقدم يريد السجودَ أمام رسول الله ﷺ، فقال له: ما هذا؟! لا تفعل، فإنّي لو أمرتُ شيئاً أن يسجد لشيءٍ لأمرت المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجها، لا تؤدي المرأة حقَّ ربِّها حتى تؤدي حقَّ زوجها»[٣]، وفي حديث آخر: «المرأةُ لا تؤدّي حقَّ زوجها، فلو سألها وهي على ظهر قتبٍ لمْ يمنعه نفسها»[٤]. أما عن موجبات الأبناء تجاه الوالدين، فقد أمرَ الله تعالى معاملتهما بالحسنى، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ

(١) سنن النسائي.
(٢) سنن ابن ماجه، باب أفضل النساء، رقم ١٨٥٥ .
(٣) سنن ابن ماجه، باب حق الزوج على المرأة، رقم ١٨٥٢ .
(٤) سنن ابن ماجه، باب النكاح، رقم ٤ .
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1]. بل وجعلَ الإسلام البِرَّ بالأمّ مقدَّماً على البرِّ بالأب، كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ، عندما جاءه رجلٌ يسأله: مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ فقال له ﷺ: أمُّك. فقال الرجل: ثُم مَنْ؟ قال: أمُّكَ، فقال الرجلُ: ثُمَّ مَنْ؟ فقال: «ثُمَّ أمُّكَ، ثم أبوك»[2]. وسئل ﷺ: أيُّ الناس أعظمُ حقاً على المرأة؟ قال ﷺ: زوجُها؛ قيل: فأيُّ الناس أعظمُ حقاً على الرجل؟ قال ﷺ: أمُّه»[3]. وهكذا يتبيّن لنا من جملة ما تقدم كيف أنَّ الإسلام قد جاء بالمفاهيم السامية التي تمنع التمييز بين الذكر والأنثى، وكيف وازن بين حقوق الزوجة والزوج، بل وكيف أولى الإناث بالرعاية، وصانَ حقوق الآباء، بل وقدَّم حسن مصاحبة الأم على حسن مصاحبة الأب، إلى ما هنالك من القيم التي ترفع من شأن الإنسان، وتوطِّد العلاقات الأسرية والاجتماعية، على الألفة والتضامن والتكافل..

٣ ـ حسن تسمية الأولاد: وهذا من جملة ما حرص الإسلامُ عليه من أجل حماية الولد من كل ما قد يهدّد أمنَهُ النفسي ويبعده عن الاحتقار والمذلّة. إذْ جعل من عوامل الوقاية أن يُحسن الأهلُ اختيار اسم المولود الجديد «لأنَّ حُسنَ التسمية من الحب، ومن الحرص على أن يلازمَ الولدَ الفألُ الطيبُ، والإِقبال السمحُ من أترابه ومعاشريه في مستقبل عمره»[4]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أول ما

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ و٢٤.
(٢) البخاري، باب الأدب، رقم ٣.
(٣) أحمد بن حنبل، الجزء الرابع، رقم ١٢٢.
(٤) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، المرجع السابق، ص٥٢.

يَنْحَلُ أحدُكُم ولَدَهُ الاسمَ الجميلَ»[١]؛ وسأله رجلٌ: ما حقُّ ابني هذا عليَّ؟ قال ﷺ: «تُحسِنُ اسمَهُ، وتؤدِّبُهُ، وتضعُهُ موضعاً حَسناً»[٢]؛ وقال ﷺ: «إنَّكُمْ تُدْعَونَ يومَ القيامةِ بأسمائِكُمْ وأسماءِ آبائِكُمْ فحَسِّنُوا الأسماءَ»[٣]. كما رويَ عنه ﷺ أنه قال: «تسمَّوا بأسماء الأنبياء، وإنَّ أحبَّ الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقُها حارثٌ وهمَّامٌ، وأقبحُها حربٌ وقُرَّة»[٤]. كما أُثِرَ عن رسول الله ﷺ أنه كان يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان.. فقد جاءه يوماً رجلٌ اسمه «حزن»، فقال له ﷺ: «بل أنت سهل»[٥]، وأنَّ ابنة لعمر كان يُقال لها «عاصية» فسماها الرسول ﷺ: «جميلة»[٦].

وما هذا الاهتمام بالاسم إلاَّ لما له من تأثير على حياة الإنسان، ولاسيما في مرحلة الطفولة، إذ قد يتخذه أترابُ الصغير مدعاةً للسخرية، ما يجعله يستحي باسمه فيبتعد عنهم، وينطوي على نفسه فلا يعود إلى مشاركتهم في اللعب أو في غيره من النشاطات الأخرى وقد يؤثّر ذلك على مستقبل حياته بما يورثه من عقدةٍ نفسية، أو تخلّفٍ في مستواه الذهني.. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان ينصح بعدم تأجيل تسمية المولود إلى ما بعد اليوم السابع، بل ونصحَ أيضاً بختان الصبيان في السابع، فقال ﷺ: «واختِنُوا صبيانَكُم في السابع فإنه

(١) الوسائل، ج٥، ص١١٥.
(٢) الطفل في ضوء التربية الإسلامية والمرجع السابق، ص٥٢، وكنز العمال، ج١٦، رقم الحديث ٤٥١٩٣.
(٣) نفس المرجع، ورواه أحمد في مسنده: «فحسِّنوا أسماءكم».
(٤) رواه أبو داود في السنن، رقم ٤٢٩٩.
(٥) صحيح البخاري، ج٨، ص٥٤.
(٦) صحيح مسلم، ج٦٦، ص١٧٣.

أطهَرُ وأسرَعُ لنبات اللحم»[1]؛ وبيّن أهمية الختان بقوله ﷺ: «الختانُ سُنّةٌ للرجال، مكرمةٌ للنساء»[2].

٤ ـ ضرورة الاعتراف بالطفل: إذ من مساوئ الحرية الشخصية التي ينادي بها الغرب، المعاشرة بين رجل وامرأة من غير رباط زوجي، ما قد يحصل معه الحملُ بطريقة غير شرعية. وقد أوجَدَ الغرب حلاً لهذه المشكلة بأن سمح للأم بأن تسجّل الولد على اسمها، في حال تهرّب الأب من مسؤولية الاعتراف بالمولود، أو في حال عدم معرفة الأب.. وفي ذلك ضياع للنسب، وما قد يترتب على هذا الضياع من مساوئ كثيرة!.. أما الإسلام فقد حرَّم العلاقات غير الشرعية بين الرجل والمرأة، بل وفرض على الرجل الاعتراف بالطفل، عندما جعل (ثبوت النسب) حقاً للولد يدفع به عن نفسه المعرَّة والضياع[3].

وهكذا نرى أنَّ الإسلام قد أوجَبَ تهيئة المناخ التربوي السليم للأولاد، بما عهد إلى الأبوين من الصلاح في نفسيهما، ومن حسن المعاشرة وأدب السلوك في مشاركتهما الحياة الزوجية. كما أوحى لهما من أنماط التفكير وأصول التربية ما توصلت إليه أرقى النظريات الحديثة في هذا المضمار، عندما وضع على عاتقهما مسؤولية تربية أولادهم وتوجيههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم. وأهم ما في هذه المسؤولية تنمية ملكة التفكير عند الولد، لأنه عندما يكبر وينضج عقله

---

(١) طب الأئمة، ص٢٣٠. وروي في كنز العمال الحديث الرقم ٤٥٣١٢: اختنوا أولادكم يوم السابع، فإنه أطهر وأسرع نباتاً للحم، وأروح للقلب.

(٢) مكارم الأخلاق، للطبرسي، المرجع السابق ص٢٢٩.

(٣) أحكام الأولاد في الإسلام، ص١١.

يصبح قادراً على استنباط الأفكار وتنمية مداركه الذاتية التي تؤهله للتفكير بكل ما خلق الله تعالى في هذا الوجود، كما أشار بذلك الإمام علي ﷺ في وصيته إلى ولده الحسن عليه السلام بقوله: «لا عبادة كالتفكير في صنعة الله عزَّ وجلَّ»(١). وخلاصة القول أنَّ الإسلام قد أولى الأطفالَ والأولاد اهتماماً بالغاً، وجعلَ للأهل على قيامهم بأعباء تربية الأبناء أجراً عظيماً.. فقد ورد عن أبان عن أنس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: يُؤتَى يومَ القيامة بالمتقاعسين والمتبذّلين، قالوا: يا رسول الله: ومَن هم؟ قال ﷺ: «أمَّا المتبذّلونَ فهم الذين بذلوا مهج دمائهم فأهرقوها شاهري سيوفهم يتمنون على الله يوم القيامة ألا تُردّن لهم حاجة. وأمَّا المتقاعسون فهم أطفالُ المؤمنين اشتدَّ عليهم الموقف فيتصايحون، فيقول الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل، ما هذا الصوت؟ ـ وهو أعلَمُ بذلك ـ فيقول جبريل: أي ربِّ صوت أطفال المؤمنين اشتدَّ عليهمُ الموقف؛ فيقول تعالى: أظلهم تحت ظل عرشي، ثم يقول: يا جبريل، أدخلهم الجنة فيرتعون فيها؛ فيسوقهم جبريل، فيتصايحون كما تصيح الخرفان إذا عزلت عن أمهاتها؛ فيقول تعالى: يا جبريل، وهو سبحانه ـ أعلم بذلك منه، ما حالهم؟ فيقول: أي ربِّ، يريدون الآباء والأمهات، فيقول عزَّ وجلَّ: «أدخل الآباء والأمهات مع أطفالهم»(٢). وعن ابن عباس قال: «أتى عليَّ زمانٌ وأنا أقولُ: أطفالُ المسلمين مع المسلمين، وأطفال المشركين مع المشركين، حتى حدَّثني أبي أنَّ النبيَّ سُئِلَ عنهم فقال: الله أعلمُ بما كانوا عاملين»(٣)..

---

(١) سفينة النجاة ـ مادة فكر ـ ص٣٨٢.

(٢) كنز العمال، ج١٤، باب أطفال المؤمنين، رقم ٣٩٨٠٣.

(٣) المرجع السابق، باب أطفال المشركين، رقم ٣٩٨٠٤.

تلك هي مقتطفات وجيزة من نظرة الإسلام الشمولية إلى الإنسان، حاولنا من خلالها أنْ نوضّح الأجواء التي يجب أنْ تكون مهيَّأةً ومعدَّةً لاستقبال الطفل حتى يتربى تربيةً إسلاميةً صالحةً، ليست ذات طابع ديني محض، ولا ذات طابع دنيوي محض، وإنما تربية تقوم على الملاءمة بين أحكام الدين وتعاليمه، وبين متطلبات الدنيا وشؤونها، وهدفها السعي للدارين.. لذلك كان اهتمام التربية الإسلامية منصباً على كل مرحلة من مراحل نمو الإنسان، بحيث يبدأ هذا الاهتمام مع تكوينه في رحم أمه، ويتطوَّر مع نشوئه وتدرّجه ونموّه، في الطفولة والشباب وحتى الكهولة..

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1]، يتبين من هذا النص الكريم أنَّ خلق الإنسان يبدأ من «ضعف» أي من أصل ضعيف من الماء المهين (المنيُّ الذي يُمنى من الرجل ويختلط بماء المرأة)، ويستمرُّ هذا الضعف في مرحلتي الرضاعة والطفولة، ليأتي من بعدهما طور جديد في حياة الإنسان هو طور القوة الذي يظهر بالبلوغ في سن المراهقة، ومن ثمَّ الرشد في سن الفتوة والشباب، بحيث يستمر هذا الطور حتى يعود الإنسان إلى حالة الضعف عندما يبلغ سن الكهولة والشيخوخة.. فهذا هو خلق الله تعالى، الذي يخلق ما يشاء من حالات الضعف والقوة والشيبة في الإنسان، التي لا يمكن أن يحيد عنها أي أحدٍ من بني آدم إذا امتدَّ به العمر إلى سنٍّ متأخرة، أو إذا لم يَخْلُقْهُ ربُّهُ تعالى على حالةٍ من

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

الضعف في بدنه كالأعرج والمريض، أو على حالة من الضعف في عقله كالمجنون والمعتوه، وذلك لحكمة يشاؤها سبحانه وتعالى من مثل هذه الحالات التي تخرج عن مألوف الخلق السوي للإنسان. . .

وقد بيّن رسولُ الله ﷺ الأطوار التي يمرُّ بها الإنسان في مراحل النموّ، ودلَّ على كيفية تربية الأولاد منذ عهد الطفولة المبكرة إلى سن الحادية والعشرين وذلك بقوله ﷺ: **«اضربوهُنَّ لسبعٍ، رافقوهُنَّ لسبع، ثم ضَعُوا الحبلَ على غاربه»**(١). وفي حديث آخَر، عن ابن سبع عن النبي ﷺ انه قال: **«الولد سيدٌ سبعَ سنين، وخادمٌ سبعَ سنين، ووزيرٌ سبعَ سنين، فإنْ رضيتَ مكايَفَتَهُ لإحدى وعشرين، وإلاَّ فاضرب على كتفِهِ فقد أعذرت إلى الله فيه»**(٢). ويمكن من خلال الحديثين الشريفين تقسيم مراحل تربية الأولاد إلى ثلاث: مرحلة الطفولة والتدريب، مرحلة التعليم والتثقيف، ومرحلة المرافقة والتجربة. . بحيث تمتد كل منها إلى سبع سنين، مع التوكيد على أنَّ هذه المراحل ليست ثابتة بالضرورة، وبأنه يمكن فصلها عن بعضها، بل هي قابلة للتداخل في أحيان كثيرة. . إذ على المثال قد يبدأ تعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة، وتلقّي المعلومات الأولية عن معاني الأشياء قبل سن السابعة، كما هو حاصل فعلياً اليوم حيث يتم إدخال الصغار إلى ما يسمى بدور الحضانة وهم لا يزالون في الثالثة من العمر أو أقل، أو إدخالهم إلى ما يسمى بيوت الأطفال التي تسبق المدارس الإعدادية، وذلك بسبب عمل الأمهات خارج المنازل، مما يضطرهُنَّ

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٢، رقم ١٨٠ (باب وجوب أمر أهله وأولاده ومن في رعيته بطاعة الله ونهيهم عن المخالفة وتأديبهم).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٦، (الباب السابع في برّ الأولاد وحقوقهم).

إلى تسليم فلذات أكبادهن إلى مربيات لا يملكن حنان الأم ورأفتها بوليدها، مهما بلغنَ من الاختصاص والإِخلاص والحرص على رعاية الصغار. فلا عجب إنْ شبَّ الأولاد وليس في قلوبهم ما يكفي من المشاعر للتعلّق بالأهل، أو ترك منزل الأسرة والعيش باستقلالية عن الأبوين، ولاسيما بعد بلوغ سن الثامنة عشرة، كما تشهد على ذلك غالبية حياة الأولاد في مختلف بلاد الغرب، وهذا من جملة الأسباب التي تؤدي إلى تفكك الأسرة، وانحراف الشباب إلى الرذائل والموبقات.. وكذلك بالنسبة إلى التدريب ـ من حيث قابلية التداخل بين مراحل التربية ـ الذي يمكن أن يستمر في المراحل اللاحقة، ولو بدرجات متفاوتة؛ كما أن مرافقة الأهل للولد قد لا تنقطع حتى نهاية تحصيله الجامعي، بل وإلى ما بعدها من مراحل عمره، ما دام الولد يشعر بحاجة إلى نصح الأهل وإرشادهم، وما دام الإنسان ـ عموماً ـ يجد في تجارب من هو أكبر منه سناً ما قد يأنس إليه ويفيده في حياته.. لأنَّ طلب العلم، والإفادة من خبرات الآخرين وتجاربهم يمكن أن يستمر ـ في الحقيقة ـ إلى ما شاء الله، ولا يمكن تحديد ذلك بمرحلة معينة أو سنّ معين، نظراً لمجالات العلم الرحبة وآفاقه الواسعة التي قد تتناول كلَّ شيء في الوجود..

وعلى الرغم من عملية التداخل، يمكن توضيح مراحل التربية التي أشرنا إليها، كما يلي:

المرحلة الأولى: مرحلة الطفولة والتدريب: وهي التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: «**اضربوهنَّ لسبع**»، وبقوله: «**الولد سيِّدٌ سبع سنين**»..

وتبدأ هذه المرحلة منذ عهد الرضاعة الأولى، أي مذ أن يطل المولود على عالم النور والهواء والغذاء، وتمتدّ على مدى عامين كاملين، كما بيّن لنا ذلك الخالق العظيم بقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾(1). فمدة العامين هي ما يلزم للرضيع من غذاء كامل، لا يمكن أن يوفره أي غذاء آخر مثل حليب الأم، الذي يكسبه مناعةً في دمه وصحةً في بدنه، فضلاً عما لهذه الرضاعة من آثار نفسية هامة على حياة الطفل، وذلك بما توطّن في نفسه من مشاعر الحنان والحب والعطف، وما تولد في قلبه من أواصر الألفة والعناية والرأفة.. التي قد ترافقه مدى العمر؛ وهذا ما جعل الفقهاء يقولون بأنَّ في هذه الآية أمراً جاء بصيغة الخبر للمبالغة في تقديره، والأمر للوجوب مطلقاً.. وهذا يعني أنه في الأصل، يجب على الوالدات إرضاع أولادهنَّ ما لم يكن هنالك مانع من مرض أو غيره؛ أما إذا أراد الوالدان فطام صغيرهما قبل نهاية العامين، فيجب أن يكون ذلك عن تراضٍ منهما وتشاور، لا أن ينفرد أحدهما بهذا القرار دون الآخر، وهو ما يبيّنه قوله تعالى في الآية الكريمة نفسها: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾، أي فلا إثم عليهما في ذلك بشرط التراضي والتشاور؛ بل ويمكن للآباء أن يسترضعوا أولادهم من مراضع غير الوالدات إذا أرادوا ذلك، مقابل أجر يؤدونه للمراضع، من غير أنْ يكون للأم حق بالاعتراض على هذا التدبير الذي يتخذه الأب لصالح ولدهما. وكل ذلك أيضاً وفقاً لمنطوق الآية ٢٣٣ من سورة البقرة..

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وقد بيّن أهل البيت فوائد الرضاعة خلال الحولين، فعن سعد بن سعد الأشعري أنه قال: سألت الإمام علي الرضا عليه السلام عن الصبي، هل يرضع أكثر من سنتين؟ فقال: عامين.. فقلتُ: فإن زاد على سنتين هل على أبويه من ذلك شيء؟ قال: لا[1]. وروي عن محمد بن العباس عن أبيه عن أمه قالت: نظر إليَّ أبو عبد الله عليه السلام وأنا أُرضع أحدَ ابنيَّ، فقال: يا أم إسحاق لا ترضعيه من ثدي واحدٍ وأرضعيه من كليهما، يكون أحدهما طعاماً، والآخر شراباً[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الرضاع الذي يُنبت اللحمَ والدمَ هو الذي يرضعُ حتى يتضلَّعَ ويتملَّى وينتهي نفسه»[3]؛ وقد حرَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرضاع بعد البلوغ، كما نقل عن جعفر الصادق عن آبائه في وصية النبي إلى عليّ أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا رضاعَ بعدَ فِطام، ولا يُتم بعدَ احْتِلَام»[4].

وخلال هذه الرضاعة، فإنَّ النمو الحسيّ للطفل يتواصل بحيث تنمو الحواس وفقاً للاستعدادات الفطرية، وتأثيرات البيئة.. فقد بيّنت الدراسات السيكوفيزيولوجية أنَّ قدرة الوليد على السمع تكون أقوى من قدرته على النظر، فالتكوين الشبكي للعين لا يكتمل قبل الشهر السادس من عمر الطفل، ولا تبلغ العين قدرتها التامة للقيام بوظيفتها إلاَّ في نهاية العام الأول.

وإذا كان الطفل لا يرى بوضوح إلاَّ في النصف الثاني من عامه

---

(١) الوسائل، ج١٥، رقم ٧ (باب أقل مدة الرضاع وأكثرها).

(٢) المرجع السابق، رقم ٦٩ (باب أنه يستحب إرضاع الطفل من الثديين لا من أحدهما).

(٣) الوسائل، ج١٤، رقم ٤ (باب أنه يشترط في كل رضعة أن يُروى الطفل ويترك الرضاعَ من نفسه).

(٤) المرجع السابق، رقم ٢٥٩٠٠ (باب أنه يشترط في نشر الحرمة بالرضاع).

الأول، فإنَّ حاسة السمع لديه يكتمل نموُّها وهو جنين في شهره الرابع، ولذلك فإن المولود الجديد يستطيع أنْ يسمع عقب ولادته مباشرةً، وهو يستجيب للأصوات العالية أكثر من استجابته للأصوات الخافتة. من هنا قد يكون للسمع أثرٌ أكبرُ في حياة الإنسان من البصر؛ فالطفل الذي يولد كفيفاً (فاقد البصر)، أو يفقد بصره في فترة مبكرة من حياته يمكنه أنْ يتعلّم، وقد يصل إلى مستوى عالٍ فيحصل على أعلى الشهادات في مجال الاختصاص الذي يختاره.. وقد يتقلّد مناصبَ عالية فيكون استاذاً في الجامعة، أو مديراً في مؤسسة، وما إلى ذلك، وفي الحياة أمثلة لا تحصى من هذا القبيل.. هذا في حين أنَّ الطفل الأصمّ لا يستطيع عادةً تعلّم اللغة التي يمكن أن يتم بها تحصيل العلم، وقليلٌ هُمُ الصُّمُّ الذين قدروا على التعلّم بواسطة الآلات ووسائل التعليم الحديثة؛ يضاف إلى ذلك أنَّ العين يمكن أن ترى عدة أشياء دفعةً واحدة، بينما لا يمكن للأذن أنْ تميّز من بين عدة أصوات إلاَّ صوتاً واحداً؛ مما يتبيّن معه الحكمة من ورود كلمة «السمع» قبل «البصر»، في القرآن الكريم، وجعل السمع «مفرداً» والأبصار «جمعاً»، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٣.

وتأتي بعد سن الرضاعة مرحلة الطفولة المبكرة التي قد تمتد من عمر سنتين إلى سبع سنين، حيث يتم خلالها رعاية الطفل في الأسرة واكتسابه العادات والتقاليد من الأهل والأقارب، وتدريبه على ما يحتاج إليه من أعمال في حياته اليومية، وتأديبه للقيام بالأعمال الصالحة. . لأن الطفل في هذه السنوات يكون لديه قابلية للتعود والتدريب والمحاكاة أكثر من الاعتماد على النفس؛ والتدريب الذي يقوم به الأهل والمربون بعد الدخول إلى المدرسة، هو الذي يمهّد الطريق للمراحل القادمة، ويسهّل عملية التعلّم، كما يؤدي إلى نضوج الملكات الحسية والحركية، مع استفادته من الوقت لتمكينه من اكتساب بعض المهارات العملية. وهذا ما عبَّر عنه الشاعر، فقال:

قد ينفعُ الأدبُ الأولادَ في صِغَرٍ ... وليس ينفعُهُمْ من بعدِهِ أدبُ

إنَّ الغصونَ إذا عدَّلْتَها اعتدَلَتْ ... ولا يَلينُ ولو ليَّنْتَهُ الخَشَبُ

ويؤكد خبراء التربية أنَّ الإنسان إلى العادة أميَلُ، وعليها أحرصُ، وبها أشدُّ تمسّكاً؛ ولذلك تعتبر هذه المرحلة الطفولية حساسة جداً، تستدعي من المربين أن يحرصوا خلالها على سلامة البيئة التي ينمو فيها الطفل، ولاسيما خلوها من المساوئ والمفاسد والمنكرات، وجعلها بيئة صالحة لتعويد الطفل على الفضائل والأخلاق الكريمة. ولعلَّ أهم العوامل لذلك في البيئة الإسلامية سماع الأطفال لتلاوة القرآن، وأن نقصَّ عليهم سيرة النبي ﷺ وقصصَ الأنبياء جميعاً كما وردت في القرآن الكريم، لأنَّها أحسن القصص كما يصفها ربُّ العالمين في (سورة يوسف). وقد قال أحد الفلاسفة: «إنَّ أكثر الناس إنَّما أُوتوا في سوء مذاهبهم ـ يعني السلوك

والتصرف - من عادات الصبا إذا لم يتقدمهم تأديبٌ وإصلاح أخلاقهم، وحسنُ سياستهم»؛ ويقول الشاعر:

وَيَنْشَأُ ناشئُ الفِتيان مِنَّا على ما كانَ عوَّدَهُ أَبوهُ
وما دانَ الفتَى بِحُجىً ولكنْ يعوِّدُهُ التديُّنَ أقربوهُ

وقال آخرُ:

إذا اعتادَتِ النفسُ الرِضاعَ مِنَ الهوى فإنَّ فطامَ النفسِ عنه شديدُ

أما إذا ظهرت خصال مذمومة في الطفل لسببٍ أو لآخر، وخاصة في المراحل المبكرة من نموّه، فمن الواجب على الأهل والمربين أنْ يقوّموا سلوكه، لكن من دون ضربٍ أو صراخٍ. . لأنَّ ضرب الأولاد منهيٌّ عنه في الإسلام، وكذلك تحقيرهم، وإهانتهم. وعن أبي مسعود البدري أنه كان يضرب غلاماً له بالسوط، فقال له رسول الله ﷺ: «اعلم يا أبا مسعود أنَّ الله أقدرُ عليك منكَ على هذا الغلام فسقط السوط من يده، وقال: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً؛ وأعتقه لوجه الله تعالى، فقال له رسول الله ﷺ: «أما إنَّه لو لم تفعل لمسَّتْكَ النارُ»[1]. وهنالك عدد من الأحاديث التي تفيد النهيَ عن ضرب المملوكين من الجواري والغلمان، وحتى عن ضرب البهائم بقسوةٍ وشدّةٍ، فكيف بضرب فلذات الأكباد[2]!. . ويروى أنه حين بالَ أعرابيٌّ في المسجد وقام الصحابة ليقعوا به، قال ﷺ: «**دَعُوْهُ! وأَرِيقُوا على بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ ماءٍ، فإنَّما بُعِثْتُمْ مبشّرين ولم تُبْعَثُوا مُعَسّرينَ**»؛ ثم توجّه إلى الأعرابي يبيّن له سوء فعله في بيتٍ للطهارة

---

(١) رواه مسلم، رقم ١٦٥٩.

(٢) انظر صحيح مسلم، رقم ١٦٥٧ و٢٢٤٢.

يُعبد فيه الله تعالى، ناهياً إيّاه عن معاودة الوقوع في مثل هذا الفعل السيّء، ولكن من غير إهانةٍ ولا تشهيرٍ ولا تعنيفٍ له. .

وعن نافع عن ابن عمر، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا تَضرِبُوا أطفالَكُم على بُكائِهِم، فإنَّ بُكاءَهُم أربعةَ أشهرٍ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله. وأربعةَ أشهرٍ الصلاةُ على النبيّ وآلِهِ، وأربعةَ أشهرِ الدعاءُ لوالدَيْه»** [1]. فما أروعَ هذه التربية التي يهدينا إليها رسولُ الله ﷺ، وكم من الآباء والأمهات يجهلون هذه الحكمة الربانية من بكاء أولادهم، فيأخذهم الغضبُ وهياجُ الأعصاب، حتى ليقدم بعضهم على ضرب الولد دونَ أنْ يتحرّى سببَ بكائه الذي قد يكون لألمٍ أو جوعٍ، ودون أنْ يدري أنَّ في هذا البكاء دعاءً له ولوالدته بأنْ يرحَمهما اللهُ تعالى كما يشقيان في تربيته صغيراً! . .

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته كلاماً قيّماً عن مساوئ الشدّة في التأديب والتعليم سبق فيه خبراءَ النفسِ المعاصرين، حيث قال: «ومَن كان مرباه بالعَسْفِ والقهر من المتعلّمين سَطَا به القهرُ، وضيّق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادةً وخُلُقاً. . فينبغي للمعلّم في متعلِّمِهِ، والوالدِ في ولده أنْ لا يستبدّا عليهما في التأديب» [2].

وإذا كان ضربُ الأولاد منهيّاً عنه في الإسلام، فما معنى قول

---

(١) الوسائل، ج١٥، رقم ٦٣ (باب عدم جواز ضرب الأولاد على بكائهم).

(٢) المقدمة، ابن خلدون ، الفصل ٤٠، ص٥٤ .

رسول الله ﷺ: «اضربوهنَّ لسبع»؟.. إنَّ الضربَ لا يعني بالضرورة العقاب المعروف، الذي يكون فيه أذىً أو قسوة، لأنَّ الضربَ لغةً له معانٍ عديدة، وتختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه، ومن تلك المعاني: الضرب باليد والعصا والسيف وغيرها، أو ضرب الدراهم أي صكِّها وطبعها، والضربُ في الأرض، أي الذهاب فيها؛ ومنها أيضاً: ضرب المثل، وهو ذكرُ شيء أثرُهُ يظهرُ في غيره.. ويأتي الضربُ كذلك بمعنى الطبع (character) والسَّجِيَّة (Moral constitution)، مما يستفاد منه أنَّ قولَ رسول الله ﷺ: «اضربوهنَّ لسبع»، لا يعني مطلقاً إنزال العقاب بالأولاد، وإنما التأديبُ والتدريب على الخصال الكريمة، وتشكيل نفسياتهم بالطبائع والسجايا الحميدة حتى يصيروا مثالاً للأدب يُحتذى بهم من أترابهم. ويتوافق هذا المعنى مع حديثه الآخر ﷺ بقوله: «الولدُ سيدٌ سبع سنين»؛ فالسيد هو المتولي للسواد، أي الجماعة الكثيرة، ويقال له: سيد القوم.. ولمَّا كان من شرط المتولي للجماعة أن يكون مهذَّب النفس، ومثالاً تقتدي به الجماعة، قيل لكل من كان فاضلاً في نفسه: سَيِّدٌ.. وهذا ما أرادَه رسول الله ﷺ، أي أنْ نؤدبَ الولد وندرّبَهُ حتى يكون فاضلاً في نفسه، ويضربَ به المثل في تأدبّه قولاً وسلوكاً..

وهذا ما توصَّلَ إليه علماء النفس وخبراء التربية في العصر الحديث، عندما اعتبروا أنَّ من الخطأ ضرب الأطفال وإيذاءهم بغية التأديب؛ ودعوا إلى منع ضربهم سواء في البيت أو في المدرسة، حتى اضطرت بعض الدول المتحضرة إلى إصدار التشريعات التي تجرّم من يقدم على ضرب الأطفال والأولاد.. هذا في الوقت الذي سبقهم فيه الإسلام إلى ذلك بأمدٍ بعيد، إذ أفتى الفقهاء المسلمون في القرون

الماضية، عملاً بأحاديث رسول الله ﷺ بتحريم ضرب الأطفال والأولاد في رسائلهم العلمية، التي تُعدُّ بمثابة مناهج يومية لعمل المسلمين. . وزيادة في الإِيضاح نسوقُ ما قال بعضُهم: شكوتُ إلى أبي الحسن عليٍّ ابناً لي، فقال ﷺ: «**لا تَضْرِبْه واهجُرْهُ ولا تُطِلْ**»[1]؛ وهذا يعني أنَّ الإمام ﷺ ينهى عن ضرب الأبناء، ولكن ينصح بالتأديب النفسي. فعندما يبر الوالدُ ولدَهُ فقد يكون لذلك أثرٌ عميق في نفسية الولد، ولكن عليه ألاَّ يطيل فترة الهجر حتى لا يعتادَ الولدُ عليها، فتنتفي الغاية من هذا النوع من التأديب. . ومن جميل هذا الأسلوب التأديبي لأبي الحسن عليه السلام أنه محاكاةٌ للقرآن الكريم ـ الذي كان معلمهُ ومربيهُ رسول الله ﷺ يلقّنه إياه حرفاً بحرف، وآيةً بآيةٍ ـ في الآية التي يوجِّهُ فيها الله عزَّ وعَلاَ الأزواجَ إلى هجر زوجاتهم في المضاجع، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾[2]، فالنساء اللاتي تخافونَ عصيانهنَّ بادروا إلى وعظهنَّ، وخوّفوهُنَّ عقابَ الله تعالى من هذا العصيان، فإنْ لم يَرعونَ فاهجروهن في المضاجع، تأديباً لهنَّ. . فهذا ما أخذَ به الإمام عليه السلام، لأنَّ شكاية الأب كان من عصيان ابنه له، فدعاه لأنْ ينأى بنفسه عنه فترة من الزمن، حتى يدرك هذا الابنُ مدى خطورة عصيانه لأبيه. .

هذا ويرى المربون المسلمون أنه إذا ما أخلَّ الطالبُ بواجباته، أو ظهر شذوذ في سلوكه فلا يجوز التشهير به علناً ومباشرة، فقال بعضهم: «إذا رأى المعلم من أحد طلبته مكروهاً ولحظ في سلوكه اعوجاجاً فلا يصرّح له بذلك مباشرة، بل يعرّض به في سياق كلامه

(١) بحار الأنوار، ج٢٣، ص١١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

مع الطلبة جميعاً كاشفاً عن وجه المذمة في المكروه إجمالاً، فتحصل بذلك الفائدة المرجوة»[1].

كما ينصح المربون في حال سوء التصرف أو قول غير لائق من الولد، اتخاذ الخطوات التالية:

١ ـ المحاسبة الفورية وعدم التأجيل: فقد تلجأ بعض الأمهات إلى تهديد الولد بوالده، كأن تقول له: سوف أشكو تصرفك أو قولك إلى أبيك، أو كأنْ تقول له: سترى حين يعود أبوك إلى البيت!.. وهذا يؤدي إلى:

أ ـ كراهية الولد لأبيه.

ب ـ تمادي الولد في فعله في الوقت الذي يسبق حضور أبيه.

ج ـ تعزيز السلوك الخاطئ لدى الولد.

لذلك كان من حسن التربية المحاسبة الفورية لأنها تؤدي إلى معالجةٍ أكثرَ فعالية، ويمكن أنْ تضمن عدم تكرار الفعل السيئ..

٢ ـ محاسبة الولد على خطأه على انفراد، وبمعزل عن بقية الأهل أو الأقارب أو الأصدقاء، تلافياً لإِحراجه وتجنّباً للتشهير به.

٣ ـ النظر إلى عينيه مباشرةً، والكلام معه بهدوء، ولكن بنبرةٍ حازمة تفهمه ضرورة الإقلاع عن خطأه.

٤ ـ ينبغي على المؤدِّب أن يذكّر الولدَ بأنه يحبُّهُ ولكنه يكرَهُ هذا السلوك الذي أتاه، مع الإشارة إلى مساوئه والنهي عن معاودته.

---

(١) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، عيتاوي، المرجع السابق، ص٨٤ و٨٥. (عن: أحوال المعلمين وأحكام المتعلّمين، ص٥٤).

أي إنه يُفهم الولد أنَّ عمله هو موضع اللوم والنهي، لما قد يجلب له ولأهله من النقد والمذمَّة؛ وهذا ما يهدينا إليه القرآن الكريم، أي أنْ نذمَّ أعمالَ الناس وليس أشخاصهم.. ومثالُهُ ما خاطب به لوطٌ عليه السلام بني قومه الذين كانوا يأتون أشدَّ الفواحش، ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾[1] إذ قال لوط عليه السلام لهم إني لعملكم هذا من المبغضين، ولم يقل: إني لكم من القالين..

ويتفرع من ذلك عدم وسم الولد بالفعل المشين الذي قام به؛ فلا يُقالُ له: يا كذَّاب، يا سارق، لأنَّ ذلك يؤدي إلى تلازم بين الفاعل والفعل وقد يعزز إمكانية تكرار الفعل. كما لا يوصف الولد بالحيوان، كأن يقال له: يا حمار لماذا فعلت كذا.. يا كلب لماذا قمت بكذا.. لأن ذلك يشعره بالمهانة والنقص، لإنزاله من مرتبته الإنسانية إلى مرتبة البهيمة العجماء، وهو يرى أنَّ أباه أو مؤدِّبه يريد أن يقودَهُ كما تُقادُ هذه البهائم..

ومن حق الولد في هذه المرحلة اللعب والانطلاق بحرية، نظراً لما في ذلك من فائدة له من عدة وجوه: حركية، ذهنية واجتماعية؛ ويجب الاهتمام باللعب البنَّاء الذي يكسب الولدَ مهارات جديدة، قد تساعد على تنمية قدراته الحركية والذهنية، كما أنَّ الذهاب بالولد إلى الحدائق العامة والساحات الواسعة، من الأمور التي تتيح له اللعب مع أترابه، إذ في مشاركته اللعب معهم ما ينمّي تواصله مع الآخرين، والحسَّ الاجتماعي لديه، فضلاً عن أنَّ الإكثار من النزهات إلى

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٦٨.

البراري وعلى ضفاف الأنهار والانطلاق في الأجواء الفسيحة، ما يجعل الولد يشعر براحة نفسية عارمة تظهر في ملاحقته الفراشات ومحاكاة زغاريد العصافير، والهرب من النحلة والزنبور والانكباب على مراقبة النملة، وما إلى ذلك من الأشياء التي تجذب انتباه الأولاد، بحيث لا يكون لعبُهُ وانطلاقه مجرد ترفٍ فقط، بل ويعلّمانه كثيراً من المعاني والمفاهيم التي تترسَّخ في ذهنه، خصوصاً إذا ما أتيحَ له خلال تلك الرحلات، من يشرح له خصائص ما يرى من الحشرات والأشياء، ويستحثُّه على محاكاتها في دأبها والمواظبة على سعيها إلى رزقها.. وإنَّ تشجيع الطفل على اللعب والانطلاق في الأجواء الفسيحة، من شأنه أن ينمّي لدى الطفل الميول التي قد ينتفع بها في سن البلوغ؛ بينما حرمانه من ذلك قد يؤدي إلى إماتة قلبه ووقف نموّ ذكائه وتنغيص العيش عليه، كما قال الإمام الغزالي: «يؤذن للطفل بعد الانصراف من الكُتَّاب، أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الكتب، بحيث لا يتعب في اللعب.. فإنَّ منعَ الصبيِّ من اللعب، وإرهاقَهُ إلى التعلّم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغّص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً. وينبغي أنْ يُعلَّم طاعة والديه ومعلّمه ومؤدّبه، وكل من هو أكبر منه سناً من قريبٍ وأجنبيٍ، وأنْ ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأنْ يترك اللعب بين أيديهم»[1].

وقد أدرك المربون المسلمون «أنَّ اللعب هو المدخل الوظيفي لعالم الطفولة، والوسيط التربوي الفعال لتشكيل شخصية الفرد. ولهذا

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج٨، ص١٤٤٥.

كان الرسول ﷺ يتيح الفرصة لحفيديه أن يلعبا مع أترابهما من أطفال المسلمين، وكان يشاركهما اللعب»[1]، بل لقد كانت حياة رسول الله ﷺ مثالاً رائعاً في التربية، لما كانت تحفل به من اهتمامٍ بالأطفال، وما كان يبديه حيالهم من عطف وحنان. وقد برزت مشاعره ﷺ في حبه للأطفال من رعايته لحفيديْه الحسن والحسين عليهما السلام واهتمامه الشديد بهما؛ وقد استدلَّ المربون على ذلك بالروايات المأثورة عن نبي الرحمة ﷺ:

عن أسامة بن زيد قال: «طرقت باب النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة، فخرج وهو مشتمل على شيءٍ، لا أدري ما هو. فلمَّا فرغت من حاجتي، قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟ فكشفَهُ فإذا هو حسنٌ وحسينٌ على وركَيْهِ، فقال ﷺ: هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللَّهمَّ اني أُحبُّهما، فأحبَّهما وأَحِبَّ من يحبُّهما».

وعن البراء قال: «رأيت النبي ﷺ واضعاً الحسنَ بنَ عليٍّ على عاتقه، وهو يقول: «اللَّهُمَّ إنّي أُحبُّهُ فأحبَّهُ».

وعن أنس بن مالك قال: «سئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ أهلِ بيتك أحبُّ إليك؟ قال: الحسن والحسينُ. وكان يقول لفاطمة: ادعي ابنيَّ فَيشمُّهُما، ويضمُّهُما إليه».

وعن أبي بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسنُ والحسينُ وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من على المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٢، ص٤٨٣.

الله العظيم ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.. فالمعاملة تلك من الرسول الأعظم ﷺ لحفيديه، تدلُّ على عمق الحب والحنان والعطف والرعاية التي كان يحوطهما بها، ومثل هذه المشاعر من الضرورة أن يشعر بها كل طفل لما توفر له من أمانٍ نفسي، وتعزّز ثقته بنفسه، فتنمو شخصيته نموّاً سليماً..

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنه يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار أمر مكافأة الولد عند قيامه بفعلٍ حسنٍ أو اكتسابه مهارةً جديدة، على أن تكون المكافآت أو الحوافز معنوية في أكثر الأحيان، لأن الإفراط في الحوافز المادية قد يؤدي إلى تحول المكافأة إلى هدف أو نوع من «الرشوة»، بحيث يمتنع الولد عن القيام بالأعمال الحسنة إذا لم يوعدْ بالحصول على مالٍ أو شراء شيءٍ يريده، وما إلى ذلك من الوعود المادية.. ولا يجوز أن يوعَدَ الولدُ بمكافأة ما ولا يوفي من وعَدَهُ بوعده، لأنَّ الولدَ يعتبر ذلك نوعاً من الكذب عليه من شأنه أن يثبط همته. قال رسول الله ﷺ: «من قالَ لصبيٍّ: هَاكَ (أي أَقبِلْ وخُذْ شيئاً) ثُمّ لَمْ يُعْطَهْ فهِيَ كِذْبَة»[1]. فإذا علمنا أنَّ الكذب مذموم في الإسلام، وأنه شعبة من شعب النفاق ـ والعياذ بالله ـ أدركنا خطورة الكذب على الولد، الذي قد يشجعه على أنْ يكذبَ كما كُذِبَ عليه..

وهكذا يتبين لنا ما للتربية من أهمية في مرحلة الطفولة المبكرة التي تمتد من عمر السنتين إلى السبع؛ حيث تتم رعاية الطفل جسدياً ونفسياً ليبدأ في الاعتماد على نفسه، ولاسيما بعد ذهابه إلى المدرسة، حيث لا يجدُ مِنْ حوله الأهل الذين يتحفونه بكل ما يرضيه، بل يواجه

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، رواه عن أبي هريرة، رقم ٩٤٦٠.

وجوهاً جديدة من المربين والرفاق، الذين يملون عليه ضرورة التكيّف مع الوضع الجديد في حياته.. ومن هنا كانت أهمية التعاون ما بين الأهل والمربين على تركيز مشاعر الطفل بأهمية وجوده، وبداية تكوين عالمه الخاص في المأكل والمشرب والنوم واللعب، والتعبير عن حاجاته ومتطلباته، وما إلى ذلك من المستلزمات التي تؤهله لخوض غمار المرحلة التالية من نموّه الجسدي والفكري..

المرحلة الثانية: مرحلة التعلم والتثقيف: وهي التي أشار إليها رسول الله ﷺ بحديثه «علموهنَّ لسبع»، وبحديثه الآخر عن الولد بأنه: «وخادم سبعَ سنين».. وتمتد هذه المرحلة وفقاً للحديثين الشريفين من سن السابعة إلى الرابعة عشرة.. والحديثان يدلان على أهمية هذه المرحلة لناحية تلقي الولد العلم والمعرفة وفقاً للبرامج المقررة في المناهج التعليمية، ومقدار طاقته الذهنية على الاستيعاب، ومن ثمَّ تأديبه بترشيد سلوكه في القول والعمل..

ولا يحتاج قوله ﷺ: «علموهن لسبع» إلى تفسير أو تأويل، لأنَّ من أوليات واجبات الأهل تعليم أولادهم في هذه المرحلة.. وأما قوله عن الولد بأنه «خادم سبعَ سنين» فلا يعني الخادمَ الذي يؤجر على عمله في منزل أو في إدارة عامة أو مؤسسة أو شركة، لأنَّ الولد في هذه المرحلة لا يجوز أن يسمح له بالعمل والخدمة سواء في بيته أو عند الغير نظراً لانصرافه إلى تحصيله العلمي والثقافي، بحيث لا ينطبق عليه إلاَّ معنى أنه خادم لنفسه، وذلك بملازمته لصفه وللمعلمين والمربين، والخضوع لهم وطاعة أوامرهم وإنفاذ تعليماتهم، لا على سبيل الخضوع والقهر والشدة، وإنما على سبيل الامتثال والاحترام، والقبول بالتوجيه والإرشاد، وتلقي العلم والمعرفة وأصول التأدّب

والتصرّف.. إذ بمقدار ما يكتسب من المعلومات وما يستفيد من التوجيهات ويتقبل من النصائح والإرشادات، بمقدار ما يكون خادماً لنفسه في هذه المرحلة. وهذا ما يتوافق والحديثين عن رسول الله ﷺ، ويوفق بينهما.. وتسمى السنوات الأولى من هذه المرحلة (ما بين ٧ ـ ١٠ سنوات) بسن التمييز، حيث تكون مدارك الولد قد بدأت بالتفتح على الحياة، وظهرت لديه القدرة على التميز بين المعاني الفكرية والأشياء الحسية، ومقاربة عملية ربط الواقع بالمعلومات التي يتلقّاها. وإلى هذه القدرة على التميز يشير رسول الله ﷺ بقوله: **«مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ وهُمْ أبناءُ سَبْعِ سنينَ، واضْرِبوهُمْ عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقُوا بينهم في المضاجع»**[1].

إنَّ هذا الحديث الشريف يتناول أكثر من جانب في النموّ السيكوفيزيولوجي للولد..

فهو من ناحية يبين وجوب تعليم الولد كيفية القيام بالصلاة، وما يترتب على القيام بها من نظافة وطهارة ووضوء، وهو في سن السابعة، وذلك لأهمية الصلاة في حياة المسلم، ولأنها عمود الدين والمنطلق للقيام بالطاعات والفرائض الأخرى. فعن ابن مسعود: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيُّ؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله[2]. لا، بل وشدَّد الرسول الأكرم على عدم ترك الصلاة بقوله: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»[3]، وبقوله: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر

(١) سنن أبي داود، باب الصلاة، ص٢٦.
(٢) البخاري، باب مواقيت الصلاة، رقم ٥..
(٣) صحيح مسلم، باب الإيمان، رق ١٢٤.

جهاراً»[1]، ولذلك كان فَرْضاً على الأهل أن يوجّهوا عناية أولادهم إلى الصلاة في سن مبكرة، حتى يعتاد الولد عليها منذ الصغر، فتصبح عنده عادةً مستقرةً. وهذا يسري على جميع القواعد الأخلاقية والعادات الفاضلة والصفات الحسنة؛ والتوجيه يعني النصح والإرشاد واستخدام أساليب ووسائل التشجيع والثواب؛ وفي ذلك ما فيه من تعليمٍ للمفاهيم الصحيحة، التي تمكّن من التمييز بين قيم الخير والصواب والعدل، وما يضادّها من مفاهيم الشر والخطأ والظلم.

ومن ناحية أخرى يأمر الرسول ﷺ بضرب الأولاد على ترك الصلاة وهم في سن العاشرة، والضرب هنا ليس معناه القسوة والشدة، بل الضرب التأديبي الذي يشعر الولد بإهماله لأهم القيم الدينية والأخلاقية في حياته.. فعندما يكون التوجيه للقيام بالصلاة صحيحاً، ثم متابعة هذا التوجيه على مدى ثلاث سنوات، ما بين السابعة والعاشرة، فإنَّ مخالفة الولد له عند أول بدء سن التمييز إنما يعني العصيان الذي يستحق التأديب بالضرب غير المبرّح أو المؤذي، وهذا من منطلق قرآني بحت، أمَرَ به الله تعالى لتأديب النساء على نشوزهنَّ ـ أي عصيانهنَّ ـ وذلك بقوله المبين: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[2]، إذ كما رأينا في تطبيق أحكام هذه الآية الكريمة على الولد غير المميّز بألاَّ يعاقب بالضرب، بل بالهجر لفترة وجيزة، فمن باب أولى أن يعاقب الولدُ المميّز بالضرب التأديبي المبرح على عصيانه

(١) الموطأ، باب الطهارة، رقم ٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

في ترك الصلاة، كما تعاقب المرأة ـ لكونها مميّزة ـ على عصيانها بالضرب التأديبي الذي لا يترتب عليه أذىً وقسوة. .

وضرورة هذا النوع من التأديب تتأتّى من الخوف من ألاّ ينسحب عصيانُ الأمر بالصلاة بآثاره على مختلف الجوانب الأخرى في سلوك الولد، بما قد يؤدي إلى انحرافه، واستمراء العادات السيئة والتصرفات الذميمة. . إذ في سن العاشرة يبدأ إدراك الولد بالنضوج، ونموّ قدرته على الفهم، كما يقوى شعوره بفرديته وشخصيته، وميله إلى الاعتماد على نفسه. . من هنا يأتي دور التربية باعتماد أساليب التأديب إذا ما أبدى الولد ميولاً في مخالفة السلوك القويم، وضرب عرض الحائط بقيم الدين والمجتمع، على أن يكون التأديب حكيماً وواعياً، وهدفه مراعاة نفسية الولد ومصلحته. . فلا تعتمد معه أساليب ووسائل الشدة والقسوة أبداً، لأن آثارها قد تكون سيئة جداً على حياته بما يتجمَّع في نفسه جرّاءها من مشاعر التحدّي والكراهية، والميل إلى العنف كردّ فعل على القسوة، أو الميل إلى الضعف والخجل كاستجابةٍ للرضوخ والقهر. .

ويبدو أن «معاقبة» الولد كانت موضع نظريات كثيرة لدى علماء التربية، ولكن غلبت في الغرب وفي الدول المتحضرة الدعوة إلى عدم معاقبة الأولاد، نظراً لما تؤدّي إليه العقوبات من أضرار بشخصيته وآثار سيئة على حياته. غير أنَّ ما شاع في صفوف الشباب من استهتار بالقيم الأخلاقية والتفكر للالتزام الديني والانحراف في الميول والأهواء. . كل ذلك جعل كثيراً من خبراء التربية يقنعون بضرورة إعادة النظر بأساليب التأديب، ومنها العقاب الذي يمكن استخدامه

كوسيلة وقائية ورادعة، ولكن بطرق حكيمة ومشبعة بالحب والحنان، أي بما يجعل الولد يدرك الخطأ، ويشعره بضرورة تركه أو عدم الرجوع إليه مرة أخرى.

وقد نصح المربون المسلمون باعتماد الحكمة في التربية، فقال ابن سينا في تأديب الوالد لولده: «... فينبغي، لغُنْم الصبيّ، أن يجنّبَهُ أبوه مقابح الأخلاق، وينكّبَ عنه معايبَ العادات بالترهيب والترغيب، والإيناس والإِيحاش، وبالإعراض والإقبال، وبالحمد مرةً وبالتوبيخ أخرى ما كان كافياً. فإن احتاجَ إلى الاستعانة بالضرب لم يحجم عنه. وليكن أول الضرب قليلاً لا موجعاً، كما أشار إليه الحكماء من قبلُ، وذلك بعد إرهاب الولد شديداً، وبعد إعداد الشفعاء. فإنَّ الضربة الأولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها، واشتدَّ منها خوفه، وإذا كانت خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي، فلم يحفل به». فالمطلوب هو الضرب غير المبرح الذي لا يخدش جلداً ولا ويكسر عظماً. أما الأمر الثالث الذي تضمَّنه حديث رسول الله ﷺ فهو التفريق بين الأولاد في المضاجع.. فقد أدرك الرسول الأعظم ﷺ بما لديه من بُعد نظرٍ وحكمةٍ تأديبية، ما للتفريق بين الأخوة الذكور والإناث في المضاجع ـ منذ سن مبكرة ـ حددها ﷺ بالعاشرة ـ أي قبل سن البلوغ الجنسي ـ من أهمية في حياة الأولاد، وذلك لعدم الاطلاع على عورات بعضهم وتلافي الاحتكاك فيما بينهم، ما قد يثير الشهوة الجنسية، حتى في هذه السن، ويؤدي إلى مخاطر لا تُحمَدُ عُقْباها..

وليس منكراً أن يعرف الأولادُ التكوين الخلْقي للذكر والأنثى، لا بل على الأهل والمربين أن يجعلوا الأولاد يلمّون بهذا التكوين،

لكن بأسلوب تعليمي رصين، يشعر معه الأولاد باحترام الخلق الإلهي، وضرورة المحافظة على الحشمة والأدب في مصاحبة الأولاد لبعضهم. .

كما أنَّ من شأن التفريق بين الأولاد في المضاجع (في الأسرَّة، أو في غرف خاصة) أن يعوّدهم على اتباع منهجية استقلالية في الحياة، مع مراعاة حقوق الآخرين الشخصية، واحترام هذه الحقوق. فضلاً عما يؤدي إليه هذا التفريق في سن مبكرة، من تنمية لحسن الأخلاق، الذي يبعد عن الاعتياد على كشف العورات والتهتُّك والتفتُّح الجنسي قبل أوانه، وما قد ينشأ عن ذلك من أضرار تلحق بالفرد والمجتمع على حدٍّ سواء. لذلك نجد أنَّ العالم كله بات يدعو إلى تخصيص غرف للصبيان مستقلةٍ عن غرف البنات، فضلاً عن استقلالية الأهل في غرفة نومهم حتى يكون الأولاد بمنأى عن أي جوٍّ للمشاحنات التي قد تحصل بين الأبوين، وعن التأثر بالعلاقات الجنسية التي يمارسانها عادةً في الحياة الزوجية. وإذا تعذر ذلك لصغر البيت، فليفرق بينهم بنوعٍ من الستائر التي تحجبهم عن بعضهم البعض. وكل هذه التدابير أو غيرها للتفريق من باب الوقاية، إذ إنَّ الولد في هذه المرحلة يتهيّأ لسن البلوغ فيزيولوجياً ونفسياً. . وقد يظن أنَّ الأولاد في هذه السن صغار ولا يثارون جنسياً، وهذا من الظن الخاطئ كما ذهب إلى ذلك العلماء المعاصرون الذين يؤكدون على تأثر الطفل بالمثيرات الجنسية، وانعكاس هذه المثيرات على تفكيره وسلوكه سلباً، لا بل قد يؤدي ذلك إلى انشغال باله بهذه الأمور، مما يدفعه إلى ممارسة العادة السرية لمجرد البلوغ، أو إلى ارتكاب حماقات تقوده إلى الانحراف، والعياذ بالله، مما يجعل من التدابير

الوقائية ضرورة للحد من مساوئ الاختلاط، بين الصبيان والبنات. وهذا دفع مراكز أبحاث تربوية عديدة في الغرب للدعوة إلى الفصل بين الجنسين في الفصول الدراسية، بعدما تبين لهم أنَّ الاختلاط قد يضر أكثر مما يفيد، لأنه يؤدي إلى انشغال الأولاد بأمور بعضهم، ويلهيهم عن التحصيل العلمي.. والحديث النبوي الشريف عن التفريق بين الأولاد في المضاجع لا يعني فقط التفريق بين الذكور والإناث، بل وبين الأناث أنفسهن، والذكور كذلك. بل ويفرق بين الصبيان في سن مبكرة جداً، كما روي عن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصبيُّ والصبيُّ، والصبيّة والصبيّ، والصبيَّةُ والصبيَّةُ؛ ويفرق بين الصبيان في المضاجع لست سنين»[(١)]. وعن التفريق بين النساء والصبيان، عن الإمام جعفر عن آبائه قال: «يفرق بين النساء والصبيان في المضاجع لعشر سنين»[(٢)].

ومن آداب السلوك في هذه المرحلة ما أمَرَ به العليمُ الحكيمُ من أن يستأذن الأولاد، قبل سن البلوغ، في الدخول على أمهاتهم ونساء آبائهم في أوقات معينة، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(٣)]. وهذا الاستئذان ليس من آداب السلوك وحسب، بل ويشكل نوعاً من الوقاية للأطفال والأولاد بعدم

---

(١) الوسائل، ج١٤، رقم ١٢٨ (باب الحد الذي يفرق فيه بين الأطفال في المضاجع).

(٢) المرجع السابق، رقم ٢٩ (باب التفريق بين النساء والصبيان في المضاجع).

(٣) سورة النور، الآية: ٥٨.

الاطلاع على عورات الأهل في تلك الأوقات الحرجة، التي يخلدون فيها إلى الراحة، أو إلى الانفراد ببعضهم..

ومن أساليب الوقاية أيضاً في هذه المرحلة، أن تكون البيئة المنزلية نقية وخالية من أي شيء قد يُسبب الإثارة في نفوس الأولاد، كالمجلات التي تنشر الصور الخلاعية، والمنشورات التي تثير المشاعر الجنسية، والفضائيات التي تبث مشاهد الميوعة والتخنّث والممارسات الجنسية ـ بما فيها أحياناً من شذوذ ووقاحة ـ والأفلام التي تتحدّث عن العنف والجريمة والإرهاب، وما إلى ذلك من المشاهد المؤذية للصغار، والكبار أحياناً، بحيث يجب على العائلة المسلمة أنْ تبتعد عن كل تلك المثيرات، وأنْ تهتم عبر الوسائل السمعية والبصرية بالبرامج التربوية الإصلاحية، والمحطات المخصصة لتلاوة القرآن الكريم وتفسيره، ونشر سيرة الرسول الأعظم وسائر الأنبياء والمرسلين، أو تلك التي تهتم بالبرامج التثقيفية، ولاسيما تلك التي تتناسب وذهنية الأولاد ومعدلات أعمارهم، وما إلى ذلك من وسائل التعليم والتثقيف والتأديب والتربية..

أما بالنسبة إلى البيئة الخارجية وما فيها من مظاهر الفساد والخلاعة، أو المظاهر التي تنافي الآداب العامة وتخدش الحياء وتؤذي الوجدان، فلا قبل للأهل بشأنها إلاَّ بتوعية أولادهم على ما تمثل تلك المظاهر من انحطاط أخلاقي واجتماعي ومن عوامل مساعدة على الانحراف، حتى تتكون لدى الأولاد أفكار واضحة عنها، بحيث يأنفون بأنفسهم عن التأثّر بها..

وأخيراً لا بدَّ من تبيان الميزة التي تفرَّدَ بها الإسلام على غيره من الأديان والمناهج الأرضية كافة، عندما أوجب على المسلمين وجوباً

كفائياً تحصيل العلوم التي تنتظم بها حياتهم، كما أوجب عليهم وجوباً عينياً التفقه في شؤون دينهم، فإن لم يستطع المسلم ذلك بجهده واستطاعته، فعليه أن يسأل أهل الذكر من العلماء والفقهاء حتى يصبح لديه إلمامٌ كافٍ بتعاليم الشريعة السمحاء، التي أنزلها الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإشاعة الأمن والسلام وقواعد العدل والانصاف في كافة أقطار الأرض.

«ذهب القابِسيُّ إلى أنَّ تعلم الصبيان واجبٌ، واستدلَّ عليه بأنَّ المعرفة واجبة بنص القرآن الكريم، كما أنها واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة. وأنَّ الوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والصلاة، فإن لم يتيسر له أن يعلّمه بنفسه، فعليه أن يرسله إلى الكتَّاب لتلقي العلم بالأجرة. فإن لم يكن قادراً على نفقة التعليم فآباؤه ـ أي أجداد الولد وأعمامه ـ مكلَّفُون به، وإذا عجزوا عن ذلك فإنَّ المعلم يعلمه احتساباً أو يأخذ أجرته من بيت المال»[1].

«وقد تركزت هذه النظرية عند فقهاء المذاهب فأفتوا بأنَّ طلب العلم فرض على جميع المسلمين. وتجدر الإشارة إلى شيء مهم في عملية التعليم، وهو: في أي سنة يبدأ تعليم الطفل في المدرسة؟ ويأتي الجواب فيما نقله يعقوب بن سالم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام رائد الحركة العلمية والفكرية في الإسلام، قوله: «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلم الكتاب سبع سنين، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين»[2].

(١) تربية الطفل في الإسلام، د. حسن عبد العال، منشورات المقاصد، بيروت، ص٩١ و٩٢.
(٢) الطفل في ضوء التربية الإسلامية، المرجع السابق، ص١٦١؛ وسائل الشيعة، ج٧، ص١٩٤، والوسائل ج١٥، رقم ٨٢.

المرحلة الثالثة ـ مرحلة المرافقة والتجربة: وهي التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: «رافقوهنَّ لسبع»، وفي الحديث الآخر: «ووزير سبع سنين»، أي الولد... وتمتد هذه المرحلة وفقاً لما قاله رسول الله ﷺ في الحديثين: من سن الرابعة عشرة إلى سن الحادية والعشرين..

وتتميز هذه المرحلة بما يعرف بسن المراهقة، التي تنقل كلَّ إنسان إلى طور جديد يختلف عما سبقه من النمو جسدياً وفكرياً ونفسياً، وذلك بالبلوغ الذي يدل على النضج الجنسي. وهذا البلوغ، وإنْ كان حدوثه يختلف بين فردٍ وآخر، إلاَّ أنه بوجهٍ عام، يكون لدى الفتى بين سن الثالثة عشرة والخامسة عشرة، وقد يتأخر لدى البعض إلى سن أبعد قد تصل إلى الثامنة عشرة. بينما قد تصبح الفتاة بالغة في سن مبكرة منذ التاسعة من عمرها، إلاَّ أن متوسط سن البلوغ عند الفتيات يكون في الثالثة عشرة. وقد اعتبر رسول الله ﷺ أنَّ السنَّ التي يعوَّل عليها للبلوغ عند الرجال هي الخامسة عشرة، لما روي عن ابن عمر، قال: «عُرِضْتُ على النبي ﷺ في الجيش وأنا ابن أربعة عشر عاماً فلم يجزني أو يقبلني، فعرضتُ عليه وأنا ابن خمسة عشر فأجازني، وألحقني بالجيش»..

ونظراً لتأثير النمو الجنسي في هذه المرحلة، فقد ذهبت مدرسة التحليل النفسي كما رأينا، إلى أنَّ النمو الجنسي يبدأ منذ الطفولة ويمر بمراحل مختلفة من مثل مرحلة مص الأصابع، والمرحلة الشرجية حتى يبلغ غايته في طور المراهقة. بينما وفقاً للمفاهيم الإسلامية، فإن بلوغ النمو الجنسي يبدأ بالاحتلام، ومن علاماته عند الذكور: ظهور الشعر على العانة وفي اللحية والشارب وتحت الإبطين، وتغيّر الصوت وميله إلى الغلظة، أما عند الإناث فإنَّ البلوغ يبدأ بأول

حيض، وقد يرافقها أو يتبعه رويداً رويداً شعر العانةِ والإبطين، ونمو الصدر والثديين، واتساع الحوض والردفين، واستدارة الفخذين، وتغير الصوت وميله إلى الانخفاض والعمق.

وفي هذه المرحلة التي يحدث فيها البلوغ يكون النمو العقلي عند الإنسان قد بلغ حداً يجعله مسؤولاً من الناحية الشرعية عن أعماله. عن علي عليه السلام أنَّ النبي ﷺ قال: «رُفِعَ القلمُ عَنْ ثلاثةٍ: عَنِ النائِمِ حتَّى يستيقظَ، وعَنِ الصَّبيّ حتَّى يحتَلِمَ، وعَنِ المَجنُونِ حتَّى يَعْقِلَ»[(1)].

وبالإضافة إلى التغيّرات الفيزيولوجية التي تظهر على الإنسان في سن المراهقة، فإنَّ مشاعره وأحاسيسه تتبدل أيضاً، ولاسيما في ميله نحو الجنس الآخر، وفي شعوره بازدياد أهميته في المجتمع، وفي نزعته الفردية واعتقاده بأنه على صواب في كل ما يقوم به، بل وبشعوره بأنه فريد في العالم، وأنه محور العالم بأسره. وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله للآباء: إنَّ الولدَ «وزيرٌ سبعَ سنين». . فالوزير هو المعاون الذي يؤازر الآخر ويعينه على أمره، بدليل سؤال النبي موسى عليه السلام ربَّه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[(2)]. والموازرة ـ لغةً ـ المعاونة، يقال: وازرتُ فلاناً موازرةً، أي أعنته على أمره. بما يعني وفقاً لحديث رسول الله ﷺ أنَّ الشابَ في تفكيره بمحورية شخصيته علينا أنْ نأخذهُ بالحلم واللين، فنشركه في شؤون العائلة بكل شيءٍ، حتى بالتشاور معه حول كيفية تربية أخوته الذين هم دونه سناً، كما نحاوره بشأن تحصيله العلمي، وما يريد أن يكون عليه عند انطلاقه في الحياة، بل ونحاول أنْ ننتقده

(1) سنن أبي داود، الحديث الرقم ٣٨٢٥.
(2) سورة طه، الآيات: ٢٩ ـ ٣٢.

في بعض تصرفاته، ولكن على سبيل النصح وترشيده نحو السلوك الأفضل، كما نشجعه على الصفات الحسنة لديه وعلى تنميتها، ونحثه على الإكثار من المزايا الحميدة، وكل ذلك دونما مبالغة في النقد الذي قد يشعره بشيءٍ من الإحباط، أو مبالغة في الحمد الذي قد يشعره بالتكبر والخيلاء.. وبذلك تتحقق الموازرة أو المعاونة المتبادلة بين الشاب وأهله، بروح الانفتاح والاعتدال والتوافق التي يدعو إليها الإسلام، ليس في أمور التربية وحسب، بل وفي كل شيءٍ في الحياة، وفي ظل هذه المنطلقات والمفاهيم.

وتتبدَّى الحكمة في فهم المراهق، ومعرفة قيادته قيادةً رشيدةً تأخذ بيده إلى الاعتدال في التصرف والسلوك، والأناة في المؤاخذة والانتقاد، حتى يقطع هذه المرحلة دون التواءات نفسية، وتكديس عقد بالذنب. وفي ذلك ما ينمّي شخصيته، ويجعله معتدلاً متّزناً قادراً على أن يشق سبل حياته بكل ثقة واعتزاز، بعيداً عن الشطط أو الزلل.

وقد شبه بعض علماء المسلمين النفس بالجسم: فإنْ كان الجسم متناسقاً في أعضائه متزناً في تكوينه، فإنه يكون سليماً من الأمراض، أما إذا اختل عضو فيه فإنَّ الجسم يفقد توازنه ويصبح سقيماً. وهكذا النفس فإنَّ اعتدالها في الأخلاق والصفات دليل على صحتها، بينما انحرافها دليل على سقمها. وإذا كان شفاء الجسم يحتاج إلى المعالجة وإزالة المرض، فكذلك النفس فإنها تحتاج إلى تطهيرها من الشوائب وإزالة الرذائل، حتى تعود إليها سلامتها..

من أجل ذلك يؤكد علماء النفس على أهمية مرحلة المراهقة، واعتبارها من أخطر المراحل التي يمر فيها الإنسان في نموّه الجسدي

والنفسي والفكري، لأنَّ في نهايتها يتقرر المستقبل الذي ينتظره، بما يكونُ قد تكوّن لديه من وعي ونضوج، أو بما يكون قد حمل من أعباء نفسية تبعده عن الحياة الطبيعية.. ولذلك ينصح الرسول ﷺ في الحديث الشريف: «ورافقوه لسبع»، فهذه المرافقة هي نفسها التي تعني الموازرة، أي معاونة الشاب والشابة في مختلف اهتماماته، بل وفي صقل أفكاره ومشاعره.. وخيرُ رفيق له في هذه المرحلة الأهل، بما يريدون له من خير واستقامة وصلاح، وبما يعملون على إبعاده من شر وانحراف وفساد.. فالعاطفة الأبوية والأموية غذاء روحي للأولاد، تبدأ منذ ولادتهم ولا تتوقف عند مرحلةٍ أو زمانٍ، وعلى الأهل أن يشعروا دائماً أولادهم بهذه العاطفة، وأن يجعلوها حافزاً لإبقاء الأولاد مطمئنين إلى جوارهم، وإشعارهم بأنهم ليسوا آباء وحسب، بل وأصدقاء لهم في الحياة، لا تباعد بينهم في المشاعر والعلاقات، ولا تضاربَ بينهم في التطلعات والأهداف.. فالفرد للعائلة، والعائلة للفرد، والكل جماعة واحدة على ما فيه خير الجميع ومصلحته..

وعندما يكون الأهل على هذا المستوى من الرقي الفكري والشعور، فلا شيء يحول بينهم وبين أن يكونوا رفقاءَ خيرٍ لأبنائهم.. ولكن الخوف من الرفقاء خارج البيت الأسري، ومن البيئة الاجتماعية التي يختلط فيها الأبناء مع غيرهم من الشباب والفتيات، إذا لم يكونوا من أهل الدين والخلق، إذ لا بدَّ أنْ يتأثر الأصحاب ببعضهم. وتكمن المشكلة إذا ما كان الصاحب قرين سوءٍ.. فكم من شابٍّ صالحٍ أغواه رفاقه على ارتكاب الرذيلة وتعاطي المسكرات والمخدرات، وكم من فتاةٍ صالحة جرَّتها صويحباتها إلى الميوعة والانغماس في اللذة، حتى

باتت لديها عناوين الفضيلة والشرف والعفاف. . دعوات «جاهلية ورجعية». . ورحم الله من قال:

عن المرء لا تسَلْ، وسَلْ عن قرينه فكلُّ قَرينٍ بالمقارَنِ يقتدي

والمثل الفرنسي يقول: قُلْ لي من تعاشر، أقل لَك من أنت (Dis-moi que tu frequentes, je te dirai que tu es). . . من هنا كان الانتباه من الأهل لكل تصرفات أبنائهم ضرورة، بل وحاجة ماسة في هذه المرحلة، ومن هنا كان إشراك الأبناء بحمل بعض المسؤوليات في العائلة، والإكثار من مرافقتهم في الزيارات التي يقومون بها، أو القيام بالرحلات خلال العطل مع عائلات الأصدقاء، من الأمور المفيدة التي تشعر الأولاد بالارتياح، وتنمي فيهم روح مرافقة الأهل. . كما أن من المستحسن أن يملأ الأهل الفراغ لدى الأبناء بأنواع من العمل التي تدر بعض الكسب لهم وذلك لتقوية الشعور بالمسؤولية، ولإبعادهم ـ وهذا الأهم ـ عن أجواء الفراغ الذي تورث السأم والضجر. على أنه يجدر الانتباه إلى أمر جوهري، وهو أن لا يؤثر الكسبُ الآتي للشاب على حياته القادمة، ولاسيما على تحصيله العلمي. . لذلك كان من اهتمامات رسول الله ﷺ اكتساب الشباب المهارات العقلية وتحصيل المعرفة والثقافة في هذه السن. فقد كان يحثُّ شباب المسلمين على تحصيل العلم، وتعلم الصناعات اليدوية والحرف، وتنمية ملكات الجسم للحفاظ على رونق الصحة والعافية، ولاسيما من خلال ممارسة الألعاب الرياضية. روى سلمة بن الأكوع «أنَّ رسول الله ﷺ خرج على قوم من «أسلَمَ» وهم يتناصلون في السوق، فقال: ارموا يا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً». قال أحدُهُم: يا رسولَ الله، أنت مع بني فلانٍ أم مع بني فلان؟ قال ﷺ: «ارْمُوا وأنا

معكُم كُلْكُمْ»[1]. وإلى جانب التربية البدنية والتنمية الفكرية كان الرسول ﷺ: يعلّمُ المسلمين شباباً وكباراً، آداب السلوك في الحديث والمعاملة حتى في الأكل والشرب وغير ذلك. فعن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أَكَلَ أحدُكُم فليأكُلْ بيمينِهِ، وإذا شَرِبَ فليشربْ بيمينِهِ، فإنَّ الشيطانَ يأكُلُ بِشِمَالِهِ ويشرَبُ بِشِمَالِهِ»[2]. وأما تعليمه ﷺ للقيم الخلقية عامة فيظهر فيما رواه عبد الله بن عباس قال: إنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له الرسول ﷺ: «يا غُلامُ إنّي معلّمُكَ كلماتٍ: احفَظِ الله يَحْفَظْكَ. احفَظِ الله تَجِدْهُ تِجَاهَكَ. وإذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ الله، وإن اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله. واعْلَمْ أَنَّ الأمةَ لَو اجْتَمَعُوا على أنْ يَنْفَعُوكَ لم يَنْفَعوكَ إلاَّ بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ. ولو اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ لم يَضُرُّوكَ إلاَّ بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عليكَ. رُفِعتْ الأَقْلامُ وجَفَّتِ الصُحُف»[3].

ومن مجمل ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، يمكن أن نستخلص بأن مسؤولية الأهل والمربين كبيرةٌ في التربية، لأنَّ عليهم أن يبذلوا كل ما وسعهم من جهود لكي يربوا الناشئة من الصبيان والبنات، منذ نعومة أظفارهم وحتى انتهاء سن المراهقة، على كل ما ينمي أجسامهم ومداركهم الحسية والذهنية تنمية سليمة، وذلك بأنْ يجعلوا حياتهم مليئة بالنشاطات الحركية المفيدة، ونفوسهم غنية بالأفكار والمفاهيم الصحيحة، بما يؤهل كل فردٍ في صحته البدنية والنفسية لحياة أعمدتها الإيمان، والحق، والخير والجمال،

(١) وفي رواية للبخاري: «ارموا بني إسماعيل (...) وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ ما لكم لا ترمون، قالوا كيف نرمي وأنت معهم. قال ﷺ ارموا فأنا معكم كلكم».

(٢) سنن أبي داود، باب الأطعمة، ص١٩.

(٣) الترمذي، باب القيامة، ص٥٩.

وأساساتها القيم الدينية، والأخلاقية، والاجتماعية والإنسانية.

٤ ـ مرحلة الشباب والقوة: وهي التي أشار إليها رسول الله ﷺ، بعد انقضاء مراحل الإعداد والتعليم والتثقيف والتأديب، بقوله الكريم: «ثم ضعوا الحبل على غاربه»، أو «فاضرب على كتفه ـ أي الولد ـ فقد أعذرت إلى الله فيه»، والتي يكون الإنسان فيها قد بلغ فيها حالةً من النمو الجسدي والنضج الفكري، بما يؤهله لخوض غمار الحياة وهو في عزّ حالات القوة، كما يهدينا إليها القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾(٢). على أن تنمية عناصر القوة لدى الإنسان وشعوره بها في هذه السن، يفترض منه الإقرار بأنه لولا فضل الله تعالى عليه لما بلغ أشُدَّه؛ ولولا ما حباهُ خالقُهُ العظيم، وما أغدَق عليه من نعمة الخلق والانتقال من طور إلى طور، لما أمكنه أن يعمل وينتج ويفعل ويتفاعل، ويتأثر ويؤثر في مجالات الحياة التي يقتحمها. . ويبقى أن السنَّ الأمثل لعطائه، هو سن الشباب الذي يتدفق حيوية وحركة ونشاطاً، ولاسيما أنه قد تعترض الإنسان مصاعب عديدة، وقد يقع في متاعب متنوعة، إذ بقدر ما يصادف من رخاء وهناء، بقدر ما يواجه من مشقة وعناء، إنْ لم يكن أكثر. فعندما تكون لديه الهمة والطاقة في ريعان الشباب يكون احتماله أقوى، ولئن كانت مواجهة المشاكل والصعوبات تختلف باختلاف المخزون الذي اكتسبه من قبل ـ في مراحل النموّ والتربية التي مرَّ بها ـ من حيث قوة الإرادة والعزم والمواظبة والصبر، إلاَّ أنه في هذه المرحلة من حياته، مرحلة

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٤.

الشباب والقوة، يكون أقوى على الاحتمال، فيناضل ويكافح ويجاهد حتى يحقق ما يمكنه من الغايات والأهداف التي يصبو إليها..

وأيّاً يكن نمطُ تفكير الإنسان، وأياً تكن الجهود التي يبذلها أو المطالب التي يرومها، ومهما كان يتمتع من الشباب والقوة، فلا بدَّ أن يلتفت ـ دائماً ـ إلى القواعد القرآنية التي تضع الموازين الحق لمن يعمل للدنيا ولمن يعمل للآخرة حتى وإنْ كان العملُ سنةً إلهيةً في حياة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. ولكن شتان بين عمل وعمل.. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2]. فعطاء الله الكريم ليس محظوراً على أحد، فهو سبحانه يعطي الكافرَ ويعطي المؤمن، وقد يمدّ الكافر ويزيد في عطائه أكثر من المؤمن، ولكن العاقبة في الآخرة ليست للكافر حتماً، بل ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[4].. فالفارق واضح بين الإنسان طالب الدنيا وحدَها، فلا نصيب له من نعيم الآخرة، وبين

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٨ ـ ٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٠ و٢٠١.

الإنسان الذي يعمل لدنيا كأنه يعيش أبداً، ويعمل للآخرة كأنه يموت غداً.. فهذا الذي يعمل للدارين ويرجو أنْ يقيَهُ ربُّهُ تعالى عذاب النار، ماذا يكون نصيبه في الآخرة؟ يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[1]، إذ بمقدار ما يكسب من عمل الخير أو عمل الشر يكون نصيبه في الآخرة.. ولكنَّ الذي يعلم ما ينتظره يوم الحساب لا بدَّ وأنْ يكون عمله صالحاً، وأن تكون حسناته أكثر بكثير من سيئاته، حتى ينال الثواب الذي يرجوه من رحمة ربه العزيز الحكيم..

أفرأيت أيها الإنسان، إلى الموازين الحق التي ينصبها القرآن الكريم منارات هداية للناس؟ أجل، ما تعتدُّ بالقوة التي جعلت الله تعالى عليها، وبالمنصب الذي وضعك فيه!.. ويا من تكسب، وتكدّس الثروات، وتفكِّر بأن الفارقَ العظيمُ بين عمل يرضي الله سبحانه وتعالى وعملٍ يغضب ربَّ العباد، لأنَّ فيه افتئاتاً على حقوق العباد.. تفكر واتعظ... فإنْ تمنطق الإنسان بسلاح الإيمان، وخاف ربَّهُ وخشيَ سخطَه، سار على الطريق المستقيم وآتى صالح العمل؛ وإلاَّ وقع في المتاهةِ وغابت عنه الحقيقة، مهما زُيِّنَ له من عمله، ومهما بلغت به الغايات..

وليس خطابُنا لك أيها الإنسان، وأنت في عزّ الشباب والقوة إلاَّ لنأخذ بيدك إلى الناموس الذي يحكمك وأنت في هذا الطور من حياتك، فأصغ إلى قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٢.

أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

هنا يجب أن تكون الوقفة الكبرى والتأمل العميق للإنسان.. وهو يرقب سلسلة حياته منذ كان جنيناً في بطن أمه وما عانت وقت حمله، ويوم خلِقَ وما صبرت على آلام الوضع حتى تراه يخرج إلى عالم النور.. ثم ليتذكر ما بذل والداه وما تحمَّلا مدة رضاعه وحتى فطامه، من السهر والقلق عليه، وما أغدقا عليه من الحنان والرأفة والحب لينمو وينشأ.. وليتفكَّر مِن ثَمَّ، بتلك المسؤولية الجسيمة التي ألقاها وجوده على عاقتهما، وما تكبَّدا في حملها من حلوها ومرها، وهما يتدرجان به في مختلف مراحل تطور نموّه، وما تحمَّلا لأجله من أعباء مادية ونفسية خلال تلك المراحل، ومن غير أن ينسى مرافقتهما له ـ ولو بالشعور والأمل ـ بعدما بلغ سنَّ الشباب والقوة، وانطلق في مسيرة الحياة يخوضها في العمل والجهد «حتى إذا بلغ أشدَّهُ وبلغ أربعين سنة»..

أجل في هذا السنّ من القوة الأشدّ التي يمكن أن يبلغها الإنسان، أي سن النضوج الكامل ـ وهو السن الذي بعثَ به الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ خاتماً للنبيين في أكمل دينٍ، وأتمّ نعمة للناس جميعاً ـ أجل في هذا السن، عندما يقف الإنسان ويستعرض شريط حياته، ماذا يمكن أن يفكر أو يقول أو يرتجي؟

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

ـ إنْ كان كافراً بنعمة الله عليه، يقول: إنّما أوتيته من عندي..
فهو قارونٌ آخر!.

ـ وإن كان ماديّاً عبثيّاً لا يعبأ بمن جعله يبلغ أشدَّه، يقول: هذا من السماء، هذا بفضل السماء، كما نسمع ونرى في المحاورات التي تدور في أفلام الغرب، فأيُّ سماءٍ يريد أو يقصد؟. وماذا عليه لو قال: هذا من عند الله، هذا من فضل الله؟!..

ـ وأما إن كان مؤمناً فإيمانه يجعله متوافقاً مع ناموس الحق الذي يحكم وجوده.. إذ بعد تأمله وتفكّره وتقديره لكل شاردةٍ وواردةٍ في حياته، نجده يتوجَّهُ إلى ربه تعالى مباشرةً وبلا واسطة من أحد، وحتى بلا استئذان، لأنه يعلم أنَّ أبوابَ ربِّهِ مفتَّحةٌ لكلِ عبدٍ منيبٍ.. وفي هذا التوجّه إلى خالقه ووليّ أمره والمنعم عليه، نسمعه يقول: ربي ألهمني وأرشدني واهدني أنْ أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليَّ، فأوصلتني بهذه النعمة إلى ما أنا عليه من الصحة والرزق والأمن والأماني.. وألهمني يا ربي أنْ أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ، بما أمكنتهم من الفضل لتنشئتي وتغذيتي وتربيتي وتأديبي وتعليمي..

ولا يقف المؤمنُ عند مضامين الشكر للنعمة التي أنعمها ربُّه الكريم عليه وعلى والدَيْه، بل ويسأله ويرجوه أن يهدَيه دائماً إلى صالح العمل الذي يرضاه هو تبارك وتعالى، ليكون عمله مقبولاً ومجزياً عليه.. وإلاَّ فإن الأعمال التي لا ترضي الله تعالى إنما هي

كرمادٍ اشتدت به الريح في يومٍ عاصفٍ، فلا تُكسبُ أجراً ولا ثواباً، بل تذهب هباءً منثوراً، كما ينتثرُ الرمادُ بين طيّات الرياح . .

وهل بقي لهذا المؤمن من رجاء أو حاجة يضعها بين يدي ربه عزَّ وجلَّ؟ نعم، إنهم الذرية، فلذات الأكباد وريحانة الحياة؛ إنه يريدها ذريةً صالحة مؤمنة، لا تحيد عن جادة الصواب ولا تميل عن الحق، ولا يلهيها التكاثر ولا تنثَني عن طلب رضا الله ورحمته، كما اعتادت في كنف البيت المؤمن . . بل ولئن شذَّ أحدٌ من هذه الذرية، فأبواه يستجيران بربهما أن يهديه من ضلاله ويصلح باله وشأنه، ليعود إلى حظيرة الإيمان ودرب الصلاح . . فما أروعه من دعاء «واصلح لي في ذريَّتي» . .

وماذا بعدُ أيها المؤمن؟ . . «التوبة النصوح» . .

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، فأنا يا ربي إنسان ضعيف مسكين أخطأ وأرتكبَ الذنب والمعصية من وساوس الشيطان، وقبيله من الجن والإنس، فقد دهاني وأضلّني في لحظات من عمري، وأزلني عن تقواي إلى مطامع من دنياي . . وها أنا مستغفر، منيبٌ، متوكل عليك، فاقبل عذري، وفكَّني من شدِّ وثاقي ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ .

ولكن ما أَفَقُّ هذه التوبة إن لم يكون الاستسلام لرب العالمين . .

﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ديناً وعملاً وقولاً . . فإسلامي إخلاصٌ في عبوديتي لك يا إلهي . . وإسلامي خضوع لمشيئتك يا ربي، وإسلامي طاعة لك يا سيدي، وإسلامي نعمةٌ منك يا مولاي . . فافعل بي يا إلهي وسيدي ومولاي وربي ما أنت أهله، ولا تفعل بي ما أنا أهله . .

هذا هو سنُّ الأربعين، الرابط بين ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله، بين حياته السابقة، وما بقي له من العمر؛ فإنَّ إحكام رباطِ الإيمان والتقوى والصلاح، كان نتيجة صالح العمل.. وهذا ما يطلبه الإسلام، أي أن يقف الإنسان في الأربعين من عمره وقفة تأمل ومحاسبة، فيعزم على العمل بما يرضي ربَّهُ تعالى، لأنَّ القوة التي جعله الله تعالى عليها في هذا السن والتي تمكّنه من العطاء، لن تدوم إلاَّ إلى زمنٍ محدود لتبدأ بعدها مرحلة الذبول في الرونق، والفتور في الهمة، والبطء في النشاط، حتى يحل الوهن والضعف..

٥ ـ مرحلة الشيخوخة: ولا بدَّ أنْ تأتي.. وأخيراً يطلُّ الشيبُ ويبدأ الضعف، وقد جعلها الله تعالى أمارةً على الشيخوخة..

قد يقول البعض: ولكن ألا ترى أنَّ الشيب قد يبدأ في سن مبكرة؟ وكثيرون هُمُ الشيَّبُ قبل سن الشيخوخة؟

ولم لا، وعامل الوراثة قابع في الخلايا، حتى في خلايا الشعر..

وقد يقول البعض: ولكن ألا ترى فلاناً قد بلغ الستين أو السبعين، وما زال متين البنية كامل الإدراك والتميز، فأين الضعف؟

هؤلاء المعترضون لا يريدون أن يُقرُّوا بأنَّ الله تعالى قد جعل في خلق الإنسان سُنَّةً لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، وقد بيّنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾[1]، أي من بعد قوة الشباب، ضعف الكبر، وشيب الشيخوخة.. فكأنما يريدون أنْ يجعلوا

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٤.

باعتراضهم، من الاستثناء قاعدة، وهذا ما لا يستقيم مع سنة الله تعالى في خلقه، ومع ذلك فنحن وإياهم على موعد!..

إننا ندعوك أيها الإنسانُ وأنت ما زلت في ريعان الشباب، إلى جولةٍ في مستشفى.. أرأيت في هذه الجولة صغاراً وشباناً وكهولاً وشيوخاً وعجزاً رجالاً ونساءً.. وكلهم مرضى بأمراضٍ متعددة؟! لقد أرهقناك، لا تؤاخذنا..

ولكن نريد أنْ تمنَّ علينا ببعض الوقت ساعةَ تشاء، فلا نريد أن نضيع عليك مواعيدك في المكتب أو الشركة أو المصنع!.. أنت اليوم جاهز؟ إذن هيا بنا ندور في بعض الشوارع، لنتأمل في صفحات الوجوه التي ثلمتها التجاعيد، وانحناءات الظهور التي أتعبها العمل، والخطوات الوئيدة التي أثقلها العمر.. لا لم ينته مشوارنا بعد، فلا بدَّ من الوصول إلى ذلك المتنزَّه الكبير لنتعرَّف إلى بعض هؤلاء الأجداد والجدات، الذين يقودهم الأحفاد أو المربيات.. ولئن شئت، وأنت ترى ارتجاف أيديهم وشفاههم أن تسأل عن أعمارهم فاسأل.. ولكن لا تقارن بين هؤلاء الشيوخ الضعفاء، وبين أبويك اللذين أمَّنتَ لهما المسكن والطعام والخدم، وكل ما يحتاجان في كبرهما، عافاك الله وبارك بإحسانك إليهما؟!

ماذا نريدُ منك؟

موعداً أخيراً، وعندما تسمح لك ظروفك ومشاغلك..

أنتَ جاهزٌ اليوم، هيا بنا.. أجل، إنها زيارة إلى مأوى العجزة..

ما بك، هل تقزَّزت نفسك بهذه العجالة مما ترى؟

تقول: لا، ليس الأمر كذلك، إنَّها الشفقة على هؤلاء الذين طعنوا في السن!.

لقد انتهى موعدنا معك، وداعاً.. ولكن مع بعض التمني.. اذهب مرة إلى مدرسةٍ للأطفال وتأمل بحركاتهم وهم في الملعب؛ ومرةً أخرى أوقف سيارتك أمام مدرسةٍ للفتيان والفتيات، ولاحظ ضحكاتهم وهم يتمايلون على بعضهم، ومرةً أخيرةً ادخل إلى حديقة إحدى الجامعات، واصغ إلى مناقشات ومناورات الطلاب والطالبات.. وبعد هذا التعب والضنى، لا بأس في أن تجول كما تفعل عادة، على العاملين في مصنعك أو في شركتك لتجدهم على نفس الدأب، والانكباب على العمل الذي أمرتهم به وعهدتهم عليه، ثم عُدْ إلى مكتبك وارتشفِ القهوة، وتفكّر بالجولات التي أخذناك إليها قسراً، وبما عاينت وحدك في المدارس والجامعات، ثم استخلص ما شئت بعد التفكّر والمقارنة!..

يا صاحبي، ويا صديقي، ويا أخي في الإنسانية! إنها سنة الله في خلقه الآدمي أن يتدرج الإنسان في مراحل النموّ، حتى يصل إلى عهد الشيخوخة، ومن ثم إلى عهد الهرم ـ إذا طال به العمر ـ..

أما ماذا يصير عليه حاله في خريف العمر، فمن أصدق من الله قيلاً، وهو يبين لنا سبحانه وتعالى أحوال من جعلهم يعمّرون، وذلك بقوله الحق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(١)، وقوله الجليل: ﴿وَمَن

(١) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[1] وقوله المبين: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[2].. فهذه الآيات القرآنية واضحة الدلالة على ما يصيب الإنسان من أعراض الكبر، سواء في نحول الجسم ورقة العظم وشحوب الوجه ورجفة الأيدي... أو ما يحل به من ضعف في الطاقة الذهنية والشعورية حتى يصل إلى حالٍ من الخواء التام.. ولندع للعلم الحديث أنْ يبين لنا بعضاً من تلك الأعراض التي تصيب الإنسان عندما يتقدم به العمر، حتى يصل إلى وقتٍ لا يقوى فيه على شيء، ولا يعلم شيئاً مما كان يعلم، كما تشير إلى ذلك الآيات البيّنات..

يقول أهل العلم: إنَّ الإنسان في سنوات عمره المتأخرة يعتريه نوع من التدهور في أنسجة الدماغ ناتج من تصلب في الشرايين؛ ما يوهن فيه الطاقة الفكرية ويقلل من قدرته على أداء وظائفه.

أما الأمراض الجسدية التي تحلُّ بكبار السن (في مرحلة الشيخوخة) فيمكن أن تصيب كل الأعضاء الخارجية والأجهزة الداخلية، وتختلف أنواعها وأخطارها بين أشخاص وآخرين باختلاف بنية أجسامهم وأنواع غذائهم وسن أعمارهم، وأعراض التعب والإرهاق والسهر التي عانوا منها من قبل. كما يصاب هؤلاء الكبار باضطرابات سلوكية وعقلية فيما يسمى «ذهان الشيخوخة»، الذي يضعف الذاكرة لديهم ويجعلهم عاجزين عن التركيز والفصل في الأمور، حتى إنهم لا يدرون أحياناً ما يقولون.

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

وقد يصاب بعض هؤلاء بتلف خطير في الدماغ، فتظهر عليهم عوارض الشيخوخة بوضوح..

أما إذا وصل الإنسان إلى حالة من العجز الكلي جسدياً، فإنه يصبح غير قادرٍ على القيام بحاجاته الضرورية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العجز الفكري، إذ ينسى كل شيء عن حياته الماضية، فتختلط عليه الأمور، ولا يعود قادراً على التمييز بين ماضٍ وحاضر، أو بين علم وجهل.. وكيف يقدر على إدراك الأشياء، والله تعالى الذي خلقَه، وأطال بعمره حتى صار على هذه الحال، يقول، وقوله الحق: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. إذ يصير في حالة من العجز العقلي، تذهب بكل ما كان يحيط به من علم أو معرفة، أو إدراك.. لا بل وينحدر سلوكه حتى يصير أشبه بالطفل الصغير، فقد يبكي من جوع أو عطش، وقد يصرخ من صوتٍ أو ضجيج. أي إنه يرجع إلى مثل عهد الطفولة ولكن بغير ظرافتها وملاحتها.. وأكثر من ذلك فقد يسأل عن شيءٍ فيجيب عن شيءٍ آخر، أو قد لا يعرف زوجة ابنه من جارتها، وما إلى ذلك من العقم الذي يجعله في أرذل العمر.. فالهرم حقاً نكسةٌ في الخَلْق، لما يصاحبه من ضعف في قوى الجسد ومن اضطراب في أجهزة الأعصاب، ومن بلاهةٍ وخرفٍ وفقدان الاتزان في كل شيء.

أما الحكمة التي نستخلصها من هذه الأحوال التي يصير عليها الإنسان في نهاية مطاف حياته فتتجلّى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟! فهولاء الناسُ الذين يرون بأم العين ما يحلُّ بالذي يُعَمَّرُ حتى ينكَّس في خلقه، أو حتى يُردَّ إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً.. أفلا تهديهم عقولهم إلى أنَّهم قد يصيرون إلى الحالة

نفسها، فلا يتكبرون ولا يظلمون ولا ينافقون..! ومن كان فيهم شيء من تلك الخصال أو غيرها من المساوئ، أفلا يرعوون ويتوبونَ إلى الله تعالى، قبل أن يفوت الأوان، وتحل بهم أعراض النكسة في الخلق، فلا يعودون قادرين معها على توبةٍ، أو طلب استغفار أو رجاء رحمة؟!.. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، فيتدبَّرون حكمة الله عزَّ وعلا في خلقه؟!

الفصل الثاني

فطرة الإنسان

فطرة الإنسان

إن معرفة النفس تبدأ قبل كل شيء بمعرفة طبيعتها، باعتبار أنَّ طبيعة الشيء تعني ماهيته، أي ما هو. وهذه المعرفة تقودنا إلى إدراك سر نموّه وتغيّره وتحركه وما يتميز به من صفات طُبع عليها، أي إنَّ طبيعة الشيء مخلوقة فيه بحسب ما أعدَّه له خالقُهُ.. وهي ما يمكن أن نسميها الفطرة، أي الجبلّة التي جُبل عليها، وتخلَّق عليها كل موجود في أول خلقه، تأكيداً لقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾[1]، والحديث الشريف: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[2]. ومعنى ذلك أن المولود البشري يولد على الفطرة، أي على الجبلة أو التكوين المودع في جنسه، وولادته تكون صافية (خالية من أي اكتساب) خلقاً وطبعاً وهيئة، ليس فيها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، لأنه لو كان مفطوراً (مخلوقاً) على إحدى هذه الحالات لما كان من السهل التخلي عنها فيما بعد.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) كشف الخفاء، حرف الكاف، رواه الشيخان.

والإنسان بفطرته التي طبع عليها، لديه من الله تعالى هِبَةٌ خاصة، هي عبارة عن قوة خاصة تدفعه إلى البحث والتنقيب عن السبل والوسائل التي تتناسب وهذه الفطرة. وأهم مقوّمات هذه القوة الخاصة للكائن البشري هي الطاقة الحيوية أي: مجموعة الغرائز والحاجات العضوية.

أمّا الغرائز فتتركّز في ثلاث: غريزة حبّ البقاء، وغريزة حفظ النوع، وغريزة التديّن أو التقديس.

وأما الحاجات العضوية فهي عديدة ومتنوعة، مثل حاجة الإنسان إلى التنفس، وحاجته إلى الأكل أو الشرب وما يتصل بهما، وحاجته إلى النوم.. ومن مظاهرها الراحة، والتعبير عن حاجات الإنسان يكون بواسطة الكلام أو الإشارة أو الكتابة أو ما شاكل ذلك..

وهنالك خلط شائع بين الغرائز والحاجات العضوية، كما أن هناك خلطاً بين الغرائز والمظاهر التي ستنجم عنها. ولذلك اعتبر كثيرون أن الغرائز كثيرة ولا تقع تحت حصر، مدّعين أن هنالك غريزة للتملك، وغريزة للخوف، وغريزة للجنس، وغريزة للطمع، وغريزة للجوع، وغريزة للعطش، إلى آخر ما صنّفوا من تصورات الغرائز، وجعلوها تعبيراً عن كل سلوك الإنسان!.. وهذا يعني أنهم لم يفرقوا بين الغرائز ومظاهرها، أي بين وجود طاقة حيوية أصيلة في داخل الإنسان وبين مظاهر هذه الطاقة. فالطاقة الأصيلة في التكوين البشري هي الغريزة، وهي جزء من طبيعة الإنسان فلا يمكن إنكارها أو تجاوزها أو كبتها. وهي موجودة مع الإنسان منذ تكوينه وخلقه، أما مظاهرها التي تتجلّى بها فلا تؤلف جزءاً من تكوينه.. لذلك يمكن معالجة هذه المظاهر للغرائز أو محوها، كما يمكن كبتها وتحويلها.

وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

إنَّ من مظاهر غريزة البقاء، الأثرة والإيثار. فيمكن معالجة الأثَرة بالإيثار، كما يمكن مجاهدة الأثرة لمحوها من النفس..

ومن مظاهر غريزة البقاء الخوف الذي يعتبر من أهم المظاهر الغريزية باعتبار أنه موجود في الإنسان، في أي مكان أو زمان عاش فيه. ومنه خوف الإنسان من الإنسان أو من الحيوان، أو من الطبيعة عندما تحدث الزلازل والفيضانات وثوران البراكين وهياج الأمواج، والأعاصير والبرق والرعد.. والخوف مهما كان نوعه أو شكله يمكن للإنسان معالجته، فمثلاً خوف الإنسان من إنسان آخر يمكن تحويله إلى خوف من الله سبحانه وتعالى، أي بدلاً من أنْ يخاف الإنسانُ من ظلم الآخرين له، أو خوفه من عواقب جرم قد يرتكبه، ليكن خوفه من أنْ يظلم أحداً، أو أنْ يغضبَ الله تعالى الذي يعاقب على كل معصية أو ذنب أو ظلم... وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحسد والطمع، وهما من مظاهر غريزة البقاء. إذ نجد كثيراً من الناس يحسدون غيرهم على ما لديهم من مالٍ، أو جاه، أو على ما يحتلون من مناصب أو مراكز. وما يقال عن الحسد، يقال كذلك عن الطمع. إذْ باستطاعة الإنسان أنْ يكبت طمعه أو حسده، وأن يحوّلهما إلى الاستزادة من أعمال تُرضي الله تعالى، وتُنافِسُ الذين دأبوا على العمل لمرضاة الله تعالى ورسوله. فيكون بذلك قد بدل الحسد بالتنافس في أعمال البر والتقوى.

وأمَّا غريزة حفظ النوع فإنَّ من أهم مظاهرها مثلاً الميل للمرأة جنسياً، أو الحنان من الأم. فيمكن معالجة الشهوة الجنسية بالزواج

الشرعي الحلال الذي يصرف عن الشهوة الحرام، أي إنه يعالج هذه الشهوة كما يعالج الإيثار الأثرة.. وقد يغلب حنان الأم ـ أحياناً ـ على فكرة الزواج أو على الميل الجنسي لديها من أجل تكريس حياتها لأولادها اليتامى.. وهكذا الحال بالنسبة إلى ميول الأبناء تجاه أهاليهم، إذ قد يؤثرون راحة الأهل ورضاهم على الولوغ في الشهوة الجنسية، أو القيام بأعمال من شأنها أن ترهقهم، ما يعني أنَّ أيَّ مظهر من مظاهر غريزة حفظ النوع يمكن أن يسدَّ مسدَّ مظهر آخر، ويمكن أن يعالج مظهراً بمظهر، لأن المظاهر يمكن علاجها أو التغلّب عليها ـ كما قلنا ـ بينما الغريزة تبقى غريزة لأنها تشكل جزءاً من تكوين الإنسان.

من هنا كان خطأ بعض علماء النفس في بحوثهم عن الغرائز، واعتبارهم أن غرائز الإنسان عديدةٌ ومتنوعةٌ جداً، لا يمكن أنْ تقع تحت حصر. وهذا الخطأ ناجم عن عدم التفريق بين الغريزة الواحدة ومظاهرها، وبين الغرائز الأساسية الثابتة ـ في التكوين البشري ـ مهما تعددت مظاهرها وتنوعت.

وقد رأينا أنَّ الطاقة الحيوية هي التي تدفع الإنسان للبحث والتنقيب عن كل ما يمكن أن يؤمن له الحاجات الأساسية في حياته، وكل ما يمكن أن يحقق له إشباع الحاجات العضوية التي هي الطعام والشراب والمنام وإشباع غرائزه. ولئن كانت الغرائز أقل خطراً من الحاجات العضوية، إلاَّ أنَّ خطرها لا يُستهانُ به على حياة الإنسان، ولاسيما في حال جموحها وعدم القدرة على ضبط هذا الجموح. ونحن نعتقد بأنه إذا لم يسرع المرء إلى إشباع حاجاته العضوية أو تنظيمها فإن مصيره إلى الهلاك. وكذلك الحال بالنسبة إلى الغرائز فإنَّ عدم إشباعها يدفع بالإنسان إلى أحضان الشقاء، لذلك كان حتماً على

الإنسان إشباع الغرائز والحاجات العضوية، أي إشباع الطاقة الحيوية فيه. وهذا الإشباع للطاقة الحيوية يتطلّب تفكيراً في العيش، وهو تفكير طبيعي وضروري، إلاَّ أنَّهُ يجب أنْ يكون مبنياً على نظرة الإنسان لهذه الدُّنيا التي من شأنها أن تجعله يحيا بطمأنينة وراحة، أو أن تبقيه في دائرة محدودة وضيقة، ليس فيها أي أفق لمعنى الحياة، وبالتالي عدم الحصول على الرضى النفسي . . ولذلكَ لا بُدَّ أن يكونَ التفكيرُ في الحياةِ أساساً للتفكيرِ في العيشِ. صحيحٌ أنَّ الإنسانَ يفكرُ في العيش استجابةً لطلب الإشباع، ولكنَّ تفكيره هذا يظلُّ بدائيّاً قِلِقاً بعيداً عن التطور والرقيّ، إلى أن يُبنَى من جديد على نظرتِهِ الشاملة للحياة. فالموضوعُ ليس أيَّ التفكيرينِ يسبقُ، إذ منَ البداهة أنَّ التفكيرَ في العيشِ يسبقُ كلَّ ما عداه، بل الموضوعُ هو التفكيرُ في العيشِ الراقي، فذلك الذي تكونُ فيه الطمأنينةُ الدائمةُ.

صحيحٌ أنَّ التفكيرَ بالعيشِ لدى الفرد يرتقي من التفكيرِ بعيشه إلى التفكيرِ بعيش عائلتِهِ، ويرتقي من التفكيرِ بعيشِ عائلتهِ إلى التفكيرِ بعيشِ بني قومِهِ، ويرتقي منَ التفكيرِ بعيشِ بني قومهِ إلى التفكيرِ بِعيشِ أمّتِهِ، ويرتقي منَ التفكيرِ بعيشِ أمّتهِ إلى التفكيرِ بعيشِ الناس جميعاً . . لكنَّ هذا الارتقاءَ وإنْ كانَ موجوداً في فطرةِ الإنسانِ، إلاَّ أنه إذا تُرِكَ وَحْدَهُ بدونِ أن يُجْعَلَ له أساسٌ يُبنَى عليهِ، فإنّهُ قد يُحصرُ بنطاقه الفردي ولا يتعدّاهُ إلى الغير، فتبقى الأنانيّةُ متحكمةً في الفرد، ويظلُّ الالتواء بارزاً في تصرفاتهِ أو في أي مظهر من مظاهرِ سلوكه اليومي، من دون أنْ يتعدّاه إلى التفكير في الترقّي، أو إلى النزوع إلى الاطمئنانِ الدّائم. لهذا فإنَّ تركَ التفكيرِ بالعيشِ هكذا على طبيعتِهِ، من دون أنْ يُبنى على نظرةٍ صحيحةٍ وجديّةٍ إلى الحياةِ، لا يصحُّ أن يستمرَّ وأنْ

يبقى على حاله لأنَّه لا يوصلُ إلى الهدف، ولا إلى الطمأنينةِ الدّائمة، بل هو يحولُ دونَ الطمأنينةِ الدائمةِ. وخير دليل على ذلك العيشُ البدائيُّ، أو عيشُ الشعوب المتخلّفة.

إنَّ التفكيرَ بالعيشِ لا يَعني التفكيرَ بإشباعِ الطاقةِ الحيويّةِ إشباعاً آنيّاً أو كيفما اتّفقَ، بل لا بدَّ أن يكونَ تفكيراً مستمراً، ينظر لعيشِ الإنسانِ من حيثُ هُوَ إنسانٌ، وعلى أرقى وجهٍ مُستطاعٍ تقتضيهِ غريزةُ بقاء النوعِ الإنسانيّ.

وعلى أيّ حالٍ، سواءٌ بُنِيَ التفكير بالعيشِ على نظرة في الحياة أو لم يُبْنَ، فإنَّ أهمَّ ما يجبُ فيه أن يكون تفكيراً مسؤولاً تجاه الغيرِ، لأنَّ التفكير غير المسؤولِ في موضوعِ العيشِ، لا يزيدُ عنِ التمييزِ الغريزيِّ لدى الحيوانِ في إشباعِ الطاقةِ الحيويّةِ الفردية. وهو لا يليقُ بالإنسانِ لأنه لا يصحُّ أن يظلَّ في إطارٍ من الأنانية الضيّقة.

إنَّ التفكيرَ بالعيشِ هوَ الذي يصوغُ الحياةَ للفردِ، وهو الذي يصوغُ الحياةَ للعائلةِ والوطن، وهوَ الذي يصوغُ الحياةَ للمجتمع، وهوَ الذي يصوغُ الحياةَ للأمّةِ، وهوَ فوق كلِّ ذلكَ يصوغُ الحياةَ للإنسانيّةِ صياغةً معيّنةً، فيجعلُها حياةَ عزٍّ ورفاهيةٍ وطمأنينةٍ دائمةٍ، أو يجعلُها حياةَ شقاءٍ وتعاسةٍ وركضٍ وراءَ لقمة العيش. ونظرةٌ واحدةٌ للتفكير الرأسماليّ بالعيش، وما صاغَ بهِ الحياةَ للإنسانيّةِ كلِّها، يُظهر لنا ما جَلَبَتْ هذهِ الصياغةُ لحياةِ الإنسانيةِ من تعاسةٍ وشقاءٍ جعلا الإنسان يقضي حياتَهُ كلّها يركضُ وراءَ تأمين حاجاته الأساسية. كيفَ حَوَّلت الرأسماليةُ العلاقاتِ بينَ الناس إلى علاقات خِصامٍ دائم، أي إنَّ الأساسَ في هذه العلاقات يقوم على علاقةِ الرغيف بيني وبيَنك: آكُلُهُ أنا أو تأكُلُهُ أنت.. ومن جراء ذلك يستمرُّ بيننا الصراعُ حتى ينال أحدُنا

الرغيف ويُحرَمَ منه الآخرُ، أو يُعطى أحدُنا ما يُبقيهِ على الحياةِ، ليوفّرَ باقي الرغيفِ للآخرِ الذي يزيد به خبزَهُ.. نظرةً عميقةً لهذِه الصياغةِ التي صاغَها التفكيرُ الرأسمالي للحياةِ، تبين لنا ما قدَّمَ النظامُ الرأسمالي وتطبيقاتُه ـ أو أيُّ نظامٍ آخرَ غيره في العالم ـ من هموم ومآسٍ ومظالم في الحياة الإنسانية.. فقد سلب من الناس راحة البال بسبب المال والحكم والسيطرة والوجاهة، فضلاً عن التحكم بمتطلبات الحياة ـ التي لا تعد ولا تحصى ـ وفقاً لما يريده ملوك الصناعة والتجارة، وأرباب البنوك وشركات التأمين، وما يبتغيه صنّاع القرار.. ما أدى إلى شقاء الشعوب، وشقاء أبناء الإنسانية برمتها، على الرغم من كل مظاهر المدنية والعمران. ولعلَّ من أهم الأدلة على ما أفرزته الأنظمة الوضعية ـ ولاسيما النظام الرأسمالي ـ من شقاءٍ للناس، اعتناق فكرة الاستعمار والاستغلال، التي أتاحت لطبقة معينة ـ في كل بلدٍ ـ قد لا يتجاوز عددها نسبة ٥٪ إلى ١٠٪، أن تنعم بكل أسباب الرفاهية في العيش، وأن تحكم النفوذ والسيطرة، وتجني الثروات الطائلة، بينما سائر الطبقات الأخرى محرومة من حياة الطمأنينة بمعناها الحقيقي. ولعلَّ في حياة الناس في الولايات المتحدة الأميركية، وفي أوروبا الغربية، من النماذج الحية ما يعطي المثال الصارخ على ظلم النظام الرأسمالي وتطبيقاته.. ولا تقل الأنظمة في البلدان الأخرى، كالاشتراكية، أو البروليتارية، أو الملكية المطلقة فساداً، وماديةً وظلماً عن النظام الرأسمالي.. أما الأنظمة في بلدان العالم الثالث، فحدّث ولا حرج، ويكفي أن ننظر إلى ما يتخبط فيه الناس من الأمراض، والجهل، والفقر، والبؤس والشقاء... حتى نحكم على تلك الأنظمة...

وهذا ما يجعلنا نقول بأنَّ الأنظمة الحالية على اختلافها، جعلت المتحكمين بمصائر العباد في أي بلدٍ من بلدان العالم بمثابة مصاصي الدماء الذين لا يرتوون. . فهم لا يعرفون معنى للحلال والحرام، ولا يفرقون بين عدالة وظلم إلاَّ وفقاً لأهوائهم. . وكل هذا لأنَّ التفكير بالعيش ليس تفكيراً مسؤولاً بالمعنى الأخلاقي الذي يفرض مراعاة مصالح الشعوب، ومداراة أحوالها، وتأمين سبل العيش لها بكرامة. . إذْ تنحصر مسؤولية هذا التفكير بالمصالح الشخصية قبل كل شيءٍ، ومن ثمَّ، التركيز على تأمين مصالح فئات معينة من المتنفّذين، ومن بعدهم تأتي المسؤولية العامة تجاه باقي الناس. .

ولكي نكون منصفين، فإننا نعتبر أنَّ الفكرة الاشتراكية قد جاءت لتوجد المسؤولية في التفكير بالعيش، وتجعلها مسؤولية جدية في مُعالجة أوضاع الناس، ولاسيما الفقراء والكادحون. . إلاَّ أنها عجزت عن الصمود أمام جبروت الرأسمالية، وتخاذلت أو انحرفت ـ مع الوقت ـ حتى غدت الاشتراكية اسماً أو شبحاً، ثم راحت تخلو تدريجياً من مضامين المسؤولية عن الغير، إلى أنْ صارت في واقعها مجرد فكرة اقتصادية ـ سياسية أكثر منها فكرة إنسانية. .

وعلى هذا، فإنه على الرغم من كل مظاهر التقدم التي يشهدها العالم اليوم، فإنَّ خلو «التفكير بالعيش» من المسؤولية عن الغير ـ في معظم جوانب الحياة المعيشية ـ لدى الأقوياء القادرين على التحكم بزمام الأمور في العالم كله، يجعل العاقل المبصر يدرك أنَّ العالم يسير نحو الانحطاط أكثر من التقدم، وإلى القلق أكثر من الاطمئنان، وإلى التعاسة أكثر من السعادة. . وهذا ما يضُرُّ حقاً بالحياة لأنه مجلبة لشقاء الجنس البشري. . لذلك كان من الأجدى، بل والأصحّ، أنْ يجري

التفكير لتغيير النهج الذي يسير عليه أصحاب القرار في كل دول العالم، من أجل أن تحلَّ محله مناهج جديدة تقوم على «التفكير بالعيش» الذي يجعل المسؤولية عن الغير في رأس اهتمامات هذه المناهج..

صحيح أنَّ تأمين الحاجات الأساسية، ولاسيما لقمة العيش، يشكّل أهم الروابط بين الإنسان والإنسان، وصحيح أنَّ «التفكير بالعيش» هو التفكير للحصول على هذه الحاجات لإِشباع الطاقة الحيوية، أي تأمين الشبع للإنسان، ولكن بدل أنْ تكون العلاقة بين الناس قائمة على الأثَرَة، وتأمين مصالح الأفراد أو الجماعات أو الدول، يجب أنْ تكون قائمة على التعاون والتكافل، وإشاعة الأمن الاجتماعي، والأمن السياسي، والأمن الاقتصادي، والاستقرار والسلام بين الشعوب والأمم والدول، حتى ينعم الناس بمفاهيم الإنسانية الحقة.. أي أن تكون العلاقة علاقة إيثارٍ لا أثَرَةٍ، بحيث تفرح أنتَ بالعطاء لا بالاستغلال، وأفرح أنا بالأخذ لا بالاستئثار ـ أو الطمع في أخذ كل شيء ـ وصدق الله العظيم في وصف الأنصار حين قدم عليهم المهاجرون بقوله الحكيم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، والخصاصة: الحاجة.

١ ـ من مظاهر غريزة البقاء

من البديهي القول بأَنَّ همَّ الإنسان كان ـ في الأصل ـ ولا يزال منصبّاً على ما يحفظ له حياته، ويمكّنه من أن يذودَ عن وسطه العائلي والاجتماعي بكل ما أوتي من قوة. ولا يتسنّى له ذلك إلاَّ إذا عمل

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

على تلافي المخاطر ودرء الأخطار التي قد تُعرِّض بقاءه هو ومن حوله للفناء. فهو في أي بيئة عاش، سواء في صحراء قاحلة، أو في بقعة حضرية مزدهرة، يجاهد ـ حق جهاده ـ من أجل حفظ حياته والذود عنها بشتى الوسائل والإمكانات التي يملكها. لكن هذا الإنسان الذي نراه يقاوم المصاعبَ ويواجه المتاعبَ، كثيراً ما يعتريه الخوفُ أو الرعب من مشكلةٍ أو وضعٍ قد يطرأ عليه، أو تأخذه الرهبة أو الفزع من حالة قد تطغى على مشاعره. لكن غريزة حب البقاء جاهزةٌ أبداً للمقاومة والدفاع، واتخاذ الموقف المناسب الذي يقدر الإنسان عليه.

وهذه أهمُّ الانفعالات التي تظهر فيها غريزة حب البقاء:

أولاً: الخوف

هو توقع لمكروه من إشاره مظنونة أو معلومة. وهو في «علم النفس» انفعال فطري تجاه الخطر يدفع صاحبه إلى الابتعاد عنه أو الهرب منه. لذلك فرق علماء النفس بين الخوف الغريزي المتولد عن غريزة البقاء، وهو متقدم على كل تجربة فردية، والخوف المكتسب الذي يتولد من التجربة. فإذا أخذنا خوف الأطفال مثلاً فإنه يُعزى إلى أسباب عديدة، منها:

- الظلام ويكاد الخوف منه يكون عاماً لدى جميع الأطفال، إذ إن نسبة ٩٢ بالمائة من الأطفال يخافون الظلام لما يظنون أنه يخبئ من مفاجآت غير سارة، يتخيلون أنها قد تُلحق بهم أذى أو شرّاً.
- الضوضاء والأصوات العالية، مثل قصف الرعد أو صفير الرياح، أو هدير الأمواج، أو أصوات الانفجارات، أو أزيز الطائرات وما إلى ذلك..

- الحيوانات والحشرات غير الأليفة. .

- الأحداث أو الأوضاع أو المشاهد المؤلمة التي تؤثر في نفوس الأطفال مثل الحروب، أو الفتن الداخلية، أو الشجار بين الآباء، أو غياب الأم أو الأب بصورة ملحوظة عن البيت، أو أساليب التعلم الملتوية في المدرسة. . فإنَّ كلَّ ذلك وما يماثله، من شأنه أنْ يؤذي الطفل ويجعله غير مستقرٍّ نفسياً في كبره.

ويقول بعض الباحثين إن الخوف قد يأتي بطريقة سريعة كما في حالة الخطر، أو بطريقة بطيئة مثل الروايات والحكايات المرعبة. . . ويعتبرون أن وسائل الدفاع عن النفس تكون إما بالصياح (كما هي الحال عند الأطفال خاصة) أو بالهرب، أو بالتوقف عن الحركة لدى الصغار والكبار.

ويظهر الخوف على الإنسان بعوارض فيزيولوجية متعددة مثل: الرجفة ،اصفرار الوجه، البكاء، الإغماء وخفقان القلب. وقد يسيل العرق البارد، أو يحدث التبوّل غير الإرادي. وعن الخوف قد ينشأ مرض الصفراء، أو الشلل أو الخرس، إلى حدّ توقف القلب عن حركته. .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة فيها ذكر للخوف، ومنها قول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٢). والخوف من الله تعالى لا يراد به الشعور الذي ينتاب الإنسان عند استشعاره الخطر من حاكم طاغٍ أو وحش ضار، بل يراد به الكفُّ عن المعاصي،

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

واختيار الطاعات. ولذلك قيل: لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً. والتخويف من الله تعالى هو الحث على التحرّز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. أي فلا تأتمروا للشيطان الذي يخوّفكم بالبلاء والفقر، وائتمروا لأمر الله تعالى الذي يخوّفكم من ارتكاب المعصية. .

فالخوف إذا ما سيطرَ على شخصٍ، شلَّ ذاكرتهُ وقابليّةَ التمييزِ لديه، وأفقدهُ لذَّة العيشِ، وأنبل الصفاتِ، وأربكهُ ذهنيّاً حتى يُفقدَ لديه القدرةَ في الحكمِ على الأشياءِ.

وأخطرُ أنواعِ الخوف: الخوفُ منَ الأوهام والأشباحِ. ولا يكونُ ذلكَ إلا عندَ ضعافِ العُقولِ، إمّا لأنَّ نُمُوَّهُمُ العقليَّ لَمْ يكتمل كالأطفالِ، أو لعدمِ معرفةِ المعلوماتِ الكافيةِ للرّبطِ بالواقعِ. ويُعالَجُ الخوفُ لدى هؤلاءِ إمّا بالتعمّقِ في البحثِ وتقريبِ الأشياءِ لإدراكِهم، وإمّا بإعطائِهم أفكاراً متّصلةً بما يخافونَ منه، على أن يكونَ لهذهِ الأفكارِ واقع محسوس لديهم. وبهذا العلاجِ يتخلّصون من سيطرةِ الخوفِ منَ الأوهامِ والأشباحِ إمّا بإزالته، أو بتخفيفِهِ تدريجيّاً إلى أن تزول بقاياهُ. .

وهناكَ نوع مِنَ الخوفِ شائع ومعروف، وهو الخوف الناتج من التردّد بين القيامِ بالعملِ وما قد ينتج منه، أو عدمِ القيامِ به وما قد يخسر الإنسان من جرَّائه، وكلاهما يسبّبُ أذى. إذ قد يؤدِّي الخطأُ في الموازنةِ بين الفعل وعدم الفعل إلى الخوفِ من أبسط الأمورِ والوقوعِ بالتالي في مخاطر لا تحمد عقباها. . . وذلكَ كالخوفِ مِنَ الحاكمِ

(١) سورة الزمر، الآية: ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

الظّالمِ أن يُوقعَ الأذى بالذين يعارضونه أو ينقمون عليه، فهذا يؤدِّي بدورهِ إلى ظلم شعب كامل أو أمة بأسرها. . وكخوفِ الجنديّ في ساحةِ القتال منَ الموتِ، فهذا يؤدِّي إلى الهزيمة إما بالاستسلام أو إبادةِ الجيشِ. . وكالخوفِ منَ السّجنِ في سبيلِ الدفاع عن العقيدةِ، مما يؤدِّي إلى ضعف أو ضياع أصحاب العقيدةِ، وبالتالي إلى عدم نشرها وإقناع الناس بصوابيتها. هذا بالنسبة إلى العقائد الصحيحة التي لا يتوانى منصف عن الإقرار بصوابيتها وصلاحها لخير الناس، أما بالنسبة إلى العقائد الفاسدة فإنَّ الخوف من مواجهة أصحابها يحمل أشدَّ المخاطر على الناس، لأنَّ مثل تلك العقائد تحمل في طياتها الدّمارِ والهلاكِ، لذلك كان الخوف من الحكام المستبدّين يُعدُّ من أهم المشكلات التي تكابدها الشعوب الضعيفة والأمم المتخلفة.

لكنَّ الخوفَ نافعٌ ومفيدٌ في بعضِ الأحيانِ. فالخوفُ منَ الأخطارِ الحقيقيةِ أمرٌ مفيدٌ لتلافي تلك الأخطار والاستعداد لدرئها. والاستهتارُ بهِ مضرٌّ ولا يجوزُ، سواءٌ أكانتِ الأخطارُ على الفردِ نفسهِ أو على أمّتهِ. فالخوفُ في هذهِ الحالةِ هوَ الحارسُ والحامي، لأنه يستوجبُ إدراكَ الأخطارِ المُحدِقَةِ بالأمّةِ حتى تحسبَ حسابها وتعملَ للدّفاع عن نفسها، بدءاً بالاستعداد لمواجهة تلك الأخطار، وانتهاءً بالقضاء عليها.

وكذلك الخوفُ منَ الله ومنْ عذابهِ أمرٌ مفيدٌ وواجبٌ لأنه يشكّل رادعاً قويّاً للإنسان من الوقوع في المعاصي والفواحش. لذلكَ كانَ الخوفُ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أسمى أنواع المشاعر الإنسانية لأنه أفعل في النّفوسِ، وأكثر نفعاً وفائدة من أي خوف آخر، لما له من تأثير، ليس على حياة الإنسان في هذه الدنيا فحسب، بل وفي تأثيره على

أفعاله التي يُناط بها مصيرُهُ في الآخرة. . لذلك يكون الخوف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حاضراً دوماً في نفس المؤمن، وعلى الإنسان الذي لا يخاف مقامَ ربِّه، أنْ يعمل على تكوين هذا الخوف في نفسه، وهو كفيل بأنْ يقوِّم سلوكه في كثيرٍ من اتجاهاته، ويدله على العمل الصالح الذي يقوده على الصِّراط المُستقيم.

إذن الخوفُ جزءٌ منْ فِطرةِ الإنسانِ، والمفاهيمُ التي يعتنقها هيَ التي تُثير فيه المخاوف أو تُبعدُهُ عنها، وكذلك يعتبر الخوف من أخطرِ المشاعر على الإنسانِ في بعض النواحي، كما أنهُ أكثرها فائدةً في نواحٍ أُخرى.

ولكي يتّقيَ الإنسانُ أخطار الخوف ويتمتّعَ بمنافعهِ يجبُ عليهِ أن يخضعَ للمفاهيمِ الصادقةِ وحدها، وهي ـ في نظرنا ـ مفاهيم الإسلام. وهذا ليس بالنسبة إلى الخوف فقط، بل وأيضاً بالنسبةِ إلى جميعِ مظاهرِ الغرائزِ التي فُطِرَ عليها الإنسانُ.

والخوف يكون على درجات، منها الفزع والرعب والرهبة. .

ـ أمّا الفزع: فهو انقباض في النفس ناتج من تفكير الإنسان بما يعتريه من الشيء المخيف. قال الله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[(٢)] أي حتى إذا أزيل عنها الفزع.

ـ والرعب: هو الانقطاع من امتلاء الخوف. يقال: رعبتُهُ فرَعَبَ رُعْباً فهو رعيب (مرعوب). ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

ٱلرُّعۡبَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعۡبَ﴾[2].

- وأما الرهبة: فهي مخافة مع تحرّز واضطراب. قال تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[4]، أي يدعون الله تعالى رغباً في رحمته، ورهباً من عذابه. وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[5] وهو تهديد لبني إسرائيل - والناس أجمعين - أن يخافوا ربهم وحده، وأن يفردوه بالخشية لأنه قادر مقتدر، عزيز جبّار.. لذلك كان معنى الرهبانية: غلوٌّ في تحمّل التعبّد من فرط الرهبة. قال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾[6].

ثانياً: الرضا والضحك

الرضا: يقال رضي، يرضى، رضاً، فهو مرضيّ. والرضا انفعال نفسي إرادي، ومصدر ارتياح وسعادة للإنسان.

ويشمل الرضا مختلف مجالات الحياة كرضا الإنسان عن نفسه وعمله، ورضاه عن زوجه وأولاده، ورضاه عن علاقاته مع الآخرين. وقد أثبتت بعض الدراسات على طلبة جامعيين أُوكل إليهم القيام ببعض الأعمال التي لا يحبونها، أنَّ قيامهم بتلك الأعمال أدّى بهم إلى التكاسل والسأم والإرهاق، وشكاية بعضهم من الصداع وآلام المعدة،

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.
(2) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.
(3) سورة الحشر، الآية: ١٣.
(4) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(5) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(6) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

فلما طلب إليهم القيام بأعمال يحبونها تغيرت أحوالهم النفسية والجسمية، وقاموا بتلك الأعمال بكل نشاط وارتياح.

وفي دراسة أخرى ظهر أن الفرح والضحك يقويان عضلات القلب، ويسهلان عملية الهضم ويخفضان ضغط الدم. ومن المعلوم أن الإنسان لا يفرح أو يضحك إلاَّ في حالة الرضا النفسي . . وكما أن للضحك إيجابيات فله سلبياته أيضاً. فمن سلبياته: كثرته. قال رسول الله ﷺ فإن كثرة الضحك تميت القلب[١]. وقال ﷺ: «ولا تكثروا من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[٢].

إجمالاً: إنَّ تقبل الحياة والاستمتاع بخيرها وجمالها وطيبها ـ في حدود ما أمر الله تعالى ـ من أهم المقومات التي تساعد على الحيوية والنضارة، وعلى الاحتمال والمثابرة، وعلى الارتياح والطمأنينة. وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ فقال: «اِرضَ بما قَسَمَهُ الله لَكَ تَكُنْ أَغنَى النَّاسِ»[٣]. وقد اعتبر عبد الواحد بن زيد «أنَّ رضا الله ـ تبارك وتعالى ـ هو باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين». ويُعدُّ رضا الإنسان بقضاء ربه وحكمه، والتوكل عليه أعظمَ درجات الرضا. لذلك كان من الإيمان الرضا بالقضاء خيره وشرّه، فكراهية المؤمن للشيء أو حبُّه له لا يغير من واقع الأمر شيئاً، بل ربما يكون له خيرٌ فيما يكره، وشرٌّ فيما يحبُّ. وهذا ما لا يعلمه الناس، لأنَّ علمه عند الله عزَّ وجلَّ لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ

(١) سنن الترمذي باب الزهد رقم (٢).
(٢) عن مكحول عن واثلة بن الأسقع في سنن ابن ماجه في كتاب الزهد.
(٣) كشف الخفاء، رواه أحمد والترمذي.

خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال الشاعر:

لا تعتبنَّ على النوائب ... فالدَّهرُ يرغُمُ كلَّ عاتِبْ
واصبرْ على حُدْثانِهِ ... إنَّ الأمورَ لها عَواقِبْ
كَمْ نِعْمةٍ مطويَّةٍ ... لَكَ بينَ أَثْنَاءِ النَّوائِبْ
وَمَسَرَّةٍ قد أقبَلَتْ ... مِنْ حيثُ تَنتظِرُ المَصائِبْ

أما رضا الله تعالى عن عبده فهو أن يراه مؤتمراً بما أمَرَهُ به، ومنتهياً عما نهاهُ عنه، لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[2] رضيَ الله عن الصادقين بما أطاعوهُ تعالى، ورضوا عنه بما أثابهم به من الأجر العظيم؛ وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

والرضوان هو الرضا الكبير. ولما كان أعظمُ الرضا رضا الله تعالى فقد خُصَّ لفظ الرضوان في القرآن الكريم بما يكون من الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾[4].

ثالثاً: الغضب

هو ثوران دم القلب أو انفعال النفس بمشاعر النقمة أو إرادة الانتقام. يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ في جوف ابْنِ**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

آدمَ، ألا تَرَوْن إلى حُمْرَةِ عَيْنَيه وَانتِفاخِ أَوْداجِهِ»[1] ويقول ﷺ: «ليسَ الشَّديدُ بالصُرَعَةِ، ولكنَّ الشَّديدَ مَنْ يُمسِكُ نفسَهُ عندَ الغَضَب»[2]. وفي حديث آخر: «لَيسَ القَويُّ بِالصُرَعَةِ، ولكن القويَّ من ملكَ نفسَهُ عند الغَضبِ»[3]. وقد يُعدُّ الغضب مظهراً إيجابياً للدفاع عن النفس، لذلك كان مظهراً لغريزة حفظ البقاء.

وفي القرآن الكريم بيان لتأثير الغضب في سلوك الإنسان، ومثاله غضب موسى عليه السلام حينما عادَ إلى قومه فوجدهم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري وأضلهم به، فما كان من موسى عليه السلام إلاَّ أنْ جرَّ إليه أخاه هارونَ معاتباً على تركه السَّامِريّ يفعلُ ما فعل. قال الله تـعـالـى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾[4].

وكما يدفع الغضبُ الإنسانَ إلى الانتقام أو العداوة أو الكراهية للذين يغضبونه، فإنه في أحيان كثيرة قد يرتدُّ على الإنسان نفسه إن لم يجد أمامه ما يوجه إليه سلوكه العدواني. فقد يغضب الإنسان ويضربُ غيره مثلاً، أو قد يحطم بعض الأشياء المادية التي يجدها في طريقه. ولكن كثيراً ما قد يرتدُّ غضبه إلى نفسه فيصير «غيظاً» أي غضباً مكبوتاً، ومثاله وصف القرآن الكريم للمنافقين وتصويره شدة انفعالهم وهم يعضّون أناملهم غيظاً من المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ

(١) عن أبي سعيد الخدريّ، في مسند أحمد حرف الغين والفاء.

(٢) البخاري، باب الأدب، ص٧٦.

(٣) البخاري، باب الأدب، ص١٠٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

﴿أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وعندما يستولي الغضب على الإنسان كثيراً ما يفقده السيطرة على نفسه، فيظلِمُ نفسه وغيره، حتى لا يعود لعوامل التربية والاعتبارات الإنسانية أي تأثير عليه في مثل هذه الحالة.. لذلك كان خير علاج للغضب الاستعانة بذكر الله تعالى والتروّي، ولا يكون ذلك إلاَّ بكظم الغيظ، أي تغليب الشعور بالسكينة على الهياج.. وخير وسيلة لتهدئة هياج المغضَب هو تركه وشأنه، كما نصَحَ بذلك رسول الله ﷺ، وعدم مواجهته حتى لا يزيد توقد النار في قلبه، ومن ثَمَّ أخذه بالحلم والليونة والصبر. وهذا ما ينصح به أيضاً علماء التربية لإسكات غضب الأطفال.. والعلاج الفعَّال هو ما يأتي دائماً من الغضبان نفسه، وذلك بأنْ يكظم غيظَهُ وهو قادر على إنفاذه، يقول رسول الله ﷺ: **«من كظم غيظَهُ وهو قادر على إنفاذه ملأَهُ الله يومَ القيامةِ رضىً»**[2].

أما ربنا تعالى فيدلنا على الطريق القويم، بقوله جلّ وعلا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

وللغضب درجات عديدة أدناها العتاب، وأشدُّها الغيظ أو السُّخط.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.
(2) ابن ماجه، باب الزهد، ص١٨.
(3) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

يقال في اللغة: غاظَهُ غيظاً أي أغضبه أشد الغضب. والغيظ والسخط شيء واحد، وهما الغضب الشديد المقتضي للعقوبة. ومثاله قوله الله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[١]. والسخط من الله تعالى يعني إنزال العقوبة. قال جل وعلا: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: **«إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»**[٣]. ومعناه أن ابتلاء الله تعالى لعباده فيه اختبار وتجربة، وفيه حكمة إلّهية قد لا يستشعر الإنسان أهميتها بالنسبة إليه أو لغيره من الناس. ولذلك كان القبول بحكم الله تعالى والرضا بما قسمه توكلاً على الله تعالى، وثقة به سبحانه وتسليماً بقضائه. فإن في ذلك الخير والرضا له، وإلاً فإنه السخط الذي يضر بدل أن ينفع، وغضب الله الذي يهلك بدل رضاه ـ تعالى ـ الذي يحيي.

رابعاً: الفرح والسرور

الفرح هو الشعور بانشراح الصدر من جرَّاء تأثير ما يصيب الإنسانَ عندما ينالُ ما يتمنَّاهُ أو عندما يحصل ما يُريحُهُ. .

أما السرور فهو ما كُتِمَ من الفرح لأنه مشتق من الإسرار. والإسرار هو خلاف الإعلان. وأكثر ما يكون الفرح عادة في اللذات الحسية. من هنا كان متاع الحياة الدنيا مصدر فرح وسرور للإنسان، وهذا شأن معظم الناس الذين تغرّهم الحياة الدنيا فيقبلون على ملذاتها فرحين. فهم يفرحون بالصحة وسعة الرزق ووفرة المال وكثرة البنين.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند الجزء الخامس، ص٤٢٧.

وقد تشغلهم هذه المتع فينسون أنها نعم من الله تعالى تفضَّل بها عليهم، وينسون ذكره سبحانَهُ وينشغلون عن شكره وحمده. وهذا من قبيل إنكار النعمة وجحود فضل المنعم. لذلك يشير القرآن الكريم ـ في آيات كثيرة ـ إلى حالات الناس النفسية التي يأخذهم فيها الفرح بمتاع الحياة الدنيا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[2]. ثم يأتي الحكم الإلٰهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[3]. أي لا يحب هؤلاء الذين يأخذهم الفرح الدنيوي فينسيهم ذكر الله تعالى وشكره على منّهِ وعطائِهِ.

أما الذين آمنوا وعرفوا الله تعالى حق المعرفة، وأدركوا قيمة النعم التي يُغدقها ربهم عليهم، فهؤلاء إنّما يعملون للآجلة أكثر من عملهم للعاجلة، حيث ينالون في الآخرة الجزاء الأوفى، ويفرحون ـ وحقَّ لهم أن يفرحوا ـ بهذا الجزاء الذي لا يتأتّى إلاَّ بفضل الله ـ تعالى ـ ورحمته، لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4]. وأمّا فضل الله ـ وهو الفضل الأكبر ـ على الناس فهو: الإسلام؛ وأما رحمة الله الواسعة على العباد فكانت في إنزال القرآن وبعث محمد ﷺ. . فالقرآن فيه كل الرحمة، كما وصفه الكريم بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[6]، وقوله

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ٨٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٦.
(٤) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٧.

تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، وأما بعث محمد ﷺ فهو أيضاً رحمة من الله للناس لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. أجل، فبذلك الفضل، وتلك الرحمة يكون الفرح كل الفرح، وهو خير مما يجمعون من متاع الدنيا وزينتها.. وهذا يعني أنَّ على الإنسان ـ عموماً ـ أنْ يعمل الخير الذي فيه رضا الله سبحانه وتعالى.. أما إذا انصرف الإنسان إلى متاع الدنيا، وجمع الأموال والممتلكات وارتقاء المناصب، ونيل الشهرة وغيرها مما يُعدُّ من متاع الدنيا المادي الصرف، وشغله ذلك عن خير ربه ـ الأجلِّ الأكرمِ ـ فإنَّ فرحه الدنيوي لا يغني شيئاً عن فرح يوم الحساب، باعتبار أنَّ الفرح الدنيوي زائل بزوال هذه الحياة الدنيا الفانية، بينما الفرح الحق يكون في الدار الآخرة حيث الحياة الدائمة الباقية، التي يجب على الإنسان أن يعمل لها، حتى يفرحَ برضوان الله تعالى يوم يدخله الجنة..

وقد أحسنَ أحدهم وهو يصور حقيقة شعور الإنسان في إقبال الدنيا عليه أو إدبارها عنه، وذلك بعدم شدة الاكتراث للإقبال، وعدم اليأس أو الجزع من الادبار، فقال:

ولستُ بمفراحٍ إذا الخيرُ مسَّني ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المتقلّبِ

(والمفراح: هو كثير الفرح).

ومن الفرح الذي يعوّل عليه المؤمنون في الحياة الدنيا، بل أهم فرحٍ على الإطلاق، هو الفرح بنصر الله (تعالى)، كما يثبته قوله

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

الكريم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[(١)]. . ونصرُ الله ـ تعالى ـ يومئذٍ هو ما بشَّر به الوحيُ سيدنا محمداً ﷺ، فكانت نبوءتُهُ بأنَّ الروم من بعد غلب الفرس عليهم سيغلبون في بضع سنين. . أما لماذا يفرح المؤمنون يومئذٍ، فلأنَّ الرومَ أهلُ كتاب سماوي، بينما الفرس كانوا على المجوسية. . وتحقَّقَ نصرُ الروم فعلاً، وفرح المؤمنون فعلاً، ولكنَّ الدلالات لا تنحصرُ وحسب بالنبوءةِ على أهميتها، والتي لا تكون إلاَّ من نبيٍّ مرسل، بل وبما تحمل من أبعادٍ مستقبلية نخصُّ منها اثنتين: الأولى طمأنة المسلمين في مكة بألاَّ يخافوا من حالة الضعف التي كانوا عليها ما دام إيمانهم بربهم قوياً، وصلتهم به وثيقة، والثانية توكيد سنّةٍ إلَهية ثابتة، وهي أنَّ النصرَ من عند الله، وهو ـ سبحانه ـ ينصُرُ من يشاء، وكل نصر لله ـ تعالى ـ هو فرح للمؤمنين، لأنَّهم هم أصحاب هذا النصر. . أما النصر الذي يحققه طلاَّب الحياة الدنيا، ومهما كان نوعه وأهدافه، فإنَّه يبقى في دائرة المتاع الدنيوي طالما أنَّهُ لم يكن في سبيل الله، ومن أجل نصرة دين الله، ومن أجل مصالح الذين يؤمنون بالله العلي العظيم! . . .

ومثل الفرح، فإنَّ السرور في القرآن الكريم إما سرور في الآخرة، وإمَّا سرور في الدنيا.

أما السرور في الآخرة فهو الذي يناله المؤمن جزاءً لأعماله في الحياة الدنيا لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[(٢)]، أي ينقلب إلى أهله في الجنة

---

(١) سورة الروم، الآيتان: ٤ و٥.

(٢) سورة الانشقاق، الآيات: ٧ ـ ٩.

مسروراً بما آتاه الله من فضل ورحمة. . وأما السرور في الدنيا، فهو الذي يتمتع به الكافر، وكلُّ من خفَّت موازينه يوم الحساب، لأنَّه لم يعبأ بالنُذُر، ولم يتكلَّف عناء السعي للآخرة، حتى إذا حلّت الدينونة ـ التي لا بدَّ منها ـ وجَدَ كتابَ أعماله وراء ظهره. أي مليئاً بطلب الدنيا التي تركها وراءه، وحينها سوف ينادي صارخاً بهلاكه ـ أي وهو يصلى ناراً مستعرة ـ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1]؛ فقد كان بين أهله وسلطانه في دنياه هناك، مسروراً، بينما في آخرته هنا، يتنقل بين أطباق نار جهنم المستعرة. .

إذن فالسرور الأعظم هو سرور المؤمن يوم القيامة، حينما يَقِيهُ الله تعالى شرَّ ذلك اليوم، ويخلّصه من العذاب، ليدخله برحمته في جنات النعيم. . وهذا الفرح ـ الذي ينالُهُ الأبرارُ في الآخرة ـ منوطٌ بما كان عليه عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[2].

ومن المعاني التي تدخل السرور على نفس الإنسان البُشرى. فأنت عندما تبشّر بشيءٍ، إنمّا تبشر بخيرٍ فيه مجلبة للسرور على قلب المبشّر، لأن البشرى أو البشارة هي الأعلام بما يظهر به السرور في

(١) سورة الانشقاق، الآيات: ١١ ـ ١٣.
(٢) سورة الإنسان، الآيات: ٥ ـ ١١.

بَشَرَة وجه الذي أتته البشارة. هذا في الأمور العادية؛ أما فيما يتعلق بالعقيدة، فإنَّ في عبادة الله تعالى، والإقبال على طاعته والإنابة إليه.. إنَّ في ذلك أعظم البشرى لعباد الله، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(١). والطاغوت هو الأوثان أو الشيطان، وقيل: كل من دعا إلى عبادة غير الله تعالى.. فقد لا تكون عبادة الأوثان قائمة ـ اليوم ـ على النحو الذي كانت عليه في الجاهلية، لكن أليس الناسُ قد استبدلوها بالأهواء الضالة حتى صار المالُ أو المنصب أو الشهوة.. بمثابة عبادات للناس، لأنَّها هي التي تسيِّرهم، وتقودهم إلى الانحراف عن عبادة الله الحق؟!.. فقد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «ومن أطاع جباراً فقد عبده» فالذين يجتنبون أية عبادة، غيرَ عبادةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هم الذين لهم البشرى.. بل والذين تابوا إلى ربهم وأنابوا إليه، فأقلعوا عما كانوا عليه من عبادات الطواغيت وانحرافات الأهواء. كل أولئك لهم البشرى بالجنة.

ولعلَّ في هذه البشرى التي يسوقها القرآن المبين خيرُ حافز للناس للإقلاع عما هم عليه، والرجوع إلى عبادة ربهم بالإيمان والاستقامة، وسوف يجدونَ في رحاب الله الواسعة، في رحاب عبادة مولاهم الكريم راحةً نفسية في هذه الحياة، قلما يجدوا مثيلاً لها في أي شيءٍ آخر؛ فما أحلاها بشرى على القلوب، وهي تعدهم بالأمان النفسي في دنياهم، وبالنعيم الدائم في آخرتهم..

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ و١٨.

وعبادُ الله الذين يبشرهم القرآن بتلك البشرى العظيمة هم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وهل أحسنُ قولاً من الدعوة إلى الله لقوله العزيز: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

ونبراسُ القول الحسن: «لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له». . ومن شرطه أن يكون صادراً عن إيمانٍ صادق، وقلب خاضع، ولسانٍ ذاكرٍ، وعملٍ صالح. . لذلك يكون القول الحسن أولى بالقبول، والعمل به، وإرشاده إلى الحق. ومن ثَمَّ اتباعُ أحسن ما يؤمر به، ويعمل به، فقد روي عن أبي الدرداء أنه قال: لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً: الظمأ في الهواجر (الصيام في الأيام الحارة)، والسجود في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما يُنتقى طيّبُ الثمر. .

والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾. وهذا هو التوفيق من الله تعالى، لأنَّ الهداية أول ما تبدأ بالاستماع إلى القول الحق، الذي ينفذ إلى القلوب فيفتح مغاليقها، وإلى العقول فينير بصائرها. .

ثُم لم لا يُصغي السمعُ، وتتفتَّحُ القلوبُ والضمائر على هذه البشارة العظمى من الله العزيز الحكيم بقوله المبين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

فهل يمكن أنْ يبتغي الإنسانُ الخيرَ إلاَّ في هذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأحسن الجزاء في الحياة الآخرة الدائمة، حيث يخلدون في جنة عرضها السماوات والأرض؟!

خامساً: حب التملك

غالباً ما يحرص الإنسان، بل ويجتهد في حياته لكي يمتلك الأموال النقدية والعقارية والأثاث والألبسة وغيرها.. ويعتبر المال المحرك الأول لنشاط غالبية الناس في هذه الحياة. وهذا ليس عيباً بحد ذاته، إلاَّ إذا انقلب إلى طمع بتكديس الثروة حتى تصبح المثالَ الأعلى لمن همُّهُ متاعُ الحياة.. والرغبة في المال ناتجة ممَّا له من تأثير في النفس، باعتبار أنَّه زينة الحياة الدنيا، بل ولعلَّهُ من أحب متاعها إلى قلب الإنسان المتعلق بالشهوات.. وقد بيّن القرآن الكريم ما يزيّن للناس حبَّ الشهوت من المال وغيره، إذ يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(١).

إنَّ حبَّ الشهوات إنّما ينبع مما تشتهيه نفوس الناس وترغب فيه، وقد جَعَلَ الله تعالى تلك الشهوات لتكون محل ابتلاء واختبار لعباده، فإمَّا أن يؤدي العبدُ فيما أولاه ربُّهُ من النعم حق الله وحق العباد، وإمَّا أن يبخل ويستغني، ولكل جزاؤه.. ثم يجب ألاَّ ننسى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

الشيطان وهو يزين حب الشهوات للناس، حتى يصير من يأتمر بأوامر الشيطان عبداً لشهواته، فيسيح في هذه الدنيا دونما حساب للرجوع إلى ربه. من هنا جاء النص القرآني ليوجه الناس إلى أنَّ الشهوات مهما بلغ شأوها في النفسي وجب ألاَّ تطغى على الإنسان لأنها في نهاية المطاف متاع زائل. . ذلك أنَّ الإنسان عندما يموت لا يأخذ معه شيئاً من متاع الدنيا، ولكنه سوف يلقى رباً كريماً، عنده حسن المآب لمن لم تغرهم الدنيا بكل متاعها وزينتها. .

ولكي يتوضَّحَ التوجُّهُ في ذهن الإنسان بين إيثار شهوات الدنيا أو التطلع إلى حسن المآب في الآخرة، فقد جاء النص القرآني يعدّد من الشهوات ما يعتبر أكثرها حباً في النفس، وأشدها تأثيراً عليها. . وهذا واقع الحياة يثبت أنَّ النساء والبنين والثروات الفاحشة من المال، التي يشير إليها القرآن بـ ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وبالخيل المسوّمة (الجميلة)، وبالأنعام (مختلف أنواع الحيوانات الداجنة التي تسرُّ الناظرين)، وبالحرث (البساتين من الثمار، والحقول التي تزرع وتخصب). . أجل، كل ذلك إنما يُمثل أهم الشهوات للإنسان، وأهم ما قد يطمع أن يحظى به، أو يحوزه في دنياه. . وعلى الرغم من حب الناس لتلك الشهوات وتعلق النفوس بها، إلاَّ أن ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنهم يتمتعون به ما داموا أحياءً في هذه الحياة الدنيا، ثم يموتون ويتركونه وراءهم. . إذاً فلا بدَّ أن يكون هنالك ما يصبو إليه الناس، ويكون أحسن من متاع الدنيا بأسره لأنه زائلٌ فانٍ. . وهذا ما لا يلاقونه إلاَّ عند الله ربهم، عند المرجع إلى الله حيث الجنة وهي حسن المآب الذي أعدَّه المولى الكريم لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وفي تلك الجنة ما لا عين رأت

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فهل يبقى هنالك من موازنة بين متعة الدار الآخرة ونعيمها، وبين متاع الحياة الدنيا؟

وصدق الرسولُ الأعظم عندما يبن لنا حبَّ الإنسان للتملك، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«لَوْ كانَ لأبنِ آدَمَ واديانِ مِنْ ذَهَبٍ لأَحَبَّ أنْ يكونَ له ثالثٌ. ولاَ يَملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلاَّ الترابُ، ويَتوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ»**[1]. وفي هذا تحذير من الغلوّ في حب الشهوات، لأنَّ على الإنسان أن يرعوي فيحاسب نفسه ويتوب إلى الله عن المعاصي والذنوب ـ التي غالباً ما تدفع إليها الشهوات ـ فيتوب الله تعالى عليه، لأنه هو التواب الرحيم.

سادساً: الطمع

هو نزوع النفس إلى الشيء شهوةً له، وهو يدفع إلى مغالبة ظروف الدهر من أجل الشهوات ـ التي تتخذ أشكالاً عديدة ومتنوعة ـ نظراً لتقلبها بين الناس باختلاف ميولهم وأطماعهم.. ويبرز الطمع في كل ما من شأنه أن يوسع حياة الإنسان ويزيد نفوذه وسلطانه.

وقد يكون الطمع متأصلاً في بعض النفوس بحيث تصعب إزالته منها، أو سد منافذها عليه. وحب السيطرة والأثرة هما من أهم الدوافع إلى الطمع. وحب السيطرة غالباً ما يرافقه حب الظهور، والادعاء بما ليس عند المرء كي يُشعر الآخرين بأهمية وجوده، حتى أن البعض ليقيم نفسه مقياساً لكل شيء، فتراه مدعياً صلفاً مستكبراً بطراً معجباً بنفسه.. إلى ما هنالك من الصفات التي يحب الإنسان أن يُظهر فيها شخصيته، وهو ما يسمى «حب الظهور».

---

(١) صحيح مسلم، باب الزكاة، ص١١٦.

والمطامع التي تستشري في النفوس هي عادة وراء الحروب والنزاعات التي تحصل في العالم. فإن كانت مطامع للأفراد أوجدت التناحر والتباغض والتباعد فيما بينهم، حتى لتؤدي إلى العداوة بين الجار وجاره، وبين الأخ وأخيه!.. وإنْ كانت مطامع للدول أوجدت الظلم والاستغلال والحروب ونهب خيرات بلاد الآخرين، وكل ذلك تحت ستار الحفاظ على المصالح الحيوية، التي تجعلها الدولُ الطامعةُ فوق كل اعتبار، ولو كان فيه موت الآخرين أو تدمير حياتهم، من أجل أن تبقى هي صاحبة السيادة والسلطان!..

وإلى جانب الوجوه السلبية للطمع ـ وهي الغالبة على حياة الناس ـ فإنَّ له وجوهاً إيجابية مثل الطمع في هداية الآخرين إلى الإيمان، والطمع في عطاء الله وغفرانه.. هذا النوع من الطمع محبب عند الله لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾[3].

سابعاً: الحسد

هو انفعال في النفس يُمنّي الإنسانَ بزوال نعمةٍ عند غيره ليصيبها هو أو يصيب مثلها، ويستأثر بها لنفسه. فقد يحسد الإنسان غيره لامتلاكه مثلاً ثروة كبيرة، فيودُّ لو تكون له بدلاً منه. والنموذج الذي يقدمه القرآن الكريم على ذلك هو حسد الناس لقارون عندما خرج في

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥١.

زينته، إذ تمنوا أن يكون لهم مثل ما له من الذهب والفضة والأموال، قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]. وهذا الحسد شائع لدى كثير من الناس الذين يحسدون غيرهم على ما آتاهم الله تعالى من نعمة إيمانية أو نعمة مادية أو نجاح في الحياة.

ومن السوء الذي تأمر به نفس الحسود أنّهُ يتمنى زوال النعمة عن الشخص الذي يحسده، وتحولَّها إليه ـ كما قلنا ـ وربما تمنى زوال النعمة عن غيره من غير أن تصير له.. ولعلَّ اسوأ الحسد ما كان من الأخ لأخيه على ما فضَّله الله تعالى عليه من نعمة أو موهبة. والمثالُ الصارخ ـ ومنذ بداية الوجود البشري على الأرض ـ ما يُنبئ به القرآنُ عن ابنيْ آدم حينما قرّبا قرباناً إلى الله تعالى، فتقبل الله قربانَ هابيلَ ولم يُتَقَبَّلْ قربان قابيلَ، الذي ثار الحسدُ في قلبه ودفعه إلى قتل أخيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]. وكذلك حسد إخوة يوسف له، لأنه كان مقرّباً من أبيه أكثر منهم، فسعَوْا إلى قتله أو التخلص منه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ﴾[3].

وفي القرآن الكريم بيان واضح للحسد على ما آتى الله سبحانه أنبياءه أو أولياءه من فضل في النبوة والحكمة والعلم. قال تعالى:

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٨ و٩.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[١]. ومنه أيضاً حسد أهل الكتاب والمشركين للمؤمنين على ما وهبهم الله تعالى من نعمة الإيمان، فرغبوا في ردهم عن إيمانهم بدافع من الحسد الذي كان يأكل أنفسهم. يقول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

ويثير الحسد في النفس انفعالات عديدة مثل الحقد والكراهية والحزن، وغالباً ما يتحسَّر الحسود على الخيرات تكون لغيره من الناس، فيبغضهم خوفاً من أن يؤدي استمتاعهم بها أو تملكهم لها إلى حرمانه منها. وكلما كانت نعم الله تعالى على إنسان جزيلة وفياضة كثر حسَّادُهُ، فإن قلَّتَ قلَّ هؤلاء الحساد.. قال أبو تمام:

وإذا أرادَ الله نَـشْـرَ فَـضِـيلَـةٍ ... طُوِيَتْ، أَتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

والغبط هو غير الحسد، لأن الغبط يكون بأن يتمنى المرء نعمة له مثل نعمة الآخرين، من غير زوالها عنهم. ولذلك قيل: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد». والمنافسة أيضاً هي غير الحسد، لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل أو مسابقتهم إلى فضيلة من غير تمنّي الضرر لهم. لذلك لا يؤدي الغبط والمنافسة الشريفة إلى الضرر، بعكس الحسد الذي يرمي في الأصل إلى إيقاع الضرر بالغير انتقاماً منه على ما عنده من فضل أو خير أو ملكية. ولذلك ينبهنا خالقنا الكريم إلى أن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

نستعيذ به من الحاسد بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(١) . . وقد أشادَ بعضهم بالحسد لأنَّ ضرره غالباً ما يرتدُّ على صاحبه فيصيبه منه مثل ما يصيب المحسود، أو قد ينحصر أثره بالحاسد وحده. فقد روي عن المعتصم أنه قال: «قاتل الله الحسدَ ما أعدله. . بدأ بصاحبه فقتله».

وتعتبر العين بأنَّها الحاسة الرئيسية التي تصيب بالأذى عندما تنطوي نفس صاحبها على الحسد. والمثل الشائع معروف: «عين الحاسد تبلى بالعمى». أي التمنّي بألاَّ تعود قادرةً على النظر فتصيب بالشر كل ما وقعت عليه. وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «**إذا رَأَى أحدُكم مِنْ نفسِهِ أو مالِهِ أو أخيهِ شيئاً يُعجبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بالبركَةِ فإنَّ العينَ حقٌّ**»(٢). وعن أنَسَ بنِ مالكَ أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ رَأَى شيئاً فأعجبَهُ فقالَ: ما شاءَ الله لا قُوَّةَ إلا بالله لم يَضُرَّه. ويُعوَّذُ المَعْيونُ ـ الذي أصابَتْهُ عينٌ ـ بآياتِ القرآنِ الكريم**». وقد روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين ويقول: «أُعيذُكُما بكلماتِ الله التَّامةِ، مِنْ كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومنْ كلِّ عينٍ لامَّةٍ. . ثم يقرأ الرسول ﷺ المعوذتين وهما: سورة الفلق وسورة الناس». . (والهامّة هي كل ذات سم يقتل كالحية. والعين اللاَّمة هي التي تصيب ما نظرت إليه بالسوء).

أما الأحاديث الواردة في النهي عن الرُّقية فهي محمولة على ما

---

(١) سورة الفلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، مسند أبي يعلى الموصلي، حديث رقم ٧١٩٥.

كان منها بغير اللسان العربي، وبغير أسماء الله تعالى وصفاته وكلامه. أو بسبب اعتقاد المَرْء أن الرقيّة نافعة لا محالة فيتكل عليها.. والاتكال لا يجوز إلا أن يكون على الله سبحانه وتعالى وبعد ربط الأسباب بالمسببات. فمثلاً المريض يجب أن يعرض على طبيب كي يعاينه ويشخص له مرضه ويصف له العلاج للتداوي، ولا بأس بعدها بالدعاء له بالشفاء، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. والرسول الأكرم يقول: «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإنَّ ذلك لا يردُ شيئاً، وهو يطيب نفس الإنسان**»(١).

وأما في حال إصابة الإنسان بعين حسود أو شيء مثيل له، فعليه بالرُّقية بتلاوة آياتٍ قرآنية من قول الله تعالى وأدعية رسوله الكريم، فإنَّ في قول الله تعالى ورسوله شفاءً ورحمة. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

ثامناً: الكرم والبخل

الكرم هو كل بذلٍ دلَّ على إحسان الله تعالى وإنعامه الظاهر والباطن. ومن أسماء الله الحسنى «الكريم»، كما في قول النبي سليمان عليه السلام عندما رأى عرش ملكة سبأ مستقراً أمامه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾(٣)، أي ومَنْ كفر النعمة فإنَّ ربي غنيٌّ عن شكره، كريمٌ بالأفضال على من يكفر بالنعم التي يتكرم بها عليه، مثلما يتكرّمُ بها على عباده أجمعين.

(١) الترمذي، الطب، ص٣٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.

وإذا وصف إنسانٌ بالكرم فهو نعت للأخلاق والأفعال المحمودة التي يتحلّى بها، في حين أنَّ الكريم لا يعبأ أن يوصف بالكرم حتى يُظهره، أو يَظهرَ فيه، لأنَّه سجيَّة مركوزةٌ في طبعه، وإنَّ أكرمَ الأفعال وأشرفها التقوى التي يُقصدُ بها وجهُ الله تعالى، إن في الخشية منه ـ عزَّ وجلَّ ـ، أو اتقّاءَ لمحارمه، أو السير على النهج الإسلامي الصحيح. يقول العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(1)، أي إنَّ أكثركم مَكْرُمةً عند الله، أكثركم تَقْوى. .

والقرآن هو كتاب الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الكتاب الحق، تنزَّل من الحقّ، الذي خلقَ الكون، والوجود كله بالحق، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾(2). ومن هذا الخلق الإنبات في الأرض، وهو خلقٌ كريمٌ كما يصفه خالقهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(3)، وهذا دليل على نظام الخلْقِ القائم على السمو، لأنَّ كلَّ شيءٍ سما وشرف في جنسه فإنه يوصف بأنه كريم. ولأنَّ للقرآن منزلته من الرفعة والسموّ فقد وصفهُ ربُّهُ، ومنزلهُ بأنه «كريم» بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾(4).

والله تعالى عندما يوصي الولَدَ بوالِدَيْه والإحسان إليهما، يوصيه بأن يقولَ لهما أشرَف القول وأنبلَهُ، وهو القول الكريم، وذلك بالأمر المبين: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(5).

---

(1) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(2) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.

(3) سورة لقمان، الآية: ١٠.

(4) سورة الواقعة، الآية: ٧٧.

(5) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

والإكرام والتكريم ما يوصَلُ إلى الإنسان من نفع ولا يلحق فيه غضاضة، أو ما يوصَلُ إليه من شيءٍ شريف.

أما الجود فهو بذل المقتنيات من المال أو العلم، فالذي يبذل ماله على الناس يقال له جواد، ولذلك قيل عن الحصان الذي يجود بمدّخر عدوه: جواد (وجمعه جياد)، وهي صفة الخيول التي كانت عند النبي سليمان عليه السلام، كما يتبين من قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[1].

ويقابل الجودَ البخلُ، وهو إمساك المال عمَّن لا يحق حبسه عنه، أو هو الامتناع عن أداء واجب الإنفاق على مستحقيه. ويقال: رجلٌ باخل أو رجل بخيل، والبخيل هو الذي يكثر عنه البخل.

ويتخذ البخل وجهين: أحدهما البخل بالمال الخاص، فلا يعطي البخيل من مالِهِ أبداً، أو أن يعطي النزر اليسير تحت وطأة ظرف معين؛ والثاني أن يُحرِّضَ البخيل غيره على البخل، فكأنما يبخل بمال غيره، فلا يطيق أن ينفقه صاحبه، وهذا الوجه الثاني أكثر ذمّاً كما يتبيّن من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[3].

---

(١) سورة ص، الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٧.

(٣) سورة محمد، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

. . . فقد باتَ من الثابت ـ وفقاً للقرآن المجيد ـ أنَّ الحياة الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء.. ومن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً، كما بات من الثابت أيضاً ـ وفقاً لكتاب الله تعالى ـ أَنَّ الحياة الدنيا لعب ولهوٌ.. أمَّا ما يخرجها أنْ تكونَ كذلك ـ أي لهواً ولعباً ـ ويطبعها بطابع الجد فهو الإيمان والتقوى اللذين فيهما الأجرُ والثواب في الآخرة حيث البقاء لا الفناء..

والنص القرآني ﴿وَلَا يَسْـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ * إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ إنَّما يعني أنَّ الله تعالى لا يأمركم أن تنفقوا جميع أموالكم في سبيل الآخرين، بل يأمركم بالزكاة والصدقة في تلك الأموال، لأنه إنْ يأمركم بإنفاقها كلها ـ سواء في سبيل الله أو في سبيل العباد ـ فسوف تبخلون، وتعصون أمرَ الله تعالى، وسوف يخرج هذا البخل أحقادكم على الإسلام. ولذلك فرض من أموالكم أداء الزكاة، فهي من أركان الدين، كما حرَّض على الصدقة من أموالكم لأنها من الحسنات الكبيرة التي تؤجرون عليها.. ما يجعل هذا النصَّ القرآني يوحي بحكمة اللطيف الخبير ورحمته بأصحاب الأموال وبالمستحقين للزكاة والصدقات على حد سواء، كما أنه يكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف الدين الإسلامي، ومراعاته للفطرة التي إن استجابتْ لأمر الله تعالى فسوف يجد الإنسان أنَّ في نفقة المال على مستحقيها خروجاً للأضغان، التي هي الأحقاد في القلوب، والعداوات الدفينة في النفوس.. فالغني الذي يؤتي من ماله الزكاة والصدقات إنَّما يفعل ذلك أولاً استجابةً لأمر الله تعالى ومرضاته، وثانياً المشاركة في واجب التكافل الاجتماعي، وكلا الأمرين مما يقرّب بين الأغنياء والفقراء، ويطهّر النفوس من الأحقاد والعداوات التي كثيراً ما تنشأ من جراء

التمايز الطبقي، واستئثار الأغنياء بالثروة دونما التفاتةٍ إلى هؤلاء الفقراء ليزيلوا عنهم بعض الحيف الذي ألحقتهم به ظروف حياتهم!..

وفي هذه الآيات الكريمة وصف دقيق لواقع الناس، في كل بيئة، عندما يُدعون للإنفاق؛ فهي تقرر أنَّ من الناس من يبخل في الإنفاق حتى في سبيل الله ربه وخالقه، بل وفي سبيل نفسه وعياله، فكيف به تجاه الآخرين من الفقراء والمساكين والمحتاجين، والضعفاء والمرضى.. ممَّنْ يحولُ البخلُ وَشحُّ الأنفس دونَ النظر إلى حاجاتهم، ومساعدتهم على قضائها؟!. ولكنَّ الله تعالى لا يترك عبادَهُ الضعاف بلا معين، لذلك نجد في المجتمع بمقابل أولئك البخلاء، مَنْ يبذلون من أموالهم في سبيل مرضاة الله تعالى، فهم ينفقون كامل الحقوق الشرعية المترتبة عليهم، وقد يزيدون عليها من الصدقات والحسنات ما يجعلهم فرحين بالبذل والعطاء.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عما عندكم أيها الناس جميعاً من الأموال. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى ما عند الله تعالى من الخير والرحمة والكرم. وهو سبحانه لا يأمركم بالإنفاق لحاجته وهو مالك الملك، ولكن لتنتفعوا به في أخراكم. وإنْ تُعرضوا عن طاعة الله تعالى، وعن طاعة رسوله الكريم يستبدل بكم قوماً آخرين يكونون أكثر طاعة وتقوى لله تعالى، ولرسوله الكريم، إنْ في الإِنفاق أو في غيره من الطاعات التي يُحبها الله ورسولُهُ، ويحبُّها أهل البِرِّ والتقوى..

ومن البخل الشحّ، وهو مرض من أمراض القلب، يقابل في سوئه، الإسرافَ والتبذير، بل ويتخطاهما في ضرره وخطره. فالواجب الإنفاق من غير إسراف أو تبذير أو تقتير. يقول رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا

الظُلْمَ فإنَّ الظُلْمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، واتَّقُوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ: حَمَلَهُمْ على أَنْ سَفَكُوا دماءَهم واسْتَحلُّوا محارِمَهُم»[١]؛ فطاعة الله تعالى بالتقوى أجرها عظيم عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لما يعدُ به سبحانه المتقين من الفضل العظيم. يقول تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[٢]. فالذين اتقوا ربَّهم لهم منازل رفيعة في الجنة، بعضها فوق بعض، وذلك أنَّ النظر من الغرف إلى الخضر والمياه أشهى وألذ، وقد وعدهم الله تعالى تلك الغرف والمنازل وعداً لا يخلفه، لأنه تعالى لا يخلف الوعد... وهذا كله من باب حرص المؤمن على الانتفاع بتقوى ربه، فلا يفوِّتَنّ أحدٌ هذا النفعَ على نفسه..

تاسعاً: التكتل

إنَّ التكتل مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء، لذلك كان الاجتماع طبيعياً بين الناس للدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش الضارية وضد أخطار الطبيعة العاتية. فكان نشوء المجتمع البشري حاجة ملحة للحفاظ على بقاء الحياة.

أما اليوم، فبالإضافة إلى ذلك، هناك المصالح العامة والمشاعر المشتركة التي تجمع الناس، وتؤلف فيما بينهم في نطاق المجتمع الذي يعيشون فيه. والعلاقات في المجتمع الإسلامي تبنى على جلب المصالح ودفع المفاسد. ثم يقتضي لنا أيضاً توحيد النظرة من خلال توحيد الأفكار، وتوحيد الرضا والسخط، وتوحيد المعالجات من

---

(١) صحيح مسلم، باب البر، ص٥٦.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٠.

خلال نظام واحد يعالج سائر شؤون الجماعة والمجتمع على حدٍّ سواء. وهذا ما يستدعي الرجوع إلى الأنظمة التي يُقرُّها الإسلام سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع والعمل على تطبيقها..

عاشراً: الحزن والأسى والأسف

يقال لغةً: الحُزْنُ والحَزَنُ: خشونة في الأرض. والخشونة تكون في النفس لما يحصل فيها من الغمِّ، فكأنما يجعلها هذا الغمُّ خشنة مثل الأرض. ولذلك يقال: حَزَن يحزَنُ، وحَزَنْته وأحزنتُه.

والحزن شعور في النفس مضاد للفرح. قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾[1]. وهذا الشعور غالباً ما يلازم الإنسان الذي تحفُّ به المكاره أو يُواجه المتاعب، فقد يأتي من فقدان عزيز، أو خسارة شيء ذي قيمة كبيرة، أو فشل في تحقيق أمر هام. ومنه حزنُ أم موسى عليه السلام حين وضعته في الصندوق وألقت به في نهر النيل، فقذفَهُ الموج بعيداً عنها، وفي هذه اللحظات بالذات هلع قلبها وحزنت عليه لولا أنْ ربط الله تعالى على قلبها بالصبر، لتكون من المؤمنين المصدقين بوعد الله؛ وبالفعل فقد تحقق وعدُ المولى الكريم كما يدلنا عليه قوله المبين ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[2]، ومنه أيضاً حزنُ يعقوبَ على ابنه يوسف عليه السلام وقد ظل يكظمه في قلبه سنواتٍ طويلةً حتى ابيضَّت عيناه، كما يبينه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3]

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

ثم عاد يعقوب، ليعبّر عن هذا الحزن العميق في نفسه ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

ومنه الحزن الذي أصاب فقراء المسلمين وهم لا يجدون مالاً ينفقونه لتجهيز أنفسهم والخروج مع رسول الله ﷺ في جيش العسرة، إلى تبوك، فتولوا عنه وهم يبكون من الحزن. قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2] والمعنى: أنه لا مؤاخذة، أو إثم على هؤلاء المؤمنين، الذين أرادوا أن يكونوا في عداد الجيش، ولكنَّ فقرهم حال دون ذلك، فحزنوا وبكوا حتى فاضت أعينهم بالدمع على العسر الذي جعلهم يتخلّفون ـ مرغمين ـ عن أداء واجب الجهاد..

وعندما يقال: لا تحزنْ.. فليس ذلك نهياً عن الحزن الذي هو شعور في النفس لا يمكن تلافيه، ولا يمكن أن يحصل للإنسان بالاختيار، لكنَّ هذا النهي، إنما هوٍ في الحقيقة، عمّا قد يورّث الحزن، أو يخلّف من آثار؛ كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3]. وهو ما قاله الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ وهما في غار ثور، والمشركون يبحثون عنهما من فوق، ومن حولهما أجل، لقد قال الرسول ﷺ لصاحبه «**لا تحزن إنَّ الله معنا**».. فكيف يحزن من يكون الله معه، وتكون ثقتُهُ بربه كبيرة في صرف أسباب الحزن عنه، لذلك كان اطمئنان رسول الله ﷺ بأنَّ المشركين لا يمكن أن

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

يكشفوهما في الغار فالله معهما وهو خير حافظاً، وبالفعل لما لم يكن لبحث المشركين عنهما أي جدوى، فإنَّه لم يورثهما أيَّ حُزنٍ. . وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

وَمَنْ سَرَّهُ أنْ لا يَرَى ما يَسوْؤُهُ   فلا يتَّخِذْ شيئاً يُبالي لَهُ فَقْدَا

نعم إنَّ هذه الحياة الدنيا مجبولةٌ بالأحزان والمآسي لكثرة ما فيها من المتاعب والنوائب. ولكن ما على الإنسان إلاَّ أن يوطّن نفسه على مواجهة صروف الأيام، حتى إذا باغتته نائبة عرف كيف يسيطر على مشاعره، وكيف يتعامل مع الواقع فلا يجعل حزنه شديداً وأثره كبيراً في نفسه حتى لا يهلك دونه. .

والأسى والحزن شيء واحد. إلاَّ أن حقيقة الأسى هو أنه غمٌّ على شيء قد فات وانقضى. يقال: أسيت عليه أسىً. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

والأسف هو الحزن والغضب معاً. وقيل هو الحزن وحده، أو الغضب وحده. والأسف هو انفعال في النفس قد يؤدي إلى المواجهة أو الانتقام. لذلك يكون الغضب درجة فوق الأسف، والحزن درجة دون الأسف. وقد سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال: «مخرجهما واحد واللفظ مختلف. فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً». قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[2]. فمعنى آسفونا هنا: أغضبونا. قال أبو عبد الله علي الرضا عليه السلام: «إنَّ الله تعالى لا يأسفُ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

لأسفنا، ولكنْ له أولياءُ يأسفون ويرضون، فجَعَلَ رضَاهم رضاه، وَغَضَبَهم غَضَبَهُ»، ولذلك يقال عن الآسِفِ: الغضبان. قال تعالى عن النبي موسى عليه السلام: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾[1] غضبانَ ،أي محتدماً شعوره بالغضب من عبادة بني إسرائيل العجل أثناء غيابه، وأَسِفاً: أي شديدَ الحزن على هذا الكفر والشرك اللذين أوقعوا أنفسهم فيهما. .

وهكذا فإن تلك الانفعالات في النفس من: الخوف، والرضا، والغضب، والفرح والسرور، وحب التملك، والحسد، والكرم، والبخل والتكتل بين الجماعات، والحزن. . كلها من مظاهر غريزة حب البقاء التي جبلت النفس عليها، وهذا ما يجعل لتلك الانفعالات تأثيراً قوياً على سلوك الإنسان وتصرفاته. .

٢ ـ غريزة النوع وبعض مظاهرها

كما أنَّ لدى الإنسان مثلَ هذا الشعور الطبيعي بوجوده، ويحرص على هذا الوجود ببقائه حيّاً مدى عمره، كذلك عنده الشعور الطبيعي نفسه ببقاء النوع الإنساني كله، لأن فناء الجنس البشري يهدّد بقاءه كفرد، ولذلك تحتدم في نفسه الميول والانطباعات والمشاعر التي يقوم عليها بقاء بني جنسه، ومن قبيل ذلك الميل إلى المرأة للتناسل والحنان على الأهل والأبناء لإشباع العاطفة العائلية، وإغاثة المحتاج والملهوف ومساعدة الآخرين والتعاون معهم لإشباع الشعور الإنساني. . ويظهر ذلك بالأفعال والمواقف التي قد تأتي منسجمة

(١) سورة طه، الآية: ٨٦.

أحياناً، أو متناقضة أحياناً أخرى طبقاً لنزعة الفرد الإنسانية، وما قد يجيش في نفسه من الانفعالات. . . وكل ذلك إنما يكون تعبيراً عن غريزة النوع التي تظهر بمظاهر عديدة ومختلفة، ومنها:

أولاً: الشعور الجنسي

وهو أشدُّ مظاهر غريزة النوع تأثيراً في حياة الإنسان. فقد يظهر بميول رفيعة، تعبر عن الأدب والحشمة، ويتعاطاه الإنسان لإشباع مشاعره الجنسية بصورة طبيعية، أو قد يظهر بميول شاذة تعبر عن سوء الخلق، وانحطاط الفكر بسبب الخلاعة والمجون، والشذوذ وغيرها من مظاهر التهتك التي تعبّر عن الشهوة الجنسية ليس إلاَّ! . .

وللشهوة معنيان: أحدهما عام، والآخر خاص.

أما الشهوة بالمعنى العام فهي حركة النفس طلباً لما يحقق إشباعها. وأما الشهوة بالمعنى الخاص فهي الرغبة الشديدة في التمتع بالملذات الحسية. ومنها الشهي أو المشتهى، وهو الشيء الذي ترغب فيه النفس وتتوق إليه، ومنها أيضاً الاشتهاء. وإذا أردنا التفريق بين معنى المُشْتَهى والاشْتِهاء قلنا إنَّ مدلول الأول بالمقارنة إلى الثاني كمدلول الشوق إلى الاشتياق: فالأول يسكن باللقاء، والثاني لا يزول به. وكذلك الشهوة فهي تسكن بالإشباع، أما الاشتهاء فلا ينتهي.

والميل الجنسي الطبيعي، أو الشعور الجنسي العادي يكون من الإنسان للإنسان، أي من الرجل للمرأة أو من المرأة للرجل، بينما الميل بالشهوة الجنسية قد يكون من إنسان لحيوان، أو من الذكر للذكر (اللواط) أو من الأنثى للأنثى (السحاق). . وهذا هو الشذوذ الجنسي الذي يُعدُّ انحرافاً للغريزة الطبيعية التي هي غريزة النوع. ويخطىء من

يذهب إلى وجود غريزة للجنس، لأنه لا وجود لغريزة الجنس في الإنسان، بل توجد لديه غريزة النوع، ومن مظاهرها الشعور الجنسي.

والشعور الجنسي لا يثور ـ غالباً ـ بصورة تلقائية إلاَّ في حالات قليلة، وإنّما تأتي إثارته ـ عادة ـ من الخارج، بل هو يحتاج إلى هذه الإثارة الخارجية حتى يتحرك، بحيث لا تكون هناك رغبة في الجُماع ما لم يرَ الإنسان أو يشاهد واقعاً محسوساً يثيره، أو ما لم يسمع عن وقائع جنسية مثيرة، والحالة الوحيدة للشعور الجنسي من داخل الإنسان تكون بالتذكر لحوادث جنسية مارسها، أو تصوَّرها، فتثير فيه عندئذ مشاعر الجنس..

ووجود غريزة النوع بذاتها في الإنسان لا تسبب له القلق والاضطراب إلاَّ إذا أثيرت واستدعت الحاجة لإشباعها، فإذا لم يتمّ هذا الإشباع بصورة طبيعية ظهرت آثاره سلباً، وأدى ذلك إلى الانزعاج النفسي ؛ أما إذا لم يكتمل الشعور بالإشباع لعدم وجود إثارة قوية له، فإنه لا ينتج منه أي انزعاج نفسي، كما لا يتهيّأ أيُّ كبت إذا لم تكن هناك مسببات سابقة له. لذلك وحرصاً على صحة الفرد النفسية، ونظافة سلوكه، وحرصاً على تخليص المجتمع من الفساد والمساوئ، كان من الحماقة والجهل وقصر النظر أن تشيع بين الناس الأفكار التي تثير الأحاسيس والمشاعر غير الطبيعية، كما هو الحال في الأفكار التي تساعد على الشذوذ الجنسي، على ما نجد في الروايات والمجلات، وما نشاهد في الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية وغيرها من الوسائل التي تؤثر في النفوس، وتدفع كثيراً من الناس إلى الشذوذ الجنسي.. وكان أيضاً من أكبر مظاهر الفساد والإفساد هذا الاختلاط بين الرجال والنساء، وإفساح المجال لهم بالخلوة، أو التقاؤهم على

الشواطئ والمسابح شبه عراة، أو احتكاكهم في نوادي العري وغيرها من الأمكنة التي تتيح المخالطة على تلك الشاكلة.. فمثل هذه المظاهر المبتذلة هي التي تدفع الرجال والنساء - والشباب والصبايا خاصة - لطلب تحقيق الإشباع الجنسي بأية وسيلة كانت، بل وتجعل الناس قلقين حين لا يتحقق لهم هذا الإشباع.. ولعمري هذا ليس بشيء من الحرية الشخصية ومظاهر المدنية التي يدَّعون، بل هو الانحطاط الفكري، والابتذال الشعوري اللذين لا يتأتّى عنهما إلاَّ الشقاء والتعاسة في النفوس - حتى في حال الإشباع بالحرام - والسبب الأول في ذلك كله شيوع مثل هذه الفوضى الجنسية في المجتمعات.. ولعلَّ المثال الحسي، ما حصل قبل سنوات عديدة، وفي أحد المجتمعات الإسلامية بالذات، وجود ممرضات بلغاريات في أحد مستشفيات الأطفال في ليبيا، كُنَّ مصابات بمرض الإيدز - الذي ينتج من الممارسات الجنسية - ما أدى إلى نشر هذا الوباء بين الأطفال، وموت وإصابة المئات منهم!.. فهل هذا ما يريده العالم من الحرية الفردية وابتذال مشاعرها الجنسية؟! فإذا وصل الأمر إلى هذا الحدّ في المجتمعات الإسلامية، التي يفترض أن تحافظ على مظاهر الحشمة والأدب، وتمنع شيوع الفساد بين أبنائها، فما بالنا بالمجتمعات الأخرى، التي تعتبر الجنس - بكل مظاهره - من الأمور الشخصية للفرد، وتتعلق بممارسة حريته دون تدخل من المجتمع؟!...

ولو رجع الناس إلى الشرع الإسلامي لوجدوا أنه جاء بمفاهيم تنظم العلاقات الجنسية إيجابياً من خلال نظام الزواج الذي يحقق الإشباع الطبيعي، ويحرّم أية علاقة جنسية خارج نطاق الزوجية.

ولذلك فقد حرص الشرع الحنيف على أن تكون علاقة الرجل بالمرأة طاهرة من أي دنس، وقائمة على ما أحلَّ الله ـ تعالى ـ من الزواج، وبعيدة عما حرم الله ـ تعالى ـ من فسق وفجور، بل وجعل في الزواج الحلال أجراً عند الله . فقد روى مسلم عن أبي ذر الغفاري أنَّ رسول الله ﷺ قال: «وفي بِضاعِ ـ جُماعِ ـ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»[1]؛ قالوا: يا رسول الله ! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيه أجرٌ؟ قال ﷺ: «أرأَيْتُمْ لو وَضَعَها في حَرام أكَانَ عليه وِزْرٌ؟ فَكَذلِكَ إذا وَضَعَها في الحلالِ كانَ لَهُ أجرٌ». ومثل الجماع الحرام، فقد حرَّم شرع الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة المحرَّمة عليه، لأنَّ مثل هذه الخلوة كثيراً ما تثير الشعور الجنسي عند كليهما، والوقوع في الفاحشة، فإذا لم يمارسا الجنس ـ لاعتبارات دينية أو أخلاقية أو اجتماعية ـ فمعنى ذلك عدم إشباع شعورهما الجنسي، ما يسبب لهما ـ حتماً ـ القلق، وبالتالي البحث عن أية وسيلة لهذا الإشباع؛ من هنا كان تحريم الخلوة بين الرجل والمرأة سواء في العمل، أو في الاجتماعات السريّة، أو في أي مجالٍ آخر يؤدي إلى انفرادهما ببعضهما، وقد جاء دليل هذا التحريم واضحاً في أحاديث رسول الله ﷺ، ومنها قوله: «لا يَخلُوَنَّ أحدُكُم بامرأةٍ إلاَّ مَعَ ذي مَحْرَم»[2]، وقوله: «ما اجْتَمَعَ رجلٌ وامرأةٌ إلاَّ وكانَ الشيطانُ ثالثَهُما»[3]، وقوله ﷺ: «ما تَرَكْتُ بَعْدي فِتْنَةً أَضرّ على رِجالِ أُمّتي مِنَ النّساءِ»[4].

لذلك وجب على الناس أنْ يبعدوا ما يثير شهواتهم ـ عامة ـ

(١) أحمد بن حنبل، الجزء الخامس، ص١٦٧.
(٢) البخاري، باب النكاح، ص٤٨.
(٣)، (٤) البخاري، باب النكاح، ص١٧.

ويحرِّك مشاعرهم الجنسية ـ خاصة ـ استجابة لأمر الشرع عند المسلمين، ولدواعي تخليص المجتمع ـ بالنسبة إلى المسلمين وغير المسلمين ـ من كل المشوّقات، والوسائل والسبل التي تثير أية مشاعر قد يؤدي إشباعها إلى تشويه صورة المجتمع الراقي، وتدنيس المعاني الأخلاقية السائدة فيه.. والأهم أنْ يُنقَّى المجتمع من ظاهرة الزنى التي نجدها مستشرية بشدة في معظم المجتمعات، فإن ذلك يُتيح المجال الأوسع للشباب كي يعودوا إلى رابطة الزواج المقدسة، وبناء الأسرة الشريفة، والمحافظة على النسل، وتعود النظرة المحترمة إلى المرأة على أساس أنَّها ـ قبل كل شيءٍ ـ إنسانة ذات كرامة، وأمّ، وزوجة، وربة منزل، وعرضٌ يصانُ، أي بخلاف ما تستعمل له المرأة اليوم من تجارة الدعارة، أو النظرة إليها كأنها سلعة للبيع والشراء ـ كالسيارة أو أي أداةٍ ـ يتمتع بها صاحبها قدر الاستطاعة، ثم يتركها ساعة يشاء، ليستبدل بها غيرَها..

ثانياً: الخجل والحياء

يقال: خجل الرجل خَجَلاً أي فعل فعلاً فاستحى منه، ودُهِش وتَحَيَّر.

والخجل نوع من الشعور بالارتياح أو السرور، أو بالغضب والكبت، وأحياناً الشعور بالندم، مما قد يسمع الإنسان أو يرى، أو يفعل.. ولذلك فقد يرافق الخجلَ التباسُ الأمر على الإنسان فلا يدري كيف يتصرف، أو قد يدفَعُ الخجلُ الإنسان أيضاً إلى التواني عن طلب الرزق بعد أن أعياه الأمر، ما يؤدي إلى الخمول والكسل..

وعلى هذا فإنَّ الخجل شعور يصاحب الإنسان في الموقف

الذي يعتبره حرجاً، وغالباً ما يدل على صراعٍ عميقٍ بين الإرادة والعوائق التي تعترضها. وعندما يحصل الخجلُ في النفس فإنَّهُ يجعل الإنسان عاجزاً عن بلوغ غايته، إذ يشعر أو يفكر بأن وسائله غير كافية، وحيلته قليلة، ولولا اقتناعه بذلك لما اضطرب من خجل أو حياء.

والخجل يندر في زمن الطفولة، ويكثر في زمن المراهقة، ثم يبلغ نهايته، أو مداه عند نمو شخصية المراهق، وشعوره بالحاجة إلى إرضاء الناس، ـ وربما ـ إلى التفوق عليهم، فلا يظهر حينئذٍ إلاَّ في حالة الخطأ، أو المديح الذي يلقاه الخجول من الآخرين..

والخجل لا يظهر إلا بين الإنسان والإنسان، فلا يخجل إنسانٌ من حيوان أو حشرة، بل يخجل من أهله وأقاربه، أو من الجنس الآخر، أو من المجتمع كله. ومثل هذا الشعور يتبدل بتبدل الظروف، والبيئة التي يعيش فيها الفرد، فقد يخجل مثلاً في موطنه من تعاطي أمورٍ معينة، بينما يمارسها في محيط آخر لا يجد فيه حرجاً لممارستها.

وتصاحب الخجلَ عادة مشاعرُ متقاربة بين القبول والرضا، أو الرفض والسخط؛ وتظهر على صاحبه عوارض عديدة، مثل اضطراب الحركات، واضطراب الأوعية الدموية، أو اصفرار الوجه عند البعض، واحمراره عند البعض الآخر. وغالباً ما يحس الخجول بخفقانِ قلبه، وتلعثم لسانه، وقصوره عن ردة الفعل بسبب ما يصيبه من الارتباك..

وللخجل درجات أدناها الحذر، ثم الحياء.

والفرق بين الخجل والحياء أنَّ الخجل يصاحبه الخوف والدهشة والحيرة، وهو يحصل للمرء عند شعوره بالعجز عن ملاءمة الواقع مع نفسه، سواء أكان هذا الواقع قبيحاً أم جميلاً. . في حين أنَّ الحياءَ هو شعور بالشيء القبيح والخوف من إتيانه، والنفور منه، فله إذن معنى أخلاقي، وهو دلالته على الحشمة والوقار. لذلك يكون الحياء هو الحشمة، وانقباض النفس من الشيء، وتركه خوفاً من اللوم فيه. أو بعبارة أوجز هو امتناع النفس عن إتيان القبائح. وهو بذلك يعتبر صفة إنسانية تدفع إلى ستر ما يبتلى به الإنسان من المعاصي، وامتناعه عن كشف ما يخصه من الأمور الباطنية التي لا يريدُ أن يطّلع عليها الغير، كما هو الحال في العلاقات الجنسية التي يريدها أنْ تستخفي على الناس. .

وقد يطلق الحياء على امتناع المرء عن مدح ما في نفسه من الفضائل، خوف الظهور بمظهر الكِبْر والإعجاب بالنفس. قال محمد الجرجاني في كتابه (التعريفات): «الحياء نوعان: نفساني، وهو الذي خلقه الله تعالى في كل نفس كالحياء من كشف العورة، وإيماني، وهو امتناع المؤمن عن فعل المعاصي خوفاً من الله تعالى». وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(١). والمقصود هنا إحدى ابنتَيْ النبي شعيب عليه السلام بعدما سقى موسى عليه السلام لها ولأختها غنمهما، فذهبتا وأخبرتا أباهما بأمره فبعث إحداهما تدعوه إليه، فجاءته تمشي على استحياء، أي على هدوءٍ هو في منتهى الروعة من الحشمة واحترام النفس وأدب

(١) سورة القصص، الآية: ٢٥.

السلوك، لأنها جاءت تمشي مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة من غير تبذّل ولا تبرج ولا إغواء ـ وهذا من شيم الفتاة المستقيمة التي تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال ـ ولا سيما الأغراب منهم ـ أو الحديث معهم.. ولكنَّ حياءَها لا يبدّل شيئاً من ثقتها بنفسها، واستقامتها، فلا تضطرب ذاك الاضطراب الذي يغري ويهيج، إنما تتحدث وتتصرف حيال أيِّ أمر كان، بالقدر المطلوب ولا تزيد.. وهذا ما يشير إليه الحسن عليه السلام وهو يصف إحدى النساء بقوله: «فوالله ما كانت ولاّجة (كثيرة الولوج أي الدخول) ولا خرّاجة (كثيرة الخروج) ولكنها كانت من الخفرات اللائي لا يحسنَّ المشي بين يدي الرجال والكلام معهم».

والرسول الأكرم ﷺ يقول: «الحياء شُعْبَةٌ مِنَ شِعَبِ الإِيمان»[1]. فمن لا يستحي، فلا إِيمانَ لديه يمنعه من ارتكاب المعاصي والفواحش، ومن لم يستحِ من العيب لا يخشَ العار. وهذا دليل على أنَّ الذي يردع الإنسانَ ـ أحياناً كثيرة ـ هو الحياء، فإذا لم يكن لديه حياءٌ، مال إلى السير في كل ضلالة، وتعاطي كل فاحشة.

وبعض نظريات التربية تقول: إنَّ قساوة الأهل والمربين هي التي تولد الخجل والحياء في نفس الولد. إلاَّ أن هناك صغاراً يربون تربية صحيحة ليس فيها أساليب شدة أو قوة أو إذعان، ومع ذلك يكونون خجلين ويستحون، فهذا يعود إلى فطرة الطفل وليس إلى أساليب التربية. ومعالجة خجل الطفل تكون بإشعاره بالثقة بنفسه

---

(١) صحيح مسلم، باب الإيمان، ص٥٧.

دائماً، وإبعاده عن معاشرة من ينمي فيه مشاعر الخجل والاستحياء من كل شيء قد يفعله ولو كان حسناً، وتعويده القيام بأعمال فيها نفع له وللآخرين مثل الألعاب الرياضية، وحضور الندوات، أو الحفلات التي تتيح له التعبير عن نفسه بحرية، وكذلك المشاركة في الخدمات العامة التي تُشعره بأنَّ له دوراً في المجتمع الذي يعيش فيه. .

ثالثاً: العطف والحنان

العطف يقال للشيء إذا ثُنِيَ أحدُ طرفيه على الآخر، كعطف الغصن والحبل، ومنه قيل للرداء المَثْني: مِعطف. وعِطْفُ الإنسان: جانباه من لَدُن رأسِهِ إلى وَرْكِهِ.

والعِطف في المشاعر هو الإعراض والجفاء كما في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾[1]. وهو للشفقة أيضاً والرحمة إذا عُدّي بحرف الجر «على»، مثل: عطف عليه، أو ظبية عاطفة على ولدها. أما إذا عُدّي بحرف الجر «عن» فيكون على الضد نحو: عطفتُ عن فلان، أي ملتُ عنه.

أمّا الحنان، فأصله الشفقة والرحمة، وهو الشعور بالإشفاق والمحبة. يقال للمرأة: حنَّت على ولدها وتحنَّنت عليه، أي تعطّفت، بمعنى رقَّت ومالت إليه بعاطفتها المحبّة، ويقال للصوت الدال على الرقة والحسن: صوت حنون، وللصوت الذي يثير الشفقة: حنين.

ولما كان الحنين متضمناً الإشفاق، وكان الإشفاق لا ينفكُّ من

(١) سورة الحج، الآية: ٩.

الرحمة، قال الله تعالى في خلْق يحيى عليه السلام وبعثه نبيّاً ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾[1]. أي وبعثناه رحمةً للناس من عندنا، وتطهيراً لأنفسهم بالتعاليم التي يحملها. .

رابعاً: الرغبة

أصل الرغبة السعة للشيء.

والرغبة في النفس السعة للإرادة، إلاَّ أنها تقابل الإرادة في أنها قد تطغى عليها وتشطح بها حتى تعطل عملها الإيجابي الذي ينزع إلى الغايات الشريفة.

يقال: رَغِبَ في الشيء: حَرَصَ عليه وَطمِعَ فيه. ورَغِبَ الشيءَ: أرادَهُ وأحبَّهُ.

فالرغبة إذاً هي «النزوع التلقائي الداعي إلى غاية معلومة أو متخيلة». ووراءَ كل رغبة نزعة، كما أنَّ وراء كل إرادة رغبة. بمعنى أنَّ الرغبات مبنية على النزعات. إلا أن الفرق بين الرغبة والنزعة أن الرغبة أخصُّ من النزعة وأكثر تعقيداً.

والرغبة قد تكون مرادفة للشوق، إلا أنَّ الشوق يكون أشد نزوعاً للشيء، وفي لغة العواطف يكون الشوق أخف من الاشتياق، لأن الشوق يسكن بلقاء المحبوب، والاشتياق لا يزول بلقائه.

والرغبات تعتبر من أهم المحركات في النفس الإنسانية، وهي التي تدفع إلى طلب اللذائذ والمتع. وكل ما ينتج من الإنسان من

(١) سورة مريم، الآية: ١٣.

تصرف قد يكون له علاقة برغباته، حتى لقد قيل: إنَّ الإنسانَ باقةٌ من الرغبات.

خامساً: الكرْهُ

الكُرْهُ هو المشقة التي تنال الإنسان من خارج، فيما يُحمل عليه بإكراه. كما أن الكُرْه هو ما يُشقي الإنسانَ من داخله ـ أي من نفسه ـ وهو يعافه، وتكون هذه العيافة على نوعين: أحدهما ما يُعاف من حيث الطبع. والثاني ما يُعاف من حيثُ العقل أو الشرع. ولهذا يَصِحُّ أنْ يقولَ الإنسانُ في الشيء الواحد: إني أُريدُهُ وأكرهُهُ، بمعنى أني أريده من حيث الطبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشرع، وأريده من حيث العقل أو الشرع وأكرهه من حيث الطبع. ومنه قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. ومعنى «وهو كره لكم» أي تكرهونه من حيث الطبع. وهذا ما يعلّمُ الإنسانَ بألاَّ يأخذَ بكراهيته للشيء، أو بمحبته له، حتى يعلم حاله ومآلَهُ..

فالكره هو شعور بعدم الاستحسان أو عدم القبول، أو هو شعور بالنفور والاشمئزاز، والابتعاد عن كل ما يثير المشاعر التي تمجُّها نفس الكاره، سواء كان الباعث إليها الناس أو الأشياء أو الأفعال..

والكره بين الناس له مسببات عديدة، فقد يحصل بسبب الخلافات الناشئة عن المعشر، كما في الكراهية بين الزوجين، أو بسبب التباين في الآراء بحيث يؤدي الاحتدام في المناقشات، أو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الطروحات الفكرية ـ في أحيان كثيرة ـ إلى عواقب وخيمة، أو بسبب التفوّق الذي يحرزه البعض ـ في مختلف المجالات ـ ويولّد الإحباط في نفوس المتفوَّق عليهم، إلى ما هنالك من الأسباب التي تولّد مشاعر الكراهية عند الناس، التي تختلف باختلاف العلاقات البشرية، وتنوع الأفكار، وتنوع مجالات الحياة وتعددها، فضلاً عن المؤثرات في النفوس، وتضارب المصالح والأهواء.. ولكن هنالك شعور واحد يجمع بين كل الناس، أو الأكثرية العظمى منهم، وهو كراهيتهم للموت، مع أنه في مفهومنا الإسلامي هو حقٌ، ولكنَّ الكراهية لهذا الحق ناتجة من أنه يُفقد الإنسانَ وجوده، ويغيّبه عن هذه الدنيا إلى غير رجعة، علماً بأنَّ الإنسان يكره ـ بالطبع ـ كلَّ ما يؤذيه ويؤلمه في نفسه، أو ماله، أو أبنائه أو إنسانيته، فكيف بالذي يؤدي إلى زواله الدنيوي؟

ومن التصوير القرآني لمشاعر الكره، أو الكراهية، أحوال المنافقين ـ الذين دخلوا ظاهرياً في الإسلام وقلوبهم مليئة بالأحقاد عليه وعلى نبيّه وأتباعه ـ إذ فرح المتخلّفون منهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ، إلى تبوك، لأنهم كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، كما قال عنهم عز وجل: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١)... ولكن في الحقيقة ليس تخلّفُهم ناتجاً من رغبتهم أو إرادتهم كما يتوهمون، بل أمره بيد الله سبحانه، فهو السميع لأقوالهم، العليم بنفوسهم ـ وما تكنّ من كراهية للإسلام ـ فلم يشأ سبحانه خروجَهم مع النبي ﷺ في غزواته، لئلا يبعثهم يوم القيامة مع

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.

المجاهدين في سبيله تعالى، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.. ولذلك قدَّر ـ سبحانه وتعالى ـ في سابق علمه، أنْ يجعلهم مع القاعدين خلاف رسول الله ـ أي وراءه ـ مع المرضى والنساء والصبيان الذين لا يقع عليهم عبء الجهاد، فثبطهم عنه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[1].

ومثل كراهية المنافقين للجهاد، كذلك كراهيتهم للإنفاق، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۞ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[2].

وكيف يُتقبَّلُ منهُمُ الإنفاقُ، سواء أَتَوْهُ طَوْعاً أو كَرْهاً، وهم على أخبث ما يكونون بشراً: كانوا قوماً فاسقين ـ «كفروا بالله ورسوله» ـ «ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى»، «ولا ينفقون إلا وهم كارهون».

هذا بالنسبة إلى المنافقين،

أما المؤمنون فهم على خلاف ذلك تماماً، إذ يكفي للدلالة على صدق إيمانهم أنهم يتوجهون بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أنْ يغفر لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأنْ يزيل أية كراهية في نفوسهم لهؤلاء الإخوة، وألاَّ يجعل أي غلٍّ في قلوبهم، كما ينبئنا قول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٦.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٥٣ و٥٤.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فالمؤمنون الصادقون الذين أخلصوا النية لله ورسوله، كانوا يدعون، وسوف يبقون على دعائهم إلى يوم القيامة لإخوانهم من المهاجرين والأنصار الذين سبقوهم بالإيمان، ويرجون ربَّهم تبارك وتعالى ألاَّ يجعل في قلوبهم لا حقداً ولا كراهية للمؤمنين أينما كانوا، وأملهم بربهم كبير، لأنهم يعلمون أنَّ ربهم رؤوف رحيم بالناس أجمعين.

سادساً: الغَيْرة

وهي حالة انفعالية تدفع المرء إلى منع غيره من مشاركته في الشيء الذي يحبُّه ويريده لنفسه. نقول غار الرجل على امرأته، أي ثارت نفسه عليها لإظهار زينتها ومحاسنها لغيره، أو لانصرافها عنه إلى آخر. وأشد أنواع الغيرة ما كان من الزوج على زوجته أو من الزوجة على زوجها، ومن الأب أو الأم على ابنتهما ـ بمعنى حرصهما عليها ـ أو ما كان من غيرة الصديق على صديقه لئلا يقع في خطأ يؤثِّر على حياته. ومن الغيرة ما يحدث في نفوس الأخوة إذا شعروا بأنَّ والدَيْهم يحبان أحدَهم أكثر من الباقين، أو في نفوس الموظفين تجاه بعض الزملاء الذين يؤثرهم رئيسهم، ويفضّلهم عليهم.. وقس على ذلك جميع المشاعر التي تولّد الأثَرَة، وتتسبَّبُ في إثارة الغيرة، ما يجعل الغيرةَ ـ إجمالاً ـ شعوراً خاصاً من المحبّ على من يحبُّ، إلاَّ أنها لا يجوز أن تكون عاملاً لهدم العلاقات الطيبة بين الناس..

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

تلك هي أهمّ مظاهر غريزة النوع، من بين مظاهر عديدة أخرى لهذه الغريزة التي أوجدها الله تعالى في نفوس الناس لحفظ الجنس البشري، واستمراريته منذ آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها..

٣ ـ غريزة التدين أو التقديس

والتديّن يُعدُّ أيضاً غريزةً أساسية في فطرة الناس، مثل غريزة البقاء وغريزة النوع، فهو شعور بالحاجة إلى الخالق المدبّر، بغض النظر عن تفسير هذا الخالق المدبّر، لأنَّ الذات الإلهية سرٌّ مغلقٌ على الإنسان، ومحالٌ عليه أن يدرك هذا السرَّ، مهما بلغ من النضوج الفكري. ولذلك يحذرنا رسول الله ﷺ، بقوله: **«تفكَّروا في آلاءِ الله ولا تَفَكَّروا في الله»**[١]، فكانت معرفتنا بحقيقة وجود الله تعالى من خلال آياته المركوزة في أنفسنا، وآياته المبثوثة في آفاق السماوات والأرض.. وتلك الآيات، على جلالها، هي التي توجب القدسية للخالق العظيم في القلوب المؤمنة، والتعبّد له من الجوارح الطائعة.. وهذا هو التديّن، الذي وجد بوجود الإنسان، سواء أكان مؤمناً بالله، وبأنه هو الخالق العظيم، أو كان كافراً وعَبَدَ غيرَ الله تعالى كما في عبادته الكواكب، أو النار، أو قوى في الطبيعة، أو ابتداعه آلهةً تقربه إلى الله زلفى.. فالشعور الديني حتمي لأنه يخلق مع الإنسان، وهو جزء من تكوينه النفسي ، يلازمه منذ أنْ تتفتح مداركه على الحياة، ولا يفارقه حتى الممات، والرحيل عن هذه الحياة إلى حياة أخرى تختلف كلياً عما كان عليه الإنسان ههنا!...

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمر.

والعلَّةُ للتدّين ـ كما تفسّرها حياة الإنسان ـ متأتيّة عن شعوره بالضعف أو عجزه عن إشباع غريزة البقاء، وإشباع غريزة النوع في كثير من القضايا التي يوكل فيها الإنسان أمرَهُ إلى قوة غيبية، يعتقد أنها قادرة على حلّ قضاياه تلك، فيستسلم ـ شعورياً ـ لتلك القوة، وينقادَ إليها رغماً عنه، والمثال الذي يوضِّح هذه المشاعر نجده في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(١).

فأيّاً ما تكن قوة الإحكام في صناعة الغواصات، والفُلْك ـ عملاقة أو صغيرة ـ فاسألِ البحّارة كم يلاقون من الشدةِ، واسألهم إلى من يلجأون في وقت الحرج ـ سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين ـ فالمؤمن يتوجه حتماً بالدعاء إلى الله تعالى؛ والكافر قد يتوجه بدايةً إلى القوة التي يقدّسها، ويتوهم أنها تنجيه من الخطر، ولكنَّه في قرارة نفسه سرعان ما يشعر بوجود الله تعالى، وبأنه وحده القادر على أنْ ينجيه في تلك اللحظات الحرجة، فيعود ويتوجه إليه بالدعاء، لأنه استيقن في نفسه بأنَّ الله هو ربُّ الأرباب، وهو على كل شيء قدير، فإنْ يشأ يُنجِّهِ، وإنْ يشأ يغرقْهُ، يقول الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾(٢).

فالآيات القرآنية تحثُّ الإنسان على عبادة الله تعالى، والإنسان ـ شاءَ أو أبى ـ إنّما يعبد الله ربّهُ، أو يتقرب إليه زلفى بعبادة الأوثان، أو

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) سورة يس، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.

قد يذهب بعيداً فيتديّن للقوى، التي تكون في غالبها قوى فكرية أو غيبية، يعتقد أنها تعينه على البقاء، وتحفظ له النوع البشري، وهذا الشعور الغريزي هو ما يسمى التقديس، فإذا ظهر بالتعبّد لله تعالى كان عبادة، وإلاّ كان شعوراً بالتعظيم والتبجيل. . .

فالتقديس إذن هو منتهى الاحترام القلبي، وهو أمر فطري له مظاهر متعددة أعلاها العبادة بأنواعها، وليس هو بناتج من الخوف، بل من التديّن، لأن التقديس لا يمكن أن يكون الخوف، إذ إنَّ الخوف كثيراً ما يكون تعبيراً عن التملق، أو الدفاع أو الهروب، وذلك يناقض حقيقة التقديس. . لذلك كان الإنسان متديّناً منذ أوجده الله تعالى على الأرض، فعبدَ الشمس، والكواكب والنار، وقدَّس آلهة بشراً كما في تقديس الناس للفراعنة في مصر، وتقديس الرومان للأباطرة، مع الإشارة إلى أنَّ كثيراً من الفراعنة مات مسموماً من الذين كانوا يظهرون تقديسهم. .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى أباطرة الرومان، الذين كثيراً ما كانت بطانتهم وقادتهم يقومون بالانقلاب عليهم، فيقتلونهم ويعتلون العرش مكانهم. .

ولا نجد على مرّ التاريخ البشري شعباً من الشعوب تحلّل من الشعور الديني ـ أياً كان نوعه ـ ولكنَّ جحودَ الإنسان لنعمة خلقه، وتنكره لفضل خالقِهِ كان يبعده عن التديّن الحق، والتعبّد لله الواحد الأحد، ومع ذلك فإنَّ اللطيف الخبير لم يترك الإنسانَ سدىً، بل كان يبعث الأنبياء والمرسلين لهداية هذا الإنسان، وإعادته من ضلاله إلى الهدى والرشد. . ومن اللافت هنا أيضاً أنَّ مِنْ أتباع الرسالات

السماوية من أشركوا في العبادة لله ـ تعالى ـ ولم يدينوا دين الحق، كما يقول عنهم عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[1].. أما أهل الإسلام، فمنهم من يعبدون الله عن طريق التقليد، لأنَّ آباؤهم كانوا مسلمين، ومنهم من يعبدون الله ـ تعالى ـ عبادة العاقل، العارف، المؤمن بأنَّ الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله .. وهذه أسمى العبادات لأنَّها عبادة مَنْ قدروا الله حق قدره، فعنت وجوههم لمولاهم، وسعت جوارحهم لمواطن تعبده.. ولكن مهما كانت معرفة المسلم بالله ربّه ـ أو عن طريق العقل ـ فإنَّ المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، يدينون بدين التوحيد، ويقدسون الله تعالى، الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له.. وإلى جانب اعتقاد أهل الكتاب والمسلمين بحقيقة وجود الله تعالى وإيمانهم به ـ رغم إشراك أهل الكتاب ـ ففي الأرض اليوم معتقدات دينية أخرى مثل البوذية والهندوسية ـ ولهما أتباع كثيرون في الشرق الأقصى ـ وجميعها تؤكد على حاجة الإنسان إلى التدّين أو التقديس تلبية للفطرة البشرية، بدليل أن بعض الشعوب التي أجبرها حكامها أو قادتها ـ من المفكرين والسياسيين ـ على ترك ظاهرة العبادة، أبت إلاَّ أن تكون متديّنة، ولو لم تقم بواجب أداء الطقوس الدينية علناً، بسبب القوة التي كانت السلطة تمارسها عليها، وتمنعها من ذلك.. ما يعني أن التديّن أمر حتمي، ولا يمكن لأية قوة أنْ تنتزع غريزة التديّن أو التقديس من نفس الإنسان، لأنها تشعره بحاجة ملحة إلى معبود يطمئن إليه في قرارة

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

نفسه، ويتوكل عليه في حياته، ويركن إلى عبادته في خلواته، أو في معابده. . .

أما ما يبدي الملحدون من عدم الاكتراث بالعبادة، أو الاستهزاء بها، فلا يعني ذلك كفراً مطلقاً، بل هو تحويل عن غريزة التدين إلى أفكار أو معتقدات غالباً ما تستعمل في سبيلها المغالطات، والتفسيرات الخاطئة للأشياء. ومن هنا كان التحوّل من الإيمان إلى الكفر أصعب ما قد يواجه عقلَ الإنسان ونفسَهُ، لأنه تحويلٌ عن الفطرة، وذلك يحتاج إلى جهدٍ كبير. وما أصعبَ أن ينصرفَ الإنسانُ عَنْ خصائصِ طبيعتهِ وفطرتهِ. ولذلك نجدُ الملحدينَ ـ حينما ينكشفُ لهمُ الحقُّ ويدركون حقيقة وجودِ الله تعالى، بالعقلِ، إدراكاً جازماً ـ يُسرعونَ إلى الإيمان، فيشعرون بالراحة والاطمئنان، ويزول عنهم الكابوس الذي كان يرهقهم، وإيمان هؤلاء وأمثالهم يكون راسخاً قوياً لأنه نابع من الإحساس الذي أدّى بهم إلى اليقين، ولأن عقلهم ارتبط بوجدانهم، فأدركوا إدراكاً يقينياً حقيقة وجود الله تعالى، وشعروا شعوراً عميقاً بهذا الوجود السني، والتقت فطرتهم بعقلهم، فتكوّنت قوة الإيمان عندهم.

وغريزة التدين لها مظاهرها أيضاً مثل الغريزتين الأخريين، ومن مظاهرها:

أولاً: العبادة

من الحقائق الإيمانية أنه لا يجوزُ أنْ تُترَكَ العبادةُ لوجدان الإنسان يُقرّرها كما يطيب له، أو يؤدي مراسمها أو شعائرها كما يَتَخَيّلُ أو يريد، بَلْ لا بدَّ أن يتدخل العقلُ لتعيينِ المعبود الذي يستحق

العبادة، لئلا يضلَّ الوجدان أو يخطئ في معرفة المعبود الحق، إذ كثيراً ما لجأ الإنسان، ولا سيما في الأزمان الغابرة، لعبادةِ أشياءَ جامدة، أو لتقديس أشياء مُحْتَقَرةٍ، لأنَّ الوجدان فيه الهوى، والرقة، والانفعال، والميل. . وما إلى ذلك من المشاعر الوجدانية التي لديها قابلية الخضوع السهل، العفوي، بعيداً عن أعمال العقل. . فإذا تُرِكَ الوجدانُ وَحْدَهُ يُقَرِّرُ ما يَعْبُدُهُ الإنسانُ فإنَّ ذلك قد يؤدي إلى الضلالِ في عبادةِ غيرِ الخالقِ، أو إلى التوهُّم في التقرّبِ إلى خالقٍ بما يُبعدِ عنهُ. ذلك أن الوجدان أو الضميرَ إحساسٌ غريزيٌّ أو شعورٌ يتراءَى أمامَ واقعٍ محسوسٍ فيتجاوبُ معهُ، أو هو تفكيرٌ يُثيرُ هذا الشعورَ بأهمية أو عظمِ الواقع المحسوس، فإذا أحدثَ الإنسانُ رجعاً لهذا الشّعور دونما تفكيرٍ فربّما أدّى ذلك إلى الخطأ والضّلالِ. . فقد تَرى مثلاً في الليل خيالاً فتظنّهُ عدوّاً لكَ، فتتحرّكُ فيكَ غريزةُ البقاءِ في الخوف الذي يظهر منك، فإذا استجبْت انفعالياً لهذا الشعور وأحدثْتَ الرّجعَ الذي يتطلّبُهُ، وهو الصراخُ أو الهربُ، كانَ ذلكَ خطأً منكَ، لأنكَ تكونُ عندئذٍ، سخريةَ السّاخرينَ. ولكن حينَ تَستعملُ عقلكَ، وتفكّرُ، قبلَ أن تُحدِثَ الرّجعَ الشعوري بالخطر، فقد يَتَبيّنُ لكَ ما يجبُ أن تقومَ به. . . إذ قد يكونُ الشبحُ أو الخيال عموداً كهربائياً أو شجرةً أو كلباً أو دابةً. . وحينئذٍ يتبدّد الخوف الذي اعتور شعورك وتُكمِل سيرك وأنت مطمئن البال. لذلك لا يجوز أن يضطرب الإنسان بناء على دافع الخيال أو الوهم المتأتي عن شعور وجداني لوحده، بل لا بدَّ من استعمالِ العقلِ معه. وعلى هذا لا يجوزُ أن تكونَ عبادةٌ إلاَّ وفقَ ما يرشدُ العقلُ حتّى تكونَ العبادة مستحقة لِمَنْ تَهْدِي الفطرةُ لعبادتِهِ، وهوَ الله تبارك وتعالى، الذي يَشْعُرُ الإنسانُ دائماً بالحاجةِ إليهِ، وهذا

ما يرشدنا إليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[2]، أي نخصك يا الله وحدك بالعبادة فلا نعبدُ إلاَّ إيّاك، ونوحدك فلا ندين بالعبودية لإله غيرك، لأنه لا إلّه إلاَّ أنت ربُّ العالمين، وإيَّاك نستعين بالضراعة إليك وطلب العون على مختلف الطاعات التي ينال بها عبادك رضاك، كما نستجير بك لأنه لا حولَ لنا عن المعاصي ولا قدرة لنا على الطاعات إلاَّ ما تشاء لنا يا ربَّ العالمين، بَلْ وهذا ما قضيت به، يا ربَّ العرش العظيم، منذ خلقت أبا البشرية آدم عليه السلام، وأنشأتَ منهاج الخَلْق البشري كله بما أودعت في الزوجين من نظام هذا الخلق، وجعلته أيضاً نظاماً لجميع الكائنات الحية ثم قضيت بحكمتك السنية أن تَعبدك جميع مخلوقاتك، الحية والجامدة، وألاَّ تعبد إلهاً غيرك، ولا ربّاً سواك، توكيداً لقولك الكريم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3].

ثانياً: الخشوع والضراعة

يقال: خشع له يخشع خشوعاً، أي خضع له وذلَّ. وخشع ببصره: غضَّه، وأخشعه إخشاعاً إذا أخضعه.

ويقال: ضرع يضرعَ ضَرَعاً وضَرَاعة: استكان وذلَّ وضعف، وفي الأمثال: «الحمّة أضرعتني للنوم» وهو يقال في الذل عند الحاجة. وتضرَّع إلى الله: ابتهل، وتذلَّل. ويكون التضرّع ـ عادةً ـ في طلب الحاجة مع شيءٍ من التذلُّل، ولذلك كان في الخشوع أو

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٤.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

الضراعة خضوع، وتذلل لله تعالى.. والخشوع أكثر ما يستعمل فيما يوجد على الجوارح، بينما الضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب. ولذلك قيل: «إذا ضَرَعَ القلبُ خشعتِ الجوارحُ» قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(١)، أي خاضعون لربِّهم، منقادون لطاعته، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾(٢)، أي سكنت وخضعت أصوات العباد للرحمن في نقلها إلى المحشر والحساب.. وعن حالةِ المجرمين يوم الدين يقول تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾(٣)، أي ساكنةً أبصارهم فلا يرفعونها من شدّة الذل الذي يغشاهم يومئذٍ..

وعن الضراعة ينبِّهنا مولانا الكريم إلى ما في الدعاء والضراعة إليه بتذلّل وانقياد من طمع في نيل رحمته، فيأمرنا بقوله العزيز: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٤)، أي ادعوا ربكم في أية حال تكونون، وليكن في دعائكم رهبةٌ وسكنٌ، في العلن والخفاء، وبعيداً عن التشدّق ورفع الأصوات.. ويقول تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾(٥)، أي اذكر أيها الإنسانُ ربَّك سرّاً في نفسك، وبتذلّل، وخوفٍ منه تعالى، وعن وعيٍ، وقصدٍ. وليكن ذكرُك لربِّك في أوائل النهار وأواخره، ولا تكنْ من الغافلين عن ذكره تعالى في كل وقتٍ وحينٍ

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥

لأنَّ في ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ طاعةً مؤنسةً، وطمأنينةً قلبيةً، وراحةً نفسيةً وبدنيةً. .

ثالثاً: الخشية

وهي مشاعر من الخوف يشوبه تعظيم. وقيل الخشية أشد من الخوف لأنها من عظمة المخشيّ، والخوف من ضعف الخائف.

والخشية في العبادة أكثر ما تكون عن علم، ولذلك خُصَّ بها العلماء في كتاب الله المبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[(٢)]. ومن أحقُّ أنْ يخشى الله تعالى بالغيب سوى العلماء؟ لأنَّ خشيتهم نابعةٌ من عقولهم وأفئدتهم على سواء ـ فهو جَلَّ أنْ يُرى إلاَّ بالبصيرة ـ فيعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بعظيم قدرته، لأنَّ كلَّ شيء في الوجود يدلُّ على صنع الله تعالى وقدرته. والعالِمُ إنَّما يخشى الله تعالى لأنه أحذرُ لعقابه من عبادِهِ الجاهلين الذين لم يدركوا ما أدرك العلماءُ من معاني التوحيد، من هنا تتغلَّبُ في إيمان العالم معاني الألوهية والربوبية، ومعاني العدل الإلهي، فيصدّق بالبعثِ والحساب، والجنة والنار.

رابعاً: الحب

يقال: أحببتُ فلاناً إذا جعلتُ قلبي معرَّضاً لحبِّهِ؛ وقيل «حبة القلب» تشبيهاً بالحبّة في الهيئة. فإذا قلت: أصاب «حبة قلبي» فمعناه أحببتُهُ في أعماقِ قلبي، ومثلها شغفته، ومعناه أصبت شغافَ قلبه، أي

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة ق الآية: ٣٣.

غِطاءَ قلبِهِ. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[1]. أي أصاب حبُّهُ شغافَ قلبها، ونَفَذَ منها إلى أعماقِهِ.

والحب هو أيضاً من المحبة، والوداد، والميل الشديد إلى الشيء السار النافع.

وكثيراً ما يكون الغرض من الحب تأمين الحاجات المادية، أو إشباع الغرائز والحاجات العضوية، ويقوم على تصور أو على شعور فيه انجذاب شديد إلى المحبوب أو الشيء النافع. ولذا ينشأ الحبُّ عن عوامل عديدة منها ما هو غريزي، ومنها ما هو كسبي، ومنها ما هو انفعالي أو إرادي مصحوب بالتصوّر. والفرق بين الحب والرغبة أنَّ الرغبة حالة آنية، على حين أنَّ الحبَّ نزوعٌ دائم يتجلى برغبات متتالية ومتعاقبة. وفي لغة المشاعر فرقوا بين الحب العُذري والحب الشهواني. فقالوا إن الحبَّ العذري هو حب محض، مجرد من الشهوة والمنفعة، بينما الحب الشهواني يكون حباً أنانياً غايته إرضاء الرغبات والمآرب المليئة بالشهوة. .

ويلعب الحب دوراً هاماً في حياة الإنسان الخاصة، وفي علاقاته بالآخرين، وفي الصلة التي تربط الإنسان بربه. ولذلك فهو يظهر بصور شتى: حب الإنسان لنفسه، حبه للناس، وحبه لله تعالى ورسوله.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

أ ـ حب الإنسان لنفسه

يرتبط حب الإنسان لنفسه بتأمين حياته الفردية، عن طريق تنمية طاقاته، وتوسيع إمكاناته التي يظنُّ أنها تحقق له السعادة واللذة، وتبعده عن كل ما يعوق نفسه أو يلحق بها الأذى والضرر. ويعتبر هذا الحب مظهراً من مظاهر غريزة البقاء، ويرتبط بكثير من مظاهرها الأخرى مثل حب التملك،أو أيِّ خيرٍ يمكن أنْ ينالَهُ حَاضِراً ومستقبلاً.

وقد عبَّرَ القرآنُ الكريم عن حب الإنسان لنفسه بما يتمنَّى من كثرة الخير الذي يُحبُّ أن يُؤْتاهُ، وهذا ما اتخذَهُ رسولُ الله ﷺ حجةً دافعةً لمواجهة المشركين عندما طلبوا منه ـ في محاولة لتعجيزه ـ أن يأتيهم بجبال من ذهب، أو أنهار تتدفق في الصحراء، وغير ذلك من المعجزات، فأوحى إليه ربه أن يجيبهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[1]، أي لأحببت الإكثارَ من الخير لنفسي، حاضراً ومستقبلاً، وما مسني سوءُ الفقر بنابه.. بل وحبُّ الإنسان للخير هو حبٌّ شديدٌ في أصل تكوينه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2]. لأنَّ بمعناه الشمولي، الخير هو كل ما يفيد الإنسان في حياته مادياً أو معنوياً، لذلك كان توكيد القرآن الكريم على أنَّ الإنسانَ لشديدُ الحبّ إلى الخير، ولا سيما المال منه..

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة العاديات، الآية: ٨.

ب ـ حب الناس

وهذا الحب ناشئ عن العلاقات الاجتماعية والعلاقات المجتمعية، وحاجة الناس إلى بعضهم، لأنَّ عليه تُقامُ أواصرُ التعاون والتكافل، وروابط المشاعر والأهداف المشتركة، وغيرها من الدوافع التي تعزِّز وجود الجماعات، ولا سيما في التنمية والتطور في شتى مجالات الحياة. . وحب الآخرين يعتبر مظهراً من مظاهر غريزة النوع، التي أودعها الخالق في الأنفس للحفاظ على الجنس البشري، إذْ إنَّ فناء البَشَرِ إنَّما يعني فناء كل فردٍ منهم، لذلك كان محتوماً أنْ تتداخل الغرائز، ولا سيما غريزة البقاء مع غريزة النوع، ليحصل التماسك المطلوب في بناء المجتمعات، وتمتين العلاقات الإنسانية.

ومن هذا الحب: حب الزوجين لبعضهما، وحبهما لأولادهما، أو حبّ المنفعة للغير: كمحبة الكريم للمساكين، والقوي للضعفاء، والغني للفقراء وإنْ كان العَطف والرحمة والرأفة تعتبر من أهم المقومات للحربِ على الآخرين، والإحساس بحاجاتهم، والنظر بأوضاعهم. . وقد تتداخل في نفس الإنسان مشاعر أخرى، وأهمها المشاعر التي تتعلق بالقيم والمثل: كمحبة العالِم للحقيقة، والحاكم للعدل، والشاعر للجمال، وما إلى ذلك من المعاني التي تلذها الأنفس، ويحبها الناس. . .

ويشيد القرآن الكريم بالمحبة والتآلف بين الناس، وبتعاونهم على البر والتقوى، بل ويأمرهم بهذا الإِيلاف والتعاون في الوقت نفسه الذي ينهاهم فيه عن التعاون على الإثم والعدوان. يقول تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾(١). ويعطينا القرآنُ الكريم نموذجاً للتعاون على البر والتقوى في ذلك التفاني الذي أظهره الأنصارُ تجاه إخوانهم من المهاجرين، وإيثارهم إياهم على أنفسهم، في المسكن والمال والرزق، حتى أنَّ أحد الأنصار عرض على أخٍ له في الدين، من المهاجرين، أنْ يطلق إحدى زوجتيه ليعود ويزوّجها له على سنة الله ورسوله، لكنَّ الصحابي المهاجر أبى ذلك. وفي هذا الإيثار والتفاني بين المسلمين قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

أمّا الرسول الأكرم ﷺ فقد كان من سمات تربيته للمسلمين أنْ يتحابّوا فيما بينهم، لأنَّ في هذه المحبة الإيمانَ الذي يوصل إلى الجنة، قال ﷺ: **«لا تَدخُلونَ الجنَّةَ حتى تُؤمِنُوا، ولا تُؤمِنُوا حتى تَحابُوا. أَوَلا أَدُلُّكُم على شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»**(٣). وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيدِهِ لا يُؤمِنُ عبدٌ حتى يُحِبَّ لجارِهِ أو أخيهِ ما يُحبُّهُ لنفسِهِ»**(٤).

هذا هو منهج الإسلام الذي يعلو على سائر مناهج أهل الأرض. وقد سبق الإسلام سائر العلوم النفسية والاجتماعية ـ التي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٣) صحيح مسلم، باب الإيمان، ص٩٣.
(٤) صحيح مسلم، باب الايمان، ص٧١.

ينادون بها ـ في الدعوة إلى حب الإنسان للإنسان، ولم يجعل لهذا الحب البعدين النفساني والإنساني فحسب، بل جعل له بعداً روحانياً عندما قرنه بالإيمان، ونشر السلام والأمن بين الناس، فربط بين حب الإنسان لأخيه الإنسان وحبه لله تعالى ورضوانه. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «حقَّتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ. وحقَّتْ محبَّتي للمتواصلين فيَّ. وحقَّتْ محبَّتي للمُتَناصِحِينَ فيَّ. وحقَّت محبَّتي للمتزاوِرِيْنَ فيَّ. وحقَّت محبَّتي للمتباذِلِيْنَ فيَّ. المتحابُّونَ فِيَّ على مَنابِرَ مِنْ نورٍ يَغْبِطُهُمْ بمكانِهِم النبيُّونَ والصدّيقُونَ والشُّهَداءُ»[1].

بل وجمع رسولُ الله ﷺ كلَّ علامات حب الإنسان عندما قال وهو جالسٌ في مسجده في المدينة المنورة للصحابة من حوله: **«أحبُّ الناس إلى الله تَعالى أنفعُهُم للنّاس. وأحبُّ الأعمالِ إلى الله عزَّ وجلَّ سرورٌ يدخِلُهُ المسلمُ على المسلمِ، أو يَكْشِفُ عنهُ كُرْبةً، أو يَقْضي عنه دَيْناً، ولأَنْ أَمْشي مع أخي في حَاجةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أعْتَكِفَ في هذا المسجدِ شهراً»**[2].

ج ـ الحبُّ الأبوي واحترام الأبناء لوالديهم

إن حب الأبوين للأبناء حب غريزي طبيعي. وهو مظهر من مظاهر غريزة النوع، إذ يريان فيهم استمراراً لحياتهم، وقوةً لوجودهم، فضلاً عن كونهم قرة للعين، وراحة للنفس. . ولذلك كان هذا الارتباط الأبويّ الشديد بالأبناء، وهذا التفاني والتضحية بكل غال

---

(١) كنز العمال ج٩، رقم الحديث ٢٤٦٧١.

(٢) الترمذي، وكشف الخفاء، ص٥٢.

ونفيس من أجلهم، فالإنسان قد لا يؤثر على نفسه إلا ولدَهُ، وإنه ليعطيه دماً من دمه، أو عضواً من جسده، إن احتاج إلى ذلك، بل وقد يكون مستعداً لأنْ يفديه بحياته إذا اقتضى الأمر..

ورسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى قدوة للناس في الخُلُق والسيرة، كان يحرص على توجيه المسلمين ليقوموا على رعايةِ أبنائهم رعايةً تامةً وصحيحةً، وتربيتهم تربيةً حسنةً فاضلةً. وقد ضربَ المثل بنفسه في حبه لأبنائه، ولكن شاءَ الله ـ تعالى ـ أنْ يتوفاهم وهم في حداثة السن، فانصبَّ حبُّه على حفيدَيْهُ الحسنِ والحسينِ فأحبهما حباً عظيماً، كان يتجلَّى بحملهما على عاتقه، وضمهما إلى صدره وتقبيلهما، وذلك على مرأى من المسلمين والناس أجمعين؛ فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يطلب إلى ابنته فاطمة الزهراء ـ أم الحسن والحسين، سلام الله عليهم أجمعين ـ «ادعي ابنيَّ» فيشمهما ويضمهما إليه. وعن البراء قال: رأيت النبي ﷺ والحسن على عاتقه وهو يقول: **«اللَّهُم إنّي أُحبُهُ فَأَحبَّهُ»**. وعن البراء أيضاً أنَّ النبي ﷺ أبصر حسناً وحسيناً فقال: **«اللَّهُمَّ إنّي أُحبُهما فَأَحبَّهما»**.

أما حب الأبناء للوالدين فيكون ارتباطاً عاطفياً، وقناعة بحمايتهم والذود عنهم، والعمل على كل ما من شأنه احترام شخصيتهم وتقديم العون لهم. لذا وجب أن يظهر هذا الحب بطاعة الوالدين، واحترامهما منتهى الاحترام. وهو فضلاً عن أنه واجب عائلي، وإنساني وأخلاقي، فهو واجب ديني أيضاً. وقول الله تعالى أصدق النبأ في كيفية وجوب معاملة الوالدين والإحسان إليهما، وخاصة عندما يكبران ويصيران في حالة ضعف يحتاجان فيها إلى

الولد. قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾(٢).

فهل بعدُ أسمى من هذه العلاقة التي يريدُ ربُّ العالمين أنْ يرتبط بها الأبناءُ تجاه والديهم؟ وهل حافظ الأبناء على والديهم، وحفظوهما ولاسيما في الكبر، حتى يؤجروا عند الله تعالى . . . وإن في أي معاملة لهم بغير ما يُرضي الله تعالى، يكون الأبناء قد خالفوا أمرَ ربهم، وفي ذلك الخسران المبين!.

حب الله تعالى

إن حبَّ الله تعالى يحمل كلَّ معاني التقديس والإجلال والتعظيم. وهو منتهى اليقين والتقوى، ولذلك كان حبُّ العبد لربّه وبارئه مظهراً من مظاهر غريزة التدين أو التقديس.

وحب الله تعالى أسمى أنواع الحب الإنساني، وأكمل الشعور وأجله على الإطلاق. ويتجلى حب الإنسان لله تعالى في كونه عبداً من عباده الصالحين، واجبٌ عليه عبادتُهُ وطاعتُهُ، والدعاءُ إليه، والخشيةُ منه، وشكُرُه على نعمِهِ. وإذا تملك حب الله تعالى قلب الإنسان ظهر في كل عمل يقوم به، وفي كل سلوك يصدر عنه، بحيث تكون حركاته

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

وسكناته منقادة لطاعة الله تعالى، وموجهة إلى فعل ما يحبه ـ سبحانه ـ ويرضاه. والإنسان الطائع العابد يتجنب كل ما يثير الكراهية التي ينهى ربُّه تعالى عنها.

وفي الحقيقة، لا شيءَ في نفس المؤمن يعدل حبه لله تعالى. وهذا ما يبيّنه القرآن الكريم بوضوح، بل ويهدّد الناس أن يجعلوا حبَّ أيِّ شيءٍ يفضلُ حبَّ الله تعالى ورسوله، وذلك بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢]. إذْ من الناس من يتخذُ غيرَ الله ـ سبحانَهُ ـ آلهةً يشركونهم مَعَهُ في العبادة، ويحبونهم ـ بالتعظيم والتقديس ـ كحبهم له ـ عزَّ وجلَّ!.. ومثل هؤلاء الناس هم الذين استحبوا الكفر والشرك على الإيمان، فآثروهما على هدى الله وطاعته! ولكنَّ الذين آمنوا أشدُّ حباً لله تعالى من حب الكفار والمشركين لتلك الآلهة ـ المدعاة ـ من الأصنام، فهم لا يعدلون عن ربهم بحالٍ من الأحوال، بينما الكفار والمشركون يعدلون عن الله ـ تعالى ـ إلى الأنداد، وفي ظنهم أنهم يستطيعون حمايتهم ومساعدتهم، أمَّا حين تحيق بهم الشدائد فلا يجدون معيناً ولا ناصراً إلاَّ الله تعالى، فيلجأون إليه بصورة عفوية وتلقائية كي ينجيَهم.. ولذلك كان المؤمنون أشدَّ حباً لله تعالى لأنهم لا يشركون به شيئاً يمكن أن يتداخَلَ حبُّهُ مع حبِّ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

الله تعالى، ثُمَّ إنّهم يُولون النعم التي ينعم بها عليهم ربُّهُمْ حقها من الحمد والشكر والطاعة، وكلها تعبير عن الإخلاص لمن تفضَّل عليهم فاستحقَّ التقديس والتعظيم كله، واستحق المحامد كلها على آلائه كلها. . والتعبير بالحبّ إنَّما هو عن الصلة الوثيقة التي تربط المخلوق بخالقه، والمؤمن الصادق بربه تعالى، أي وهي صلة المخلوق بالخالق العظيم، الذي وجَبَ عليه أن يحبه، وقد خلقه في أحسن تقويم. عن معاذ أنَّ رسول الله ﷺ روى عن ربه سبحانه وتعالى أنه أمره بأن يدعوه بهذا الدعاء المحبب اللطيف: «أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يَقرِّبُ إلى حبك»[1].

وقال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ لله، وأَبغَضَ لله، وأَعْطَى لله، فقدِ اسْتَكْمَلَ الإيمانَ»**[2].

حبّ رسول الله ﷺ

إنَّ حبَّ الرسول ﷺ واجبٌ على كل مسلم، وهو يأتي بعد حبه لله تعالى. وقد أمرنا ـ سبحانه ـ بحب رسوله محمدٍ ﷺ، وقرن حبه ـ عزَّ وجلَّ ـ بحب هذا الرسول الكريم، بل وقد أنزلَ تعالى قرآناً مبيناً، يَحملُ الأمرَ لنبيّه ﷺ ـ مع ما في الأمر من التكليف الموجب للعمل ـ بأنْ يقول للناس: إنْ كنتُم تحبونَ الله، فاتبعوني على ديني وملّتي يحببكم الله تعالى، ويغفر لكم ذنوبكم. . وفي هذا وعْدٌ لا أجلَّ ولا أعظمَ لمن يحبُّ الله ورسولَهُ كما يبيّنُهُ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

---

(١) و (٢) سنن أبي داود، ص١٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

والمؤمن الذي يحب الله تعالى ورسوله الكريم يصبح كلُّ سلوكه مع الناس متوجهاً إلى الله تعالى، فلا يفعل إلا ما يُرضي ربَّهُ، لأنَّ في رضاه ـ جلَّ وعلا ـ الفوزَ العظيمَ، والسعادةَ الدائمةَ.

وحبُّ الإنسان لربه هو منبع كل حب، ومصدر كل عطاء، لذلك كان من واجب المسلمين أن يحبُّوا الله ورسوله، ويعملوا على طاعتهما، ولا يكون لهم ذلك إلاَّ بتمسكهم بتعاليم الإسلام والسير على منهج الدين القويم، ولا يتسنَّى لهم ذلك إن لم يقتدوا برسول الله ﷺ، لأنَّهُ القدوةُ الحسنة، كما يصفُهُ القرآنُ المنزل من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا بالفعل ما كان عليه السلفُ الصالحُ، عندما كانوا يلتفّون حول رسول الله ﷺ يتعلمون منه، ويقتدون به، ويأتمرون بأوامره، حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم أزر بعض، فكان ذلك من أهم العوامل في نجاح الدعوة وانتشار الإسلام. فما أحوجنا نحن المسلمين اليوم أن نعود إلى ربنا تعالى، وإلى رسوله الكريم طائعين مختارين، نعمل بما أمرنا الله وننتهي عما نهانا عنه، ونقتدي بسيرة رسول الله ﷺ فتظللنا السماء بالبركة، وتقلّنا الأرض بالخير، وتتدافع إلينا مقاليد الأمور بالنصر، فنرفع حينئذٍ كلمة الله تعالى ونجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

إنَّ هذه المعاني للحبّ، على تنوعها، هي بمثابة المفتاح الذهبي لسعادة النفس، وإسعاد الإنسان لغيره، بل ويمكن اعتبارها مصدراً لتماسك المجتمع، وتنميةً للحياة وتطورها. فالحب المتبادل يشبع الحاجات النفسية والجسدية للمحبِّ والمحبوب إذا التقيا واجتمعا وفقاً للشرع الحنيف.. ولا سيما أخوة الدين الذين يحبون لله، ويبغضون لله.. وقد ثبت للعلماء، وخاصة منهم علماء المناعة النفسية، أن

مشاعر المودة والمحبة تُنشِّطُ أجهزةَ المناعة النفسية والجسمية، وتُنَمِّي القدرة على مواجهة الأزمات ومقاومة الأمراض، ما يقوّي الأبدان والعقول ويجعلها سليمة معافاة، فيصحُّ بذلك القول المأثور: العقل السليم في الجسم السليم.

الفصل الثالث

- القلب
- الشعور والاحساس
- اللّذّة والألم

القلبُ: هو موطن الشعُور
ومركز الإنفعالات

المبحث الأول

القلب

عن محمدٍ رسول الله ﷺ أنه قال: «ألاَ، وإنَّ في الجَسَد مُضْغَة إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ الجَسَدُ كلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّهُ»[1].

يفيد هذا الحديث الشريف بأنَّ صلاح الإنسان يبدأ من داخله، أي من قلبه، فإذا صلح قلب الإنسان، أي عقله ومشاعره، انعكس ذلك على جسده وصحته، وصلح به سلوكه كله، لأنَّ السلوك أكثر ما يعبّر عمَّا يتفاعل في جسد المرء ويختلط بدمه ـ وليس عضوياً فقط ـ بل، وعمَّا يكمن في أعماق نفسه من المعاني التي تبنى عليها حياته المعنوية.

والقلب، من الناحية البيولوجية البحت، هو عبارة عن عضلةٍ صنوبرية، مودعة في الجانب الأيسر من صدر الإنسان، ويعتبر أهم العناصر الحيوية والميكانيكية للحركة الدموية، كما أثبت ذلك الطب

(١) البخاري، باب الإيمان، ص٣٩.

الحديث، من خلال ما وصَلَ إليه في تشريح القلب، ومعرفة دقائق صنعه وتركيبه، والذي كان من ثمراته الطبية نجاح العمليات الجراحية للقلب المفتوح، التي تنقذ من الموت حياة كثير من الناس كل يوم. ولعلَّ أهم ما يدلُّ على أنَّ القلب أعجب المضخَّات وأتقنها عملاً أنه يبدأ في حركته ودقاته منذ الأسبوع الرابع لتكوين الجنين، ويستمر، بعدَ ولادته وحتى موته، بتلك الحركة الدؤوب التي لا تتوقف، لأنَّ توقفها يعني موت الإنسان حكماً.. وزنه لا يتجاوز ٢٥٠ غراماً، وينبض بمعدل ـ وسطي ـ من ٧٠ ـ ٨٠ نبضة في الدقيقة الواحدة، أي ما يقرب، أو يزيد، على مئة ألف مرةٍ يومياً. وهو يضخّ خمسة ليتراتٍ من الدم في الدقيقة، أي ما معدله مليون ونصف مليون غالون في السنة؛ وهذه المضخة العجيبة توصل الدم إلى شبكة من الشرايين، والأوردة، والأوعية الدموية الشعرية لو وُضعت طرفاً لطرفٍ في خطٍ مستقيمٍ لبلغ طولها أكثر من ستين ألف ميل. فجلّت قدرة الخالق العظيم، والصانع الحكيم..

ولكن ماذا تختزن هذه العضلة، وما هو الدور الذي تؤديه في حياة الإنسان، وذلك بالإضافة إلى وظيفتها المعهودة وهي تنبض لتوزع الدم إلى سائر أعضاء الجسم، ثم تعود وتستقبله من جديد، لتضخَّهُ مرةً أخرى، في برهة قصيرة تستمرُّ معها حياة الإنسان، بكل هذه الحركة، وهذا التفاعل الذي يعطي للجنس البشري معنى وجوده؟

وللإجابة عن هذا السؤال الكبير، يمكن القول بأنْ لا أحد يمكنه أن يعرف حقيقة مكنونات القلب، وما يكمن فيه من قوى النفس، لولا أنَّ فهمنا لبعض نصوص القرآن الكريم هو الذي يتيح لنا أن نعلَمَ ما للقلب من وظائف ـ غير بيولوجية ـ وما يؤدّي من أدوار يتحدَّد بها

مسارُ حياتنا كلها. . لكن قبل تبيان تلك الوظائف أو الأدوار، ماذا يعني القلبُ لغةً؟

يُقالُ ـ في اللغة ـ قلبُ الشيء أي تصريفُهُ وصرفُهُ من وجْهٍ، مثل قلْب الوعاء من وجهه إلى قفاه وبالعكس، ويُقالُ: قَلَبَه يقلبُهُ قَلْباً أي حوَّلَهُ عن وجْهِهِ، أو صَرَفَهُ من جهةٍ إلى أخرى. وقلبُ الإنسان هو فؤاده، ولكن لا يقالُ له فؤادٌ إلاَّ إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقّد، وأصله من فأدتَ اللحم في النار: أي شويتُهُ، لأنَّ الفئيد هو المشوي؛ وقيلَ عن القلب فؤادٌ بالنظر لحركته الدائبة، لأنَّ أصلَ الفأد: الحركة. . . وفي القرآن الكريم عددٌ من الآيات التي تعبّر عن القلب بالفؤاد، وعن القلوب بالأفئدة، أو التي تعبّر عن العقل بالفؤاد، وعن العقول بالأفئدة، وسوف نرى إن شاء الله ـ في هذا البحث ـ بعضاً من الآيات التي تعبر عن القلب بأنَّه العقل أو الروح أو غيرهما من المعاني. .

وقيل سُمّيَ قلب الإنسان قلباً لكثرة تقلّبه، أو صرفِهِ عن طريقته، وهذا ما أشار إليه الشاعر، للتدليل على تقلّب القلب، أو عدم ثباتِهِ على حالة واحدة، بقوله:

ما سُمِيَّ القلبُ إلاَّ من تقلُّبِهِ   والرأيُ يَصْرِفُ بالإِنسانِ أَطْوَارَا

وفي القرآن الكريم يتبين أنَّ الانقلاب في حياة الناس هو الذي يغيّرهم من حال إلى حالٍ، أو يحوّلهم من دار إلى دار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[1]، أي إلى الله ترجعون، أو تُردُّون من هذه

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢١.

الحياة إلى الحياة الآخرة؛ وهذا أيضاً ما عناه السحرةُ الذين آمنوا، عندما هدَّدهم فرعون بأنه سوف يقطّع أيديهم وأرجلهم، ثم يصلبنَّهم، فقالوا: إنَّا لا نعبأ بأي وجْهٍ كان موتنا، لأنَّا إلى ربنا راجعون في الآخرة، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[1]. أما أسوأ منقلبٍ للناس فهو ما يتوعَّدُ به ربُّ العزةِ الظالمين، بقوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[2]، أي بعد أن كانوا يتجبَّرون به، ويستكبرون، ويظلمون في هذه الدنيا، سوف يعلمون أيَّ مصير يقلب كلَّ ما كانوا عليه إلى ذلٍّ، وقهر وعذاب.. هذا فيما خصّ الانقلاب أو التغيير الجذري الذي يحصل عندما ينقلب الناس من دار الدنيا إلى دار الآخرة.. أما في الحياة الدنيا، فالانقلاب في حياة الناس ليس جذرياً، بل هو حركة دائمة تتعلق بقلب الإنسان في تقلبه، وينعكس على تصرفاته تقلّباً قد يأتي من الوراء إلى الأمام، أو من الأمام إلى الوراء.. أي بمعنى آخر إنَّ التقلّب في القلوب هو الذي يؤدي إلى التغيير في أحوال الناس، بحيث ينقلبون إلى حالاتٍ غير التي كانوا عليها. ولعلَّ المثالَ الأبرز ما يبينهُ القرآن الكريمُ عن أحوال المسلمين، وما حلَّ في قلوبهم من الهلع، عندما شاع في صفوفهم، بعد الهزيمة في «أحد»، أنَّ رسولَ الله ﷺ قد مات، وهذا الهلع هو الذي أدَّى إلى انقلابهم على أعقابهم.. قال الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

إنَّ في هذه الآية الكريمة ما يجعلنا ندرك إدراكاً حسيّاً معاني الانقلاب الذي حصل في «أحد»؛ فقد وضع الرسول ﷺ الرماة على الجبل وأمرهم ألاً يبرحوا أماكنهم مهما كان سير المعركة، مع المسلمين أو عليهم؛ ونشب القتال وكان النصر للمسلمين في بداية المعركة، ما جعل المشركين يولّون الأدبارِ، ويخلّفون وراءهم الغنائم التي راح المسلمون يجمعونها، ممَّا دفع بالرماة، وخلافاً لأوامر رسول الله ﷺ أن يتخلّوا عنِ أماكنهم، وينزلوا من على الجبل طمعاً بالغنيمة، فكان ذلك أولَ انقلابٍ في نفوس الرماة، تبعَهُ مباشرةً التفاف المشركين من حول الجبل، وارتدادهم من هروبهم إلى الوراء، لإنزال القتل بالمسلمين، والسبب خطأ الرماة كما قلنا. وفي تلك الأثناء، وبعدما حمي الوطيسُ من جديد، ارتفع صوت أحد المشركين وهو يصرخ: «إنَّ محمداً قد قتل». . ولنا أنْ نعيَ الحالة التي صار عليها المسلمون، وهم يسمعون أنَّ نبيَّهم وقائدهم قد قتل، فقد انكفأ معظمهم من أمام العدو، وولَّى هرباً. . هنا تأتي العبرة التي أرادَ الله ـ تعالى ـ أنْ تستيقنها الأنفسُ وذلك بإعادة المسلمين، بالحسّ والشعور، إلى وقائع المعركة، وكيف كانت معنوياتهم القتالية:

فهم قد هربوا أمام جيش العدو، أي ارتدُّوا إلى الوراء، بدل الاندفاع إلى الأمام، والثبات على مواجهته، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بالقول المبين ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾، وهم قد أحسّوا بالهزيمة، فرافق ارتدادهم على الأعقاب، ارتدادٌ نفسي، هو الشعور بعدم الجدوى من الاستمرار في قتال المشركين، وذلك الوضعُ المتأزّمُ يظهر المسلمين في حركتين رئيستين: حركة الانقلاب المادي على الأعقاب، وهو الهروب، وحركة الانقلاب النسبي، وهو الشعور بالهزيمة. .

وهنا يبرز التوجيه الربانيّ للمسلمين، ليبقى حاضراً في نفوسهم على مدى الزمان، وهو أنَّ مصيرَ الإسلام الذي اعتنقوه، لا يرتبط بحياة أو موت أحدٍ من الناس، حتى ولو كان الرسول نفسه، ولذلك يسألهم ربُّهم، بعتبٍ يحمل الرأفة: أفإنْ ماتَ محمدٌ أو قتل انقلبتم على أعقابكم، فهربتم من أمام العدو، وتركتم له المجال يضرب أدباركم؟!

كلا، ليس العهد بالمؤمنين هذا الانقلاب، لأنَّ عليهم ألاً يخوضوا معارك الجهاد، لنصرة دين الله إلاَّ ورائدهم إحدى الحسنيين: إمَّا النصرُ، وإما الشهادة..

ثم يأتي التعقيبُ من رب العالمين: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾..

أجل، وماذا يضرُّ الله ـ سبحانَهُ ـ هروبُ المسلمين في تلك المعركة، وانقلابهم على أعقابهم أمام عدوهم؟ في الحقيقة، لا شيء يضرُّ الله، لأنَّهُ جلَّ شأنُهُ غنيٌّ عنكم أيها المسلمون، وغنيٌّ عن الناس أجمعين، لأنَّ الأمر بيده، وهو قادر على أنْ يحوِّل مسار المعركة ـ أية معركة ـ كيفما يشاء، ويعطي النصر لمن يشاء، وهو قادر على أن يهلك المسلمين، ويهلك المشركين، ويستبدل بهم قوماً آخرين مؤمنين، مطيعين، صابرين، محتسبين..

وإذا كان المعنيون بهذا التعقيب الربانيِّ، بصورة مباشرة، هم المسلمين الذين انقلبوا على أعقابهم في معركة أحد، إلاَّ أنه خطابٌ، بل تنبيهٌ للمسلمين جميعاً، وعلى مدى الزمان ـ كما قلنا ـ لأنَّهم عندما اعتنقوا الإسلام ديناً، وأخلصوا النيّة لله تعالى، صار فرضاً

عليهم الذودُ عن حياض هذا الدين، وحماية منهجه، والالتزام بتعاليمه، أفإنْ أصابتهم المكاره، أو حاقتْ بهم الشدائد، بل وجرى الاعتداء عليهم ـ لأنَّهم مسلمون ـ نسوا الدين، وانقلبوا على منهج الله أبداً!؟.. لا يجوز لهم ذلك، لأنه ليس من الدين بشيءٍ، ولا يليق بهم كمسلمين.. ثم إنَّ من ينقلب على عقبيه منهم، لواذاً بنفسه، وحمايةً لحياته ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾، ولكنَّ انقلابَهُ وهروبَهُ من المواجهة، هو الضرر لنفسه ولأمته، إنْ لم يقع الضرر على الناس جميعاً، لأنَّ الله ـ تعالى ـ لم يبعث محمداً ﷺ نبيّاً للعرب أو العجم، ولا لأهل الشرق أو الغرب، بل أرسله رسولاً للناس كافة، وعهد إليه أنْ يبلغ الإسلامَ، في نهاية مطاف الرسالات السماوية، ليكون الدين لله.. فكان من الذنوب التي لا يغفرها الله تعالى محاربةُ الإسلام، من أية جهة جاءت محاربتُهُ، وكانَ من الذنوب التي سوف يحاسب عليها المسلمون ـ قبل غيرهم ـ ألاَّ يهبوا جميعاً، وبوحدة الكلمة والموقف، لينصروا دينهم، ويبعدوا شبحَ المؤامرات، والمخططات العدائية عن ساحة وجودهم!..

وإذا كان بعض الحيف قد لحق بالمسلمين الذين انقلبوا على أعقابهم أمام المشركين في معركة «أحد»، فلم يلتمسوا إلاَّ النجاةَ بأنفسهم، لمجرد صرخةِ مشرك كافرٍ وَتَرَهُ الحقدُ على رسول الله ﷺ.. فإنَّ هنالك ـ بالمقابل ـ فئةَ المؤمنين الأبطال، الذين ثبتوا في تلك المعركة، يفدونَ النبيَّ بأنفسهم، ويخوضون معركة الجهاد حفاظاً على الدين؛ فهؤلاء، فوق صبرهم وجلدهم على تلك الشدَّة، كانوا من الشاكرين لله تعالى على نجاةِ الرسولِ الأكرم، وعلى ما أفاءَ سبحانَهُ في نفوسهم من قوة الإيمان، وثبّت أقدامهم على مجالدة المشركين

حتى نهاية المعركة، وعودة جميع إخوانهم المسلمين، يلتفون حول رسول الله ﷺ، والعبرات تملأ عيونَهم، والندم يأخذ بمجامع قلوبهم. .

وإننا على يقين بأنَّ كل من حضَرَ معركة «أحد» من المسلمين كان له أجرُهُ عند ربّه، لأنه لو لم يؤمن بأحقية الجهاد لما شارك ـ في الأصل ـ بتلك المعركة، أو غيرها من المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل. . ومع ذلك فإنَّ الثواب يبقى على قدر المشقّة، ومقدار التضحية، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، أي إنَّ الذين صمدوا طوال المعركة، وكانوا أثناءها وبعدها من الشاكرين، الحامدين لربِّهم على ما أمدَّهم به من الصبر والثبات وفداء النبي ﷺ، هؤلاء سوف يكون لهم الجزاءُ الأوفى، ورجاؤهم أن يكون جزاؤهم في الدار الآخرة حيث الحياة الأبدية الدائمة.

على أنَّ هذا التصوير القرآني لأحوال المسلمين، وهم في معركة الجهاد في سبيل الله، يقابله تصويرٌ مغايرٌ لحركات المشركين، وفي انقلابٍ من نوعٍ آخر، وذلك عندما يبيّن لنا كيف كانوا، في مكة يسترخون في الدّكاكين، وعلى جوانب الأزقّة، أو في دار الندوة، أو في مراتع السكر والعربدة، وهم يتقوَّلون على المسلمين بمختلف أنواع الاستهزاء والسخرية، وشتى أفانين السباب والشتيمة، وهذا ما كان يجعلهم ينقلون إلى أهليهم فرحين، مسرورين لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾[1].

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣١.

ذلك أنَّ المشركين كانوا قد دأبوا على أذى المسلمين، منذ بدء ظهور الدعوة في مكة، حتى صار هذا الأذى بمثابة الخبز اليومي لهم، فكانوا لا يتركون سبيلاً للتطاول على النبي ﷺ وأتباعه إلاَّ وسلكوه، ولا يرون بعضاً من المسلمين عند الكعبة، أو يصادفونهم في الطرقات، إلاَّ وانهالوا عليهم بالشتائم البذيئة، والاتهامات الشنيعة؛ عدا عمَّا كان الهمزةُ اللمزةُ منهم يغتابون به النبي ﷺ والمسلمين كذباً وافتراءً.. فكل ذلك كان يخلّف في نفوس هؤلاء جروحاً عميقة، تؤذيهم في الصميم، ولا سيما أنَّ فيهم من سراة القوم وأشرافهم، من تشهد لهم مكة كلها بالمكانة، والمنعة، والكياسة، ولطف المعشر، بل وبالقوة، والشجاعة والعز، .. وعلى الرغم من ذلك باتوا وجميع المسلمين مكبّلين أمام سفاهة أولئك الأراذل من المشركين، وليس لهم من سبيل إلاَّ أنْ يعضّوا على جراحات أنفسهم بالصبر، وأنْ يكتموا الآهات في حناجرهم بالترفّع، لأنهم لا يستطيعون أنْ يقابلوا السفاهة بمثلها، ولا يملكون ردع المستهزئين والمغتابين بالقوة، إذْ كانت أوامر النبي ﷺ تقضي بألاَّ يدخلوا مع المشركين، بأي عراكٍ أو قتالٍ إلى أن يحين أمرُ الله تعالى.. وكان المشركون، من جهتهم، يدركون ما لتصرفاتهم من آثار شديدة الوقع على نفوس «الصابئين» ـ كما كانوا يسمونهم ـ فيجعلونها مدعاةً لسرورهم وحبورهم، ولاسيما عندما يعودون إلى أهلهم، ويروون لهم ما فعلوه بالمسلمين، كما يصور حالتهم الانفعالية تلك التعبير القرآني بالقول المبين: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾، أي رجعوا إلى بيوتهم، وذويهم وهم جذلان، مأخوذون بالفكاهة التي تحملهم على شدة الضحك، وتروي غليلهم على المسلمين..

وهذا يعني أنَّ القرآن الكريم إنَّما يريدُ أنْ يجعلنا ندرك ما كانت تحبل به نفوس المشركين من الحقد والكراهية للمسلمين، وما كانوا يتقصّدون من الاستخفاف بهم، والنيل من كرامتهم!.. كما يجعلنا نفهم تلك الحالة من الألم والحزن والمرارة التي كان يعيشها المسلمون في تلك الفترة الحرجة من ظهور الدعوة، بحيث ترتسم أمامنا صورتان متناقضتان: صورة القوي المبتهج، وصورة الضعيف الحزين.. ولما كانت البهجة والحزن من المشاعر التي تجيش في القلوب ـ قبل أنْ تظهر على الوجوه ـ فقد عبَّر عن ذلك القرآنُ بلفظ «انقلبوا» ليربط ما بين الحركة والقلب، ويثبت أنَّ تصرف المشركين لم يكن عَبَثاً، بل كانوا يوطنون عليه أنفسهم، ويظهرونه بتلك الحدَّةِ من الانفعال!...

وإبَّان تلك الأوضاع، وما تبَعَها أيضاً من الضيق المادي، بعد الهجرة إلى المدينة، وحالة الفقر التي يعيشونها، كان المسلمون يتساءلون: لا اعتراض على حكم الله تعالى، ولكن هؤلاء أعداء الله، ممن يحاربون الإسلام وأهله فيما نرى من الخير، والعيش الرغيد، والتجارة الواسعة، ونحن المؤمنين نكابد، ونعاني في الجهد؟! فأنزل السميعُ البصيرُ الوحيَ بقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1].. إنه خطاب الله ـ عزَّ وجلّ ـ لرسولِهِ ليواسي به نفوس المؤمنين من حوله، ليعلموا أنَّ ما يرون من هذا التقلّب في حياة أعدائهم، إنْ في صحة أجسادهم، ونمو

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦ و١٩٧.

تجارتهم وزراعتهم، وكسبهم المال الوفير.. كل ذلك يجب ألاَّ يغرَّهم[١] بشيء لأنَّهُ خداعٌ في المظاهر، وطمعٌ في الباطل، ثم متاعٌ قليلٌ يتمتّعون به يسيراً في هذه الدنيا، ثم يموتون وليس معهم شيء من ذلك المتاع، لا بل عن العكس سوف يكون أمرهم إلى وبالٍ، لأنَّهم كفارٌ، مأواهم في الآخرة جهنَّمُ، وبئس المستقرُّ.. واليوم، وغداً.. قد يرى المسلمون تقلُّب أعدائهم في البلاد كلها، وقد يقول ضعاف النفوس: هؤلاء هم الكفار يملكون كل شيء، ويسيطرون على كل شيءٍ، وأبناء الأمة الإسلامية ـ في أكثريتهم ـ يعانون الحرمان والفقر!.. هؤلاء الذين يفكرون مثل هذا التفكير، يجب أن يلتمسوا الهدى في كتاب الله، فلا تعود أحوال الكفار تخدعهم، ولا تقلُّبُهم في أقطار الدنيا، وعلى أي وجهٍ من الوجوه، يغرُّهم، ما دام مصيرُهم بيد ربِّهم، وقد أخبَرَ قرآنُهُ المجيدُ، ما سيؤول إليه هذا المصير، ثم لا بدَّ أنْ يدرك المسلمون أنَّ الله قادرٌ على أنْ يأخذ أعداءهم في تقلّبهم حيثما كانوا، وعلى أي الأحوال كانوا في هذه الحياة الدنيا وذلك عندما يسمعونَ قولَهُ الحقَّ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[٢].. وعندما تتكوَّن لدى المسلمين ـ ولا سيما أصحاب النفوس الضعيفة ـ مثل هذه القناعة، من حيث إنَّ كل المظاهر التي

(١) نقول: غرَّ فلانٌ فلاناً، خدعه وأطعمه بالباطل فأوقعه في الغِرة أو الغفلة؛ ونقول غرَّه كذا غُروراً: أوقعه في الغرور، وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهةٍ وخدعةٍ؛ والغَرور: هو كل ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ، وقد فُسّر الغَرور بالشيطان إذا هو أخبث الغاوين، قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

(٢) سورة النحل، الآيتان: ٤٥ و٤٦.

يرونها ـ إنْ لم يكن فيها ما يرضي الله تعالى ـ هي باطل، وإلى زوال، ترتاح نفوسهم، ويصبح همهم أنْ يكون في أعمالهم، وفي تقلبهم ـ هم ـ ما يقربهم.

إذاً، فكل الحالات التي تعتري الناس تأتي من تقلّب القلوب، وهذا التقلّب ـ بما له من تأثير ـ هو الذي يغيّر الأنفس من حالٍ إلى حالٍ، ويصرف العقول من رأي إلى رأي، سواء حصل ذلك بصورة عفوية وتلقائية، أو من خلال النظر في الأمور وتدبّرها..

ومن الآفاق الرحبة التي نجدها في القرآن الكريم، أنه يعبّر، في مناسبات مختلفة، عن القلب معانٍ عديدة من مثل العقل، أو الروح، أو الشجاعة وما إلى ذلك من المعاني التي تتعلق بحياة الإنسان النفسية والجسدية.. فعندما يطلق القرآن الكريم لفظ القلب ويعني به العقل، يقول الله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

.. يخبر القرآنُ الكريمُ عن مصارع الأقوام القديمة، والأمم الغابرة، وكيف أخذهم الله تعالى ـ أخذ عزيزٍ مقتدر، ولم يذر أحداً منهم، بعدما جاءهم الرسلُ بالبيات، فكذبوهم، وأصرّوا على الكفر؛ فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾.. على الناس أن يتذاكروها، ويستذكروها دائماً لأنَّ فيها عظةً بالغةً لمن كان له قلبٌ واعٍ، مدركٌ لشدة العذاب، أو نوع الهلاك الذي يثير في الأنفس مشاعر الرهبة والخشية من الله ـ جلّت قدرته ـ ويحمل على التفكّر في مصير الناس الذين يجحدون نِعَمَ ربّهم، فيؤثرونَ الكفر على الإيمان،

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

والمعصية على الطاعة له سبحانه. أما الذي لا تستوقفه الذكرى، ولا يتّعظ بها، فكأنما لا قلب له في جوفه، فلا يعقل ـ حينئذٍ ـ تدبّرها، ولا يخاف شيئاً من مقاصدها.. أما مَنْ يعي معاني الذكرى، فإنَّ قلبه يهلع لها، لأنَّ القلب هو موطن الخوف، وأشدّ أنواع الخوف يكون من الموت، لذلك نرى كثيراً من الناس يؤخذون بالرهبة لموت هذا أو ذاك من ذويهم أو معارفهم، فكيف بهم عندما يسمعون بالموت الجماعي الذي يحصد الآلاف، أو يهلك جماعاتٍ بأسرها؟!.. ولعلَّ في قراءة التاريخ الحديث، ما يبعث في الأنفس ذكرى معبِّرة عن الملايين الذين أبادتهم الحرب العالمية الأولى، أو الثانية، أو ما حلَّ بهيروشيما وناكازاكي عندما ألقيت عليهما القنابل الذرية.. بل، وها نحنُ في مطلع القرن الحادي والعشرين تصدم مشاعرَنا، كلَّ يوم، مشاهدُ المقابر الجماعية التي تكتشف في العراق، أو التي اكتشفت قبلها في بلاد البلقان، فنشعر ـ ليس فقط بالرهبة ـ بل وبالحنق على أولئك الظالمين، السفَّاحين الذين كانوا يأمرون باستعمال مختلف أنواع الأسلحة الفتاكة لقتل الآلاف من الناس، واستخدام شتى الوسائل والطرق الخبيثة لممارسة ظلمهم العاتي..

أضف إلى ذلك ما تثير شاشاتُ التلفزة في نفوسنا من مشاعر الخوف، وهي تعرض المشاهدَ عن سقوط الطائرات، وتصادم القطارات التي يذهب ضحيتها مئاتٌ من الناس، أو وهي تنقل الصورَ الحيّة عمَّا يفعل غضبُ الطبيعة عندما تثور بالبراكين، أو الزلازل والأعاصير وتودي بحياة عشرات أو مئات الآلاف من بني البشر.. فأيُّ إنسانٍ لا تؤثّر في قلبه مثل تلك المشاهد والصور والأخبار فقد فَقَدَ ولا ريب كل مشاعره الإنسانية، حتى لكأنَّهُ بلا قلب..

وقد يحاولُ الإنسان التخفيف من ثقل مشاعره على نفسه، عندما يقول: وماذا يمكن أن يفعل الناس عند حلول الكوارث؟

وهذا صحيح، لأنَّ الطبيعة تأتمر بأوامر ربّها، وليس للبشر حيلةٌ فيما يحل بهم من جرّاء غضبها.. ولكن ما يعنينا هو مشاعر الخوف التي تسيطر على الناس من أية جهة أتت، وقد يكون أشدها إيلاماً على الأنفس هذا الظلم الذي يحيق بها من ظلم الناس لبعضهم، وهذا ما يريدُ القرآن الكريم التركيز عليه، وهو يقصُّ علينا القصص عن أولئك الأقوام الذين وقف الملأ منهم يستبدون بالناس، ويفرضون عليهم آراءهم كي لا يستجيبوا لدعوات الحق التي أنزلها الله تعالى عليهم، وذلك منتهى الظلم، الذي يورث أشدَّ الذنوب، فحق أن يأخذهم الله بذنوبهم، وبالعذاب الذي يستأهله كلٌّ من أولئك الأقوام، كما يخبرنا قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، إنَّه تحذير الله ـ عزّ وعلا ـ للعباد من الظلم: ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم للآخرين.. وهو دعوةٌ صراحٌ لمحاربة الظلم، ووقف الظالمين حتى لا يستبدَّ القويُّ بالضعيف فيعم الفسادُ والشر ويسود الاستكبارُ والتسلّطُ في المجتمعات، بل وفي العالم، إذْ كم يوجد اليوم من الحكام، وأصحاب السلطة، والمتنفذين وصنّاع القرار، ممن أخذهم الغرور فراحوا يفرضون آراءهم على الناس بأنظمة الاستبداد، أو بوسائل المكر والخديعة؟! وكم يوجد اليوم من الدول التي أضلّتها

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

قوى الشر، الظاهرة والخفية، فراحت تتحكم في مفاصل الحياة في بلادها، وتفرض المخططات والإملاءات على غيرها من الدول، ظلماً بظلم؟!. هكذا الملأ من الأقوام الغابرة يمتشقون الظلم والاستكبار سلاحاً في وجه الدعوات التي يحملها الأنبياء والمرسلون، ويجرّون الناس من ورائهم حتى يحلَّ بهم الهلاك.. وفي القرآن الكريم البرهانُ القاطع على ما حلَّ بقوم نوحٍ عليه السلام الذين أخذهم الطوفان جميعاً، بينما أنجاه الله تعالى وأصحاب السفينة، وجعلها آية للعالمين.. وقبائلِ عادٍ، قوم هودٍ عليه السلام الذين أرسل الله تعالى عليهم رياح الصحراء ورمالها العاتية سبع ليال وثمانية أيام حتى جعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلا ترى لهم من باقية؛ وقبائل ثمودَ، قومِ صالح عليه السلام الذين أهلكوا بالطاغية، أي أُهلِكوا بالصيحة الطاغية فأصبحوا في ديارهم جاثمين[1]، لا تحميهم الحصون والقصور التي نحتوها في الجبال، أو شيدوها في ديار العمران أمناً من صروف الأيام.. وقوم لوطٍ عليه السلام الذين قلبت الملائكة ـ بأمر ربها ـ قراهم رأساً على عقب، فهوت تفجُّ الأرضَ فجاً، بكل ما فيها ومَنْ فيها، وجعل العزيز المقتدر بعضَها آية بيّنة للعالمين نجدها ماثلةً في البحر الميت الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[2]، أو فرعون وجنوده الذين أغرقهم العليُّ القدير في البحر، ونجّى بدنَ الطاغية فرعون ـ وحده ـ ليكون آية للناس.. وكلها مصارع أقوام يصورها القرآن المبين بصورة حسيّةٍ كأنّما يعيش الناسُ أحداثَها عياناً.. وإنَّ في ذلك لعبرةً بالغةً، إن لم يتّعظ بها الإنسان، فكأنما لا قلب له لأنَّ

---

(١) نقول: جثمان فلان، أي جسده وهو ميت.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٦.

القلب البشري الذي لا ينفعل بالأحداث يعتبر خاوياً، فارغاً من المشاعر والأحاسيس الإنسانية حتى لكأن صاحِبَهُ أداةٌ حيةٌ تمشي على الأرض، ليس إلاَّ! وهكذا بات واضحاً ما عناه قولُ الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(١)، أي إنَّ في ذلك الإهلاك لذكرى لمن كان له عقل يدرك معانيها، أو أذنٌ تعي أخبارها، بحيث يكون من يستذكرها حاضر الفؤاد دائماً ليتَّعظ بها.

ومن المعاني الجليلة أيضاً التي يعبّر بها القرآنُ المبينُ عن القلب، بالعقل أو البصيرة يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٢).

تبين لنا هذه الآية الكريمة أنَّ القلب هو وعاء البصيرة، أو هو العقل الذي يبصر به حقائق الوجود، كما تبيّن لنا ما للسمع، أو التلقّي من أثر - في مشاركة البصيرة - للنفاذ إلى معرفة تلك الحقائق، والاتعاظ بالأحداث التي تجري على مسرح الحياة البشرية.. فالكفار في جزيرة العرب كانوا يكذّبون النبي ﷺ فيما يبلغ عن أمرِ ربّه تعالى، ويتحدَّونه بأن ينزِّل عليهم العذابَ إنْ كان صادقاً في دعوته، فنزلت هذه الآية المباركة، تستنكر عليهم تلك الغفلة في نفوسهم حتى تجعلهم لا يعقلون ما يرون، وذلك الصممَ في آذانهم حتى يجعلهم لا

(١) سورة ق، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

يستوعبون أخبارَ ما يسمعون، وذلك بالتساؤل الذي يحمل التوبيخ ويستهجن عدم تشغيل مداركهم وحواسهم، وهم يضربون في بقاع الأرض ـ للتجارة وغيرها ـ فتكون لهم قلوب ـ عقول ـ يدركون بها ما نزل بالذين تصدّوا لدعواتِ الحق من قبل، وما حلَّ بهم من الهلاك. وهم يرون ـ بأم العين ـ آثارهم؛ أو تكون لهم آذان يعون بها أخبارهم، والقصص التي تُروى عن تدميرهم!.. فتكون لهم عبرة لأن يرعووا عن استكبارهم، وعن تكذيب هذا النبي الذي ما بعث إلاَّ لهدايتهم، وهداية الناس أجمعين!.. ولكنهم لم يعتبروا بما كانوا يرون، ولم يتعظوا بما كانوا يسمعون، لأنَّ القضية في ذلك: ليس لأنهم لم يرعووا عن استكبارهم، وعن تكذيب هذا النبي الذي ما بعث إلاَّ لهدايتهم، وهداية الناس أجمعين!.. ولكنهم لم يعتبروا بما كانوا يرون، ولم يتعظوا بما كانوا يسمعون، لأنَّ عمى قلوبهم قد منع عليهم إعمال البصيرة، وتشغيل الحواس، فضلّوا عن جادة الصواب، وساقهم الضلال بعيداً عن إدراك الحقيقة، فكان من المقدَّر ألاَّ يصدقوا النبي ﷺ، وألاَّ يؤمنوا بما جاء به من الهدى!..

وهذه هي أحوال الناس عندما يعطلون مداركهم حتى تعمى عن الاهتداء إلى ما فيه صالحهم، وما يؤمّن لهم الخيرَ في الدارين.. فقد تكون سبل الهداية متوافرة، ووسائل الإعلام متاحة، ولكنْ من يعقل، ومن يدرك، ومن يسمع؟؟ وقد تكون الأسفار في السابق محدودة المدى في الزمان والمكان، ولكن كانت ـ في الوقت نفسه ـ تحمل للمسافرين كثيراً من الدروس والعبر عن أخبار الماضين، التي لو وعوها بحق، لاهتدوا إلى كثير من الحقائق، ولاسيما حقيقة وجود الله تعالى، وصدق النبيين والرسل فيما جاؤوا به عن ربهم..

وكما كانت أحوال الناس في الماضي، فكذلك هي اليوم. . فها هي حركة المواصلات تقل المسافرين إلى مختلف أنحاء المعمورة، فيرون من آيات الخلق ما يذهل العقول. . وها هي وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية وبما تنقل من الصور والمشاهد والأحداث والأخبار، ما يجعل الأرض «قرية كونية» بحق. . وها هي مختلف العلوم والمعارف التي لا تتعارض مع معاني التعبير القرآني عندما يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي أفلم يسافروا إلى كل ديار المعمورة، ويتنقّلوا بين مختلف نواحي الأرض، فيروا كل هذه الموجودات والأشياء، وكل هذه الأنواع والأجناس من المخلوقات؟! ولكن كم من الناس يُدركون ما للجبال، والأودية والسهول، التي رأوها من وظائف تؤديها في حفظ الأرض وتوازنها، وفي حفظ الحياة على الأرض، وتمكين الناس من إعمارها؟! وكم من الناس يمكن أن يعقلوا ما جعل الله ـ تعالى ـ لكل نوع من أنواع الكائنات الحية من نظام خاص للحياة بحيث يرتبط مع نوعه، ومحيطه، ومع غيره من الكائنات الأخرى بسنن كونية لا تتحوَّل ولا تتبدل؟ فكل تلك الموجودات الحسية يمكن أن يشاهدها الناس جهاراً ونهاراً، أو يعلموا، ممَّا تنقله وسائل الأعلام عنها بالصوت والصورة، كثيراً عن خصائصها. . ولكنَّ الذين يستشعرون حقيقة خلقها، ويدركون أهمية هذا الخلق، هم الذين أنعم الله ـ عز وجل ـ عليهم بقلوب ـ بصائر ـ يعقلون بها وبآذان يتدبَّرون بسماعها. . وهم الذين أدركوا معاني هذا الوجود، فآمنوا، وكان إيمانهم صادقاً، وأخلصوا لربهم فكان إخلاصهم تاماً وكاملاً. أما غيرهم، الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فهم الذين تكون أبدانُهم وحواسهم عاملة، ناشطة، بينما تكون

قلوبهم عمياء.. وهو ما بينه الله العلي العظيم بقوله الحق المبين ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

هذا ما يمكن أن نستوعبه من بعض الآيات القرآنية عن معاني القلب عندما يُرادُ به العقل، أو البصيرة.. ولكن، هنالك معانٍ أخرى للقلوب ـ كما قلنا ـ يمكن أن تتبيّن من سياق الآيات التي وردت فيها ما يعبّر به القرآن الكريم بالقلوب عن معنى الروح، فيقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[1]، أي انتفخت قلوب المؤمنين وتمدّدت حتى كادت لتبلغ مطلع الروح في الحناجر، أو إنَّ أرواحهم كادت تفارقهم حتى بلغت الحناجر، وذلك من شدة الخوف، والضيق، والكرب، وغيره مما كان المسلمون يعانون أثناء حصار الأحزاب لهم في المدينة المنوَّرة، وهو تعبير يوحي بحركةٍ حيّةٍ للقلوب في مدى تأثرها، وانفعالها، حتى لكأنَّها تودُّ الإفلاتَ من الصدور.. وهذا يعني، بتغير آخر، أنَّ المسلمين، قد استيقنوا في تلك الشدَّة، بأنَّهم مشرفون على الموت، مثلما يستيقن من جاء أجله عندما يحسُّ بأنَّ روحه تتحرك في صدره حتى لتكاد تبلغ التراقيَ قبل أن تخرج من حنجرته..

ـ أو ما يعبر به القرآن الكريم بالقلوب عن معنى الشجاعة، فيقول الله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾[2]، أي ليثبِّتَ إمدادُ الله لكم بالملائكة، الشجاعةَ في نفوسكم أيها المسلمون، ويزيل ما رانَ على قلوبكم من الخوف لكثرة أعدائكم.. وقد حصل ذلك المددُ الإلهي

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

للمسلمين، وهم يخوضون القتالَ في معركة بدر، وكان أعداؤهم ثلاثة أضعاف عددهم، فأنزلَ الله ـ العليُّ القدير ـ الملائكة عوناً لهم، ولتطمئنَّ قلوبُهم فلا يخافون كثرة العدد والعدَّة، ما داموا على الثبات والشجاعة نفسيهما، وعلى التضحية والإقدام نفسيهما، لأنَّ النصر ـ في نهاية المطاف ـ هو من عند الله، ومن ينصر الله ينصره، وقد تحقق يومئذ النصر للمسلمين..

وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الله تعالى عندما يشاءُ أن يوهن القلوبَ، ويضعف النفوس فإنه يقذف فيها الرعب، لقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾(1)، وهذا ما فعَلَ الله تعالى في قلوب بني النضير، من يهود المدينة، فقد ألقى في قلوبهم الخوف حتى امتلأت به وكادت تنقطع عن النفس لشدته، وذلك عندما حاصرهم المسلمون واضطروهم إلى الجلاء عن ديارهم، فجعلوا يخربون بيوتَهم بأيديهم، ومن ثمَّ بأيدي المؤمنين، كي لا يفكروا بالعودة أبداً.. وهذا ما كتبَهُ الله تعالى عليهم، بسبب عداوتهم للإسلام، وتآمرهم على رسول الله ﷺ، كي يقتلوه، ويقضوا، مع المشركين، على المسلمين من بعده..

ـ أما عن تفرّق القلوب بسبب تنازع الأهواء، واختلاف المصالح والغايات، فيقول الله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾(2)... وقد ورد هذا القولُ الكريم في سياق الآية التي تتحدث عن حالة اليهود في اجتماعهم على عداوة المسلمين، وتماسكهم على

---

(1) سورة الحشر. الآية: ٢.

(2) سورة الحشر، الآية: ١٤.

رأيٍ واحدٍ، وموقف موحّد في سبيل هذه العداوة.. أما فيما خصَّهم من مصالح أخرى، فقد كانت نياتهم مختلفة ومقاصدهم متفرقة، لأنَّ كل جماعة منهم كان لديها مصالح تتضارب مع مصالح الجماعات الأخرى، وتتوخى من ورائها غايات متباينة.. ومع ذلك، وعلى الرغم من ذلك التباين فيما بينهم، إلاّ أنَّهم كانوا قادرين، من حيث دهائهم، أن يخدعوا المسلمين بمظاهر الاتفاق، واجتماعهم في معسكر موحد الرؤية والقوى.. ولكنَّ الله تعالى يكذّبهم في كل تلك المظاهر الخادعة، عندما يبيّن كيف أنَّ «قلوبهم شتى» في تنازع أهوائهم، وتصادم اتجاهاتهم، خلاف ما يحسبهم عليه الناس..

وهنا، وعندما يبيّن الله تعالى ما تنطوي عليه قلوبُ أعدائهم اليهود من مشاعر التشتت والتفرقة، فإنَّما يريد سبحانه من المسلمين أنْ يأخذوا العبرة من أولئك الأعداء، فتبقى قلوبهم مجتمعة على التآخي، والتماسك، ووحدة الكلمة من أجل مصلحة الأمة.. كما أنه عندما يكشف سبحانَهُ لهم بواطنَ قلوب أعدائهم، وتفرّقها لشدة خلافاتهم - بخلاف ما يحسبونهم - فإنَّما يدعوهم إلى الصبر على الشدة، والثبات على الحق، لأنَّ مظاهر التماسك التي يرونها عند أهل الباطل، لا بدَّ وأن تتفسَّخَ جدرانُها، وينهار بنيانها، وتذهب ريحهم شتى.. وهذا ناموس أساسي في الوجود، لأنَّ الاختلاف كلما كان قائماً في جوهر الأشياء، فإنه سيؤدي في النهاية إلى تفجيرها من داخلها. وعلى هذا الأساس، فإنَّ ما يرى المسلمون اليوم من تحالفات بين أهل الباطل، لا بدَّ وأنْ يؤدي تفرق القلوب، وتنازع الأهواء، وتضارب المصالح إلى انهيار تلك التحالفات، وقيام تحالفات جديدة بين أهل الحق، تملأ الأرضَ عدلاً وقسطاً، بعد أن ملئت جوراً وظلماً..

ـ ومن أجل طهارة القلوب وعفّتها يأمر الله تعالى المسلمين بألاّ يكلّمَ الرجالُ نساءَ النبي ﷺ إلاّ من وراء ستار، فيقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾(1). والمعنى أنّه إذا ما أرادَ أحدٌ من رجال المسلمين أن يسألَ نساءَ النبي ﷺ متاعاً، أي شيئاً ينتفع به من أمور الدنيا والآخرة، فعليه أن يسألهنَّ ذلك من وراء ستار، لأنَّ هذا الستار يحول دون تلاقي العيون، أو ملامسة الأيدي، وهذا أجلب للعفة، وأطهر للقلوب، ولو من مجرد النظر.. وجميلُ ما في التعبير القرآني «طهارة القلوب» التي تبعدُ جوارحَ الإنسان عن كل مفسدة، وتبقيه إنساناً عفيفاً، شريفاً، طاهرَ القلب والسريرة، نظيفَ الكفّ واللسان، رقيب السمع والبصر..

من كل ما تقدم يتبيّن لنا أنَّ القرآن الكريم يجعل للقلب معانٍ متعددة، إذْ كما هو موطنٌ للإدراك الحسي، فكذلك فيه ملكةُ الفهم للمعاني المجردة، ومركزُ الانبعاث لكلِّ المشاعر، على تنوّعها..

إلاّ أن هذا البيان القرآني لا يجعل القلب وحده موطناً للنفس الإنسانية كما يحلو لبعض الناس أنْ يتصوروا، وذلك باعتقادهم أن القلب هو كل شيء.. وأنه، هو النفس بجمالها وكمالها، ولا شيء صالح سواه في الإنسان. ومن هؤلاء بعض الصوفيين مثلاً، الذين يزعمون أنَّ القلب هو عرشٌ للرحمن، وقد صرحوا في مناسبات عديدة بعدم جدوى العقل في الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، علماً بأنَّ القرآن الكريم قد جعل العقلَ من معاني القلب، كما رأينا قبل قليل

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

في الآية ٤٦ من سورة الحج. ولذلك كان الشِّعر عندهم تعبيراً عن خلجات نفوسهم، أي عن خلجات قلوبهم، فظهر في شِعرهم فنون متنوعة كالمناجاة والاستغاثات، والأوراد، والأذكار، والمدائح النبوية، وغير ذلك من ألوان شعرية شاعت في أوساطهم. فالوجد مثلاً، عند أولئك الصوفيين، ليس إلاَّ انفعالاً نفسياً قوياً، يحركه السماع، ويسيطر على الإنسان حتى يجعله في شبه غيبوبة عن الواقع.

يقول الإمام الغزالي بهذا المعنى: «ثم يُثمر الفهمُ الوجدَ ويثمرُ الوجدُ الحركةَ بالجوارح». ويقول شاعرهم:

ذكرتُك[1] لا أنّي نسيتُكَ لحظةً ... وأَيْسَرُ ما في الذكرِ ذكرُ لسَاني
وكِدْتُ بلا وَجْدٍ أموتُ مِنَ الهَوَى ... وهَامَ عليَّ القلبُ بالخفقَانِ
فلمّا أَراني الوجدُ حاضِري ... شَهدتُكَ موجوداً بكلِّ مكانِ
فَخَاطبتُ موجوداً بغيرِ تَكَلُّمِ ... ولاحَظْتُ مَعْلوماً بغيرِ عِيانِ

والرقص يؤدي بهم إلى حالة الكشف التي يتوهمون، فيقول شاعرهم عن الرقص:

دَقَقْنا الأرضَ بالرقْصِ ... على غَيْبِ مَعَانِيكا
ولا عيبَ على رقصٍ ... لعبدٍ هائمٍ فيكا
وهذا دَقُّنا للأرضِ ... إذْ طُفْنا بِواديكا

ولندعِ الصوفية وتخيلاتهم جانباً، إذ لسنا هنا بصدد تفنيد آرائهم أو الردّ عليها، مع الإشارة إلى أننا قد فعلنا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا «الصوفية في نظر الإسلام».. وإنَّما نريد أن نكرر القول بأن

(١) المقصود هو الله تعالى، وكيف يذكره الصوفيُّ.

العقل ـ الذي يعبّر عنه أحياناً بالقلب ـ هو أشرف هبةٍ منحها الخالق للإنسان. به عرف الإنسان ربَّه، وبه حاسب الربُّ عبادَهُ، لأنه إذا أصابه خللٌ ما، سقطت عن صاحبه كلُّ التكاليف والفرائض، والفارق بين العقل والقلب، أنَّ القلبَ يهتدي بهدي العقل، ولذلك سمَّتْهُ بعض الآيات القرآنية الكريمة عقلاً، تعبيراً عن النفس بجوهريها العقل والقلب، وإذ ليس بالعقل وحده يحيا الإنسان، وليس بالقلب وحده يحيا الإنسان، بل بالإدراك العقلي والشعور القلبي معاً يكون الإنسانُ إنساناً، إلاّ أن الخطر يكمن في أنَّ هذا القلب، أحياناً كثيرة، يميل بصاحبه عن الطريق القويم، ويتّبع الهوى ويوقعه في الضلال لأنه مكمن الغرائز. . . هنا تمتد يدُ الرحمة من الخالق جل وعلا إلى هذا الإنسان، في ساعة ضعفه تلك، فتقطع حبال أهوائه وميوله، وتحول بينه وبين الاستجابة إلى دوافع قلبه المهلكة، وتردّه إلى حياة الطّهر والإيمان في دنياه فيتذكر حياته الأخرى التي سيُحشر فيها إلى الله مع عمله. . قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾(١).

وفي ضوء هذه الآية الكريمة التي تبيِّن أن قلب الإنسان متقلّب، وأن يَدَ الله وحدها هي التي تردّه إلى الصواب كلما نزع نحو الخطأ. . في ضوء ما تعنيه هذه الآية نفهم دعاء رسول الله ﷺ الذي كان يقول فيه: «**اللهم، يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**».

أجل، هذا ما كان يدعو به ربَّه سيّدُ الأنبياء محمد ﷺ الذي

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

كُتبت له العصمة من الذنوب، فكيف بنا نحن الخطأةَ بني البشر؟

إنه دعاء يهزّ كيان الإنسان المؤمن، فتخشع نفسه ويرتجف فؤاده إذا ما خلا إلى نفسه مفكّراً، إذ يدرك ـ حينئذٍ ـ أنَّ قلبه الذي بين جنبيه، هو في قبضة الله تعالى القاهر الجبار، يحتجزه ويقلّبه ويصرّفه كيف يشاء، وأنَّه القادر على أن يحول بين المرء وقلبه، فلا يملك هذا الإنسان المسكين من أمر نفسه ولا من أمر قلبه شيئاً.. فتبارك الله العزيز القدير..

المبحث الثاني

الشعور والإحساس

يقال في اللغة: شَعَرَ وشَعُرَ شعوراً بالشيء: فَطِنَ له، وأدركه إدراكاً غريزياً، والشِّعر (مصدر) بمعنى العلم (ليت شعري فلاناً أو عن فلان أو لفلان ما صنع: أي ليتني علمت بما صنع). والشِّعر عند أهل اللغة العربية: «الكلام الذي يقصد به الوزن والتقفية، أو قيل: للموزون المقفَّى من الكلام». والشاعر هو الذي يقول الشعر، وسُمِّي شاعراً لفطنته، ودقة معرفته بصياغة الشعر.

والشعور هو العلم بالشيء وإدراكه إدراكاً غريزياً، والإحساس بالشيء لا يكون إلا على الظواهر الخارجية أو على الموجودات والأشياء، فتدرك حركاتها وصفاتها وتفاعلاتها عندما تتأثر أعضاء الحس بالتنبهات الحسية فتنطلق منها نبضات عصبية تمر خلال الأعصاب حتى تصل إلى مراكز الإحساس بالدماغ حيث يحصل الإدراك الحسي، فإدراكنا إذن للعالم الخارجي إنَّما يتم عن طريق الحواس.

أما الشعور أو الإدراك الداخلي فهو الذي يجعلنا نعي ما في

أنفسنا من كوامن أو دوافع أو انفعالات غريزية. . وهذا يعني أنَّ الشعور والإحساس يشكلان عنصرين متداخلين في نفس الإنسان، يمكن أنْ يعلم أو يدرك بواسطتهما كلّ ما يجول في دخيلته ـ أو ذاته ـ وأنْ يحسّ بالأشياء الخارجية ومعانيها، ممَّا يجعل للتغيرات التي تحدث في النفس تأثيراً كبيراً على سلوكنا، إنْ من ناحية ما يجب أنْ نقومَ به أو يجب أنْ نتجنَّبَهُ. ومن أهم مزايا خلق الإنسان ـ كما أكدّنا مراراً ـ هبة العقل التي تقترن بهبة الإحساس، فينتج من هذا الاقتران الإِدراك الذي لا يعي فقط المدركات الحسية، بل والمعاني والصفات والمزايا لكل ما هو معنوي أو غير حسيّ، وهذا ما يجعل عملية النشوء والارتقاء في الوجود البشري إنَّما تقوم على التزاوج والتلاحم ما بين الشعور والإحساس، وتدفعنا للسعي نحو القيم والمُثُل، والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والحسن والقبيح. . وتتم عملية الإدراك هذه (تفاعل العقل والحواس) بفعل الترابط المحكم القائم ما بين الجهاز العصبي والدماغ فيكون الإنسان كتلة من الأحاسيس والمشاعر.

دماغ الإنسان

لقد أثبتت الدراسات التشريحية أنَّ في لُحاء الدماغ مناطق عديدة ومتنوعة تقوم كل منها بوظائف نفسانية معينة، ومن أهمها: المنطقة الحركية التي تسيطر على حركات جميع أجزاء الجسم، والمنطقة الحسية التي تنتهي إليها الأحاسيس، مثل الإحساس باللمس، أو الإحساس بدرجة الحرارة والبرودة، أو الإحساس بالألم؛ والمنطقة البصرية التي هي مركز الإبصار وإليها تنتهي النبضات العصبية الواردة من العين؛ والمنطقة السمعية وهي مركز السمع حيث تنتهي إليها

النبضات العصبية الواردة من الأذنين؛ ومنطقة الترابط التي توجد في الجبين حيث تتجمع الرسائل الواردة من مختلف أنحاء الجسم فتقوم بتنسيقها وردها إلى أجزاء الجسم المختلفة. وهي التي تتدخل أيضاً في الأنشطة التي يتحكم فيها الدماغ، كما أنها تعتبر مركز العمليات العقلية العليا كالتفكير والكلام والكتابة والقراءة والتعليم. . .

ويتكون لحاء الدماغ من بلايين الخلايا العصبية التي توجد في داخل الجمجمة، لذلك نجد في هذا اللحاء كثيراً من الانخفاضات والمرتفعات، كما أن سطحه كبير جداً في الحقيقة، بحيث إنه لو جرى تسطيحه لبلغت مساحته حوالى ١٦ قدماً مربعاً.

وهكذا فإنَّ الدماغ يحتوي على المراكز التي تسيطر على جميع الأنشطة التي يقوم بها الإنسان، بحيث إنَّ كل نشاط لا بدَّ أنْ يصعد إلى الدماغ ويترك أثراً فيه. ففي مجال اهتمام العلماء بالذاكرة مثلاً، تبين لهم أنَّ كل ما يصدر عن الإنسان يتم تسجيله في خلايا الدماغ. ومن التجارب التي أجروها إثارة أحد مراكز الدماغ لدى شخص بتيار كهربائي، فسمع لحناً موسيقياً كان قد سمعه من قبل. وعند إثارة مركز آخر في دماغه رأى مشهداً معيناً كان قد رآه من قبل، أي إنَّ تلك التجارب هي التي جعلتهم يعتبرون لحاء الدماغ بمثابة سجل كبير لكل ما يقوم به الإنسان. ولعلَّ خلايا دماغ الإنسان هذه التي يتم فيها تسجيل أعماله هي إحدى معجزات الله تعالى في خلق الإنسان ليكون سجل أعماله المحفوظ في تلافيف دماغه حُجَّة عليه إذا ما أرادَ إنكار أعماله التي يتم عليها حسابُهُ يوم الدين؛ وهذا ما يفسر ما جاء في آيات القرآن الكريم من أنَّ السمعَ والأبصارَ والألسنةَ والجلود ستشهد على الإنسان يوم القيامة بما كان يعمل في دنياه. ومن قبيل ذلك قول الله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1] ، وقوله تعـالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3]، وقـولـه تـعـالـى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

وهذا ما يفسّر أيضاً قولَ الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[5]. أما «النواصي» فهي مقدم الجبين الذي من ورائه مباشرة مركز الربط بين كل ما يجري تسجيله في الدماغ من الأنشطة التي يقوم بها الإنسان؛ وأما «الأقدام» فهي تعبير عن السعي، أي عن كل ما يفعل الإنسان أو يعمل.. فتبارك العلي العظيم الذي وهبنا من الملكات ما يمكن أن ندرك بها بعض معاني قرآنه المجيد..

نظرية اللاشعور أو اللاوعي

لقد أشرنا في المقدمة إلى أنَّ تعبير «اللاشعور» هو تعبير خاطئ.. ولكنْ نظراً لما يوليه علم النفس من أهمية لـ«اللاشعور»، فقد رأينا أنْ نوضّح للقراء الكرام مدى المغالطة التي وقع فيها أصحاب هذه النظرية، عندما يزعمون أنَّ في النفس البشرية شعوراً غيرَ مدرك، وهو ما أطلقوا عليه اصطلاح «اللاشعور» أو «اللاوعي»، ويذهبون من

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٠.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٤) سورة النور، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

منطلق هذه النظرية إلى أنَّ الإنسان قد لا يعرف كل ما تنطوي عليه نفسه من أحوال باطنية. فقد لا يعرف ـ أحياناً كثيرة ـ لماذا يحبُّ هذا الشخص أو يكره الآخر، ولماذا يقدم على عمل معين بدافع قويٍّ، ويبتعد عن القيام بعمل آخر، أو يستنكف عنه.. ويقولون إنَّ الإِنسان يستطيع أنْ يسيطرَ على مشاعره، ولكنْ بعد مجاهدة للنفس قوية، أو قد لا يستطيع ذلك أبداً، فتظهر لديه حالات مرضية أو اضطرابات أو عقد.. وكلها أنواع من الأمراض النفسية تأتي من المكامن الدفينة أو من مواضع اللاشعور، ما يعني أنَّ في نفس الإنسان نزعاتٍ تبقى دفينة، ولا يشعر بها إلا إذا ظهرت بعوارض معينة، أو إذا اشتد ظهورها لسبب من الأسباب، فكأنَّ الشعور لا يوجد في النفس كلها، لأنَّ هنالك جزءاً منها يشكل نطاق اللاشعور، وهو ما يمكن وصفه بأنه طبقة ثانية تقع تحت الشعور الذي نحسّ أو ندرك به..

ولقد ضربوا مثلاً عن «اللاوعي» بالتواعد على لقاء شخص معين، فأنت قد تذهب في الصباح إلى عملك وقد تنهمِكُ بمشاغله إلى درجة تنسيك نفسك، وفجأة تهب عن الكرسي وتنظر إلى ساعتك فتتذكر موعدك. في هذه اللحظة بالذات يكون تواعدك مع شخص آخر قد برز في حقل دائرة وعيك، أي إنه كان قبل ذلك ـ وقت الانهماك بالعمل ـ في منطقة اللاوعي. لذلك فقد اعتبر أصحاب هذه النظرية أنَّ كثيراً من الذكريات والأفكار والمشاعر والرغبات يكون لا شعورياً، أي إنها تكمن في منطقة «الشعور اللاواعي» أو هي تتخفّى في «منطقة الشعور» وتظل متخفيةً حتى تُستدعى في ساعة الحاجة إليها.

ويقولون بأنَّ اللاوعي، أو الشعور الباطن إنَّما يقوم بدور هام في

حياة الإنسان، ولا سيما لدى المصابين بالعصاب، الذي يعرّفه علم النفس بأنه «اضطراب وظيفي ـ دينامي ـ انفعالي ـ وهو نفسي المنشأ، ويتصف بأعراض عامة تؤدي إلى اضطرابات في العلاقات الشخصية وحالة عدم كفاية وعدم سعادة». وهو يتكون ـ بحسب نظريات علم النفس ـ في السنوات الأولى من عمر الإنسان. وقد يكون نتيجة للقمع الاجتماعي والأخلاقي الذي يمارسه الآخرون على الطفل، ولا سيما أهله؛ وهذا ما جعلهم يستنتجون أنَّ مجال اللاوعي العاطفي يبقى أوسع من التعقل.

ويخضع اللاوعي أكثر ما يخضع للّذة، ويتميز بأنه انفعال، دينامي (حركي)، وهو بحيويته مؤلف من مجمل التفاعلات والعمليات النفسية المكبوتة، وبذلك فهو نواة الشخصية الحقيقية، ومركز الطاقة لحياة الإنسان، كما أنه يوجِّهُ السلوك إلى حدٍّ بعيد، وخاصة فيما يتعلق أو يقرب من المكبوتات فيه.

ويظهر اللاوعي بمظاهر شتى: فالذكريات المنسية تصبح في دائرة الوعي عن طريق الأحلام، والصدمات الانفعالية. والاضطرابات الوجدانية يعكسها قضم الأظافر أو تقطيب الحاجبين، أو بلع الريق أو السعال أحياناً، إلخ... وكلها مظاهر تخفي صراعات وجدانية لاواعية.

نظرية التحليل النفسي عند فرويد

من الأبحاث التي نجدها في علم النفس اهتمام «فرويد» وتلامذته بالدور الذي يقوم به اللاوعي في حياة الإنسان، وذلك من خلال نظريته المعروفة بـ«التحليل النفسي»، أو طريقة استكشاف

عمليات اللاوعي في النفس البشرية، وما تؤمّن هذه الطريقة من وسائل لمعالجة المصابين ببعض الأمراض العصبية أو الذهنية.

وقد بدأ «فرويد» في بناء نظرية التحليل النفسي، بعد أن تخلى عن التنويم المغناطيسي. وترتكز طريقته الجديدة على دراسة الأفكار التي ترد إلى خاطر المريض عندما يفسح له في المجال، ودون رقابة من أحد، أنْ يكوِّن نوعاً من الترابط في أفكاره. فمثلاً الذكريات المؤلمة التي تسبب الجرح النفسي أو الصدمة النفسية تكون مكبوتة، فيأتي التحليل النفسي ليتولى التعامل مع تلك الذكريات، ونقلها إلى إطار الوعي، وذلك بإخراج الكبت الكامن في نفس الإنسان. أي إنَّ مهمة الطبيب أو المحلل النفسي اكتشاف الكبت من خلال معرفة مسبِّبات المشاعر المكبوتة ومواجهة المريض بها، بحيث يكون عليه أن يتقبلها أو يرفضها. هذا هو التحليل النفسي، باختصار. وقد كان لهذه النظرية تأثير قوي في دراسة الشخصية عند الغربيين، من حيث كونها شخصية مستقرة أو غير مستقرة نفسياً، كما كان لها أهمية كبرى لتطبيق طرق معالجة الاضطرابات العقلية.

وتتكون الشخصية، وفقاً لما ذهب إليه «فرويد»، من ثلاثة أقسام: الـ«هو»، والـ«أنا»، والـ«أنا العليا»، وهي جميعها تتفاعل فيما بينها لتكوين طاقة نفسية، تظهر من خلالها الشخصية.

أمَّا الـ «هو»: فكل ما يحمل الإنسان معه عند ولادته، وكل ما يتأتَّى عن الطاقة النفسية من دوافع وحوافز، أي هو جملة من الميول الموجّهة لبعض النشاطات الفردية، وتربطه باللاوعي علاقة وطيدة، لأنَّه مكمن الغرائز والعادات والذكريات. وعلى هذا فإنَّ العواطف

تكون كامنة في الـ«هو» وتحتفظ بشحنات من الانفعال، إلا أننا لا نشعر بوجودها إلاً عندما تبرز بعض الأعراض على سطح الوعي.

ـ والـ«هو» لاشعوري، ولكنه يرتبط بالجسم ارتباطاً شديداً. وهو لا يتأثر بتقدم العمر، بل يبقى ذاتياً، أنانياً، طالباً للّذة، مبتعداً عن الألم ويتأبّاه.

ـ وأمّا الـ«أنا» فهو في الأصل من الـ«هو»، ولكنه تحوَّلَ إلى كينونته بفعل الظروف الخارجية، فأصبح يكوّنُ ذات الإنسان. ويقال عنه الشعور أو الإدراك، وهو الذي «يمثل الميول المكتسبة، والتعلم الاجتماعي، ويرتبط بالواقع، وينظم العلاقات مع الآخرين في المجتمع».

و«الأنا» يسمح بإشباع الرغبات بطريقة معتدلة، لا إفراط فيها ولا تفريط. وإذا تمادت الرغبات واشتدت لتلبي مطالب الـ«هو» فإن «الأنا» يحول دون ذلك التمادي، مستعملاً ما لديه من وسائل دفاعية كالكبت مثلاً. بمعنى أنَّ الرغبات العدوانية وما يتعلق بها يدفعها «الأنا» إلى العقل الباطن أو اللاشعور لتبقى فيه، ما لم تظهر في التخيلات والأحلام، أو ما لم يضعف «الأنا» ويقوى عليه الـ«هو» فينهار الجهاز الدفاعي وتسيطر الرغبات والأهواء. وعلى هذا فإن «الأنا» هو الذي يقيم التوازن بين الدوافع الغريزية والنزوات من ناحية، والضمير الحي من ناحية ثانية، بما يؤمن استمرارية التفاعل والحركة بينهما.

ـ «الأنا العليا» هو في الأساس جزء من الذات التي تكوِّن «الأنا»، إلا أنه يعمل مستقلاً عنه من حيث الكمال والمثالية، ويعرف لدى الناس بالضمير أو الوجدان، وهو يتكوّن بفعل القيم الخارجية

والمثل العليا والتقويم والتربية والضغط المجتمعي. أي «إنه مجموعة القواعد التي تعلم الخير والشر، وتكتسب من الوالدين وممثلي السلطة ورموزها، ولا ينفصل عن العقوبات والمكافآت لأنه سلطة تكافئ وتعاقب بغية تنظيم الدوافع وردعها عن التعدي على القانون أو السلطة أو الانضباط أو المجتمع. ولذلك فهو يوفر الاستقرار والامتثال للمعايير السائدة امتثالاً واعياً مراتٍ، وغير واع مراتٍ أخرى»، باعتبار أنه في «الأنا العليا» غالباً ما تكون الذكريات المحظورة لا واعية.

ويعتبر «فرويد» أنَّ الـ«هو»، وبعض أجزاء من «الأنا»، ومن «الأنا العليا» تكون لاشعورية، وعلى هذا الأساس أعطى «فرويد» دوراً هاماً للجنس فيما يتكوَّن لدى الإنسان من أفكار، وما قد يأتي من تصرفاتٍ أو أفعال. . وهذا في حين يجعل للحافز لديه صفةً عدوانية. كما اعتبر أنَّ الحوافز الجنسية هي التي تولد الطاقة النفسية للسلوك، والنشاط العقلي المتمثل بالمكونات الثلاثة: الـ«هو» و«الأنا» و«الأنا العليا» أو ما يسميه «اللبيدو». ومن هذه المكونات الثلاثة تتكون الشخصية.

ويعتبر التحليل النفسي في «علم النفس» من طرائق العلاج الهامة للاضطرابات النفسية، ولاسيما ما يظهر منها بمظاهر مرضية كالهستيريا وازدواج الشخصية وغيرهما، فالمصاب بالهستيريا قد يكون لتصوراته تأثير قوي في اختلال حساسيته وذاكرته وإرادته وحركاته. ولذلك اعتبرت الهستيريا من الأمراض النفسية، أما من حيث العلاج فإذا كان أحدهم مصاباً بفقدان الحس في عضو من أعضائه أمكن شفاؤه بالإيحاء. ومن خواص هذا المرض أنه غير قابل للشفاء على يد أيِّ طبيب كان، بل بالمعالجة من قبل طبيب يألفه المريض ويفضله في

نفسه على غيره. وهذا ما يسمى بـ«الانتخاب اللاشعوري».

وكذلك الأمر إذا أصيب المريض بفقدان الذاكرة، وهو مرض ينسى فيه المريض بعض الأمور التي تتعلق بشخص معين أو بشيء معين. فقد يكون سلوك هذا المريض عادياً، ولكنه لا يذكر شيئاً عمّا حدث معه سابقاً، فكأنما نزعت صور الماضي من ذاكرته تماماً. والصحيح أنه لم ينسَ الماضي نسياناً حقيقياً، لأن الذكرى تبقى في ذهنه، وهي لا تزال تؤثر في نفسه، ولكن الذي حصل أنها انتقلت من نطاق الشعور لديه لتكمن في نطاق اللاشعور.

ومن طرائق العلاج التي يعتمدها التحليل النفسي أيضاً، بل وأهمها في علم النفس، طريقة «التداعي الحر». وهي تقوم على أن يسرد المريض كل ما يرد في خاطره دون رقابة عليه من أحد، أو وقوعه تحت أي تأثير. ويكون ذلك بدافع الإرادة الحرة لقول أي شيء دونما اختيار لألفاظ معينة، ودونما خجل. إذْ مجرد أنْ يلقي عليه الطبيب أو المحلل السؤال فإنه يجيب بما يحلو له من غير تكلف أو تقصّد أو تعمّد.

ويأتي بعد ذلك، دور المحلل الذي يمكن أنْ يعثر وهو يستعرض حديث المريض على تعابير يعتقد أنها توصله إلى «لاوعي» هذا المريض، بسبب ما يستشف من الأفكار والرغبات والمشاعر التي تكون مدفونةً أو مكبوتةً في نفسه. ويرى «فرويد» أن إظهار هذه المكبوتات يجعل وعي المريض يأخذ بها، ويجعل بالتالي السيطرة عليها، بقبولها أو رفضها، ممكنة.

إن نظرية التحليل النفسي هذه يقولون إنها لاقت نجاحاً كبيراً في

ميدان «علم النفس» العلاجي. إلا أن أصحاب مدرسة التحليل النفسي الجديد انتقدوا «فرويد» في كثير من نظرياته، بل وخالفوه بمبالغته في أهمية الدوافع الجنسية، واعتباره لها مصدراً للعصاب، واضطرابات الشخصية، قائلين بأن هناك أسباباً كثيرة أخرى تكون بدورها مؤثرات فعالة في تكوين الحالات العصبية أو الاضطرابات، ومنها بشكل خاص المؤثرات العائلية والاقتصادية والوسط الاجتماعي وغيرها.

وكثير من الناقدين يعتبر التحليل الفرويدي في حقيقته عبارة عن «عملية غسل دماغ». وهنالك دلائل لديهم تشير إلى أن «فرويد» نفسه كان مريضاً، وكانت شخصيته مضطربة، وكان يعاني من العُصاب والإدمان على التدخين، ويتعرض لحالات غريبة».

ويقرر «ثيودور ريك»، وهو أحد المحللين النفسانيين، في كتابه «الإنصات بالأذن الثالثة»: «أنَّ من أهم سمات المحلل قدرته على الإصغاء الدقيق لما يجول في نفس المريض». ويعلق الدكتور «أرنست جونز»، صديق «فرويد»، الذي ظل مرافقاً له حتى وفاته عام ١٩٣٩م قائلاً «بأن أذن فرويد الثالثة كانت صماء».

ولعلَّ أهم ما أتت به مدرسة التحليل النفسي الجديد أنها حاولت أن تكشف النزعة اليهودية ـ الصهيونية التي اتسمت بها كتابات «فرويد» الخاصة بالصوفية اليهودية، وخرافة الشعب المختار، وعلى الأخص إظهار المشكلات العصابية التي كان يعاني منها «فرويد» شخصياً، مما يظهر المخططات الخفية الكامنة وراء بروز هذا الشخص وأمثاله، وجعلهم من ذوي النظريات البراقة، والفضل الكبير على الإنسانية، بينما هم في حقيقتهم أدوات لأغراض سياسية أو عقائد تعصبية أو

مطامع دنيوية بعيدة المدى، ولكنها ترتدي لباس العلم ولباس الخدمة الإنسانية!!.

تلك نظرة وجيزة عما ذهبت إليه أبحاث «علم النفس» عن اللاشعور أو العقل الباطن. وتبقى أبحاثها واستنتاجاتها ـ بنظرنا ـ مجرد نظريات وافتراضات، إنْ بالنسبة إلى الوسائل العلمية والمخبرية التي تتبعها، أو للنتائج التي تتوصل إليها، أي إنها لا يمكنها أن تصل إلى معرفة الإنسان على حقيقته في تكوينه النفسي والفيزيولوجي. ولذا يجب أن يكون جهدنا منصباً على إدراك ذاتية الإنسان بما أُودِع فيه من خصائص مميزة، والتعامل معه ككائن حي متفاعل مع الحياة، وككائن مبصر يمكن أن يدرك ما في الكون من ترابط، وأن يميّز الوقائع والأحداث في حياته الفردية، وحياته الإنسانية العامة. من هنا كانت أهمية الإدراك الحسي الذي يعرفنا إلى العالم الخارجي، وأهمية الإدراك الفكري أو العقلي الذي نستدل به على المعاني المجردة، وعلى الأفكار والتصورات التي تمثل القيم العليا أو المثل الأعلى في حياة الإنسان. إذ من خلال الإدراك الفكري والشعوري نستطيع أن نستدل على حقيقة وجود الله تعالى، وعلى قدرته في بديع خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان والحياة..

ولئن كانت قدرة العقل على الإدراك والمعرفة محدودة، أو قوة القلب ضعيفة لأنه معرَّضٌ لتقلبات أهوائه، إلاَّ أنَّ القلب والعقل هما النفس الإنسانية، يبقيان من المكونات الجوهرية التي خلقها الله تعالى في الإنسان حتى تكون له تلك الميزة على سائر مخلوقاته الأرض؛ فالإنسان يولد بالطاقات الذاتية والاستعدادات الفطرية التي تكون

جاهزة للتلقي.. ثم لا تلبث حواسه أنْ تبدأ في أداء وظائفها، لمجرد خروجه إلى هذه الحياة، حيث يتأثر بكل ما تقع عليه حواسه، أو ما يحدث في داخله من الأحاسيس والمشاعر، والتي تكوِّن جميعها إدراكه للعالم الخارجي، وشعوره بعالمه الداخلي، يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

إنَّ هذه الآية الكريمة، وهي تذكر السمع والأبصار والأفئدة، إنما يعني أنها تشتمل على الإدراك الحسي (السمع والأبصار) والإدراك الفكري (الأفئدة). ويركز القرآن الكريم - دائماً - على «السمع» و«الأبصار» باعتبارهما من أدوات الإدراك الحسي، وفيهما دلالة كافية على أهمية الحواس جميعاً في عملية الإدراك، ولا سيما أنَّ العلاقة ما بين السمع والأبصار والأفئدة هي التي تجمع كل معاني الفهم والتدبر والتفكير والتصور والتبصّر.. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

ويأتي التركيز القرآني على أهمية الإدراك من أجل تنظيم الحياة الفكرية والنفسية والجسمية والمجتمعية تنظيماً شاملاً، بحيث لا يكون هنالك أي معنى من معاني الوجود، أو أية ظاهرة من ظواهره إلا وتكون لدى الإنسان القابلية للإحساس بها، أو إدراكها، وهذا ما يؤكده القرآنُ الكريمُ بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾[3]، ومعناه: فلما أحسَّ، أي رأى وأدرك عيسى عليه السلام من بني

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

إسرائيل الكفر.. وكان إدراكه لكفرهم بعدما أراهم كلَّ تلك المعجزات[١] التي لم تتهيأ لبشر أصلاً، وإنّما أتاها الله تعالى على يدي رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام لتنويره في دعوته إلى الله الواحد الأحد.. وعلى الرغم من المعجزات الخارقة التي رأوها، فإنَّ معظم بني إسرائيل لم يؤمنوا به، ولم يلبّوا دعوة الحق التي يحمل، فقال عندها عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] وفي قوله هذا تنبيه بأنه ظهر منهم الكفر ظهوراً بيّناً للحسّ، فضلاً عن الفهم والإدراك.

والحسُّ بمعنى الإدراك، ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[٣]. أي إنَّ أهل القرى الذين ظلموا أنفسهم ـ بالكفر ـ لمّا جاءتهم إمارات العذاب وأحسُّوا بأنّه واقع بهم لا محالة، راحوا يتدافعون منها وهم يركضون، كأنما يريدون النجاة من بأس الله تعالى، وهذا منتهى إدراكهم الحسي والعقلي لقوة الله تعالى وهي تُنزل بهم قضاءه. بسبب كفرهم وإصرارهم على هذا الكفر وهو ما بيَّنه قول الحق تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾.. أما القصور في هذا الإدراك فهو الجهل بأنَّ الموت إنما يدركهم أينما ذهبوا، ولو كانوا في بروج مشيدة..

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[٤] فهو واضحٌ لناحية أنّه لا يمكن أنْ تشعر

(١) وأهم معجزاته عليه السلام: إحياء الموتى، وشفاء الأبرص والأكمه، وخلق هيئة الطير من الطين ـ بإذن الله ـ.
(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٢.
(٤) سورة مريم، الآية: ٩٨.

بوجود أحدٍ من الذين أهلكهم الله ـ تعالى ـ أو أن ترى منهم أحداً، أو أن تسمع لأحد منهم صوتاً خافتاً. . وهذا يعني أنَّ النصَّ القرآني يجعل جميعَ الحواس الخارجية ومواطن الوعي الداخلية تشترك في إدراك مصير تلك الأمم الغابرة التي نزل بها أمرُ الله تعالى، فأهلكها عن بكرة أبيها، بحيث لم يعد لأحدٍ منهم أي وجود يمكن الإحساس به. . أما لماذا تركيز النص القرآني على مشاركة كل ملكات الإنسان لاستيعاب ذلك المصير فلأنه يحمل عظةً بالغةً للإنسان من شأنها أن تجعله يتفكّر في مصيره المحتوم وهو الموت، الذي تنقطع به أية صلة له بهذه الحياة، بعد أن ينعدم وجوده فيها كاملاً، وينتقل إلى دارٍ يخيم عليها الصمت، فلا حسّ له ولا حركة ولا همس، ولا نَفَسٌ. .

والحركة التي تنبعث من الوجود، من كل موجود، يعبر عنها النص القرآني بالحسيس كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[1]. حيث يُفهم من سياق الآيات الكريمة التي تحيط بهذا النص أنَّ الذين زحزحوا عن النار لا يسمعون لها صوتاً وهم في منازلهم التي جعلها لهم ربهم تبارك وتعالى المنزلة الحسنى في الجنّة. وأمّا قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[2]. يعني: التمسوا وجود يوسف وأخيه، بكل ما أوتيتم من عزم وقوة، وما تقدرون عليه من صبر واحتمال في البحث والتنقيب حتى تعثروا على أثر لهما. وليكن ذلك بدافع الإدراك الواعي والقاصد من غير يأس لأنه لا ييأس من روح الله ـ أي رحمته تعالى ـ إلاَّ القوم الكافرون.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

من هنا كان للدوافع والانفعالات حسيسُها فينا، أي تأثيرها القوي في تفكيرنا وفي إدراكنا الحسي. فمثلاً عندما نحب شخصاً معيناً فإن هذا الحب ـ وهو من قبيل الدافع أو الانفعال العاطفي ـ يجعلنا ندرك محاسنه، ونغفل عن مساوئه، والعكس صحيح في حالة كرهنا لشخص ما. . وهذا التأثير للدوافع والانفعالات أشار إليه رسول الله ﷺ بما ورد عن أنس من أنَّ الرسول ﷺ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة. وحبك الشيء يعمي ويصمّ»[1].

والرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان يحدّث الصحابة بأمورٍ تخرج عن نطاق الإدراك الحسي. وهذا أمر طبيعي لأن الوحي يتنزَّل عليه، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى أمدَّه ببصيرة النبوة، وزوَّده بطاقات لا يمكن توافرها لغيره من البشر، وكل ذلك ليكون قادراً على حمل الرسالة وإيصالها إلى الناس. وما حادثة الإسراء والمعراج[2] إلاَّ دليل على تلك الطاقات التي تخرج عن طبيعة البشر واحتمالهم، وهي من ناحية معرفة النفس الإنسانية فوق مستوى أي إدراك عقلي أو تصور حسي. ولكن الرسول ﷺ أوتيها، وأدرك بحواسه وقائعها جميعاً وذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

ثم إنَّ هنالك أحاديث نبوية كثيرة تَنقُلُ عن نبيّنا المصطفى أنَّ الله تعالى قد وهب الرسلَ ـ صلوات الله عليهم ـ من الإدراك ما يختلف بمضامينه الحسية والعقلية، عن أي مفهوم آخر للإدراك البشري بوجهٍ عام. . فهو إدراك من نوع خاص، ويختص بالنبي أو الرسول من دون

---

(١) سنن أبي داود، باب الأدب، ص١١٦.

(٢) قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

سائر الناس، ومن قبيل ذلك أنَّ محمداً رسول الله ﷺ كان يسمع أصوات الموتى في القبور، فقد روي عن ابن عباس أنَّ «النبي ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إنهما ليُعذَّبان، وما يعذبان من كبير». ثم قال ﷺ: بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ، أو لا يستتر، في رواية أخرى». والرسول ﷺ كان يرى الملائكة، فعن أبي ذر الغفاري ﷺ أنَّ الرسول ﷺ قال: «**إِني أَرَى ما لا تَرَوْنَ، وأَسْمَعُ ما لا تَسْمَعُونَ. أَطَّتِ[1] السماءُ وَحَقَّ لها أَنْ تَئِطَّ. ما فيها مَوْضِعُ أربَعِ أصابَعِ إلاَّ ومَلَكٌ واضعٌ جبهَتَهُ، ساجِدٌ لله تعالى**».

والرسول ﷺ يعزو إلى بني آدم إمكانية رؤية ملكوت السماء. ذلك أن الاتصال بالله تعالى يتم من قبل الإنسان المؤمن بصورة مباشرة إذا كان لديه من صفاء القلب، وشفافية النفس، وذَكَرَ الله تعالى كثيراً بالثناء والشكر، ولا سيما عند قيامه بالصلاة، وتضرّعه بالدعاء، ما يؤهله لذلك الاتصال، يقول رسول الله ﷺ: «**لولا أنَّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء**»[2]، فما يبدو من هذا الحديث الشريف أن نفسَ المؤمن، عندما تقاوم غواية الشيطان، وتتوجه بالإيمان الصادق، والنية الخالصة لبارئها، يمكنها أن تصلَ إلى حالةٍ من الإدراك العقلي والشعوري لا علاقة لها بالمحسوسات، وعندئذٍ يتحقق لها من خلال رؤية البصيرة نوع من العلم بما في ملك الله الواسع من الموجودات والخلائق، الذي يعبّر عنه القرآن بـ«علم اليقين»، أي كأنّما تصير لديها تلك الموجودات

---

(١) أطت: رقّتْ وتحركت.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، ج٣، ص٢٥٢.

بمثابة المحسومات المرئية. . وإذا كان هذا الإدراك مما يختصُّ به الأنبياء والمرسلون، إلاَّ أنه يمكن أيضاً للمؤمنين الأتقياء بلوغه، أي إنه يمكنهم، بصفاء القلب وشفافية النفس، وتعلقها بالملأ الأعلى، أن يدركوا ما لا يستطيع غيرهم من بني آدم الآخرين إدراكه. وهذا أيضاً ما أشارت إليه رواية أبي سعيد الخدري من أنَّ الرسول ﷺ قال: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله تعالى»**[1]، ثم قرأ ﷺ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[2]، أي لأصحاب الفراسة والرؤية، العارفين المعتبرين.

مما تقدّم يتبين لنا ـ بوضوح ـ أن نظريات علم النفس حول «اللاشعور أو اللاوعي» لا تستند إلى أساس صحيح في تكوين الكائن البشري، ذلك أنَّ الله ـ تعالى ـ خالقه، قد حباه بالحواس لإدراك العالم الخارجي، وزرع فيه ملكة الشعور إلى جانب مَلَكَة العقل لإدراك كوامن نفسه، ما يبعد تلك التقسيمات المزيفة للشعور، وجعله بمثابة طبقات في أسفلها «اللاوعي» أو «اللاشعور»، ومن فوقها الوعي أو الشعور، باستثناء فقط إدراك الرسل (عليهم صلوات الله تعالى) والمتقين من عباد الله المخلصين، لبعض القضايا التي يخرج إدراكها عن علم سائر الناس غيرهم؛ والتي ما كان لهم أن يُؤْتَوْها إلاَّ بإذن الله تعالى. .

---

(١) الترمذي، ج٦، ص١٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

البحث الثالث

اللـــذّة والألـــم

كل إنسان، بحكم تكوينه الجسدي والنفساني، لا بدَّ أن يشعر باللذة، كما لا بدَّ أن يشعر بالألم.. وقد استعمل بعضهم لفظ الإحساس للدلالة على اللذات والآلام الجسمانية. واستعمل لفظ الحس الباطن والعاطفة والوجدان للدلالة على اللذات والآلام النفسانية. والغالب أنَّ كلمة إحساس هي ما يطلق للدلالة على إدراك الأشياء الخارجية بالحواس الخمس الظاهرة. واللذات هي الأحوال الملائمة، أي التي تريحُ الجسد، والنفس، أما الآلام فهي الأحوال غير الملائمة أو الأحوال المنافية.

واللذات والآلام تكون جسمانية ونفسانية.

أمَّا اللذات الجسمانية فهي التي تحسّ بها النفس في حالة تخلص الجسم من الأوجاع كما في حالة الشفاء من الصداع أو إرضاء الغرائز والحاجات العضوية وإشباعها، كما في الشبع بعد الجوع، والشرب بعد العطش، والاستدفاء بعد البرد، والأمن بعد الخوف، وتلبية الرغبة بعد الحرمان.

وأمّا اللذات النفسانية فهي التي تشعر بها النفس من جرّاء التصور والتفكير بأمور معينة، مثال ذلك: فرح الإنسان في زواجه، أو زواج أولاده، وهناءة الكريم عند جوده بالمال، وراحة العالم أو فرحه عند اكتشافه قانوناً علمياً. فقد حكي أنَّ العالِمَ (دوي) رقص في مخبره عند اكتشافه البوتاسيوم، وقيل إن (أرخميدس) خرج من الحمام عارياً لشدة فرحه عند اكتشافه القانون المعروف باسمه حول عوم الأجسام على سطح الماء، أي إنَّ اللذة النفسانية تأتي ـ إجمالاً ـ عند تحقيق الإنسان لأهدافه، أو بلوغ غاياته، أو العيش في أجواء تبعث على ارتياحه أو إسعاده إنْ ظرفياً، أو لفترة من الزمن.

وبلوغ الهدف أو تحقيق الغاية التي يصبو إليها الإنسان يطلق عليهما في «علم النفس» اصطلاح «قمة الخبرة» أو «فيض الخبرة»، لأنهما ينشئان حالةً نفسيّة عند الإنسان يشعر معها بأنه في أسعد لحظات العمر. وعلماء النفس يفسرون هذه الحالة بأنها انفعالات باعثة على السرور، ويمكن التوصل إليها عن طريق الحب، أو العاطفة الأبوية، أو الاستمتاع بالجمال أو القيام بعمل فيه تحقيق للذات. . . ويكون الإنسان في هذه الحالة على وعي تام بمشاعره، وبأنه يبذل أقصى طاقة لديه دون جهد، كما يشعر بأنه يتصرف تلقائياً وبطريقة عفوية.

ومن ناحية الآلام الجسمانية فإنَّ النفس تحسّ بها عند فقدان الاعتدال الطبيعي في ممارسة أعضاء الجسم لوظائفها، أو عند تعرض الجسد للضرر كاحتراق الجلد، ورمد العين، وطنين الأذن، ووجع الضرس، أو عند إصابة الجسد بالجروح والكسور، وما إلى ذلك من أحاسيس ناتجة من أعراض فيزيولوجية. .

بينما الآلام النفسانية تنشأ عن أسباب فكرية في الأصل، كالأسى الذي يصيب الإنسان عند الإحباط، مثل رسوب الطالب في الامتحان الذي كان يعوّل على النجاح فيه، أو الحزن الذي يسيطر على المرء عند وفاة صديقه، أو تحسّر المؤمن عند ارتكابه معصية، أو ندم الزوجة لإغضاب زوجها.

وعلى هذا الأساس قيل: إن اللذة هي الراحة التي تجدها النفس عند إرضاء النزعات وإشباع الرغبات، ورجوعها إلى الاعتدال. وقيل: إن الألم هو شعور النفس بخروجها عن الاعتدال.

ومن هذه النزعات والرغبات ما هو غريزي، ومنها ما هو مكتسب، ومنها ما هو دائم، ومنها ما هو زائل، ومنها ما يتولد عن الجسد، ومنها ما ينشأ عن الفكر. مثال ذلك: إن العاطفة الوطنية التي تتجلى في الدفاع عن أرض الوطن، هي نزعة إلى الفعل والتفكير معاً. نخضع لها في حياتنا، ونضحي في سبيلها بمالنا وجهودنا، حتى أننا قد نسخِّر لها نفوسنا ونبذل في سبيلها دماءنا. هذه العاطفة الوطنية بالذات هي التي تولّد في النفس هيجانات حقيقية كحنين المهاجر للعودة إلى دياره، والعيش بين أهله وأصدقائه.

ويرى بعض الزاهدين أو المتشائمين أنَّ الحياة كلها جد وجهاد، وهذا ما يولد الآلام.. في حين يرى بعضهم الآخر أنَّ الحياة كلها قلق واضطراب، لأنها أسف على الماضي، وسخط على الحاضر، ونزوع بالآمال إلى المستقبل. فإذا تحقق الأمل صار المستقبل حاضراً، وإذا صار حاضراً لم يرضَ الإنسان به. فلا وجود إذن للذةٍ محضةٍ لا يشوبها ألم ولا حاجة. وقد قال ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد»:

ألا إِنَّمَا الدُّنْيَا نَضَارَةُ أَيْكَةٍ إذا اخْضَرَّ منها جانِبٌ جفَّ جانِبُ
هِيَ الدارُ الآمالُ إلا فَجَائِعُ عليها ولا اللَّذاتُ إلا مَصَائِبُ

وخلافاً لمذهب التشاؤم هذا، فإنَّ رأي المتفائلين يقول بأنَّ اللذة طبيعة إيجابية، وأنَّ الألم متولد منها، ويدللون على ذلك بما يلي:

١ ـ لا يوجد الألم إلا في الرغبات التي لم تتحقق، والشهوات التي لم تدرك. فالجوع في أوله شهوة لذيذة إلى الطعام، وحركة ملائمة تنتهي بلذة الأكل وراحة الشبع.

٢ ـ ليس كل عمل مؤلماً، ولا كل جهاد مضنياً. بل الجهاد المعتدل ملائم للنفس وموافق لنشاطها، فلا يصبح ألماً أو مؤلماً إلا إذا كان مخالفاً للفطرة، وخارجاً عن الاعتدال.

٣ ـ القلق مرض، ولا وجود للاضطراب في حالة الصحة. والحياة الممتلئة تمنعنا من الأسف الدائم على الماضي. أضف إلى ذلك أن بعض اللذات خال من الألم، كلذة التمتع بالطيِّب والمنظر الجميل، برهة قصيرة من الزمان. ومثل هذه اللذات تنسينا متاعب الحياة وتحبب إلينا العيش.

وهكذا نجد أنَّ المتشائمين يجعلون الألم ماهية اللذة، والمتفائلين يجعلون اللذة أساس الألم.. ويمكن التوفيق بين المذهبين، على ما ذهب إليه كثيرون، من أن لكل من الألم واللذة طبيعة إيجابية، إذ إن ظهور اللذة بعد الألم لا يدل على أن اللذة تتولد من انقطاع الألم فحسب، بل يدل على أن لكل منهما شروطاً خاصة به، فليس الألم فقدان اللذة، ولا اللذة فقدان الألم.. ولكل من اللذة والألم آثاره الفيزيولوجية أو تأثيره على أعضاء الجسم. فاللذة تزيد قوة

الهضم وتساعد الأعضاء على التغذية، كما تعين الجسم كله على حفظ صحته. وقد قيل إن السرور غذاء للنفس، لأنه يساعد على الهضم، فيحفظ الشباب، ويطيل العمر.. وعلى عكس ذلك الألم، فهو يضعف الشهوة إلى الطعام، ويمنع الإفراز، ويؤخر فعل الهضم، ويفسد التغذي. وكثيراً ما يشيب شعر المرء لهول المصائب الشديدة، إذ تمنع شدة الألم أعضاء الجسم من الحصول على غذائها الطبيعي.

وقد دلت التجارب على أنَّ هذه النتائج تنشأ عن أسباب كيميائية. فالألم يغير تركيب الدم، فيسممه بسوء الغذاء وامتصاص المواد التي لم تهضم جيداً. وقد يتولد من ذلك سموم موضعية أو عامة تورث الاستعداد للأمراض، فهي بمثابة خمائر تساعد على تفريخ الجراثيم الوبائية.

كما دلت التجارب أيضاً على أنَّ الأحوال الملائمة التي تنتج اللذات تبعث على ازدياد النبض، وازدياد حجم الساعد، وانبساط الصدر أثناء التنفس. وقد ثبت أخيراً نجاح التجارب في اكتشاف عقاقير من شأنها أن تؤدي إلى تحسن في (عمليات الذاكرة). ولكن الخطر في منشطات الذاكرة، أو في إشاعة اللذة التي تؤدي إلى الإدمان عليها، ما يوجد مشكلة قد يصعب علاجها.

وقد نشأ من الأبحاث في اللذة والألم مذهب يعرف بالمذهب الذهني، وهو يرمي إلى القول بأن للرأي والفكر أثراً عظيماً في حدوث اللذة والألم. فالفكر هو الذي يجعل الإنسان يرنو إلى الكمال وإلى حب الخير وكره الشر، بحيث يستشعر الإنسان اللذة في الكمال أو عمل الخير، أو يستشعر الألم في بعده عن الكمال وطغيان الشر

عليه. . لو قرأتُ مثلاً كتاباً صعباً، فقد أجد في قراءته لذةً على الرغم من صعوبته، ففي تخطي هذه الصعوبة شيء من الكمال. وعلى العكس فلو أعادَ كاتبٌ قراءة كتابٍ كان قد أَلِفَهُ، ووجدَهُ دون المستوى الذي كان يطمح إليه، لشعر بخيبة الأمل التي تورث الألم في نفسه. وهذا ما يجعل اللذات والآلام، بنظر أصحاب المذهب الذهني متعلقة بالآراء والأفكار والأحكام وفقاً لنظرة الإنسان إلى الأشياء. وقد ذهب (ديكارت) إلى القول: «إنَّ أساس رضانا شهادة الشعور الداخلي بحصولنا على شيء من الكمال»، وقال أيضاً في كتاب (الأهواء): «السرور انفعال ملائم للنفس يبعثها على التلذذ بالخير الذي تمثّله لها تأثيرات الدماغ. والحزن ضَنَى مُنَافٍ للنفس يبعثها على الشعور بمضض النقصان الذي ينقله إليها تأثير الدماغ». وقد حذا «ليبنتز» حذو «ديكارت» فقال: «أظنُ أنّ اللذة هي الشعور بالكمال، والألم هو الشعور بالنقص».

وعلى أساس المذهب الذهني تُعتبر سعادة الإنسان، وكذلك شقاؤه، ناشئين عن آرائه. وقد ذهب أصحاب هذا المذهب إلى أن الإنسان يكون سعيداً ما دام يجهل الخطر المُحدِق به. حتى لقد قال المتشائمون إن عقل الإنسان وعلمه وتحضّره وذوقه مدعاة للألم والشقاء، فكلما ازداد علم الإنسان اتسع أفق تفكيره، ورأى مُثُلاً عُليا جديدة تبعده عن الواقع، فيتألم مما هو فيه، فيكون علمه وما بلغه هو السبب بتعاسته أو شقائه. من أجل ذلك قال هؤلاء المتشائمون: «من أراد إسعاد الناس فلا يعلّمهم، لأن العلمَ باعثٌ على الشقاء». حتى لقد ذهب الشاعر قديماً إلى هذا النحو من التفكير، فقال:

لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرَّني   جهلي كما قد ساءني ما أَعْلَمُ

كالصعوِ[١] يرتعُ في الرياضِ وإنَّما حُبِسَ الهزارُ[٢] لأنَّهُ يتكلَّمُ

ولكنْ، هل العلم فعلاً يُشقي الإنسانَ؟

قد تكون المظاهر الناجمة عن تقدم العلوم، واستغلالها للمآرب النفعية والمادية، هي التي أشقت الإنسان على ما نشاهد في أيامنا. إذ كلما تقدمت الابتكارات الجديدة، ووسائلها الفكرية والتكنولوجية ابتدعت معها حاجات جديدة يجهد الإنسان للحصول عليها، بحيث لا يمكنه تأمينها إلاَّ بشق النفس، حتى إذا ظنَّ أنه اكتفى نشأت أمامه حاجات أخرى تفرض عليه اللهاث وراءها، وهكذا دواليك، ما يبقيه في تعب دائم. وربما كان هذا ما أراده أولئك الذين يدّعون أن العلم ـ الذي لا يخدم الإنسان، ويؤمن له مزيداً من الراحة ـ هو الذي يشقيه، وأنه خير لمن كان عنده مثل هذا العلم ألاَّ يعلم. . ولكن في الحقيقة ـ ومهما قيل في العلم النافع أو الضارّ ـ فإنَّ قيمة الإنسان تُقدَّر بما يدرك من العلم والمعرفة، لأن الجهل ظلام يطمس العقول والنفوس. وكثيراً ما يوقع في الضلالة، فخير للإنسان أن يشقى بالعلم من أن يرتع في نعيم الجهل. والله تعالى لا يريد للإنسان أن يكون جهولاً، بل يريد له الاهتداء إلى العلم، والمعرفة، والنور الذي يفتح بصيرته على آلائه تعالى في الأنفس وفي الآفاق. من هنا كان الفارق كبيراً بين الإنسان الذي يدرك معاني الوجود بمعرفته وعلمه، والجاهل الذي يحرمه جهله من تلك المعرفة التي يمكن أن تؤهله لأن يرتقي في حياته. . فطلب العلم من شأنه أنْ يوسِّع آفاق الإنسان الذهنية، ويعرّفه إلى

(١) الصعو: عصفور صغير جداً.

(٢) الهزار: العندليب، طائر حسن الصوت.

المعاني والقيم على اختلافها. . إلاَّ أنَّ الشرط الجوهري للعَالِمِ أن يَستخدم علمه لخير الإنسانية. .

وجملة القول، أن المذهب الذهني يجعل الأحوال الانفعالية تنشأ عن الرأي والاعتقاد والتصور، وهذا ما لا ينطبق كثيراً على شروط تحقق اللذات والآلام، فليس التلذذ بالشيء يتأتّى دائماً عن الرأي، بل قد يحصل العكس ويكون الرأي ناشئاً عن اللذة أو الألم. فأنا قد أتألم من الفقر، وهذا الألم يجعلني أرى أنَّ الفقرَ شرٌّ. وكذلك حزني على الشخص هو الذي يجعلني أفكر في غيابه أو موته. وعندما أتعاطى المحرمات في حالة من الزوغان، وأفكر بعد ذلك بالذنوب والأخطاء التي ارتكبتها فهذا ما يثير في نفسي السخط على تصرفي، والخوف من عقاب ربي، أي إنني من جرّاء ذلك التعاطي أحس بالألم، وهذا الألم ناتج من اعتقادي بأن ما تعاطيتهُ محرَّم بينما يكون الأمر خلاف ذلك لإنسان آخر لا يعتقد بقضية الحلال والحرام، فيرى مثلاً في الزنا متعة، ويرى في السرقة مهارة، ويرى في خداع الناس حذلقة. . ثم إنَّ بعض اللذات مثل شرب الخمر، لا يستدعي التفكير بحلاله وحرامه عند من يسوِّغه لنفسه، لذلك يتعاطاه كثيرون بلذةٍ ومتعةٍ. . وهكذا بالنسبة إلى كل لذة أو ألم ينجمان عن مخالفة الرأي والاعتقاد أو الانسجام معهما. . .

وسواء كان التفكير هو الذي يسبق الألم أو اللذة، أو كان الألم أو اللذة هما اللذين يسبقان التفكير، فإن كليهما متلازمان مترابطان، بحيث يأتي أحدهما نتيجةً للآخر دون التوقف عند تحديد أيهما الأسبق.

هذا وإن كثيراً من مشاعر اللذة والألم إنما تتولد عن العقيدة التي يوطِّنُ الإنسان نفسه عليها، فشعور المؤمن بأَنَّ له ربّاً يرعاه ويحفظه يبعث في نفسه الاطمئنان والثقة وتفكيره بآلاء الله ونعمائه عليه ككائن بشريٍ يجعله يدرك أهمية الخصائص التي تحقق إنسانيته وتبعده عن بهيمية الأنعام. وانطلاقاً من هذا الاعتقاد تتولد لدى المؤمن المشاعر بلذة الطاعات أو بألم المعاصي.. وهكذا الحال بالنسبة إلى جميع المشاعر في تعامل الإنسان مع الآخرين ومعاملتهم له..

ويكون للعوامل الحيوية عادةً الأثرُ الهام في معرفة الميول التي يمكن كشفها بواسطة اللذات والآلام الناشئة عنها. ولذلك كان علم الحياة مهماً جداً في «علم النفس» لأنه يبحث في تركيب الجسم وخصائصه، ومدى استجابته للمؤثرات أو تأثيرها عليه للقيام بوظائفه خاصة، وعلم النفس يحتاج إلى ذلك في بحثه عن الدوافع والنزعات الخفية التي من شأنها أن تبعث اللذة أو تشعر بالألم. وأهمية علم الحياة في هذا المجال أنه يعين شروط البقاء بالنسبة للكائن الحي، ويستنبط منها جملة النزعات والميول، ثم يبحثُ في الصحة، والمرض، وعن الصلاح والفساد، ويطابق بين حاجات الجسد وآثارها في النفس، فيجد اللذات مطابقة للأفعال النافعة، والآلام مطابقة للأفعال الضارة. والمثال على ذلك أن علم الحياة هو الذي يدلنا على أن شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير مضران بالجسد، وقد تنشأ عن هذا الضرر الآلام، ما قد يبعث في نفوس كثير من الناس القلق من شرب الخمر، أو أكل لحم الخنزير. وعلى العكس من ذلك إن أكل الطيبات من الرزق الحلال قد يبعث الراحة في البدن والاطمئنان في

النفس، فيجد المؤمنُ اللذات في الأفعال التي تؤدي إلى جني الرزق الحلال والانتفاع منه.

وهذه المطابقة بين اللذة والمنفعة، وبين الألم والمضرة، ناشئة عن قانون التكيّف، لأن حياة الإنسان لا يمكن أن تستقيم على صحتها ما لم يحصل هذا التكيف بين جسده والبيئة التي يعيش فيها. والإنسان يكتسب هذا التكيّف بسبب التغيرات التي تطرأ عليه أو التي يحدثها هو في حياته ويستجيب جسده لها. فقد يتأقلم الإنسان الآسيوي مع طرائق العيش في أميركا فيحصل التكيف، وقد لا يتكيّف مع تلك الحياة فلا يستجيب جسده لتأثيرات البيئة الجديدة التي انتقل إليها.. على أن مطابقة اللذة والمنفعة يحكمها قانون ما يسمى «الاصطفاء الطبيعي» وتنازع البقاء. فلو وجد ـ فرضاً ـ كائن حي يرى اللذة فيما يضره، والألم فيما ينفعه، لما قدر على الحياة ولهلك.. فبقاء الأنواع الحية دليل إذن على أنَّ الأحاسيس غالباً ما تكون واقيةً من الخطر.

قال أحدهم: «إذا استبدلنا كلمة (لذة) بقولنا: إنها حالة نسعى لإحداثها وإبقائها في الشعور. واستبدلنا لفظة (ألم) بقولنا: إنه حالة نسعى لإبعادها عن الشعور وانتزاعها من النفس، وكانت الحالات الشعورية التي يسعى الموجود الحي لإبقائها مناسبة للأفعال الضارة، وكانت الحالات التي يسعى لإبعادها مناسبة للأفعال النافعة، كان هذا الموجود الحي هالكاً لا محالة، لأنه لا يحتفظ إلا بما يضره، ولا يهرب إلا مما ينفعه. وبعبارة أخرى لم يفز في معترك الحياة إلا الأجناس الحيوانية التي تجد الأحوال الملائمة في الأفعال النافعة لبقاء

الحياة، والأحوال المنافية في الأفعال الباعثة على انحلال الحياة وفسادها». وهذا ما يفرض مطابقة اللذة للمنفعة، والألم للمضرة. .

الألم واللذة في المفاهيم الإسلامية

ووفقاً لمفاهيمنا الإسلامية نعرف بأنَّ الألم هو الوجع: وهو جنس من الأعراض قد يكون من الله تعالى ابتداء وبسبب، وقد يكون من فعل العباد لاحقاً وبسبب أيضاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

ولقد رأينا من قبل أنَّهُ أثناء معركة «أحد»، وبعدما تحقق النصر للمسلمين، سيطرت نزعات الأهواء والمطامع على نفوس الرماة، فخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا أماكنهم على الجبل ليتسَنَّى لهم جمعُ الغنائم. ووجدها المشركون فرصة سانحة، فالتفوا من حول الجبل، وجاؤوا من وراء المسلمين يوقعون بهم الضرب والقتل، حتى انقلبت هزيمتهم إلى نصر. . . وقد أُثخِنَ المسلمون في تلك المعركة بالجراح، التي آلمتهم وأوجعتهم كثيراً إنْ في الأجسام أو في الأنفس. . ولكن الله سبحانه ـ وعلى الرغم ممّا قد أصاب جنده في المعركة ـ أمرهم بأنْ لا يهنوا ولا يضعفوا في طلب أعدائهم وقتالهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾، وذلك لأجل إعادة الثقة في نفوسهم، وإرهاب المشركين حتى لا يظنّوا أنَّ الأمر قد استوى لهم. وبالفعل فقد خرج المسلمون صباح اليوم التالي لمعركة «أحد» حتى بلغوا محلة «حمراء الأسد» فعسكروا هناك، ووصل خبرهم إلى أعدائهم وما

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

أعدّوا من العدّة ابتغاء قتالهم، عندها أسرع هؤلاء في متابعة رحيلهم، بل دخلوا مكة خائفين من أنْ يلحقَ بهم المسلمون إلى ديارهم، بينما كانوا قد عقدوا العزم من قبل على غزو المدينة وإنهاء دعوة محمد ﷺ.. ويمكننا أن ندرك لطف الله تعالى بعباده المجاهدين وهو يواسيهم بقوله الحكيم: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

أجل، لستم وحدكم أيها المسلمون في المصاب والألم، بل إنَّ أعداءكم كذلك يألمون: فهم قد أصابهم الألم من الهزيمة في بداية معركة «أحد»، وهم قد مسَّهم القرح، قبل عام في معركة «بدر» عندما هزموا أمامكم شرَّ هزيمة، وهم أيضاً في قلقٍ وحزنٍ شديدين منذ ذلك الحين، ولكنْ أهمُّ من ذلك كله ما يؤرّقهم، وينهك معنوياتهم، هو الخوف على ضياع مطامعهم الدنيوية منذ بداية ظهور الدعوة الإسلامية في مكة، وقلقهم على مصيرهم فيما لو انتصر دينكم الإسلام!.. ثم إنَّ القضية - في الأصل - ليست متوقفة على مدى ما تعانون أنتم، أو ما يعانون هم من الآلام، بل ما ترجون أنتم من الله - تعالى - ثواباً على جهادكم، وهو ما لا يرجونه أبداً لأنّهم أعداء الله، ويحاربون دينَهُ.. إذنْ شتان بين الفريقين، فالمسلمون في جهادهم وفي توجّههم إلى ربهم، يرتقبون عنده الجزاء، أي إنَّهم يرجون من الله - العلي العظيم - ما لا يرجوه أعداؤهم، الذين أفقدهم الكفر والضلالُ الرشد، فتاهوا عن طريق الحق لا يرجون من الله نصراً في هذه الحياة، ولا ثواباً بعد الممات، فإذا احتمل الكفار الآلام - وكل صراع لا بدَّ أن يكون فيه آلام - فما أجدر بالمؤمنين أن يصبروا على ما ينالهم من الأذى والقتل في سبيل الله، وما أجدرهم أن لا يكفّوا عن ابتغاء أعدائهم، وقتلهم

أينما ثقفوهم حتى لا تبقى لهم قوةٌ يعتدّون بها، ولئلاً تكون فتنة (شرك وإلحاد) ويكون الدين كله لله تعالى . .

وإنَّ هذا لهو فضل عقيدة التوحيد في كل كفاح. فهناك اللحظات الحرجة التي تعلو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال. ويحتاج القلب البشري إلى مدد وإلى زاد. هنالك يأتي المدد من هذا المَعين، ويأتي الزاد من ذلك الكنفِ الرحيم، كنف الله تعالى الرب الحليم الكريم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة. معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين، لأنَّ كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على المؤمنين فترة أو وقعوا تحت وطأة ظرفٍ لا يكونون فيه في معركة مكشوفةٍ متكافئة. لكن القاعدة لا تتغير، فأهل الباطل لا يكونون بعافية أبداً، حتى ولو كانوا غالبين. إنهم يشعرون بالآلام في أنفسهم، من تناقضهم الداخلي، ومن صراع بعضهم مع بعض، ومن صراعهم مع الحق الثابت. . فسبيل المؤمنين في مثل هذا الظرف أنْ يتحملوا ولا ينهاروا، وأن يعلموا أنَّهم إن كانوا يألمون فإن عدوهم لا يقل آلاماً. . وقال رسول الله ﷺ: **«ما من عبدٍ مؤمن يدخل الجنة إلا أُري مقعدهُ من النار لو أساء ليزداد شكراً وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»**[1]. والحسرة هي منتهى الألم النفسي ويرجون من الله ما لا يرجو أعداؤهم، وكان الله عليماً بأحوالهم.

---

(١) رواه الطبرسي في مجمع البيان في سورة التغابن.

فهذا المثال يبين معاني الألم في المفهوم الإسلامي، سواء الألم النفسي في الهزيمة، أو الألم الجسدي في الجراح والقتل، ولا نظن أنَّه توجَدُ أنواعٌ من الآلام أشدُّ وطأةً على نفس الإنسان مما أصابَ المؤمنين في «أحدٍ»، لذلك كان النصُّ القرآني معبّراً بصدقٍ عن معاني الآلام.. وقد يتولَّد الألمُ عن اليأس، الذي هو قطع الرجاء. فالعالم الذي ينكبّ على الدرس والبحث وإجراء التجارب لصياغة نظريةٍ جديدةٍ في مجال اختصاصه، ولا يصل بعد كل ما بذل من الجهد، وسهر الليالي، إلى النتيجة التي يتوخَّاها، لا بدَّ أن يسيطر على اليأس ويعتصره الألم؛ وكذلك الأبُ الذي يصرف كل إمكانياته المالية، ويشقى ويتعب لأنْ يخلّص ابنَهُ من آفةٍ تعاطي المخدرات، فقد يحل اليأس في نفسه، ويورّث له أشدَّ الآلام.. وقس على ذلك كلَّ خيبة أمل تصيب الإنسان فيما يسعى ويصبو إليه، سواء جاءت من تقصيره، أو تسببت بها ظروف خارجةٍ عن إرادته، فإنَّ من شأنها أن تجعله يؤوساً، قنوطاً.. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾[1]، فالإنسان الذي يؤتيه الله تعالى من رحمته صحةً أو غنىً، ومركزاً أو نفوذاً، ثم يبتليه، فينزع منه تلك النعمة، ليختبر صبرَه واحتماله، ومقدار شكره لربه.. قد يجعله سلب النعمة قنوطاً من رحمة الله، شديدَ الكفر به.. في حين أنَّ الإنسانَ المؤمن، لا يداخله في السرّاء أيُّ قنوط أو يأس، بل يبقى على إيمانه، حامداً لله تعالى شاكراً ابتلاءَهُ له، ضارعاً ومتوسّلاً أن يعوّضَهُ ما نزعَ منه..

---

(١) سورة هود، الآية: ٩.

ومن فضل القرآن الكريم أنّه يدعونا إلى عدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، مهما كانت التجارب التي مررنا بها، أو الأحوال التي وصلنا إليها، يقول المولى الكريم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١)

فها هي أبوابُ الله ـ عزَّ وعلا ـ مشرّعةٌ للدخول إلى رحاب رحمته التي وسعت كلَّ شيءٍ..

فالخسارة المادية أحياناً تولّد الألمَ في النفس؛ فمن الناس من لا ترهقه الخسارة المادية، لأنَّ الأملَ يبقى لديه بأنْ يعوض خسارته، ومنهم من تسبب له الخسارة الهمَّ والقلقَ، وقد تؤثر على طريقة تفكيره في متابعة أعماله وتثبط همته لفترةٍ من الزمن..

والخسارة قد تحصل في المقتنيات الخارجية كالمال والتجارة في الدنيا، وقد تصيب الإنسانَ في نفسه كالصحة والسلامة والعقل، وما إلى ذلك من الأعراض التي تصيب الإنسانَ في الحياة الدنيا.. وكل ذلك على الرغم من آثاره السيئة، لا يُعدُّ شيئاً بالنسبة «للخسرانه المبين» يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢)، والمعنى: قل لهم يا محمدُ: إنَّ الخاسرين، في الحقيقة، هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وأما عن اللذائذ، فيقول الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾(٣).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١٥.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

هذا ما في الجنة التي أعدَّها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للمتقين من عباده، فيها من الطيبات ما تشتهيه الأنفس وفيها من المشاهد ما تلذ الأعين.. حيث هنالك في الفردوس نعيمٌ دائمٌ لا يوصف، وملك كبيرٌ لا يفنى.

الفصل الرابع

العقل - الفكر - الإدراك
الاستقراء - الاستدلال - المعرفة

الدِّمَاغ، هو مركز انطباع الأُشياء المحسوسة ومَوْطن التصوّرات والتخيّلات

البحث الأول

العَقل - الفكر - الإدرَاك

هذه الكلمات الثلاث (العقل، الفكر والإدراك) تدل على معنى واحد، ويقصد به الملكة أو الهبة التي كرّم الله تعالى بها الإنسان وحده من دون الكائناتِ الأخرى الحيَّة على هذه الأرض، والتي بموجبها يقدر أن يعقل أو يفكر أو يدرك الأشياء المحسوسة، والمعاني غير المحسوسة، ليعطيَ بالنتيجة حكمه عليها، ويقرِّرَ ماذا يفعل، أو لا يفعل، وماذا بوسعه أن ينشئ، أو لا ينشئ..

والعقل بمعناه اللغوي هو الإمساك والاستمساك، يقال عُقِلَ البعير بالعِقَال أي بالحبل، وعَقَلَتِ المرأةُ شعْرَها أي ضَّبتْهُ وربطته. وعَقَلَ لسانَه بمعنى كفَّهُ وأمسَكَهُ. وقيل للحصن: مَعقِل، وجمعه معاقل. وجمع العقل: عقول..

والعقل بمعنى الملكة المفكّرة المدركة، هو تلك القوة المتهيئة لقبول التعلّم والتعليم، ولذلك يُقالُ للعلم الذي يستفيده الإنسان بقوة الفكر والإِدراك: عقل.

وإلى المعنى الأول (القوة المتهيئة لقبول العلم) أشار رسول الله ﷺ

بقوله: «ما خلَقَ الله خَلْقاً أكْرَمَ عليهِ مِنَ العَقل»[١]. أما المعنى الثاني (علم الذي يستفيده الإنسان بقوة العقل)، فلقد أشار ﷺ بقوله: «ما أُهديَ المرءُ المسلم هدية أفضل من كلمة حكمة هُدَى أو يَرُدُّهُ بها عَنت رَدَىً»[٢].

وقال الشاعر:

مـا قُـلـتُ قـولاً بِـفَـمِـي ... إلاَّ وعَـقْـلـي مُـلْـهِـمِـي
أنـا ابـنُ عـقـلـي وحَـدَهُ ... يُـنْـبـيءُ عـنـه كـلِـمِـي
بِـهِ استَـعـنْـتُ فـي شَـبَـابـي ... وكـذا فـي هَـرَمِـي

وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٣]. والمقصود هنا هي الأمثال التي ضربها الله تعالى للناس في القرآن وأشار إليها بقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[٤]، لتساعدهم، بطريقة التجربة العملية في حياتهم، أو بالعبرة من تجارب غيرهم، على التدبّر، وفهم الحقائق المطلقة، وكل ما يتعلق بأنفسهم، أو يصل إليه علمهم في آفاق السماوات والأرض.. وتلك الأمثالُ تُعَدُّ من الآيات التي تدلُّ على قدرة الله تعالى في الخلق، والتي لا يتفكّر فيها، ولا يعقلها إلاَّ العالمون، من ذوي الفكر والإدراك.. فالذين يملكون القوة المتهيّئة لقبول العلم، والذين حصل لديهم العلم المدرك الواعي، هم وحدهم الذين يقدرون على معرفة معاني آلاء الله تعالى، وهم وحدهم

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدد من الصحابة.
(٢) كشف الخفاء حرف الميم، عن ابن عمر في الجامع الصغير، والبيهقي في الشعب.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

المهيَّأون للوقوف على شؤون الحياة البشرية، وكلّ ما يتعلق بها، أو يحيط بها من مخلوقات الله . . ولكنَّ معارفهم، وعلومهم تكون على مستويات مختلفة، تبعاً لقوة مداركهم العقلية. . ولذلك نجد في القرآن الكريم الدعوةَ دائمةً للإنسان كي يتفكّر، ويتعقَّل، ويدرك، ويتبصَّر، ويفهم. . وما من موضع في القرآن ذمَّ الله تعالى فيه الكفارَ لعدم التفكّر والتعقّل، إلاَّ وينطبق على المعنى الثاني، أي عدم الإفادة من العلم. ومن قبيل ذلك تشبيهُ الحق ـ تبارك وتعالى ـ للذين لا يعقلون بالبهائم التي لا تسمع من راعيها إلاَّ صراخاً ونداءً، بحيث لا تدرك معنى ما تسمع. . وكذلك تشبيهُ الذين كفروا، بأنَّهم صمٌّ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن النطق بشهادة الحق، عميٌ عن رؤية الآيات التي خلقَها الحقُّ تبارك وتعالى فهم لا يعقلون، وهذا مصداقٌ لقوله العزيز: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

ثم إنَّ هذا القرآن نزّله ربُّهُ تعالى بالحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي للتي هي أقوم، فمن يعقل آياته إلاّ العالمون، ومن يجحد بآياته إلاَّ الكافرون والظالمون لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]. فهذه الآيات القرآنية واضحة الدلالة على أنَّ الكافرين والظالمين «لا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

يعقلون﴾.. فهم يُدعون ـ وقبل أي اعتبار آخر ـ إلى دين الله الحق، ولكنَّهم يأبون قبول هذه الدعوة، أو الانصياع للحجج والبراهين العقلية التي يواجههم بها رسولُ الله ﷺ، أو يفنّدها لهم المؤمنون، فهم قد ألفوا آباءهم على عبادة الأوثان، فساروا على آثارهم بدافع التقليد الأعمى، وهم يستكبرون عن سماع الآيات التي تهدي، حتى لكأنَّما لديهم كراهية الاهتداء، ولذلك يصورهم القرآن الكريم بالبهائم السائمة التي تسمع الصراخ عليها ولكن ليس لديها الملكةُ لفهمه، بل هم أضلُّ من تلك البهائم، لأنَّ الله ـ تعالى ـ وهبهم العقل الذي يعي ويدرك، فلم يُعملوه بسماع تدبّر، ولا بإدراك حق، ولا باستجابة لدعوة الحق، بينما لم يجعل ـ سبحانه ـ في البهائم عقلاً مدركاً، ولذلك كان الذين كفروا أضلَّ من البهائم. من هنا القول إنَّ كل موضع في القرآن فيه ذمٌّ للكفار يكون واقعاً تحت المعنى الثاني للعقل.. في حين أنَّ كل موضع رفع فيه التكليف عن العبد، أي حين يكون معفىً شرعاً من القيام بالصلاة أو إيتاء الزكاة، أو الصوم أو الحج أو أي حكم من أحكام التكليف، فإنَّ إعفاءَه لعلة عدم تعقله وإدراكه: إما لكونه لم يبلغ الحلم، أو معتوهاً، أو مجنوناً، أو مريضاً بعلة مانعة، ففي جميع هذه الحالات إشارة إلى المعنى الأول للعقل، أي هو إنسان ليست لديه القوة المتهيئة لقبول العلم الذي يُبنى على التعقل والإدراك.

أما الإدراك، فيعني لغةً: اللحاق، يقال: لحق فلاناً أدركه، وتدارك القومُ وادَّركوا: تلاحقوا، وتدارك الله فلاناً برحمته.. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾[1]، أي حتى إذا تلاحق أهل النار

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

وتلاقوا ـ آخرهم بأولهم ـ واجتمعوا ـ القاصي بالداني ـ بدأ الجدال والخصام فيما بينهم، وهم يتلاعنون ويتلاومون على إغواءِ بعضهم في الحياة الدنيا، ثم انتهوا إلى أن يطلب أواخرهم العذاب لمن سبقوهم.. وهذا هو المصير الذي ينتظر الكافرين في الآخرة!..

ومثل العقل والإدراك، هكذا أيضاً الفكر الذي ينتج الفكرة؛ والتفكر جولان تلك الفكرة بحسب نظر العقل. وهذا التفكر هو ميزة خُصَّ بها الإنسان دون الحيوان. ولا يمكن أن يكون هنالك تفكر إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، من حيث الانزعاج أو الاطمئنان. ولهذا روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**تفكَّرُوا في آلاء الله ولا تَفَكَّرُوا في ذاتِ الله فَتَهْلَكُوا**»[1].. نعم هذه آلاءُ الله تعالى، أي صنائعه التي تحيط بنا من كل جانب، بل ووجود الإنسان ذاته إحدى أكبر هذه الآلاء، فعلام لا يصرف الإنسان اهتمامه إلى معرفة نفسه ومعرفة مخلوقات الله، وينتهي عن التفكير في ذات الله سبحانه وتعالى؟ إنَّ عقيدة التوحيد الإسلامية لا تسمح ولا تدعُ مجالاً لأي تصوّر بشريٍّ عن ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه «ليس كمثله شيءٌ». ثم إنَّ التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء. فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس كمثله شيء، توقَّفَ التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى. ومن توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته القدسية يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله، ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثاره سبحانه ، أي خلائقه في هذا الوجود،

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس.

كما هو حاصل اليوم في مجالات العلوم المتقدمة على اختلافها من حولنا. وهذا هو المجال الفسيح لقوله ﷺ، وتأديبه لنا، حتى لا نهلك إن زلَّ بنا الفكر، واشتطَّ بنا التصوّر عمَّا هو مطلوب منا من التفكير والتدّبر الذي يشير إليه قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[1]، أي أولم يركنوا إلى أنفسهم، بعيداً عن أية تصورات موروثةٍ أو مسبقةٍ، فيتأمَّلوا، ويفكروا بأنَّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض عبثاً، وما خلق الكون كله إلا بالحق؟ وهذه ـ لعمري ـ دعوة من الله سبحانه، لعباده الذين أنشأهم، وجعل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لكي يتفكروا في خلقهم، وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما حتى يهديهم التفكير إلى الحق الذي بُني عليه كل شيء في الوجود.. وهذه الدعوة من الحقِّ تبارك وتعالى، لاتباع الحق، تبيّن أهمية الفكر الذي حباه الخالقُ العظيمُ لهذا الإنسان الذي يستطيع بعقله المتفكر، المدرك أن يحيط بالعلوم التي يشاء الله تعالى له أنْ يبلغها.

ويقول الله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾[2].. إنه التوجيه الرباني نفسه، التعليم نفسه من الله العليم الحكيم للناس. يدلهم أنه سبحانه قد بين لهم آياته العظيمة الدالة على قدرته في الخلق. وهذا البيان منه ـ جلَّ جلالُهُ ـ فيه حثٌّ على التفكير والتدبر في أمور الدنيا والآخرة. فالتفكر في الدنيا وحدها لا يعطي العقل البشري ولا القلب الإنساني صورة كاملة عن حقيقة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

الوجود الإنساني، وحقيقة الحياة وتكاليفها وارتباطاتها، ولا ينشئ تصوراً صحيحاً للأوضاع والقيم والموازين. فالدنيا هي الشطر الأدنى والأقصر، وبناء الشعور والسلوك يجب ألاَّ يتوقف على هذا الشطر، بل يجب أن يتجاوزه إلى الشطر الآخر الأبعد، والأطول مدىً بكثير، ألا وهو الآخرة. فالتفكير والشعور بالآخرة ضرورة للإنسان حتى يدرك، ويعلم ما فيها من موازين وقيم، وما فيها من جزاء، ولذلك كانت دعوة القرآن للناس أن ينظروا في آيات الله تعالى التي بيّنها لهم، في أنفسهم، وفي الكون كله، علهم يتفكَّرون في الدنيا والآخرة، ويدركون حقيقة ما يجب عليهم فعله..

بعد هذه التوضيحات عن معاني العقل أو الإدراك أو الفكر، وبما أن هذه الألفاظ تعني شيئاً واحداً فسوف يتناول البحث:

- عوامل الفكر.
- أقسام الفكر.
- الفرق بين الفكر والتمييز الغريزي.
- العملية الفكرية.
- الطريقة العقلية والطريقة العلمية.
- ضرر التفكير ومنفعته.
- التفكير.
- التفكير البطيء والتفكير السريع.
- العقل والعاطفة.

١ ـ عوامل الفكر

الفكر: هو قدرة الإنسان العاقل المدرك على إصدار الحكم على الشيء، وذلك بناء على ما تحصّله الحواسُّ الخمس من أحاسيس ومدارك تجعل الإنسان قادراً على إعطاء الحكم على الأشياء.

ولذلك كانت الحواس الخمس ـ السمع والبصر واللمس والشم والذوق ـ داخلة في تكوين الإنسان. وكان لديه أيضاً الدماغ المنطوي على قدرة ربط المعلومات، وعلى قابلية التمييز. وهذه القدرة على الربط والتمييز هي خاصيّة[1] رئيسية لدى الإنسان. وهي كامنة في العقل ـ وموطنه النفس ـ الذي خصه الله به على سائر الكائنات الأرضية الحية، ليكون قابلاً للتكليف في الدنيا، ومسؤولاً عن تكاليفه إلى يوم الحساب، والجزاء في الآخرة.

ومن البديهي القول إنَّ الأشياءَ موجودة قطعاً، والإنسان يتعرَّف إليها بواسطة حواسه الخمس، وبواسطة الدماغ لديه.. فهو يسمع الأصوات بأذنيه، ويبصر الأشياء بعينيه، ويشُمُّ ما ينبعث من روائح بأنفه، ويتحسس لمس ما تقع عليه يداه بجلده، ويتذوق طعم الأشياء بلسانه، ما يعني أنَّ كلَّ الأشياء التي هي في متناوَلِه أو تحيط به، أو تقع عليها حواسه، تكوِّن واقعاً محسوساً بالنِّسبة إليه..

---

(١) الخاصيّة: هي ما يوجد في أصل تركيب الشيء أو الكائن، وينتج من إعماله، كالرؤية في العين، والقطع في السكين، والإحراق في النار. فيقال: خاصيّة الأذن السمع، العين الرؤية، وخاصيّة الأنف الشمُّ، وخاصيّة اللسان التذوق، وخاصيّة السكين القطع، وخاصيّة النار الإحراق وخاصية السيّارة السير، وخاصية الطائرة الطيران، وخاصية السمكة السباحة، وخاصيّة الأرض الإنبات، وخاصية القمر الضياء، وخاصية الشمس الإنارة.. ومن هنا فإنَّ خاصيّة الإنسان الرئيسة، أو الجوهر الذي يفرّقه عن الكائنات والأشياء الأخرى هو التمييز، الذي يمكّنه من إصدار الحكم على الأشياء.

فالرغيف، مثلاً، أو القلم، أو الفيجن[1]، هي من الأشياء التي تقع تحت الحواس، أي من الأشياء المحسوسة التي تنبثق من الواقع المحسوس.. لكن يمكننا أن نحكم على ماهية الرغيف أنه رغيف أو القلم أنه قلم ولا نستطيع الحكم على الفيجن، لأنَّ المعلومات التي تكوَّنت لدينا عن الرغيف أو القلم بصورة كافية، جعلتنا نميّز كلاً منهما عن غيره من الأشياء، ونكوّن الصورة الصحيحة عن ماهيته، أي أن نعرف كلاً منهما معرفةً تامة، وهذه المعرفة هي الأساس للحكم على الأشياء.. وهذا بخلاف الفيجن عندما نراه لأول مرة، فنحن نجده نباتاً بصفةٍ معيَّنة، وتنبعث منه رائحة معيَّنة، ولكن على الرغم من رؤيته، وشم رائحته، فنحن لا نقدر على إعطاء حكم صحيح عليه، لأننا لم نصل بعد إلى معرفته بصورة تامة. والسبب في ذلك أنه ما زال ينقصنا عاملٌ مهم لهذه المعرفة، وهذا العامل يتمثَّل بالمعلومات السابقة عن الفيجن، التي لم تكن قد تكوَّنت لدينا بعدُ. فهذا الواقع المحسوس الجديد الذي هو «الفيجن» تكوَّنت لدينا ثلاثة عوامل بالنسبة إليه، هي: الواقع (وجود الفيجن) والإحساس بالواقع (النظر وشمّ رائحته) والتمييز (إدراكنا أنه نبات معيَّن يختلف عن غيره من النباتات الأخرى).. ويبقى أن نعطي صورة فكرية عن الفيجن، أي أن نحكم عليه.. فإذا توافرت لنا المعلومات أنه نبات ورقه كالصعتر، وينبت في أحوال مناخية معيَّنة.. ويعطي رائحةً معيّنة. وله طعم كذا.. وله فائدة كذا.. فهذه المعلومات التي تكوّنت لدينا، إذا ما أُضيفت إلى العوامل الثلاثة الأولى، باتت

---

(١) الفيجن: نوع من النبات.

جميعها تمكّننا من إعطاء حكم على الفيجن. . فإذا رأينا الفيجن مرة أخرى، فإننا قادرون على أنْ نميّزه بخصائصه عن غيره من النباتات الأخرى. .

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة كافة، فإنه يقتضي توافر أربعة عوامل لأجل الحكم عليها وهي:

١ ـ الواقع.

٢ ـ الإحساس بالواقع.

٣ ـ تمييز الواقع عن غيره.

٤ ـ توافر المعلومات السابقة عنه.

وللتوضيح، فأنت لو سُئلتَ مثلاً ما هي الوليمة؟ وكنت تعلم سابقاً ماهيتها، فإنك تجيب على الفور: إنها دعوة إلى الطعام في الأفراح، أما الذي جعلك توضّح معناها، وبهذه السهولة، فهو أن العوامل الأربعة عنها متوافرة لديك.

ولكن إذا سُئلت ما هي الوضيمة؟ ولم تكن قد تكونت لديك معلومات سابقة عنها، فإنك تقف حائراً وتجيب: لا أدري. . ففي هذه الحالة، وبعد أن سُئلت عن كلمة «وضيمة» توافرت لديك ثلاثة عوامل: الواقع (فما دمت قد سُئلت عنها فإنها صارت واقعاً بالنسبة إليك، أي شيئاً موجوداً)، والإحساس بالواقع (التقاط سمعك لها وإحساسك بواقعها عن طريق السمع). . ثم بعد أن اختلط الواقع بالإحساس، نُقِلَ هذا الواقع إلى الدماغ فانطبع فيه، ومن ثم قام بعملية تمييزه، عن سائر الانطباعات الأخرى لديه، أي إنه صار لدى الدماغ

انطباع[1] جديد عن واقع يقال له: «وضيمة».. فإلى الآن حصلت العملية الفكرية التي جمعت بين العوامل الثلاثة الأولى، ولكن على الرغم من حصول هذه العملية الفكرية، فإنك لم تصل بعد إلى إعطاء حكم واضح عن كلمة «وضيمة».. ولا بد من أن تتوافر لك معلومات سابقة عنها حتى يحصل عندك الفكر، أي احتمال العملية الفكرية.. فإذا علمت ـ من أي مصدر ـ بأنَّ الوضيمة هي الدعوة إلى الطعام في الأتراح، فإنه بات بإمكانك، في أي وقت بعد ذلك، أن تميّز ما بين الوليمة والوضيمة أي أن تعطي حُكماً صحيحاً على كل منهما، وهذا بسبب ما توافر لديك من المعلومات السابقة عنهما..

ولكن ما هي هذه المعلومات السابقة؟ وما هو مقياسها؟ وما هو الدليل عليها؟

هذا ما يجيب عنه معرفة عوامل الفكر، وهي أربعة:

- عاملان يدخلان في تكوين الإنسان وهما: الحواسُّ الخمس، والدماغ الذي هو مركز التمييز.
- وعاملان يخرجان عن تكوين الإنسان وهما: حقيقة الواقع، ومسمَّاهُ..

وتنطلق العملية الفكرية من اجتماع هذه العوامل الأربعة. ونقطة الانطلاق تكون دائماً من الواقع المحسوس. وهذا الواقع قد تُنقل عنه

(١) الانطباع: يطلق لفظ الانطباع على مجموع الأفعال الفيزيولوجية التي تحدث الإحساس، وله ثلاثة أقسام:
- التأثير المتصل بأطراف الأعصاب الحسية.
- انتقال التأثير إلى الدماغ.
- حدوث تغير في الدماغ مقابل التأثير.

معلومات صحيحة وصادقة، أو قد تُنقل عنه معلومات خاطئة ومشوهة.. فإذا قيل لنا: في محلة كذا شُيِّد بناءٌ ضخمٌ جديدٌ من عشرات الطوابق، وذهبنا ووجدنا البناء كما أُعلمنا عنه، كانت المعلومات صادقة. ولكن إذا قيل لنا إنَّ الجسر في محلة كذا قد تهدم، وذهبنا لنتأكد من صحة الخبر، فوجدنا الجسر قائماً ولا يزال على حاله، كانت المعلومات خاطئة.. إلاَّ أنَّ الذهاب إلى الجسر ومعاينته بواقعه، قد أثبت لنا حقيقة هذا الواقع. وهذه الحقيقة هي التي نفت التشويه والتلفيق والتضليل.. فمقياس المعلومات السابقة، والدليل على صحتها أو كذبها، إنما يكون في التأكد من حقيقة الواقع الموجود.. وبناء على حقيقة الواقع يكون إدراك معنى الأشياء مثل: ماذا تعني هذه اللفظة، وما طعم هذه الفاكهة، وما اسم ذلك الشيء، وما ينفع هذا الشيء أو ماذا يضرّ، وما يقدِّم هذا الأمر أو ماذا يؤخِّر، وما يُثبت هذا القول أو ماذا يَنفي، ومن حضر أو من غاب؟ وهلمَّ جرّاً بالنسبة إلى جميع الأشياء، والأمور، والشؤون، والقضايا، والحالات، والمسائل... التي تشكل وقائع مادية أو غير مادية... والتي لا بد من توافر معلومات سابقة عنها، تجتمع مع العوامل الأخرى، حتى يصير بالإمكان الربط، وبالتالي التمييز بين شيء وآخر..، لأنَّ العبرة بهذ الربط حتى أنْ تتم العملية الفكريَّة، ويحصل بالتالي الفكر، القادر على التمييز بين خصائص الأشياء حتى يتمكن الإنسان المميّز من إصدار الأحكام عليها. وإنَّ التدريب على الربط منذ الصغر، هو الذي يجعل العوامل الأربعة تتضافر لإيجاد الفكر، أي الحُكم على الواقع.

٢ ـ أقسام الفكر

يكون الفكر إما فكراً سطحيّاً، أو فكراً عميقاً، أو فكراً مستنيراً:

أ ـ فالفكر السطحيُّ هو النظر إلى الشيء، والحكم عليه بدون فهم.

ب ـ والفكر العميق هو النظر إلى الشيء، وفهمه، ثم الحكم عليه.

ج ـ أما الفكر المستنير فهو النظر إلى الشيء، وفهمه، وفهم خواصّه، وكل ما يتعلق به، ثم الحكم عليه.

ويمكن التدليل على هذه الأقسام الثلاثة للفكر بمثال معين، كأنْ ينظر أحدُنا إلى شجرة من المشمش مورقة مثمرة، فإنه يجدها تتألف من ثمرٍ وورقٍ وخشب، ثم يدقق النظر في الورق الأخضر الذي يكسو الشجرة فيحكم بأنَّ النفع الورقيَّ محصور بالزينة، لأنَّ منظر الشجرة المورقة يختلف عن منظرها عارية. . إنَّ هذه النظرة العابرة الخالية من التأمل إلى الورق، أدت إلى إعطاء حكم سريع، كان بالتأكيد حكماً سطحياً.

أما إذا أتى بورقة شجرة المشمس، وأخذها إلى المختبر، وأجرى عليها الاختبارات اللازمة، فسيرى أنّها تحتوي على رئة تنفسيَّة تأخذ الكربون من الهواء وتطلق الأوكسجين، كما تحتوي على حبيبات صغيرة ـ تدعى اليخضور ـ تدور ضمن الورقة كما يدور محرِّك السيارة، وعلى عروق صغيرة تصل الورقة بالغصون، وتستمدُ منها النموَّ. ثم إنه سيجد بنتيجة تفاعل العوامل المتحدة في الورقة، والدائبة في تأدية وظيفتها، ما يزوِّد حبة المشمش بالسكر والنشاء. . فإجراء مثل هذا الاختبار الدقيق على الورقة، أدَّى إلى إعطاء حكم عميق عنها. . . فهذا، إذن، هو الحكم العميق الناتج من الفكر العميق. .

ولكن إذا قام العالم ـ بعد إجراء العمل المخبري على ورقة المشمش ـ بالبحث عن علاقتها بما يحيط بها، بحيث لا يترك ناحية من نواحي هذه العلاقة إلاَّ وحاول أن يعرفها. من مِثل تأثير الشمس، والهواء والماء عليها، أو خلوها من الأمراض بفعل العناية اللازمة، ونوع البذرة الذي جعل ثَمَرَ هذه الشجرة أصغر من ثمار أشجارٍ غيرها، بل وجعلَ طعم ثمرها مختلفاً عن طعم المشمش. . فكل ذلك ينتهي به إلى حكم جديد هو الذي جعله يعرف مدى دقة صنع الأوراق على شجرة المشمش وكم فيه من إتقان وإحكام وتنظيم حتى استوت هذه الورقة على النحو الذي هي فيه، وأدّت الوظيفة المعهودة إليها في نماء الشجرة، ونتاج الثمار. . ومثل هذا الحكم لم يكن ليصدر إلاَّ عن التفكير المستنير الذي جاء نتيجة للمعلومات السابقة، أي من الدراسات والعلوم المتعلقة بزراعة شجر المشمش في تُربةٍ معيّنة وفي مناخ معين.

أما إذا توقف الإنسان عند الإعجاب بجمال الورقة الخضراء، وما تبديه من زينةٍ على أمها الشجرة، فإنه يُبقى عند حدود التفكير السطحي، ولا يصل إلى ما توجبه النظرة العميقة أو الفكر العميق، وبالتالي فإنه من الطبيعي ألاَّ يكون لديه فكرٌ مستنير، لأنّ هذا الفكر يجب أن تسبقه النظرة العميقة أو الفكر العميق. .

وبعد هذا المثال صار بالإمكان البحث لمعرفة أقسام الفكر الذي ينتج عنه التفكير. . التفكير السطحي: ويجري بنقل الواقع فقط إلى الدماغ دون محاولة إدراك خصائص هذا الواقع وربطه بكافة المعلومات المتعلقة به، وهذا ما يغلب على الجماعات المتخلفة أو الأفراد الأغبياء، بل وعلى غير الأذكياء من الناس العاديين. .

ويمكن معالجة السطحية، أو إزالتها، أو تخفيفها من خلال معالجة الأفراد، وذلك:

أولاً: بتغيير روتين التفكير الذي ألفوه، وإقناعهم بعدم جدوى ما اعتادوا عليه لأنه هو الذي يؤدي إلى سطحية أحكامهم..

وثانياً: بإكثار التجارب لديهم أو أمامهم، وبجعلهم يعيشون وقائع كثيرة، بحيث يجدون الواقع متعدّداً، ومتجدّداً ومتغيّراً..

وثالثاً: بجعلهم يعيشون مع الحياة، ويسايرون ركبها لاكتساب الوعي بما هو موجود في هذه الحياة.. إذ كلما كثُر الأفراد الواعون في الأمة، كان الأخذ بيدها إلى النهوض أسهل وأقرب للتحقيق، لأنهم يتصورون وقائع الحياة الراقية تصوراً واقعياً، وذلك عن طريق تقبل الأفكار الصادقة، والعمل بالآراء الصحيحة، واعتناق الأفكار القطعيّة، ولاسيما التمييز بين الآراء المتباينة، المتضاربة في المنشأ والتوجُّه، وهذا ما يجعلهم أكثر إدراكاً للأمور، ويجعل تفكيرهم تفكيراً متميزاً لشدة إحساسه بالواقع، مما نخلص معه إلى القول بأنَّ معالجة السطحية عند الأفراد إنما يكون هدفها إيجادَ مفكرين تعتمد الأمة عليهم، لتزويدها بالأفكار النيّرة التي تحقق تقدمها وعزّتها.

والتفكير العميق: إنّما يعني التعمُّق في التفكير، أي التعمُّق بالإحساس بالواقع، والتعمق بالمعلومات التي ترتبط بهذا الواقع لإدراكه إدراكاً صحيحاً. فصاحب الفكر العميق لا يكتفي بمجرد الإحساس بالأشياء فقط، ولا بالمعلومات الأولية التي تمكّنه من ربط الإحساس بالواقع ـ كما هي الحال عند صاحب التفكير السطحي ـ بل يحاول أن يحسَّ به أكثر عن طريق التجربة ومعاودة ربطها بالواقع، كما

يعاود البحث عن معلومات أخرى مع المعلومات الأوليَّة ليربطها بالواقع أكثر من قبل، عن طريق الملاحظة وتكرارها بحيث يخرج من تكرار الإحساس بالواقع والاستزادة من المعلومات عنه، ومعاودة الربط بين المعلومات والواقع عن طريق التجربة، والملاحظة.. أجل، بحيث يخرج من ذلك كله بأفكار عميقة، سواء أكانت حقائق أم لم تكن حقائق. وهذا هو التفكير العميق، أي التفكير الذي يُبنى على عدم الاكتفاء بالإحساس الأولي، وعدم الاكتفاء بالمعلومات الأولية، وعدم الاكتفاء بالرَّبط الأوَّليّ.. ولذلك فهو يشكل هو إذن الخطوة الثانية أو المرتبة التي تعلو التفكير السطحيّ.. وهذا هو تفكير العلماء، والموصوفين بالمفكرين.

وأما التفكير المستنير: فهو التفكير العميق نفسه، مضافٌ إليه التفكير بخصائص الواقع وكل ما يتعلق به، ويميّزه عن غيره، للوصول إلى النتائج المرجوة.. وهذا يعني أنَّ كلَّ فكرٍ مستنير هو تفكير عميق في الأصل، لأنه لا يمكن أبداً أنْ يأتي التفكير المستنير من التفكير السطحي، بل يُبنى على التفكير العميق الذي سبقه.

وبالمقابل ليس بالضرورة أنْ ينتقل كلُّ تفكيرٍ عميقٍ إلى تفكير مستنير.. لأنَّ التفكير العميق عندما يظل في إطاره، ولا يحاول أنْ يربط الموضوعَ الذي يبحث فيه بكل ما يتعلق به، فإنه يحافظ على كيانه كتفكير عميق.. فعالم الذرة حين يبحث عن شطر الذرة، وعالم الكيمياء حين يبحث عن تركيب الأشياء، وكلُّ العلماء الآخرين حينما يبحثون في مجال اختصاصاتهم، إنَّما يكون بحثهم بطريقة التفكير العميق الذي من شأنه أنْ يوصلهم إلى النتائج التي يتوخونها!.. ولكنْ

لو أنَّ عالم الذرة لم يكتفِ بالبحث في شطر الذرة أو تفتيتها، بل أخذه العجب حين البحث، وقادَهُ فكره إلى معرفة علاقة هذه الذرة بالكون، وبتكوين الأشياء، وما ينتج من تلك العلاقة وهذا التكوين، وما يترتب عليهما من مفاعيل، ولاسيما استخدام الذرة لخدمة الإنسان ونفعه.. هنا في هذا الوضع، أصبح عالم الذرة صاحب تفكير مستنير، ولم يعد فقط صاحب تفكير عميق، ممّا يمكن الاستنتاج معه بأنَّ التفكير العميق لا يكفي وحده لإيجاد النهضة في هذا المجال أو ذاك، ورفع مستوى الإنسان معنوياً ومادياً، بل لا بدَّ حتى يحصل ذلك من الاستنارة في الفكر، وهذه الاستنارة هي التي تؤدي إلى النهوض.

والاستنارة الفكرية، وإن لم تكن ضرورية في الوصول إلى نتائج صحيحة في ميادين العلوم، والآداب والفنون، كالعلم التجريبي، أو القانون، أو الطب أو الفلسفة، أو الموسيقى وما إلى ذلك، إلا أنها ضرورية لرفع مستوى الفكر لدى المفكرين. ولذلك فإنه لا يكفي لنهوض الأمة وجود العلماء في العلم التجريبي، ولا وجود الفقهاء في الدين، أو القانونيين في علم القانون.. ولا وجود الأطباء والمهندسين والصيادلة والتجار والصناعيين بل لا بدَّ، في الأساس، من أنْ تكون لدى القادة المفكرين في الأمة استنارةٌ في التفكير، أي أنْ يكون لديها المفكرون المستنيرون في مختلف أمور الحياة وشؤونها، لأنَّ هؤلاء هم الذين يصنعون النهضة..

وبناء على ذلك، نستطيع القول بشكل جازم ويقينيّ: إن السبيل الفكري القويم الذي يجب أن يسلكه الإنسان لتحقيق النهضة الفكرية الصحيحة، هو الفكر المستنير.

٣ ـ الفرق بين الفكر والتمييز الغريزي

كثيراً ما يَخْلطُ الناسُ الفِكرَ بالتّمييزِ الغريزيّ، ويعْجزُونَ عنِ التفريق بينهُما، ما يؤدي إلى الوقوعِ في أخطاء مضحكة حيناً، ومُضلّلةٍ أحيـانـاً. فمنهم مثلاً مَنْ جَعَلَ للطفـل منذُ ولادتِهِ عقلاً وفِكراً، ومنهم مَنْ جَعَلَ للحيوان فكراً، ولهذا كانت معرفةُ الاهتداء الغريزيّ مهمة كمعرفةِ الفكرِ، أو العقلِ، أو الإدراك؛ فما هو الاهتداء الغريزي؟.

يتمّ الاهتداءُ الغريزيّ عندَ الحَيَوانِ منْ تكرارِ إحساسه بالواقع، لأنّ لَدى الحيوان دماغاً، ولديه حواسّ (كما هي الحال في الإنسان) ولكنّ دماغَ الحيوان عاجزٌ عنِ الرّبط، لأنَّ كلّ ما فيه مَركزٌ للإحساسِ فَقَطْ، فليس لديه معلوماتٌ سابقةٌ يربطها بالواقعِ المحسوس، بل كلّ ما لديه انطباعاتٌ عنِ الواقعِ، ويستعيدُ هذه الانطباعات حينَ الإحساس بالواقع. وهذه الاستعادةُ ليست ربطاً، بل هي تحرّكٌ لمركز الإحساس، يؤدي إلى حصول تمييزِ غريزيٍ، الذي يُعيّنُ حركة الحيوان نحوَ إشباعِ غرائزه أو الحاجات العضويّةِ لديه..

ويكونُ هذا التحرك فقطْ للإشباعِ، أو الامتناع عن الإشباع. فإذا قُدّمَ لهرٍّ ـ مثلاً ـ لحْمٌ وعنَبٌ، عَرَفَ بغريزته أيّهما يأكُلُ وأيُّهما لا يأكُلُ، فيُقبِلُ على ما يشبع جوعه وهو اللحم، ويُعْرِضُ عمّا لا يأكله وهو العنب.. والأمرُ كذلِكَ إذا قُدّمَ لحصانٍ شعيرٌ وتُرابٌ، فإنَّ الإحساس عنده يتركّز على أنَّ الشعيرَ يُشْبعُ حاجَتَهُ، والتّرابَ لا يُشبعُها، وعندئذٍ يَترُكُ التّرابَ لمجرّد الإحساس به، ويأكل الشعير لمجرّدِ الإحساسِ به ـ إذا كانَ جائعاً ـ وهكذا بالنسبة إلى كلّ حيوانٍ. والطفلُ حين الولادةِ كالحيوان، فإنّ دماغَهُ، وإنْ كانَ فيهِ قابليّةَ الرّبطِ،

إلا أنه ليسَ لديهِ معلوماتٌ يربطها بالإحساس بالواقعِ الجديد حتى يميّزَهُ. ومن هنا لا يكونُ عنده فِكْرٌ، بَلْ فقط تمييز أوِ اهْتداءٌ غريزيّ للشيء من حيثُ كَونه يُشْبع أوْ لا يُشبع ـ ودليله الملحوظ أنَّ كل شيء يمسكه الطفل يحاول أن يضعه في فمه، كأنما يريد أن يأكله ـ وكذلك ليستْ عند الطفل معرفَةٌ عن حقيقة الشيء، فهوَ لا يعرفُ ما هو الشيء الذي يُشبع، ولا ما هو الشيء الذي لا يُشْبع. فإذا عُرِضَتْ على الطفلِ مثلاً تمرةٌ وفحمةٌ فإنه لا يستطيع التمييز بينهما، ولا معرفة أيهما فيها الإشباع وأيهما فيها الضرر. ونستقي المثال البارز على ذلك من حياة النبي موسى عليه السلام، فقد وَضَعَ أمامه فرعون، عندما كان طفلاً يتربَّى في قصره، ثمرةً وجمرةً، فأخذ الجمرةَ ووضعها في فمه، ولذلك كانت لديه اللثغة في كلامه..

ولكن عندما يكبر الطفل، وتتكوَّن لديه المعلوماتُ السابقة فإنه يبادر إلى استعمالها طبيعيّاً، لأنّ الرّبط ـ في الأصل ـ جُزْءٌ مِنْ تكوينِ دماغِهِ. وبناء على ذلكَ فإنّ التمييزَ الغريزي، أو الاهتداءَ الغريزيّ لا يتعدّى الإحساس بواقع الشّيء الذي يُشبعُ أوْ لا يُشْبعُ، وهذا بخلاف الفِكرِ الذي لا يكتفي بالإحساس بواقع الشيء، بل يتعداه إلى الحكم على الشيء، والعملية التي يَتِم بها هي حتماً العملية الفكرية، التي يمكن أن تحصل بإحدى طريقتين، بعد معرفة العملية الفكرية.

- **الطريقة العقلية**: وهي تحتاج إلى ملاحظة واستنتاج.

- **الطريقة العلمية**: وهي تحتاج إلى ملاحظة وتجربة واستنتاج.
وسوف يأتي البحث في هاتين الطريقتين، بعد معرفة العملية الفكرية.

٤ ـ العملية الفكرية

إنَّ العملية الفكرية لا تتمُّ إلاً إذا تحقق لها ثلاثة عناصر: وجود الواقع والإحساس بالواقع، وتوافر المعلومات السابقة عنه. كما لا بد من تمييز الواقع عن غيره. وأما ما قيل: من أنَّ الإنسان الأول قد اصطدم بالأشياء فانعكست عليه، فصار بالحسِّ يعرف أن هذه الثمرة تُؤكلُ وهذه لا تؤكل، وصار يعرفُ أنَّ هذا الحيوان يؤذيه فيتجنَّبه، وهذا لا يؤذيه فيستخدمه، واهتدى بالحسِّ والتجربة إلى أنَّ الخشب يطفو على الماء فأخذ يستعمله على شكل قوارب ليجوب في الأنهارِ والبحار، وإلى حكّ الأحجار ببعضها، إلى غير ذلك من المكتشفات البدائية.. فهذا كله غير صحيح، لأنَّ الإنسان منذ خلقه الله تعالى كان مفكراً بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾(١)، وفقاً لما قيل أي وعلَّم الله ـ خالقُ آدم ـ المسميّات كلها التي تقع عليها حواسه، أو التي يمكن أن يدركها بعقله، بما ألقى في روعه من علمها، فكان من الطبيعي أن يكمن ذلك العلم في ذريته، وتهتدي إلى المسميات بالتعلم والبحث والتفكر.

نعم، قد يقال: إنَّه قد يحصلُ أن يُعطى شخصٌ آلةً معقدة، وليست لديه معلوماتٌ سابقةٌ عنها، ثم يُطْلَب منه حلُّها وتركيبُها، فيبدأ بإجراء تجارب متعددة عليها ليصل من خلال هذه التجارب إلى حلّها ثم إلى تركيبها. وبذلك فإنه يكون قد وصل إلى فكر دون حاجة إلى معلومات سابقة. والجوابُ على ذلك هو أن هذا الشخص لا بدَّ وأنْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

يكون لديه معلوماتٌ متعددة ومتنوعة سابقة، فأخذ بتجاربه الجديدة يربط المعلومات التي لديه بالواقعِ الذي بين يديهِ، ويربط ما بين المعلومات المتنوعة حتى توصل إلى معلوماتٍ يفسر بواسطتها حلّ الآلة وتركيبها، أي إنه بهذه المعلومات التي استنتجها حول الآلة أمكنه القيام بعملية فكرية هي التي أوصلته إلى الحل. . لكنَّ هذا الشخص لا يصلح أن يكون مثالاً، لأنّ لديه معلومات، أو لأنه متميّز بالقدرة على الربط، وإنما المثال الذي يمكن أن يؤتى به هنا هو الطفلُ الذي لا توجد لديهِ معلوماتٌ إطلاقاً، أو الرجل الذي ليس لديه معلومات أوليّة يمكن أن يستعين بها على استنتاج معلومات يفسر بها الواقع، كأن تأتي بأعرابيٍّ وتدخله مختبراً وتتركه يجرِّب، أو أنْ تأتي بعالم من علماء الاقتصاد وتضعه في مختبر الذرَّة وتطلب منه العمل على صنع قنبلة ذرية. . فمثل هؤلاء، وبدون معلومات لديهم، لا يمكنهم التوصل إلى إنشاء فكر جديد. .

والحاصل أنَّ كلاً من الحواسِّ تنقُلُ ماهية أو صورة الواقع المادي كما هو إلى الدّماغ، فإنْ كانَتْ الحاسة سَمْعاً نَقَلَتْ جَرْسَ الصوت الذي تسمع، وإنْ كانت بصراً نقلت صورةَ الشيء الذي تراه، وإنْ كانت شَمّاً نَقَلَتْ رائحة ما شمَّت، ـ أي نوع رائحته ـ، وهكذا فإنّ الواقع يرتسم كما نقل في الدماغِ، أي حَسَبَ الكيفية التي نُقِلَتْ، وبذلِكَ يَتِمّ الإحساسُ بالواقع فقَطْ، ولا يَنْشَأ عنْ ذلكَ تفكيرٌ بل تَمَيّزٌ غَريزي فَقَطْ مِنْ حَيْثُ كوْنه يُشْبعُ أوْ لا يُشْبعُ، يُؤلِمُ أوْ لا يُؤلمُ، يُفرِحُ أو لا يُفرح، يَلَذّ، يُغضب، يُحزنُ، يُحرِقُ، يُقوّم، يُذبلُ. . ولا يَحْصُل أكثرُ منْ ذلكَ. فإن كانتْ هُنالِكَ معلوماتٌ سابقَةٌ ورَبَطَتْها قُوَّةٌ

الرّبطِ الدماغيّةُ بالواقعِ المحسوس الذي ارْتَسَمَ في الدماغِ، فعندئذٍ تتمّ العمليّةُ الفكريّةُ، وينتجُ إدْرَاكُ الشّيء، ومعرفَةُ ما هو، وإلا يَبْقَ الأمر عِنْدَ حَدّ الإحساسِ أو عندَ حد التّمييز الغريزيّ فقطْ. وأمَّا ما يتم من محاولات التّفكير مع عَدمِ توافرِ الواقع المحسوسِ، ومع عدمِ توافرِ المعلومات السّابقة، فلا يتعدّى تَخَيّلاتٍ فكرية تُسيطر على صاحبها بسبب بُعْدِه عن الواقعِ المحسوسِ، ما يؤدي إلى الوقوع ـ أحياناً كثيرة ـ في الأوهام والضلالِ، وربما أدّى الإكثار من مثل تلك التخيلات إلى إجهادِ الدماغ، فيُصابُ بأمراض الخَلَلِ والصرعِ وما شاكل ذلكَ.

هذا هو تعريفُ الفِكر، الذي ينتجه المفكر، أي الذي حصلت لديه العملية الفكرية، لا لمَنْ يُنْقَلُ إليه الفكرُ. أما مَن يُنْقَلُ إليه الفكرُ فلا تحصل لهُ هذه العمليّةُ، لأنّ الفِكْرَ نَتجَ وانتهى، فيعطيه مُنتجُهُ للنّاسِ، وينقلُهُ الناسُ لبعضِهِم، ثم يُعبّرونَ عنهُ باصطلاحات خاصة. والفكرُ المنقولُ للآخرينَ يُنظرُ فيهِ، فإن صارَ له واقعٌ، وتَصَوَّرَهُ من نُقل له كما نقل تماماً، حتى صار كأنهُ أحسّهُ هو، وسلّمَ به، فهو في هذه الحالة، قدْ أَدْرَكَهُ وأصبحَ هذا الفِكْرُ مفهوماً من مفاهيمه، كما لو نتجَ هذا الفكرُ منه بالذّات. ولكن إذا لم يكن لهذا الفكر واقع عند الشخص الذي نُقِلَ إليه، بل فهِمَ اللفظ، والفكرة التي يعبّر عنها اللفظ، ومع ذلك لمْ يتكوّنْ لهُ واقعٌ في ذهنِه، لا حِسّاً، ولا تصديقاً ولا تسليماً، كان ما نقل إليه فقط مجرد معلوماتٍ، أو مجرّد معارف عن أشياء، لذلك فإن المعلومات وحدها غير كافية للتأثير، بل المفاهيمُ هي التي تؤثّر، لأنها أفكارٌ لها واقعٌ في ذهنِ مَن أدركها. ولهذا السببِ لم يكن بُدّ مِنْ أن يعرف المفكر واقع ما يفكر به، وما هو

تأثيره، وكيف يؤثر، حتى يمكنه أن ينقل فكره إلى غيره، وإلاً فإنه لا يكون قد نقل فكره للناس، بل يكون قد نقل إليهم مجرد معلومات قد تمكّنهم من أن يكونوا بها متعلّمين، لا مفكرين.

٥ ـ الطريقة العقلية والطريقة العلمية

تُعَرَّفُ الطّريقةُ العقليّةُ بأنّها منهجٌ مُعيّنٌ للبحث يسلكه الإنسان للوصولِ إلى معرفةِ حقيقةِ الشّيءِ الذي يَبحثُ عنهُ. ويكون ذلك عَنْ طريقِ نقلِ إحساسه بالواقعِ (بواسطة الحواسِّ) إلى الدّماغ، شرط أن تكون لديه معلوماتٌ سابقَةٌ يُفسّرُ بواسطتِها الواقعَ، لكي يمكنه أن يُصدر حكمَهُ عَلَيْهِ. وهذَا الحكمُ هُوَ الفكرُ، أوِ الإدراكُ العقليُّ.

وتُعتمد الطريقةُ العقليةُ في بحثِ الموادِّ المحسوسةِ كعلم الكيمياءِ أو الفيزياءِ مثلاً، وفي بحثِ الأفكارِ مثل العقائدِ والتّشريعِ، أو فهم الكلام مثل الأدبِ والفقه، وهذهِ الطّريقةُ هيَ الطريقةُ الطّبيعيّةُ للوصولِ إلى الإدراكِ العقليِّ. وعمليّتُها هيَ التي يَتَكَوّنُ بها عَقْلُ الأشياءِ، أي إدراكُها، وهيَ نفسُها تعريفٌ للعقلِ، وعلى منهجها يصلُ الإنسانُ، بوصفه مميّزاً مدركاً إلى معرفة الأشياء التي يفكّرُ، ويبحثُ فيها.

والنتيجةُ التي يصلُ إليها الباحثُ بالطّريقةِ العقليّةِ يُنْظَرُ فيها، فإنْ كانتْ هذِهِ النّتيجةُ هي الحكم على وجودِ الشيءِ، أي هو موجود فعلاً، فهيَ قطعيّةٌ لا يُمكنُ أنْ يتسرّبَ الخطأُ إليها مطلقاً وَلاَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ. وذلكَ لأنَّ هذَا الحكمَ جاءَ عَنْ طريقِ الإحساسِ بالواقعِ، والحسُّ لا يمكنُ أنْ يُخطئ الواقعَ الذي يتناوله، لأنَّ إحساسَ الحواسِّ بوجودِ الواقعِ يكون قطعياً، فمثلاً سماع صوت ولدك، أو النظر إلى

زوجتك، أو تذوق الملوحة في الطعام، أو شم رائحة العطر، أو لمس الثوب الخشن أو الناعم. . . كلها من الأمور الحسيّة التي يعتبر وجودها قطعياً، ولذلك كان الحكمُ الذي يُصدِرُهُ العقلُ عَنْ وجودِ هذه الأشياء قطعياً. أمّا إنْ كانتْ النّتيجةُ هيَ الحكم على كُنْهِ الشّيءِ، أوْ صفتِهِ فإنّها تكونُ نتيجةً ظنّيّةً فيها قابليّةُ الخطإِ، لأنَّ هذا الحكمَ جاءَ عَنْ طريقِ المعلوماتِ، وتحليلها ومدى ربطها بالواقع المحسوس، ما يجعل تسرّب الخطأ إليها ممكناً، ولكنْ يبقَى الفكر الذي انتهى إلى هذه النتيجة فكراً صائباً حتّى يتبيّنَ خطأها، وحينئذٍ فَقَطْ، يُحْكَمُ عَلَيْهَا بِالخطأ. لهذا فإنَّ الأفكارَ التي يَتوصّلُ إليها العقلُ بطريقةِ التّفكيرِ العقليّةِ إنْ كانَتْ ممّا يتعلّقُ بوجودِ الشّيءِ، كالعقائدِ، ومنها الاعتقاد بحقيقة وجود الله تعالى، وأنَّ القرآن الكريم منزلٌ مِنْ الله سبحانه، وأنّ محمداً رسولُ الله، فإنَّها بالنسبة إلى المسلم أفكارٌ قطعيّةٌ وحكمها بالنسبة إليه كالحكم على الأشياء الحسية مثل الطاولة أو السوار الذهبي أو السيارة. . فكون هذه الأشياء موجودة فعلاً وواقعاً، هو الذي جعل الحواسَّ تدركها من خلال الواقع الموجودة فيه، وهكذا العقيدة الحق عندما ترسخ في النفس فإنها تتحول إلى أفكار ومفاهيم لمعالجة الواقع بأحكام قطعية الثبوت، وذلك بخلاف إذا كان التفكير يهدف إلى معرفة حقيقة الشيء وصفته، فإنَّ الأفكار الناتجة منه تبقى ظنيَّةً، من مثل هل هذه الطاولة مصنوعة من خشب الجوز أو السنديان أو غيره، فإنَّ حكم الشخص العادي عليها يبقى حكماً ظنياً، بينما يكون الحكم الذي يعطيه الخبير في الأخشاب أقربَ إلى فهم نوع الخشب ومواصفات الطاولة. .

والأمر كذلك بالنسبة إلى السوارِ الذهبي، هل إنَّ الذهب

المصوغ منه هو من عيار ٢٤ أو ١٨ أو ١٤ قيراطاً أو أقل من ذلك، فإن إجراء الفحص عليه من صاحب خبرة، أي ممن لديه معلومات أوفر من غيره عن الذهب، هو الذي يقرب من حقيقة واقعه وصفاته.

وكذلك الحال بالنسبة إلى السيارة، هل صنعها تمَّ من الفولاذ أم الحديد، وما هي مقدار التقنية الموجودة فيها، وما هي خصائصها التي تميزها عن السيارات الأخرى، فإنَّ إجراء فحص عليها من أهل الخبرة، ومعرفة كل ما يعود إلى موادها وصناعتها، فهذا ما يقرب من فهم حقيقة السيارة وصفاتها.

إذن هناك حكمان على هذه الأشياء:

الأول: الحكم الذي يتعلق بكون الشيء موجوداً فعلاً الطاولة، السوار، السيارة، فهذا الحكم على وجودها قطعي.

والثاني: الحكم على حقيقة ماهية الشيء وصفاته وهو حكم ظني في الغالب.

وهكذا بالنسبة إلى جميع الأشياء..

وكذلك القرآن الكريم، فمعرفة أنه منزَّل من عند الله تعالى فهذا أمر قطعي يقيني لأنَّ واقعه ووجوده بين أيدي الناس، وعدم قدرة الإنس والجن على الإتيان بمثله، يشهد على أنه قول الله سبحانه وأنه أنزلَهُ بالحقِّ.. أما من حيث فهم حقيقة معانيه من قبل المسلمين خاصة، والناس عامة، فهذا الحكم ظنِّي. فمن كان أكثر خبرة باللغة العربية، وبالسنّة النبوية الشريفة، وأحسن تعبداً لله العظيم، كان أقرب إلى فهم حقيقة معاني كتاب الله تعالى.

أمّا الطريقة العلمية فتعرَّف بأنها منهجٌ معيّنٌ في البحثِ، يَسْلكه

الإنسان للوصولِ إلى معرفةِ حقيقة الشّيءِ الذي يبحثُ عنهُ، وذلك عَنْ طريقِ إجراءِ تجاربَ على هذا الشّيءِ. ولا تُعتمد هذه الطريقة إلا في بحثِ الموادِّ المحسوسةِ من دون بحثِ الأفكارِ، ولا تكونُ إلاّ بإخضاعِ المادّةِ لظروفٍ وعواملَ غيرِ ظروفِها وعوامِلها الأصليّةِ، وملاحظَةِ كلِ ذلك بدقة متناهية لكي يُسْتَنتَجَ مِنْ هذهِ العمليّةِ على المادةِ حقيقةٌ ماديّةٌ ملموسَةٌ، كَمَا هيَ الحالُ في الأبحاث التي تجري في المختبراتِ.

وتَفْرِضُ هذهِ الطّريقةُ التّخلّيَ عَنْ جميعِ الآراء السّابقةِ حولَ الشّيءِ موضوع البحث، وكل اعتقاد سابق حول ماهيته، ثم يبدأ الباحث بالملاحظةِ والتّجربةِ، وبالموازنةِ والترتيبِ، ثُم بالاستنباطِ القائمِ على هذهِ المقدّماتِ العمليّةِ، فإذا وصل إلى نتيجةٍ مِنْ ذلك كانَتْ نتيجةً علميّةً، أيْ حقيقةً علميّةً خاضعةً للبحثِ والتمحيصِ، ولكنّها تظلُّ حقيقةً علميّةً، ما لَمْ يُثبتِ البحثُ العلميُّ تسرّبَ الخطأِ إلى ناحيةٍ من نواحيها.

وبناءً على هذا التعريفِ للطّريقةِ العلميّةِ، والطّريقةِ العقليّةِ، تكونُ الطّريقةُ العقليّةُ هيَ الطريقةَ الوحيدَة التي يجري عليها الإنسانُ ـ مِنْ حيثُ هُوَ إنسانٌ ـ في تفكيرِهِ وحكمِهِ على الأشياءِ، وإدراكِهِ لحقيقتِها وصفاتِها.

ولكنَّ الغربَ ـ وخاصة في أوروبّا ـ قد أحدث منذ القرن التاسع عشر الثورة الصناعية، ونجحَ في العلوم التجريبيّةِ نجاحاً منقطعَ النّظيرِ، وامتدّ سلطانُهُ منذُ ذلك الحين إلى الآنَ، حتّى شملَ جميعَ العالَمِ، فسمّى أسلوب البحثِ في العلومِ التجريبيّةِ طريقةً علميّةً في التّفكيرِ، وصارَ ينادِي بها أنْ تكونَ طريقةَ التّفكير الوحيدة، وأَنْ تُجعَلَ

أساساً للتّفكير. وقَدْ أخذَها علماءُ الشّيوعيّةِ ـ قبل انهيار أنظمتها ـ وسارُوا عليها في غير العلومِ التجريبيّةِ، كما في العلومِ التجريبيّةِ وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلَماء في أميركا. . ثمَّ قلَّدَ سائر الناس الغربَ من جراء سيطرته ونفوذه فطغَتْ على النّاس بشكلٍ عامٍّ هذِهِ الطريقةُ، وكانَ من جرّاءِ ذلكَ أنْ وُجِدتْ في المجتمعات، على نطاق العالمِ الإسلاميّ كلِّه، قداسةٌ للأفكار العمليّة وللطّريقةِ العلميّةِ. . أما تسميتُها طريقةً فليس خطأً لأنّها منهجٌ معيّنٌ دائمٌ في البحثِ، والطّريقةُ هيَ الكيفيّةُ التي لا تتغيّرُ. ولكنَّ الخطأَ هُوَ جعلُها أساساً للتّفكير، وهذا غيرُ جائز، إذ هيَ ليستْ أصلاً يُبنى عليه، وإنما هيَ فرعٌ بُنِيَ على أصلٍ.

فالطّريقةُ العمليّةُ طريقةٌ صحيحةٌ. ولكنّها ليسَتْ أساساً في التّفكيرِ، بَلْ هِيَ أسلوبٌ دائمٌ مِنْ أساليبِ التّفكيرِ، وَهِيَ لا تُطبّقُ على كل الأشياء المادية والمعنوية وإنّما تُطبّقُ على المادّة المحسوسة لمعرفةِ حقيقتِها عَنْ طريقِ إجراءِ تجاربَ عَلَيْها، فَهِيَ خاصّةٌ بالعلومِ التجريبيّةِ ولا يجوزُ أنْ تُستعمَلَ في غيرِها.

أمّا كونُها ليسَتْ أصلاً أو أساساً فظاهرٌ مِنْ وجهَيْنِ: الأوّلُ أنّهُ لا يمكنُ السيْرُ بها إلاّ بوجودِ معلوماتٍ سابقةٍ، ولَوْ كانت أوليّة، لأنَّ التّفكيرَ لا يكون إلاّ بوجودِ معلوماتٍ سابقةٍ. . فعالِمُ الكيمياءِ وعالِمُ الفيزياءِ والعالِمُ في المختبرِ، لا يستطيع أي منهم أنْ يسيرَ في الطّريقةِ العلميّةِ لحظةً واحدةً إلاّ أنْ تكونَ لَدَيْهِ معلوماتٌ سابقةٌ. وأمّا قولُهُمْ إنَّ الطّريقةَ العلميّةَ تفرضُ التّخلّيَ عَنِ المعلوماتِ السّابقةِ فإنّما يريدُونَ بهِ التّخلّيَ عَنِ الآراء السّابقةِ لا عَن المعلوماتِ السّابقةِ، أيْ إنَّ الطّريقةَ العلمية تقتضي من الباحث عندما يبدأ البحثَ عن شيءٍ معين، أنْ

يمحوَ مِنْ نفسِهِ كلَّ رأيٍ وكلَّ ما يعتبر حقيقة ثابتة حول هذا الشيء، وأنْ يبدأَ بالملاحظةِ والتّجربةِ، ثُمَّ بالموازنةِ والتّرتيبِ، ثُمّ بالاستنباطِ القائمِ على هذِهِ المقدّماتِ العلميّةِ.

الوجه الثاني: أنَّ الطريقة العلمية تقضي بأنَّ كلَّ ما لا يُلمس ماديّاً، أو غير محسوس بصورة مادية، لا يعبِّر عن حقيقة الواقع المحسوس. مثل التاريخ أو المنطق، أو الفقه أو السياسة وما إلى ذلك من الأفكار والنظريات والمعتقدات التي لا تخضع للتجربة العملية، فإنّها لا تشكّل حقائق أو ثوابت علمية، أي لم يَجرِ التثبت من كونها حقائق نهائية بطريقة ملاحظة المادة وتجربتها، والاستنتاج الماديّ للأشياء.. وهذا هو الخطأ الفاحش لأنَّ العلوم الطبيعية فرع من فروع المعرفة، وفكر من الأفكار، وباقي معارف الحياة كثيرة، وهي لم تثبت بالطريقة العلمية، بقدر ما جرى إثبات وجودها وخصائصها ومعانيها بالطريقة العقلية. وفضلاً عن ذلك فإنَّ قابلية الخطأ في الطريقة العلمية مِنَ الأسُسِ التي تقوم عليها هذه الطريقة نفسها على ما هُوَ مقرَّرٌ في البحثِ العلمي، نظراً للأخطاء التي تتبين في النتائج التي تتوصل إليها الأبحاث، بل وكثير من المعارفِ العلميّةِ قد تَبيّنَ فسادُها بعد أنْ كانَتْ تُعتبر حقائق علميّة. فمثلاً الذرّةُ، كانَ يقالُ عنها إنّها أصغرُ جزءٍ من المادّةِ، ولا تنقسمُ، فظهرَ خطأُ ذلكَ وتبيّنَ بالطّريقةِ العلميّةِ نفسِها أنّها تنقسمُ. وكذلكَ كانَ يقالُ إنَّ المادَّةَ لا تفنَى، فظهرَ خطأُ ذلك وتبيّنَ بالطريقةِ العلميّةِ نفسِها أنّها تفنَى. وهكذا فكثيرٌ ممّا كانَ يسمّى بالحقائقِ العلميّةِ أو القوانين العلمية، قَدْ ظهرَ بالطّريقةِ العلميّةِ خطأُه. بل، وفي آخر المطاف، فقد تبيَّن وبالطّريقة العلمية نفسِها ـ أنّها ليسَتْ حقائقَ علمية ولا قوانين عمليّة.

يقولُ رسل: «إنَّ العلمَ يقرّرُ أحكاماً على سبيلِ التّقريبِ لا على سبيلِ اليقينِ». والعلمُ في تعريفِ أساطينِ العلماءِ «هو مجموعةُ فروضٍ، تحولّتْ بالتّجربةِ إلى قوانينَ قابلةٍ للتغيّرِ الدائم، فليسَ في العلم شيءٌ ثابتٌ بشكلٍ جازمٍ يقينيٍّ». ولذلك فإنَّ الطّريقةَ العلميّةَ طريقةٌ ظنيّةٌ وليستْ قطعيّةً، وَهِيَ تُوجِدُ نتيجةً ظنيّةً عَنْ وجودِ الشّيءِ، وعَنْ صفتِهِ، وعَنْ حقيقتِهِ، ولذلكَ لا يجوز أنْ تُتّخذَ الطريقةُ العلميّةُ أساساً في التّفكيرِ.. وهي وإنْ كان بالإِمكان أنْ يُستنبطَ بها أفكارٌ جديدة، إلاَّ أنّها لا تستطيعُ أنْ تُنشئ أيَّ فكرٍ إنشاءً جديداً كما هي الحالُ في الطّريقةِ العقليّةِ، وعلى هذا فإنَّ الأفكار المنشأَة جديداً هي الأفكار التي أخذَها العقلُ رأساً ـ بدون أفكار سابقة أو تجارب ـ كمعرفة حقيقة وجود الله تعالى، ومعرفة أنَّ التفكير بشؤون القوم يعلو في المرتبة على التفكير بالشأن الشخصي للفرد، وأنَّ الخشب يحترق، وأنْ الزيت يطفو على وجه الماء.. فكلها تُعدُّ من الأفكارِ التي أخذها العقلُ مباشرة بإعمال الطريقة العقلية، وذلك بخلاف الأفكار التي جرى استنتاجها بالطريقة العلمية، فإنَّ العقل لم يأخذها رأساً، وإنَّما كان قد أخذها من عدة أفكار سابقة، وبعد إجراء التجارب اللازمة، كمعرفة أنَّ الماءَ مكوَّنٌ من أوكسجين وهيدروجين، ومعرفة أنَّ الذرة تنقسم، ومعرفة أنَّ المادة تفنى، فهذه من المعارف التي يُعتبر الفكر فيها مستنتجاً استنتاجاً، وليس منشأً إنشاءً.. ما يجعلُ الطّريقةُ العمليّةُ، قادرةً أو مهيَّأةً لأن تَستنبطَ فكراً، ولكنها لا تستطيعُ إنشاءَ فكرٍ جديدٍ. ولذلكَ كانَ مِنَ الطّبيعيِّ، ومِنَ المحتّمِ، أنْ لا تكونَ أساساً للتّفكيرِ. إلاَّ أنَّ الغربَ، ومن ورائه النّاسُ جميعاً، قدْ بلغتْ عندهُمُ الثّقةُ بالطريقةِ العلميّة إلى حدِّ التّقديسِ، أوْ ما يقرُبُ مِنَ التّقديس، لاسيّما

في القرنِ التّاسعِ عَشَرَ وأوائِلِ القرنِ العشرينَ، ما أدَّى بالفكر البشري إلى أنْ يشطحَ ويحيدَ عن جادة الصواب في الأساس الذي يُبنى عليه التفكير، وذلك يجعل الطريقة العلمية طريقةً للتفكيرِ، ويجعلها وَحْدَها أساساً للتفكيرِ، والحكمِ بها وَحْدَها على جميعِ الأشياءِ.

فَلَوْ سلكَ علماءُ الغربِ الطّريقةَ العقليّةَ لِنَقْلِ الإحساسِ بالإنسانِ وأفعالِهِ، أي وجودَ الإنسان كواقع، والإحساس به، وفسَّروا هذا الواقع والإحساس به بالمعلوماتِ السابقةِ، لاهتَدَوْا إلى حقيقةِ هذا الواقعِ. ولكنَّ سلوكَهُمُ الطّريقةَ العلميّةَ واعتبارَهُمْ أنَّ الإنسانَ كالمادّةِ، وظَنَّهُمْ أنَّ ملاحظةَ أفعالِ الإنسانِ هيَ كملاحظة المادّةِ، ضلّلَهُمْ ذلكَ عَنِ الحقيقةِ حتى خرجُوا بهذِهِ النتائجِ الخاطئةِ في الغرائزِ، وفي غيرِها مِنْ أبحاثِ علمِ النّفسِ.

وَقُلْ مِثْلَ ذلكَ فيما يُسَمّى علمَ الاجتماعِ وعلومِ التربيةِ، فإنّهَا في حقيقتها لَيْسَتْ مِنَ العلومِ التجريبية ـ كما جعلوها ـ لذلك جاءت غالبية نتائجها مغلوطة.. وهذه الأخطاءُ لَدَى عُلماءِ النّفسِ وعُلماءِ الاجتماعِ وعلماءِ التّربيةِ ـ في الغرب ـ هِي نتيجةُ اتّباعِهِمُ الطَّريقةَ العلميّةَ في بحثِ كلِّ شيءٍ، ومغالاتِهِمْ في تقديرِ الطّريقةِ العلميّةِ وتطبيقِهَا على جميعِ الأبحاثِ.

وعلى ذلكَ فإنَّ الطّريقةَ العقليّةَ وحدَها ـ في نظرنا ـ هيَ التي يجبُ أنْ يسيرَ عَلَيْها النّاسُ. وَإنَّ الأسلوبَ المُباشرَ هُوَ الأسلمُ للسيّرِ عَلَيْهِ. وذلكَ حتّى يكونَ التّفكيرُ صحيحاً، وتكونَ نتيجةُ التّفكيرِ أقربَ إلى الصّوابِ فيما هُوَ ظنيٌّ، وقاطعةً بشكلٍ جازمٍ فيما هُوَ قطعيٌّ. إذِ المسألةُ كلُّها ـ في شتى الشؤون والأمور والقضايا ـ متعلّقةٌ بالتّفكيرِ،

وَهُوَ أثمنُ ما لَدَى الإنسانِ، بل وأثمنُ شيءٍ وهبه له خالقه في وجوده الأرضي . .

٦ ـ التفكير

التّفكيرُ ـ سواءٌ في فهمِ الحقائقِ، أوْ في فهمِ الحوادثِ، أوْ في فهمِ النّصوصِ ـ عرضةٌ للانزلاق والابتعاد نظراً للتّجدّد الدّائم في شتى مجالات الحياة، ولذلكَ فإنّهُ لا يكفي أنْ يُبحثَ في طريقةِ التّفكيرِ، بَلْ لا بدَّ أن يُبحثَ التّفكيرُ نفسُهُ بشكلٍ مفتوحٍ، وذلك فيما يصحُّ أنْ يجريَ التّفكيرُ فيهِ وفي ما لا يصحُّ أنْ يجري التفكير فيه، إنْ من ناحية التفكير في العيش أو في الحقائق، أو في فهم النصوص ـ أيْ فهم الكلام المسموع والمقروء ـ أو في الأساليب والوسائل، وما إلى ذلك ممّا يتصل بالتفكير من قريب أو بعيد . .

والبحثُ فيما يصحُّ، أو فيما لا يصحُّ أنْ يجريَ التّفكيرُ فيه، فإنّهُ على بداهتِهِ عقدةُ العُقَدِ، ومُنزلَقُ الكثيرِ مِنَ النّاسِ حتّى المفكّرينَ. ذلك أنّ تعريفَ العقلِ، أوْ معرفةَ معنَى العقلِ معرفةً حقيقية وجازِمةً، تقضِي بداهةً بأنَّ التّفكيرَ إنّما يجري فيما هُوَ واقعٌ أوْ لَهُ واقعٌ، ولا يصحُّ أنْ يجريَ في غيرِ الواقعِ المحسوسِ لأنَّ عمليّةَ التّفكيرِ هيَ نقلُ الواقعِ بواسطةِ الحواسِّ إلى الدّماغِ، فإذا لَمْ يكنْ هناك واقعٌ محسوسٌ، فإنَّ العمليّةَ الفكريّةَ التي تنشئ فكراً جديداً لا يمكنُ أنْ تحصلَ، لأنَّ انتفاءَ الحسِّ بالواقعِ ينفي الوصول إلى الحقائق الفكرية.

إلاَّ أنَّ هنالك أموراً أو أشياءَ لها واقع ـ أو وجود حقيقي ـ وهذا الواقع لا يمكن نقله بالحسّ، ولكنَّ أثرَهُ يقع على حسِّ الإنسان، ثم ينقل إلى الدماغ عن طريق الإحساس، فالأشياء التي تعرف بآثارها،

يجب أنْ ينصبَّ التفكير على حقيقة وجودها، من غير كنهها، أو ماهية ذاتها، لأنَّ ما نُقل إلى الدماغ هو آثارها، التي تدل على وجودها فقط، ولا تدلُّ على ماهيتها.. فمثلاً لو أنَّ طائرة كانت عالية جداً في الفضاء، بحيث لا تُرى بالعين المجرّدة، ولكنَّ صوتَها تسمعه الأذن، فهذا الصوت دليلٌ حسيٌّ على وجود الطائرة فقط، من دون معرفة نوعها وصفاتها، فإلى الآن حصل التفكير بوجود الطائرة، وصدر حكم العقل على وجودها من صوتها ـ علماً بأنَّه يمكن الحكم على نوعها، من قبل متخصص في علم محركات الطائرة، أي من طريقة تمييزه لصوت محركها ـ ولكن هذا لا يعنينا إنما يعنينا أننا عرفنا بوجود الطائرة فوقنا من أثرها على إحساسنا، أي صوتها..

وقد يرد الحديث هنا عن المغيّبات عن الحسّ، مثل حقيقة وجود الله تعالى، وحقيقة وجود الجنة والنار، وحقيقة وجود الملائكة وغيرها مما يقع في الغيب، الذي شغل المفكرين على مدى الزمن، ولاسيما الفلاسفة اليونان، والفلاسفة المسلمون وأصحاب المذاهب الكلامية في الإسلام، وسائر الفلاسفة في الحضارات الشرقية والغربية، وكانت جميع أبحاثهم الفكرية حول تلك المغيبات ـ أي فيما لا يقع عليه الحس ـ تحاول أنْ تقرّبَ إلى أذهان الناس الاعتقادَ بحقيقة وجود تلك المغيبات.. والسؤال هنا: هل اشتغال الدماغ، أو إِعمالُ الفكر بالمغيبات ـ سواء أكانت مغيبات عن الفكر أو مغيبات عن الحس ـ لا يكون تفكيراً واقعياً؟ وبالتالي هل كل ما قيل في المغيبات لا يُعدُّ فكراً، وإنما مجرّد تخيلات فكرية لا تمت إلى الحقائق بصلة؟!..

الواقع أنَّ الأفكار الفلسفية التي بحثت في القضايا الغيبية، لم تستند إلى معلومات من شأنها أنْ تكوّن المفاهيم التي تؤدي إلى صحة

الاعتقاد بحقيقة المغيبات التي تناولها الفلاسفة من قبل. . وبخلاف ذلك فإنَّ الذين يعقلون، من الفلاسفة، أو غيرهم من المفكرين، الذين اطَّلعوا على تعاليم الأنبياء، وتكوّنت لديهم المعلومات الكافية عن طريق فهم التعاليم الدينية، وإدراكها إدراكاً تامّاً، ثم نقلوا المعلومات التي تكوَّنت لديهم بطريقة صحيحة وصادقة، فهؤلاء لم تعد المغيبات التي جاءت بها الكتب السماوية مجرد قضايا غيبية بالنسبة إليهم، أو بالنسبة إلى الناس التي نقلوا إليهم المعلومات عنها نقلاً صحيحاً، بل صارت لديهم محسوساتٍ بآثارها، لأنَّ العقل ـ دون الحواس ـ هو الذي جعلها حاضرةً في أذهانهم، وهو الذي مكَّنهم من إيجاد الطرق لنقلها إلى الآخرين. . ولذلك، فإنَّ نقل المعلومات عن المغيبات لا يُبقي التفكير فيها محصوراً بالمفكر، بل يمكن كلَّ إنسان جرى هذا النقل إلى دماغه أن يفكر فيها حتى تصبح لديه مثل الحقائق المحسوسة. فمثلاً، إذا نقلت إلى شخص لم يرَ بيت المقدس، أو البيت الحرام في مكة المعلومات الكافية عن وجودهما، ومن كامل مواصفاتهما، وتأكدت لديه صحة تلك المعلومات، فإنَّه عندما يفكر فيهما لا يعني أنه يفكر في غير المحسوس، لأنَّ ما نقل إليه جعلهما بمثابة المحسوسات التي عرفها بحواسه، ما يمكن معه القول بأنَّ كلَّ ما يغيب عن الحواس من المحسوسات، أو من الحقائق التي استدلَّ عليها العقل من آثارها، يعتبر التفكير بها تفكيراً، واشتغال الدماغ بها تفكيراً. . وعلى هذا فإنَّ التاريخ يعتبر أفكاراً، ولو جرى تسجيل وقائعه أو جرى الحديث عنه بعد آلاف السنين. وتعتبر المعارف القديمة أفكاراً، واشتغال العقل بها تفكيراً، ولو جاءت من مسافات بعيدة. فما يغيب عن المفكر لا يعدُّ جميعه مغيباتٍ، بل

يمكن أن يكون من المحسوسات لديه، لأنَّ المحسوس لا يُشترَطُ أنْ يحسّ به المفكرِ ـ بواسطة حواسّه ـ بل قَدْ يُنقلُ إليهِ نقلاً. فَقَدْ يسمعُه وقَدْ يقرأُهُ، أوْ يُقرَأُ لَهُ. فالموضوعُ أنَّ المعرفةَ لا تكونُ فكراً إلاَّ إذا نتجتْ من واقعٍ محسوسٍ. فالواقعُ المحسوسُ أوِ المحسوسُ أثرُهُ هما وحدَهُما اللّذانِ تكونُ معرفتُهُما فكراً، ويكونُ اشتغالُ الدّماغِ بهما تفكيراً، أمّا ما عداهما فإنّهُ لا يكونُ فكراً، ولا يكونُ اشتغالُ الدّماغِ به تفكيراً.

٧ ـ التفكير السريع والتفكير البطيء أو الإدراك السريع والإدراك البطيء

التفكير السريع هو سرعة الإحساس وسرعة الربط، أو ما يسمى بسرعة البديهة أو سرعة الخاطر. ويطلق عليه تعبير الذكاء.

والذكاء في اللغة: تمام الشيء. ومنه الذكاء في السّن، أي تمام السن. ومنه الذكاء في الفهم وهو أن يكون الإنسان تام الفهم سريع القبول.

ويعرَّف الذكاء في الاصطلاح بأنه «سرعة الفهم وحدّته، أو جودة حدس من قوة النفس تقع في زمان قصير». فيقال: رجل ذكي، ويريدون به: المبالغة في فطنته، كقولهم: فلان شعلة ذكاء، وقولهم: ذكيت النار إذا أُتِمَّ إشعالها.

وفي تعريف آخر: «الذكاء هو تعاون الوظائف الذهنية المختلفة، كالتخيل، والتجريد، والحكم والاستدلال على حلِّ بعض المسائل النظرية والعملية». أي هو ما يعني التعبير عن جودة القوى العقلية لدى الإنسان .

ويقسمون الذكاء إلى أنواع، فيقولون إن الناس يختلف بعضهم عن بعض بنوع ذكائهم:

- فإذا اختلفوا بحسب كمية المواد التي يستوعبونها كان ذكاؤهم واسعاً لكثرة تلك المواد، أو محدوداً لقلتها..
- وإذا اختلفوا بحسب درجة تعمقهم في الفهم، كان ذكاؤهم سطحياً، أي قليل درجة العمق في الفهم، أو عميقاً أي بالغ العمق في الفهم..
- وإذا اختلفوا بحسب سرعة الفهم، كان ذكاؤهم حادّاً إذا كان سريعاً، أو عادياً إذا كان بطيئاً..

ونحن نطلق على هذا الذكاء أو على سرعة التفكير تعبير: سرعة الإدراك، لأنه بمقتضى هذا التفكير يتم الحكم على الأشياء التي تواجهنا بسرعة فائقة. ولذلك نقول عنه إنه الإدراك السريع، وهو ما ينافي التفكير البطيء.. والإدراك السريع له أثر كبير على حياة الإنسان في مواجهة معترك الحياة، فلكي ينجح الفرد وهو يخوض في هذا المعترك، فإنه يحتاج إلى أمرين اثنين:

الأول: السرعةُ في إصدار الحكم على الأشياء واتخاذ الإجراء الواجب إزاءَها. وإذا لم يفعلْ ذلك فإنه يُخفقُ ويُجَابَهُ بما يُثقلُ الحملَ عليه. وكلما مرَّ الزمنُ ازدادَ الحملُ ثقلاً، وتضاعفت المُعوِّقات، وهذا ما يجعلُه يُخفقُ في معترك الحياة.

الثاني: الاستفادة من الفُرصِ التي تسنحُ له في الحياة، لأنَّ ذلك يجعَلُهُ ينتقلُ من السيّئ إلى الحسن، أو من علٍ إلى أعلى، بسرعةٍ أكثر من الآخرين، فيقطع بذلك أشواطاً بعيدة في المجالات التي يقتحمها.

فإذا لم يغتنمْ بما يسمى «الفرص الثمينةَ» ضاعت عليه، وقد لا تعود ثانية.

قال الشاعر في هذا الصَّدد:

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصتِهِ   حتى إذا فاتَ أمراً عاتَبَ القَدرا

وقال آخرُ:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ   فإنَّ فسادَ الرأيِ أن تَتَرَدَّدا

وإذا تتالى التردُّد في اتخاذ القرار المناسب، في الظرف المناسب، وتتالى معه ضياع الفرص، فقد الإنسان السرعة بالانتقال من حالٍ إلى حالٍ، أو من وضع إلى وضع، فكأنَّه ملازم لما هو عليه، وهو ما يؤدي إلى فشله في مجالات الحياة، وكلٌّ ذلك سببه التفكير البطيء، أي عدم سرعة الإدراك..

ويمكن أن ندلّ على ذلك بواقعٍ ملموس في حياة الناس، إذْ من يتتبّع مواقف الاستعمار الغربي يجد أنّه استعمل مع البلاد التي غزاها أو احتلّها ما يمكن أن نسمّيَهُ «ثقافة التروي» في اتخاذ القرارات، أي إنه جعلَ عمادَ التفكير عند شعوب تلك البلاد «التفكير البطيء»، وقد نجح في ذلك نجاحاً منقطع النظير حتى أوشكت تلك الشعوب أن تصير في حالةٍ من الركون، والقبول بالأمر الواقع، الذي جعل تفكيرها في مصالحها شبه مشلول، لأنَّ المستعمِر كان يملي على قادتها التأنّي والتروّي، وانتظار مجريات الأحداث قبل اتخاذ القرارات المهمة لبلادهم.. وبذلك أربكت هذه السياسةُ أذهان الناس، فصاروا ينتظرون الفعل أو ردَّ الفعل من الحاكم الأجنبي، الذي يسيّره ـ بدوره ـ جماعة الكهّان والدهاقنة الذين يخططون في الخفاء، ويرسمون

أنماط الثقافات والسياسات التي يستغلون بها العالم، وبالفعل فإنَّ القوى الفكرية التي يستعين بها أولئك المخططون قد نجحت في تشتيت الجهود، وإخفاق القادة المخلصين لإزالة سلطان الاستعمار ونفوذه، على الرغم من الثورات والحروب التي كانوا يقومون بها، والتي كان الاستعمار ـ ولا يزال ـ يديرها على طريقته الخاصة في البلاد الواقعة تحت نفوذه. . ودليله الواضح الاحتلالات العسكرية المباشرة، أو تدخل السفارات في العلن والخفاء في شؤون تلك البلاد، والتأثير على مجموعاتٍ من أصحاب النفوذ فيها. . ولعلَّ أبرز مثالٍ على تلك المخططات في الوقت الراهن حركة «الفوضى المنظمة» التي ابتدعتها الولايات المتحدة الأميركية، ـ تحت ستار الشعار الزائف «نشر الديموقراطية» ـ وهي تقوم على الاغتيالات والاضطرابات والتظاهرات والاعتصامات، وغيرها من الأساليب التي تخدم فكرة «الفوضى المنظمة»، أي تحقيق المطامع الأميركية في نهاية المطاف. وهذا أسلوب جديد من أساليب التفكير التي تعتمدها قوى الاستعمار في الوقت الحاضر، مع احتفاظها بالنمط القديم، أي التروي في معالجة الأمور، وعدم اتخاذ أي قرار إلاَّ بالرجوع إلى القوى المهيمنة!. . ولكن، وإنْ كان التفكير من عوامل الوجود البشري، وإنْ كان التروي في التفكير أمراً ضرورياً، إلاَّ أنَّ هذا التروّي يجب ألاَّ يكون قاعدة ثابتة، أو ملزمة أساسية في كل القرارات التي يجب اتخاذها. . فقد يكون هنالك أمورٌ تحتاج إلى كثير من الدراسات، وإلى تمحيص النتائج التي قد تترتب على التفكير فيها، وأن يكون الظرف مواتياً للتروي من أجل الدرس والتمحيص. . ولكن بالمقابل قد تكون هنالك أمور أيضاً يؤدي التأنّي بالتفكير فيها، والتروي في

اتخاذ القرار بشأنها إلى نتائج وخيمة جداً، قد تصل إلى حد إضعاف الإنسان بحيث لا يعود قادراً على التخلص من ضعفه. وهذا ما ينطبق على الشعوب كذلك إذا لم تحسم خياراتها في الوقت والظرف المناسبين. وما الضعف لدى المسلمين اليوم إلاّ أحد أهم مسبباته «ثقافة التروي» إلى جانب الثقافات الأخرى - طبعاً - التي نشرها الغرب في بلاد المسلمين، حتى صارت بديلاً ليس فقط للثقافة الإسلامية، بل ومادة أساسية لمناقشة الدين وأحكامه في ضوء مقولات الأفكار والثقافات المعادية للمسلمين.

إننا نعي، بكل تأكيد، أنَّ الإنسان يعيش شتى أنواع الحالات وتقلبّها، فهو يعيش في عسر ويسر، وفرج وشدة، وهناءٍ وشقاء، وأمانٍ وبلاءٍ والوقت الذي يمرّ في جميع تلك التقلبات له تأثيره وثمنه المرتفع، لذلك كان من الحكمة مراعاة الأوضاع والأحوال والظروف في اتخاذ القرارات، لا بالسرعة المتهوّرة، ولا بالتروي البطيء، لأن كليهما يؤثران بصورة سلبية، وقد تحمل كثيراً من الضرر..

فإذا احتاج الأمرُ إلى تفكيرٍ وتمحيص وتروٍّ فلا بد أن يُفكِّرَ الإنسان ويُمحصَ فيه. وإذا احتاج إلى السرعة في الإدراك، فلا بدَّ للإنسان من أن يدرك بسرعةٍ ما يريد، وهذا ما يجعل لكل وضعٍ التفكير الذي يقتضيه.

فمثلاً: الأحكامُ الشرعية، والأمور الفنية، لا تحل إلا عن طريق التفكير العميق. والغيبيّات لا تحلُّ إلا عن طريق الفكر المستنير. ولا دخل لسرعة التفكير في هذه الأمور وأمثالها، بل لا يجوزُ أن تَدخُلَ في أمثال هذه الأمور سرعة التفكير.

وإنَّ ما ينطبق على أفكار الأفراد، إنَّما ينطبق ايضاً على كيفية تفكير الشعوب. فتلك السياسات، والخطط، والدراسات الخبيثة التي تصدر عن الجهات المعروفة في العالم، والتي يُرادُ منها فرض واقع جديد ـ ومختلف تماماً عما سبقه ـ في البلاد الإسلامية، كل ذلك وما يماثله، يحتاج من قادة المسلمين إلى سرعةِ التفكير، لاتخاذ القرارات اللازمة والخطوات الثابتة، لإزالة الضعف الذي يعتري نفوس المسلمين أولاً، ومن ثَمَّ الوقوف في وجْهِ المخططات التي ترمي إلى إبقاء الهيمنة عليهم وعلى مقدراتهم.. وهذا لا يكون إلاَّ بالفكر الإسلامي الذي أساسه الكتاب والسنة، وهي سلاح المسلمين الأقوى في مواجهة معترك الحياة.. ذلك أنه إذا كان تعريف البلاغة «هي موافقة الكلام لمقتضى الحال»، فكذلك التفكير «هو خوضُ معترك الحياة على أساس مطابقةِ التصرفات لمقتضى الحال». والتنبهُ إلى الإحساس أو إلى الشيء المحسوس هو الذي تبدأ به سرعة الإدراك. والانتباه أو التنبه، هو أن تَتَقصَّدَ فحصَ الشيء المُحَسّ ومعرفة ماهيته، لأنَّ ثبوت معرفة صحة الماهية هو الذي ينقذُ أو يهلك. فما لم يجرِ هذا التقصد لمعرفةِ صحة الماهية، أي صحة حقيقة الشيء فإنه لا يحصل الانتباه.

وعلى هذا فإن اليقظةَ للأمة الإسلاميةِ هي ضرورةٌ من ضرورات الحياةِ، إذ على الصعيد الفردي، وعندما لا يكون لدى المسلم يقظة، فمعنى ذلك أنَّ حياتَهُ في خمول، وهو وأمثاله لا يُطلب منهم أن ينتبهوا لأنهم يعتبرونُ ـ حقيقةً ـ عاجزين. في حين أن من ضرورات الحياة أن توجدَ لدى كل مسلم ـ ولاسيما اليوم ـ يقظة، ومتى وجدت هذه اليقظة في تفكيره أمكن شدّ انتباهه إلى ما يحيط به، وبمستقبل عائلته،

ومستقبل أمته من أخطار حقيقية على المصير، وهذا ما يجعل التفكير الرصين، والانتباه واليقظة، من الضرورات للأمة في الوقت الحالي، ولكن دون تسرّع ولا إبطاء حتى لا تقع في المحظور. .

٨ ـ ضرر التفكير ومنفعته

إنَّ التفكير، في الأصل، هو عمل العقل بما يفيد الإنسان، ويبعد عنه الضرر، لأنَّ من مقتضيات العقل أن يهدي إلى الخير، ويُبعد عن الشر. . ولكنَّ واقع الحياة بات ينبئ بما يغاير هذه الحقيقة، إذ أضحى التفكير ـ لدى المعنيين ـ منصبّاً على توجيه الإنسان بما يشبه قولبة تفكيره، أو تعليب فكره حتى يبقى اهتمامه منصبّاً على تأمين حياته وإشباع غرائزه وحاجاته العضوية، من دون الالتفات إلى القيم والمثل التي ترفع من قيمة الإنسان وكرامته، وتنهض بالشعوب نحو الأحسن. . ومثل هذا الواقع، الذي يعيشه معظم الناس اليوم، إنما سببه التفكير الذي لم يتوخ خيرَ الإنسان، وقيادته لتحقيق إنسانيته، ولذلك يعتبر تفكيراً ضاراً بل وهداماً للقيم الإنسانية. . أي بمعنى آخر إنَّ هذا الفكر الضارّ ـ ويقيناً وراءه اليهود ومن سار على هواهم ـ هو الذي جعلَ الشغل الشاغل لأناس اليوم، البحث عن تأمين لقمة العيش، والسيارة، والتلفزيون، والإنترنت، أي طغيان المادة على الاعتبارات المعنوية التي تغذي نفس الإنسان وتنعش فؤاده. بل وحتى في الأمور المعنوية، لم يعد الناس يدرون هل نحن أمام فكر فعلاً أم أمام ضرب من التخيلات والأوهام التي لا تنطبق على معنى الفكر، ولا على معنى من المعاني التي تدركها العقول. وهذا ما يجعل العالم اليوم في قلق واضطراب دائمين، حتى شعوب الدول التي تتغنّى

بالتقدم والتطور العلمي، فإنها شعوب قلقة، أو مهمشة التفكير، همها الأول والأخير الماديات، والماديات فقط.. في حين أن المطلوب أن ينصرف التفكير الإنساني إلى تحقيق إنسانية الإنسان، في فرديته، وعائلته ومجتمعه، وعندها يعتبر التفكير إنسانياً، أي نافعاً..

٩ ـ التفكير والعاطفة

الإنسان مجبول من تفكيرٍ وعاطفة، فليس في جبلّته العاطفة وحدها، ولا التفكير فقط، بل الاثنان معاً. إلا أن قائدَ المسيرة هو العقلُ وليس العاطفة، لأنَّ العاطفةَ عبارة عن مشاعر متقلبة لا تصلحُ للقيادةِ. إذ هي كما تلتهبُ بسرعةٍ، فإنها تنطفيءُ بسرعةٍ أيضاً، ولذا وجب أن تعطى القيادة للعقلِ لا للعاطفةِ. فانصرافُ الإنسان إلى العاطفةِ وحدها يجعلهُ سائراً في الحياة دون ضابط، وانشغالُ المرءِ بالتفكيرِ وحده يفقدهُ القدرة على الصمودِ في الحياة، لأنّ العاطفةَ هي المحركُ، والعقلَ هو الموجِّهُ. وإذا وُجدَت الحركة دون توجيه وقيادة، فقد تنقلب إلى حركةٍ مدمرة. وإذا وجد التوجيه مجرداً منقطعاً عن المحرك وعن الحركة فلا يؤدي إلى نتيجة. والأمة الإسلامية، حين كان الإسلام هو المسيِّر لها: أي بالتفكير حول تقرير مصيرها، وبالعاطفة النابعة من حب الإسلام والمسلمين، كانت تسير سيراً حسناً، ودائماً إلى الأمام..

وحين تقدم الزمن بالأمة، وتتالت الأحداث على الخلاقة الإسلامية، فانعكست على شعوبها، وحين سيطرت عليها العواطف غير الواعية وغير الهادفة ـ بل والعواطف الضارة من جراء التعصب المذهبي ـ وذلك في الوقت الذي تخلّى فيه القادة المفكرون والعلماء

في الأمة عن توجيه العقل نحو التفكير الصحيح الذي يَحول ـ على الأقل ـ دون أسباب الضعف... كل ذلك أدّى إلى غلبة أعداء المسلمين عليهم.. وعندما ظنّوا ـ ظنّاً ـ أنهم غُلبوا لأنَّ الأعداءَ أقوى منهم تفكيراً، وعندما جرَّهم ذلك إلى العناية بالنهوض الفكري، فأهملوا العاطفة الإسلامية، إلى درجة فقدت معها أصالتها وحيويتها.. عند ذلك كله تحوّل العمل النهضوي إلى التفكير البطيء، أو التفكير الذي يغلب عليه الهمود لأنه بلا عاطفة أصيلة، أي بلا دافع يحرك العقل والقلب معاً.. من هنا وجب على علماء الأمة، وقادة الرأي ـ وبصورة خاصة المؤمنين الصادقين ـ إعادة التوازن إلى نفوس أبناء الأمة، ولا يكون لهم ذلك إلاّ بعدة أمور أهمها: أن يُرجعوا التفكير إلى محوره حتى يصير لدى الفرد المسلم تفكيرٌ سليمٌ في مختلف قضاياه، وأن يعيدوا إليه العاطفة التي فطره الله ـ تعالى ـ عليها، فيتبّعَ الدينَ الحق كما يأمره الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ بذلك، وأن يغرسوا في نفسه معاني الأخوة الإسلامية، مع التوكيد على صدقية المذهب الذي يعتنقه ـ ولا سيما المذاهب الإسلامية الخمسة المعروفة ـ وأنه ليس في أيِّ مذهب من هذه المذاهب ـ بل وليس من الإسلام في شيء ـ ما يجيز له كراهية أخٍ له في الإسلام، أو يجيز له ـ وهذا أهم ـ تكفير أخٍ له في الإسلام بسبب المذهب، أو العرق أو الجنس، أو بسبب أي شيءٍ يمكن أنْ يفرّق المسلمين عن بعضهم، فالله تعالى أمرنا جميعاً، نحن المسلمين، أن نعتصم بحبل الله ولا نتفرق، بقوله المبين: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

ورسولُ الله ﷺ قد أرسى لنا قاعدة ثابتة ودائمة في التضامن ووحدة الكلمة والصف، وهي الإخوة الإسلامية، وذلك منذ ظهور الدعوة في مكة المكرّمة بين المسلمين الأوائل.. وكرّس هذه الأخوة، بعد الهجرة، بين المهاجرين والأنصار، ثم هدانا إلى أهمية هذه الإخوة الإسلامية بأحاديثه الشريفة، عندما نسمعه ﷺ يقول: «ودُّ المؤمنِ للمؤمنِ مِنْ أعظم شِعَبِ الإيمان»(١)، وعندما يقول ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالمرآةِ إذا وَجَدَ فيه عيباً نبَّههُ إليه»(٢)، وعندما يقول ﷺ: «سبابُ المؤمنِ فُسوقٌ وقتالُهُ كُفرٌ»(٣)، وعندما يقول ﷺ: «عليكَ بالجماعةِ فإنَّ الذئبَ يَأْخُذُ الشاةَ القاصِيَة»(٤).. فهل أحد من المسلمين يريد ـ لا سمح الله ـ أنْ يخالف الله تعالى عندما يأمرنا بأن نعتصم ونوحّد كلمتنا أو أن يخالف الرسولَ الأكرم فلا يَوَدَّ أخاه المسلم؟. أبداً لا أحد من المسلمين يريدُ أن يكون ـ لا سمحَ الله ـ فاسقاً أو كافراً، إلاَّ إذا حاول أنْ يفتعل ما يسبب الفرقة بين المسلمين أو يكفّر أحداً منهم!! فباء يومئذ بغضب من الله ورسوله؟!...

إذاً المسلم يجب أن يوازنَ بين التفكير والعاطفة، فلا يجعل أحدهما يطغى على الآخر بل يجعل العاطفة تسير مع العقل ولا تنفصل عنه، وذلك من شأنه أن يزيلَ الضرَرَ عن المسلمين الذين استغرقوا في التفكير إلى حدّ التقديس للعقل، وإعادتهم إلى التفكير الصحيح، أي إنَّ إزالة الضرر عن التفكير تُعيدُهُ لأنْ يكون تفكيراً عادياً ـ وليس

(١) أحمد بن حنبل، جزء ٣ ص٢٣١.
(٢) سنن أبي داود، باب الأدب، رقم ٤٥.
(٣) ابن ماجة، المقدمة.
(٤) البخاري، باب الاعتصام، ص٩.

تفكيراً استغراقياً ـ بحيث يسرع حين يحتاج إلى السرعة، ويبطئ حين يستدعي الإبطاء، إذْ من مزايا التفكير البطيء أنَّه يبيّن خوافي الأشياء ويفيد في مواجهة كثيرٍ من الظروف والأوضاع، ومع ذلك يجب ألاَّ نُبطئ في التفكير حول كل مسألة وكل شأنٍ، وكلِّ أمرٍ، وأن نلجأَ إلى التفكير الذي يريدُ أنْ يُفسلفَ كلَّ شيء، لأنه حينئذٍ يعقد كل شيءٍ، ولا يجلب إلاَّ الأذى!.

وفي مطلق الأحوال إنَّ معالجة مشكلة التفكير عند المسلمين لا تكون بالشرع والبيان، ولا بالخطب والمؤلفات، بل بالكلام المحدود الذي يحمل معاني النهضة، ويتضمن الأعمال المترجمة لهذه المعاني، وهذه هي المعاناة.. فالمعاناة أقوال محدودة وأعمال مشهودة.

وعلينا أن نميّز، أثناء معالجة التفكير، بين سرعة الإدراك وسرعة الملاحظة، فسرعة الإدراك هي الحكم السريع للقصد، ولا يتأتّى هذا إلاَّ بالربط. وعندما يأتي من الإدراك السريع فهمُ قصد المتكلم دون الربط يكون عند ذلك سرعة ملاحظة.

علاوة على أن معرفةَ القصد، من غير العقيدة، وما ينجمُ أو ينبثقُ منها تبقى معرفة ناقصة، لأنها تؤخذُ من واقع الحال، أو من أشياء أخرى. وهذه قد تكون صحيحة الاستنتاج وقد لا تكون، لأنها خالية من الربط بين ما يجمع من عقيدةٍ بين الأفراد.. فمعرفة قصد المتكلم إذن لا تتأتى من سرعة الملاحظة فقط، لأنها تبقى معرفة ناقصة، بل تتأتى من الربط على أساس العقيدة.

والخلاصةُ أَنَّ إدراكَ الواقع وحده يعطي سرعةَ الملاحظة، ولكن

ربطَه بالعقيدة هو الذي يعطي سرعة الإدراك. لذلك لا بد من أمرين اثنين: أحدهما سرعة إدراك الواقع، وتكون في سرعة الملاحظة، وهذا عام يكون في الأمة ويكون في الفرد. وثانيهما ربط هذا الواقع بالعقيدة وما ينبثقُ منها، وهذا خاص بالأمة، وينتج من سرعة الإدراك. فسرعة الإدراك ضروريةٌ لمعرفةِ حال المسلمين. وهذا يعرفُ من أفعالهم وأقوالهم.

لذا يجب أن يكونَ الرأيُ رأياً إسلامياً أولاً وقبل كل شيء، ورأياً سياسياً بعد ذلك، ثم إنجاز سرعة الإدراك. فسرعةُ الإدراك ضرورية ولكن على أساس الإسلام. وتكون على أساس العقيدة مع غير المسلمين، وعلى أساس الحكم الشرعي مع المسلمين. وإذا كان غير ذلك فلا نُشغل أنفسنا به، سواء كانت سرعة الملاحظة، أو سرعة الإدراك. إذن: لا يكون التفكير تفكيراً ولا العمل عملاً، إلاَّ على أساس الإسلام، لأنَّ الإسلامَ هو وحده الذي يجعل قلب الإنسان يطمئن إلى حاضره، ونفسه ترتاح إلى غده، ولأَنه يتفق مع فطرةِ الإنسان التي فطرهُ الله تعالى عليها. وبه يتحققَ السلام ليس للمسلمين وحدهم، بل وللجماعات البشرية بأسرها..

البحث الثاني

الاستقراء - الاستدلال - المعرفة

تمتاز ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها بمبانيها ومعانيها، فاللفظة قد يكون لها معنىً ظاهر هو ما نفهمه من ظاهر القول، وقد يكون لها معنى آخر، هو المقصود، ولكن لا يفهم إلاَّ إذا وضعت في جملة أو في نصٍّ يشكِّل سياقَ الكلام. . والنصوص قد تحتاج إلى تفسير أو قد يتناولها التفنيد. وفي كلٍّ من التفسير، أو التفنيد لا بد من استخراج الفكرة التي يتوخَّاها أو يتقصَّدها الباحث أو العالم، وإقامة الدليل أو البرهان الذي يؤيد الطريقة التي اعتمدها في البحث، كالاستقراء والاستدلال. وسوف نحاول توضيح كلٍّ من هذه المفاهيم بصورة مبسّطة وسريعة.

اللفظ والمعنى

ـ اللفظ في اللغة هو مصدر لَفَظَ، ومعنى لفظ: رَمَى. تقول: لفظَ الشيءَ من فمه: رَمَى به. واللفظ في الاصطلاح: هو صوت أو عدة أصوات ذات مقاطع تعبر عمَّا يدور في النفس. وهو إما أن يكون مفرداً وإما أن يكون مركباً.

ـ أما المعنى فهو الصورة الذهنية التي تظهر في اللفظ، وتدل على ما يُقصد بالشيء، أو على ما يدل عليه القول أو الرمز أو الإشارة. ومنه دلالة اللفظ على المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي، أو دلالة القول على فكرة المتكلم، ومنه دلالة الإشارات المنصوبة على اتجاه السير أو على أمكنة معينة. ومنه أيضاً دلالة السكوت على الإقرار، أو دلالة الابتهاج على الانتصار أو النجاح.

التفسير والسياق والتفنيد

ـ التفسير هو الكشف والإظهار، بمعنى أن يكون في الكلام أو في النص بعض اللّبْسِ أو الخفاء فيؤتى بما يزيله أو يوضِّحه، تقول: فسَّرت الكلمةَ، وفسَّرت النصَّ، وفسَّرت المسألةَ أي أوضحت دلالاتها ومطالبها. والفرق بين التفسير والتأويل أنَّ التفسير يكون أكثر استعمالاً في الألفاظ ومفرداتها، أمّا التأويل فيكون أكثر استعمالاً في المعاني للتوفيق بين ظاهر النص وباطنه.

ـ وسياق الكلام، هو أسلوبه ومجراه. تقول وقَعَت هذه العبارة في سياق الكلام، أي جاءت متفقة مع مجمل النص.

وللتقيد بسياق الكلام في تفسير النصوص وتأويلها فائدة منهجية، لأنَّ معنى العبارة يختلف باختلاف مجرى الكلام، فإذا شئت أن تُفَسِّر عبارة من نصٍّ، وجب أن تفسرها بحسب موقعها في سياق ذلك النص.

وسياق الحوادث: مجراها، وتسلسلها، وارتباطها بعضها ببعض، فإذا جاء الحادث متفقاً مع الظروف المحيطة به كان واقعاً في سياق تلك الظروف، وإذا جاء مختلفاً عنها، وجب البحث عن علَّةِ

هذا الاختلاف. نقول سياق المرض، وسياق الظواهر النفسية، وسياق الأمراض المجتمعية.

ـ وأما التفنيد فهو النظر في الرأي لرده وإبطاله أو الاعتراض عليه. تقول: فنّد رأيَ فلانٍ، أي أضعفَهُ وأبطلَهُ. وموقف المعترض على الرأي أو الفعل هو الذي يكون فيه إثارة للصعوبات والمشكلات، على حين أن موقف المفنِّد إنما يكون موقف المدّعي المنكر.

الاستقراء

الاستقراء في اللغة العربية هو التتبّع، فمن استقرأ الأمر تتبّعه لمعرفة أحواله.

والاستقراء عند أهل المنطق هو الحكم على الكلي لثبوت هذا الحكم في الجزئي. ومثاله أنَّ كل الأجسام تسقط نحو مركز الأرض، فالورقة، والحجر، ونقطة الماء، هي من الأجسام أو الأشياء، فهي إذن تسقط نحو مركز الأرض.

ولذلك فإنَّ الاستقراء يستند إلى ظواهر قائمة وموجودة تؤدي ملاحظتها ومراقبة حركاتها إلى استخلاص قوانين عامة بشأنها. ويكون كل قانون متعلقاً بنوع واحد من الظواهر، مثل القانون الذي يحكم ظواهر سقوط الأجسام، والقانون الذي يحكم ظواهر انعكاس الضوء وانكساره. وعلى هذا يقال إنَّ الاستقراء هو الاستدلال الذي ينتقل من الظواهر إلى القوانين.

أما الاستنباط فهو الاستخراج، أي إنَّ كلَّ ما يُستخرج، وتقع عليه رؤية العين، أو تطاله معرفة الفكر يقال قد استنبط. ومنه النبط أي الماء الذي يستخرج من البئر في أول الحفر.

ولكن حين يكون الاستخراج لحقيقةٍ معينة، فلا بُدَّ من إقامة الأدلة والبراهين التي تؤكدها وتثبتها.. وغالباً ما يتبع العلماء هذه الطريقة في تقديم البراهين والأدلة الثبوتية لاستخراج القانون العام الذي يحكم ظاهرةً معينة من الظواهر. وإذا كان من شأن العلم الوصول إلى نتائج نهائية في بعض المجالات التي يبحث فيها، إلاَّ أنه في الغالب لا يتوصل إلاَّ إلى نظريات قد يطرأ عليها التغيير والتبدّل بطريقة كلية، ما يجعل النظريات لا يعوّل عليها بصورة قطعية، بينما يعوّل دائماً على البرهان الذي يكشف عن الحقيقة الكاملة. ولذلك يقال عن البرهان بأنَّه الحجة البيّنة الفاصلة ويأتي مِنْ: بَرْهَنَ أي بَيَّنَ، وبرهَنَ عليه أي أقام الحجة عليه. فالبرهان إذن هو بيان للحجة، وهو أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة. يقول الله تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]. وفي الأثر: «الصدق برهان».

أما عند الأصوليين فالبرهان هو ما فُصل به بين الحق والباطل، وميّز الصحيح من الفاسد بالبيان الذي يتضمَّنه.

الاستدلال

الاستدلال في اللغة العربية: هو طلب الدليل أو إقامة الدليل.

وفي عرف الأصوليين والمتكلمين: هو النظر في الدليل، سواء كان استدلالاً بالعلة على المعلول، أو بالمعلول على العلة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

والأولى أن يطلق الاستدلال على إقامة الدليل لا على النظر في الدليل، لأن الدليل قول مؤلَّف من أقوال يلزم من ترابطها قول آخر يدل على نتيجة.

والاستدلال عند علماء أهل المنطق هو تسلسل عدة أحكام مترتب بعضها على بعض، بحيث يكون الأخير منها متوقفاً على الأول اضطراراً، فكل استدلال إذن هو انتقال من حكم إلى آخر. لا بل هو فعل ذهني مؤلف من أحكام متتابعة إذا وضعت لزم عنها بذاتها حكم آخر غيرها. وهذا الحكم الأخير لا يكون صادقاً إلا إذا كانت مقدماته صادقة. والمثال على ذلك أنَّ كل طائر يطير، وكل عصفور يطير، فالعصفور طائر.

لذلك كان كلٌّ من علم المنطق وعلم النفس يبحث في الاستدلال. إلا أنَّ رجل المنطق ينظر إلى الاستدلال على أنه مؤلف من عدة قضايا مرتبطة ببعضها بصورة ضرورية ومتلازمة، ما يجعله يرتب هذه القضايا، ويبين أنواع الأدلة عليها وقيمة هذه الأدلة من حيث صحتها وخطئها، أو قيمة الاستدلالات المنتجة والاستدلالات غير المنتجة. في حين أنَّ العالم النفسي يبحث في الاستدلال على أنه فعل ذهني واقعي دون أنْ يتدخل في معرفة صحته أو فساده. ولذلك تختلف قيمة الحجج العقلية في نظر رجل المنطق من حيث قربها من الصواب أو بعدها عنه، بينما تبقى قيمتها في نظر العالم النفساني واحدة، لأنه إنما ينظر في حركة الذهن، وكيفية تكوين الحجج العقلية ونشوئها، لا في صحتها وفسادها.

المعرفة

المعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره. وهي أخصُّ من العلم. يقال: فلانٌ يعرِفُ الله، ولا يقال: يعلمُ الله، إذ إنّ معرفة البشر لله تعالى هي بتدبُّر آثار نعمه دون إدراك ذاته. ويقال: الله تعالى يعلمُ، ولا يقال: الله تعالى يعرف، إذ إنّ المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصَّل به عن طريق التفكر والتدبر. وأصله من عرفْتُ، أي أصبْتُ عَرْفَهُ (والعَرْف: الرائحة الطيبة). وعرَّفه: جعل له عَرْفاً أي ريحاً طيباً، كما جَعَلَ الله ـ تعالى ـ للجنة، في قولِهِ الكريم: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1] أي طيّبها وزيّنها؛ للذين قُتِلوا في سبيلِهِ عزَّ وجلَّ، وعرَّفها لهم بأوصافها مع تشويقهم وهديهم إليها.

لهذا وللأسباب الأخرى ـ التي ذكرناها في مقدمة هذا الكتاب، أو عند بحثنا في الطريقة العلمية والطريقة العقلية ـ نقول: «النفس تعرف» ولا تقول «النفس تعلم»، لأنَّ النفس عندما تعرف، إنَّما يعني أنّها تدركُ الأشياءَ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لآثارها.

ويضاد المعرفةَ الإنكارُ، كما يُضادُّ العلمَ الجهلُ. يقول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[2]، مع أنَّ نعمة الله تعالى على العباد لا تقبل النكران، فكيف إذا كانوا يعرفونها ثم ينكرونها؟!

والمعرفة من خصائص الإنسان بما يتمتع من مواهب خصَّه خالقه بها، فكان عليه أن يتّخذ له في الحياة عقيدة يؤمن بها، لأنَّ العقيدة ـ وحدَها ـ هي التي تحدد مفاهيمه، وتؤثر على نمط حياته،

---

(١) سورة محمد، الآية: ٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٣.

سواء في التفكير أو في الفعل والسلوك، وإلاَّ عاش هذا المخلوق البشري ـ بلا عقيدة ـ حياةً أقرب إلى المادية المحدودة. .

على أنه، ومهما كانت عقلية الإنسان ـ أو نشاطه الذهني ـ فهو يتأثر بأفكار الآخرين، كما يتعلّم في سعيه لمعرفة ما حوله، بل ومعرفة ما أبعد ممّا حوله، ولا سيما في أيامنا هذه، حيث أصبحت وسائل الاطلاع والمعرفة متاحة للجميع بيسرٍ وسهولةٍ، فتتكوَّن لديه نتيجة لذلك كله، معلومات ومفاهيم معينة عن منشأه ومعاده، وعن غاية وجوده في هذه الحياة، وعن الطبيعة والكون إجمالاً. . أي تتكوَّن لديه قاعدة للتفكير والسلوك بما ينسجم مع نفسيته. . وكثيراً ما يوحي له عقله، من جراء الاطلاع والمعرفة، وتحت تأثير العوامل المجتمعية التي يعيش في ظلها، بأن ينشئ من الأفكار والمفاهيم ما يثبت عقيدته، أو ما يجعله يبدّل هذه العقيدة، لأنَّ هنالك شيئاً هاماً في حياة الإنسان، وهو أنَّ نفسَهُ ـ أو النفس البشرية ـ لا تستطيع أن تبقى مجرَّدة عن الاعتقاد. .

ومن الثابت في حياة الناس أنَّ كثيراً منهم لا يحضرهم التصوّر. ولا يفكرون في القيم والمثل العالية، ولا تجذبهم الغايات البعيدة، كأنَّ في آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة، فلا يميلون إلى التفكير في الأشياء الهامة ـ كما تعارف عليها الناس ـ ولا يتأثرون بما يحصل من الأحداث، كما لا يستحثّهم ما يصدر من علوم وأبحاث، وآداب وفنون. . وهذا ما يجعلهم ينصرفون إلى الحياة المادية البحتة، حتى لكأنَّهم أعداءٌ للمعرفة!. . فمثل هؤلاء الناس يكونون مصابين ـ إلى حدّ ما ـ بالجمود الفكري، والركود العاطفي ـ إذا جاز التعبير ـ فينطبق

عليهم قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1]، أي كأنَّ حالَ أكثر الناس اليوم مثلُ حالِ مَنْ كانوا يحادُّونَ رسول الله ﷺ، إذْ يدعوهم إلى الهدى فلا يجيبون، لأنَّ مقولتهم: قلوبُنا مُغْلَقَةٌ في أغطية تحولُ دون نفاذِ دعوتك إليها، وفي آذاننا ثقلٌ فلا نتدبّر ما نسمعُ منك، وبيننا وبين الحق الذي تدعونا إليه حجاب يستر عنَّا معرفته، فنحن بغُنْيَةٍ بما عندنا، فلا نؤمن لك أبداً!.. فكأنَّ موقفَهم إعراضٌ عن المعرفة التي يجب على الناس، وعلى المرء بالذات أنْ يطرق شتى أبوابها حتى يرتقي في مضمار الحياة البشرية والإنسانية ـ وعلى خلاف هؤلاء الناس الذين لا يُغريهم حبُّ المعرفة بشيء، نجد أنَّ في طبع الإنسان ميلاً شديداً للمعرفة، كما عليه حياة أكثر الناس، فإذا ما دار الحديث، مثلاً، عن حقيقة وجود الله تعالى، أو حول الأمور الماورائية (الغيبية) أو حول النفس البشرية، نرى الحضورَ تشرئبُّ أعناقُهم، وتتطاول آذانُهم لسماع الحديث، وذلك لأنَّ في دخيلة كلٍّ منهم دافعاً لكي يتلقَّفَ الفكر الجديد الذي يُعرض عليه، والوقوف على معانيه ومقاصده، وربما معرفة بعض أسراره، مما لم يُحط به علماً من قبل!.. وعلى ذلك، فإنَّ أبعد نظريات ما وراء الطبيعة تصل تلقائياً ـ وبدرجات متفاوتة ـ إلى آذان العامة فتحفظها، وتجعلها نوعاً من تراثها الفكري، كما نجد في الأغاني والأهازيج لدى الشعوب التي يتردَّد على ألسنتها شيء من الأفكار الفلسفية التي تشير إلى معاني الحياة والموت، أو الخلود

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥.

والفناء، أو السعادة والشقاء، أو تشير إلى مفاهيمها عن الخير والشر، والخصب والجدبْ، والفروسية، وحب المغامرة.. وما إلى ذلك من الأفكار ـ فلسفية أو غير فلسفية ـ التي جرى تناقلها عبر الأجيال، بسبب اهتمام البشر بها، وانجذاب النفوس إليها، وإلى ما يرتسم حولها من المعاني التي تشكل ما يسمى بـ«المعرفة الفلسفية» لدى الناس، حتى ولو كانت تلك المعاني غامضة بالنسبة إلى أكثرهم، أو لا تستند إلى أحداث أو وقائع حصلت فعلاً، إلاَّ أنها كوَّنت، مع الزمن، ذهنية معينة لدى هذا الشعب أو ذاك، فجعلها من المعاني المجردة التي شكلت جزءاً من بناء أنماطه الفكرية، بمعنى أنَّ هنالك من القيم ما قد يكون له مواقعُ في النفوس قد تغلب على الأشياء المادية، فمثلاً قد تهمُّ المالكَ معرفة نوعية آراء المستأجر بقدر ما يهمه معرفة إيراده أو دخله؛ وقد تهمُّ القائدَ معرفة فلسفة العدو في ساحة الحرب أكثر من معرفة عدده وعدّته.. على أنَّ مثل تلك الأنماط الفكرية، وإن مازجها نوع من المعاني الفلسفية في الحياة العامة، فإنها تبقى أبعدَ من أنْ تجمع التأمّل الفلسفي كله، لأنها لا تعدو أنْ تكون ـ في حقيقتها ـ درجةً محدودةً في التفكير، إلاَّ أنَّ شيوعها وإلمام غالبية الناس بها، جعلها تشكل نوعاً من «المعرفة العامة» لهذا الشعب، أو ذاك..

من هنا جرى تقسيم المعرفة إلى ثلاثة أنواع: المعرفة العامية، والمعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية، مع الإشارة إلى أنه لا يمكن فهم المعرفة الفلسفية على حقيقتها إلاَّ إذا نسبت إلى المعرفة العامية تارةً، أو إلى المعرفة العلمية تارةً أخرى..

١ ـ المعرفة العامية

وهي ما تسمى أيضاً بـ«المعرفة العفوية»، والتي تتكون عادةً من أفكار وأحكام واستدلالات تكتسب من تجاربنا الفردية والجماعية، فنطبقها على حياتنا العملية في الحياة بصور مختلفة.

ولتقريب هذه الفكرة إلى الأذهان، نقول بأنّه لو نظرنا إلى الطبيعة من حولنا، دونما تفكير أو تأمّل، فإنَّ حواسنا ترى كثيراً من الموجودات المختلفة: كائناتٍ حيةً وبحاراً، وجبالاً، ونباتاً، وأنهاراً، ومدناً، وقرىً إلخ. . . فهذه كلها بالنسبة إلى حواسنا مجموعات من الأعراض والكيفيات المختلفة الأشكال والصور والألوان، والأصوات والحركات. . التي عندما ينظر إليها الإنسان العادي لا توحي له بأشياء ذات أهمية. في حين أنَّ نظرة عالمٍ إليها تثير في نفسه النُّظُمَ التي تسيرُ عليها، والقوانينَ العلمية التي تحكّمها، وسننَ الله تعالى التي أنشأتها وسيَّرتها بهذه الدقة والانتظام. .

فالمعرفة العامية شبيهة بتلك النظرة الأولى التي نلقيها على الطبيعة. . لأنَّ النظرة الأولى لا تتوخّى التعليل وإِعمال الفكر، ولذلك تبقى الطبيعة من خلالها مجرد موجودات مركبة، متشابكة، نُتابعها بصورة تلقائية، ما يعني أنَّ المعرفة العامية مبنية على استقراء ناقص وتحليل غامض. فهي معرفة كيفية، تكتفي بذكر خواص الأشياء من غير أن تنفذ إلى التحليل والمقابلة والاستنتاج. وهي أيضاً جزئية لا تستطيع أن تجمع الحوادث بعضها إلى بعض، فلا تتوقف عند تقارب الحالات أو تعارضها، ولا تقارن بين طفو الخشب على وجه الماء وغرق الحجر فيه، بل تشاهد كل حدث بمفرده، من غير أن تجمعه

إلى غيره وتؤلف منها نظاماً خاصاً. فهي إذن معرفة إمكانيات، لا يوجد عنصر ضرورة في مفاهيمها، ولا تقيد في أحكامها، ولا يقين في نتائجها، ولا تؤثر عادة فيما حولها إلا بقدر محدود، لأنها معرفة عملية تهتم بالنتائج القريبة.

وقصارى القول أنَّ المعرفةَ العامية هي معرفةٌ ذاتية، مؤلفة من آراء وقتية، وأحكام فردية، وقد لا تخلو من التخيلات والأوهام. وهي ليست علماً بالمعنى المقصود بالعلم، لأنها تقتصر على الحوادث الجزئية، والعلم لا يكون إلا بالكليات.

٢ ـ المعرفة العلمية:

قد يطلب الإنسان العلم لذاته، أو قد يطلبه لنتائجه العملية أو الفنية. فإنْ طلبه لذاته كان محباً للحقيقة، وإنْ طلبه لنتائجه العملية كان ميالاً إلى الخير والعمل الصالح، وإنْ طلبه لنتائجه الفنية كان ميالاً فقط إلى تذوق الجمال، لأنَّ في اكتشاف الحقيقة ـ عادةً ـ جمالاً ولذةً وقوةً. وهذا ما يميز المعرفة العلمية عن المعرفة العامية، ويجعلها أرقى منها. فالرجل العادي يشاهد بعينه سقوط الأجسام فلا يعرف أسباب هذا السقوط. أما العالم فيبين لنا كيفية سقوطها وفقاً لنظام ثابت، فالعلم إذن هو البحث لاكتشاف القوانين الطبيعية..

ويمكن أن نمثل على القوانين الطبيعية من خلال الطبيعة أيضاً، إذْ لو ألقينا على الطبيعة من حولنا مجردَ نظرة سطحية، من غير أن نتعمق في إدراك ماهية أو حقيقة كل موجودٍ من موجوداتها، لرأينا أنَّ هذه الموجودات كثيرة الاختلاف والتباين: فلا نجد مثلاً على شجرة واحدة ورقتين متساويتين، ولا في حقل قمحٍ سنبلتين متماثلتين، حتى

إننا لنجد الورقة الواحدة تتغير من وقت إلى آخر. . ولكننا إذا تعمقنا في دراسة هذه الظواهر المتغيرة (من الورقة إلى السنبلة، إلى تكوين الشجرة أو النبتة أو أي شيء آخر) وجدنا أنَّ هنالك عناصرَ ثابتة وراء الظواهر المتغيرة، ومن ذلك أنَّ الورقة على الشجرة إنما تتغيّر من وقت إلى آخر بتأثير ما خلق الله ـ تعالى ـ فيها من تفاعلات كيمياوية. . وكذلك نجد أنَّ في أوراق الشجر صفاتٍ واحدة مشتركة يمكن تحديدها، وأن التبادل الكيميائي في الأوراق يخضع لقوانين ثابتة. وهذه القوانين التي يدرسها العلماء، ويستنبطون منها العناصر العامة لتكوين أوراق الأشجار هي ما يسمى بالقوانين الطبيعية، ما يجعل القانونَ الطبيعي عبارة عن علاقة ثابتة وضرورية بين ظاهرتين طبيعيتين. أما القوانين العلمية فتختلف باختلاف الظواهر التي تبحث فيها، فعلم الفلك مثلاً يبحث في الأجرام السماوية وحركاتها، وعلم الفيزياء يبحث في توازن الأجسام، والضوء والكهرباء والحرارة، وعلم الكيمياء يبحث في المعادن والأجسام العضوية وتفاعلها فيما بينها. .

قال لاشيليه: «القانون الطبيعي هو رد الجزئي إلى الكلي، والمركب إلى البسيط، والممكن إلى الضروري».

ويعطي العالم لويس ليارد المثال التالي:

«ألقي حجراً من بين أصابعي فيسقط، وأترك أيضاً قطعة من المعدن أو الخشب فتسقطان، وأقلب إناءً مملوءاً ماءً فيسيل منه، وتسقط كتلة من الرصاص وكرة من الخشب بسرعتين متباينتين في الهواء، وبسرعة واحدة في الفراغ. والخط الذي يتم فيه سقوط هذه الأجسام يكون عمودياً فوق سطح الماء الراكد، سواء كان ذلك في

القطب، أو في خط الاستواء، أو ما بينهما. وإذا مُدَّ خط السقوط صادف مركز الأرض.. فهذه هي الظواهر. أما القانون في هذا المثال فهو: كل الأجسام تسقط نحو مركز الأرض بسرعة تزداد بصورة متناسبة مع الزمان الذي مضى منذ بدء السقوط».

ولكي يتحقق القانون العلمي، يجب أن تتوافر في الأشياء التي يجري البحث فيها الشروط التالية:

أ ـ تناول المعاني الكلية

من المتعارف عليه أنَّ المعاني التي تتناولها العلوم هي معانٍ كلية، وما يجري مجراها، ويدخل في حكمها، لأنَّ العلم لا يكون بالشيء الجزئي. فقد نستطيع أن نصف شيئاً بمفرده، ونعلل الأسباب، إلا أن هذا الوصف وهذا التعليل لا يبلغان غاية العلم إلا إذا كانت الأسباب عامة، تنطبق على الجزئيات الأخرى. ففي المثال السابق عن سقوط الأجسام هنالك خاصة مشتركة بين جميع الأجسام وهي خاصة السقوط نحو مركز الأرض، إذْ لو أجرينا التجربة على أجسام كثيرة، وفي أماكن مختلفة، لرأينا أنَّ النتيجة لا تختلف بالنسبة إلى الأجسام، ولا إلى الموقع الجغرافي، أو الارتفاع عن سطح البحر، بل الأجسام كلها تسقط سواء في القطب، أو في خط الاستواء، وسواء في الهواء كما في الفراغ.. من أجل ذلك كانت خاصيَّةُ السقوط هي قاعدة كلية عامة لجميع الأجسام.

ب ـ إرجاع المركب إلى البسيط

إنَّ الظواهر الطبيعية كثيرةُ العناصر، ومتشابكة بعضها ببعض، وتخضع لشروط كثيرة. فلو أخذنا سقوط تفاحة مثلاً كظاهرة طبيعية،

لوجدنا أن حادثة السقوط هذه مركبة من عدة عوامل مثل مقاومة الهواء، والرطوبة، والموجات الكهربائية أو المغناطيسية الموجودة في الجو، والارتفاع عن سطح البحر، ومكان السقوط، وكثافة الجسم الساقط. . ففي قانون سقوط الأجسام ـ الذي اتخذناه مثلاً في بحث المعرفة العلمية ـ يجري تحليل كل حادثة جزئية بمفردها، لكي يُستخلص من تحليلها الاقتصارُ على عامل واحد بسيط يكون مشتركاً بين جميع الحوادث الجزئية. وعلى ذلك فالعلم يرجع الحوادث المركبة إلى عناصرها البسيطة المجردة، حتى قيل: «العلم تعليل الظاهر المركب بالخفي البسيط».

ج ـ رد الممكن إلى الضروري

وهذه الصفة أساسية في العلم؛ فالقوانين العلمية ضرورية، ويجب أنْ تخضع لصيغة الثبات والاستمرار. نعم إنَّ الناظر إلى الطبيعة قد يظن، لأول وهلةٍ، أنَّها بنتُ المصادفة العمياء، ولكن البحث والتعمق يكشفان له عن نظام ثابت تخضع له الحوادث الطبيعية بالضرورة، لأنَّ العلم لا يؤمن بالمصادفة العمياء، ولا بالفلتة العابرة، ولا بالاتفاق العابر، ولا بالشذوذ المنحرف، بل يقول إنَّ الحوادث يجب أنْ تخضع لنظام ضروري ثابت. وعلى ذلك فإنني إذا عرفت قانون السقوط طبقته على الأجسام وقررت سقوطها وفقاً له، لأن وجود العلة يستتبع حدوث المعلول. . إذ في مثال الحجر الذي نتركه يسقط إلى الأرض، فالتصور ـ قبل معرفة القانون العلمي للسقوط ـ يمكن أنْ يتجه إلى عدة احتمالات، منها احتمال أنْ يبقى الحجر معلقاً في الهواء، أو أنْ يرسم في سقوطه هذا المنحنى أو ذاك، أو أنْ يسقط

بسرعة متزايدة، أو بسرعة متناقصة. . أما بعد معرفة قانون السقوط، فإنَّ هذه الحادثة (سقوط الحجر) وظروفها المختلفة تظهر ضرورية، ويمتنع الفكر عن تصورٍ مختلفٍ عما وقع. فإذا وقع حادث تبعاً لقانون معروف، فحدوثه ضروري بالنسبة إلى هذا القانون.

وعلى ذلك يرى العلم أنَّ بين طبائع الأشياء علاقات كلية ضرورية وثابتة. وهذه الضرورة يسميها العلماء بالحتمية. فالعلم إذن هو ربط المجهول بالمعلوم. والمثال على هذا الربط هو أنك إذا رأيت سنابل الحقل تتحرك من بعيد، من غير أنْ تعرف سبباً لهذا التحرك، ثم يقول لك الفلاح إنَّ حيواناً قد مرَّ في طرف الحقل، فتقنع منه، فتكون حركة السنابل حادثة جديدة ومجهولة بالنسبة إليك، ولكنها ربطت بحادثة معينة معروفة وهي حركة الحيوان. وربط المجهول بالمعلوم، لا يكون إلا برد الجزئي إلى الكلي، وبإرجاع الكثرة إلى الوحدة. فنحن نربط حركة الآلة بتمدد البخار، والحرارة باحتراق المادة الملتهبة، وحدوث الصوت باهتزاز الهواء سواء كان صوت إنسان، أو هدير طائرة، أو حفيف أشجار، أو خرير مياه.

فالمعرفة العلمية تتوخى الكشف عن العلاقات الضرورية الموجودة بين طبائع الأشياء، وهي غاية نظرية بحتة، بخلاف المعرفة الصافية التي تتقيد بالنتائج العملية. والعالم الحقيقي يطلب العلم لذاته، لأنَّ الاشتغال بالنتائج العملية دون الحقائق النظرية يعوق العلم عن بلوغ أهدافه. ولا يتم للعالم ذلك إلا بتأليف المعاني، وتنسيقها، واستخراجها من مصادرها، وتنظيمها في قواعد أو قوانين عامة. وهذا كله من ثمرات العقل ونتاج السعي.

٣ ـ المعرفة الفلسفية

يُقال إنَّ أولَ من استعمل كلمة فلسفة في القديم كان الحكيم اليوناني فيثاغورس. فقد كان يقول: «الفلسفة هي محبة الحكمة». وهذا يعني بحسب اشتقاق الكلام، أنها مكونة من لفظتين: (فيلا) وهو حبٌ، و(سوفا) وهي الحكمة. ومن قول فيثاغورس أيضاً: «من الغرور أنْ يدّعي الإنسان الحكمة لنفسه لأنَّ اسم الحكيم لا يليق بإنسان قط بل يليق بالإله. وكفى بالإنسان شرفاً أن يكون محباً للحكمة، وساعياً وراءها».

وكان أفلاطون يقول: «الفلسفة هي العلم بالحقائق المطلقة المستترة تحت ظواهر الأشياء، وهي علم العالم المعقول، لأن الذي يقتصر على العالم المحسوس لا يدرك إلا ظل الحقيقة». ولا يختلف أرسطو في تعريفه للفلسفة عن أفلاطون إلاَّ قليلاً، إذ عرّفها بقوله: «هي العلم بالأسباب القصوى للأشياء أو علم الموجود بما هو موجود».

أما ابن سينا فكان يقول: «إن هذا العلم يبحث في الوجود المطلق، وينتهي في التفصيل إلى حيث تبتدئ منه سائر العلوم. وهو الحكمة التي هي أفضل علم بأفضل معلوم، أي بالله تعالى وبالأسباب من بعده. وهو أيضاً معرفة الأسباب القصوى للكل».

ويلاحظ من هذه التعريفات أنَّ القدماء لم يكونوا يفرقون بين العلم والفلسفة، إذْ كانت الفلسفة عندهم تدل على كل معرفة خالية من الغرض، لا يطلبها الفيلسوف إلا لذاتها، ولا يهمه ما تؤول إليه نتائجها العملية، فهي بذلك تلتقي مع العلم فتكوّن معه لديهم شيئاً واحداً.

وهذا ما ذهب إليه أصحاب المذاهب الوضعية الذين يعتبرون الفلسفة أنها علم العلوم، وإليها تنتهي كل الحقائق، وبها يكون اتصال العلوم بعضها. . والمعروف أنَّ الفلاسفة لم يبحثوا جميعهم في المسائل نفسها، بل كان كل فيلسوف يبحث في مسألةٍ، أو مسائل معينة، وغيره يبحث في غيرها. . وحتى عند بحث بعضهم في المسألة الواحدة، لم يكن كلٌ واحد يعيرها الدرجة نفسها من الاهتمام؛ فأبحاث ابن سينا في النفس، ليست على المستوى نفسه لأبحاث (برغسون) في الحدس، أو لمسألة المعقولات عند أفلاطون. .

وقد برهنت الأبحاث فيما بعد أنَّ العلوم شيء، والفلسفة شيء آخر، وإنْ كانت هناك علاقة ما بين الفلسفة والعلم، شأنها شأن أي نتاج فكري إنساني يستعين بالعلم إذا وجدت علاقة يمكن أن يربط بينهما من قريب أو بعيد. . فالباحث في اللغة يعتمد قواعد معينة تشكل في نظر الكثيرين قواعد علمية، وكذلك الأديب يأخذ بالبراهين العلمية ليعطي لأفكاره قوة معينة وهلُمَّ جرّاً. . . وقد كانت الفلسفة في نظر القدماء معرفةً أرقى من المعرفةِ العلمية، لأنَّ الفيلسوف يحتاج ـ كما قيل ـ «إلى ملكات عقلية لا يحتاج إليها أهل الكهف» وقد اعتمدوا هذا التعبير «أهل الكهف» للتدليل على أنَّ الفيلسوف ليس شبيهاً بأهل الكهف الذين يكتفون بالمعرفة الحسية، ويقتصرون على ظواهر الأشياء، ويجهلون عالم المثل الحقيقية. وإنما الفيلسوف هو رجل سامٍ لا يقتنع بالظواهر، بل يتوسل بعقله وبحدسه الخاصّ ـ الموهوبَيْن من الخالق العظيم ـ الاتصال المباشر بعالم المثل كما ذهب إليه أفلاطون، ومن ساروا على أثره بإقرار وجود الحدس الخاص، حتى لتجد القول به عند فلاسفة القرن التاسع عَشَر أمثال (فيخت) و(هيجل)

و(شوبنهاور) الذين زعموا أنَّ هذا الحدس ملكة خاصة بالفيلسوف، وهو ضروري للاتصال بالمطلق واللانهاية. .

وعلى ذلك فإنَّ الفلسفة تمتاز عن العلم بأنها تبحث في الكليات العالية حتى تصل على الرغم من أصحابها إلى إدراك الحقيقة والجوهر. ولذلك فرقوا بين الفسلفة والعلم بخاصتين هما:

١ ـ المعرفة الفلسفية تمتاز عند الفلاسفة بأنها عامة وكلية، أما العلم ومهما بلغت درجة عموميته فإنه يبقى في بعض نواحيه خاصاً. والفلسفة وحدها تملك قواعد كلية يمكن أنْ تتفرع عنها قوانين العلم، حتى لقد قال أفلاطون: «الفيلسوف يجمع كل شيء في نظرة واحدة».

٢ ـ الفلسفة تتوخى تعليل الأشياء تعليلاً أعمق وأكمل من تعليل العلم. بل وتعليلها مخالف لتعليل العلم، لأنها تبتغي به الوصول إلى الحقائق المطلقة.

والمثال التالي يمكن أن يوضح الخاصتين السابقتين: لنفرض أنَّ كلباً حاول الهجوم عليَّ، فأخذت حجراً ورميته به. فهذه الحادثة الصغيرة تتداخل فيها عدة قوانين علمية: الفيزيائي يهتم بالمنحنى الذي رسمه الحجر أثناء سقوطه، وبيان حركته وسرعته منذ بدء رميه وحتى سقوطه، وشدة الجاذبية، وتأثير الهواء عليه. والفيزيولوجي يهتم بما قامت به اليد عند إلقاء الحجر لناحية حركة العضلات، واتصالها بالمراكز العصبية المحركة، وكيفية صدور الفعل عنها. والنفساني أو السيكولوجي يبحث عن أسباب الخوف الذي داخلني، والذي ظهر باصفرار على

وجهي، فيعتبر أنَّ الخطر الذي دهمني هو الذي ولَّد الخوف لديَّ، وكان عليَّ إما الالتجاء إلى الهرب، أو الدفاع عن النفس. وفي فعل الدفاع هذا تشترك عدة أمور نفسية كالتذكر، وتداعي الأفكار، والخيال وغير ذلك.. هذا فيما يتعلق بالعلم.. أما فيما يعود إلى النواحي الفلسفية فإن الحادثة تبحث بوضوح أكثر وعلى درجة أعم وأعمق. فالبحث هنا يكون عن أسباب إدراك الخوف ونتائجه، والسعي لفهم حقيقة الأفعال النفسية وبيان تأثيرها في البدن. فالإدراك هو الذي ولد الخوف، والخوف هو الذي دفع إلى تنفيذ فعل إرادي.. إذن كيف تُحرّكُ الإرادةُ البدنَ، وكيف يكون اتصالُ الانفعالات النفسية بالحركات العضوية، وبعبارة أخرى ما هي علاقة النفس بالجسد؟.. كل ذلك ممّا تريد الفلسفة الوصول إليه، ساعية إلى توضيح هذه الأمور بصورة عامة وعميقة..

٣ ـ لا تقتصر الفلسفة على الأمور الحسية الظاهرة التي هي موضوع العلوم، بل تغوص في البحث عن الوجود والجوهر علّها تهتدي إلى الحقائق العميقة.. أي إنَّ العلوم تبحث في ظواهر الأشياء الحسية لمعرفة قوانينها، في حين أنَّ الفلسفة تريد إدراك الحقيقة المطلقة. فعلم الطبيعة يبحث في الضوء والصوت والحرارة. وعلم الكيمياء يبحث في خواص الأجسام وقوانين اتحادها. ولكن الفلسفة تريد أن تفهم ما هي حقيقة القوة والمادة. وإذا كان علم الأحياء يدرس ظواهر الهضم والتنفس والدورة الدموية مثلاً، فإنَّ الفلسفة تتوخى إدراك حقيقة الحياة. وإذا كان علم النفس يهتم بمعرفة تراكيب النفس من إدراك وذاكرة وعاطفة

وإرادة، فإنّ الفلسفة تريد إدراك جوهر النفس ومعرفة نوع ومدى التفاعل في داخلها. .

على أنَّ الاتجاه الذي يميل إلى اعتبار الفلسفة ذات صفات أعم وأشمل من العلوم يقابله اتجاه مضاد عند الوضعيين الذين يزعمون أن كل ما لا يتناوله العلم بالبحث لا يمكن الوصول فيه إلى حلٍّ نهائي، بل يبقى خليطاً من الحدس والظن لا يوصلان إلى معرفة صحيحة. ولكن هذا الزعم لا يستند إلى دليل، لأنَّ العلم نفسه لا يُكْتَسَبُ إلا بطرائق عقلية خاصة يستند إليها العلماء في البحث عن الحقيقة العلمية. وهم يتبعون هذه الطرق وفقاً لقواعد ومقاييس معيّنة من غير أن يسألوا: ما هي الحقيقة العلمية التي يتوخونها، وما هو معناها، مِنْ مِثْلِ ما قيمة الاستنتاج في المسائل البرهانية التي ينظر فيها الرياضيون؟ أو ما قيمة الاستقراء الذي يوصل العالم الطبيعي إلى التعميم؟ وما هو عمل العقل في هذه المسائل؟ بل ما هي قميته؟

ثم إنَّ النتائج التي يتوصل إليها العلم بين حين وحين، قد تؤدي إلى بطلان حقائق كانت تعتبر علمية حتى ثبت عدم دقتها أو بطلانها، فمثلاً كان العلماء يظنون أنَّ الأرض مسطحة أو ثابتة حتى جاء البرهان على أنها كروية، وتسبح في دورانها حول نفسها وحول الشمس، فظهر بذلك سخف الأحكام القديمة وفساد الاعتقادات التي كانت ترى في الأرض كوكباً ثابتاً. ومثال آخر وهو أن الألوان تنشأ عن اهتزازات تؤثر في شبكة العين، وهي تختلف باختلاف تلك الاهتزازات، فحقيقتها إذن بعيدة عن ظاهر ما يبدو منها لأعيننا، ما يجعل الشك يتسرب إلى عمل الحواس نفسها بالنسبة إلى العالم.

من أجل ذلك يذهب أنصار الفلسفة إلى القول بأنَّ العلم بقواعده وطرائقه ونتائجه عبارة عن نظريات وفرضيات خاضعة للبحث وقابلة للتغيير، وهو يرتبط بالفلسفة من نواحٍ معينة. في حين أنَّ الحقيقة على عكس ذلك، أي إنَّ الفلسفة تعتبر تابعة للعلم، حتى وإن كانت متقدمة عليه في ظهورها، وهذا ما دفع شوبنهاور لأنْ يقول: «الإنسان حيوان فيلسوف». ولكن تلك الفلسفة الأولى في حياة الإنسان كانت فلسفة عامية غامضة، تدفعه إليها حاجاته، ويستنبطها من تجاربه العملية والشخصية، وهي تبقى بدون قيمة إذا قيست بالفلسفة النظرية المستندة إلى العلم. ومن الحقّ القول بأنَّ العلوم غيَّرت كثيراً من مفاهيم الإنسان، وبدَّلت اعتقادات القدماء؛ فقد كانت فلسفة الأقدمين مملوءة بالخيالات والأساطير والأوهام، فاستبدلت اليوم بفلسفة عقلية مؤسسة على العلم والتجربة. . وكان القدماء يستسهلون تعليل الأشياء بنظريّات خيالية لا تؤيدها التجربة، فأصبح الإنسان في العصر الحديث لا يضع نظرية إلا بعد البحث والتمحيص، وبذلك تكون نظريته تابعة للتجربة، لا التجربة تابعة لنظريته.

البحث الثالث

الفلاسفة والمتكلمون

بعد البحث عن معاني المعرفة، ولا سيما الفوارق ما بين الفلسفة والعلم، لا بدَّ من إلقاء نظرةٍ عاجلةٍ تبين الفارقَ بين الفلاسفة والمتكلمين في الفكر الإسلامي... ولذلك نسارع إلى القول بأنَّ الفلاسفةَ يعتمدون على البراهينِ وحدها، ويؤلّفونَ البرهانَ تأليفاً منطقياً، من مقدّمة صغرى، وكبرى ونتيجةٍ، ويستعمِلونَ ألفاظاً واصطلاحات للأشياءِ: من جوهرٍ وعرضٍ ونحوهما، ويثيرونَ المشاكلَ العقليّةَ، ويبنُون عليها بناءً منطقيّاً لا بناءً حسيّاً أو واقعياً. أما منهجُ المتكلمين الإسلاميين في البحثِ فيُغايرُ ذلكَ، لأنَّ المُتكلّمينَ بنَوْا «علم الكلام» على الإيمان بالله ورسولِهِ، وصدَّقوا بالقرآن الذي نزل على قَلب الرسول ﷺ، فأرادوا أنْ يبرهنوا على ذلك بالأدلّةِ العقليّةِ المنطقيّةِ. وأخذوا يبحثونَ في حُدوثِ العالمِ، وإقامةِ الدليلِ على حدوثِ الأشياءِ، وثم راحوا يتوسّعونَ في البحث، ففُتِحَتْ أمامَهُمْ موضوعاتٌ جديدةٌ، ساروا في خوض غمارها والتمحيص فيما يتفرّعُ منها وصولاً إلى نهايةٍ منطقيّةٍ. فهم لم يبحثُوا في آيات القرآن

الكريم بمنهجِ الفلاسفةِ، وإنما آمنوا بها وأخذوا يُقيمونَ البراهينَ على ما يفهمونَهُ منها. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن المتكلمين في نظرتهم إلى الآيات المتشابهَةِ لمْ يأخذوها بصورة إجمالية من غيرِ تفصيلٍ، فجمعوا الآياتِ التي قالوا إنَّها تتعلّق بجسميَّةِ الله تعالى، وسلّطوا عليها عقولَهم ثم أقدموا على ما لم يجرؤ عليهِ غيرُهم، وأدّى بهم النظرُ في كلِّ مسألةٍ إلى رأيٍ بعينِهِ. وبعد ذلك عمدُوا إلى الآيات التي يَظْهَرُ أنها تُخالِفُ رأيهم فأوّلوها. ولذا كانَ التأويلُ ـ كما سمّوه ـ أوّلَ مظهرٍ منْ مظاهرِ أبحاث المتكلمينَ. فمثلاً حينَ أدّى بهمُ البحثُ إلى نفيِ الجهةِ عن الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ أعينَ الناسِ لا يمكِنُ أن تراهُ، أوَّلوا الأخبارَ الواردةَ في هذه الرؤية!. . وهكذا كانَ التأويلُ عنصراً من عناصر تفكير المتكلّمينَ، وأكبرَ مميّزٍ لهم عن السَّلفِ. وهذا المنهجُ بالذاتِ، مع إعطاءِ العقلِ حُريَّةَ البحثِ في كلِّ شيءٍ، يؤدّي حتماً إلى جعلِهِ الأساس للقرآنِ، لا جَعْل القرآنِ أساساً لهُ، ما جعل الجدل قائماً بينَ المسلمينَ مُنذُ أوائلِ القرنِ الثاني للهجرَةِ حتى يومنا هذا!. .

ولكنَّ هذا الجدل لم يكن متوافقاً والإسلامَ، الذي يحمل عقيدةً قويةً، صحيحةً صريحةً، عجزَ أمامها، لهيبتها الإلهية، العباقرة. . ولذلك كانت الدعوة إلى الإسلام، بكل ما يحمل من مقومات الحقِ، والخيرِ، والصلاحِ للإنسان، أبعدُ في حقيقتها عن آراء المتكلمين وكل المذاهب التي ظهرت في فكرهم. . فالإسلام هو دين الله ـ تعالى ـ والدعوة إليه هي الدعوة إلى الله الحق. . وهل بعد الحق إلا الضلال؟ ولذلك كان فرضاً على المسلمين أنْ يكون بينهم الدعاة الصادقون الذين يحملون الدعوة كما أمرَ الله ـ سبحانه ـ أنْ تُحملَ بقولهِ تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[3]. ولكنْ بديلاً من هذا السموِّ الذي ما بعده سمو كان ما كانَ، خلالَ العصور التي مرَّتْ، وما قامَ به بعضُ الجماعات الإسلامية، الذين تركوا الدعوة إلى الدين الحنيف كما خطَّتْ أسسها وتوجهاتِها الآياتُ القرآنية الجليلةُ، وعكفوا على الجدل البحت، حتى غلبَ عليهم حبُّ المجادَلَةِ، وهاموا في أوديةِ نظريةِ الفنّ للفنّ.

منهج المتكلمين في علم المنطق:

يستندُ علمُ المنطق إلى اقترانِ القضايا بعضِها ببعض. واقتران القضايا ببعضها يَجْري فيهِ تركيبُ المعقولاتِ على المعقولاتِ واستنتاجُ معقولاتٍ جديدة منها، ويجري فيهِ ترتيبُ المحسوسات على المحسوساتِ واستنتاجُ محسوساتٍ جديدة منها. أمّا ترتيبُ المعقولات على المعقولاتِ فإنّهُ يؤدّي إلى الانزلاقِ في الخطأ، ويُؤدي إلى التناقضِ في النتائجِ، ويُؤدّي إلى الاسترسالِ في سلاسلَ منَ القضايا والنتائجِ المعقولةِ، من حيثُ الغرضُ والتقديرُ، لا من حيثُ وجودُها في الواقع، حتى أنّ آخرَ الطريقِ في كثيرٍ من هذه القضايا أوهامٌ لا طائلَ تحتها. ومن هنا كانَ الاسْتِدلالُ بالقضايا التي يجري فيها ترتيبُ معقولاتٍ على معقولاتٍ عرضةً للانزلاقِ، فيُقال منطقياً: القرآنُ الكريمُ كلامُ الله، وهوَ مُرَكّبٌ من حروفٍ مرتّبةٍ متعاقبةٍ

---

(1) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(2) سورة فصلت، الآية: ٣٣.
(3) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

في الوجودِ. وكلّ كلامٍ مركّبٍ من حروفٍ متعاقبةٍ في الوجودِ حادثٌ، فالنتيجةُ: القرآنُ حادثٌ مخلوقٌ. هذ الترتيبُ للقضايا أوصلَ إلى نتيجةٍ ليسَتْ مما يقعُ تحتَ الحسّ، فلا سبيلَ للعقلِ إلى بحْثِها أوِ الحُكمِ عليها، ولكنْ يمكنُ بواسطةِ المنطقِ ذاته أنْ يصلَ إلى نتيجةٍ تناقِضُ هذهِ النتيجة، فيُقالُ: القرآنُ كلامُ الله، وهوصفةٌ لهُ، وكلّ ما هو صفةٌ لله قديمٌ، فالنتيجةُ: القرآنُ قديمٌ غير مخلوق. وبذلكَ يبرز التّناقُضُ في المنطقِ في قضيّةٍ واحدةٍ.

وقد اعتمد المتكلمون علم المنطق أساساً لتفكيرهم فكان منهجهم يقوم على ما يلي:

١ ـ أقرّ المتكلمونَ بصحّةِ قواعدِ الإيمانِ، وآمنوا بها، ثمّ اتخذوا أدلّتهم العقليّةَ للبرهنةِ عليها، فهم يعتمِدونَ البحثَ العقليّ بالأسلوبِ المنطقيّ لإثباتِ صحة عقيدتهم..

٢ ـ إنّ أبحاثَ المتكلّمين محصورةٌ فيما يتعلّقُ بالدفاع عن عقيدتهم، ودحضِ حججِ خصومهم، سواءٌ أكانوا مسلمينَ يخالفونَهم في الفَهْمِ، من قدرية ومرجئة وخوارجَ وغيرهم، أم كانوا غيرَ مسلمينَ كالنصارى واليهودِ وغيرِهمْ.

٣ ـ أبحاثُ المتكلمينَ أبحاثٌ إسلاميّةٌ، وتُعتبرُ على اختِلافِها وتناقُضِها آراءً إسلاميةً، ويعتبرُ كلّ مسلمٍ اعتنقَ رأياً منها معتنقاً رأياً إسلامياً.

ولكن يبرز خطأ منهجِ المُتكلّمينَ في أربعةِ وجوهٍ هي:

١ ـ اعتمادهم في إقامةِ البرهانِ على الأساسِ المنطقيّ، لا على الأساس الحسيّ. بحيث جعلوا المسلمَ في حاجةٍ إلى أنْ يتعلّمَ

المنطقَ، حتى يستطيعَ إقامَةَ البرهانِ على وجودِ الله تعالى. ومعنى ذلكَ أنّ مَنْ لا يعرفُ المنطقَ يعجزُ عن البرهَنَةِ على صِحّةِ عقيدتهِ.

٢ ـ خروجُهُمْ على الواقعِ المحسوسِ، وتجاوزُهم إلى غير المحسوسِ، فقد بحثوا فيما وراءَ الطّبيعةِ في ذاتِ الله وصفاتِه، فيما لا يصلُ إليه الحسّ. وأفرطوا في قياسِ الغائبِ على الشاهدِ، أعني في قياسِ الله على الإنسانِ، فأوجبوا على الله العدلَ كما يتصوّرُهُ الإنسانُ.

٣ ـ إعطاؤهُم العقلَ حريّةَ البحثِ في كلّ شيءٍ، فيما يُحَسُّ وما لا يُحَسُّ، وجعل المحسوس وغير المحسوس أساساً للبحثِ في الإِيمانِ كلّهِ. فترتّبَ على ذلك كلّه أنْ جَعَلُوا العقلَ أساساً للقرآنِ، ولم يجعلوا القرآنَ أساساً للعقلِ.

٤ ـ جعلُوا خصومَةَ الفلاسفةِ أساساً لِبَحْثِهِمْ، فالمعتزلةُ أخذُوا من الفلاسفةِ، ثمّ ردّوا عليهمْ، وأهلُ السنّةِ والجبريّةِ ردّوا على المعتزلةِ. وأخذوا منَ الفلاسِفَةِ ورَدّوا عليهِمْ، في حين أنّ موضوعَ البحثِ كان يجب أن يكون الإِسلامَ، وليسَتِ الخصومةَ معَ الفلاسفَةِ ولا معَ غيرهِمْ.

وكان عليهم أنْ يقِفوا عند حدّ القرآنِ والحديثِ، وعندَ حدّ البحث فيهما، بِغَضّ النظرِ عن أيّ بحثٍ آخر. ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، بل حوّلوا تبليغَ الإِسلام، وشرْحَ أفكاره، إلى مناظراتٍ ومجادلاتٍ، حتى انتهى بهمُ المطافُ إلى أنْ يتصفوا بصفةٍ جدليّةٍ، ومهنةٍ كلاميّةٍ.

الفرق بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين

أما منهجُ الفلاسفةِ فإنّهُ يتلخّص فيما يلي:

١ ـ إنّ الفلاسفةَ يبحثونَ المسائلَ بحثاً مجرّداً. ومنهاجُ بحثِهِمْ هوَ النّظَرُ في المسائلِ، كما يدلّ عليها البرهانُ. ونظرتُهم بشأن الذات الإلهية نظْرَةٌ في الوجودِ المطلقِ، وما يقتضيهِ لذاتهِ.

وهم يبدأونَ النظرَ في المسألة، ثم ينظرون إلى ما يؤدّي إليهِ البرهانُ، في سيرهم للوصول إلى النتيجةِ، كائنةً ما كانَتْ، فيعتقدون بها. وهذا يعني أَنَّ بحثَهم بحْثٌ فلسفيٌّ مَحْضٌ لا علاقَةَ لهُ بالإِسلامِ.

والفلاسفة المسلمونَ كانوا في كثير من أبحاثِهِم يسلّمون بالأشياء الغيبية التي لا يمكنُ إقامةُ البرهانِ العقليّ على صحّتِها أوْ بُطلانها، كالبَعْثِ والنّشورِ والمعاد الجسمانيّ. وكثيراً ما كانوا يحاولونَ التّوْفيقَ بينَ بعضِ قضايا الفلسفة والقضايا الإِسلاميّةِ، ولكنْ ليسَ عندهم تأثّرٌ فكريٌّ يجعلُ الإِسلامَ أساساً، كما هي الحالُ عندَ المتكلمينَ. إنما تأثرهم تأثّرٌ يشبهُ إلى حدٍّ بعيدٍ تأثّرَ الفلاسفةِ المسيحيينَ بالمسيحيّةِ، والفلاسفةِ اليهود باليهوديّةِ، وهو تأثُّرٌ، بالديانتينِ، ضعيفٌ. أما الفلاسفةِ المسلمون فقد كان تأثرهم الحقيقيّ بالفلسفةِ اليونانيّةِ، ولذلك لم يكتبوا أفكارَهُمُ الفلسفيّةَ إلاّ بعدَ تعمُّقِهِم في الفلسفةِ اليونانيّةِ.

٢ ـ لمْ يكنْ كلُّ همّ الفلاسفةِ المسلمينَ الدّفاعَ عنِ الإِسلام لأنهم كانوا يقفونَ عندَ تقريرِ الحقائقِ ثمّ يبرهنُونَ عليها، ولا يدخلُونَ في حكايةِ الأقوالِ المخالفَةِ والردّ عليها، دفاعاً عنِ الإِسلامِ، وإن كانوا قد تأثّروا بها بعضَ التأثرِ.

ولذلك كان البحثُ العقليُّ هوَ الأصل وهوَ الموضوع، ولا يوجدُ غيرُهُ في بُحوثِهِمْ.

٣ ـ إنَّ كثيراً من أبحاث الفلاسفَةِ المسلمينَ أبحاثٌ غيرُ إسلاميةٍ، بلْ هيَ أبحاثٌ فلسفيّةٌ، لا علاقةَ للإِسلام بها.

هذا هو الفرقُ بينَ منهجِ المتكلمينَ المسلمين ومنهج الفلاسفة المسلمينَ. ومَن الظّلمِ والدسِّ على الإِسلامِ أن تُسمّى الفلسفةُ، التي اشتَغَلَ فيها من أطلقَت عليهم تسمية «الفَلاسفة المسلمين» أمثالِ الكِنْدِي والفارابيّ وابن سينا وابن رشد، أو غيرهم.. فلسفةً إسلاميةً، لأنها لا تمتُّ إلى الإِسلام بصلةٍ. بلْ هيَ تتناقضُ معَ الإِسلامَ تناقُضاً تامّاً، من حيثُ الأساسُ، أوْ منْ حيثُ التفاصيلُ الكثيرةُ..

أمّا من حيثُ الأساسُ فإنّ أولئك الفلاسفة المسلمين قد بحثوا فيما وراءَ الكونِ، أي في الوجودِ المطلقِ، بخلافِ الإِسلامِ الذي يحصر البحث في صفات الكونِ وتراكيبه، وفي المحسوساتِ.

وأمّا من حيثُ التفاصيلُ فإنَّ لدى أولئك الفلاسفة المسلمين أبحاثاً كثيرةً، يعتبرها الإِسلامُ ضلالاً كالقولِ بقدمِ العالمِ، وأنّهُ أزليّ، وأبحاثاً تقولُ إنّ نعيمَ الجنّةِ رُوحانيّ لا ماديّ، وأبحاثاً تقول: إنَّ الله يجهَلُ الجزئياتِ، وغير ذلكَ، مما هوَ كفرٌ صراحٌ في نظر الإِسلامِ.. فكيفَ يُقال عنْ هذه الفلسفَةِ إنها فلسفةٌ إسلاميّةٌ مع هذا التناقض البَيِّنِ في السبل والمنطلقات. أجل لا حاجة للإِسلام بالفلسفة مطلقاً، ما دام يحصر البحث العقليّ في المحسوساتِ، وما دامِ العقلُ عاجزاً عن البحث فيما وراءَ الكونِ. والخروج عن هاتين المسلّمتين يجعل أبحاث العقل كافة بعيدةً عن الفلسفة، سائرةً في غيرِ طريقها. وليسَ في

الإِسلام، كما ليس لدى جميع المفكرين الإسلاميين، أياً تكن مجالات أبحاثهم، إلا مصدران يُركن إليهما: القرآنُ الكريمُ والسنّةُ النبويّةُ الشريفةُ، فهما، وحدهما، أصلُ الإِسلام، عقيدةً وأحكاماً وأمراً ونهياً واختباراً، ومن شاءَ أن يلج في المجالاَت الفكرية عليه أنْ يجعل هذه المقومات عماداً لفكره، وإلاَّ خرجت أفكاره، وخرجت أبحاثه عن أن تكون إسلاميةً! . .

الفصل الخامس

- التصوُّر والتخيُّل
- الانتباه والغَفلة
- التذكُّر والنسيان

المبحث الأول

التصوّر والتخيل
(الكهانة - العرافة - السحر)

أولاً: الصورة والتصوير

الصورة تعني شكل الشيء، أو هي كل ما يتمثل بشبيه له من خلق الله تعالى، ولذلك يقال عن الصورة: «هي ما ينتقش به الأعيان، أي الأشياء المشاهدة بالعين المجردة».

أما التصوير فهو الفعل الذي تتأتّى عنه الصورة، أي فعل المصوِّر، ومن الناحية الفكرية: «التصوير هو تصوّر أو تفكّر لما تتمثل صورته أو شكله في الذهن».

ولذلك كانت الصور على نوعين:

نوع محسوس مثل صورة الإنسان والحيوان والشجرة والجبل. وهذا ظاهر للعيان ويدركه كل إنسان من الخاصة والعامة.

ونوع معقول وهو من فعل ما اختص به الإنسان من عقل وتمييز لإظهار معاني الأشياء. والفرق بين الصورة والتصوير: أن التصوير قد يكون بجعل الشيء على صورته أو على صورة لم يكن عليها. وأما

الصورة فهي الهيئة التي يكون عليها الشيء في التأليف، وأصلها من: صارَهُ إذا أماله، لأنها مائلة إلى هيئة بالشبه لها.

والفرق بين الصورة والصيغة أنَّ الصيغة عبارة عما وضع في اللغة ليدل على أمر من الأمور، ومنها الصورة الذهنية المعروفة بأنها «بقاء أثر الإحساس في النفس بعد زوال المؤثر الخارجي». ولذلك قال بعضهم إنها ذكرى الإحساس. ومن الأمثلة على ذلك: ذهاب الشيء الذي أراه بعيني، أو هدوء الضجة التي أسمعها، أو الإحساس بالبرودة بعد انطفاء النار التي كانت تدفئني وبعد ذلك يمكن تصور شكل ذلك الشيء، وهاتيك الضجة، والحرارة بعد ذهابها بالانطفاء. وعندما يتصور أحد ذلك، فلا يقول بأنه يرى أو يسمع تلك الأشياء، بل يقول إنه يتصورها، أي يستعيد صورتها في ذهنه كما كانت عليه قبل ذهابها أو انقطاعها. فالصورة هي من طبيعة الإحساس، لأنها في الغالب نسخة منه، وهي ظاهرة نفسية، ثانوية وليست أولية كالإحساس. وقد قيل: الإحساس صورة أولى، والصورة إحساس ثانٍ.

إذن فهنالك صورة حسية تعطي شبه المصوَّر، وبها يتميز عن غيره. وهنالك الصورة الذهنية التي تنتج من الإحساس في الأصل، ويعبر عنها بالأشكال أو بالألفاظ والمعاني. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)، أي إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي تفرَّدَ وحدَه بالقدرة والخلق، هو الذي يجعل خلقكم في بطون أمهاتكم كيف يشاءُ:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦.

- من حيث الجنس، ذكوراً أو إناثاً، ومن حيث اختلاف ألوانكم وألسنتكم، فترون من البشر الأبيضَ، والأسودَ، والأصفرَ والأحمرَ وتتحدثون بلغاتٍ عديدة، هي لغاتُ شعوب هذه الأرض من أدناها إلى أقصاها. . .

- ومن حيث الصفات الجسدية، فترون الجميل والدميم، الطويل والقصير، القوي والضعيف، البصير والأعمى، السميع والأصم والفصيحَ والأبكم. .

- ومن حيث الصفات النفسية فيكون منكم الذكيّ والبليدُ، النبيهُ والأبله، العاقل والمجنون، الكريمُ والبخيل، الشجاع والجبان، المجتهد والكسول. . وهذا بالإضافة إلى ما جعل الخالق الكريم لكل واحدٍ من البشر، من ذكرٍ أو وأنثى، من مزايا ومواهب تميِّزُهُ عن سائر الناس جميعاً.

هذا خلق الله العزيز الحكيم، الذي يصوركم أيها الناس في الأرحام كيف يشاء، بلا وصب ولا تعب ولا كلفة، وصدق العلي العظيم بقوله المبين: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

«هو الله الخالقُ»، فلا خالقَ غيره. . ولقد ثبت منذ بدء الخلق الآدمي على هذه الأرض وحتى الآن ـ وكما سيظل الأمر إلى يوم القيامة ـ أنه لو اجتمع عباقرةُ الجن والإنس على أنْ يخلقوا بعوضةً أو ذبابةً، أو أصغرَ حشرةٍ، لما قدروا على ذلك، ولما استطاعوا إليه

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

سبيلاً. أمّا ما يصنع البشر اليوم في عملية التناسخ فهو مجرد نقل الخلية ـ التي تفرَّد الخالق العظيم بخلقها وتكوينها ـ من كائنٍ حي إلى كائنٍ حيٍ آخر، أو نقل تلك الخلية من كائن حيٍّ إلى وسطٍ مختبريٍّ معينٍ، حيث تتفاعل الخلية ذاتُها وينشأ عنها كائن آخرُ من خلال ما يعرف بعملية الاستنساخ..

لا بل وينبِّه القرآن الكريم الإنسانَ إلى أنَّ الله تعالى هو وحدَهُ الخالق، وأنه كإنسانٍ هو عاجزٌ عن الخلق، بل ويثير أيضاً في نفسه التفكُّر، والانتباه إلى ضعفه، فيقول المولى تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾(1).

ولقد ضربَ الله تعالى هذا المثل ليوقنَ الإنسانُ مدى عجزه وضعفه.. فالناسُ قد يدعونَ، أي يعبدون، من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ آلهةً.. ولكنْ هل تقدر تلك الآلهة ـ المزعومة ـ على خلق ذبابٍ ولو اجتمعوا له، وبذلوا كل ما لديهم من الطاقات والإمكانات؟ أبداً!.. لأنَّ الله ـ تعالى ـ هو الخالق.. ثم هل يستطيعون أنْ ينقذوا شيئاً عمّا يسلبه الذبابُ منهم؟ أبداً.. فلو تخيَّلنا جمعاً من العلماء يجلسون حول مائدةٍ من الطعام، وغطَّتْ عدةُ ذُباباتٍ تمتصُّ من صحونهم، فهل يقدرون على أن يستخرجوا من بطونها ذلك الطعام الذي يكون قد تحوّل بعد هضمه إلى شيءٍ آخر؟ كذلك كان المشركون يرونَ بأم العين كيف يأتي الذباب يمتصُّ ممّا وضعوه لآلهتهم من الحلوى أو المآكل،

(1) سورة الحج، الآية: ٧٣.

وفاءً لنذورهم، ثم يطير بعيداً دون أن تكون لهم قدرة على اللحاق به، واستنقاذ ما سلب آلهتهم!.. أليس هذا هو المثل الحقُّ عن ضعف الإنسان حيال هذا الذباب الذي هو من أضعف المخلوقات، وأدناها شأناً؟! وصدق الله العلي العظيم، بقوله الحكيم: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

ومن الجدير هنا التذكير بأهمية القرآن، وما يقدم من الآيات المبيِّنةِ والعظات والأمثلة البالغة، والحجج والبراهين الفعلية والحسية التي من شأنها أن تزيل الشبهات حول وحدانية الله تعالى، وألوهيته المطلقة، وربوبيته المطلقة، وأنَّه الله الذي لا إله غيره في السماوات والأرض، الخالق المدبّر الحكيم، يخلق ما يشاء، وكيفما يشاء.. وفي ذلك تجلية للشبهات في خلق عيسى ابن مريم عليه السلام ونشأته ومولده، إذ كما خلق الله ـ تعالى ـ آدم عليه السلام، من صلصال كالفخار ثم نفخ فيه من روحه فاستوى بشراً سوياً، كذلك خلق الله ـ تعالى ـ عيسى ابن مريم من غير أبٍ لأنَّ مشيئته في الخلق أن يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهذا ما ينفي عن نبي الله عيسى عليه السلام أن يكون الابن أو الأقنومَ اللاهوتيَ الناسوتيَ، أو أيَّ تصوّرٍ آخر ممّا انتهت إليه التصورات الغامضة، التي تجانب فكرة التوحيد، كما يبيّنها القرآنُ ويحثّ الناسَ على أنْ يستدلّوا عليها من خلال آلاءِ الله ـ تعالى ـ في هذا الخلق كله، فتستيقن بها نفوسهم، وتتجلّى لهم معاني التوحيد، بكل جلالها، ناصعةً واضحةً، يسيرة التصور بعيدة عن الغفلة، قريبة الإدراك.. فتعالى الله الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً عن أنْ يكون له شريك في الملك، وسبحانه وتعالى عمّا يصفون.

وإلى تلك الصور الحسية والذهنية بيّن الله تعالى في كثير من

الآيات القرآنية الكريمة كيفية خلق الناس، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[1]. والخلق هنا معناه الإنشاء. والتصوير معناه إعطاء الخلقة أول الهيئة والخصائص. وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. لأن «ثم» قد لا تكون للترتيب الزمني ولكن للترقي المعنوي. والتصوير، بهذا المعنى، أرقى مرتبةً من مجرد الإيجاد أو الإنشاء. وإن جميع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ترجِّحُ أنْ يكون إعطاؤهُ خصائِصَهُ الإنسانية، ووظائِفَهُ المستقلة، مصاحباً لخلقِهِ، إذْ إنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أنْ صنَعَ لآدمَ شكلَ الإنسان، ونفخ فيه من روحه، استوى بشراً سوياً، بكل تركيب جسمه وما فيه من أعضاء وأجزاء تقوم جميعها بما عُهدِ إليها من وظائف وبكل تكوينه النفسي، ولاسيما خاصيّة الإدراك والتمييز، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[2]. أما نشأة الجنس البشري فقد جعلها الله في النظام الذي أودعه في آدم وزوجه حواء، وجعل سبحانه الإنشاء مصاحباً للتكوين الوظائفي في كل مخلوق بشري بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[3]، وأما ما طرأ على الجنس البشري، من تغييرات عبر الدهور، فهو ليس تغييراً في الجنس، أو في أصل التكوين، بل نوع من الترقي في بروز الخصائص الإنسانية ونموها، وتدريبها، واكتسابها الخبرة العالية.

فالإنسان، إذاً، ومذ خلقه الله تعالى، كان ولا يزال هو هذا الإنسان، وترقّيه لم يكن ترقّياً من تطور الأنواع حتى انتهى إلى إنسان ـ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٣.

كما تقول الداروينية ـ بل كان ترقياً في صلب الوجود البشري ذاته، وكان لا بدَّ منه لاكتمال عناصر النضوج الفكري التي تجعل الأجيال اللاحقة أكثر وعياً، وخبرةً، وقدرةً على إيجاد الأشياء التي تجعل الحياة البشرية أكثر رقياً، وتمدناً وحضارة. .

وبما أنّ صفةَ الخلق قد اختص بها الله تبارك وتعالى، فقد جعلها في غيب علمه وحده، ولذلك كان هذا الربط الجليل في سياق الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1)، فمن البديهي أن تعلم أيها الإنسانُ أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء كائن في الأرض ولا في السماء، لعلمه بما يقع فيهما من كلي وجزئي. وقد خصهما ـ أي الأرض والسماء ـ بالذكر لأنَّ الحسَّ لا يتجاوزهما. وعلم الله تعالى بما فيهما وما بينهما هو علم مطلق لأنه يتفق مع وحدانية الألوهية والقوامة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(2). فلن يفلت ﴿شَيْءٌ﴾ من علم الله تعالى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بهذا الإطلاق. ولن يمكن إذن الإنسان أن يستر نياته على الله خالقه، كما يفعل تجاه غيره من الناس، فقد يجهل هو نفسه خفايا نفسه، في حالات كثيرة، بينما كل ذلك لا يخفى على الله تعالى. . وعلم الله تعالى الذي يشتمل على كل شيء، يدخل فيه العلم بالنشأة الإنسانية، التي هي في عالم الغيب، وفي ظلام الأرحام، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك لما يمكن أن ينشىء الله ـ تعالى ـ في هذه الأرحام، بل علمها عند الخالق المدبّر وحده، الذي يصوركم أيها

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: ٥ و٦.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

الناس في الأرحام، ويمنحكم الصورة والخصائص المميزة لهذه الصورة كيف يشاء، أما بعد اكتمال الإنشاء فقد يصبح من السهل معرفة نوع الجنين ومراقبة صحته ونموّه، كما هو حاصل اليوم بفعل تقدم الطب واختراع هذه الآلات التي تبيّن ما في الأرحام، ولكن في الأصل ـ وفي جوهر الوجود ـ فالله تعالى وحده الذي يتولى تصوير الجنين في رحم أمه، من ذكر وأنثى، وهو وحده الذي يمنح لهذا الجنين الخصائص التي تميزه عن سائر الأجنة الأخرى، حتى عن توأمه الذي يكونُ وإيّاهُ في الرحم نفسها، وذلك وفقاً للسنن التي أودعها ـ سبحانه ـ الجنس البشري بحيث جعل فيه الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، والطويل والقصير، والجميل والقبيح، وجعل فيه الذكاء والخمول، والنشاط والكسل، والإدراك والجهل. . . ومختلف الخصائص التي يتميز بها الجنس البشري من ناحية، والخصائص التي تميّز كل فردٍ عن غيره من أبناء هذا الجنس من ناحيةٍ أخرى. . كل ذلك كما يشاء الله تعالى، بمشيئته المطلقة، لأنه هو الله، الإله الواحد الأحد، ولا إله غيره، تعزّز بألوهيته، وبقدرته وقوته على الخلق والتصوير، وتعزز بحكمته التي تقدر للخلق ما يشاء الخالق، وتدبّر الخلق فيما يصور ويخلق الخالق، بلا معقب ولا شريك. .

وعن جمال الخلق البشري، وارتباطه بخلق الأرض والسماء، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

وهنا تستبين منظومة الخلق بالدقة، والتقدير، والتدبير، لكي يكون خلق الإنسان منسجماً مع الكون.. ولاسيما مع الأرض التي جعلها الله للناس مقراً، ومع السماء التي جعلها من فوقهم بناءً، أو سقفاً يحفظ وجودهم في مستقرهم؛ وهذا ما تدل عليه الحقائق العقليةُ والحسية التي تثبت أنَّ الأرض هي مقر أو مستقر للإنسان، بما أودع فيها خالقها من عوامل وعناصر وخصائص تجعلها موافقة وصالحة للحياة البشرية.. وهي الحقائق نفسها التي تثبت أيضاً أنَّ السماء قد جعلها الله بناءً ثابتاً بتكامل النسب والأبعاد والحركات والدورات التي تضمن ترابط هذا البناء وتماسكه، كما تضمن الاستقرار لحياة الإنسان في الأرض، لأن الأرضَ جزء من البناء الكوني الثابت المترابط التي يتلازم بناؤها، مع بناء السماء من فوقها وبناء النظام الكوني برمته.. من هنا تربط هذه الآية الكريمة بين تكوين الأرض والسماء ـ بالدقة والضبط والسنن التي فيها أحسن الخلق ـ وبين تكوين الإنسان ـ الذي صوره الله فأحسن صورته ـ لأنه ليس أسمى وأرقى من صورة هذا الإنسان، إن من الناحية الجسدية، وإنْ من الناحية النفسية التي يَدلُّ على قدرة الخالق وحكمة صنعه.. وهذا الربط القرآني إنّما هو للتدليل على موافقة خلق السماء والأرض لخلق الإنسان، وهذا التوافق هو الذي ينجمُ عنه، بتدبير الله تعالى، توافر الأرزاق والثمرات: إذ إنَّ عوامل الشمس والقمر والهواء والتربة والماء ـ وبما أودع الخالقُ فيها من خصائص ـ إنَّما تتفاعل فيما بينها لتؤمن الرزق لكل الكائنات الحية على الأرض، ولا سيما للإنسان الذي جَعَلَ سبحانه وتعالى رزقَهُ من أطيب الأرزاق والثمرات، ليأكل ويشرب حلالاً طيباً، تلذه العيون، وتستسيغه الأنوف والآذان، وتطيب به الأنفس..

وبعد هذا البيانِ القرآنيّ الواضحِ على أن الله تعالى هو الذي جعل لكم ـ أيها الناسُ ـ الأرض مستقراً، والسماءَ بناءً، وهو الذي صوركم فأحسن صوركم، وهو الذي رزقكم من الطيبات.. أجل، بعد ذلك كله يأتي التوكيد: ذلكم الله ربُّكم أيها الناس، وربُّ الخلائق كلها في السماوات والأرض.. فلا ربَّ سواه تعبدونَهُ، ولا ربَّ سواه تحمدونه على كل ما جَعلَ لكم من النعم التي لا تُعدُّ ولا تحصى، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه، وتعالى وتعاظَمَ الله الذي بيده الملك، فيمنُّ ببركاته وهباته، ويجزل برحمته وإنعامه على العالمين أجمعين، وبلا استثناء. وهذا جدير بأنْ ينبِّهَ أولي الألباب أن نقطة «تبارك» هي نقطةٌ خاصة بالله تعالى وأنه مختصٌّ وحده بالخيرات جميعاً. أفلا تعقلون أيها الناس هذا الفضل العظيمَ من الله ربكم؟ وهل تقدّرونه حق قدره، وتعظّمونَهُ، وتقدسونه بما يستحق من العبادة والطاعة؟ ثم أليس من عظيم بركاته عليكم أن ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

وفي بيانٍ قرآني آخر، يقول الله الخالق العظيم بأنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، فالحقُّ أساس الوجود كله، والحقّ ثابت في الوجود كله، فكان خلق الناس بالحق، وكان هذا التوكيد على الحق الذي يربط ما بين خلق السماوات والأرض بالإبداع المتين، وخلق الناس بالتصوير القويم، وذلك مصداقاً لقول الحق

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٦.

تبارك وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

.. وهذا الشأنُ في المخلوقات كلها.. أنْ يسبّح لله ويقدسه ما في السماوات وما في الأرض من الخلائق، إقراراً بالعبودية والعبادة والخضوع لمن له الملك كله، وتعبيراً عن الشكر والطاعة والامتنان لمن له الحمد كله.. وسواء كانت المخلوقات في السماوات والأرض من الملائكة أو الناس، أو الحيوانات أو النباتات أو الجمادات، فكلها تسبّح بحمد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من جرّاء الفطرة المودعة فيها.. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يغرنَّ أحداً من أهل الأرض نفسُهُ في تقلّبه بين الكفر والإيمان، أو في اعتدادِهِ أنه على المعصية أو الطاعة، فقد سبقَ في علم الله ما سيكون عليه كل ابن آدم في الحياة الدنيا، ولكنَّهُ سبحانَهُ، وَزيادة في الإحسان والتفضّل على عباده من الناس، أضافَ إلى هذا الشكل الآدمي، الذي هو أحسن الأشكال في المخلوقات من حوله، نفساً تحمل الاستعدادات والإمكانات التي تكمن فيها القابلية للإنحراف نحو الكفر، أو للتوجه نحو الإيمان.. فكان الإنسان وحده، من بين جميع المخلوقات الظاهرة للعيان، هو الذي يتمتع بهذا الاستعداد المزدوج، الذي من خصائصه الأساسية قدرةُ الإنسان على التمييز والاختيار.. وزيادةً على هذه النعمة العظيمة، فقد تكرَّم الله تعالى على الإنسان بميزان الحق والعدل الذي يقوّم به اتجاهاته

(١) سورة التغابن، الآيات: ١ ـ ٣.

ويزن به أعماله، وهذا الميزان هو الدين الذي جاء به الأنبياء والمرسلون ليهدوا الناس إلى صراط الله المستقيم بحيث لم يبقَ أمام الإنسان، بعد ذلك كله، إلاّ أنْ يميِّزَ الحقَّ من الباطل، فيختار سبيله إما للكفر وإمّا للإيمان. . . ولكن الناس، وبسبب جهلهم ربما لحقيقة مزايا خلقهم، وخصائص مكرمتهم كانوا ينساقون إلى الكفر، كما أثبتته وقائع الحياة البشرية على مرّ التاريخ. . وها نحن اليوم، وعلى الرغم من النور الذي جاءَ به محمد ﷺ للناس جميعاً، نجد منهم من هو كافر، ومنهم من هو مؤمنٌ. كما تدلُّ عليه الأعمال التي يؤتيها الناس والتي لا يخفى على الله ـ تعالى ـ شيء منها، لأنه سبحانَهُ بصيرٌ بما يعملون من صغيرةٍ أو كبيرةٍ، من أبسط عمل ـ ولو كان مثل الذرّة، إلى أكبر عمل ولو توهمه فاعله مثل الجبال الرواسي ـ .

ثم إنَّ حقيقة خلق السماوات والأرض بالحق، وخلق الناس في أحسن الصور بالحق ـ كما قلنا ـ من الحقائق القرآنية المطلقة التي يجب أن نركن إليها، لأنَّ ما من شيءٍ في السماوات والأرض إلاَّ خُلق بالحق، وكان بناؤه على أساس الحق المتين الذي لا يشوبه باطل؛ ولو لم يكن الكون كله قائماً على الحق لتصادمت موجوداته وأشياؤه بنسبها وأبعادها. وتضادَّت بحركاتها ودوراتها، وطغت بأحجامها وأوزانها، ولأدّى ذلك إلى تشقق بنيانِهِ وانهياره. . في حين أنَّ هذا الكون لا يزال منذ خلقَهُ الله تعالى على السنن الإلهية نفسها من التماسك في البنيان، والانتظام في السير، لأنّه مخلوق من الحق، فكان أساسه الحق، وبقاؤه وتسييره ـ مثل خلقه ـ بالحق. . وهذا التماسك والانتظام يهدي إليه قول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١). أي، وأنت تتأمَّلُ، أيُّها الإنسان، في هذا الخلق، فإنْ خطر ببالك أنَّ فيه شيئاً من التصدع، فأعِد التفكير، وتبصَّر كرَّةً بعد كرَّة، فلا بدَّ أن يرجع إليك البصر ذليلاً لعدم إدراك أي خلل، وحسيراً منقطعاً عن رؤية أي فسادٍ في مجمل النظام الكوني كله.. وهذا ما يستدعي منك أيضاً أنْ تتذكَّرَ كل تلك النظريات التي قالت بأن الكونَ وُجِدَ على هذا الشكل الذي هو فيه، بالصدفة، فتسقطها من ذهنك، بل وتبدّد كلَّ الأفكار التي جعلت التسيير الكوني قائماً بصورة تلقائية، لاسيما وأنت تعلم بأنَّ علماءَ الفلك يزدادون يقيناً، يوماً بعد يوم، واكتشافاً إثر اكتشاف، بأنَّ الكون لم يأتِ من صدفةٍ وفراغٍ أو فلتةٍ عابرة ـ لا أساس لها أصلاً في الوجود ـ وإنَّما وُجِدَ، بكل ما فيه، بمشيئة الله السنيّة، وبتقديره تعالى لكل شيءٍ تقديراً حكيماً كما يرشدنا إليه قوله الكريم: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(٢)، أي سوّاه تسوية كاملةً للغاية التي أوجده من أجلها..

ومن الحقائق القرآنية الثابتة والمطلقة أيضاً التركيز في أكثر من آيةٍ، وأكثر من سياقٍ على هذا الخلق البشري، إذ يشدُّنا التعبير القرآني إلى التفكير بما صوَّرنا عليه الخالق العظيم، فأحسن صورنا، كي لا نظلَّ في غفلةٍ عن روعة خلقنا، ونكتفي باستحسان هذه الصور التي

---

(١) سورة الملك، الآيات: ١ ـ ٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢.

تعجُّ في الأرض، دون تذكّر لعظمةِ الخالق، وفضلِهِ على الناس جميعاً. . وإنَّ العاقلِ، الحامِدَ لتستوقفه هذه العبارة التي تختزل كل خصائص خلق «الإنسان» بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، فهي تتكرر في أكثر من آيةٍ في القرآن المجيد، لكي توقر في أذهاننا أنَّ لكل إنسانٍ صورته، وإنْ وجد بعض تشابه في أجزاء هذه الصورة بين إنسان وآخر، إلاَّ أنَّه يَظلُّ لكل واحد حسنُ خلْقه الذي تُميّزُهُ عن غيره. . فلماذا لا يفكّر الإنسان كم من البشر قد مروا على هذه الأرض من قبل، وكم هم كثيرون هؤلاء الناس الذين يفوق عددهم اليوم على سبعة مليارات نسمة، لكلٍّ واحدٍ منهم صورته الخاصة. . وهذا الأمرُ وحدَهُ، وهو حقيقة ملموسة ألا يستدعي أنْ يتفكَّر كل واحدٍ منا بعظمة الخالق فيعبده حق العبادة، وأنْ يقدّر ما منحه من الهبات، ورزقه من النعم فيشكره حق الشكر؟! فتبارك الله الذي جعلَ لكل إنسان صورةً جميلةً، محببة، مقبولةً تشعره بكرامته عند خالقه، وتحثه على الاعتراف بفضله عليه في حسن صورته: صورته في خلقته أو هيئته، وصورته في ذاته أو نفسه؛ فالإنسان بالإضافة إلى كمال تكوينه الجسّماني، هو من أرقى الأحياء في الأرض بتكوينه النفسي، ولعلّ الاستعدادات الكامنة في نفسه من أكثر أسرار خلقه عجباً!. . وإنَّ نظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان، أو لأي جهاز من أجهزته تجسّم هذه الحقيقة التي يُثبتُها قول الحق تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، إذْ هي فعلاً صورةٌ هندسيةٌ يجتمع فيها الجمال إلى الكمال. . ولئن تفاوت الجمال بين شكل وشكل، إلا أنَّ التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة، ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء.

ثُمَّ ماذا بعدَ هذا الخلق العظيم للإنسان؟ وماذا بعد سبحه في هذه الحياة الدنيا؟ بل وإلى أينَ كلُّ ما في الوجود؟.. إلى الله ـ تعالى ـ مصيرهم جميعاً ومصير الإنسان ومصير المخلوقات، ومصير الكون «وإليه المصير» لأنَّ كلَّ شيء ينشأ من مشيئته المطلقة وإليه يعود كل شيء بمشيئته المطلقة.. منه تعالى المنشأ وإليه المصير. وهو الأول والآخر.. فلا يحسبنَّ الإنسانُ أنه متروك سدىً، وأنّه ليس له مرجع يعود إليه. فهو كما يَعرفُ أنَّ بقاءَه على هذه الأرض محدود، يجب أنْ يستيقن أيضاً، أنَّ إلى ربه الرجعى، فهلاَّ استعدَّ لمصيره في آخرته مزوَّداً بالإيمان وليس بالكفر حتى يكون مصيره في جنات النعيم بدلاً من أن يكون في نار الجحيم؟!..

وفي السياق نفسه الذي يدلُّ على تفرّد العزّة الإلهية بالخلق يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١). فهنا، لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ من يطّلع على «سورة الحشر» في القرآن الكريم يجد أنها تبتدئ بأول آية بقول الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢)، وتنتهي بآخر آية بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣).

إنها الحقيقة التي يجب أن يستشعرها كل قلب طاهر، وكل نفس صافية، كما يستشعرها كل كائن في السماوات والأرض، فالكل يسبح لله: الإنسان، والطير، والحيوان، والأسماك، والنَّبات.. كلٌّ قد

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

عرف صلاته وتسبيحه، حتى إنَّ مخلوقات الجماد ذاتها لها لغة خاصة تمجّد بها خالقَها وتسبّحه. بهذه الحقيقة، حقيقة تسبيح كل شيء في الوجود لله تعالى، واتجاهه إليه بالتنزيه والتمجيد، تفتتح «سورة الحشر» وتختتم، ومع التأكيد على أنَّ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ القوي القادر على نصر أوليائه، وسحق أعدائه، الحكيم في حسن صنعه، وتدبير خلقه..

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، تعزَّز بالألوهية وحده، فلا إله غيره ـ سبحانه ـ . ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ والخلق هو التقدير والتصميم.. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ والبرء هو التنفيذ والإخراج. وهما اسمان من أسماء الله الحسنى، ليس بينهما غير فارق دقيق لطيف.. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ وهو اسم مرتبط بالاسمين الآخرين: الخالق، البارئ. وتصوير الله تعالى هو إعطاء الملامح المميزة والسمات التي تمنح لكل كائن شخصيته الخاصة.

وقد يتصور الإنسان أن الخلق والإنشاء والإيجاد والتصوير والإخراج تتم على مراحل. إلاَّ أنه، في الحقيقة، ليس هناك مراحل على الإطلاق، بل هو الأمر «كن فيكون».. إلاَّ أننا نحن البشر نعجز عن إدراك مدلولات الأسماء التي يصف بها تعالى نفسه (الخالق، البارئ، المصور) على حقيقتها المطلقة، ولا ندري إلاَّ بعضاً فقط من آثارها، في حدود طاقتنا المحدودة. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كلها، كما عدَّدها القرآن الكريم.. وقد قال بعضُ المفسرين إنَّ أسماء الله الحسنى هي من صفاته بحيث تكون الصفة هي الاسم، والاسم هو الصفة، ولا فرق، لأنها الأسماء ـ أو الصفات ـ الحسنى في ذاتها، فلا تحتاج إلى استحسان من الخلق، إنما توحي بالحسنى للقلوب وتفيضها عليها. وهي الأسماء التي يجب على المؤمن أنْ يتدبرها

ليجعل نفسه منقادةً لإيحائها واتجاهها، حتى يكون له التدرج في المراقي وهو يتطلع إليها..

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(١). والتسبيح لله تعالى دائم لا ينقطع يتردد في جنبات الوجود كله، وينبعث من كل موجود، تتشارك فيه الأحياء والأشياء، فسبحان الله رب العالمين.

وإذا كان كل ما في السماوات والأرض قد علم صلاته وتسبيحه للخالق العظيم، فما بال هذا الإنسان الذي يخاطبه الله تعالى بقوله العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾.. إنه نداء للمخلوق البشري في أكرم صفة يتميز بها عن سائر الأحياء وهي: «إنسانيته». وفي هذا النداء عتاب من ذي العزة والجلال لهذا الإنسان الذي تكرم عليه، فخلقه، ورعاه، ودبَّره... نداء يثير فيه اتجاهات نفسه الملتوية التي جعلته يقصِّر في حق ربه الكريم، ويتهاون في أمره، ويسيء الأدب في تعامله مع نفسه ومع الآخرين.. فهل يجوز هذا للإنسان بعدما أغدق عليه ربه من كرمه وفضله وبرّه فوق ما يتصور ويدرك؟!..

ومن هذا الفيض الرباني، والكرم الإلهي: أنْ خَلَقَهُ فسواه، فعدله.. وهو قادر على أنْ يركّبه في أي صورة يشاء، ووفق ما يشاء..

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

فأما خلق الإنسان على هذه الصورة السوية، المعتدلة، الكاملة الشكل والوظيفة، فأمر يستحق التدبر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم، والحب من المخلوق لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة الجميلة، وقد كان قادراً على أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة. . ثم إنَّ هذه الصورة على كمال تكوينها العضوي والنفسي، لا بدَّ وأن تتشكَّل منها صور مختلفة، وأشكال متغيرة، تبدأ مع مراحل عمر الإنسان، وتنتهي عند أجله: إذ تكون له صورة وهو طفل، وأخرى وهو فتى، وصورة وهو شاب في مقتبل الفتوة والحيوية، وصورة وهو كهل بدأ الشيب يغزو رأسه والتجاعيد تقتحم وجهه، ثم ينتقل من مرحلة الكهولة إلى مرحلة الشيخوخة حيث يدب فيه الوهن والضعف في خلايا الجسم وفي وظائف الأعضاء وفي الحواس، ولا يمكن أنْ يجري على الإنسان هذا التغيُّر إلاَّ أنْ يشاء الله تعالى ذلك. . فقد يبقى للإنسان رونقه، وجماله، وقوته إلى حين مماته. . وقد يغيّره تعالى تغييراً كبيراً في الصورة الخارجية كما في صورة نفسه. . ولعلَّ بإمكان الإنسان أنْ يعيَ مضمون حياته كلها، ولو أنَّه تبع تلك المراحل التي مرَّ بها من خلال الصور الفوتوغرافية التي تؤخذ له في كل مرحلة من مراحل عمره، حتى قد لا يعرف صورته وهو طفل يحبو، ويعجب قائلاً: «أحقاً هذا أنا»؟!. . . فتعالى الله الخالق، البارئ، المصوّر، في أي صورة ما شاء ركّب الإنسان، سواءً عند خلقه، وفي جميع مراحل حياته. .

ومن مجمل الآيات القرآنية السابقة نستنتج أنَّ الخالق العظيم قد جعل لكل جنسٍ، ولكل نوعٍ من مخلوقاته الحية صورةً هي هيئةُ خَلْقِهِ

وكيفيةُ تركيبه؛ وقد يشترك الإنسان مع تلك المخلوقات في بذل الجهد لإشباع حاجاته العضوية وغرائزه، إلاَّ أنه يتميّز عنها بالطاقة النفسية التي تبرزه بمجمل صفاته وخصاله الإنسانية من مثل الحب والكراهية، أو الطمع والقناعة، أو البخل والكرم، أو الشجاعة والجبن، أو الحمق والنباهة، أو الاستقامة والانحراف. . . وما إلى ذلك من الصفات التي تدل على شخصية كل إنسان، وتبرز له صورة أخرى ـ غير الصورة الفيزيولوجية ـ تميّزه عن أبناء جنسه جميعاً. .

وإلى هاتين الصورتين، الجسدية والنفسية، غالباً ما تتكوَّن للإنسان صورةٌ أعمّ وأشمل، يمكن أن نسميها صورته الاجتماعية أو الإنسانية، وهي الصورة التي يشارك في إظهارها معه أولئك الذين تعامل معهم في حياته. . إذْ إنَّ الناس، ومن خلال مباشرة الإنسان لإعماله، ومن مجمل علاقاته مع الآخرين، لا بدَّ وأنْ يلتقطوا في أذهانهم صوراً حسيّةً ومعنويةً له، وأنْ يكوّنوا عنه أفكاراً معينة، ويصفوه بأوصاف معينة، يكون من نتيجتها الحكم عليه، وهذا الحكم هو ما يشكل إطار صورته العامة، وما قد يتفرّع عنها من صورٍ متعددة تبعاً لما يقدّرون فيه من المزايا والخصال الحميدة، أو ما يؤاخذونه عليه من التصرفات والأفعال السيئة. . ويبقى أن نشير إلى نقطة جوهرية، قد يغفل عنها غالبية الناس، وهي أنَّ الله تعالى قد أوكل بكل إنسانٍ ملائكةً تحفظ عنه جميع صور حياته منذ بداية نشأته وإلى حين وفاته، وتلك الصور سوف تعرض عليه يوم القيامة متتابعةً متسلسلةً، تماماً كما يعرض الفيلم السينمائي الذي جرى تصويره وتسجيله على أشرطةٍ تمكّن من مشاهدته. . وهذا ما يستدعي من الإنسان أنْ يدرك أنَّ يوم الحسابِ آتٍ لا محالة، وأنه سوف يلاقي ربَّهُ الكريم، الذي

يحاسبه على كل ما أجرى في حياته الدنيا، ويكون من الشواهد عليه تلك الصور الحسيّة والمادية، والنفسية والمعنوية التي حفظتها الملائكة عنه، ونقلتها إلى ربها تعالى بكل أمانةٍ، دونما زيادةٍ أو نقصان، لأنَّ وكالتها كانت محصورة فقط بحفظ الصور ونقلها.. وفي ذلك اليوم العظيم، وعلى أساس تلك الصور، وغيرها من الشواهد، يتقرّر مصير الإنسان في الآخرة..

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(١)، إنه توكيد ربّ العالمين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.. وإحياؤهُ تعالى للموتى يكون يوم القيامة، حيث يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون.. وفي ساحة ذلك اليوم الموعود، ينتصب ميزانُ العدل الإلهي لينالَ الناسُ جميعاً الجزاء الذي يستحقون على ما قدَّموا في حياتهم الدنيا.. وقد يتوهم أناسٌ أنهم قادرون على الإفلاتِ من الحساب في ذلك اليوم ـ كما قدروا على الإفلات من عواقب جرائمهم في الحياة الدنيا ـ ولكن هيهات هيهات، إذ لم يفطنوا، أو يتذكروا بأنَّ الله تعالى قد أمرَ الملائكة الموكلين بأهل الأرض أن يكتبوا كلَّ ما قدَّموا في دنياهم من الطاعات والمعاصي، وأن يدوّنوا الأعمال التي أتوها وكان لها أثرها ليس على أنفسهم وحسب، بل وعلى غيرهم من الناس الذين أخذوها عنهم وعملوا بها حتى كانت لديهم بمثابة السنن التي يقتدون بها، ويسيرون عليها.. والتي قد تكون في بعضها حسنة، وفي بعضها قبيحة، ولكل منها جزاؤه يوم الحساب.. وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله:

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[1].

إذاً، فمن الحق أن نؤمن بأن لا شيء يأتيه أحدٌ من الناس في هذه الدنيا ويمكن أنْ يفلت من العدل الإلهي، لأنَّ كلَّ شيءٍ من أقوال الناس وأفعالهم محصيٌ في «إمام مبين» أي في اللوح المحفوظ عند رب العرش العظيم. .وذلك أنَّ الملائكة الذين أوكلهم الله سبحانه وتعالى ليكونوا رقباء وحافظين إنَّما يحصون على كل واحدٍ من الناس جميع ما يصدر عنه إحصاءً واضحاً بيّناً في الملف أو في الكتاب الذي يلزمُهُ يوم القيامة. . والإنسان هو نفسه صانع سجل حياته، أو بطل الفيلم السينمائي الذي يحكي قصة حياته، بكل تفاصيلها مع ما يتشعبُ فيه من الصور سواء لناحية ما قام به وحده، أو ناحية ما تشارك فيه مع الآخرين. . ويأتي سجل الإنسان يوم الحساب بمنتهى الدقة، لأن الملائكة المأمورين من ربهم كانوا يقومون بالتسجيل والحفظ ليأتي كل ما أحصوه على الإنسان كاملاً وبلا زيادة أو نقصان وهذا ما يشير إليه الآية الكريمة كي تسترعي انتباه الإنسان الحصيف وتشدُّهُ إلى آفاقها البعيدة. . إذ لو فكَّر هذا الإنسان ملياً في تلك الآفاق، وما تؤدي إليه لامتلأ منها رعباً وخوفاً وخشية، وأعاد النظر بالصلة التي تربطه بربه تعالى وبالآخرين. فعندما يقول الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا يعني أنَّنا سجلنا عليه حركاته وسكناته، وأحصينا عليه جميع أقواله وأعماله في كتاب واضح صريح

---

(١) كنز العمال، ج١٥، ص٧٨٠.

هو طائره في عنقه يوم الحساب، لأنه يبين له كل شاردة وواردة صدرت عنه. . .

وقد كنّا حتى الأمس القريب لا نتفهم معاني هذه الآية الكريمة بالدقة التي يريديها القرآن الكريم، حتى ظهرت الأشرطة المسجّلة، وخاصة أشرطة آلات التصوير، وأشرطة التسجيل على آلات الڤيديو، أو أجهزة الإنترنت وغيرها من الوسائل التي باتت تستعمل بما يشبه الخبز اليومي عند كثير من الناس، فقرَّب ذلك فهمَ قول الله تعالى إلى أذهاننا بعض الشيء، وصرنا نعقل أنه سبحانه وتعالى قد وكّل ملائكةً يسجلون كلامنا الذي نتفوّه به، ويكتبون أعمالنا التي نقوم بها، وذلك بطريقة سريعة، قد لا نعرف ماهيتها، وإنما هي سريعة إلى درجةٍ بعيدة تقدر معها على استيعاب كل قول أو فعل، تماماً كما يستوعب الشريط المسجل كلَّ مشهد مما يُصوَّر، أو كلَّ لفظةٍ مما يُقال . . وهذا ما يفسِّر لنا ـ من ثمَّ ـ استيعاب تسجيل أعمالنا وأقوالنا بدقة قد تصل عندنا إلى الخمسين بالمئة من استيعاب فهم قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، وأما دليلُنا فهو ما يعرف بـ(الڤيديو)، أو ما يماثله من الآلات الحديثة، التي لا تعدو أن تكون في واقعها تلك الأشرطة التي تسجل الصورة والصوت لكل ما يراد تسجيله عن الناس، أو الحيوان، أو الجماد حتى نعود ونشاهد، عبر أجهزة البث وشاشاتها كل شكل، وكل حركة وكل لفتة، وكل سكون، أو قعود أو قيام جرى تسجيله على تلك الأشرطة. . بل وبفعل تلك الآلات والأجهزة بات بإمكاننا أنْ نطّلع على ما يجري في المؤتمرات التي تعقد، والحفلات

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

التي تقام، وعلى الأحداث التي تتقلّب على ساحات العالم كلها. . .
وهذا قد سهَّل علينا فهم الآية الكريمة حول أفعال الناس ـ أفراداً وجماعات ـ وما جعلنا ندرك أنَّ الذي قال: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾، قد خلق ـ سبحانه ـ وسائل للتسجيل تفوق ـ حكماً ـ بدّقتها، وضبطها كل ما يمكن أن يخترع الإنسان في هذا المضمار، لأنَّ تسجيلات ملائكة الله ـ تعالى ـ تُعيد لكلِّ واحدٍ من الناس، بمفرده، شريط حياته في الدنيا، فيرى تماماً كلَّ ما أقدم عليه أو قام به ـ في السرّ والعلانية ـ سواء منها الأعمال الصالحة من الطاعة، والتعبّد، والخير، ونصرة الحق. . . أو الأعمال السيئة من المعصية، والكفر، والشر، ونصرة الباطل. . . ويومئذٍ ـ يوم يُعرض شريط هذه التسجيلات ـ يحسّ الإنسان بمسؤولية كل ما ارتكب من الجرائم والآثام والذنوب، وكل جريرةٍ مهما كانت صغيرةً أو كبيرة، أي يكون كتاب الإنسان في حياته الدنيوية كلها، حاضراً أمام عينيه، بحيث يبدأ حسابُهُ من نفسه، وعلى نفسه، عندما يقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[1]. . فإنَّ أنكر ما في كتابه جاء دور الشهود من أعضاء بدنه وجوارحه: لسانه، وجلده، ويديه، وقدميه، وأذنيه، وعينيه، ثم عقله وقلبه، وكل واحدٍ منها يحكي عمَّا استعملَهُ له صاحُبُه في الخير أو الشر، في الحسنات أو السيئات، في الطيبات أو المحرمات. . . ثم يأتي بعد ذلك دور الحافظين من الملائكة الذين يشهدون بصدق وأحقية على ما حفظوا في سجل حياة الإنسان الذي كانوا موكلين به، بحيث لا تفلت الحركة، أو النأمة[2]، ونظرة الريبة، أو مثقال الذرّة من

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٢) النأمة: النغمة، أو الصوت.

خير أو شرّ إلاّ ووضع في ميزان العدل الإلهي لكي يتقرَّر مصير هذا الإنسان: إما إلى الجنة فيكون من أهل النعيم، وإمَّا إلى النار فيكون من أهل الجحيم ـ وبناءً على هذا الفهم نرى أنه كلما تقربت العبقرية تقنية ومعارف كانت أقرب إلى فهم القرآن الكريم ـ.

وإن تعجب من ذلك، فعجبك أكبر من تطاير مليارات ومليارات الكتب يوم الحساب، بعدد الناس من آدم إلى يوم القيامة، ووقوع كل كتاب بيد صاحبه ـ لا بيد غيره ـ فلا يحار كتاب، ولا يحور، ولا يدور: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1] وطائره ـ هنا ـ كتابه الذي يأتيه كالطائر الذي يغطُّ على المكان.. وذلك بعد أنْ تتسابق الأرواح، بعد النفخة الأخيرة في الصُور، وتتطاير متزاحمةً، كل روح إلى جسد صاحبها لا تخطئه ولا تحيد عنه.. فتأمل ـ أيها الإنسانُ ـ قدرة الله تعالى، ودقة النظام الذي أوجبه ليوم الحساب، حيث الملك يومئذٍ لله ربِّ العالمين، الرحمنِ الرحيم، مالكِ يوم الدين. وحيث الأبصار خاشعة للرحمن، الذي على العرش استوى، يفيض على عباده بالرأفة والرحمة اللتين لولاهما لما دخل إنسانٌ الجنة...

المهم أنْ نبيِّن بوضوح، من مجمل الآيات السابقة، أنَّ الله تعالى هو الذي يصورنا، بمحض إرادته وكيفما يشاء، كما يصوّر جميع مخلوقاته.. وأما ما يفعله الناس الذين يطلق عليهم صفة «المصورين»، أو «الشعراء» الذين يأتون بالصور الذهنية، أو «الموسيقيين» الذين يأتون بتصورات تنمّ عنها الأنغام والألحان التي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

يؤلفونها.. فكل أولئك ليسوا بمصوّرين، وإنما هم مجسّدون لأشكال، ومظهرون لمشاعر، لا تنمُّ عن قدرة في التصوير، وإنما عن قدرة في نقل الصور الموجودة أصلاً، والتي تعود في إيجادها وتصويرها إلى الخالق وحده..

وقد يتوهم من يظنُّ نفسه مصوراً أو شاعراً أو غيرهما من الذين يجسدون الصور المخلوقة - حسية أو ذهنية - أنهم يقومون بالتصوير فعلاً، وذلك بسبب ما يوسوس به الشيطان في نفوسهم، وما ينفث فيها من أوهام بعيدة عن معنى المصوِّر، ومعنى التصوير، أي عن الحقيقة المطلقة بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الخالق المصوّر.. وبسبب تلك الأوهام وأفاعيل الشيطان يبيّن لنا القرآن الكريم أنَّ الله تعالى مطَّلع على سرائر هؤلاء الناس، وعالم بوساوس نفوسهم، فأنزل - سبحانه - آيات بينات تتناولهم في أوهامهم وأباطيلهم.

ومن العجب العجاب الذي يأخذ الإنسان، أنَّ الله تعالى ذكر الشعر والشعراء في ست سور من القرآن الكريم، وذكر الصورة والتصوير في ست سور أيضاً.

فأما عن ألفاظ «الصورة والتصوير» فقد وردت في الآيات السابقة التي تم بحثها. وأما من حيث لفظة «الشعر» فلم تذكر إلا في سورة واحدة هي سورة «يَس». وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1]. في حين أن لفظة «الشاعر» قد وردت في أربع سور هي:

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.

سورة الأنبياء، الآية: ٥، في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

سورة الطور، الآية، ٣٠، في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي بل هو شاعر ننتظر حوادث الزمان أن تنزل به فيهلك كغيره من الشعراء.

سورة الصافات، الآية، ٣٦، في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؟

سورة الحاقة، الآية، ٤١ ـ ٤٤، في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وتبقى لفظة «الشعراء» التي سيرد الحديث عنها تفصيلاً..

ثانياً: الكهانة والعرافة

الكاهن: هو الذي يخبر الأخبار الماضية الخفيَّة بناءً على الظن، وهو غير العرَّاف، لأن العرَّاف يخبر الأخبار المستقبلية وليست الماضية بناءً على الظن أيضاً.

ولما كانت صناعة الكهانة أو العرافة مبنية على الظن الذي قد يخطىءُ ويصيب، فقد قال الرسول ﷺ: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما قال، فقد كفر بما أنزل على أبي القاسم محمد** ﷺ»[1]. ويقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾[2]... فقد أخبرَ القرآنُ

---

(١) كنزل العمال ج٦، ص٧٤٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١ ـ ٢٢٣.

الكريم أنَّ شياطين الجن كانوا يسترقون السمع، إلى ما تتحدَّث به الملائكة فيما بينهم، ثم ينقلونه، بعد أن يزيدوا عليه كذباً كثيراً، إلى الكهنة، الذين كانوا يستفيضون ـ بدورهم ـ في الكذب على الناس، وهم يدَّعون أنهم يعلمون الغيب! . . وقد كان ذلك يحصل من قبل . . إلاَّ أنَّ الشياطين حجبت عن الاستماع إلى الملائكة بعد نزول القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1]. وسئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء. فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً. فقال: تلك الكلمة من الحق يتخطَّفها الجنيُّ، فيقرها في أذن وليّه (أي الكاهن وأمثاله) فيخلطون معها مئة كذبة»[2].

ومن قول للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «يا أيها الناس، إياكم وتعلُّم النُّجوم إلا ما يُهتدى به في برٍّ أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة. والمنجِّمُ كالكاهن، والكاهنُ كالساحر، والساحرُ كالكافر، والكافر في النار».

ثالثاً: الشعراء

إنَّ من سور القرآن الكريم سورةً من ٢٢٧ آية كريمة هي سورة «الشعراء»، وقد وردت لفظة الشعراء في آيةٍ واحدةٍ من هذه السورة هي الآية ٢٢٤، بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فعندما نقول:

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ٦ ـ ١٠.

(٢) صحيح البخاري ج١٨، ص٥١.

غوى فلانٌ فمعناه أنه جهل أو ضلَّ، أو خابَ، ولذلك قيل عن الغيّ بأنه «جهل من اعتقادٍ فاسدٍ». ونعت الذين يتبعون الشعراء بالغاوين يحمل ذلَّهم، وذمَّ الشعراء في آنٍ معاً، لأنَّ التابعَ إذا كان مذموماً فالأحرى أنْ يكون المتبوعُ مذموماً.. وهذا الذمّ للشعراء ومن يتبعون نهجهم يبيّن أسبابَهُ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1] أي في كل نوعٍ من الكلام يغالون في المدح والذم، وسائر فنون الشعر الأخرى. ومنه: الهائِم على وجهه: المخالف للقصد، والذاهب في الأرض وقد اشتدَّ عشقُهُ وعطشُهُ.. وهؤلاء الهِيْمُ، يلفت القرآن إلى أنهم يهيمون في الأودية ـ وليس في الذرى والمرتفعات ـ بحيث يكونون أسرى الانفعالات والعواطف المتقلّبة، التي تجعلهم يهيمون في كل وادٍ من أودية الشعر، أو أودية الخيال، والتصور غير الواقعي؛ فقد تسيطر عليهم المشاعر والأهواء فيصوغون منها ذلك الكلام الذي يعبّر عن تيههم، وضياعهم في تلك الأماكن السحيقة، والذي يجعلهم يرونَ الشيءَ الواحدَ أبيضَ في حينٍ، وأسودَ في حينٍ آخر، أو قد يجعلهم يرضون فيقولون مدحاً، ويسخطون فيقولون هجاء.. فهم أصحاب أمزجةٍ لا تثبت على حالٍ..

وقد تأتي في أشعارهم الحكمة، أو النصيحة، وقد يصوررون معاني الشجاعة والبطولة، أو يمتدحون الفضائل، ويمجدون دعاة الإصلاح ويحثون الناس على اتباعهم.. وقد يوارون في نقد الحكام، ويعيبون على الأمة تقاعسها عن النهوض من كبواتها.. فكل ذلك قد

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٢٢٥ و٢٢٦.

نقرأه في أشعارهم، أمَّا حين نرقب آمالهم فقد نجد منهم ما يغاير تماماً ما قالوا؛ أما شعرهم الوجداني، الذي يعبّر عن أهوائهم الشخصية، فهو أكثر ما يأتي من الخيال الجامح، إذ قد يصنع الشاعر من النجوم عِقداً لجيد حبيبته، وقد يجعل سكناها في القمر أو الزهرة ليبعدها عن عيون الحسَّاد، وقد يحارب التنين ليخلّصها من براثنه، وما إلى ذلك مما لا يمتُّ إلى الواقع بصلة.. أما الخلفية لمثل هذا الخيال الجامح فهو تمجيد الذات، وتصوّر الشاعر أنه هو محور الوجود، فلا يدانيه أحدٌ من حوله، فكان من الطبيعي أن يتناسى في مثل هذه الحالات هموم الناس، أو أن يهتم بمعالجة الأوضاع التي يشتكون منها، ولذلك نجد أنه بمقدار ما تبتعد أشعارهم عن ملامسة واقع الحياة الحي، بمقدار ما تطابق الخيالَ في أذهاهم. . فاستمع مثلاً إلى المتنبي، الذي كان من أشهر الشعراء في الأدب العربي، عندما يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ

فهل بعد أقوى من هذه النزعة الذاتية التي تجعل الأعمى يرى، والأصمَّ يسمع؟. وهل هذا إلاَّ محضُ توهّم من الشاعر أو مجرّد إرضاء لغروره بما يقول من الشعر؟.. هذا من حيث التوصيف العام للشعراء، الذي يدلُّ على أنَّ الخيالَ يغلب عليهم، والتصورات الوهمية تأسرهم، فتأتي من جرائها أقوالهم بخلاف أفعالهم وصدق الله تعالى وهو يقول: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. أما من حيث العقيدة، فإنَّ الآيات التي وردت في كل من سورة الأنبياء[1]، والطور[2]،

(١) سورة الأنبياء، وقد ورد في الآية ٥ منها: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

(٢) سورة الطور، وقد ورد في الآية ٣٠ منها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

والصافات[1] والحاقة[2] تبيّن بوضوح أنَّ المشركين والكفار كانوا ينعتون النبيَّ ﷺ بأنه شاعر، بل وبأنّه شاعرٌ مجنونٌ.. والله سبحانه وتعالى ينفي عنه هذا الاتهام الباطل «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون»[3]، كما نفى عنه قول الشعر ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾[4].. وهذا في حقيقته، وفي أبعاده إنَّما يعني أنَّ للشعراء نهجاً كلامياً، ومنهجاً في الحياة يغايرُ تماماً منهج الله تعالى الذي بعث به محمد ﷺ، فلما لم يصدّقوا رسول الله ﷺ ولم يريدوا قبول منهج الله، اعتدُّوا بالنهج الكلامي للشعراء، فقالوا عن النبي إنه شاعر، وقالوا عن القرآن إنه شعر.. وهذا من أهم الأدلة على أنَّ الكفار والمشركين، كانوا هم أنفسهم، يحقّرون منهج الشعراء في العقيدة وإلاَّ لما وصفوا عدوهم محمداً ﷺ بأنه شاعرٌ!...

إذاً هنالك منهجان مختلفان: منهج الحق، وقد جاء به القرآن من عند الله تعالى، وحمله رسول الله ﷺ ومنهج الخيال والوهم، وقد حمله الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.. فالأمر واضح وصريح، وشتّان ما بين منهج هؤلاء الذين يقودهم الهوى والمزاج، ومن ثم يتبعهم الغاوون الذين لا منهج لم ولا هدف، لأنهم ينطلقون من معتقداتٍ فاسدةٍ مبنية على الجهل!.. وما بين منهج الإسلام، الذي هو منهج حياة، وأنزل من لدن رب العالمين للتنفيذ في واقع الحياة.. ولذلك كانت طبيعة الإسلام لا تتلاءم وطبيعة المناهج، والمفاهيم غير

---

(١) سورة الصافات، وقد جاء في الآيتين ٣٥ و٣٦ منها: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾.

(٢) سورة الحاقة، وقد جاء في الآية ٤١ منها: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٩.

الجدية، وغير السويّة؛ فالإسلام إنَّما جاء ليربّي الإنسان تربية إيمانية أصلها الحق، ومنهجها الحق، ثم ليأخذ بيده إلى ما فيه خيره وصلاحه؛ فإنْ عمَّتْ أو غلبت مناهج الغواية والضلال على منهج الإسلام فإنَّ ذلك ينافي الطبيعة البشرية، ويزيد من ظهور الفساد في حياة الناس.. إذْ لو لم يكن الإسلام دين الله القويم لما ارتضاه الله تعالى لعباده، ولو لم تكن مناهج هذا الدين صالحةً للحياة لما أنزلها ربُّ العالمين في كتابه المجيد.. ومن هنا كان توجيه القرآن للإنسان بألاَّ ينزلق في متاهات الوهم والغواية كما يفعل الشعراء وأتباعهم، أو كما يفعل غيرهم من الضالين والمضلّلين!...

كما نرى في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.(١) وكان رسول الله ﷺ يأمر حسان بن ثابت أن يهجوَ الكفار بالشعر، فالإسلام لا يحارب الشعر كفنٍّ لذاته، إنما يحارب المنهج الذي يسير عليه الشعر أو أي فن آخر يتبع منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام الوهمية التي يهيم أصحابها في وديانهم الشعرية..

فأما حين تستشعر النفس منهج الإسلام، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً، وتعمل على تحقيق المشاعر النبيلة في دنيا الناس، كما يريدها الإسلامُ لصقل مشاعرهم وتهذيبها ثم تعبِّر عن هذا كله شعراً وفناً، فالإسلام عند ذلك لا يكره الشعر، ولذلك نجد أن القرآن الكريم وجه القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

النفس البشرية، ويمكن أن تكون هذه وتلك مادة للشعر أو الفن، الذي يرضي الله تعالى ولا يسخطه.

ولكن ما نراه اليوم من ضروب الفنون ـ أو ما يسمونه فنوناً ـ وما تمثل من تعدٍّ على حرمة الكائن البشري وكرامته، بما يَطْلَعُونَ به على الناس من تلك الصور الإباحية، أو تلك التماثيل المجسّدة للأهواء والنزعات، أو هذا الشعر الغوغائي المقيت، أو هذا الغناء الهستيري الخليع! أو هذه الموسيقى التي وصَلَ أهلُ الشرّ لأنْ يوجّهوا فيها مخدرات للعقول تدفع إلى ارتكاب الجرائم التي يريدون ارتكابها!... فهل مثل هذه الفنون ـ كما يدّعون ـ مما يسمو بمدارك النفس البشرية، ويبرهن على معجزات الخالق في الكون؟ أبداً.. ولذلك جاء الإسلام يسفه كل ما يحطّ من كرامة الإنسان، أو يبعده بعقله وعاطفته عن فطرته الأصيلة، لأنّه ـ وهو ذو المنهج القويم في الحياة، لا يريد أن يعرّي الإنسان من كرامته التي أكرمَهُ الله تعالى بها، ولا يريد أن تتخذ مواد الكون والحياة مظاهر للتعدي على صفة الخلق التي لا تكون إلاّ لله تعالى وحده.. وهذا ما أرادَ رسولُ الله ﷺ أن يحذّر منه، أي من الأوهام التي قد تطغى على نفوس الشعراء أو الفنانين، أو غيرهم، وقد خصَّ بالتحذير المصوّرين، بأحاديث شريفة ومنها: **«من صوَّر صورةً كُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»**[1] أو حديثه: **«كل مصور في النار يُجْعَلُ له بكل صورة صورها نفسٌ تعذبه»**[2] وحديثه ﷺ: **«ومن صور صورة عُذّب وكلف أن ينفخ فيها الروح»**[3].

---

(١) صحيح مسلم، باب اللباس، ص٩٧.
(٢) المصدر السابق، ص٩٩.
(٣) البخاري، ص٤٥.

والمقصود هنا الصور التي يتم ابتداعها ولا يكون لها أصل في الموجودات التي خلقها الله تعالى، وليس الصور التي تنقش الأشكال من خلق الله . .

إذن فكل ما كان أهل الباطل يجدّفون به على النبي ﷺ وعلى القرآن الكريم من الاتهامات الكاذبة كان دافعُهُ الانفعالات والتأثيرات التي تنبعث من تصوراتهم التي تصادم الحق الذي جاء به محمد ﷺ، فكان حقاً أن يذمَّ ربّ العزة والجلال في كتابه المجيد كل تلك التصورات والأوهام التي تبعد الناس عن العقيدة والحق والصواب من مثل أفعال المجرمين، والمفسدين، والمضللين؛ أو من مثل أفعال السحرة التي تزيّف الحقيقة وتعجل الناس يتخيلون أشياء لا تمت إلى الواقع بصلة، وذلك بفعل التخيّل الذي يطغى على أفئدتهم... فما هو التخيل وتأثيراته، ولاسيما التخيّل المتأتّي عن السحر؟

التخيـل

الخيال ـ في أصله ـ صورة مجردة قد تكون ابتكاراً من الذهن أو النفس أو انعكاساً لصورة فعليةٍ واقعية. ومن قبيل ذلك الصورة التي تُرى في الأحلام، أو في القلب بعيد غيبوبة المرئي، أو الصورة التي نراها في المرآة. وهي بذلك تشتمل على صورة أي كائن من الأحياء أو الجماعات، أو أي أمر مُتصوَّر يجري مجرى الخيال. والفعل الذي يجري به الخيال هو التخيّل. وهذا التخيل يكون على نوعين: تخيّل مبدع، وتخيّل وهمي. والأخير لا يمت إلى الحقيقة بصلة أبداً، ومثاله السحر الذي اشتهر به المشعوذون عبر الأزمان، والذي يختلف اختلافاً كلياً عن التخيل المبدع؟

السحر

السحر في اللغة: الصرف. تقول سحره عن كذا أي صرفه وأبعده عنه. ويطلق السحر على إخراج الباطل في صورة الحق. ولذلك فإنَّ كل ما يفعله الإنسان من الحيلة والكذب والخديعة والتمويه، ومن شأنه أنْ يصرف عن الحق ويلبس ثوب الباطل يمكن أن يدخل في السحر.. كما يمكن أن يدخل فيه ما يقرّب فعل الإنسان من فعل الشيطان، ويبتعد به عن طاعة الرحمن، فكان السحر بذلك من الأفعال الضالة المضللة. وقد كان السحر من صناعة المجوس والكفار الذين كانوا يعبدون النار والكواكب والأوثان لاعتقادهم بأنَّ لها تأثيراً كبيراً على حياة الناس، بحيث كانوا يتوهَّمون بأنها مصدر للخير أو الشرّ، وأنَّ تأثيرها قد يصل إلى النفوس فيجعل الناس سعداء أو أشقياء. وبسبب تلك المعتقدات، أو الأفكار الوهمية صار للسحرة شأنٌ كبير، فراحوا يستخدمون شعوذاتهم وطقوسهم في مداواة المرضى، وفي العثور على الأشياء المفقودة، أو التأليف بين القلوب، أو التفريق هذا وذاك، وما إلى ذلك من الخرافات التي لا يمكن أن تغيّر شيئاً من حقيقة الواقع، إذ ماذا تنفع التعاويذ في طرد الأرواح الشريرة، وماذا تجدي التمائم لجلب الحظ؟ وعلى الرغم من ذلك، فقد استخدم كبار القوم، وأصحاب السلطة والنفوذ السحرةَ، فقربوهم إلى جانبهم، وجعلوهم مستشارين في كثيرٍ من أمورهم، إلى جانب الاستعانة بهم للتسلّط على الناس، والاستبداد بهم!.. ولذلك كان التأثير كبيراً في كل زمان عمَّ فيه الجهل في العقول، واستبدَّ الضلال في النفوس..

والسحر، بالمفاهيم الحديثة، هو ما يؤدي إلى الإتيان بأفعال خارقة يعجز الإنسان العادي عن فعلها، ومن شأنه التأثير في النفوس بطريقة من الطرق، كما يشاهد في الطقوس التي تمارسها بعض الجماعات التي أزلَّها الشيطان، وفي الشعوذات التي يستخدمها بعض الأفراد كي يوهموا المرضى بأنهم قادرون على شفائهم، أو أصحاب الحاجات بأنَّ لهم القدرة على حاجاتهم!..

ويقوم عمل الساحر على إيهام الناس بقدرته على الاستعانة بقوى الطبيعة، أو بقوى غيبية يكون على اتصالٍ بها، ويستطيع أن يؤثر بظواهرها. أما حقيقة عمله فهي خداع عيون الناس بأساليب مليئة بالتمويه والتضليل والشعوذة، ولذلك نراه يلجأ في إتيان سحره إلى السِّرِّية بحجة مخاطبة قوى الطبيعة، أو مخاطبة الجانّ واستحضارهم بين يديه لتلبية طلباته.

ومن الطبيعي القول إنَّ قوى الطبيعة وظواهرها تجري وفق سنن وقوانين محكومة بها منذ خَلْقِها. وهي لا يطرأ عليها أي تبديل أو تحويل إلاَّ أنْ يشاء الله، صانعُ الكون، ومسيّرُ قواه، ومدبرُ قوانينه. وذلك يؤدي إلى القول بأنَّ عمل الساحر كلَّهُ خداعٌ وتضليل، لأنَّ من يدعي السحر لا يستطيع أنْ يغيّر من طبيعة الأشياء أبداً، فلا يمكنه مثلاً أن يحوِّل الحبل إلى ثعبان، أو الحمامة إلى قطعة قماش، فكيف يستطيع إذن أنْ يغير في ظواهر الطبيعة، وذلك مستحيل قطعاً، لأنَّه إنْ كان عاجزاً عن تحقيق مطامعه ورغباته، الذاتية أو حتى عن أبسط غاية من غاياته بفعل سحره، فكيف يمكنه عن طريق الشعوذة، والكذب والخداع أنْ يحققَ أمانيَ الناس وأحلامهم؟!.. ويبيّن القرآن الكريم

مدى قوة التأثير لأفعال السحرة على الناس، وذلك بقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، أي إنَّ السحرة الذين جاء بهم فرعونُ من كل أنحاء مصر لكي يغلبوا موسى عليه السلام قد ألقوا يوم الزينة، وعلى مرأى من الجماهير المحتشدة بحبالهم وعصيّهم، حتى خُيّل للناس أنها بفعل ذلك السحر تتحرك وتتلوى كالأفاعي، وبذلك سحروا أعين الناس، أي جعلوها ترى شيئاً عجباً، لا تستطيع عقولهم أن تدرك سرَّهُ، وهذا منتهى الخداع، والتمويه الذي يصرف عن الحقيقة والواقع، إذ لو كان فيما صنعوا أيُّ شيءٍ من الحقيقة لما قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾..

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. فبعد أن أُشكل معنى هذه الآيات من قبل بعض المفسرين والتبس أمر فهمها على بعض آخرين، هذه توضيحات حول معنى هذه الآيات:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٠١ و١٠٢.

١ ـ موقف اليهود من النبي سليمان عليه السلام

من الروايات الواردة في التفسير أن اليهود نسبوا السحر إلى سليمان عليه السلام وزعموا أن ملكه قائمٌ على السحر. وقد اختلف في السبب الذي لأجله نسب اليهود السحر إلى نبي الله، فروي أن سليمان كان قد جمع كتب السحرة وخبأها لئلا يطّلع الناس عليها فيعملوا بها. فلما مات عُثر على تلك الكتب، فاستغل السحرة ما فيها، وقالوا كذباً وافتراءً: إنما أقيم ملك سليمان بالسحر، وبه سخر الإنس والجن والطير، وزينوا في أعين الناس ليقتدوا بسليمان عليه السلام، وشاع ذلك في اليهود، فقبله أحبارهم لما يكنّون من العداوة للنبي سليمان عليه السلام.

وروي أنه لما هلك سليمان، وضع إبليس السحر، ثم كتبه في كتاب وطواه وكتب على ظهره: هذا ما وضع آصف بن برخيا من ملك سليمان بن داوود من ذخائر وكنوز العلم. ثم دفنه زمناً، ثم عاد فأظهره، فقال الكافرون من اليهود ما كان ليغلبنّ سليمان إلا بهذا وقال المؤمنون منهم: هو عبد الله ونبيه؛ فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾، وقد عُبّر عن السحر بالكفر بقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

٢ ـ من هما هاروت وماروت(١)

إما أن يكونا ملكين أنزلهما الله تعالى ببابل لهدي الناس وتحذيرهم من مفاعيل السحر الذي كان متفشياً في ذلك العهد.. وهذا مستبعد، لأنه لم يثبت على مدار الوجود البشري منذ آدم عليه السلام

(١) رجل هريت: لا يكتم سراً ويتكلم بالقبح؛ والمتهارت: المتشدق المكثار.

وجاءت اللفظتان هاروت وماروت في الآية الكريمة منصوبتين بدلاً من قوله تعالى: =

وإلى خاتم النبيين محمد ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد بعث لبني البشر نبياً من الملائكة، أو جعل لهم رسولاً من الملائكة يهدي إلى دين الله ، كما هي مهمة الأنبياء والمرسلين من بني البشر. لا بل إن نصوص القرآن تنفي جملة وتفصيلاً مثل هذا الأمر. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي رسلاً يحملون وحي الله إلى الأنبياء. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1]. وهذا ما ينفي بصورة قاطعة عن هاروت وماروت أن يكونا ملكين منزلين بصورة البشر على أهل بابل.

الوجه الثاني: أن يكونَ هاروت وماروت إما من شياطين الجن وإما من شياطين الإنس. وهذا الأصح ـ إذ ربما كانا ملكين من ملوك بابل التي اشتهرت بالعلوم، ونشأ فيها ما يعرف بالحضارة البابلية، وكانا يملكان من العلوم والمعارف ـ بما فيها أفانين السحر ـ ما يمكنهما به التمكن من السلطة، والسيطرة على عقول الناس.

٣ ـ إن الإنـزال فـي قـولـه تـعـالـى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ لا يجوز بحال من الأحوال أن يضاف إلى الله عزّ وجلّ، لأنه إنزال يتعلق بالسحر، وما كان لله أن ينزّل السحر الذي هو «كفر وخداع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، وإنما يخيل إلى

ـ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ بدل البعض من الكل. فيكون قوله: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ من المؤخر الذي معناه التقديم. أي إن هاروت وماروت يرجعان إلى الشياطين. وتقدير المعنى يكون: ولكن الشياطين هارون وماروت كفروا. ونظير هذا التقديم والتأخير في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] إذ تأخر الضمير العائد على الفاعل المؤخر (ربه) عن المفعول به الاسم (إبراهيم) الذي تقدم أيضاً على الفاعل.

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨ و٩.

المسحور، تخيلاً أنها حقيقة». وقيل عن السحر بأنه «عمل خفيّ يصور الشيء بخلاف صورته ويقلبه عن جنسه في الظاهر ولا يقلبه عن جنسه في الحقيقة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1]، أي حتى النبي موسى عليه السلام أخذ للوهلة الأولى وخيّل إليه أن حبال السحرة وعصيّهم ـ من شدة سحرهم ـ أنها تسعى.

٤ ـ والدليل على أن الله سبحانه وتعالى لا ينزّل السحر ـ وهو شرٌّ وحرامٌ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[2].

وفي ضوء هذه التوضيحات يكون معنى الآية الكريمة: لقد ترك اليهود ما أنزل الله على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم من التوراة وراحوا يتبعون ما يتلوه الشياطين، منذ عهد سليمان عليه السلام بما يضللون به الناس من دعاوٍ مكذوبة إذ يقولون بأنه كان ساحراً.

والقرآن الكريم ينفي عن سليمان السحر فيقول ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾[3] لأن الإسلام يعدّ السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن نبيه الكريم. إذاً، اتبع اليهود ما تتلوه الشياطين وتعمل به، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يعترفوا بصدقه. فيكون في هذا التأويل هاروتُ وماروتُ من شياطين الإنس الذين كفروا ويعلمون الناس السحر.

ويكون الملكان اللذان نفي عنهما السحر هما جبرائيل وميكائيل

(١) سورة طه، الآية: ٦٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ٥٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

ﷺ لأن اليهود كانت تدّعي أن الله سبحانه وتعالى أنزل السحر[1] على لسان جبرائيل وميكائيل. فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ فيه نفي إنزال السحر من الله عزَّ وجلّ على جبرائيل وميكائيل. حاشا لله أن ينزل السحر الذي هو كالكفر بواسطة ملائكته ليعلّموه للناس كما قال بعض المفسرين. لأن العمل الرديء (الشر) وتعليمه يكون من فعل شياطين الإنس. وفي قوله تعالى ردّ على اليهود الذين طالما ادعوا الأكاذيب والأباطيل بخصوصهما ﷺ[2].

وممَّا جاء به هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه أي بما يوغر صدر أحدهما على صاحبه ويبغضه إليه بما يؤدي إلى الفرقة بينهما، أو بالسعي بينهما بالنميمة والوشاية حتى يؤول أمرهما إلى الفرقة.

ولكن الله تعالى يقول إنهم لا يستطيعون أن يلحقوا الضرر والأذى إلا بعلم الله أو لمن شاء تعالى أن يتخلى عنهم لاستحقاقهم ذلك. وكان هاروت وماروت يقولان لمن يعلمانه: إنما نحن فتنة فلا

---

(١) (ما) في الآية الكريمة ليست اسماً موصولاً بمعنى التي وإنما هي ما النافية. ونظير ذلك في سورة يس: الكريمة ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥] إذ يقول البعض: (ما هنا بمعنى: ولم تعمله أيديهم).

الإنزال هنا ليس بالضرورة أن يكون من السماء فكل من هبط من النجد إلى الغور يقال له: نزل. ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا مِصْرًا﴾. أي انزلوا إلى بلدٍ ما.

(٢) يروى أن اليهود عندما سألوا رسول الله ﷺ: من ينزّل عليك الوحي أجاب بأنه جبرائيل .. فأعرضوا عن قبول ما أتى به محمد ﷺ وقالوا: لو أنزله ملاك مسالم لاتبعناك ولكن جبرائيل ملاك حرب وهو عدو.

فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ٩٨].

تكفر، وذلك على سبيل الاستهزاء والتهكم من الذين ينعتون السحر بالكفر ويتعلمونه.

وأخيراً يصف العليم الحكيم اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾، فالذين يتركون كتاب الله ويستبدلون به السحر ما لهم في الآخرة من نصيب ولبئس ما باعوا به حظهم حين اختاروا التكسب بالسحر (لو كانوا يعلمون) ما سيؤول إليه أمرهم من الأذى والخسران.

وما نريد أن ننبه إليه في النهاية هو أن الساحر لا يقدر على نفع أو ضر، إنه لا يقدر على شيء لأن عمله لا يستند إلى أصل حقيقي من علم أو عمل، فضلاً عن أنه لا يعلم الغيب الذي هو لله تعالى. ولو كان بمقدور الساحر أن يفعل ما يدّعيه لكان بإمكانه أن يحوز الممتلكات والثروات وأن يعتلي العروش من غير أن يناله مكروه.

ولكن ماذا عن الخيال المبدع؟

إنَّ هذا الخيال هو الشائع والمعروف في حياة الإنسان، وقيل إنَّه مبدعٌ لأنه ينشئ فكراً جديداً، من غير أنْ ينشئ صوراً من العدم، بل يستمد عناصر صوره من الواقع. ولذا قيل: «إن الخيال منسوج من الحقيقة». وقد فرق علماء علم النفس في «الإبداع» بين الصورة والمادة، واعتبروا أن التخيّل لا يُنتج مادة جديدة، بل يقتصر على جمع بعض الصور لبعضها الآخر، ثم يقوم بعملية التحليل، والتركيب، والتصغير، والتكبير. وهو بذلك يوجد صورةً جديدة، ولكنَّ مادتها موجودة في الواقع، فهذه الصورة وحدها هي الجديدة.

ولذلك يقال عن التخيّل إنّه مبدع، لأنّه يجمع عناصر المواد ليؤلف منها مركبات جديدة. وكل إبداع من هذا القبيل، في الحقيقة، هو تخيّل مبدع.

وقيمة التخيّل أنه يأتي من الواقع ويحاول أن يركب أشياء جديدة غيرَ هذا الواقع. فلا يكفي مثلاً أنْ يتخيَّل شخصٌ نالَ شهاداتٍ عاليةً في فرع أحد العلوم حتى يعتبر عالماً، بل يجب عليه أن يلاحظ ويقارن ويجرّب ويضع المعادلات والحسابات حتى يصل إلى وضع نظرية علمية عن المادة، أو الظاهرة الطبيعية التي يقوم بدراستها؛ وكذلك لا يكفي أنْ يتخيل الإنسان الفضيلة حتى يكون فاضلاً، بل عليه أنْ يسلك سبل الفضيلة في معايشة الناس، ومعرفة أوضاعهم، وطرق سلوكهم حتى يعدّوه فاضلاً، وقد ينسج من تجاربه وأفكاره قواعد سلوكية فاضلة، قد يكون تصوَّرها أو تخيَّلَها، أو قد آمن بصدقيتها من قبل.

وقد لا تأتي نتائج التخيل بحسب ما يريد المتخيل، فيصبح المعوّل عليه في هذه الحالة نية المتخيّل، فنجاحه في تحقيق تصوراته أو تخيلاته مربوط بالظروف والأحداث التي تواجهه، ولكن انطلاقه من نية معينة أو قصد معين هو الأساس، شرط أن تكون النية في الأصل معقولة، فلا تشوبها شائبة الخيال الوهمي، أو شائبة الباطل. ولذلك لا يمكن تطهير النية من الشوائب وتوجيهها نحو فعل الخير إلاَّ بتصور النتائج التي قد تترتب فيما بعد. فلو تخيَّلت مثلاً كيفيةً معيَّنةً لإزالة آلام البؤساء، وكانت لديك النية الصادقة لمساعدتهم وتكوّنت لديك الرحمة بهم، فمن ذلك كله يمكن أن تقوم بفعل الخير لهم. . ولذلك فإنَّ التخيّل المبدع جدير بأنْ يكون نافعاً ـ في أحيان كثيرة ـ

وتظهر قيمته في مواجهة الحياة العملية، وقدرة صاحبه على تحقيق الآمال التي يريدها، ونجاحه في ذلك. ومجال هذا النجاح في تخيّله أولاً، فالتاجر مثلاً قد يتقصّى حاجات زبائنه، وأذواقهم، ويتصوّر نوع الإشباع الذي يرضيهم، ثم يوظف الأموال اللازمة في مشروعه الجديد، ما قد يحقق له النجاح، وتوفير الأرباح من تلك التجارة. والقائد الماهر هو الذي يتخيَّل جميعَ ظروف المعركة، ثم يضع الخطط التي يظن أنها تؤمّن له النصر. وكذلك الحال بالنسبة إلى الحاكم مع رعيته، والرئيس مع مرؤوسيه إلخ. . وهي أمثلة تدل على أن التخيل ضروري لحسن التدبير، وإتقان العمل، والكشف عن الوسائل التي تؤدي إلى النجاح. .

وخلاصة القول أنَّ للتخيل أثراً في كل شأن من شؤون حياتنا، فالذين يعيشون الحياة العملية فقط، ويمارسون نشاطهم بحسب ما تمليه الأوضاع والظروف، ودونما ميل لديهم أو قدرة على التصوّر والتخيل، فهؤلاء قلما يُكتب لهم النجاح، إذ يكون أفق تفكيرهم محدوداً، وينتهي حيث تنتهي أعمالهم اليومية، والسبب أن الخيال الدافع لديهم للتقدم كان خالياً من الطموح. .

وكذلك فإنَّ التخيّل الذي يُوجد في الإنسان حالة نفسية ملأى بالأمل الوهاج، كثيراً ما يُبعد البعضَ عن الواقع، ويولد في نفوسهم الأحلام الروائية، ويجعلهم غير قادرين على التآلف مع وقائع الحياة وظروفها الحقيقية. . فقد يكون عالَمُ الخيال جميلاً، يُنسي عالم الواقع الفعلي، ويقطع كل صلة بين الإنسان وواقع حياته، بمعنى أنَّ على الإنسان ألاَّ يعيش دائماً في عالم التخيلات، ولا سيما تلك البعيدة

المنال، أو التي لا تنطبق على الواقع، كأنْ يتخيَّل أنْ يصير ملاكاً ذا أجنحة!.. بل عليه أن يعرف كيف يتصور، وكيف يتخيّل، ولكن في حدود المعقول، وضمن الإمكانات التي تتيح له أنْ يعيش حياةً ملؤها الجديَّة، والتفاعل، وتوخي الأفضل..

المبحث الثاني

الإنتباه والغفلة
الذاكرة والنسيان

الانتباه:

إن المثيرات التي تشد انتباهنا في ساعات اليقظة كثيرة جداً. ولكننا قد نركِّزُ على شيء ما، ثم ننتقل إلى آخر أو إلى ثالث، ورابع، فلا نختارُ من بين تلك الأشياء إلاَّ ما يُثير اهتمامنا، ويجذبنا إليه، علماً بأنَّ كلَّ ما شدَّ انتباها ليس - في الواقع - إلاَّ جزءاً ضئيلاً من الظواهر الحسية أو الموجودات التي تقع عليها حواسنا، ولذلك فإن العملية التي يتم اختيارنا بها لأشياء معينة، دون غيرها، إنما هي عملية الانتباه..

ولكن ما هي طبيعة الانتباه؟ لا يزال هذا الموضوع محل خلاف بين المعنيين، إذ يرى بعض علماء النفس أنَّ الانتباه هو «مصفاة لتصفية المعلومات عند نقاط مختلفة في عملية الإدراك»؛ بينما يعتقد آخرون «أنَّ الإنسان يركّز ببساطة على ما يريد رؤيته ويرتبط بالخبرة دون استبعاد مباشرة الأحداث المنافسة».

ويقال عن الانتباه: هو اليقظة، وقد عرَّفه أيضاً بعضهم على أنه

«تجمع للفاعلية النفسية حول ظاهرة من الظواهر تجعلها تامة الوضوح. فإذا كانت هذه الظاهرة خارجية كان الانتباه حسياً، وإذا كانت داخلية كان الانتباه تأملياً».

والمثال على الانتباه الحسي هو وقوع أشعة النور المرسلة داخل غرفة مظلمة على أحد الأشياء الموجودة فيها دون سائر الأشياء الأخرى، فَتُظْهِرُ الأشعَّةُ هذا الشيء، بينما قد تكون بقية الأشياء غير ظاهرة، وغير مرئية لنا تماماً.

وهكذا يجب تصور الانتباه الحسي على أنه شعور ينبعث من النفس ويوجه الاهتمام إلى شيء معين أكثر من الأشياء الأخرى الموجودة في ساحة الشعور، ولذلك كان تأثير الانتباه هاماً في إدراك الأشياء الخارجية.

أما الانتباه الداخلي فيكون تأثيره في المجالات الفكرية.. إذْ قد يكون لدى الإنسان أفكارٌ عاليةٌ مثل الإيمان، أو الحكم على الأمور، أو الاستدلال، وغيرها مما لا يمكن حدوثها أو بلورتها إلا بالانتباه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض الأمور العملية حيث إنَّ بعضها يثير الاهتمام ويشدُّ الانتباه إليه أكثر من غيره، وذلك من غير فرق بين أن يكون العمل فكرياً أو يدوياً، فما دام مهماً بالنسبة إلى الإنسان فإنه يحتاج إلى الانتباه الداخلي كما يحتاج إلى الانتباه الحسي، لكي تأتي نتائجه متوافقة مع مطلب الإنسان.

ولتوضيح مفهوم كلٍّ من الانتباه الحسي والانتباه الداخلي (التأمل الفكري) نعطي المثال التالي:

هب أنك كنت جالساً على شرفة منزلك، وأنظارك تمتد إلى

البعيد حيث القرى تتناثر فوق الجبال وتكسوها الثلوج، أو أنك كنت تنظر إلى الأبنية المرتفعة من حولك، أو إلى السيارات التي تتدفق في الطريق، أو إلى باعة العربات وهم يصرخون لينبِّهوا المارة إلى بضائعهم إلخ... كل هذه الأشياء إحساسات خارجية أو مؤثرات حسية بالنسبة إليك. ولو لَفَتَ نظركَ أحدُ الباعةِ بحسن مظهره، فرحت تتأمل توضيب خضاره وفاكهته على العربة التي يدفعها أمامه، فهذا الشعور هو ما يعرف بالانتباه الحسي الذي شغلك عن المؤثرات الحسية الأخرى من قرىً، وجبال وثلوج وأبنية وسيارات.

ولو دخلت إلى مكتبك واستغرقت في التفكير بأحد الموضوعات التي تشغل بالك مثل زواج ولدك من فلانة، أو نجاح ابنتك في الامتحان، أو الاجتماع الذي تعقده ظهراً مع مدير عملك، أو تكاليف السفر إلى الخارج.. بحيث انطوت المؤثرات الحسية التي كنت تراها قبل وقت قصير، ولم تعد تهتم لصراخ أطفالك قبل خروجك من البيت، أو لموجودات المكتب من حولك، فأنت في هذه الحالة في وضع تركِّزُ فيه أفكارك حول الموضوع الذي يشغلك، أي حول مركزٍ واحد، فهذه الظاهرة الشعورية هي التأمل أو الانتباه الداخلي.

وقد يزداد تركيز الأفكار حتى يبلغ درجة عالية ينسى معها الإنسان كل ما يحيط به، فهذا هو الانتباه الشديد. ومثال ذلك أنْ تشدَّك مشاهد مثيرة يعرضها التلفزيون، بحيث تغرق مشاعرك وأفكارك في تلك المشاهد المتلاحقة التي تُعْرَض، فيكون انتباهك هنا شديداً. ولا يعني هذا الانتباه الشديد أنّك في حالة من الشرود أو من التشتت الفكري أو في حالة من الذهول، بل على العكس إنَّ شدة الإحساس،

وشدة التفكير هما اللتان تلازمانك في مثل هذه الحالة، وتطغيان على ما عداهما من مشاعر وأفكار. ولذلك يكون الانتباه مختلفاً تماماً عن التشتت الفكري. لأنَّ هذا التشتت يحصل عندما تتكاثر الأفكار حول موضوعات عديدة، وتتضارب المشاعر بشأنها بحيث لا تقوى إحداهما على الأخرى، ويكون ذلك لفترة من الوقت، يعود بعدها الإنسان إلى حالته الطبيعية ويبعد عنه ذلك التشابك والتضارب في أفكاره ومشاعره، فينتهي عندها من حالة التشتت التي رافقته قبل ذلك.

من هنا، فإن حالة التشتت التام لا توجد إلا في الأحلام، إذ يستسلم المرء للصور التي تتلاحق في خياله، حيث يكون متراخي الشعور، فاقدَ التفكير الانتقادي، فلا يفضل حالة على أخرى، بل تتوارد الصور والذكريات عليه، فتنضم بعضها إلى بعض وتتولد لديه حالة من الشعور بالحزن أو الفرح، بالحب أو الكراهية، بالخوف أو الجبن..

وتتولد عن الانتباه نتائج إيجابية أو نتائج سلبية..

فمن حيث النتائج الإيجابية: إن الانتباه يزيد الانفعالات النفسية شدةً؛ فمثلاً انتباه المريض وتفكيره المستمر بآلامه يزيده ألماً، ومحاولة التخفيف من شدتها، وتوجيه نفسه للانشغال ببعض الأمور، قد يخفف من تلك الآلام.. الجنود لا يشعرون بشدة وطأة آلام الجراح وقت احتدام المعركة. وبعض فقراء الهند، وبعض (لامات) التيبت يقطعون أصابع أيديهم أو يجرحون أجسادهم جروحاً بالغة، وهم في حالة من الذهول، من غير أن يشعروا بالآلام. وكذلك

حماسة الشهداء في سبيل الله تعالى فإنها تحوّل المشقات والآلام ـ وهم في حالة الانفعال ـ إلى لذة وراحة..

ومن صفات الانتباه أنّه يقوّي إثبات التصورات والمعاني في نفوسنا، فيسهل علينا حفظها، والتمكن في المستقبل من التغلب على الأسباب التي تحول دون تمكّن الشعور منها...

والانتباه أيضاً يُعِين على ترتيب الأفكار وتوضيحها، فليس للإحساس بذاته معنى خاص به، ما لم يرتبط بغيره من الأحاسيس، فسماع ضجة مثلاً قد لا يسترعي انتباهك كثيراً إذا كنت مشغولاً بأمور أخرى، بمعنى أنَّ دور الانتباه يكون بالربط ما بين إحساسٍ معين وغيره من الأحاسيس التي لم ينتبه لها في أول الأمر، كي يعطيه معنى خاصاً، ولذا فإنّ التأمل الفكري أو الانتباه الداخلي من شأنه تنظيم الأفكار وتنسيقها، وتحديد علاقة بعضها ببعض.

والانتباه عامل هام في تحصيل العلم واكتساب المعرفة، فمثلاً التلميذ الذي لا ينتبه لشرح الدرس لا يمكنه أن يدرك المعلومات التي يشرحها المعلم، وبالتالي فقد يكون ذلك من أسباب رسوبه في الامتحان، ولذلك فإنَّ المربين والمعلمين يحرصون على شدّ انتباه تلاميذهم حتى يمكّنوهم من استيعاب الدروس وفهمها وتعلّمها. ومما يساعد التلامذة على تركيز الانتباه لديهم، ويسهل عليهم عملية التعلم، عرض المعاني المجردة بطرق سهلة حديثة: منها الاستعانة بالوسائل السمعية ـ البصرية، وإجراء التجارب العلمية في المختبرات، وفي الهواء الطلق؛ فمثل هذه الطرق وغيرها من شأنها أنْ تثير انتباه الدارسين وتساعدهم على إدراك فهم النظريات والدروس التي يتلقونها.

ومن أجل إثارة الانتباه فإنَّ القرآن الكريم يستعملُ أساليب متنوعة لهذا الأمر، ومنها الأسلوب القصصي للفت انتباه الإنسان وشدِّه إلى ما تتضمن القصص من عظات وعبر وتوجيه وتعليم. ومنها الأسلوب المباشر في التذكير لذوي العقول والحواس المدركة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]. وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الإخبار عن إهلاك أمم كثيرة من الكفار، إذْ يذكّر ربُّ العالمين بهم قريشاً وأعداءَ الدعوة الإسلامية، ويبين لهم أنَّهم كانوا أشد منهم بطشاً، وأن في الإخبار عنهم عظةً بالغةً لمن كان له عقل مدرك بحيث لا يمكنه، بعد الاستماع إلى كلام القرآن، والإصغاء إليه بانتباه ومن ثم فهمه، إلاَّ أنْ يتأثر قلبه ويتعظ بتلك الأخبار، وإلاَّ فإنَّ من لم يتعظ، فعلاً، فكأنما لا سمع لديه للتدّبر، ولا قلب للتذكر..

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى أنَّ الإنسان بعد النوم عادةً ما يكون أكثر انتباهاً، وإدراكاً للقضايا التي تدور حوله، وأكثر تفهماً للمعاني، ولاسيما تلك التي تهمُّهُ، فمثلاً عندما يفتتح المؤمنُ نهارَه بتلاوةِ القرآن أو سماعهِ بانتباهٍ ووعيٍ كاملينِ فإنه يكون حينئذٍ أكثر فهماً لمعانيه، وأكثر استيعاباً لها، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الذهن يكون قد أخلَدَ للراحة أثناء الليل الذي جعلَهُ الله تعالى سكناً للإنسان، حيث تسكن جوارحه عن الحركة، ويتيح له النومُ الراحةَ من الهموم التي تثقل كاهله في النهار، وقد يكونُ الاستغراقُ في النوم كفيلاً ليُذهِبَ عن النفس كلَّ مشاغل الدنيا وهمومها.. وهذا ما يمكن أن تبيّن أهميتَهُ وتأثيره على

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

الإنسان من القول الكريم الذي يحثُّ فيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ رسولَهُ محمداً ﷺ للنهوض باكراً، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[1]. وأما عن أهمية الليل وسكنه وتأثيره على الانتباه فيقول تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[2]. والمقصود أنَّ قيام الليل هو أشدُّ مواطأةً بين القلب واللسان، وأجمع للخاطر على تفهم القرآن الكريم، وأبين قولاً من القيام بذلك أثناء النهار، الذي هو وقت انتشارِ الناس وسعيِهم في طلب المعاش، والحركة والتعاطي في مختلف الشؤون.

وفي تأكيده على أهمية تعلّم القرآن وفهمه، يدعو المولى ـ عزّ وجلّ ـ الناس للاستماع إليه والإنصات لتلاوته، لأنّ في ذلك رحمةً لهم. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]. فالاستماعُ للقرآن والإنصاتُ لتلاوته يتضمن توجيه الانتباهِ لفهم ما في الآيات وتدبرها، ومعرفة ما جاءت به من عقيدةٍ ومنهجٍ وتعاليمَ وأوامرَ ونواهٍ وحكمٍ وعظات. وفي هذا دليل أيضاً على أهميةِ الانتباه في الفهم والتعلم.

ومن أساليب القرآن الكريم أيضاً لإثارة الانتباه، استعماله ـ بالإضافة إلى القصص ـ الأمثالَ كوسيلة وأسلوب يجسدان معاني العقيدة، وطرق الدعوة إليها، وتقريبها من الأذهان، فمن يستمع إلى القصص القرآني والأمثالَ التي يضربها ويفهم مبانيها ومعانيها، تتجسد

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

في ذهنه الوقائع التي تثيرها، وكأنَّها صور حسية، ومشاهد من الحياة، تُستعرض أمام ناظريه بكلِّ أشكالها وحركاتها.

وكذلك الأمر عندما يصوِّر القرآن الكريمُ مشهداً من مشاهد يوم القيامة. فاستمع وتصوّر وأنصِتْ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]. فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ يصور تماماً حالةً مخالفةً للانتباه كلياً، وهي حالة الذهول التي تعتري الناس في تلك الساعة. لأنَّ معنى الذهول هو تشتت الفكر، ومن ذهل عن شيء نسيه، وغفل عنه، أو انصرف تفكيره إلى شيء أهم منه، أي إنه جعل الذهن أو الانتباه موزَّعاً بين أمور شتى، قد ينصرف عنها جميعاً التفكير للتركيز على أكثرها أهمية، وهذا هو الذهول المقصود في الآية الكريمة، الذي يؤدي حتى إلى غياب إدراك الأم المرضعة عن رضيعها، لانشغالها بأمرِ زلزلةِ الساعة العظيم، الذي يسيطر فيه الخوف من عذاب الله الشديد على قلوب الناس، فلا يعودُ أحدٌ قادراً على إدراك شيء، لأنَّ كلَّ انتباهه يكون مشدوداً إلى أمر واحد فقط، وهو المصير الذي سيلقاه، وليس إلى أي شيء آخر، أو أمر غيره على الإطلاق، حتى لترى الناس في هذه الحالة فتحسبهم سكارى، ولكنهم في الحقيقة ما هم بسكارى، لكن هو الذهول الذي أصابهم وجعلهم يظهرون كأنهم سكارى.

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ١ و٢.

وأما من حيث النتائج السلبية فإنَّ الانتباه يضيّق أفق الفاعلية الفكرية، ويؤدي إلى أُفُولِ قسم كبير من الإدراكات والأفكار وتناقص شدتها. فكما أننا نغلق أجفاننا قليلاً، ونضيّق دائرة البصر عند ملاحظة شيء من الأشياء الصغيرة، فكذلك نطرد من أفق الشعور، عند انتباهنا لبعض العناصر الفكرية، كلَّ أمرٍ لا علاقة له بها. فيضيق أفق الشعور على النحو الذي تضيق به دائرة البصر.

وهكذا يتبين لنا أنَّ للانتباه آثاراً هامةً في الحياة. وتظهر تلك الآثار في مختلف الأوضاع والظروف التي يعيشها الإنسان. إلاّ أنها تبرز بشكل واضح في تكيّفه مع البيئة[1]، وفي معرفة الأمور المتعلقة بشخصيته. فالانتباه يجعل الإنسان قادراً على التكيّف مع بيئته، على الرغم من أنَّ عوامل البيئة تكون عادة أكثر تبدّلاً من نزعات الإنسان وميوله. والإنسان مضطر، بحكم وجوده، لمعرفة تلك العوامل، حتى يمكنه التوفيق ما بينها وبين ميوله، ولا يتم له ذلك إلا بالانتباه..

ـ أما فيما خصَّ الأمور المتعلقة بشخصية الإنسان، فإن الانتباه يجعله يختار أحسنها وأكثرها توافقاً مع فكره وقلبه. فالإرادة تتلازم دائماً مع التفكير والتأمل. والإنسان لا يسير دائماً بحسب رغباته ونزعاته وعاداته، بل كثيراً ما يتأمل في مختلف الأمور التي تعنيه، ويوازن فيما بينها لينتقي أفضلها وأقربها إلى نفسه، بحيث يجعل أعماله

---

(١) البيئة: مجموع الأشياء التي تحيط بالإنسان:

ـ فمن الناس: أهله، أصدقاؤه، أساتذته، العاملون معه في المصنع إلخ.

ـ ومن الطبيعة: الهواء، الأنهار، البحيرات والبحار، الأشجار، الجبال، الوديان، الحيوان، الطير والنبات الخ...

مبنية دائماً على أفكاره. ولذلك قيل: «إن الفكرة أول العمل، كما أنَّ العمل نهاية الفكرة».

وأياً يكنْ تأثير الانتباه وأهميته في حياتنا، فلا يجوز للإنسان أنْ يفرط في الانتباه والتأمل، لأنَّ ذلك يؤدي إلى الشعور بالإرهاق، والتعب الفكري، إذ إنَّ ملكات الفكر لا يمكن أنْ تستمرَّ في أداء عملها بصورة متواصلة دون أنْ تحتاج إلى فترة من الارتياح؛ ولذلك نجد الطلاب يحسُّون، بعد السهر في ليالي الامتحان المضنية، بميل إلى الابتعاد عن الكتب وكراريس المحاضرات، ليأخذوا قسطاً من الراحة..

ولقد قام العلماء بعدة تجارب لقياس قوة الانتباه، واتبعوا في ذلك طرقاً مختلفة، ومنها الطريقتان التاليتان:

- طريقة تصحيح النصوص: وهي تقوم على شطب بعض الحروف في نص معين. كأن يطلب من التلامذة شطب حرف (الباء) و(الفاء) و(الطاء) من النص الذي بين أيديهم. ويعطون وقتاً محدَّداً لذلك، والتلميذ الذي يشطب أكبر عدد ممكن من هذه الحروف، خلال الوقت المحدد، يكون أكثرَ انتباهاً من الآخرين.

ومثل الاختبار على الانتباه البصري، يمكن إجراء الاختبار لقياس الانتباه السمعي، وذلك بأنْ نقرأ على التلامذة نصاً معيناً، بصوت هادئ وواضح ونطلب من كل واحد أنْ يعيد كتابة النص، والتلميذ الذي يعطي أكبر عدد من المفردات والجمل التي سمعها، يكون الأشدَّ انتباهاً.

وكلا المثالين يدلاَّن على أنَّ قوة الانتباه لدى الأشخاص ليست واحدة، بل تختلف باختلاف التكوين الذهني والنفسي لكل منهم.

- طريقة زمان الانعكاس: وزمان الانعكاس هو الزمان اللازم

لانتقال التأثير من العصب الحسي إلى مركز الدماغ وصدوره عنه بواسطة العصب المحرك. وقد يكون المؤثر كلمة يطلب الرد عليها بكلمة أو مجموعة كلماتٍ تقتضي إعادتها. . وقد أدت التجارب التي استعملت في هذه الطريقة إلى النتائج التالية:

١ ـ كلما كان الطفل أصغرَ سناً كان جوابُه على المؤثر أبطأ.

٢ ـ إنَّ ذوي المواهب العادية أبطأُ من الأذكياء إجابة على المؤثرات.

٣ ـ إنَّ سرعة الإجابة تابعة لسرعة الانتباه، فكلما كان الانتباه أشدَّ، كان زمان الإجابة أسرعَ.

٤ ـ التعب يؤدي إلى زيادة زمان الانعكاس، فانتباه التلاميذ للشروحات في آخر النهار أقل منه في أوله.

٥ ـ الإثارة تزيد في زمان الانعكاس، فمن الخطأ أن نؤنب الولد في البيت أو التلميذ في المدرسة على بطئه في الجواب، لأنَّ الخوف الذي يولده هذا التأنيب في نفسه، يزيد في إبطائه على الإجابة.

٦ ـ إنَّ تمارين التنفّس تنقص زمان الانعكاس وتوقظ الانتباه.

٧ ـ إنَّ الكلمة الدالة على الشيء المحسوس أسرع إثارة للجواب من الكلمة الدالة على الفعل. والكلمة الدالة على الفعل أسرع إثارة للجواب من الكلمة الدالة على المعنى المجرد.

الغفلـة:

الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ أو التيقظ أو الانتباه. كما في قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۞ وَجَآءَتۡ

﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]. هذا النص يرسم لنا مشهداً إجمالياً عن يوم القيامة، حين ينفخ في الصور، ويأتي أوانُ الوعد والوعيد.. إنه مشهد مرعب، مزلزل، يكفي أنْ يتذكره الإنسانُ، وهو على هذه الأرض، حتى لا ينامَ ليلهُ في العبادة، والتضرع طلباً للمغفرة والرحمة، رهباً من ذلك اليوم، وطمعاً في رحمة ربه العزيز الرحيم. قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم وصاحبُ القَرْنِ (أي الملكُ الذي يَنفُخُ في الصُّورِ) قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وحَنَى جَبهتَهُ، وانتظَرَ أنْ يُؤذنَ له؟»**. قالوا: يا رسول الله! ماذا نقول؟ قال ﷺ: **«قولوا حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ»**؛ فردَّدَ القومُ: حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ[2].

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.. لما يوحي من مدلولات كثيرة وعظيمة:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾، ولفظة: ﴿نَفْسٍ﴾ تحمل بُعدَيْن: بُعداً لغوياً، وبُعداً عقائدياً، فمن حيث اللغة هي تعبير عن الناس، فتقول هذه العائلة مؤلفة من خمسة أنفس، وفي تلك المدرسة مئة نفس، وحضر الاحتفال ألف نفس، ومن حيث العقيدة الإسلامية إنَّ النفس هي محل الحساب عن كل ما قال، وفعَلَ، ونوى الإنسانُ في الحياة الدنيا..

وأمَّا عن المجيء «وجاءت»، فإنَّ كل إنسان يجيء للحساب بمفرده، ولكن ليس طوعاً، بل كرهاً عنه لأنَّ معه ملكاً يسوقه، وملكاً يشهد عليه، ويجيء وهو ذليل خائف، خاضع لأمر السائق حتى يقفَ

---

(1) سورة ق، الآيات: ٢٠ ـ ٢٢.

(2) كنز العمال ج١٤، حديث رقم ٣٨٩٧٦ والمسند الجامع ج١٤، حديث رقم ٤٧٣٧.

بين يدَي العزيز الجبار، لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1] فكلمة «عبد» تعني الذلَّ، والخضوع، والخوف.. وهذا المشهد الذي يساق فيه الناس ـ كلُّ نفسٍ، فلا يفلتُ أحدٌ ـ عبيداً إلى المحشر، إنما يأتون جميعاً ولكنْ كل واحدٍ بمفرده بلا أهلٍ، ولا نصيرٍ، ولا مالٍ، وهو ما يعنيه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[2] متعرّياً من كل شيءٍ، إلاً ما يحمل من أثقال الحياة الدنيا على كاهليه..

وأما السائق والشاهد فهما ملكان كاتبان، كانا مكلفين بحفظ كل ما يصدر عنه، وتسجيله في كتاب أعماله ليكون هذا الكتاب وحده كافياً عندما يقرأه صاحبه لتحديد مصيره في الدار الآخرة..

وهكذا يكون المشهد قد اكتمل، فهو أشبهُ شيءٍ بمشهد السَّوْقِ إلى المحاكمة، حيث يسوق الحرسُ المتهمَ للمثول أمام القاضي، ومحاكمته عمّا نسب إليه من جرم، مع الفارق الكبير، وهو أنَّ الحسابَ ـ المحاكمة ـ يوم القيامة يكون بين يدي العزيز الجبار، مالك يوم الدين.. وفي هذا الموقف العصيب، يقال للإنسان: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3].. هذا هو اليوم الذي حذَّرك القرآنُ من الغفلة عنه، ونبَّهك وأنذرك بأنه آتٍ لا محالة؛ ولكنْ كنتَ في غفلةٍ من الاستعداد له.. أجل، لقد غفلتَ عنه، ونسيته، وأنت سادرٌ[4] في الدنيا، لاهثٌ وراء المتع والمطامع، ولم تنتبه إليه،

(١) سورة مريم، الآية: ٩٣.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٥.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٤) سادر: أي لاهٍ.

فلم تحسب له حساباً. . بل ويقالُ لمن أنكرَ البعث والحساب: لقد انحرفت عن فطرتك، وكذَّبت المرسلين، وانصعت لأوامر الشيطان، فكفرت بالله واليوم الآخر حتى عميت بصيرتُك، فكأنما كنت غافلاً وفي سباتٍ عميق. أما اليومَ فقد أذهبنا عنك تلك الغفلة، وكشفنا غطاء النسيان والإِنكار عن قلبك، فلا يحجب عن بصيرتك حجاب، ولا يستر عن بصرك ستار، فالأمر كله مكشوف لديك، وماثل أمام عينيك، بحيث يمكنك أن ترى اليوم ببصرك الحاد، وببصيرتك النافذة ما كنت تأنف من قبوله، أو حتى التفكير فيه.

هكذا يُساقُ كلُّ فرد ـ لوحده ـ من الكفار، والمجرمين والمنكرين لحقيقة البعث، أولئك الذين أغلقوا قلوبهم دون الإيمان بالله، وطاعته، وأعمَوْا أبصارهم عن الإسلام وجعلوا لله أنداداً، فتاهوا في غياهب الغي والضلال، بل حتى حلَّ يوم الوعيد، يوم يُلقى في جهنَّم كلُّ كفَّار عنيد، منّاعٍ للخير، معتدٍ أثيم، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، فألقي في العذاب الشديد. .

وأولئك الذين أغفل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قلوبَهم عن ذكره حتى عصوْهُ، وأفرطوا في عصيانه، إنَّما نهى سبحانه نبيَّهُ محمداً ﷺ عن طاعتهم بشيءٍ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1]. . ذلك أنَّ غالبية الزعامة في قريش كانوا يحتجّون على النبي ﷺ بأنه يجمع الفقراء والمساكين من حوله، ويلحّون عليه بطردهم حتى يمكنهم الدخول في الإسلام، لأنهم يأنفون من مجالستهم، ومن المساواة معهم في أخوة الدين. . وكان

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

النبي الأكرمُ ﷺ يعلم أنَّ ما يطلبونه محضُ افتراء عليه، وعلى دعوة الهدى التي يحمل للناس كافة، بلا أدنى تمييز بين عبدٍ وحرٍّ، وفقير وغني، وصعلوك وسيّد، لأنَّ ميزان الإِيمان في الدين الإسلامي هو التقوى، والتقوى وحدها؛ أما ما طلبَهُ المشركون، فقد كان بدعةً إضافيةً، من جملة ما كانوا يتوهمون لوضع العراقيل في وجه محمدٍ ﷺ ودعوته، من أجل، إبعاد الناس عنه.. فكان من مستلزمات مصداقية الدعوة أنْ يحذّر ربُّ العالمين نبيَّه ﷺ من أولئك المستكبرين الظالمين، وألاَّ يطيعهم في هذا الأمر، أو في غيره مما يخالف الحق، إذ لو أرادوا الدخول في الإسلام، لكان حريّاً بهم أنْ يَعَوْا ما يقوله لهم هذا النبي، ويتدبروا الآيات القرآنية التي يتلوها على مسامعهم، فلا يعود لديهم الشعور بالفوارق الطبقية، أو التمايز الاجتماعي، بل لوعوا عدلَ الله ـ عزّ وجلَّ ـ ورأفته بعباده ـ بهدى الإسلام ونورانيته ـ . أمّا وقد ضلّوا عن ذلك كله، فكان حقاً على الله العزيز الحكيم أن يغفل قلوبهم عن الإِيمان، وعن الحقائق والآيات المبثوثة في أنفسهم، وفي الكون كله، مما تقع عليه حواسهم، لأنها تشكل بذاتها البرهان القاطع على حقيقة وجود الله تعالى، وعلى حقيقة ما يدعو إليه رسوله محمد بن عبد الله .. والله سبحانه وتعالى إنَّما يُغفِل عن ذكره وطاعته قلبَ كلِّ إنسان اتَّبع هواهُ، بحيث لا يكون همُّهُ إلاَّ نفسَهُ، ومالَهُ، وعائلته، ولا يكونُ شأنُهُ إلاَّ انصرافه إلى متاع الدنيا، والولوغ في اللذائذ والشهوات، مهما كانت السبل التي تؤمن له ذلك، لأنَّ الغاية عنده تبرر الوسيلة.. ومثل هذا الإنسان يكون عادة من أولياء الشيطان الذي يملأ قلبه بالوساوس الخبيثة، فلا يعود في قلبه متسع لمعرفة الله تعالى، واتباع هداه..

والقلب الذي يشتغل بشواغل الحياة الدنيا، ويجعلها غايته، كان حقاً على الله تعالى، أنْ يُملِيَ لصاحبِهِ ليزدادَ إثماً وعُتوّاً، كما تدلُّ عليه حياة الكافرين والمشركين، الذين يكون أمرهم إسرافاً في الضلال والظلم، واستكباراً في الأرض، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١)، وذلك كله من ظلمهم لأنفسهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢). .

وإذا كان من المتوقع أنْ يغفل الكافرون والمشركون عن الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، لأنهم لا يعلمون أنه الحق من ربهم، فإنَّ أهل الكتاب ليعلمون علم اليقين أنَّ هذا الإسلام هو الحقُّ، وأنَّهُ أُنزِلَ من الحقِّ سبحانه وتعالى، ولكن مع هذا العلم، ماذا فعلوا، وماذا يفعلون اليومَ حيال الإسلام وأهله؟ يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٣). فأهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ ليعلمون ـ مما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ـ أنَّ القرآن هو الحقُّ من ربّهم، وأنَّ محمداً هو النبيُّ الأميُّ الذي أُنزلَ القرآن عليه. . وعلى الرغم من ذلك فقد عقد أكثرهم العزم ـ ومنذ بداية الدعوة ـ على محاربة الإسلام، وتكذيب رسول الله ﷺ، وغنيٌّ عن البيان ما يحفل به تاريخ اليهود في جزيرة العرب من العداوة للإسلام، والتآمر على قتل محمد ﷺ، وكذلك ما قام به النصارى، ولاسيما الروم وأتباعهم، من الدعم للقبائل على

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

أطراف شبه جزيرة العرب حتى تقف في وجه الإسلام وتلك الحرب الشرسة التي أعلنوها على المسلمين، حتى اضطروا إلى خوض قتالٍ مريرٍ معهم في «مؤتة»، بل وأكثر من ذلك، فقد أوصى ولاة الإمبراطور الروماني على المقاطعات بقتل كل مسلم أينما لقوه على الأرض الخاضعة للروم.. هذا منذ فجر الإسلام!..

وها هُمُ اليوم أهلُ الكتاب، الذين يعلمون من تدارس القرآن ـ سراً وعلانية ـ أنّه كتابٌ سماوي، وأنّه الحقُّ من ربهم، وأنَّهُ يدعو إلى الحقِّ، والعدلِ، وتهذيب النفوس، ونشر الأمن والسلام بين الناس، ومع ذلك فما زالت تلك العداوة قائمة للإسلام، والكراهية عينها للقرآن، بل ولا يتورع كثير من أهل الكتاب ـ ولا سيما أصحاب النفوذ الدولي ـ من إعلان الحرب على المسلمين، بل وأعلنها ـ جهاراً نهاراً ـ رئيسُ الولايات المتحدة الأميركية حرباً صليبيةً منظَّمةً على أثر أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، وكل ذلك بسبب معتقداتٍ خاطئةٍ ومخططاتٍ اقتصاديةٍ جشعةٍ، وأطماعٍ دنيويةٍ جامحةٍ.. وما الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعمَلُونَ..

المبحث الثالث

الذاكرة

التذكر:

التذكّر هو العمل الذي تقوم به الذاكرة، وهي عبارة عن هيئة للنفس بها يمكن الإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة. والتذكّر كالحفظ، إلا أنَّ الحفظ، يُقال اعتباراً بإحرازِهِ، والتذكّر يُقال اعتباراً باستحضارِهِ.

وإنّه لمِنَ الصعب أنْ يعيش الإنسان حالةً نفسية حاضرة منقطعة تمام الانقطاع عن الماضي. بل لا بد من وجود شيء في نفسه من الماضي يبقى في الحاضر الذي يعيشه. ولو اقتصرنا في حياتنا النفسية على الحاضر الذي نعيش بصورة مطلقة لكان التفكير غير ممكن، لأنَّ هنالك ملكة في نفوسنا تصل دائماً الحاضر بالماضي، وهذه الملكة تعرف بالذاكرة، والفعل الذي يصدر عنها هو التذكر. فيكون التذكر عبارة عن حالة تتصف بالاتصال والاستمرار والتركيب...

وفي تحليل الذاكرة يقولون إنَّ لدى الإنسان «ذاكرة أولية»، هي التي تُبقي الأحوالَ الجديدة حاضرةً في النفس مدةً من الزمان. أما

الذاكرة ـ الحقيقية أو الذاكرة ـ بالمعنى الاصطلاحي ـ فهي الطاقة التي تمكّن من إحياء حالة شعورية مضت وانقضت، إلاَّ أنَّها شكَّلت جزءاً من حياتنا الماضية هو ما يمكن أنْ تشعرَ به مجدداً، تحت تأثير عوامل أو دوافع معينة، هي التي تثير تلك الحالة الشعورية، وتستحضرها من عالم الإهمال والنسيان، كأنْ يتزوج ولدك، فيستحضر في نفسك هذا الزواج صورتَهُ عندما كان طفلاً يحبو، وما جعلَ الله له بعد ذلك الضعف من قوةِ الشباب التي مكنَّته من الزواج.

والذاكرة الأولية قد تحفظ الشعور في النفس مدة من الزمن، ولكنها لا تسترجعه، ولا تستحضره بعد زوال الحالة التي أوجدت ذلك الشعور. وكذلك فإنَّ تكرار شيء معين لا يمكن أنْ يشكل تذكّراً، كأن أكرر اليوم قولاً تفوهت به بالأمس من غير أن يكون تكراري له تذكراً. من هنا فإنَّ التذكر يقتضي شعوراً بالماضي وعلماً بأحوال الشعور المنشقة منه، فلا يكون التذكر إذن إلا حيث يكون الشعور بالماضي.

وأهمية الذاكرة تكمن بما لها من تأثير عميق في الحياة النفسية، حتى لقد قيل: النفس هي التذكّر. وبما أنَّ الإدراك يتأتى عن النفس، فإنه لا يحصل إلاَّ بوجود معلوماتٍ أو تصوراتٍ سابقةٍ لدى الإنسان، ثم يجري تطبيق تلك المعلومات أو التصورات على الواقع الحالي، لكي يمكن من ثَمَّ، الحكم على هذا الواقع. والذاكرة هي التي تحفظ المعلومات السابقة في النفس، فلولاها لما تمَّ الإدراك، ولا أمكن اكتسابُ العادات، بل ولا أمكن التخيّل، والحكم والاستدلال. وكلما كانت الذاكرة غنيّةً بالمعلومات، كلما كان عقل الإنسان أقوى،

وتفكيره أعمق. والذين يزاولون أعمالاً عقلية يحتاجون إلى الذاكرة أكثر من الذين يمارسون أعمالاً يدوية، لأنَّ الذاكرة تحفظ المعلومات والمعارف والعلوم، وتسهل لذوي التفكير عملية الفهم وإنتاج أفكار جديدة. والرجال العظام يمتازون ـ في غالبهم ـ بقوة الذاكرة لديهم، فضلاً عن سعة الاطلاع والمعرفة. ومثاله علماء المسلمين القدامى، الذين كانوا يحفظون عن ظهر قلب القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، بالاضافة إلى كثير من دواوين الشعر العربي.

وللذاكرة تأثيرها الهام أيضاً في حياتنا الانفعالية، وما يصدر من مشاعر؛ فلولا الذاكرة لغابَ عنا كثير من العواطف في الفرح والحزن، في الراحة والشدة، في الإقدام والإحجام، في النصر والهزيمة.. فالذاكرة تحيي العواطف، وتوقظ الميول، وتحرك الانفعالات.. أي إنها هي التي تحرّك في نفوسنا عوامل الانفعال والفعل بحيث تتيح لتجاربنا الماضية أنْ توجّه ـ في كثير من الأحيان ـ أفعالنا الحاضرة أو المستقبلية. وهذا بالإضافة إلى أن الإرادة نفسها كثيراً ما تحتاج إلى التذكر للقيام بعمل ما، أو عدم القيام به..

ويقول الباحثون إنَّ للذاكرة أنواعاً كثيرة تختلف باختلاف الميول الفطرية والكسبية. مثال ذلك أنْ يكون أحدهم قادراً على حفظ الأعداد وعاجزاً عن حفظ مفردات اللغة، أو ضعيفاً في تلقي الأنغام الموسيقية وقوياً في حفظ أسماء البلدان وعواصمها. وهذا يعني أنّ الذاكرة يمكن أنْ تكون قوية في نواح معينة، دون غيرها مثل (حفظ الأعداد أو الألفاظ أو الأنغام أو الأسماء). والذاكرة القوية في مادة معينة أو نوع معين من المعلومات هي التي تُكسب القوة في مهنة دون أخرى، أو

في ممارسة هذا العمل دون غيره، فيكون كل من رجل الرياضيات أو الأديب أو الموسيقي أو الجغرافي بحاجة إلى ذاكرة خاصة أو نوع معين من الذاكرة.

وأهم أنواع الذاكرة كما هي معروفة في «علم النفس» الذاكرة الحسية، والذاكرة الانفعالية، والذاكرة العقلية.

ـ أمَّا الذاكرة الحسية، التي يقال لها ذاكرة الصور، فتختلف باختلاف الصور التي تستحضرها، فإذا كانت تلك الصور من حاسة البصر سميت بالذاكرة البصرية، وإذا كانت من حاسة السمع سميت بالذاكرة السمعية. وهكذا الحال بالنسبة إلى الحواس الأخرى الرئيسية حيث توجد ذاكرة ذوقية، وذاكرة لمسية، وذاكرة شمّية. وكل ذلك لأنَّ الحواس الرئيسية الخمس هي مصدر الأحاسيس، فبواسطتها تنتقل الأشياء الحسية إلى الدماغ ومن ثم إلى النفس حيث تُستودعُ في خزانات لها تحفظها بصورها الحقيقية التي التقطت فيها من العالم الخارجي. وتظل قابعة في الذاكرة الحسية (الخزانات) إلى حين استرجاعها بفعل التذكر.

ـ والذاكرة الانفعالية هي التي تشعر الإنسان عند تذكره حادثاً سابقاً بانفعال جديد، قد يكون مختلفاً عن الانفعال الذي رافق الحادث وقت وقوعه، أو متوافقاً معه أو مطابقاً له. وذلك بأن يعاود الألمُ نفسَ الإنسان عندما تخطر بباله ذكرى عزيز قضى. أو أنْ يشعر الإنسان بالرضى وهو يتذكر موقفاً جريئاً كان له إقدام فيه وثبات، حتى ولو كان قد لاقى في ذاك الموقف الصعوبات أو رافقته المخاوف.

والذاكرة الانفعالية لا تكون واحدة أو متماثلة عند كل الناس،

بل قد تكون واضحة وقوية عند البعض، ومبهمة وضعيفة عند البعض الآخر، فالمريض الذي أجريت له عملية جراحية قد يتذكر آلامه الجسدية بالدرجة نفسها التي كان يشعر بها وقت إجراء العملية. والموظف الذي عانى بعض المعوقات دون ترقيته قد لا تحضره مشاعر القلق والتعب والغم التي رافقته بعد أن استراح من أعباء وظيفته؛ أي إنَّ الإنسانَ، الذي عانى، بوجهٍ عامٍ، من المتاعب في الماضي، قد لا تحضره مشاعر القلق والغم التي رافقته إبَّان تلك المتاعب..

ـ والذاكرة العقلية هي ذاكرة الأفكار والأحكام والبراهين، فإذا تذكرتُ حديثاً بجميع ألفاظه كانت ذاكرتي حسية، وإذا لم أتذكر من الحديث إلا معانيه كانت ذاكرتي عقلية. وللذاكرة العقلية أثر عميق في اكتساب العلوم والمعارف. وتكون نامية جداً عند العلماء والمثقفين ثقافة عالية، لأنهم يفكرون أكثر مما يتخيلون. ومن الناس من يستعين بالفهم على حفظ المعاني، ولذلك قيل: إن فهم المعاني خير وسيلة للحفظ.

هذا ما يذهب إليه علم النفس في تقسيمه للذاكرة، كما بالنسبة لأية ملكة حيوية في الإنسان.

وفي الحقيقة لا يمكن تقسيم الذاكرة إلى عدة أنواع، لأنَّ لدى الإنسان ملكة عضوية واحدة تكون موطناً لحفظ الأحاسيس والمشاعر والأفكار على اختلافها. فهي عبارة عن مخزن لانفعالاتنا الماضية، ولأفكارنا وتصوراتنا السابقة، ما يجعل تقسيم الذاكرة، إلى ذاكراتٍ من حسيةٍ وانفعاليةٍ وعقليةٍ، غير متفق مع تكوين الإنسان، ومع ما هو

عليه في أعماق نفسه؛ ففي المثال السابق على الألفاظ والمعاني نجد أنَّ مَنْ كان ملماً باللغة ومهتماً بالمعنى ويتمتع بذاكرة قوية، فهو يتذكر المبنى والمعنى معاً. ولكنه إذا كان مهتماً بالمعنى فقط أي من دون المبنى فإنه يتذكر المعنى. ولذا فالإنسان هو الذي يوجه اهتمامه إلى شيء دون آخر، فيحفظ ما كان مدار اهتمامه وانشغال باله، وينسى، أو لا يتذكر، إلاَّ قليلاً، الأشياء التي لم يستوقفه، ولم تؤثر في نفسه لأنه لم يكن مهتماً به.

إذاً الاهتمام هو المصدر الرئيسي للتذكر، وكلما زاد اهتمام الإنسان بشيءٍ أمكن استرجاع صورة هذا الشيء أو الشعور به، وأمكن تثبيته وحفظه؛ فإذا قمتَ بزيارة إلى قلعة أثرية قديمة ولم تعاود تلك الزيارة مرة أخرى، فليس معناه غياب صورتها عن ذهنك بتاتاً، لا بل على العكس إنَّ مجرد الحديث عنها، يمكن أنْ يستثير شعورك بأهميتها وجمالها، فتندفع صورها إلى ذهنك، وتتراءى لك كما لو أنك زرتها قبل يومين؛ والذي جعل هذه الصور تتدافع في ذاكرتك، هو تأثرك بما رأيت في القلعة سابقاً، ما يجعل كل ذكرى مبنية على اطلاع سابق. ويمكن ترسيخ هذه الذكرى وإثباتها عن طريق الاهتمام والتكرار. إلا أنّ هذا التكرار ليس ضرورياً دائماً، فكثيراً ما تثبت الذكريات لمجرد وقوع الحادث، ولو لمرة واحدة، شرط أنْ يكون تأثيره قوياً في النفس. فأنت لم تذهب لمشاهدة القلعة إلا مرة واحدة ومع ذلك بقيت صورتها عالقة في ذهنك، ثابتة في ذاكرتك، بسبب إعجابك بمعالمها، واهتمامك بالاطلاع على تلك المعالم.

وتثبيت الذكريات يرجع إلى عاملين اثنين: جسدي ونفسي.

أمَّا العامل الجسدي فمرده إلى سهولة تأثر الأعصاب بالشيء، وشدة تفاعلها مع الآثار التي يخلّفها فيها. وهذا العامل يختلف بين شخص وآخر. وأحسن الأشخاص ذاكرة من كانت أعصابه سريعة التأثر، شديدة التفاعل بتأثرات الحواس. ولا يحتاج هذا العامل إلى التكرار لتثبيت الصورة أو الشعور.

وأمَّا العامل النفسي فيأتي نتيجة لقوة الانتباه وشدة الاهتمام. إذ كلما كان الانتباه أقوى، والاهتمام أشد، كانت الذكريات أكثر ثباتاً. إذنْ يمكن القول إِنَّ العوامل النفسية التي تؤدي إلى تثبيت الذكريات عديدة ومتنوعة، ولكنْ أبرزها العوامل التالية:

- **التأثير**: بمعنى أنَّ أكثر ما يثبت في الذاكرة من أشياء هي التي يكون تأثر النفس بها أشد، مثل الحريق والحرب والمرض، وهي من المؤثرات الضارّة أو المحزنة.. أو مثل الانتصار والنجاح والشفاء، وهي من المؤثرات النافعة أو المفرحة، وغالباً ما يرافقها تأثير إيجابي على نشاط الإنسان..
- **الميول الغريزية والكسبية**: فالميل إلى بعض الأشياء يقوي الانتباه إليها. مثل أنَّ الميل إلى الفن يشد الانتباه إلى اللوحة المعلقة على الحائط، والميل إلى الموسيقى يشد الانتباه إلى الأنغام، والميل إلى مادة علمية معينة يجعل حفظها أسهل. بمعنى أنّه كلما كان الميلُ أشدَّ، كان ذلك أدعى إلى إثبات صورة الشيء، أو معناه في الذاكرة.
- **الاستعمال والتكرار**: والذكريات تثبت كذلك من جراء الاستعمال والتمرين والتكرار، مثلما أنها تضعف بسبب عدم الاستعمال، الذي

قد يؤدي إلى طي الذكريات في عالم النسيان؛ وعندما تكون مشاغل الإنسان كثيرة، وهمومه متنوعة، وأعباؤه جسيمة، فلا بُدَّ أن تنشغل نفس الإنسان بها، وتجعله يصرف جلَّ اهتماهه عن ظروف حادثة معينة، ودقائق تفاصيلها. إذ تكون أفكاره مشتتة، ونفسه موزعة فيذهل عن ظروف وتفاصيل تلك الحادثة.

وبناء عليه يمكن القول بأنَّ التذكُّرَ يقوم على استرجاع صور من الماضي. وغالباً ما يخالطه الشعور والتفكير بالحياة الماضية حتى تتكون الذكرى. فعندما نستحضر صورة من حياتنا الماضية، فهذه الصورة لا تكون حِسِّيَّةً ولا مبتكرةً من الخيال، وإنما هي عبارة عن حادث انقضى في ماضينا البعيد، وهذا ما نسميه تذكُّراً، فلا يدخُلُ فيه ما يكون غريباً عنَّا، أو لا علاقة له بحياتنا، مثل أنْ نصادفَ شخصاً لأول مرة، فلا يتكون لدينا تجاهه أدنى شعور مرتبط بالماضي. ولكنْ قد نسمع نغماً موسيقياً فنشعر بشيءٍ من الحنين إليه، وقد يوقظ في أنفسنا بعض التصورات والانفعالات والمناسبة التي عُزِفَ فيها، والشخص الذي كنت معه في تلك المناسبة، وما دار يومها بينكما من حديث.. من أجل ذلك جرى التفريق بين الذكرى والخيال، فقالوا: إن الذكرى أقل خضوعاً للإرادة من الخيال، لأنها تنبعث عن مشاعر وأحاسيس موجودة في النفس، بينما الخيال غير مقيد بماضٍ ولا بحاضر، ويمكن أن يأتي إلى النفس من غير ما ارتباط بمشاعر أو أحاسيس قابعةٍ في النفس.

وكما لاحظنا من قبلُ بأنَّ قوة الانتباه ليست واحدة عند كل الأشخاص، فكذلك يختلف التذكّرُ من حيث القوة والضعف باختلاف

التركيب العضوي والنفسي عند الناس. قال ابن سينا: «أسرع الناس تذكراً أفطنهم للإشارات». ولذلك نجد في الناس من هو قوي الفهم، ولكنه ضعيف التذكر؛ فالذين ينهلون العلم، ويقبلون على الاكتساب بسهولة، ويكونون في الوقت نفسه، أكثر حفظاً وأسرع استحضاراً من غيرهم ـ وعلى الرغم من صعوبة توفر هذه المزايا لإنسان واحد ـ هؤلاء يعتبرون أقوى الناس تذكّراً.. وكما نجد في الناس من يتمتعون بقوة الذاكرة، فهنالك آخرون من تخوفهم الذكريات في أغلب الأحيان، وقد يصل هذا الضعف عندهم إلى حدّ فقدان الذاكرة تماماً؛ وقد ينشأ ذلك عن عجزٍ نفسي، في الأصل، للتذكر؛ أو نتيجة لحادث مادي مثل الإصابة بحادث سيارة، أو من جراء أزمةٍ نفسيةٍ جاءت من الضغوط المادية والنفسية التي مورست على الإنسان.. فمثل هذه الأسباب هي التي تؤدي إلى فقدان الذاكرة..

نصائح لتقوية الذاكرة:

إن الذاكرة «ضرورية بصفة أساسية لعمليات الإدراك والتعلم والكلام والتعليل ومعظم الأنشطة الأخرى».

وينصح «علماء النفس» باتباع وسائل معينة لتقوية الذاكرة، وبتوجيهات تربوية يتوجب على المربين أن يأخذوها على عاتقهم من أجل مصلحة التلامذة.

فأول ما ينبغي على المربي القيام به عدم إرهاق ذاكرة الطفل أو الولد بما لا يستطيع استيعابه من الألفاظ غير المفهومة، كالتواريخ والأرقام التي لا طائل منها، وأن يتجنب المعاني المجردة التي تخرج عن طوق الصغار. من هنا وجب تركيز انتباه الولد على المدلولات

المحسوسة، وإعطاؤه الدروس مصحوبة بالوسائل التعليمية التي يراها بأم العين، ويسمعها بالأذن، ويلمسها باليدين. وقد ثبت أنَّ التدريس في الهواء الطلق، وفي أحضان الطبيعة خير مساعد على ترسيخ الأفكار والتصورات في الأذهان، لأن من شأن ذلك أنْ يبعد عن الأولاد الضجر في تلقي الشروحات المجردة، وكذلك اقتران الدرس بالتجربة العملية يشد انتباههم، ويريح أنفسهم، ويعينهم على الاستيعاب السريع، وعلى تقوية الذاكرة.

ومما يقوي الذاكرة أيضاً تمرين التلامذة على الحفظ والتكرار، مثل حفظ الآيات القرآنية، وروائع الشعر والنثر، أو تكرار التجارب في المختبرات، أو فهم القوانين العملية الأولية بالبيانات والرسوم، وما إلى ذلك من الأساليب التي باتت معروفة في الأوساط التربوية. على أنَّ كل تمارين تقوية الذاكرة يجب أن تتم بأسلوب مرن وسهل يحبِّب إلى التلميذ المادة الدراسية التي بين يديه، فيقبل عليها باندفاع ورغبة، فلا تقوى بذلك ذاكرته وحسب، بل وتتحقق به أهداف التعليم والتدريس. أما من ناحية التلميذ، وإذا ما أعطي مثلاً مقطوعة لحفظها عن غيب، فأفضل له أن يقسّم المقطوعة التي يقوم بحفظها إلى عدة أقسام تتفق مع المعاني، وأن يحفظ كل قسم بمفرده، وأن يجعلَ، بين كل تكرارٍ وآخر، فسحةً من الوقت تتيح ترسيخ الحفظ في ذهنه..

ومن الوسائل الحديثة في التربية، اعتماد طريقة التعليم السمعية - البصرية في الصفوف الابتدائية بواسطة الأجهزة الإلكترونية الحديثة، بحيث يسمع التلميذ الدرس، وينظر إلى الحركات الناتجة من معانيه. كأن يرى مثلاً الجواد وهو يرعى العشب، ويشاهد صاحبه وهو يقوده

إلى الماء ليشرب، ما يجعل الحواس جميعاً تشارك في الفهم والاكتساب، ويعين على التعلّم والحفظ.

وإنَّ الانتباه إلى الصحة البدنية والنفسية للولد، والاهتمام بوسائل وسبل معيشته، قد يؤمن له بعض العوامل التي تقوي ذاكرته، وعلى العكس من ذلك فإنَّ الإفراط في العمل يجهد النفس، والتخمة في الأكل والشرب تؤدي إلى الإرهاق، فلا يعود بالإمكان الاستيعاب بسهولة. ولذلك كانت العناية بالصحة العامة، وبصحة الأعصاب، عاملاً مؤثراً في تقوية الذاكرة.

وبصورة إجمالية إن صحة الذاكرة تفرض الاعتدال في المذاكرة، والانتظام في التلقي والتعلّم، وإلاَّ قد يأتي التأثير سلبياً، من مثل أنَّ التلامذة أو الطلاب الذين يرهقون أذهانهم بالسهر والحفظ قبيل الامتحان غالباً ما ينسون ما حفظوه، وقد يصلون إلى ساعة الامتحان فيخونهم التذكر لأن الإرهاق يوقعهم في النسيان السريع.

أهمية الذاكرة

وأهمية الذاكرة بالنسبة إلى الإنسان عامة، وإلى الإنسان المسلم خاصة، أنها أولاً، وقبل كل شيء، ملكة من خلق الله تعالى، من الفطرة البشرية التي يجب الاعتناء بها والمحافظة عليها لأنها من صنع الباري عزّ وجلّ. وهي ثانياً ذات تأثير هام في حياة الإنسان العملية والعلمية، لأنها تساعد على حفظ المعارف التي قد تؤدي إلى اكتشاف حقائق جديدة، ولذلك تعتبر من المضامين الهامة في إنشاء المدنية والحضارة.

ونظراً لأهمية الذكرى، أو عمليّة التذكّر، فإنَّ القرآن الكريم

يعوّل كثيراً عليها، لما فيها من تربية ذهنية وخلقية ودينية. ولعلَّ أهم ما في هذه التربية أنها توجّه الإنسان إلى ذكر الله تعالى بصورة حثيثة ودائمة، فيكون للذكر العظيم تأثيره الشديد في ترسيخ الإيمان في النفس، وتقوية صلة العبد بربه، والمداومة على حمده وشكره للنعم التي يتفضَّل بها على عباده ومخلوقاته.

ويرتبط ذكر الله تعالى وشكره بإشباع غريزة التدين إشباعاً يطمئن النفس، وينير الأفكار، ويهذب المشاعر، ويصحح الأعمال. فالإنسان عندما يتذكر الله، ربَّهُ وخالقَهُ والقاعدة معروفة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، أي ذوو العقول الراجحة، والذاكرات القوية ـ فإن هذا التذكر يُعدُّ عمليةً نفسيةً إرادية فيها يقين، وثقة، وأمان، واستسلام. وهي أمور تعين النفوس وقلوبها، والأبدان وأعضاءها، على الاستقامة في الفكر والنهج، وعلى الحماية من الضياع والهلاك. والإيمان الصادق بحقيقة وجود الله تعالى أول دافع إلى هذه العملية النفسية الإرادية الواعية، أما عندما يتخبط الإنسانُ في دياجير الظلمات الفكرية، ويخضع للانحرافات المرهقة، ويذوي تحت وطأة الأمراض القوية، فليتذكر، وليوقن أنَّ ذلك كله لم يكن ليصيبه إلاَّ من جراء ابتعاده وإنكاره لحقيقة وجود الله تعالى... وها هم علماء النفس في الغرب، كثير منهم بات يقر ما للإيمان من دور هام في حياة الإنسان النفسية، وما تبعثه المشاعر الدينية من راحة للنفس والبدن، وما تحققه العبادات من تقويم للسلوك الفردي، وتوثيق للعلاقات المجتمعية. بل وهذه الفئة من العلماء تعتبر أنَّ العودة إلى الدين، والقيام بالشعائر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

الدينية، ولاسيما في أماكن العبادة، من أهم الأمور التي تساعد على إبعاد القلق والحيرة والتردد، وتؤمّن بدرجة كبيرة، مناعةً نفسيةً وجسدية للإنسان المؤمن.

وعلماء الصحة النفسية المسلمون جادون بدورهم في توضيح ما للدين الإسلامي من تأثير في الصحة النفسية. وهم يدعون إلى الالتزام بمنهج هذا الدين في جميع مجالات الحياة من أجل سعادة الإنسان. ومن يقرأ الأبحاث التي قدمت إلى المؤتمر الدولي للصحة النفسية الذي عقدته الجمعية الإسلامية الدولية للصحة النفسية، في لاهور بالباكستان عام ١٩٨٥م، يلمس أنَّ علماء النفس والطب النفسي المسلمين، غدوا يدعون إلى ما يدعو إليه الدعاة والوعاظ من التزام بمنهج الله تعالى في العبادات والمعاملات، وذلك بعد أنْ أدركوا ما لذكر الله تعالى من تأثير في تنمية الصحة النفسية وفي علاج انحرافات النفس، وفي وقاية الفرد والمجتمع من الأضرار والفساد. وهم يعطون أمثلة كثيرة على ذلك، ومنها اعتمادهم مفاهيم الدين الإسلامي، وسيلة غذاءٍ نفسيٍ لمعالجة مدمني المخدرات، وقد ثبت لديهم أنَّ هذه الوسيلة أقوى تأثيراً من أية معالجات أخرى في إبعاد كثير من المدمنين عن هذه الرذيلة... أما هؤلاء فقد أمكنهم، بعد الشفاء، أنْ يبدّلوا نمط حياتهم وسلوكهم، ويرجعوا إلى الحياة الطبيعية مثل سائر الناس الأصحاء.

وكما يؤكد القرآن الكريم على ذكر الله تعالى في العبادات والمعاملات، فإنه يعظ الإنسان أيضاً لأنْ يتذكر ما جرى للأمم الغابرة، وما حلَّ بها من الفناء والهلاك بسبب عدم استجابتها لدواعي الإيمان، وعدم تخليها عن معتقدات الشرك والوثنية. يقول الله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

وقد أشرنا سابقاً إلى بعض معاني هذا النص القرآني الكريم، وما حَمَلَ من تذكيرٍ، وتحذيرٍ لكفار قريش، وغيرهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تصدّوا للنبي ﷺ، وادّعوا القوة للقضاء عليه وعلى أتباعه؛ وما لفت انتباههم إليه من أنَّ الله سبحانَه وتعالى قد أهلك قبلهم كثيراً من أممٍ وأقوامٍ كانوا أشدَّ منهم قوة وبأساً، وأبادَهم إبادةً جماعية بسبب إصرارهم على الكفر؛ أمّا ما يريدُ القرآنُ أنْ ينبِّهَ إليه بقوة، فهو أنَّ أولئك الكفار كانوا يحملون وعيدَ الأنبياء والمرسلين لهم بعذاب الله تعالى على محل الجدّ، فكانوا يجهدون في التفكير، وفي البحث عن المكان الآمن في البلاد كلها، الذي يمكن أن يلجأوا إليه ليفلتوا من الهلاك، إلاَّ أن كلَّ تفكيرهم وبحثهم كان يقودهم إلى نتيجة حاسمةٍ واحدة، وهي أنه لا محيد ولا مهرب من هذا الموت الذي يتهددهم إذا ما صحّ الوعيدُ، وعلى الرغم من ذلك كانوا لا يرعوون عن الغيّ والضلال حتى ينزل بهم أمر العزيز الجبار بالإِهلاك الشامل.

والقرآن عندما يخبر عن ذلك إنما يريد به تذكرةً وعبرةً لكل من له قلب يخشع، وعقل يدرك، وهي عبرةٌ تُحفَرُ في الذاكرة فلا تُمحى لعظم وقعها في النفس، لأنه ما من إنسانٍ إلاَّ وله قلب وعقل، يحسُّ بهما هول ذلك الهلاك الذي يقضي على جماعات بأسرها. . أما من

(١) سورة ق، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

لم يأبهْ قلبه للعبرة، ولم يتعظ بها سمعُهُ، فكأنما قد أمات كل شعورٍ في نفسه، حتى صار كمن لا قلبَ له في جوفه، ولا عقل له في رأسه ولاسمع في أذنيه. . وهذا - والله - منتهى ما قد يسفُّ بالإنسان حتى يجعله لا يتأثر بالتذكرة، لأنَّ النفس البشرية شديدة الحساسية لمجرد موت فرد، أو بضعة أفراد، فكيف بها حيال حادثٍ إلهيٍّ يدمّر ويفني جماعات أو أمم بأسرها دفعة واحدة؟! إنَّ مثل هذا الحادث من شأنه أنْ يكون عظةً بالغةً لكل من له عقل، أو ألقى السمع للذكرى وهو حاضر القلب. . ومن الجدير بالناس اليوم أن يفطنوا إلى هذا النص القرآني، فلا يتوهمّوا أنَّ غضب الطبيعة هو الذي جاء بـ«تسوماني»، أو بالأعاصير التي اجتاحت، من بعده، بعض مناطق الولايات المتحدة الأميركية، بل إنَّها مشيئة الله - القادر المقتدر - هي التي تأمر قوة الطبيعة فتتحرك، وهي التي تأمرها بالسكون فتسكن؛ فهلاً تذكر الناس واعتبروا حتى لا يحلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأمم والأقوام الغابرة؟!.

ويمكن أنْ نستدلَّ على أهمية التذكرة أو العظة المؤثرة بوحي الله - تعالى - إلى موسى وأخيه هارون ﷺ أن يذهبا إلى فرعون، وذلك بالأمر الجلل: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1]، ولكنْ ليس لمجابهته بالتهديد والوعيد، بل مواجهته بالقول الليّن: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[2]. . فقد كان فرعون مصر ﴿عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]، إذ عتا في الأرض عتوّاً كبيراً، وطغا طغياناً مقيتاً، حتى أنه ادّعى الربوبية، ومع ذلك كان أمر الله العلي العظيم للنبيين الكريمين أنْ يخاطباه بقولٍ

(١) سورة طه، الآية: ٤٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٣١.

لين، لا يثير فيه العزة بالإثم، ولا يهيج في نفسه الكبر بالطغيان، - فلعلَّ في نصحه وإرشاده ما يحيي في قلبه بذرة الإيمان، فيتذكر أنه بشريٌّ مثل سائر البشر، وأنه ضعيف في خلقه مثل كل إنسان، مهما ملك من أسباب القوة، فلعلَّه، من جراء ما يقولان له، يتعظ ويخشى عاقبة الاستكبار، والإسراف في الظلم، ويعود إليه وعيه الإنساني فيؤمن بربِّ موسى وهارون، ربِّ السماوات والأرض، لا إله إلاَّ هو، يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير . .

وفي سابق علم الله - سبحانه وتعالى - ما سيكون عليه حال فرعون من رفض الدعوة إلى الإيمان والهدى، ولكنَّ الرسل حجةٌ على الناس، لأنَّ لكلٍّ حسابَهُ في الآخرة على مدى الاستجابة لداعي الإيمان أو رفضه، وبالتالي ما يكون عمله في هذا السبيل، فإمّا شاكراً وإمَّا كفوراً . . ولذلك نجد التركيز - وبإلحاح في آيات كثيرة - على أنْ يتذكر الإنسان دائماً أنَّ ميزان العدل الإلهي سوف ينتصب يوم الحساب ليقوِّم أعمالَهُ في الحياة الدنيا، وينالَ، مِن ثمَّ، الجزاءَ الذي يستحقّ . . وهذا التذكير الدائم في القرآن المبين فيه الرحمة الواسعة والفضل العظيم من الله تعالى، مُنَزِّلِ القرآن فاستمع أيها الإنسانُ إلى ما يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾(١)؛ فالطامة الكبرى تعني يوم القيامة (أو هي النفخة الثانية كما تقول بعض التفسيرات)، يوم يحصلُ الانقلاب في الكون، وتتبدَّلُ السماوات والأرض، فيخرج الناسُ من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون، ليمثلوا بين يدي العزيز الجبار . . أجل إنه يوم الدين -

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٣٤ و٣٥.

الدينونة ـ حيث يتذكّر الإنسان ـ كلُّ إنسانٍ ـ أعماله جميعها، وبأدق التفاصيل التي قام بها في حياته الدنيوية من خيرٍ وشرٍّ. .

ومن هنا كانت أهمية تدبّر القرآن الكريم، وهو يعظنا بأن ننظر إلى الحياة الدنيا على أنها لهو ولعب، فلا تغرّنا فيها الشهوات، ولا يلهينا المتاع عن التفكير، والتعقل والتذكر بأنَّ هذه الحياة فانيةٌ، وأنَّ الدار الآخرة هي الحياة الدائمة التي يكونُ فيها الخلودُ: إمَّا في النعيم، وإمَّا في الجحيم، ولذلك عبّر القرآن عن ذلك اليوم الذي يطغى فيه على الإنسان الفزع الأكبر بـ«الطامّة الكبرى» التي تطمُّ كلَّ شيءٍ، فلا يحضُرُ الإنسانَ إلاَّ شريطُ حياته من المهد إلى اللحد. . فأمَّا من كان قد طغى وآثر الحياة الدنيا باتباع الأهواء، وحب الشهوات فإنَّ الجحيمَ مأواه مصداقاً بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]. وأمّا من كان ينهى نفسه عن السوء، ويتورع عن المعاصي، ويخافُ إنْ عصى ربَّهُ عذاب يومٍ عظيم، ـ هو هذا اليوم الذي تجيءُ فيه الطامة الكبرى، ويقف بين يدَيْ ربه ـ عزَّ وجلَّ فإنَّ الجنة مأواه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

تلك هي بعض القضايا الهامة التي يحثنا القرآن على تذكرها في حياتنا هنا، قبل أن نصل إلى الآخرة. ويعطينا البراهين على ما حلَّ بالأمم الغابرة، وبالطغاة والمستبدين، بسبب كفرهم وإصرارهم على الكفر، وعدم استجابتهم لدعوات الإيمان التي كان يحملها رسل

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ و٤١.

ربهم.. وكل تذكرة للإنسان بمفرده، وللناس بمجموعاتهم، واجبةٌ على كل مسلم ـ بل وعلى كل إنسان ـ حتى يعرف أي طريق يختار ويسلك، وإلى أين ينتهي به المطاف في النهاية. وفي هذه التذكرة والحث عليها منتهى الرحمة والعدل من ربنا؛ فعسى أن يتذكَّر الإنسان ويخاف مقام ربه، قبل فوات الأوان، وحلول الموت الذي لا محيص عنه.

النسيان: هو ترك الإنسان ما استودع في نفسه: إمّا لضعف قلبه، وإمَّا عن غفلة، وإمَّا عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره ما استودع..

والنَسْي: أصلُهُ ما يُنسى، كالنقضِ لما يُنقَضُ، وصار في التعارف «اسماً» لما يقل الاعتدادُ به، لأنَّ الاعتداد بالشيء، أو الاهتمام به يجعل نسيانه صعباً، إذا كان من فعل الإنسان، والعرب تقول: «احفظوا أنساءكم» أي احفظوا ما من شأنه أنْ يُنسى، وأمَّا تمنّي مريم عليها السلام، عندما جاءها المخاض إلى جذع النخلة، أنْ لو كانت شيئاً منسياً، فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾(1)، إنَّما يدلُّ على أنَّه شيءٌ من التمني للموت في تلك اللحظة، ولكنها أجرتْهُ مجرى النسي القليل الاعتداد به، وإنْ لم يُنسَ. وأمَّا في قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾(2). فمعنى لفظة «ننسها»، أي نحذف ذكرها عن القلوب، أو نمحوها من القلوب؛ وهذا حقٌّ لأنَّ الأمرَ يعودُ إليه وحدَه ـ سبحانه وتعالى ـ في كلِّ شيء:

(1) سورة مريم، الآية: ٢٣.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. وكذلك في لفظة «ننسخ» فعندما ينسخ الله ـ تعالى ـ آية من القرآن، أو يجعلها في طي النسيان، فإننا نتوخى من النص فهمَ أمرين: الأول هو التوكيد على أنَّ مشيئة الله تعالى مطلقة في كل شيء فإنْ شاءَ الله أن يوجدَ شيئاً من العدم أوجدَه بكلمة «كن»، وإنْ شاءَ أنْ يزيله من الوجود نهائياً، فأمرُهُ نافذ، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ۞ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[2]. والأمر الثاني هو أنَّ النسخ لآيةٍ أو جعلها منسيةً، فيه خيرٌ للإنسان برفع تلاوتها، أو بتأخير حكمها، أو بإبدالها بآيةٍ غيرها أنفع للعباد في السهولة والأجر، أو النسخُ: أن يأتي الرسول للنّاس بآيةٍ من الله تعالى مثل التي جرى بحيث تحمل الآيةُ الجديدةُ التكليف والثواب نفسيهما.

وفي بحوث «علم النفس»، يقولون إنَّ النسيان ليس معناه «فقدان الذكريات وزوالها التام من النفس، وإنَّما هو غياب الصور عن ساحة الشعور. وإنَّ عدم شعورنا بالصورة النفسية لا يدل على فقدانها، لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فكأنّ العالَم النفسيّ شبيهٌ بالعالَمِ المادي لا يضيع فيه شيءٌ أبداً».

والنسيان يقابل التذكّر أو هو عكسه. ونحن نعلم أن التذكر مبعثه الذاكرة التي تحفظ التصورات والمشاعر، وصور الأحداث الماضية في حياة الإنسان، فعندما يسترجع الإنسان من ماضيه إلى حاضره شيئاً

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الرعد، الآيتان: ٣٨ و٣٩.

معيناً، فإن ذاكرته هي الملكة المؤهلة لإعانته على استرجاعه؛ فإذا كانت الذاكرة بمثابة قوة مطلقة، تحفظ كل شيء وتسترجعه برمتِهِ، أو أكثره، فمعنى ذلك أنه لا وجود للنسيان. ولكنَّ الواقع يدلُّ على أنَّ هنالك أموراً كثيرة تغيب عن الإنسان، أي حتى لو حاول استعادتها من مخزن الذاكرة فإنه لا يستطيع ذلك.. ما يدل على أنَّ في النفس البشرية تكوينات تطوي في مضامينها ما يرغب الإنسانُ طيَّه، واعتباره كأنه لم يكن في حياته، سواء كان ذلك عن طريق الإدراك أو الإهمال.. وهذا ما يجعل تلك الأمور التي تغيب عن الذهن، وتُخزنُ في عالمٍ خاصٍ بها، داخل النفس البشرية، تقبع في عالم النسيان.

ولعلَّ من مزايا النفس الإنسانية خلق النسيان فيها، للتخفيف من حدة بعض المشاعر التي تؤثر في هذه النفس تأثيراً قوياً وهاماً، وتثير فيها الآلام والهموم.. فلولا النسيان لطغَتْ على الإنسان مشاعرُ الحزن أو الشدة، الناجمة عن حوادث شديدة الوقع على نفسه، ولما أطاق هذا الإنسان، الذي خلق من ضعف، احتمال تلك المشاعر إذا كانت حاضرة دائمة في ذهنه، أو إذا كانت قوية لدرجة أنَّ النفسَ لا تقدر على الانفلات من تأثيراتها وانفعالاتها. ولذلك فإنَّ من الخير للإنسان أنْ تكون ذاكرته نسَّاءةً، أي بأنْ يقدر على نسيان أمور معينة حتى لا يعيش في اضطراب دائم.. فالأحداث التي تُوجد الاضطراب في حياة الإنسان هي أكثر من تلك التي تؤمِّنُ له الهدوءَ الذاتي، والاطمئنان النفسي.

ومن أسباب النسيان العضوية غلبة بعض المسالك العصبية على غيرها، حتى لقد اعتبر بعض العلماء أنَّ بعض المسالك العصبية تمحى وتتولد عوضاً عنها مسالك جديدة. ومن هنا كان تأثير السن على

الذاكرة، إذْ كلما تقدم العمرُ بالإنسان، ضعفت خلاياه، أو ماتت فئات منها، وهذا ما يولّد ـ من جملة ما يولّد لديه ـ النسيان. . .

ومن أسباب النسيان النفسية تأثير الانتباه والاهتمام، فهما ـ كما رأينا ـ يعينان على الكسب والحفظ، ويساعدان في الوقت نفسه على النسيان، لأن النفس عندما تهتم بالحديث مثلاً، فهي تهمل شيئاً من القديم المخزون في الحافظة. وكلما عادت الذكريات إلى النفس تغيَّر اهتمامنا بها، فيتضاءل منها قسم، وينجلي قسم، ثم يزول بعضها، ويسدل النسيانُ حجابَهُ على ما لا نهتم به منها.

وكما لاستعمال الذكريات أو عدم استعمالها تأثير في تثبيتها، فكذلك لهذا الاستعمال أو عدمه تأثيره في النسيان، لأن من شأنه أنْ يقويه أو يضعفه. فكلما كان تثبيت الذكريات أقوى، كان نسيانها أبطأ.

ويعتبر «علماء النفس» أن النسيان العادي الذي يتعرض له الناس إنما يأتي نتيجة لتزاحم المعلومات وتداخلها، ولذلك يميّزون بين نوعين من التداخل:

الأول ـ التداخل الرجعي: وهو يعني أنَّ نسيان الصور إنما يحصل بالتدريج من الماضي إلى الحاضر، فالأحدث منها هي أكثر ثبوتاً من القديمة أو المهملة. وعلى هذا فالإنسان يذكر الأمور الحديثة أكثر مما يذكر الأمور القديمة.

الثاني ـ التداخل اللاحق: ويكون فيه نسيان الصور على عكس ما هو في النوع الأول، أي بالرجوع من الحاضر إلى الماضي. فقد ينسى الإنسانُ أموراً حصلت حديثاً ويستذكر أموراً بعيدة. وهو عندما

يكرر استعمال الصور القديمة فإن هذا التكرار يكسبها قوة تماسك وتلاحم، ويجعل الذكريات القديمة أكثر ثباتاً ورسوخاً في النفس من الذكريات الحديثة. فمثلاً يتلقَّى الإنسانُ منذ نعومة أظفاره لغته الأصلية، ويتعلم بعدها اللغات الأجنبية، ولذلك هو مؤهل لأن ينسى هذه اللغات ولكنه لا يقدر على نسيان لغته الأصلية. وقد ينسى الإنسان أسماء الأعلام قبل الأسماء العامة، والأسماء قبل الأفعال، من هنا كانت ذكريات أيام الصبا آخر ما يمكن أنْ ينساه الشيوخ.

والنسيان قد يتم بفعل الإرادة، وليس فقط بدافع الإهمال. وهذا النسيان الإرادي يحصل باستبدال ذكريات بأخرى، أو بإسقاط بعضها مباشرة. وذلك بأن يقطع الإنسان، بقوة إرادته، كل ما كان يربطه بالماضي فيغير مسكنه مثلاً، أو يشغل نفسه بأمور فكرية كالمطالعة والتحصيل العلمي، أو بتمضية أوقاته في الزيارات والأسفار، أو القيام بالأعمال التي تعود عليه أو على غيره بالنفع والفائدة..

والقرآن الكريم قد ذكر النسيان في كثير من الآيات. لأنَّ النسيان من المشكلاتِ التي تعترض الإنسان وتعوقه في أحيان كثيرة عن اتخاذ الموقف السليم والصحيح في مواجهة الحالات النفسية، وفي مواجهة مشاكل الحياة. ولذلك عُنِيَ القرآن الكريم بمشكلة النسيان كما عُنِيَ بعلاجها. والآيات الكريمة تتناول النسيان بقضايا أساسية في حياة الإنسان وأبرزها نسيانه عهد ربِّه، ونسيانه النعم التي يُنعمها عليه، ونسيانه اليوم الآخر، وغير ذلك من القضايا الأساسية في حياة بني البشر..

ومن تلك الآيات المبينة قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن

قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[1]. وعَهْدُ الله تعالى لآدم كان بأن يأكل من كل الثمار إلا من شجرة واحدة، شاءها ـ سبحانه ـ أنْ تمثّل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة في الإنسان، وتأكيد شخصيته، وقدرته على التحرر من رغبات النفس وشهواتها، بالقدر الذي يقتصر على الإفادة من الضرورات، من غير أن تستعبدها الرغبات وتقهرها. وهذا منتهى الرقيّ في مقياس البشر، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها، والاستعلاء عليها، كانت أعلى في سلّم الرقي البشري، وكلما ضعفت أمام تلك الرغائب واستجابت لها، كانت أقرب إلى البهيمية، وإلى المدارج السفلى في حياتها وبعد مماتها.

ومن العلم اليقيني، استناداً إلى القرآن، أنَّ الله تعالى قد خلق الإنسان، وكلَّفه القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض، بما وَطَّنَ في نفسه من الملكات، ولاسيما ملكة الإرادة التي من شأنها أن تنبّهه لأن يفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين رغبات النفس التي يزينها الشيطان، وبين إرادته وعهده للرحمن. ولكن التجربة الأولى، أو الامتحان الأول الذي وقع فيه أبونا آدم عليه السلام يعلن النتيجة الأولى ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾. أي لم يكن لآدم عليه السلام إرادة مؤكدة. والعزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر وتوطين النفس على القيام بالفعل.

والله سبحانه وتعالى كان أعلم آدم عليه السلام، من قبل، بحقيقة عدوه إبليس: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

﴿فَتَشْقَىٰٓ ۞ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[١].

تلك كانت رعاية الله تعالى وعنايته أنْ ينبه آدم عليه السلام إلى عدوه، ويحذره غدره، عقب استكباره وعصيانه بالامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربُّه تعالى. . ولكنَّ آدم كان يحمل في نفسه الضعف البشري. وأهمُّ ما في هذا الضعف معرفتُهُ بأنَّ عمرَهُ محدودٌ، وأنَّ قوتَهُ البشرية محدودةٌ، فإذا ما أُتيح له الخلود، فلن يتوانى عن قبول ذلك أبداً. وبمقتضى الضعف البشري، فإنَّ إبليس اللعين يملك أن يغويَ الإنسان، وأنْ يدخل عليه من باب ضعفه، ولذلك تمكَّن أَنْ يوسوس لآدم عليه السلام قائلاً له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٢]. . لقد لمس الشيطانُ في نفس آدم عليه السلام الموضع الحساس: إمكانية الخلد والملك الدائم. . ومن هاتين الثغرتين نفذ الشيطان فانتصر وربح في جولته الأولى، إلاَّ أنَّ المعركة لا تزال، ومنذ ذلك الحين، متواصلة بين بني آدم والشيطان. . وليس للشيطان قدرة على غواية البشر إلاَّ لأنَّهم مثل أبيهم آدم مخلوقين بالفطرة التي تحمل الضعف لأمر مقدور، وحكمة مخبوءة. . ولعلَّ هذه الحكمة، كما يمكن أن نستشفَّها من تقدير الله العليم الحكيم، تكمن في أن يحمل الإنسان في ذاته عوامل الضعف كما يحمل عوامل القوة، حتى يقدر أنْ يوازن ويقارن ويقرر ويختار في كل ما ينوي، أو يفعل، أو يصادف في حياته، وإلاَّ فما معنى البعث والحساب؟ وما معنى التفاضل بين بني البشر؟

---

(١) سورة طه، الآيات: ١١٧ ـ ١١٩.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

لقد نسي آدم عليه السلام لأنه لم يكن لديه إرادة أكيدة في التخلّي عن فكرة الخلود، فضعف عن مقاومة غواية الشيطان، إلا أنه عاد ووعى عاقبة تلك الغفلة، فاستمسك بعهد ربه ـ الامتثال لأوامره ونواهيه ـ وحفظه . .

وإنَّ من أسمى وأرقى مزايانا نحن البشر ألاَّ ننسى عهدَ ربّنا تعالى، لأننا من أول ولادتنا وحتى تحين الساعة ـ التي لا ريب فيها ـ نبقى أبداً في خضم المعركة التي لا تهدأ: معركة الحق والباطل، معركة الخير والشر، معركة الإيمان والكفر، معركة الطاعة والمعصية، المعركة التي يخوضها الإنسان للفوز في الآخرة وإلا فالخسران المبين . . وعلى الإنسان أن يقف في هذه المعركة في الصف الذي يريد: صف الرحمن أو صف الشيطان؟! .

ويحذّرنا الحقُّ تبارك وتعالى من هذه النماذج، من الناس الذين مردوا على الجريمة المتمادية في الفسق والفجور والفساد والعصيان، الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وأولئك هم المنافقون والمنافقات الذين نسوا الله سبحانه وتعالى، فنسيهم . . ولكنَّ نسيانهم لربهم وخالقهم له عاقبة وخيمة في الدنيا والآخرة . . يقول عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾[1] . فالمنافقون والمنافقات قد تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وطينة واحدة، لأنَّ سماتهم هي سوء الطوية، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة . . أما

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧ .

سلوكهم فهو الأمر بالمنكر الذي يسيء للحياة، والنهي عن المعروف الذي يقوّم الحياة، ومن صفاتهم الذميمة البخل بالمال كأنّما يقبضون عليه بالأيدي ولا يريدون إفلاته، إلاّ أنْ يبذلوه خداعاً للناس وكذباً. إنهم في ذلك نسوا الله تعالى فلا يحسبون إلاّ حساب الناس وحساب مصالحهم، «فنسيهم» الله تعالى حتى لا يكاد يكون لهم وزن أو اعتبار بين الآدميين الأتقياء الذين يعبدون الله تعالى مخلصين له الدين. .

كما ينبه الله العزيز الحكيم المؤمنين بأن يتّقوه ـ سبحانه ـ وأن تنظر كل نفس ما قدمت لغدها، لئلا يكونوا كالذين نسوا الله ـ تعالى ـ فأنساهم أنفسهم. يقول المولى الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[1]. نعم إنها دعوة من الله تعالى لعباده المؤمنين إلى اليقظة والتذكر، وأنْ لا يكونوا ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ فالذي ينسى الله تعالى ـ خالقه ومدبره، والمنعم عليه ـ إنَّما يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه إلى المقام الذي يستحقه الخلق البشري. وفي هذا نسيان لإنسانيته، فالإنسان بمعرفته لنفسه يعرف من خلالها الله تعالى، ونسيانه لله ـ سبحانه هو من نسيانه لنفسه.

هذا بالنسبة للإنسان الذي ينسى الله تعالى، وينسى نفسه. .

ولكن الإنسان المؤمن قد يباغته النسيان أحياناً، ما دام هذا النسيان في طبعه، وفي تكوينه النفسي، فيعزم على أمر وينسى أن يذكر الله تعالى حتى يمنَّ عليه بالتيسير والبركة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ

---

(١) سورة الحشر، الآيتان: ١٨ و١٩.

لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]، فالغد من المستقبل.. أي هو في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. فإذا أراد الإنسان أن يفعل شيئاً، فلا يقولنّ إني فاعل ذلك غداً، ما دام يعلم أنَّ هذا الغد هو في غيب الله تعالى. ولكنْ هذا لا يعني أنْ يقعد الإنسان، فلا يفكر في مستقبله وما يجب عليه أنْ يدبر له، كلا! بل عليه أن يُمنّي النفسَ، ويُعملَ العقل، ويباشرَ الأعمال، ولكنْ من غير أنْ يغفل ما قد يأتي به الغيبُ الذي هو رهنٌ بما يشاء الله تعالى. فإذا عزَمَ فليعزم ولكن ليترك الأمر إلى ما يشاء الله في النتائج والعواقب. عليه أن يفكر، ويصمم، ويعزم، ولكن مع توكله على الله تعالى بأن يعينه ويدبره، لأنه لا يمكن للإنسان أنْ يفعل شيئاً إلاّ أن يشاءَ الله تعالى له ذلك.. فإذا نسيَ الإنسانُ هذا التوجُّهَ إلى ربِّه تعالى، عندما يعزم على أمر من الأمور، فليتنبه، وليحذر من أن يغلب عليه هذا النسيان، إذْ لا يجوز له، بل ومن أولى مقومات إيمانِهِ أنْ لا يُقدم على شيء إلاّ أنْ يذكر ربه، ويتوكل عليه، ويدعوه لأنْ يوفقه في تحقيق ما يسعى إليه.. ومن يتوكل على الله - تعالى - ويُرجع إليه الأمر كله، إلى مشيئته المطلقة، في غده، وفي كل حين، فحسبُهُ الله، ونعم الوكيل..

قال ابن عباس: «إذا قلت شيئاً ولم تقل: إن شاء الله، فَقُلْهُ إذا تذكَّرته». وبهذا أجاز الاستثناء بعد مدة.

إذن فكل حركة، وكل نَفَسٍ، وكل ما يصدر عن الكائن الحي مرهون بإرادة الله تعالى. وعلى الإنسان، والمؤمن خاصة، أن يستشعر

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

بأنَّ يدَ الله تعالى فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله ـ سبحانه ـ تدبير غير تدبيره هو. فإن وفَّقهُ الله تعالى إلى ما اعتزم كان خيراً. وإن شاء الله أن يكون غير ما دبَّر الإنسان واعتزم، كان أيضاً خيراً له، فلا ييأس ولا يحزن، لأن الأمر لله تعالى أولاً وأخيراً..

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم. فلا يشعر بالوحشة وهو يفكر، ولا يحس بالغرور وهو يدبّر، ولا يشعر باليأس وهو يفشل.. بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله تعالى، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مُسَلِّماً بقضائه وقدره.. فإذا نسيَ هذا التوجيه والاتجاه، فعليه أنْ يذكرَ ربَّه وأنْ يرجع إليه: وليقل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾، أي إلى هذا النهج الذي يصل القلب دائماً بالله تعالى، في كل ما يهمّ به، وفي كل ما يتوجه إليه.

ولا بدَّ في ختام البحث في النسيان من التذكير بالدعاء القرآني الذي ورد في آخر آية من سورة البقرة المباركة، وهو الدعاء الذي يحيط بكل ما يمكن أن يجري في حياة الإنسان من الأحداث والقضايا والأمور، وذلك بأن يرجو من ربه سبحانه وتعالى أن يزيل أثقالها عن كتفيه، وأنْ يهبه العفو والمغفرة والرحمة في دنياه وآخرته، فيوجهنا المولى تبارك وتعالى أنْ نستجيره، ونستغيث به، وندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]. فجاء الدعاءُ بعدم المؤاخذة من جراء النسيان أو الخطأ..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الفصل السادس

- الميول والنزعات
- الأهواء
- الإرادة

الميول والنزعات

من البديهي القول إنَّ حياة الكائن البشري لا تستقيم ما لم يكن هنالك توازن بين حركة نفسه الداخلية وحركة سلوكه الخارجي، وأنْ يحافظ دائماً على هذا التوازن حتى لا يخرج عن خط الاعتدال الطبيعي، الذي هو قوام الوجود في كل شيء.. وقد عبر عن هذا التوازن أحد العلماء الفيزيولوجيين الأميركيين في كتاب سمّاه «حكمة الجسم» وهو يصف الأسلوب الدقيق الذي تتم به محافظة أجهزة الجسم المختلفة لكائن ما، بطريقة آلية «على وسط متوازن إلى حد بعيد، أو على البقاء في حالة توازن. على سبيل المثال: تنحصر درجة حرارة الجسم الداخلية للأفراد في حدود تصل إلى ٩٨,٦ درجة فهرنهايت تقريباً. وبالمثل، يظل تركيز العناصر (مثل الملح، السكر، والكالسيوم) في الدم عند مستويات ثابتة نسبياً، وذلك بصورة آلية. وتُعرف نزعة الجسم إلى التنظيم الذاتي بالاتزان البدني. ويقال إن الحاجة تنشأ عندما تكون الميكانيزمات الآلية في الجسم غير قادرة على إبقائه في حالة متزنة»، فيأتي الإشباع ليلبي هذه الحاجة وتصحيح حالة التوازن في الجسم.

إلاّ أنَّ هذا التوازن يخضع لتبدلات كثيرة ناجمة عن تبدل الميول والرغبات التي تتغير في داخل الإنسان بتبدل الظروف الخارجية التي تحيط به، فيكون عندئذٍ على الإنسان أن يتكيّف وفق تلك التبدلات. وهو في هذا التكيف إما أن يخضع للميول والنزعات التي تغلب عليه، وينحني أمام ظروفه الخارجية، وإما أنْ يُخْضِعَ ميولَهُ هو ونزعاته لعقله وإرادته، فيتحكم بها بدل أنْ يجعلها تقوده إلى الانفعال والتأثر والاضطراب، وإما أنْ يحاول التأثير في ظروفه فلا يستسلم لها كلياً، وقد تدفعه، في هذه الحالة إلى ما لا يحمد عقباه.. وهو في ذلك كله يسعى دائماً لتحقيق غاياته وبلوغ أهدافه.

والإنسان بتركيبه الحيوي لا يمكنه البقاء سليماً معافىً ما لم تستمر أعضاؤه جميعاً بأداء وظائفها. وأداء هذه الوظائف هو ما يولد لديه الحاجات الضرورية التي لا ينعكس أثرها على تركيبه العضوي فحسب، وإنما أيضاً على تركيبه النفساني. ومن هنا تتولد الميول والرغبات التي تنشأ في النفس لتلبية الحاجات وإشباعها.

والميل، في اللغة، هو العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين، فنقول: مالَ يميلُ ميلاً، إذا لم يعد هنالك تعادل أو توازن. وقد يعني الميل العون، فنقول: مالَ إلى فلان إذا عاونَهُ.

وفي الاصطلاح: الميل هو عبارة عن حالة نفسية تنشأ من جراء حاجة طبيعية.

والحاجات الطبيعية، يمكن معرفتها عن طريق علم الحياة (البيولوجيا) الذي يهتم بدراسة التركيب العضوي، أي تركيب الأنسجة والخلايا، ووظائف الأعضاء، فيبين حاجات الجسد، وأنماط تغذيته،

وشروط بقائه. . ومن خلال تلك الدراسة يمكن أنْ نتبين لدى الإنسان طاقة حيوية هي عبارة عن مجموعة الغرائز والحاجات العضوية التي تحدثنا عنها في الفصل المتعلق بـ «فطرة الإنسان». . ونشير هنا فقط إلى بعض الحاجات العضوية، وإلى بعض مظاهر الغرائز لارتباطها بالميول التي تتفاعل في النفس. . وعلى ذلك فإنَّ الحاجة العضوية تأتي ممّا تولده الأعضاء كي تقوم بوظائفها، ومن ثم يشعر بها الإنسان ويكون مدفوعاً إلى تلبيتها وإشباعها. وبذلك كانت الحاجات العضوية متعددة ومتنوعة، وهي تختلف بين جسم وآخر، من جراء تفاعل كل جسم مع ظروف البيئة والتكوين الداخلي.

ومن أبرز الحاجات العضوية:

- حاجة الإنسان إلى الأكل والشرب، وعنها يتولد إحساسنا بالجوع والعطش. كما يتولد عنها حبنا لهذا النوع من المأكولات، أو تقزّزنا من نوع آخر. فينشأ عنه الميل للابتعاد عن المأكولات أو المشروبات الضارة؛ كما أنَّ تناول الطعام والشراب يولّد الحاجة إلى التَّبرز والتبّول. .
- الحاجة إلى تشغيل العضلات والحواس. .
- الحاجة إلى الاستدفاء وقت البرد، وإلى التبرّد وقت الحر. .
- الحاجة إلى العمل، وتقابله الحاجة إلى الراحة، ولا سيما بعد التعب من العمل، سواء أكان يدوياً أم فكرياً. .
- الحاجة إلى النوم بعد السهر. .
- الحاجة إلى إغماض العين من شدة الضوء. .

ـ الحاجة إلى التنفّس في الهواس الطلق، بعد المكوث لساعات في مكانٍ محكم الإقفال. .

وما إلى ذلك من حاجات يشعر بها الإنسان من خلال طاقته الحيوية التي هي منشأ الحركة الدائمة. .

والغرائز والحاجات العضوية هي من حيث الماهية شيء، ومظاهرها شيء آخر. فالغريزة أو الحاجة العضوية لا تأخذ شكلاً ملموساً، أو لا تبرز كواقع محسوسٍ إلاً من خلال مظاهرها التي تحرّك أحاسينا بها، وتدفعنا إلى التفاعل معها.

ـ ويمكن أنْ نذكر من تلك المظاهر مظاهر غريزة النوع: ميل الرجل للمرأة الذي يتولد عنه الشعور الجنسي، والعطف على الولد، والإشفاق على المريض، وحب الآخرين، والنزعة الإنسانية للتعاون بين الناس. . فهذه المظاهر هي في الحقيقة عبارة عن ميول أو مشاعر، وكثيراً ما يخطئون بتسميتها «غرائز» بينما لا تعدو كونها مظاهر لغريزة واحدة هي غريزة النوع. من هنا وجب تصويب الخطأ الشائع الذي نجده في المؤلفات والأبحاث، ولا سيما تلك التي تتحدث عن الميل الجنسي، وتقول عنه: إنه غريزة الجنس، بينما لا وجود، في الحقيقة، لغريزة جنسية، وإنما يوجد ميل جنسي لدى الإنسان، أو لدى الكائن الحي، بما فيه الحيوان الأعجم.

ـ ومن مظاهر غريزة حب البقاء: التملك والاقتناء، والاندفاع، والشجاعة، والحب، والكراهية والخوف. . .

ـ ومن مظاهر غريزة التقديس: العبادة، والخشوع، والشعور بالعجز

أمام قدرة عظيمة يقتضي الإيمان بها، والتقرب إلى المعبود (وهو الله ـ سبحانه ـ عند المؤمنين).

هذا ما رأيناه بالتفصيل.. وقد قلنا أيضاً إنَّ جميع غرائز الإنسان الحيوية ـ وهي التي تنتج منها الحركة والنشاط والسلوك ـ لا يمكن أن تؤدي وظائفها، على الوجه الأكمل، إلاَّ بالإشباع، سواء كان إشباعاً غريزياً، أو إشباعاً عضوياً.

والسعي الدائم لتحقيق الإشباع بنوعيه ـ الغريزي أو الشعوري، والعضوي أو المادي ـ والأخذ بكل الوسائل والأسباب المؤدية لهذا الإشباع هو ما يؤلف سلوك الإنسان الذي يظهر بأقواله وأفعاله على اختلاف أشكالها، واختلاف آثارها. وهذا السلوك هو الذي يؤدي إلى تكوين الشخصية الخاصة بكل فرد؛ ففي داخل كل منا ملكة الفكر تدفع إلى تشغيله أو إعماله (أي إِشباعه)، كما لدى كل منا الطاقة الحيوية (وهي بدورها محتاجة إلى إشباع). فإذا وجد الترابط ما بين الفكر والطاقة الحيوية، أو التوافق والانسجام ما بين الأفكار والسلوك، فإنّ ذلك يؤدي إلى تكوين الشخصية. وإن لم يوجد التوافق والانسجام ما بين الأفكار والسلوك، فإنه ينتج من ذلك تشتت في الأفكار، واضطراب في الميول والنزعات، وهذا ما يؤدي إلى تكوين الشخصية الفوضوية التي تتأتى أساساً عن مخالفة السلوك للأفكار، أو التصادم والتضارب بينهما، فلا يعود الإنسان يحفل بقيم أو مثل، ولا بقوانين ونظم. بل وكثيراً ما يسلك طرقاً ملتوية من شأنها أنْ تلحق الضرر به، وقد تنعكس بالتالي ضرراً على محيطه العائلي، ووسطه المجتمعي، فضلاً عن تنكره لإنسانيته.

من هنا كانت أهمية الميول في حياتنا الفكرية والشعورية، بخلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين من القول بأنه لا علاقة لتأثير أفكارنا على مشاعرنا، لأن الميول تؤلف حالات لاشعورية، بمعنى أننا لا نشعر ولا نحس بشيء اسمه الميل في داخلنا، ولكن نعرف أن لدينا ميولاً عن طريق الحاجات الجسدية، أو من خلال المظاهر التي تتأتى منها هذه الحاجات، كاللذات والآلام التي نحسّ بها فعلاً، والتي تنشأ في الأصل عن الميول والنزعات. ولذلك يعتبرون، من الناحية النفسية، أنَّ وراء كل لذةٍ ميلاً، ووراء كل ألم نزعة..

وكذلك الرغبات فإنَّهم يعتبرونها ظواهر نفسية تدل على الميول، لأنها تنشأ في الأساس عن الحاجة أو الشهوة، وتدفع الإنسان إلى هذا التصرف أو ذاك، كما هي الحال بالنسبة إلى الرغبة في الطعام، التي لا توجد إلا عند الشعور بالجوع..

ومهما كانت التفسيرات في أصل الرغبات، فإنَّ من الثابت أنَّ لدى الإنسان بعض الرغبات التي لا يعرف أسبابها، باعتبار أنَّ الرغبة قد لا تعني دائماً وجود ميل خفي وراءها، وهي إنْ دلت على هذا الميل، فقد لا تكون هنالك أية علاقة بينها وبينه. ومن هنا جهل الإنسان، في كثير من الأحيان، لما يرغب فيه، وعلى الأخص في أيام الصبا حيث تتشابك الأماني وتختلط الأحلام، فلا يعرف الشاب من أي مصدر تأتيه الرغبات، ولا يدرك الأسباب الكامنة وراءها..

والرغبات تبدو، عادة، بمظاهرَ واضحةٍ ومعروفة لدى الإنسان. ولكن قد تكون الرغبات أيضاً مبهمة أو وهمية وكاذبة. فلو رغب الإنسان في تحقيق هدف يعتقد أنَّه شريف وسامٍ، وعَمِلَ على بلوغ هذا

الهدف ـ أي حقق رغبته الدافعة إليه ـ فقد لا يلبث بعده أنْ يشعر باليأس والحزن، وبأنَّ آماله قد سقطت. وهذه الحالة تنشأ عن التناقض ما بين الرغبة في الشيء والواقع الذي يشكله هذا الشيء. فالشاب الذي يسيطر عليه الحزن بعد بلوغ هدفه، قد يصطدم بالواقع الذي يكشف له بأن رغبته في الهدف السامي لا تنطبق على الواقع الذي واجهه، من أجل ذلك كانت تلك الرغبة العارمة لديه مجرد وهمٍ بدَّده الواقع عندما اصطدم به.

والرغبات، على كل حال، ليست في حقيقتها إلاَّ مظاهر للغرائز، ولا سيما غريزة حب البقاء، وغريزة النوع. فالإنسان الذي تحكمه «الأنا» هو، عادة، الإنسان الذي تطغى عليه أنانيته، فيسعى دائماً وراء منافعه أو مصالحه الذاتية أو الشخصية. وهو إنَّما يفعل ذلك للحفاظ على بقائه، وزيادة قواه، وتوطيد ثقة الناس به، أي إنَّ غريزة حب البقاء هي التي تسيطر عليه. وهذا، بخلاف الإنسان الذي تتغلب عليه «اللاأنا»، أي ذلك الذي يجعل حب الآخرين ومصالحهم لا تقلُّ أهمية عن حبّه الشخصي ومصالحه الخاصة، فيملأ قلبه بالعطف عليهم، ويتفانى في سبيل خدمتهم، والحفاظ على وجودهم. فهذا الصنف من الناس إنّما يشبع، فيما يقوم به، غريزة النوع، ويحاول دائماً أن تكون «اللاأنا» هي الأقوى لديه.

من هنا يمكن اعتبار مشاعر الإنسان، وما يمكن أن يتولَّد في نفسه من الأفكار الأساس لسلوكه وخلقه؛ ولذلك اختلفت النظرة حول مفاهيم التربية الأخلاقية حيث نجد غالبية المجتمعات البشرية اليوم تعيش في وضعين مختلفين تجاه هذه التربية، ولا سيما ما يتعلق منها بالعلاقات ما بين الجنسين؛ فهنالك مجتمعات محافظة إلى أبعد

الحدود، وتقابلها مجتمعات متفلّتة من كل القيم الأخلاقية، علماً بأننا نجدُ في داخل هذه المجتمعات عائلات كثيرة يهمها معاني الشرف، وصون العرض، والالتزام بالأخلاق الفاضلة التي تبعدها عن المفاسد.

أما بالنسبة إلى الأفراد، فإنَّ الأفكار التي تسيطر على المجتمع، هي التي تؤثر ـ عادة ـ وبشكل مباشر على أفراده الذين يعيشون فيه، وعلى سلوكياتهم. فإذا أخذنا «الحرية الشخصية» كمثال على أنماط التفكير في الغرب، نجد أنه جعل هذه الحرية أساساً لحضارته وتمدنه، إلاَّ أنه ذهب بها بعيداً إلى الحدّ الذي أفقدها معانيها الإنسانية، وبالتالي أفقد مجتمعاته أهم الضوابط الخلقية لديها، ولا سيما بعد ظهور هذه الفوضى الجنسية العارمة، التي من شأنها أنْ تذهب بمعاني الشرف والكرامة، وتؤدي إلى اختلاط النسل. فالغرب كله يتفق على أنَّ الفرد يمكن أنْ يمارس حريته الشخصية بالطريقة التي يريدها، وعلى النحو الذي يشاء، على أن يحترم حريات الآخرين، ولا يعتدي عليها.. وهذا مبدأ أساسي من المبادئ التي تقوم عليها الأنظمة الاجتماعية في الغرب، ولكنَّ الخطأ في هذا المبدأ هو أنه لا يمكن التفريق بين الحرية الشخصية، والحقوق التي تنبثق منها، فإذا كان القانون يعاقب الذي يعتدي على ملك الغير، إلاَّ أنه لا يعاقب في حال الخيانة الزوجية إذا احتجَّ الزوج أو الزوجة بالحرية الشخصية، وكذلك الأمر فإنَّ القانون لا يعاقب المضاربات في السوق التي تؤدي إلى ضرب كثير من المؤسسات التجارية، ولاسيما الصغيرة والمتوسطة منها، دون النظر إلى قطع أرزاق العاملين في تلك المؤسسات..

ثم إنَّ الغرب، وعلى الرغم ما بين النظامين الرأسمالي

والاشتراكي ـ والشيوعي ـ من اختلاف في المبادئ، والأفكار، وطرق العيش، وأساليب العمل، فإنه يتفق جميعه على أن المثل العليا للإنسان، هي التي يضعها الإنسان نفسه، أو التي يحددها الإنسان لنفسه، كما هو الحال مثلاً في نظرته إلى السعادة، على أنها أخذ أكبر قدر ممكن من المتع الجسدية، لأنه يعتبر أن هذه المتع هي الوسيلة إلى السعادة بل هي السعادة نفسها. .

ولو أردنا توضيح ما ذهب إليه الغرب ـ حول الحرية الشخصية مثلاً ـ فإننا، ومن منظورنا الفكري نعتبر أنَّ الحرية الفردية هي من المقومات الأساسية للوجود البشري، إذ لا يمكن النظر إلى الناس، على أنهم عبيدٌ وخدم لطبقة معينة في المجتمع، بل على أنَّ الناس جميعاً أحرارٌ، فلا يجوز بالتالي استعبادهم أو استغلالهم وهذا هو الجوهر الذي تقوم عليه الحرية الفردية. . فإذا كانت ممارسة هذه الحرية إنَّما تتبدى بالمظاهر التي تتأتى من الغرائز والحاجات العضوية، فإنَّ ذلك يجب أنْ يكون ضمن ضوابط قانونية وأخلاقية من شأنها أن تحقق إشباع الغرائز والحاجات العضوية؛ بمعنى أنَّه كلما ترسخت مثل تلك الضوابط في نفوس الأفراد، وأصبحت قواعد للسلوك الاجتماعي، أمكن صون الحرية الفردية، وتحقيق الإشباع بصورة طبيعية وسليمة، وكلما فقدت تلك الضوابط هبطت قيمة الحرية الفردية، وعمّ الانفلات والفساد. . فمثلاً غريزة النوع تحتاج إلى إشباع من أجل بقاء الجنس البشري واستمراريته، ويمكن أن يتحقق ذلك بالعلاقات المشروعة ـ شرعاً وقانوناً ـ ولكن إذا أفلت المجتمع الزمام للأفراد بممارسة العلاقات الجنسية بالطرق التي يريدونها، تحت شعار احترام الحرية الشخصية، فإنَّ من شأن ذلك أنْ يؤدي إلى قلب النظام

الاجتماعي وإفساده، وأهم سبل هذا الفساد إثارة المشاعر الجنسية لدى الناس خلافاً لقواعد السلوك والأخلاق، بل وخلافاً للأعراف والقيم الإنسانية الرفيعة.. فالشعور الجنسي - في الأصل - شعور طبيعي لدى الإنسان، ولكن غالباً ما يحتاج إلى إثارة من الخارج كما لو رأى الإنسان واقعاً محسوساً يثيره، مثل رؤية الرجل لمفاتن المرأة - أو العكس - أو كما في حال تحدث إنسانٌ أمام آخر عن ممارسات أو مشاهد جنسية تثير الشهوة، أو كما في حال عاودت الإنسان ذكرياتٌ جنسية سابقة.. ففي جميع هذه الحالات، وغيرها، يثور الشعور الجنسي، ويدفع إلى الإشباع.. من هنا كان دور التربية الأخلاقية والإيمانية هاماً في وضع قواعد للسلوك تحافظ على غريزة النوع، وتحول دون إشباع هذه الغريزة بطرق ووسائل وممارسات غير مشروعة. فمثلاً من واجب المجتمع محاربة الفوضى الجنسية مراقبة وضبط كل ما يشاهد في الأفلام السينمائية، والمراقص، والنوادي، والصور، وغيرها من مظاهر الخلاعة والتبذّل، ومنع المجلات التي جعلت المرأة سلعة للمتاجرة، وإقفال نوادي العري وغيرها من الأماكن التي تتيح الاختلاط بين الرجال والنساء، وما يؤدي إليه هذا الاختلاط من إثارةٍ للشهوات، وممارسة العلاقات الجنسية غير المشروعة.. وأما الهدف من وراء ذلك فهو أن يصفًّى المجتمع من تلك المظاهر لكي يهدأ الشباب - بصورة خاصة - ويعودوا إلى رشدهم، فينصبَّ اهتمامهم على العلاقة الزوجية، ليس للإشباع الجنسي وحده، بل ولبناء الأسرة والمحافظة عليها، باعتبارها أهم مقومات كيان المجتمع، كما تعود النظرة إلى المرأة على أنها نفس محترمة، بصفتها زوجة، وأمّا، وربة بيت، وعرضاً يصان، لا كما

يُنظر إليها الآن وكأنها متعة يتمتع بها الرجل قدر الاستطاعة ثم يخلّيها إلى غيره، أو يتخلَّى عنها إلى غيرها..

ومثل تهذيب الشعور الجنسي، هنالك مقومات كثيرة لنظافة المجتمع، وصون الحريات الشخصية، والمحافظة على الحقوق الفردية والجماعية مثل الصدق، والأمانة، والاستقامة، واحترام القوانين والأنظمة، والتقيد بقواعد الانتظام العام، والآداب العامة، وصون حرية الرأي والتعبير وحرية الاعتقاد، وتوفير فرص العمل، وما إلى ذلك من المقومات الأخلاقية والنظامية التي ترفع من شأن الفرد في المجتمع، وتؤمن له سبل العيش الكريم..

وفي مقابل ظاهرة الفوضى الجنسية هنالك ظاهرة الكبت الجنسي التي لا تقل خطورة عن تلك الفوضى؛ ذلك أنّ الكبت يعتبر من أهمّ الميول التي لها تأثيرها الشديد على الحياة النفسية لدى الإنسان؛ فقد تكمن في داخله ميولٌ خفية، ونزعات دفينة، وأحلام خيالية بفعل عوامل عديدة، مثل تركيبه النفساني، وتأثير البيئة والتربية عليه، وما إلى ذلك من عوامل داخلية وخارجية.. وعندما تسيطر على الإنسان تلك الكوامن في نفسه، نراه يعيش في حالة اضطراب دائم، وفي همٍّ وقلقٍ؛ وقد تخطر بباله تصورات غريبة وعديدة، وكل ذلك دون أن يعرف الأسباب التي تجعله يعيش على تلك الحالة، فينشأ عنده الكبت..

ولنأخذ مثالاً على ذلك الكبت المتولد عن الميل الجنسي، فهذا الكبت يمكن أن تكمن وراءه أسباب عديدة، مثل مشاهدة أبويه، وهو طفل، في وضعٍ جنسيٍّ ظاهر، أو معاقبته بصورة نافرة من معلمته، أو

احتقار رفيقاته التلميذات له، وما إلى ذلك من تأثير لأساليب التربية في المدرسة، أو للقيم الخلقية والدينية عليه، كأن يسمع دائماً بأنَّ ممارسة الجنس عيبٌ، أو أنَّ الله يعاقب على هذه الممارسة، وما إلى ذلك من المؤثرات التي تنطبع في نفسه، وتولِّد الكبت فيما بعد..

والكبت يمكن أنْ يتولد بصورة إرادية، ولكن في حالات قليلة جداً، ومن غير أنْ يكون لدى الإنسان أي قصد في الأساس لتوليد هذا الكبت، بل إنَّ ما يفعله هو أنه يجهد في السيطرة على بعض غرائزه وحاجاته العضوية، إلى الحدّ الذي يقهر نفسه في مقاومته لميوله ورغباته التي يظن أنها تتعارض وأفكاره، ولا تتناسب مع سلوكه. إنما، وفي أغلب الأحيان، يأتي الكبت من غير فعل إرادي، وذلك عندما تكمن في النفس ميول ونزعات قويّة من شأنها أن تؤثر على الإنسان دون أنْ يدرك مسببات هذا التأثير، ومن هنا تنشأ لديه بعض الآلام، أو القلق، واليأس وغيرها.. وقد تتولد عن الكبت «عقد نفسية» قد تجعل الإنسان عاجزاً عن القيام بأفعال كثيرة.

وبالإجمال فإنَّ الكبت يؤثر في تكوين الشخصية، ويبين لنا أنَّ أعمالنا الظاهرة متصلة بنزعاتنا الباطنية. ويجد الإنسان، في مفاهيم الإسلام، خيرَ عامل على تربيته التربية السليمة التي تبعده عن الانحراف النفسي ، وعن الآلام النفسية، وعن كل شيء من شأنه أن يؤذيه في حياته النفسية، كما العضوية. ففي الوقت الذي يجب على الإنسان أنْ ينمّي مداركه الفكرية، عليه أيضاً أن يعيش مشاعره وأحاسيسه بصورة طبيعية وصادقة، فلا يكبت عواطفه، ولا يهمل انفعالاته، وخاصة أنَّ الإنسان إنَّما يتأثر ـ عادة ـ بما يتراءى له من تصورات، وبما تقع عليه حواسه من أشياء، وبما يتفاعل في داخله من

مشاعر، ومن الممكن أنْ يساعده ذلك على التخلص من الكبت، ومعايشة الواقع بما يتوافق مع مشاعره.. وأول ما تأتي هذه المعايشة من واقع حياته، فهو كتلة من دمٍ ومشاعر، فلا يكون معافى، جسدياً أو نفسياً، إذا ما تغلبت بعض عناصر تكوينه على بعضها الآخر، بل يجب أن يكون هنالك توافق تام بين مختلف هذه العناصر التي تؤلف تكوينه الحيوي. وتلعب العواطف في هذا المجال دوراً هاماً في حياته لأنها تترابط ترابطاً وثيقاً مع ما ينبعث في نفسه من ميول ونزعات وأهواء وأفكار إلخ... ولذا كان من غير الجائز للإنسان أن يترك العنانَ للعواطف كي تسيّره كيفما تشاء، ولا أن يكبتها كل الكبت حتى تميت طاقته الشعورية.. وبمعنىً آخر عليه أنْ يكبح جماح عواطفه، كلما رأى أنها ستطغى عليه، وأن يوجه ميوله ونزعاته إلى الوجهة الصحيحة التي لا تخدعه فيها، وهذا ما يشكل مصداقية الإنسان مع نفسه بحيث لا يتنكر لها، ولا يعذّب جسده، وإلاَّ.. فكأنما يعمل على تعطيل طاقته النفسية من خلال القضاء على مسار حياته الطبيعي وبالتالي الانحراف عن إنسانية الإنسان من جذورها.

وقد عالج الإسلام هذه القضية في حياة الإنسان معالجة دقيقة، لأن الله ـ سبحانه ـ عندما أراد هذا الدين القويم لعباده، إنما أراده دين الفطرة، ولذلك فهو يتناول تربية الإنسان على أساس الفطرة التي فطره الله تعالى عليها. فيعمل على تنظيم غرائزه وحاجاته العضوية بما يكفل سلامتها وصفاءها وصقلها، ويرشده إلى الإمكانيات التي تشبع تلك الغرائز والحاجات إشباعاً وافياً وطبيعياً.

ومن خلال هذه المعالجة نجد أن الإسلام لا يفاضل بين الغرائز، ولا يميز بين غريزة وأخرى، ولا يقبل بأن يطغى مظهر هذه

الغريزة على مظهر تلك.. وهو كذلك لا يكبت مظهر غريزة كبتاً شديداً، ولا يطلق مظهر غريزة كل الإطلاق. أي إنه لا يريد للإنسان القهر والعذاب، كما لا يريد له العوج والانحراف، أو كل ما من شأنه إفساده بالمبالغة فيه زيادة أو نقصاناً، بل يريده إنساناً مستقيماً، واعياً، معتدلاً، متفاعلاً مع وجوده البشري، وعقيدته الدينية، ومفاهيمه الإنسانية، بشكل طبيعي ومنتظم، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حقيقة الإسلام ـ فيحاربونَهُ عصبيةً وحقداً ـ ولا يدركون مفاهيم هذا الدين ـ فيشنون على المسلمين الحملات الظالمة ـ وبالتالي فهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع طبيعة البشر وفق الفطرة التي فطرهم الله ـ تعالى ـ عليها، إذ نجد بينهم ـ وبفعل التربية التي لا تهتم لدواعي الإيمان ـ من يتجاوزون حدود الفطرة التي خلقوا عليها، إما بفعل الكبت، الذي يملأ نفوسهم بالقلق والاضطراب، وإمَّا بفعل الانحراف الذي يطلق مظاهر الغرائز إلى أقصى الحدود في الممارسات الشنيعة وتكون النتيجة تعطيل العمل الطبيعي للغرائز، والسير في الحياة سيراً مضطرباً، ظالماً، وأحياناً كثيرة سيراً استبدادياً، استكبارياً لسدّ النقص في الأنفس!...

ونحن نرى أنَّ كلَّ ما يحصل للناس إنَّما سببه الرئيسي كثرة أوجه التباعد عن الدين الإسلامي، الذي لا ينفكُّ يخاطب فطرة الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

وكما يفرض الإسلام مسايرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإنَّه يقدم لهم المنهج السويَّ لجعلهم يعيشون حياةً مستقيمة قائمة على الاعتدال والعدل في كل شيء.. وعلى الرغم من ذلك فإنَّ الذين يتّبعون الشهوات يريدون أنْ يميلوا بالناس ـ وبالمؤمنين خاصة ـ عن منهج الله ـ تعالى ـ لعباده، بل وطمس هذا المنهج كلياً حتى تطغى الشهوات، والأنانيات، ويذوي كيان الأفراد، وقيم المجتمعات في ظل إيديولوجياتٍ مبتدعةٍ، مكذوبةٍ يحاولون فرضها على الناس!.. استمعوا، أيُّها المسلمون ـ بل أيُّها الناس ـ إلى قول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ۞ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[1].

هذا ما يريده ربُّ العالمين.. وهذا ما يريده الذين يتبعون الشهوات!..

نعم إنَّ الله ربكم ورب آبائكم الأولين إنما يريدُ لكم الخير والصلاح والنجاة بتطبيق المنهج القويم الذي أنزله في القرآن، والذي من شأنه أن يهديكم، ويعينكم على التسامي، والابتعاد عن طرق المزالق والانحرافات، بل ويريد الله ربكم أن يتوب عليكم بمغفرته، ورحمته الواسعة..

أما الذين يتّبعون الشهوات فيريدون أن تميلوا عن منهج الله الحق، كلَّ الميل، حتى لا يعود له شأن يذكر، والغاية أن يطلقوا الغرائز من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي.. يريدون أن يطغى

---

(1) سورة النساء، الآيتان: ٢٧ و٢٨.

السعار الجنسي المحموم بلا ضابط.. والسعار الاقتصادي بلا قيد.. والسعار السياسي بلا رادع.. وسعار الاستغلال المبطّن تحت عباءة المنظمات الدولية، ومبادئ القانون الدولي.. يريدون السعار المحموم في كل شيء، بحيث لا تطمئن معه نفس مؤمنة أو بيت متديّنٍ، ولا يسلم منه عرض أو شرف أسرة، ولا يشبع معه جائع، أو ينعم معه كريم.. وإلاّ فما بالُ هذه الأزمات التي تعصف بالمجتمعات البشرية كافة؟!..أجل، ليرجع الناسُ إلى التعقّل وإلى حكم الضمير الحي، وحكم الدين القويم، وليجروا محاسبة دقيقة لكل الأنظمة السياسية، والاقتصادية، والمالية، والاجتماعية والإدارية التي تطبق في كل بلدان العالم، فماذا يجدون غير هذا الفساد، وهذا الشرُّ.. وهل كل ذلك باسم الحرية الفردية، والحرية الاقتصادية، والمحافظة على حقوق الإنسان، وتطبيق الديموقراطية؟! وكلها باتت في مثل هذه الأوضاع السائدة في العالم، شعارات زائفة ليبقى طغيان الشهوات والمطامع والنفوذ مستمراً، بل ومتصاعداً في حدّتِهِ.. ولعلَّ من أبشع الشهوات، بل ومن أبشع وجوه الفساد ـ الشهوة الجنسية، التي أشاعت بين الناس «ظاهرة الزنا» التي ينهى الله تعالى عنها في كتابه المبين بأمره الجلل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]؛ والفاحشة في اللغة ـ كما ورد في معجم البستان ـ «ما يشتدُّ قبحه من الذنوب، أو كلّ ما نهى الله عنه».. والله تعالى ينهى المؤمنين ـ والناس كافة ـ عن هذه الفاحشة، وعن المحرمات جميعاً، لأنها هي الدوافع إلى الشهوات، وهي المسببات للفساد.. وهذا هو الميلُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

العظيم الذي يريدُ الذين يتبعون الشهوات أن يجرّوا الناس إليه، فيستخدموا لذلك الأقلام المأجورة، والأجهزة الموجهة والسياسات المضلّلة، التي تذرّ بالفتن كقطع الليل المظلم، والتي لا عاصم منها إلاَّ منهج الله تعالى، الذي يشنّ عليه المفسدون في الأرض الحروب الظاهرة والباطنة حتى يؤخّروا ـ كما يتوهمون ـ ظهور العصبة المؤمنة التي، عهد الله تعالى إليها مهمة إعادة منهجه الحق وإنقاذ الناس من الجور والظلم والفساد. .

وبعد بيان الميل العظيم الذي يريده أتباع الشهوات، يمكن أن نستشفَّ اللمسة الأخيرة في التعقيب الذي يتولى بيان رحمة الله تعالى بالناس فيما يشرِّع لهم من أحكام ومناهج، وكلها من أجل التخفيف عن الإنسان، لأنه سبحانه يعلم مدى ضعفه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[1]، أي يريد الله ـ تعالى ـ أن يخفف عنكُمُ الأثقال التي ترهق نفوسكم بسبب الميول والشهوات، وذلك باتباع أحكام شرعه بما تستطيعون، إذ «لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها»، وقد أنزل تعالى لكم شريعةً سمحاء تحمل لكم اليسر وليس العسر في كل شؤون حياتكم، لأنه ـ عزَّ وعلا ـ يعلم أنَّ الإنسان قد خلق ضعيفاً، وضعفه قد يغلب عليه، فينساق وراء المحرمات والشهوات التي تحيد به عن منهج ربه، فجعل في هذا المنهج الأحكام التي تراعي الضعف في الإنسان، وتسهل عليه إدارة وتنظيم شؤون حياته باعتدال، لا إفراط فيه ولا تفريط، في إشباع الغرائز والحاجات العضوية، وحماية الطاقة الحيوية في الإنسان من التبدّد وسوء الاستعمال.

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

ومن آفاق التربية الربانية للإنسان، في آيةٍ أخرى من سورة النساء، ما يبين الله سبحانه وتعالى للناس بعض سبل العدل والرحمة والإصلاح في العلاقات بين الأزواج، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

من المعلوم أنَّ بناء المجتمعات النظيفة إنّما يقوم على بناء الأسرة، ونضيف أنَّ صلاحَ المجتمع لا يكون إلاَّ بوجود الأسرة المؤمنة، والركن الركين للأسرة السليمة والمؤمنة يقوم على صحة العلاقة الزوجية من المحبة، والاحترام، والثقة، والتعاون، والأمانة في كل جوانب الحياة الأسرية، وهذا ما تحمله الآية الكريمة من المعاني لإرشاد الأزواج.. أمَّا في حال تعدد الزوجات، فإنَّ ربَّهم يتوجه إليهم بالخطاب المباشر ليبين لهم أنهم لا يملكون الاستطاعة على العدل بين نسائهم، ولو حرصوا على أن يعدلوا، لأنَّ الإنسان لا يمكنه التحكم بمشاعره القلبية التي تميل عادة بالحب والحنان لإحدى الزوجات أكثر من الأخريات. لذلك يحذّرهم ربهم الكريم بألاَّ يميلوا بمشاعرهم كل الميل عن الزوجة التي لا يملكون حبَّها، حتى لا يحملهم هذا الميل على الجور عليها، فلا يؤدُّون حقوقها كاملةً من النفقة والكسوة، والعشرة بالمعروف، والقسمة في المعاشرة، وإلاَّ فإنها تصبح كالمعلقة، أي لا هي مطلقة، ولا كأنّها ذات بعل (أي زوج).

وروي عن أبي عبد الله عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وعن الفرق بين القولين. أجاب: أما قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فإنه عنى به النفقة؛ وأما قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا﴾ فإنه عنى به المودَّة، أيْ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يعدلَ بين امرأتين في المودة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لرجلٍ قلبين في جوفه، بل جعل له قلباً واحداً، فإذا مال هذا القلب لواحدة، فلا يستطيع أن يميل للأخرى نفس الميل للأولى. وروي عن النبي ﷺ أنه كان يقسّم بين نسائه ويدعو إلى ربه قائلاً: **«اللَّهُمَّ هذه قِسْمَتي فيما أملِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ»**[2].

نعم إنَّ الله تعالى الذي خلق النفس البشرية، يعلم فطرتَها، وأنها ذات ميول لا تملكها. ومن ثم جعل لهذه الميول مُتنفَّساً لينظم حركتها فقط لا ليعذبها ويقتلها. ومن هذه الميول أنْ يميلَ قلب الرجل إلى إحدى زوجاته فيؤثرها على الأخرى.. وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله لأنَّ أمرَهُ بيد الله تعالى الذي يقلّب القلوب كيف يشاء، ولذلك فإنَّ الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه، فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه، وأمر لا يطيقه! بل إنه يصارح الأزواج بأنهم لن يستطيعوا أنْ يعدلوا بين زوجاتهم في شعور المحبة خاصة ـ ولو حرصوا ـ لأنَّ الأمر في هذا الشعور خارج عن إرادتهم، بل ويذهب النصُّ إلى أبعدَ من ذلك إلى مخاطبة الرجال جميعاً، ولذلك قال: «ولن تستطيعوا أنْ تعدلوا بين النساء»، فلفظة «النساء» تحمل معنىً عاطفياً لا يقتصر على الزوجات وحدهُنَّ، بل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ١٠٥٩، ج٤.

وعلى كل النساء التي يمكن أن يكنَّ لهن الرجلُ المحبة، والاحترام، والثقة..

ولكن هنالك لما هو داخل في إرادة الرجل. هنالك العدل في المعاملة، والعدل في النفقة وهذا ما هو مطالب به، ويشكّل المتنفَّسَ الذي يوجِّه ذلك الميل، لينظّمه لا ليقتله.

ومن ميول النفس الشديدة، وشهواتها المستحبة، ما يبيِّنه قولُ الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

إنَّ كلَّ ما تعدّدُهُ هذه الآية الكريمةُ من الزينة النفسية والدنيوية مثل النساء والبنين، والمال على أنواعه كالذهب والفضة والخيول والأنعام والمزروعات إنَّما هو الميل إلى كلّ هذه الأنواع من الزينة المحببة إلى النفوس، بل وهو ليس ميلاً وحسب، وإنَّما هو أيضاً من الشهوات التي يحبُّها الإنسان، والتي تنبع من نفسه، وتكوينِهِ الأصيل، فلا حاجة إذن لإنكارها، ولا إلى استنكارها، لا بل هي ضرورية للحياة البشرية كي تنمو وتطرد، بصورة دائمة ومستمرة..

ولئن كان حبُّ هذه الشهوات ضرورياً للحياة البشرية، إلا أنَّ الواقع يشهد بأنَّ في فطرة الإنسان كذلك حُبّاً آخرَ، لا يقلّ تأثيراً عنه حبّ الشهوات، لا بل إنَّه يمثل الجانب في تكوين الإنسان الذي يحول دون انقياده إلى شهواته حتى يفقد في نفسه قوة النفحة العلوية التي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

نفحه الله تعالى بها.. وهذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس، ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه الشهوات، أي إنه الحد الباني للنفس وللحياة، الذي يربط النفس البشرية بالملأ الأعلى، برضوان الله تعالى، والدار الآخرة.

والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذار تلك الشهوات وكراهيتها، إنما يدعو إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكان لا تتعداه، حتى لا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى.. وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية بكل ميولها ورغباتها ودوافعها وانفعالاتها، وقبولها بحقيقة كل هذه المكوّنات فيها، إلاَّ أنه يدعو في الوقت نفسه إلى تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها..

وكل النظريات حول النفس التي تشير إلى «العقد النفسية» ترى أن السبب الرئيسي لهذه العقد هو «الكبت».. أي كراهية دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، ما يوقع نفس الفرد تحت تأثير عاملين: عامل ضغط المشاعر الذي يوهم بأنَّ دوافع الفطرة قذرة، وتوقع الإنسان في الخطيئة من الشيطان... وعامل تأثير الفطرة التي تقوم بالوظيفة الأصلية في كيان الحياة البشرية التي لا تستقيم إلاَّ بمراعاة هذه الفطرة، لأنه بدونها قد يهبط الإنسان من إنسانيته إلى بهيمية غريزية مادية...

ولو سلمنا جدلاً بصحة النظريات التي يطرحها علم النفس لمعالجة الأمراض التي تطرأ على نفس الإنسان، إلاَّ أنّ علاج الإسلام يأتي مختلفاً وذلك بإبعاد النفس، عن الصراع بين ضغط المشاعر التي تتولد من الشهوات، والرغائب، والميول، والنزعات وما إلى ذلك،

وتأثير الفطرة الأصيلة التي تفرض وجود الطاقة الحيوية في الإنسان بغرائزه وحاجاته العضوية. ويتم إبعاد هذا الصراع بترك النفس تمارس وظائفها ونشاطاتها ـ على اختلافها ـ ضمن حدود الاعتدال بلا تفريط ولا إفراط، أي ما يمكن أن نسميه عملية «الضبط» وليس «الكبت».

هوى النفس
(الأهواء)

يقال في اللغة. هَوِيَهُ يَهواهُ هَوىً: أحبَّهُ واشتهاه.

والهوى مصدر هَوِيَ، ويُعبَّر به عن ميل النفس، أو عن العشق الذي يكون في الخير والشر. والهَوى يكون محموداً أو مذموماً، غير أنه غلب على المذموم، نقول: «فلان اتّبع هواه» إذا أردنا ذمَّهُ. ونقول: «فلان من أهل الأهواء» أي ممَّن زاغ عن المنهج القويم. ويسمى أهل الأهواء بأهل البدع. ونقول: «هذا الشيء أهوى إليَّ من كذا» أي أحبُّ إليَّ.

والهُوَّة: الجو بين السماء والأرض أو الوهدة الغامضة من الأرض. والهُوَى والهُوِيّ جمع الهُوَّة. ومنه الحديث: «إذا غَرَسْتُمْ فاجْتَنِبُوا هُوِيَّ الأرضِ».

والهَوَاء: هو الجو ـ لامتلائه به ـ، أو الشيء الخالي، أو الغاز الذي نستنشقه. أو الجبان لخلوّ قلبه من الجرأة. وهوى في الأرض: ذهب فيها. وهوى الشيء هَوِيّاً وهُوِيّاً: سقط من علو إلى أسفل.

من مختلف هذه المرادفات والمعاني يمكن الاستنتاج أنَّ هوى

النفس هو ما يتلاعب بها، ليحيدها عن جادة الصواب ويقذف بها إلى أسفل. وفي أبحاث «علم النفس» أنَّ هوى النفس هو ميلها الشديد إلى الشهوة، أو ميلها كل الميل إلى ما تحب وتشتهي. ولذلك كان العشقُ هوىً، لأنهُ ميلٌ قوي يستولي على النفس ويجعل اهتمامها منصباً على المعشوق. وهذا الهوى أو العشق كثيراً ما ترافقه الغيرة حتى ليطغى على سلطان العقل.

ومثل العشق الميل القوي إلى السلطة أو الميسر أو المال أو الخمرة... فهذه الميول تصبح أهواء في النفس إذا اشتدت واستولت عليها، وصارت شغلها الشاغل، بحيث إنَّ كلَّ ميلٍ شديدٍ من شأنه أن يُسَخِّر النفس، ويقهر الإرادة فيها، ويرغمها على الاتجاه إلى شيء معين - فكري أو مادي، شعوري أو محسوس - يصبح هوىً في النفس. وعلى ذلك فإنَّ حب المرأة، أو البخل، أو الطمع، أو حب الفن أو الشعر، تصبح من الأهواء إذا طغت على النفس، وسيطرت على تصرفات المرء.

الهيجان والفرق بينه وبين الهوى

الهيجان: هو التحريك والإثارة، أو هو الشعور بالاضطرابات العضوية الباطنة أو الظاهرة التي تصحب التصور. ويتميز الهوى، عن الانفعالات النفسية الأخرى، بقوته التي تقربّه إلى حد الهيجان حيناً أو الجنون حيناً آخر. من أجل ذلك يصعب التفريق، في بحث الانفعالات، بين الهوى والهيجان، بوضوح، لأنَّ الهيجان يُعتبر المصدر الذي ينبثق منه الهوى، وهما غير مختلفين، ولا يوجد بينهما فرق كبير من حيث الطبيعة والدرجة، إذ كما تكون هنالك هيجانات

هادئة، فإن هنالك أيضاً أهواء ساكنة، وكما توجد كذلك الهيجانات القوية، توجد مثلها الأهواء الشديدة. . وعلى الرغم من الصعوبة في التفريق بين الهيجان والهوى من ناحية الطبيعة والدرجة، فقد جرى التميز بينهما من الناحية الزمنية، ولذلك يقال ـ بوجهٍ عام ـ إنَّ الهوى هو حالةٌ دائمةٌ ومزمنة، بينما الهيجان حالة مؤقتة وسريعة. إلاَّ أنَّ الهيجان عندما يبقى في النفس ولا يزول بعد حدوثه، وفي حال تكراره من غير أنْ ينقطع، وثبوته على حالة معينة أو درجة معينة، فإن هذه الحالة التي تتكون من جراء الهيجان الثابت والمتكرر تشكل الهوى. ولذا قال أحد الباحثين «الهوى إذن هيجان دائم».

ولكنَّ العلماء انتقدوا هذه النظرية، وقالوا إنها واهية من الأساس، لأنها تعرف الهوى بنتائجه لا بماهيته. فذهب بعضهم إلى القول: ولو أمعنا النظر في حقيقة الهوى لظهر لنا أنه يختلف عن الهيجان كل الاختلاف، وانبثاقهما من مصدر واحد لا يدل على وحدتهما، إذ من المعروف أن جميع الانفعالات تصدر عن النفس، التي هي مكمن الميول والأهواء والرغبات وكل الانفعالات النفسية الأخرى، فيكون تعريف الهوى بالميل الشديد أقرب إلى الواقع، وعليه أدلَّ، ويكون الفرق بين الهيجان والهوى ليس في الشدة والمدة فقط، وإنما في الماهية، فحيث يوجد كثير من الهيجان لا يوجد في الغالب إلا قليل من الهوى، فالأمم مثلاً التي يغلب عليها الاضطراب والهيجان قلما تشعر بالأهواء العميقة الثابتة. وكثيراً ما تكون الأمزجة الهادئة أكثر تعرضاً للأهواء العميقة من الأمزجة المضطربة. ولذلك شبه أحدهم الهيجان بسيل طغى فهدَّمَ سدَّهُ، وشبه الهوى بالماء الذي يحفر مجراه فيتعمق فيه قليلاً قليلاً.

من ذلك كله يتبين أنَّ الفرق بين الهيجان والهوى كبير جداً. ومثاله الواضح نفسية الطفل الذي يكون على العموم كثير التهيج قليل الهوى.

وسرعة التهيج تدل على تبدد الحساسية وتبعثرها، فلا نضطرب لأقل شيء إلا لعدم وجود مركز تتجمع حياتنا حوله، ولا ننفعل بسهولة إلا لفقدان التنظيم والوحدة في نزعاتنا النفسية. والذي يبعث على تجمع النزعات حول مركز واحد هو الهوى، فإذا استولى هذا الهوى على النفس فإنه يسخر ميولها كلها، ويوجهها إلى هدف واحد. من هنا كان القول بأنَّ الهوى أقرب إلى الميل منه إلى الهيجان، وكان تعريف الهوى بأنه ميل النفس الشديد إلى ما تحب وتشتهي.

والميول في حالة الاعتدال تكون متسقة ومتوازنة، فلا سيطرة لأحدها على الآخر. ولكن عندما يقع الإنسان في الهوى، فإنَّ نظام ميوله الطبيعي يتهدم، ويسيطر ميل واحد على سائر الميول الأخرى، وقد يطردها من ميدان شعوره، لينفرد وحَدَه بالعمل، فيصبح تعلق الإنسان به طاغياً على مشاعره ـ وأفكاره ـ أكثر من أي ميلٍ غيره. وهذا ما دفع بعض العلماء إلى وصف الهوى «بأنه إله معبود»، تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]. فيكون الهوى إذن ميلاً مانعاً لغيره من الاشتراك معه، أو هو نزعة نفسية يثبتها التكرار، وتقويها العادة، وتكيّفها التربية.

ومن صفات الهوى أنه قوة حيوية يجمع بين تأثير العادة ومظهر الغريزة، فقال بعض العلماء إنَّ الهوى يكتسب اكتساباً، بينما يكون

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

الميل فطرياً، واعتبر غيرهم أنَّ الهوى يشتمل على عناصر مكتسبة وعناصر فطرية معاً. فما يثبت بالتكرار ويكتسب بالعادة يكوّن العناصر المكتسبة. وهذه العناصر يمكن التخلص منها لأنها لا تتحكم في النفس بصورة ثابتة ومطردة، وذلك بخلاف العناصر الفطرية التي يصعب على الإنسان التخلص منها. من هنا كان الشفاء من الهوى صعباً جداً. ولذلك قالوا: «الوقوع في الهوى سهل، والشفاء منه صعب».

والسؤال الآن: ما هي الأسباب الكامنة وراء الهوى؟

تقول غالبية الأبحاث في «علم النفس» إنَّ ميولاً ورغبات كثيرة هي التي تدفع عادة إلى الهوى. وتتحول الرغبات إلى أهواء بصورة فجائية، أو بصورة تدريجية. وهذا التحول التدريجي هو ما يحصل غالباً، لأنَّ الهوى لا يظهر إلا بعد ركود الميول القابعة في خفايا الباطن في النفس البشرية.

وبصورة عامة إنَّ أسباب الهوى تكون إما خارجية وإما داخلية:

١ ـ أما الأسباب الخارجية فهي عبارة عن تأثير الإقليم، والغذاء، والصحة، والتربية، والبيئة المجتمعية. فمن حيث تأثير الإقليم نجد أنَّ أهواء الذين يعيشون في أقاليم باردة تختلف عن أهواء الذين يعيشون في أقاليم حارة. ومن حيث تأثير الغذاء والصحة، فإن حب الطعام والشهوة إلى المأكولات كثيراً ما تولد الشره الذي يعتبر بطبيعته شهوة ضارة على العموم. والذين يتمتعون بنعمة الصحة تكون أهواؤهم غير أهواء المرضى؛ والذين يعانون من مشاكل مادية أو حياتية، تكون أهواؤهم غير أهواء الذين يعيشون في جاهٍ وبحبوحةٍ من العيش.

أمّا تأثير الأوضاع المجتمعية فلا يكون هو نفسه على جميع أفراد المجتمع الواحد، ولذلك تعتبر التربية، والبيئة عموماً، أي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، من أكثر الأسباب الخارجية تأثيراً على النفس بوجه عام. إذْ كما تبعث التربية البدنية أو الخلقية على تولد بعض الأهواء دون غيرها، كذلك تعمل البيئة في البيت أو في المدرسة أو في العمل، أو في النوادي والحفلات على تولّد بعض الأهواء أو على إزالتها. وبسبب هذه التأثيرات نجد أناساً يهوون القيم والمثل العليا، بينما ينحدر آخرون وراء أهواء منحطة ورغبات دنيئة.. وكل ذلك بفعل التربية وتأثير البيئة كعوامل خارجية للهوى.

٢ ـ وأما الأسباب الداخلية فهي متعددة وتشتمل على كثير من العناصر الجسدية والنفسية، مثل الاستعدادات الشخصية، والمزاج، والوراثة، فكلها عوامل تؤثر في تولد الهوى. ولكن إذا ما أخذنا عامل الوراثة بالمقارنة مع غيره من الأسباب الداخلية الأخرى، نجد أنَّ تأثيره أقل، أو قد يكون عكس ما يحصل عادةً؛ فقد يورث المدمن على الخمر أولاده استعداداً لشرب الخمر إلا أنَّ هذا الاستعداد قد يزول بتأثير الفعل الشخصي أو بتأثير التربية، فلا عجب أن يصبح ابن شارب الخمر أكثر الناس إيماناً وابتعاداً عن المحرمات ولاسيما شرب الخمر، ومثله ابن البخيل الذي قد يكون كريماً، وابن الكريم الذي قد يكون بخيلاً..

ومما يؤثر في تولد الهوى أيضاً شدة الإحساس، وقابلية الهيجان، وقوة الخيال. ومثال الهوى الخيالي أنْ يرسم الإنسان في ذهنه صورة معينة للشخص الذي يتمناه ويرغب فيه، ومع الأيام تصبح

هذه الصورة معشوقاً خيالياً، فلا يكاد يصادف في الحياة شخصاً شبيهاً لهذه الصورة أو يقرب منها حتى يقع في حبه. وقد يطغى عليه هذا الحب حتى يصير هوى عشقٍ يستبد به..

وقد ينبعث الهوى كذلك عن ضعف الإرادة، لأنَّ الإرادة القوية تمنع المرءَ من الانقياد للأهواء وسيطرة أحد الميول على الأخرى.. والهوى لا سبيل فيه إلى العبث، لأنَّ كل فعل قد يوجد استعداداً، فقد يتظاهر المرء بالهوى في بادئ الأمر، فإنَّ كرَّر هذا التظاهر واعتاد عليه انقلب إلى هوىً فعليٍّ.

نتائج الهوى وآثاره

قد يسيطر الهوى على العقل والحس والإرادة، ويدفع بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه. ولعلَّ أهم الآثار التي تنشأ عن الهوى في النفس أنه يشوش نظام الميول الطبيعي، بحيث يؤدي إلى فقدان الاعتدال والتوازن في حياة الإنسان، وذلك نتيجةً للإخلال بتوازن الميول واتساقها الطبيعي، وتسخير جميع النزعات الأخرى وتوجيهها نحو هدف محدد. وقد دعا هذا الإخلال بنظام الميول الطبيعي كثيراً من المفكرين إلى ذم الهوى، لشدة تأثيره في النفس، وتغيير مجرى حركتها الطبيعية، أو الاعتيادية، فاللذة تنشأ مبدئياً عن الفعل، في حين أنَّ الهوى يجعل الفعل خاضعاً للّذة. وقد يسيطر على النفس والجسد معاً، حتى لقد سمَّاهُ القدماء جنوناً لخروج صاحبه عن الاعتدال، وإلحاق الأضرار البالغة به والهوى الضارّ أكثر ما يكون عند أصحاب الإردات الضعيفة، الذين يستسلمون للأهواء ويتركون لها العنان حتى تقودهم نحو الضياع، وربما إلى الهلاك..

معالجة الأهواء

لعلَّ من مقوّمات صحة النفس الأساسية مكافحةَ الأهواء الضارة، التي من شأنها أنْ تطغى على إرادة الإنسان وتضعفها. ولكن قبل هذه المكافحة، يجب العمل بكل الوسائل والسبل لمنعها من التولد، فالتدابير المانعة أو الوقائية خير من التدابير الرادعة. فإذا ما أحسَّ الإنسان في نفسه ميلاً شديداً إلى شيء غير مستحب أو مكروه، أو إلى لذة أو شهوة دنيئة، فإنَّ عليه مغالبة هذا الميل قبل أنْ يصبح هوىً مستفحلاً في نفسه، بحيث لا يعود قادراً على دفعه ومغالبته.

ولعلَّ أنجح السبل لتلافي الأهواء يكمن في معرفة الإنسان لذاته، أي معرفته لنفسه على حقيقتها. ومن خلال هذه المعرفة، وعندما تنكشف له بدايةٌ لهوىً شديدٍ يخافه، عليه المبادرة بالتفكير في أسبابه، ومن ثَمَّ محاربتها بكل الوسائل المتاحة له، حتى ولو اضطر من أجل ذلك إلى تغيير نمط حياته، والانتقال من بيئةٍ إلى أخرى. . .

والفراغ والبطالة عن العمل قد تكون من أهمّ العيوب الباعثة على تولد الأهواء الضارَّةُ، ولذا قيل: «البطالة أم العيوب».

وقد يكون الشبان، ولا سيما من هم في مقتبل العمر، أكثر تعرّضاً للأهواء من غيرهم، وذلك لكثرة الدواعي المتسلطة عليهم، فكان لزاماً أن يملأوا أوقات فراغهم بالعمل المثمر، كالمواظبة على الدرس والتحصيل العلمي، أو مطالعة المؤلفات الراقية، أو إيجاد عمل شريف، مهما كان نوعه، لكي يحصل منه الشاب على الكسب الحلال.

والعمل في خدمة المجتمع خير رادع عن تسلط الأهواء، فمثلاً

المتطوع في الدفاع المدني وقت الأزمات والنوائب، والمساهم في الجمعيات الخيرية، والمشترك في النوادي الثقافية والرياضية، وما إلى ذلك.. يعتبر من أبناء المجتمع الصالحين، الذين نأوا عن الأهواء، واتبعوا السبل القويمة المجدية، وملأوا فراغهم بعمل الخير.

ومما يذكر في التاريخ أنَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما أراد أنْ يعيِّنَ والياً على حمص، سأله: إذا أتاك الناس بسارقٍ فماذا أنت فاعل به؟ أجاب: قاطعٌ يا أمير المؤمنين يَدَهُ. قال عمر بحدَّة: يا هذا، وإنْ كان ذاك السارق بحاجة إلى ما سرق، قطع أمير المؤمنين يدك. يا هذا، إن الله تعالى خلق الأيدي لتعمل فاشْغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

إذن هنالك مجالات واسعة جداً لأي إنسان كي يملأ قلبه بالمشاعر النبيلة، ويعوِّد نفسه على الأعمال الخيّرة، مثل حب الأهل والأصدقاء، والناس من حوله، وحسن الخلق وما إلى ذلك من القيم التي تصقل الإنسان وتبلور جوهر الفطرة الطيبة فيه... ويأتي في رأس كل عبادة أو فضيلة، أو مثال، بل وفي رأس كل عاطفة أو شعور حب الله تعالى، لأنَّ حبَّ العبد المؤمن لمولاه، هو الذي يفعم قلب هذا العبد، بل قلوب المؤمنين جميعاً، بالخير، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (1).

ويمكن معالجة الأهواء بعد ظهورها بطريقتين:

١ ـ تصور الغايات السامية، الذي من شأنه أن يحوِّلَ ذهن الإنسان عن الأهواء، ويجعله يولي اهتمامه لنيل تلك الغايات..

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

ويمكن أيضاً محاربة بعض الأهواء من خلال التفكير في عواقبها الوخيمة؛ فالذي يطغى عليه مثلاً شرب الخمرة، أو الإتجار بالمخدرات، قد تستهويه اللذة، أو قد تغريه الثروة، ولكنه عندما يسأل نفسه: وما نفع تلك اللذة الزائلة، أو ما فائدة الثروة مهما بلغت إذا ما عصيت ربي، أو إذا ما أمسكت بي السلطات وأودعتني السجن؟!... هذا الخوف من العواقب الوخيمة قد يدفع إلى التخلي عن تلك الأهواء، فتتغلب المشاعر النبيلة، وينتصر العقل على الشهوة...

٢ ـ الامتناع عن الأفعال التي من شأنها إشباع الرغبات المحرِّكة للهوى. لأنَّ مما يضعف الهوى، أنْ ترغب وتشتهي وتشقى من غير أن تنال أي نتجية لذلك، فالهوى الذي لا تُدرك الغاية التي تبعث عليه لا بدَّ وأن يزول تدريجياً من النفس، فإذا عجز الإنسان عن نيل ما يرغب فيه، أعرض عنه.

وقصارى القول أنه لا يمكن التغلب على الأهواء إلاَّ بالصبر على المعاناة، والثبات على مقاومتها، والاستمرار على القيام بالأعمال الرصينة، ولاسيما الخيِّرة منها، وتصور الغايات السامية.. وكل هذا يقتضي جهداً إرادياً كبيراً. ولذلك كان الهوى مذموماً من قبل الباحثين جميعاً، وهم يضعون له علاجات نظرية أو عملية، إلاَّ أنها لا ترتقي إلى الدرجة التي بلغها التصور الإسلامي حول معاني الأهواء ونتائجها وآثارها على حياة الإنسان، ومن ثم بيان معالجاتها من خلال معالجة النفس الإنسانية ككل لا يتجزأ.

والقرآن الكريم يتحدث كثيراً عن ذم الذين يتبعون أهواءهم،

وخاصة ما كان مبعثها وسوسة الشيطان، والاندفاع وراء الشهوات، وارتكاب المعاصي؛ فانسياق الإنسان لرغائبه وميوله الشريرة يجعلها تتحول إلى هوىً يطغى عليه ويُضلّه: إن عن دينه وإنْ عن دنياه؛ باعتبار أنَّ الهوى كثيراً ما يميل بصاحبه، في هذه الدنيا، إلى كل داهية، كما يجعل مصيره في الآخرة إلى الهاوية. والعلّة في الهوى تشعّب ألوانه تبعاً لاختلاف الأنفس، وهو ما نتحرّاه من قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾(١). فقد استعمل النصُّ القرآنيُّ لفظ الجمع ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ تدليلاً على أنَّ لكل امرئ هوىً غيرَ هوى الآخر، ثم إنَّ هوىً كل واحد لا يتناهى، ولذلك يوجه المولى العزيز رسوله الكريم إلى أنَّ ما يحتجُّ به، أو يتقوَّلُهُ الكفار والمشركون، ليس إلاَّ أهواءً تقودهم إلى معاندة الحق الذي تدعوهم إليه ـ يا محمد ـ كما أنَّه فقط الحق هو الذي يحول دون اتباعك لأهوائهم.. فقد كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الإيمان بالله والسير على هدى القرآن، بينما الكفار والمشركون كانت دعوتهم البقاء على عبادة الأصنام، فنزل الآيُ الكريمُ بالبرهان العقلي الذي يسفِّه أحلام دعاة الشرك، وذلك بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾(٢) أي قل لهم أنعبد من دون الله تعالى ـ الخالق العظيم والمدبر الحكيم ـ الأصنام التي لا تنفعنا عبادتُها، ولا يضرنا الكفران بها، ونُردُّ إلى الشرك، كالذي حملته الشياطين على اتباع الهوى فأضلَّته، فصار في حياته كلها حيران لا يعرف ماذا يفعل، ولا يدرك ما الحقيقة، يهيم في

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

أودية الضلال والكفر، وتستعبده شهوات الدنيا التي تزينها له الشياطين؟! وهذا أدق وأصدق تعبير عن حالة التيه والحيرة التي يتخبط بها الإنسان، كمثل من عاد إلى الشرك بعد اعتناقه عقيدة التوحيد، يتوزع قلبه بين الهدى والضلال، بين الله تعالى الإله الواحد الأحد، وبين الآلهة المتعددة التي يتخذونها من دون الله تعالى أنداداً، بينما هي في حقيقتها مخلوقات جامدة، أو عبارة تصورات وهمية جعلتها أهواؤهم الضالّة آلهةً يعبدونها؛ فمثل هذا النموذج من البشر يكون ضائعاً، يتخبط في الحيرة وفي الضلال، غلب عليه في قرارة نفسه الهوى، لأنَّهُ بعد عن هدى الله الحقّ.

أما المصير الذي ينتظر من يتبع هواه أو ـ بخلافه ـ الذي ينهى نفسه عن الهوى فيدلُّ عليه ويُثْبِتُهُ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

والطغيان وصف لكل تجاوز في الحق. والطاغي المقصود في النص القرآني هو من يكون ميدانه في الحياة أوسع مدى وأشمل من ميدان الطغاة ذوي الحكم والسلطان، حيث يشمل ميدانه كل تجاوز للحق، وللهدى، وللصواب والخير، فكان حكماً ـ بطغيانه ـ أنْ يُؤْثِرَ الحياة الدنيا ويختارها على الآخرة، أي أنْ يعمل لهذه الدنيا وحدها، غيرَ عابئ بالدار الآخرة، وغير حاسب لها أي حساب.

ولكن مثل هذا الطاغية لم يعرف أنَّ اعتبار الآخرة والعمل لها هو الذي يقيم الموازين الصحيحة في عقل الإنسان وقلبه. فإذا أهمل

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١.

الإنسانُ يومَ حسابِهِ بعد البعث، ولم يؤمن بأنَّ الدار الآخرة لهي الحياة الحقّ، وآثر عليها الحياة الدنيا، اختلت كل الموازين في حساباته، وتساوت كل القيم في تقديره، واضطربت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، فحق إذن أن يُعدَّ طاغياً، باغياً، ومتجاوزاً للحدود. فأما هذا الطاغي الباغي فإنَّ الجحيم هي مأواه ومثواه. الجحيم التي تتلظى بالنار اللاهبة المحرقة، التي تشوي الجلود والأكباد، وتلتهم العظام والأفئدة، وتقول: هل من مزيد؟!..

وأمّا من خاف مقام ربه، أي القيام بين يديه يوم الحساب، وخاف مقام ربه الأعلى في السماوات والأرض، وقدَّرَهُ حقَّ قدرِهِ من التقديس والإجلال والتعظيم، ونهى النفس عن الهوى فإنه لا يقدم على المعصية، ولا سيما أنه يعلم أنَّ ملَكيْنِ موكَلَيْنِ به يسجّلان عليه كل حركة وسكنة، كما يعلم أنَّ ربه تعالى أقرب إليه من حبل الوريد الذي في عنقه، بل وإيمانه بأنَّ الله ربَّهُ شديدُ العقاب.. كلٌّ ذلك يجعله يحكّم علمَهُ وإيمانَهُ، ويدفعُهُ لأنْ يخافَ ربه ـ جلَّ جلاله ـ وإن ارتكب معصيةً بحكم ضعفه البشري، قاده خوفه من مقام ربه الأجل الأعلى إلى الندم والاستغفار، والتوبة وعدم الإصرار، فعاد إلى الطاعة والعبادة، والله سبحانه وتعالى غفور، تواب رحيم...

أما نهيُ النفس عن الهوى فيُعَدُّ نقطةَ الارتكاز في دائرة الطاعة، لأنَّ هوى النفس هو الدافع القوي لكل طغيان، وتجاوز كل حدٍّ، وهو أساس كل بلوى، ومصدر كل شرّ. وقلَّ أنْ يؤتى الإنسان، وأنْ يسلك طريق المعصية والانحراف، إلاّ من قبل الهوى.. فقد يجهل الإنسان، فيكون سهلاً علاج الجهل. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق، طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من مقام الله العلي العظيم هو الحاجز الصلب أمام اندفاع هوى النفس العنيف. وقلما يثبت غير هذا الحاجز أمام تيارات هوى النفس.

إنَّ علينا أنْ نعلم علم اليقين بأنَّ الله تعالى عندما يقول لنا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]، إنَّما يريدُ منا سبحانه وتعالى أن ندرك بأنه خالق النفس البشرية، العالم بدائها، الخبير بدوائها. وهو وحده ـ سبحانه ـ الذي يعلم دروبها ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها، وكيف تتصارع الأهواء والأدواء في مكامن هذه النفس ومخابئها! والله تعالى لم يخلق النفس ويكلّفها ألاّ يشتجر الهوى فيها، لأنَّهُ يعلم أنَّ هذا خارج عن طوق الإنسان، ولكن كلَّفَهُ أنْ يروّضها ويمسك بزمامها، وأنْ يستعين بالخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب. وخالقه يعلم أن نهيَهُ لنفسه عن السير في هواها، هو جهاد شاق ضخم، فكتب له بهذا الجهاد الأكبر، الجنةَ مثابةً ومأوىً.

ولا نظن أيَّ هوىً أَعْتَى وأَضَلَّ من هوى التعبّد الذي لا يقوم على دليل عقلي، أو الذي يُتبعُ فيه تقليد الآباء، كما كان المشركون في الجاهلية يفعلون في عبادة الأصنام والأوثان، ومن معبوداتهم تلك اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.. إذ ليست تلك المعبودات إلاَّ ظنّاً أو وهماً لا أساس له من العلم ولا من الواقع الذي يقوم على الحجة والدليل، لذلك يقول الله تعالى عنها: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١.

سُلْطَٰنٍ﴾، لأنَّ كلَّ ما لم يقرره الله تعالى لا يُعتدُّ به لأنه لا يستند إلى الدليل العقلي والحسي، أو إلى تعاليم الأنبياء والمرسلين، فلا تكون له بالتالي لا قوة ولا سلطان، بل ولا حقيقة له، إذْ للحقيقة سلطانها، أما الباطل فيبقى سلطانه ضعيفاً، مهيناً مهما ظهر له من أتباع يعملون لغلبته على الحق، وعن عبادتهم الوهمية تلك، واتباعهم ما تقود إليه تلك العبادة، يقول الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾(١).

وكثيرون اليوم هم على شاكلة المشركين في الجاهلية، يتبعون الظن وما تهوى الأنفس: فيقيمون على الظن عقيدتهم، أو يهوون أشياء تزينها لهم أنفسهم، ويجعلون هذه الأشياء أساس عقيدتهم، بحيث يستمدون من الظنّ ومن هوى الأنفس الدليل، مع أنّ العقيدة الحقّة لا مجال فيها للظنّ والهوى، ولا بدّ فيها من اليقين القاطع، والتجرد من الهوى. وهم لم يتّبعوا الظنَّ والهوى، وعندهم شيء من برهان أو دليل عليه، وليس لهم من عذر أو علة فيما ذهبوا إليه ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. إذْ بعد أنْ جاءهم من ربهم الهدى ببعث محمد رسول الله ﷺ، الذي قطع بدعوته كل شبهة لديهم، وأوهى كلَّ عذر وأبطلَ كلَّ تعليل.. أجل بعد ذلك كله، كيف يبقون على ضلالهم وعلى اتباعهم ﴿ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾؟.

ومتى انتهى الأمر بالإنسان إلى شهوة النفس وهواها، فلن يستقيم له أمر، ولن يجديَهُ هدى، لأنَّ هوى النفس غالباً ما يكون جامحاً، فلا يعرف حقاً، ولا يقرّ بدليل، وعندما يسيطر الهوى الجامح

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٢٣ ـ ٢٥.

عليه، حتى تصابَ النفسُ بشرٍّ حالةٍ فلا يعود ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل.

ومن ثم يسأل الله تعالى الإنسان في استنكار: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾. فهل كل ما يتمنى الإنسان يجب أن يتحول إلى حقيقة، وكل ما يهوى يجب أن ينقلب إلى واقع؟ لا، الأمر ليس كذلك، لأن الحقَّ حقٌّ، والواقعَ واقعٌ.. وأهواء النفس وأمانيها لا تغيّر في الحق شيئاً، ولا تبدّل في الأمور أي تبديل. بل إنّما يضلُّ الإنسان بهواه، ويهلكُ بمُناه، لأنَّهُ أضعف من أن يغير أو يبدل في خاصيات الأشياء. ويبقى الأمر كله لله تعالى، يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا والآخرة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.. وذلك لأنه تعالى مالك الملك، وربُّ السماوات والأرض، فلا يفلت شيء فيهما من قبضته، لا شريك ولا منازع له في ملكه ولذلك اقتضت حكمتُهُ أن يولي - توليةً فقط - عباده - مؤمنين وكافرين - ما قدَّرَ لهم في الأولى، أي في هذه الحياة الدنيا، بينما أبقى الآخرة - الحياة الآخرة - للمؤمنين وحدهم من دون الكافرين، وكلِّ الذين يتّبعون الظنون، وما تهوى الأنفس من الضلال والغي، والبغي، وكل أشكال الضلالات الأخرى التي تبعدهم عن عبادة ربهم..

وعن سفاهة أحلام من يتّخذُ إلهَهُ هواه، فقد قيل إنَّ المشركين في الجاهلية، كان أحدهم إذا رأى في سفره حجراً أعجبه، حمله معه، وجعله إلهاً يتعبّدُهُ مع الآلهة الأخرى التي تتكدس في بيته، والتي كانت تملأ الكعبة وجوارها، ولكي يتبيّن مقدار الجهل الذي كان يطغى على عقول أولئك المشركين وعدم قبولهم لدعوة الحق التي جاءهم بها رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

إنه خطاب من رب العرش العظيم للتلطّف برسوله الكريم ﷺ بألاّ يجهد بعدُ في إقناع عتاة المشركين بأنْ يصدقوه في دعوته، ويتخلّوا عن عبادة الأوثان، لأنهم لم يتخذوها آلهة وهم يعقلون؛ بل بفعل الأهواء إنْ تقليداً للآباء، وإنْ جهلاً لمعاني الألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة لله الواحد الأحد، فقادهم هذا الجهل إلى تفضيل الشرك على دعوة نبيّه كي يحافظوا على متاع الدنيا، وما يحفل به من الأطماع واللذائذ، وكل ما تهواه أنفسهم من الشهوات، وتقود إليه الأهواء من الجاه، والمال، والنفوذ. . .

ولو تبصّر هؤلاء ما جعلوا الهوى يغلب على العقل، والشرك على التوحيد، وعبادة هذه الجمادات من التماثيل أو الأصنام والأوثان كي تقربهم إلى الله زلفى. . لأنَّ هذا منتهى ما يزري بالإنسان، ويجعله على مثل هذه الحماقة والرعونة والانقياد الأعمى لهذا الصنم أو الوثن حتى لكأنه يظنّ بأنه يأمره فيأتمر بأوامره، وينهاه فيمتثل لنهيه!. . ومجلبة ذلك كله الكفر، والشرك بالله تعالى، وهما ينطويان على سفاهة العقل وإنكار الحق، وتنكرٍ للفطرة التي فطر الله ـ عزّ وجلّ ـ الناس عليها. .

وزيادة في إيناس رسول الله ﷺ، ولكي لا تذهب نفسه حسراتٍ على من جعل إلههُ، الذي يتعبَّدُ إليه، هوى نفسه ليس إلاَّ، يقول له ربُّهُ ـ جلَّ جلاله ـ أخبرني ـ يا محمد ـ أفأنت تكون وكيلاً على

---

(1) سورة الفرقان، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

مثل هذا الإنسان، حافظاً له من اتباع هواه؟ لا، إنَّما عليك البلاغ المبين، وعليه هو أنْ يتدبَّر أمره، ويتفكَّر بحاله ومآله، ثم يختار بين إعمال عقله أو الاستمرار في الانسياق لهواه، وبالتالي إما أن يتحوّل إلى الإيمان الحق، وإمَّا أنْ يظلَّ في حمأة الكفر والشرك..

ومنْ غرَّهُ هواه، فنسيَ ربه، وعصى ما يأمره به من السمع والطاعة، لا يمكن أن تكون لديه قابلية للهدى، ولذلك ينبّهُ العزيزُ القديرُ رسولَهُ الكريم بقوله له: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ لا، لا تظننَّ فيهم خيراً، فهم لا يسمعون ما ترشدهم وتعظهم به، ولا يفقهون شيئاً مما تدلي به من الحجج والبراهين والشواهد، لأنهم لا يريدون هدايةً من الله، ولا استماعاً إلى رسوله. إن هم، وبتلك الصفات، إلاَّ كالبهائم التي تسمع النداء، ولكن لا تعقله. بل هم أكثر ضلالاً من البهائم، لأنهم على الرغم من فهمهم لقولك وتمكنهم من المعرفة، لا يحبون أن يصدّقوك، بينما الأنعام لا تملك ملكة الفهم والوعي، بل ألهمت فقط منافعها ومضارها المعيشية، وهي بغرائزها لا تقدم على ما يضرها، في حين أنَّ أولئك البشر الذين يتّخذون آلهةً من أهوائهم، قد عرفوا طريق الهلاك وطريق النجاة، فسلكوا الأولى وبعدوا عن الثانية، مُوقعين أنفسهم في التهلكة! أوليسوا في ذلك أضلَّ طريقاً من البهائم؟ وهل أحقر شأناً من مخلوق يؤثر اتباع أهوائه فينقاد لها حتى ينزلق إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان؟ وهل أدنى قيمة من إنسانٍ وُهِبَ العقل والنطق والقدرة على التمييز والاختيار، ثم يعطّلها جميعها ويخضعها لأهوائه، حتى يصير هو بالتالي عبداً لهذه الأهواء؟!...

وإنه لمن العدل الإلهي، والقانون الطبيعي لحقيقة الحياة ووجود

الإنسان، ألاَّ يستوي من كان على بينةٍ من ربّه مَعَ مَنِ اتَّبع هواه. وهذا ما يبينه القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[1].

إنه قولُ ربِّ العالمين الذي يحمل الاستفهام ولكنْ لتأكيد أن المؤمنين الذين يكونون على يقين من الدين، وعلى حجة واضحة من الشريعة وعلى هدى من ربهم، ليسوا مثل الذين زَيَّنَ لهم سوء عملهم بالكفر فرأوه حسناً، اتبعوا أهواءهم في عبادة الأوثان، وحبّ الشهوات، وارتكاب الجرائم، واقتراف الآثام، من دون ضابط للعقل يدركون به الحقائق، أو نورٍ للإيمان يُضيء لهم طريق الحق من الباطل، ومن دون أصلٍ للعمل الصالح يقيسون عليه، فكان من الحق ألاَّ يكون أولئك الكفار والمجرمون مثل أولئك المؤمنين، والمماثلة لا تصح - أصلاً - بين الفريقين لأنَّهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً، فلا يمكن أن يستووا جزاءً، ولا مصيراً، ولا مآلاً.

(١) سورة محمد، الآية: ١٤.

الإرَادة

يقال في اللغة: رادَ، يَرود: إذا سعى في طلب شيء. والرائد: طالب الكلأ، وهو الأصل، ثم صار لكل طالب حاجة، حتى قيل أخيراً: رائد الفضاء.

والإرادة في النفس البشرية عبارة عن قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل يحكمها جميعها العقل؛ فهي تُعَرَّفُ إذن بنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه عن طريق العقل بأنه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفْعَل.

الفعل الإرادي أو إرادة الفعل

والفعل الإرادي يكون عقلياً وذاتياً.

يكون عقلياً عندما يريد الإنسان شيئاً ويفعله مستخدماً في ذلك جميع الإمكانات والوسائل التي تمكّنه من فِعله؛ وكذلك الأمر عندما يريد هدفاً معيناً فهو يستعمل كامل قدراته وطاقاته لبلوغه. والإنسان عندما يستخدم عقله للقيام بفعله الإرادي فإنه لا يعي فقط ما يفعل، بل ويشعر أيضاً بما يفعل.

والفعل الإرادي يكون ذاتياً من خلال البواعث والدوافع التي تبرز في سجايا المرء وخصاله، بحيث تكون له شخصيته المتميزة عن سائر الشخصيات. ولذلك يختلف الفعل الإرادي بين إنسان وآخر، وهو يحصل بحدود طاقة الفاعل، الذي يتحمل صاحبُه وحده أفعاله..

والرَّوِيَّةُ إحدى مراحل الفعل الإرادي، وهي تقوم على التأمل والتفكير في الأمر قبل الإقدام عليه، وذلك بالموازنة بين الأسباب الداعية إلى الأمر والأسباب الرادعة عنه، فإذا أسفرت هذه الموازنة عن اتخاذ قرار تمت شروط الفعل الإرادي، وإذا لم تسفر عن اتخاذ قرارٍ، وقع الإنسان في الحيرة والتردد.

والفعل الإرادي لا يتبع النزعات الانفعالية التي تسيطر على الإنسان، كالاندفاع والتهوّر وتلبية مطالب الغرائز الملحّة.. فقد يرغب الإنسان القيام بعمل معين، ولكنَّ الرغبة التي تدفعه قد تتعارض مع إرادته، لأنَّ اتباع الرغبة شيء، والخضوع للإرادة شيء آخر.. ويظهر عمل الإرادة هنا في الرَّوية المقابلة للاندفاع، وعلى هذا فإنَّ العمل لا يصبح إرادياً إلا إذا تعارضت الرغبات أو تقابلت النزعات، أو تصادمت الشهوات وبدأ الصراع فيما بينها، بحيث يتجمَّع هذا الصراع حول الرغبة في جملة من الصور والأفكار والعواطف، ولا ينتهي إلاَّ بتغليب بعضها على غيرها التي هي أضعف منها. ففي هذه الحالة يكون الفعل إرادياً. هذا مع الإشارة إلى أنَّ كل ما يحدث في نفس الإنسان يبقى متأثراً ـ من قريب أو بعيد ـ بما يسبقه في هذه النفس من انطباعات، وبما كان قد تكوّن لديه من مفاهيم، واكتسب من خبرةٍ..

والفعل الإرادي لا ينطوي على تصورٍ مسبق وحسب، بل يجب أنْ ترافقه عوامل أخرى كنزوع النفس إلى الفعل، والحكم عليه بأنه ينبغي أنْ يُفعل أو لا يُفعل، ومن ثَمَّ التقرير بتنفيذ هذا الحكم. والمثال على ذلك أن يتخذ الإنسان أحد موقفين أمام عزمه على الخروج في نزهة، أو متابعة العمل الذي بين يديه، أي:

- إما الخروج بعد أن يحكم بأنَّ لديه متسعاً من الوقت لإنجاز عمله، وأنه يمكنه أن يستفيد من أجواء الطبيعة الهادئة، ومن قضاء فترة من الراحة تؤهله ليكون أكثر استعداداً ونشاطاً للقيام بهذا العمل.

- وإما الامتناع عن الخروج، بعد تفكيره بجميع البواعث والدوافع التي تحبب إليه النزهة، ثم الاقتناع، أو تغليب التفكير الذي يقرر فيه عدم الخروج، لأنَّ إنجاز عمله فيه فائدةٌ أكثر من النزهة، وهذا ما يجعل إرادة الفعل متميزة عن نية الفعل.

نية الفعل:

قد يكون أحدنا منكباً على عمل من الأعمال الصعبة، أو منشغلاً بإتمام أمر من الأمور الشائكة، وقد يشعر بالتعب، ويجد في نفسه حاجة لأن يترك كل شيء لفترة تتيح له الترويح عن النفس، وتبعث فيه النشاط من جديد. فإذا أغرته هذه الفكرة ودفعته للاسترخاء فعلاً، فإن النية لديه في طلب الراحة تكون هي التي تغلبت على ما عداها من نيات أخرى. وفي هذه الحالة ينشأ في ذهنه تصور عن الاسترخاء يكون متقدماً على فعل الاسترخاء ويسمى بنية الفعل. فالنية إذن هي «فاعلية القصد، وتشتمل عادة على الرغبة والحاجة والأمل».

مقومات الإرادة

لأجل أن تكون الإرادة قوية وفاعلة، لا بدَّ أن تتوافر لذلك عدة مقومات من مثل ثقة الإنسان بنفسه ومعرفة نفسه، والإيمان بصدقية الطاقات الشعورية التي تكمن فيها، وتصوره المثل العليا وما إلى ذلك مما يقوّي إرادته في اتخاذ المواقف. . والمقومات النفسية تتداخل فيما بينها، بحيث لا يمكن عزل بعضها عن بعض أو التفريط بواحدة منها على حساب باقي المقومات. .

والثقة بالنفس أول ما تبدأ بمعرفة الإنسان نفسَهُ، لأنَّ هذه المعرفة هي التي يبني عليها قراراته وكيفية عيشه، فكانت ضرورية له، ولذلك قيل: «ماذا ينفع الإنسانَ لو ربح العالمَ وخسر نفسه»؛ وكذلك الإيمان بصدقية طاقاته فإنه يعزّز ثقته بنفسه، ويدفعه إلى مقاومة مشاعر النقص، وتصورات الضلال.

ومن تكنْ ثقته بنفسه قوية، يشعرْ بأنَّه يمتلك الإمكانية الكافية للقيام بالعمل الذي يقدر عليه؛ ولكن قد يخفق الإنسان ـ أحياناً كثيرة ـ وهو يعمل، وهذا ليس عيباً طالما أنه بذل كل استطاعته من الجدّ والإخلاص، وإعطاء العمل حقه. . إلاَّ أنه يجب ألاَّ يدع الشعور بالإخفاق يستولي عليه، ويوهن قواه، ويدفعه لئلا يعمل، لا بل على العكس من ذلك، فإذا كان هذا الإنسان يملك إرادةً قويةً، وسعة أفقٍ في تفكيره، عليه أن يجعل كلَّ فشلٍ، يُمنى به، حافزاً جديداً، وتجربة تعطيه درساً إضافياً للإفادة مما حصل معه، كي يستمرَّ، ويثابر على الاستمرار، محاولاً تحدي الصعوبات، وتذليل العقبات التي قد تعترضه. . وليس مهماً، بعد ذلك، إن أخفق أو نجح في إنجاز عمله

كما يتوخَّى، بل المهمّ أن يشعر بأنه بذل كل ما لديه من جهد، وقام بكل ما يمكنه من محاولة، وهذا كافٍ بذاته لتعزيز ثقته بنفسه.. والأمثلة على ذلك في الحياة كثيرة: فالمريض الذي يتحمل شدة الألم، ويصبر على قوة الجراح، وقناعته بصحة المعالجات من شأنه أن تشفيه من المرض، وكذلك الرجل الشريف فإنَّه لا يعبأ بما يتقوَّل عليه الآخرون للنيل من شرفه لأنَّه يعرف نفسه؛ وكثيرون من المحسنين الذين يحدبون على الفقراء والمساكين والمحتاجين دون أن يحفلوا بما يحسدهم عليه الناس، لأن غايتهم تكون رضوان الله تعالى؛ ومن الأمثلة أيضاً ما يصادف كثيرون في ميادين العمل من مواقف جائرة ـ إنْ لم تكن مخزية ـ وأقلها أنْ ينالَ الكسالى، والمعدمون من المعرفة والخبرة، الحظوة عند رؤسائهم، دون أن يؤثر ذلك على نشاط وإنتاج الجديّين والمخلصين في الشركة، أو المصنع أو الإدارة، الذين يتحملون جورَ الرؤساء ـ وأحياناً بلاهتهم ـ لأنَّ عزمهم على النجاح جعلَ إرادتهم أقوى على تخطّي كل المعوقات في وجه ذلك النجاح.. وقس على ذلك الشواهد الأخرى التي تدل على الصبر، والاحتمال، والشعور بعدم الخذلان لدى كل من تكون ثقته بنفسه قوية.. وعلى خلافه فإنَّ كل من يكون ضعيف الإرادة غالباً ما يوهنه الضغط الذي يلاقيه في عمله، بل وقد يتقاعس ضعيف الإرادة عن القيام بأي عمل لأنه يتصور ـ سلفاً ـ الفشل، وعدم الإمكانية لتحقيق أي شيء، ولذلك نراه مشدوداً إلى الخمول، والتواكل على الغير، يلوذ بالشخص القوي كأنما يحتمي فيه من ضعف نفسه، ويرتمي في أحضان الوحدة هرباً من مواجهة أعباء الحياة..

هذا عن قوة الإرادة أو ضعفها.. ولكن ما يجب الانتباه إليه،

هو أنَّ الثقة بالنفس شيء، والجنوح إلى المبالغة شيء آخر؛ فلا يعتقدنَّ أحدٌ أنَّهُ قادرٌ على النجاح في أي عملٍ يريد خوضَ عماره، أو أنَّ كل تصوراته وطموحاته قابلة للتحقيق بسبب مهارته وحذلقته، أو غلوّ مشاعره في التفوق. . ولذلك كان من الأفضل ـ كثيراً ـ ألاَّ يورّط الإنسانُ نفسه في أعمالٍ أو مشاريع تفوق طاقاته، بل يطرق المجالات التي تتوافق ومواهبه، وتكون منسجمة مع ميوله وقواه الفكرية والشعورية؛ ومن ثم الإيمان بقدرته على النجاح، لأنَّ في نفس كل إنسان ميولاً طبيعية كثيراً ما تساعده على اتخاذ القرارات والتدابير التي من شأنها أن توفر فرص النجاح. .

ومن الثابت أنَّ الذين يقتحمون ميادين العمل الصعبة يملكون عادةً ثقة بالنفس أكبر، وإرادةً أصلب، وعزماً أقوى على التصميم والمثابرة. .

ومثل قوة الإرادة والثقة بالنفس، هناك المثل العليا، ذلك أنَّ الحياة لا تقتصر على الأمور المادية، بل تحكمها أيضاً المعاني المجردة كالأهداف النبيلة، والقيم السامية، والإيمان الديني، والغايات الإصلاحية وغيرها مما يجذب كثيراً من الناس، من هنا كان على صاحب الإرادة القوية أنْ يجعل له مثالاً في الحياة يتوافق مع مفاهيمه وأهدافه. .

والمثال الأعلى في التصوّر الإسلامي، يقوم على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]. وهذه قاعدة إسلامية هي أم التصوّر والتفكير

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٠.

والشعور، فلله تعالى الأسماء الحسنى، أي الصفات العليا في الكمال، لأنَّه وحده ـ عزَّ وعلا ـ تفرَّد بالألوهية المطلقة، والربوبية المطلقة، مثلما تعزَّز بالقدرة والبقاء، فلا إله إلاَّ الله، وهو ربُّ العالمين، ما يشاءُ يكون، وما لم يشأ لم يكن، لأنَّ مشيئته المطلقة، إذا أراد أن يقول للشيء: كن، فيكون. . ومن مشيئة الله تعالى تنبثق سائر القوى والموازين، وشتى الأهداف والتصورات، وكل المثل العليا في الوجود الإنساني. لذلك كان على الإنسان أن يستمد ـ قبل كل شيء ـ مثالَهُ الأعلى من كمال ربه ـ جلَّ وعلا ـ، ثم ينطلق في تصور سائر المثل الأخرى التي يريدها. .

والمُثُلُ العليا كثيرة ومتنوعة: كالإيمان الصادق، ونشدان الحق، والتخلُّق بالخلق الحسن، وطلب العلم، والسعي وراء الكسب الحلال، وطلب المكانة الاجتماعية المرموقة إلخ. . وتختلف هذه المثل باختلاف الأفراد، وقد تتبدل في حياتهم بتبدل ظروفهم المادية والنفسية ، وطرق العيش في المجتمع الذي يكونون فيه. . ومع ذلك فإنَّ هنالك بعض السمات الخاصة التي تحكم المثل العليا، فقد يكون المثل الأعلى للعالم هو الكشف عن الحقيقة العلمية التي يسعى وراءها، وللقائد الفوز في المعركة، وللأم الفاضلة تربية أولادٍ صالحين، وللسياسي خدمة الشعب ورفع شأن الوطن، وللتاجر أو الصانع إنشاء امبراطورية في تجارته أو صناعته، وهكذا مما يتصوّر كل إنسان ويسعى إليه. . ويكون للمثل الأعلى عادةً سلطان قوي على النفس وعلى السلوك؛ فطالب العلم الذي يعتبرُ نجاحهُ في الحياة متوقفاً على بلوغه مستوىً معيناً من التحصيل العلمي نراه يهجر كل ما من شأنه أن يضيِّع وقته، أو يدفعَه إلى الدعة واللهو، لينصرفَ إلى

الكتب والمذكرات والأبحاث وإلى المثابرة على الدرس الدؤوب الذي ينيله هذه المرتبة التي يسعى إليها..

والهدف كلما كان أسمى وأرفعَ كانت متطلباته أشدَّ وألزمَ، ولذلك تعتبر الأهداف من المقوّمات الأساسية في تحديد الشخصية، فلا يهدف إلى المثل العليا والغايات السامية إلا الرجال العظام. ومن فضل الله تعالى علينا أنه منح الإنسانَ طبيعةً تزوده بقوى وطاقات واستعدادات غالباً ما تفوق حاجاته ومطامحه، وتمده بما يساعده على تلبية هذه الحاجات والمطامح... ولكن إذا أهمل الإنسانُ قواه الذاتية، وجافى الطبيعة التي منحه إياها خالقه، فإن غاياته تصبح رخيصة، ومفاهيمه عن الأمور تغدو ملتوية، وتصوراته للأشياء تصير خاطئة، لأن الطبيعة البشرية ذاتها تشحّ عند ذلك بعطائها له، وتبخل بقواها عليه.

وهكذا نرى أنَّ الإرادة تستلزم الإيمان بقدرة النفس، وتصور المثال الأعلى القابل للتحقيق. فإذا فُقِد أحد هذين الشرطين اضطربت نفسية الإنسان ودبَّ الضعف والانحلال بإرادته.

ويتفاوت الناس في قوة الإرادة كما يتفاوتون في قوة التفكير. ولذلك يعتبر «علماء النفس» أن هنالك أنواعاً عديدة من الإرادات، كالإرادة القوية، والإرادة المتوسطة، والإرادة الضعيفة.. إلاَّ أنَّ قوة الإرادة شيء، وصحة الإرادة شيء آخر. فالإرادة الصحيحة تعمل على تنظيم الأفكار والعواطف، وعلى تمكين السيطرة على الأهواء، والرغبات، وكل الميول غير الطبيعية أو الميول المنحرفة. والناس البارزون غالباً ما يكونون أكثرَ سيطرة على أهوائهم وعواطفهم، فهم

يريدون، ولكنْ ما يفعلون، ويفعلون ما يريدون ضمن ضوابط الاعتدال والجدّية والثبات والإخلاص للفطرة. .

وعادةً ما تقوى الإرادة، ويشتدّ فعلها بالأفكار الصائبة والمفاهيم القوية والنزعات العالية، ولا سيما النزعة الإنسانية، التي تنطلق من الإيمان بالله تعالى، تتجاوز حدودَ الفوارق الطبقية، واختلاف الأديان والمذاهب، واختلاف الأعراق والأجناس، وترنو إلى الإنسان أينما كان. . ومثالُ الإرادة في قوتها، كمثال الجسم في صحته عندما تكون أعضاؤه سليمة، وتؤدي وظائفها بشكل كامل. ولا تتوافر القوة للإرادة إلاَّ بتوافر المقومات الصحيحة، كما أشرنا إليها، وبالعمل الذي يتصف بالانتظام، والانسجام، والاعتدال. .

أمراض الإرادة

وكما تكون إرادة الإنسان قويةً وصحيحةً، فهي أيضاً عرضة للأعراض والأمراض التي تؤدي إلى ضعفها، وانحلال قوة الترابط بين خلاياها ومقوّماتها؛ ولذلك يقال: الإرادة الضعيفة مقابل الإرادة القوية.

ضعف الإرادة: وقد ينشأ عن عدة مسببات، ويظهر بأحوال مختلفة، كما هي الحال عند الذين يغطي الركود على حياتهم، ويفقدهم فاعلية الحس والشعور بالحيوية والحركة. ويعبِّر عن ذلك الفيلسوف الفرنسي «جان جاك روسو» بقوله: «انظرْ إليَّ وأنا هادئ تجدني مثالاً للتواني والكسل، فكل شيء يخيفني، وكل أمر يرعبني. إني أخاف من طنين الذباب، وأذعر من أقل كلمة، أو أبسط إشارة، ويستولي عليَّ الخوف والحياء، حتى أتمنى أنْ أحتجب عن الناس فلا

أدري ماذا عليَّ أنْ أفعل، وما ينبغي أنْ أقول، وإذا نظر الناس إليَّ تشوشت نفسي».

وقد ينشأ ضعف الإرادة أيضاً عن التهور أو شدة الاندفاع أو الإفراط في الإحساس. وهذه الأعراض نراها عند سريعي الغضب، وذوي الرغبات الحادة الذين لا يقدرون على مقاومتها، فتدفعهم إلى التهور واللهاث وراءها.

والارتباك في المواقف أو أمام حوادث معينة، وعدم الاتزان في التفكير لدى الطائشين، والإفراط في التفكير الذي يؤدي إلى الحيرة والتردد فلا يتخذ الإنسان قراراً بشأنٍ أمرٍ يهمه.. هذه الحالات وما يماثلها إنّما تنمُّ عن ضعف الإرادة. ولا تقل الفوضى وعدم الانتظام في التفكير والتصرف شأناً في إضعاف الإرادة، ولذلك نرى الأشخاص الفوضويين يتهربون، إجمالاً، من تحمل المسؤولية، فلا يأبهون لأداء أعمالهم، بل يقومون بها كيفما اتفق؛ كما لا يهتمون بقوانين وأنظمة السلوك وفقاً للأعراف والتقاليد، أو لا يلتزمون بأداء الواجبات بصورة تلقائية، بحيث تبدو تصرفاتهم عشوائية بلا ركيزة أو انتظام أو قاعدة مستقرة. ومن أبرز الأمثلة أيضاً على ضعاف الإرادة هؤلاء المقلدون لغيرهم في كل أمر، يرون الآخرين يفعلون كذا فيحاولون أن يقلدوهم بنفس الطريقة والأسلوب حتى لكأنهم آلات تتلقى وتتحرك وتنفذ بلا أدنى ذاتية. وقد يتحكم هذا التقليد في نفوسهم فلا يعودون قادرين على تغيير تصرفاتهم أو على اتباع سلوك جديد، بل يظلّون دائماً عرضة للانقياد الأعمى.

ومن عوارض ضعف الإرادة كذلك تشتت الأفكار، وتنازع

المشاعر، وشدة الأهواء، وكثرة الوساوس التي تجعل الإنسان ضائعاً لا يثبت على اتجاه، مما يفقده القدرة على الفعل والتفاعل.

ويعزو «علماء النفس» أمراض الإرادة إلى عوامل عديدة، ولكنَّ أبرزَها ـ كما يتبين من الحالات التي جرت دراستها ـ ثلاثةُ عوامل هي: فقدان الاندفاع، قوة الاندفاع، التشويش الذهني أو النفسي.

فقدان الاندفاع: في كل إنسان قوة دافعة للحركة غالباً ما تتأتى عن النزعات والميول، فانعدام هذه القوة يؤدي حتماً إلى فقدان الإرادة أو ضعفها لدرجة الانحلال. وتظهر هذه الحالة بأعراض عديدة مثل عدم الرغبة في العمل، والشعور بالعجز عن القيام بأي شيء، فتركد النزعات وتتبلّد المشاعر، حتى لتسيطر على المرء حالة من التراخي أو الكسل الحاد. ومن عوارض هذه الحالة الفيزيولوجية إبطاء الدورة الدموية، وهبوط حرارة الجسم... والعجيب في الأمر أنَّ المصاب بفقدان مشاعر الاندفاع يصبح ذا خيال واسع، يتوهم في نفسه قدرة عجيبة على إتيان المعجزات، وذلك نتيجة لسيطرة الأحلام التي يتخيّلها عليه، وسرحانه في الوهم الذي يزين له قدرته على القيام بما يريد وتحقيق ما يصبو إليه، بحيث يبقى كل ما تصوره مجرد خيال بخيال..

ـ **قوة الاندفاع**: وهي تتأتى عن عدم الروية في التفكير، والتبصر بالعواقب والنتائج، إذ تهيج في نفس المرء انفعالات معينة فيندفع إلى أداء عمله بطيش وقلة احتراز وعدم إدراك. وهذا ما يدفع ببعض الناس إلى ارتكاب الجرائم بما فيها الإقدام على القتل أو الانتحار. ففي هذه الحالة تسيطر الأحاسيس والانفعالات على العقل فيضعف، وتضعف معه الإرادة التي تصبح نهباً للانفعال الهيجاني بحيث يفقد العقل أيّة سيطرة عليها.

التشويش النفسي: ويمكن تسميته بفوضى الإدراك أو فقدان التوازن في الشعور. ومتى اضطربت النفس وتشتتت بين سلب وإيجاب تأثرت الإرادة بذلك وتلاشت قوتها، فلا تستقر على حالة واحدة بل تنتقل سريعاً من حالة إلى أخرى مناقضة، دون أنْ يطرأ عامل جديد يؤدي إلى هذا التغير أو الانتقال. ومثاله الانتقال من الحزن إلى السرور، ومن البكاء إلى الضحك.. وكل ذلك من غير أنْ يدري المصاب لماذا يتصرف على هذا النحو، وليس لديه أدنى شعور بكبح جماح نفسه أو مقاومة تلك الدوافع المتعارضة التي تتلاعب به. ومن عوارض هذه الحالة أيضاً مرض الجَوَلان في النوم[1]، حيث يقوم المريض من فراشه ويرتدي ثيابه ويخرج من منزله دون وعي بتاتاً لما يفعل، لأنه في الحقيقة في حالة نوم ينعدم معه الشعور بالعالم الخارجي والإحساس بالواقع.

مما تقدم يمكن القول بأنَّ ضعف الإرادة غالباً ما ينجم عن فقدان التوازن الذهني، ويؤدي إلى الإحباط النفسي الذي يظهر بعدم التفاعل مع الواقع، فلا يعود معه الإنسان قادراً على مخالطة الآخرين أو العمل معهم بشكل طبيعي، فيعيش حياة داخلية محضة، منطوياً على نفسه، محباً للوحدة، زاهداً في الحياة.

تربية الإرادة

إنَّ قيمة الإنسان تبرز، أكثر ما تبرز، في التصدّي لمتطلبات الحياة التي يعيشها، ومواجهة أعبائها. ذلك أنَّ حياة الإنسان مليئة بالمتناقضات، فلا يمرّ أحدٌ بحالة سارة مثلاً، إلا وتواجهه حالات غير

(١) الذي يمشي وهو نائم.

سارَّة؛ أما الوضع فيصبح أدقَّ وأصعبَ إذا ما أصيب الإنسان بعاهة من العاهات، أو إذا خُلِقَ والعاهة معه، مثل العمى أو الصمم أو البكم، فهل عليه في مثل هذه الحالات أنْ يستسلم ويعتبر نفسه دون الآخرين؟ هنا يتدخل دور العقل، ودور الإرادة معه؛ فالإنسان الذي لديه عاهة يجب ألاَّ يشعر بالنقص الذي يفقدُه قيمة وجوده. وهنالك مشاهير عظام في الحياة أعطوا أروع المُثُل بانتصارهم على العاهات.

وفي مواجهة أعباء الحياة نجد أنَّ كل عمل يستدعي منا الإرادة، فنحن نعيّن أولاً الهدف، وبعدها نوطّن النفس ونشحذ القوى، ثم نضع الخطة أو نرسم الطريق الذي نعتقد أنه أكثر ملاءمة لبلوغ هدفنا، وبعد الأخذ بكافة الأسباب نباشر العمل بعزمٍ وتصميم، ما يعني أننا لا نقدر على شيء من ذلك إنْ لم تكن لدينا قوةُ الإرادة. .

من هنا كانت أهمية تربية الإرادة وتقويتها، حتى تكون لنا خير معين على اجتياز مصاعب الحياة وإدراك أهدافنا ونيل مطالبنا.

والإرادة القوية لا تولد مع الإنسان، كما لا يولد الإنسان ضعيف الإرادة. بل يكتسب قوة الإرادة أو ضعفها من خلال التمرين والممارسة مع بذل الجهد اللازم لذلك. ولا يعتقدنَّ أحد بأنَّ مثل هذا التمرين يقتصر على سنٍّ معينة، أو على وقت معين، بل يمكن للإنسان أنْ ينمِّي إرادته ويقويها منذ نعومة أظفاره وحتى آخر لحظة في حياته.

ولعل من أبرز عوامل تربية الإرادة وتقويتها العلم والمعرفة، واقتباس العادات الحسنة، والابتعاد عن العادات السيئة. ذلك أنَّ الإرادة ملازمة للعقل الذي ينبثق منه التفكير والذكاء والانتباه. وهذا ما أثبته العلماء عندما اعتبروا أن الطيش والذهول وتشتت الأفكار هي من

معوقات تقوية الإرادة، لأن الإرادة لا تكون قوية إلا إذا كان تصور الهدف واضحاً في الذهن. ولنأخذ مثالاً على ذلك الخطيب اليوناني ديموستينوس، إذ كان في صغره ألثغ، لا يحسن النطق الصحيح، فوضع نصب عينيه هدفاً، وهو أنْ يصلح نطقه، فصار يذهب إلى شاطىء البحر، ويقف في مواجهة الأمواج وهو يقرأ بصوت عال، ويصرخ، ويتكلم كأنما أمامَهُ جمهور يخاطبه. وبذلك استطاع مع الوقت أن يمرّن عضلات فمه، وأن يقوّي أوتاره الصوتية، حتى أصلح نطقه، بل صار خطيباً لامعاً.. وكل ذلك كان بالفعل الإرادي الذي يحمل العزم والثبات.

وينصح العلماء في تربية الإرادة التقيد بالقواعد الصحية على أكمل وجه: في تناول الغذاء مثلاً بانتظام، وقضاء الوقت الكافي في النوم، وممارسة الألعاب الرياضية، وتقوية الأحاسيس بالمناظر الطبيعية، والرحلات الاستجمامية، ولأنَّ القيام بذلك من شأنه أنْ يقوي الجسم ويجعله سليماً معافىً، حتى لا تتأثر النفس بأمراض الجسد، فتنعكس هذه الأمراض على الحالات النفسية.

ويستتبع ذلك أنْ يكون الإنسان مواطناً اجتماعياً صالحاً محبّاً للقيم، متعاملاً مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل، واللياقات الاجتماعية والعلاقات الطيبة.

كما يستتبع ذلك تحمل المسؤولية الشخصية، والقيام بالأعمال بجدٍّ ونشاط، والابتعاد عن الكسل، وعدم هدر الوقت بلا طائل، والاعتدال في كل شيء.

على أنَّ كلَّ الجهود التي قد يبذلها الإنسان لتقوية الإرادة،

وتهذيب الأحاسيس، وتنمية المشاعر، تبقى جميعها دون جدوى ما لم يؤمن ـ الإنسان ـ إيماناً مطلقاً بأنَّ مَنْ وَهَبَهُ الحياةَ ابتداءً، هو وحَدَه القادر على أنْ يمنحَهُ قوَّةَ الإرادة، وصفاء النفس. ومن لا يؤمن بهذه الحقيقة المطلقة فكل أعماله هباء، وكل طموحاته إلى ضياع، لأنها لا تقوم على الأساس المتين، ولا تستقي من المصدر الأعلى الذي هو الله تعالى، خالقنا، ومنشئنا، وباعث الحركة فينا، ومدبرنا في حياتنا وبعد مماتنا.

وقد وردت في القرآن الكريم معانٍ متعددة للفعل الإرادي. ومن قبيل ذلك ما جاء التعبير به في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١). أي إن الله تعالى يأمركم باليسر في عباداتكم ومعاملاتكم ولا يأمركم بالعسر. وهذه قاعدة كبرى في تكاليف العقيدة الإسلامية كلها. فهذا النص ورد في الآية الكريمة التي ترخِّصُ للمريض والمسافر الإفطار في أيام الصوم. وهو نصٌّ يتناول السهولة واليسر في كل أمور الحياة، بحيث تؤدَّى كل التكاليف والفرائض، ويقوم كل نشاط الحياة الجادة على هذا الأساس: أساس اليسر لا العسر. وذلك مع شعور المؤمن الدائم برحمة الله تعالى، وأنَّه يريد لعباده اليسر لا العسر في جميع تكاليفهم للدنيا والآخرة، وجاء عن السيدة عائشة أُمِّ المؤمنين أنها قالت: «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ في أمرين قَطَّ إلاَّ أخذ أيسرهما»(٢)..

وقد يرد تعبير الإرادة، ويُقصدُ به حكم الله تعالى. ومن ذلك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري، ج١٩، حديث رقم ٥٦٦١.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[1]. وما يريده الله تعالى يدخل في باب القصد مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[2]. أي إنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل الجنة في الدار الآخرة للذين لا يقصدون العلو في الأرض ولا يطلبون الفساد. وبمعنى آخر: إن تلك الدار الآخرة العالية المقام، البعيدة الآفاق، إنما يجعلها الله تعالى لمن يستحقونها، وهم عباده المؤمنون الذين لا يريدون استعلاء في الأرض، ولا يستحوذ عليهم الاستكبار، أو يغترُّون بالمظاهر التي تثير في قلوبهم الاعتزازَ بذواتهم، أو الافتخار بأعمالهم.. ويجعل الله تعالى الدار الآخرة أيضاً للذين لا يريدون في الأرض فساداً، فينتزعون من نفوسهم، ومن حولهم، كلَّ شيء من متاعها الضارّ، وكلَّ عرض مهين من أعراضِها، أي كلَّ ما يخرّبُ الأرضَ ويفسدها، باعتبار أنَّ الفساد هو من عمل الإنسان، ولا يمكن أن يظهر فسادٌ في ناحيةٍ من نواحي البرِّ أو البحر إلاَّ ووراءه عمل المفسدين، لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[3].

ومن الإرادة تأتي المراودة وهي أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود، مثلما فعلت امرأة العزيز كما يدلُّ قول عليه الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[4]. أي إنَّ امرأة عزيز مصر أرادتْ غير ما أرادَ يوسفُ عليه السلام

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

عندما كان يعيش في بيتها.. ومثله قول الله تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[1]. فقد عادَ إخوةُ يوسف عليه السلام من مصر، وفي عزمهم أنْ يراوِدوا أباهم في إرادته، وينازعوه أخيهم بنيامين ليأخذوه معهم إلى مصر، أي بمعنى آخر سوف يجهدون كي يغيروا إرادة أبيهم، ويجعلوه يوافق على ما يريدونه هم، لا على ما يريده هو في حال رفض مراودتَهم.

وفي معنى الإرادة المطلقة يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾[2]، أي من كان يريدُ نجاحاً في الحياة يعتزُّ به على الآخرين، كما يحقق له عزةً في نفسه، فلا يعزو ذلك إلى قدرته ونجاحه، لأنَّ العزَّةَ كلها لله تعالى، فهذه حقيقة مطلقة وثابتة لا يمكن الجدال فيها. ومتى استقرت هذه الحقيقة في نفوس الناس فهي كفيلة بأنْ تبدِّلَ كلَّ المعايير لديهم، وكلَّ مخططاتهم ووسائلهم، فإن آمن الإنسان بهذه الحقيقة، ورام بعدها عزةً معينة لنفسه، فليطلبها من مصدرها الحق، من الله تعالى، فله وحدهُ العزَّةُ جميعاً. ولو طلبها من عند غير الله العزيز فلن يجدها أبداً، ولن يتمكّن منها بنفسه، ولن يمكّنه أحدٌ منها، ولن يدركها بأي سبب من الأسباب إلاَّ أن يشاءَ الله تعالى له إدراكها.

ولئن كانت قريش وقت ظهور الدعوة الإسلامية تبتغي العزة لنفسها ولعباداتها القديمة، وتقاليدها وعاداتها التي أَلفتها، ولاذت بأسبابها الذاتية لتبقي عقيدتها الوثنية قائمة، فإنَّ ذلك كله لم ينفعها لأنها أرادت محاربة الحق الذي يمنح وحدَهُ عزَّة الإيمان، وعزَّةَ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

النفس. . وقد حاولت قريش أنْ تستجدي القوة بالتحالف مع كل قبائل العرب الأخرى، ومع اليهود، فباءت بالفشل لأنها لم تطلب القوة من منشئ القوى جميعاً، ولم تطلب العزّةَ من ذي العزّة والجلال. . ومثل قريش لا تملك أية جماعة، ولا أية دولة في العالم أي سبب للقوة أو العزة إلا أن يشاء الله تعالى. وإن كانت لجماعة من الجماعات أو لدولة من الدول قوة، فمصدرها ولا شك هو الله تعالى القوي العزيز . . . أما ما يراه الناس من القوة التي تتمتع بها الدول الكبرى اليوم، ولاسيما الولايات المتحدة الأميركية، وما تقوم به من فرض الأفكار والمبادئ التي تريدها على غيرها، فهذا كله بفعل الحكام في الدول الأخرى ـ ومن وراءهم ـ الذين يسيطرون على مقاليد السلطة واتخاذ القرار وقد تَحسب الولايات المتحدة الأميركية ـ وحكام الدول الذين يستمدّون قوتهم من دعمها لهم ـ أنّها بزعامتها للعالم، باتت عزيزةً منيعةً، قادرةً قاهرة، إلاَّ أنّها نسيت أنَّ قوتها من الله تعالى، وأنّه سبحانَهُ يمدُّ طلَّاب الدنيا بما يريدون، بل وقد يملي، ويزيد في الإملاء لهم، فوق ما يريدون، ولكن هل تفكِّر الحكام في تلك الدولة أنَّ ما آتاهم الله ـ تعالى ـ ليس خيراً لأنفسهم، كما يؤكّده قولُ العزيز الحكيم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[2]. وقوله جلّ وعلا: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[3]. هذه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢ و١٨٣.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٨.

هي الحقيقة ولا شيء غيرها، ذلك أنَّ الله تعالى هو الذي خلق الناس جميعاً، وهو الذي منحهم القوة في الأجساد والنفوس، وهو الذي مكّنهم من العلوم والنفوذ والثروات وكل أسباب ووسائل القوة التي يتمتعون بها أفراداً وجماعات ودولاً، ولو شاء سبحانه لأهلكهم واستبدلهم بأناس غيرهم، فهل يدرك هذه الحقيقة أولئك الذين يخططون، ويعبثون ويعيثون فساداً في الأرض؟! إنها حقيقة يضعُها القرآن بين أيديهم، وهي حقيقة تكفي لتعديل سلوك الناس ومناهجهم، وتعديل وسائلهم وأسبابهم عندما يريدون عزة أو قوة.. ويكفي أنْ تستقر حقيقةُ أنَّ: «لا إله إلا الله، وأنَّ العزة لله جميعاً» في أي نفس حتى تقف بها أمام الدنيا كلها عزيزة، قوية، كريمة، عارفة طريقها إلى العزة، متحلية بإرادة طيبة فولاذية، لا يلويها ولا يحيدها عن طريقها شيء. وإذا ما استقرت هذه الحقيقة في نفس أي إنسان فلن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لطاغية متكبِّر، ولا لدولة عاتية ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً!.. وعلامَ ذلك والعزة لله جميعاً؟

الفصل التاسع

الشخصية
التقليد والتبعية والعادة

البحث الأول

تكوين الشخصيّة

وأهمية تلك المراحل المختلفة التي يمرُّ فيها النمو أنَّها تجعل لكل منا شخصية خاصة، تميزه عن الآخرين. ويبدو أن تكوين الشخصية يتأثر بالعوامل الناتجة من الأحاسيس الجسدية، وبالعوامل النفسية المتعلقة بالأفكار والتصورات والذكريات، وبعوامل المجتمع والبيئة، ومع ذلك فإنَّ لكل فردٍ وحدَهُ شخصيّتُهُ الخاصة به، مهما شاركت العوامل المؤثرة، ومهما تباينت تلك العوامل أو جعلت اختلافاً بين الأشخاص. . .

من حيث الأحاسيس واضحٌ أنَّ للحواس، ولتكويننا الفيزيولوجي - إجمالاً - تأثيراً هاماً على شخصيتنا؛ فقوة الجسد أو سلامة الصحة يكون تأثيرها مختلفاً عن الأعراض والأمراض التي تصيب الجسم وتوهنه. ومن قبيل ذلك ما يقول علماء الطب مِنْ أنَّ للغدد الصُمّ أثراً خطيراً فيما يطرأ على شخصية الفرد من تغييرات، فإذا ازداد إفراز الادرينالين مثلاً أدى إلى سرعة الانفعال، وإذا ازداد نشاط الغدة الدرقية ازداد النشاط وقوة الاحتمال.

ثم إنَّ التكوينات العامة للإنسان مثل هيئة وجهه، أو طوله وقصره، أو نحوله وجسامتِهِ. . . جميعها تؤثر في تصرفاته، وفي علاقاته بالآخرين. وغالباً ما يكون وجه المرء مرآة لنفسه، بحيث تظهر عليه ملامح الرضا أو الغضب، الفرح أو الحزن، الارتباك أو الصلابة. . . وكلها تأتي من انفعالات النفس، ومن تركيب الأعصاب عند الفرد، ما يجعله وحدة عضوية متكاملة تبنى عليها شخصيته، فإذا فقدت هذه الوحدة، أو لحق بها خلل، أدى ذلك إلى فقدان الشعور الواضح بالشخصية. ولذلك يتولد من اختلال إحساس الإنسان بجسده كثير من أمراض الشخصية.

وكما تؤثر الوحدة العضوية على الشخصية، فكذلك التصورات والذكريات تكون ذات تأثير هام على هذه الشخصية. فلكل إنسان مثلٌ وقيمٌ معنوية، وهو يسعى محاولاً إثبات وجوده من خلال المثل والقيم التي يؤمن بها، ويعمل على تحقيقها، والتي تتأتّى ـ عادةً ـ من تصوراته ومفاهيمه التي يكتسبها خلال مسار حياته كلها. وهذا ما يجعل التصورات والمفاهيم من مقومات شخصيته. والذكريات لا تقل عنها شأناً في تقويم الشخصية، إذ لولا الذاكرة لما كان للإنسان عقل، ولا شعور ولا شخصية. فالإنسان يعيش في الماضي، كما يعيش في الحاضر، وكما يفكر دائماً في المستقبل الذي يريد، فحياته الماضية تبقى منطبعة في نفسه، وتكوّن جزءاً من شخصيته، لأنها لا تنفك تلاحقه في كل ما يقوم به. والذكريات الواضحة قد تنمي شخصية الإنسان، بعكس الذكريات الغامضة، التي قد تولد ـ كما يقال في طب الأمراض النفسية ـ خللاً في الشخصية، بحيث إذا تضاربت الذكريات في نفس الإنسان، وطغت طائفة منها على غيرها، قد تؤدي إلى

انقلاب في شخصيته، فيصبح كأنه شخص آخر غير الذي يعرفه الناس.

وللعلاقات المجتمعية أيضاً أهميتها في تكوين الشخصية، لأن الإنسان يعيش في بيئة[1] معينة، حيث ينظم حياته، ونشاطه، ووجوده، وفقاً للقيم السائدة، والقوانين المطبقة، وهي تفرض عليه اتجاهات محددة، وروابط معينة، في كثير من الأحيان، فضلاً عن الاتجاهات والروابط الشخصية من عائلية، ومهنية، ونمط عيش وما إلى ذلك..

وهكذا تتضافر العوامل في حياة الإنسان، منذ طفولته وحتى نهاية عمره، لتكوين شخصيته.. فالعيش في الأسرة، وتلقي المعارف في المدرسة، والعلاقات مع أترابه في المجتمع، وسعيه لكسب رزقه وبناء مستقبله، كلها لها تأثيرها المباشر وغير المباشر على شخصية الإنسان، وتشكّل عوامل أساسية وحيوية لجعل كل فرد يتميز بشخصية معينة عن شخصيات الآخرين.

وقد كانت تلك العوامل مدار اهتمام المفكرين منذ زمن قديم. وقد أعطى المفكرون، على مدى عهود طويلة، معلومات وأفكاراً كثيرة حول الوجود الإنساني، وحول نفس الإنسان وسلوكه. إلاَّ أنّ الإنسان، على الرغم من ذلك، لا يزال كثير من مكوّناته مجهولاً: إنْ

(١) وتعني هنا الحالات، ومجموع الأشياء التي تحيط بالفرد، فمن الناس: حالة العائلة التي يسكن معها في منزل واحد، وأحوال الأصدقاء الذين يعاشرهم، وأوضاع المدرسة التي يتلقى فيها علومه إلخ.. ومن الطبيعة التي تحيط به: أحول الماء والهواء والتربة والمناخ، وأنواع الأشجار والنباتات والجمادات إلخ.. فإن كانت حالة الناس الذين يعايشهم هذا الشخص حسنة، وأشياء الطبيعة التي تحيط به حسنة، كانت البيئة حسنة، ولذا يقولون إنَّ فلاناً بيئته حسنة أو نشأ في بيئة حسنة، وإلا كان العكس.

في دقائق تركيبه الفيزيولوجي ومدى ترابط الأعضاء لديه وأداء وظائفها واختصاصاتها، وإن بتكوينه النفسي من حيث العقل والتميز، ومن حيث الشعور والإحساس.. وما إلى ذلك من التركيب والتكوين العضوي والشعوري الذي يميّز كل واحدٍ عن الآخرين في السمات، والسلوك.

ولذلك لم يتمكّن المفكرون، وعلماء النفس المحدثون، من وضع تصوّر موحد وشامل للشخصية الإنسانيّة، وذلك نتيجة لاختلاف نظرة كل منهم إلى الإنسان، ولم يتوصلوا إلى التوافق على نظرية موحدة، للشخصية، بل ما زالوا يعرضون نظريات تلو نظريات قد تتقارب في نواحٍ معينة، إلاً أنها تتصادم وتتناقض في معظم النواحي. وهذا ناتج من اعتمادهم، في دراسة الإنسان، على مناهج البحث الموضوعية، أو المناهج التي تعتمد الطريقة العلمية وسيلة وحيدة في مختلف العلوم والمعارف. ولا يمكن أن تؤدي هذه الطريقة إلى فهم الإنسان، فهماً حقيقياً ودقيقاً، لأنها تقوم على الملاحظة والاستنتاج، وعلى التجربة والاختبار، أي على البحوث في المختبرات العلمية، والمناهج التجريبية، وهي بحوث ومناهج تقصّر كثيراً عن المعرفة الدقيقة والصحيحة للشخصية الإنسانية..

وفي دراسة العوامل التي تحدد الشخصية يجري التركيز، في أكثر الدراسات والأبحاث، على العوامل البيولوجية والعوامل المجتمعية والثقافية.

والحقيقة أنه لا يمكن فهم شخصية الإنسان على حقيقتها إلاّ بدراسة مختلف العوامل المذكورة مضافاً إليها العامل الأهم وهو

الجانب الروحاني في الإنسان. ذلك أنَّ خلق الإنسان كان من جسد وروح ونفس كما يبيّن لنا القرآن الكريم. وقد مرَّ هذا الخلق بمراحل عديدة: خلط الطين بالماء، ثم تعريضه للهواء حتى يصير الطينُ من حمإٍ مسنون ثم تأتي مرحلة الطين اللازب، أي الطين الذي يصبح قابلاً للتخليق والتشكيل، ومن ثم من صلصال كالفخار أي اكتمال هيئة التكوين، من حالة التراب إلى حالة الصلصال، وذلك بفعل كافة المؤثرات الخارجية من الماء والهواء والبرودة والحرارة، مثلما يصير عليه الطين الذي يُصنع منه الفخار بعد أن يُشوى في آخر مرحلةٍ على النار (كما هو معروف في صناعة الفخار أو الخزف). وبعد التكوين المادي لهذا المخلوق الذي جبله الله تعالى من طين بَشَرة الأرض، نفخ فيه سبحانه من روحه فصار بشراً سويّاً تحرّكه الروح، ثم أودع سبحانه فيه النفس بكوامنها واستعداداتها، فاستوى آدم عليه السلام بخلقه الإنساني، وبهذا التكوين، من صنع ربّ العالمين.. ثم بما أودع الخالق تبارك وتعالى في آدم وحواء عليهما السلام من نظام ثابت للتزاوج والتناسل، خرج الجنس البشري، فكان متميزاً عن سائر مخلوقات الأرض بخصائصه الذاتية الإنسانية، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. وعلى الرغم من هذا الخلق السوي فإنَّ الإنسان يشارك الحيوان في الكثير من الخصائص الجسمية وخصائص غريزة النوع وغريزة البقاء، إلا أنه

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ٦ ـ ٩.

يتميز عن الحيوان بالخصائص التي تمنحه قوة الإدراك والتمييز، أو قوة الربط الدماغية للمعلومات التي تجعله قادراً على المعرفة: معرفة حقيقة وجود الله تعالى، وما تقتضي هذه المعرفة من إقرار بألوهية الله تعالى المطلقة، وبربوبيته المطلقة، ومعرفة المنهج الذي يجب أن يسير عليه بما يتوافق مع عبوديته لخالقه، هذا بالإضافة إلى نزعته الإنسانية في حبه للمثل والقيم التي تمكنه من الترقي في معارج التكامل الإنساني.

من هنا وجب التركيز في أية دراسة أو بحث يتعلق بشخصية الإنسان على تكوين الإنسان ككل متكامل، وكوحدة غير قابلة للتجزئة.. وحدة تتكامل فيها عناصر الجسد والروح والنفس تكاملاً كلياً، بحيث يؤدي إهمال أي عنصر من هذه العناصر إلى هدم كيان الإنسان، وإطاحة مكرمة خلقه.

ومعرفة شخصية الإنسان تقتضي معرفة المفاهيم والمعلومات والسلوك، التي تنتج منها العقلية والنفسية.

المفاهيم والمعلومات

ويقصد بالمفاهيم معاني الأفكار لا معاني الألفاظ، فإذا قال الشاعر:

وأَخَفْتَ أهلَ الشركِ حتى أنّهُ   لتَخَافُكَ النُطَفُ التي لم تُخلَقِ

فإنَّ المعنى في الشطر الأول موجود في الواقع ومدرك حسياً، بينما المعنى المقصود في الشطر الثاني لا وجود له في الواقع القائم والمحسوس، إلاّ أنه يبقى مجرد معنى لفكرةٍ يمكن تفسيرها أو بيان المقصود منها.

ولكي يتّضح ما يعنيه المفهوم، نقول إنَّهُ عندما يظهر الفكر بلفظ ما، ويتضمن هذا اللفظ معنىً معيناً، وكان لهذا المعنى واقع يقع عليه الحسّ، أو يتصوره، ويصدقه العقل بكينونة وجوده. المعنى يشكل مفهوماً عند من يحسّه ويتصوره، ولا يشكل مفهوماً عند من لا يحسه ولا يتصوره، بل يظل مجرد معلومات. . أي إنَّ على المتلقّي أن يفهم معاني الجمل كما تدل عليه في حقيقتها ـ سواء كان هذا الفهم مطابقاً أو غير مطابق لما كان يريد واضِعُها أو لافِظُها ـ وأن يدرك في نفس الوقت نفسه واقع هذه المعاني في ذهنه إدراكاً يشخّص له الواقع، عندها تصبح هذه المعاني مفاهيم. ولذلك نقول بأن المفاهيم هي المعاني التي يُدرك لها واقعٌ في الذهن، سواء كان واقعاً محسوساً في الخارج، أم واقعاً مسلماً به أنه موجود تسليماً مبنياً على واقع تَمَّ الإحساسُ به. . وما عدا ذلك من معاني الألفاظ والجمل لا يسمى مفاهيم، بل مجرد معلومات. فالمفاهيم إذن تتكون من ربط الواقع بالمعلومات مع التصديق الجازم بصحتهما، أو من ربط المعلومات بالواقع. فمثلاً معنى التوحيد، وأركان الدين، والأحكام الشرعية، والمقاصد والأفكار التي يحملها الإسلام هي مفاهيم بالنسبة إلى المؤمنين، لأنهم صدقوا بواقعها، وهي أفكار ومعلومات بالنسبة إلى غيرهم من الناس. فإذا آمن بها الناس تصبح لديهم مفاهيم، وإذا لم يؤمنوا بها فإنهم يحملونها مجرّدَ معلومات أو معارف. والمفاهيم الإسلامية في حقيقتها ليست مجرد معلومات للمعرفة، بل هي مفاهيم لها مدلولات في واقع الحياة، ويمكن الإنسان أن يضَعَ إصبعَهُ على كل مدلولٍ منها، سواء كانت مفاهيم عميقة يحتاج إدراكها إلى فكر عميق ومستنير، أو كانت مفاهيم ظاهرة يمكن فهمها بسهولة. وسواء

كانت مما تدركه الحواس في شتى مناحي الحياة، أو كانت من الأمور الغيبيّة التي صدَّقها العقل بصورة قاطعة حتى صارت بمثابة المحسوسات لديه مثل تصوّر معاني الملائكة والجنة والنار ويوم البعث.. فهذه مدلولات واقعة في الذهن على شكل قطعيّ، لأنها مدلولات قرآنية صدقها العقل وآمن بها القلب، فشكلت مفاهيم عند المسلمين..

والمفاهيم قابلة للتغيير، إلا أنَّ هذا التغيير لا يأتي إلاَّ من ذات الإنسان، من داخل نفسه التي تعبّئ المفاهيم في طيّاتها، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[١].

إنه علم الله الواسع، ومن يعلم ما في آفاق السماوات والأرض إلاَّ خالقهما. فهو يعلم ـ سبحانه ـ ما تحمل كل أنثى في رحمها من ذكر أو أنثى ـ أو فيما هو مماثل للرحم في الكائنات الحية الأخرى من غير البشر ـ ويعلم مدة الحمل عندما تنقص لدى نساءٍ فتلد في شهرها السادس أو السابع أو الثامن أو تزيد على ذلك عند نساءٍ، فتلد في شهرها التاسع، وربما في آخره.. ويعلم النطفة في الرحم التي تكون

---

(١) سورة الرعد، الآيات: ٨ ـ ١١.

في طور التخلّف يفيضُ الرحمُ يجري سقوط الحمل، ويعلم ما تزدادُ به الأرحام عندما تحمل المرأة أكثر من جنينٍ في الحمل الواحد.. وكل ذلك بقدر مقدَّر منه تعالى، وحدّ لا يتجاوزه.

وهو يعلم ـ سبحانه ـ الغيب الذي تفرَّد به وحجبه عن عباده، سواء منه هذا الغيب الذي حجبَهُ عن أبصارنا وبصائرنا في أسرار خلْقِهِ، أو في الكائنات التي أوجدها في المدى البعيد عنّا وعن آلاتنا مهما تطوَّرت.. ومنه كذلك الغيب الذي يُخفي عنَّا أسرار النفس البشرية في مكنوناتها، وتوجّهاتها، وتقلّبها من حالٍ إلى حالٍ!...

ويكفي أنْ ندرك، نحن البشر، أنَّه ليس بمقدورنا معرفة كل ما في النفس البشرية حتى تتبيَّن لنا عظمةُ الخالق، العزيز في ملكه، ذو الجلال والإكرام، الذي يعلم ـ سبحانه ـ ليس ذلك الغيب المستور عنا فقط، بل والمشهود الذي قد ندركه بعقولنا وحواسنا، من أدنى ذرة إلى أكبر الأجرام في الخلق، إلى ما هو مستورٌ من الملائكة في السماء، أو ربما غيرها من المخلوقات التي لا يعلمها إلاَّ الله تعالى..

ولو أمعنا النظر لوجدنا أنَّ الغيب هو كل ما غاب عن علم المخلوقات كلها من الناس وغيرهم. وأنَّ المشهودَ قد يكون مشهوداً لنا، وغيباً عن غيرنا ـ من الخلائق ـ أو مشهوداً لغيرنا وغيباً عنّا، في حين أن الغيبَ والمشهودَ يعلمه الله الكبير المتعال.. الكبير: فكل شيء يصغر دونه في وجوده وعلمه، المتعال: فكل شيء يذلُّ دونه في وجوده وعلمه، فلا إلّه إلا هُوَ إلّهٌ واحدٌ في السماوات والأرض، وربٌّ واحدٌ معبودٌ في السماوات والأرض، قد أحاط بكل شيءٍ علماً..

ومن خصائص خلقنا نحن البشر، أنَّ الله ربنا يتعقَّب بعلمه كلَّ واحد منا بمفرده، فيعلمه على أي حال يكون، سواء عملَ أو لم يعمل، وسواء أسرَّ القول لنفسه أو جهرَ به أمام الناس، وسواء كان نائماً، أو مستخفياً فيما يقوم به في الليل الذي يستر، أو ساعياً متحركاً في النهار الذي يكشف، فكل ذلك يدخل في علم الله، الذي لا يخفى عليه شيء من هذا الإنسان، وهو يصولُ ويجول في هذه الحياة الدنيا، وكأنَّما لا موت، ولا نشور ولا حساب عنده ـ على ما هو مشاهدٌ من أحوالِ أكثرِ الناس اليوم ـ وما يجب أنْ نتبيَّنَهُ وننبِّه عقولنا ونفوسنا إليه، ما خصَّنا به، نحن البشر، خالقُنا، إذ جعل لكل إنسانٍ ملائكةً يحفظونه من المهالك، ويتعاقبون على حفظه، ليل نهار، بما يأمرهم ربُّهُم، كما أوضحَه أحد الصحابة ـ فيما تعلَّم عن رسول الله ﷺ ـ وهو يحدّث عن أمر الله تعالى، فقال: «لولا أنَّ الله ـ تعالى ـ أوكل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطَّفنَّكُمُ الجنُّ». فهذه حال كل واحد من الناس، يحصي عليه ربُّهُ كل شاردة وواردة آناء الليل، وأطراف النهار، والناس على ما هم عليه في غفلةٍ من هذا كله، لا يعرفون أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أوكل حفظةً، يحفظونهم من أمره حقاً، ولكن يحسبون أيضاً عليهم حركاتهم وسكناتهم من خير أو شر، إلاَّ النيات فإنه لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، الذي يعلم ما تكنُّ الأنفس، وما تخفي الصدور والتي يدخل فيها ما يمكن أنْ يُحدثوهُ من تغيير بأنفسهم، وما قد يترتب على هذا التغيير من آثار في حياتهم الدنيا. ذلك أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغير نعمةً أو بؤساً، ولا يغيّر عزاً أو ذلّةً، ولا يغيّر مكانةً أو مهانةً بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، من الأفكار والمشاعر، وما في عيشهم من طرائق

الأعمال والتصرفات، وهذه سنة من سنن الله تعالى في الخلق البشري، أحكمها سبحانَهُ لكي تسري مشيئتُهُ على هؤلاء الخلق طبقاً لما يريدونه بأنفسهم، فإذا أراد الله تعالى بقوم سوءاً ـ يكونون قد استحقوه بأنفسهم، لأنه ممَّا صنعت أيديهم ـ فلَا دافع له عنهم، ولا يعصمهم منه والٍ يناصرهم. فالتغيرات في أحوال الناس موقوفةٌ على ما يُجرونه من تغيير بأنفسهم، وكلُّ تغيير في أوضاعهم مرهونٌ بتغييرِ نياتهم.

ومن ذلك أيضاً قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فما أعظم فضلُ الله على الناس، إذْ لو تفكَّروا بهذه الآية المباركة وتدبَّروها حقَّ تدبّرها، لعرفوا ما حباهم الله تعالى به من مكرمة عظيمة، وما جعل لهم من مكانةٍ رفيعة بين خلائقه. فقد أوكل الله تعالى كلَّ واحدٍ من الناس ـ وفي كثيرٍ من أمور حياته ـ إلى نفسه وجعل هذه النفس، السبب للنعمة أو النقمة، كما يدّلنا عليه النصُّ القرآني الكريم. فالله سبحانه وتعالى لا يسلب نعمة أنعمها على قوم من عباده إلاَّ بعد أن يغيروا نياتهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم من الأحسن إلى الأسوأ. وهذا منتهى العدل الإلهي، إذ عند هذا التغيير يستحقون ما يستحقونه من سلب النعم التي أعطاهم إيَّاها في الأصل تفضلاً منه تعالى وتكرّماً. وقد قضى سبحانه بأنْ يصاحب النعمَ لعباده حق الابتلاءُ والاختبارُ، فإن لم يقدِّروا حقَّ تلك النعمة ولم يشكروا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مواهبَهُ وعطاياه، فمعناه أنَّهم سقطوا في التجربة والاختبار،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

فاستحقّوا سلب النعمة. هذا إذا أرادَ الله أنَّ يغيّر من نعمِهِ عقاباً لقوم على جحودهم ونكرانهم. . .ولكن قد يكون سلب النعمة أيضاً لمصلحة للعباد لا يعلمها إلا سبحانَهُ وتعالى وحده، فهو خبير لطيف بعباده ويعلم مصالحهم وأحوالهم، فيزيد من نعمه أو يسلب من هذه النعم، ما تقتضيه مصالح عباده، ووفق ما يشاء سبحانه ويقدر.

والفضل العظيم من الله تعالى هو عندما يجعل سلب النعمة أو عطاؤها منوطاً بالناس أنفسهم، فرادى وجماعات. . . ذلك أنَّ الله تعالى إنما يكرِّم هذا المخلوقَ البشري أكبرَ تكريم حين يجعل أمرَهُ به ينفذ ويجري من خلال نفس الإنسان ذاته، وبسبب عمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم وسلوكهم، وأفعالهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم. إذْ مِنْ مصاديق تكريم الله لعباده أنه يلقي سبحانه التبعة على الإنسان نفسه، وذلك بأن يترك له المجال في التقدير والاختيار بحيث يملك هو ـ هذا الإنسان ـ أنْ يستبقي نعمة الله تعالى عليه، ويملك أنْ يستزيدها إذا هو عرفها فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكرها، وبطر، وانحرفت نياته، فانحرف سلوكه وعمله.

لذا نجد هذه الحقيقة تتلازم بين العمل والجزاء في حياة الإنسان. . في تفكيره ونشاطه، وفي إرادته وتصرفه. ومن هذه الحقيقة يمكننا أن نتصور مشيئة العلي الحكيم في جعل هذا التلازم سنةً من سننه تعالى يجري بها قدره، ولا يظلم فيها عبداً من عبيده. فهو سبحانه سميع لأقوال عباده، عليم بجميع أعمالهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

السلوك

الأصل في السلوك هو الطاقة الحيوية. وقد بات معروفاً، في تفكيرنا وتصورنا ـ نتيجة لما سبق توضيحه ـ أنَّ الطاقة الحيوية هي الغرائز والحاجات العضوية، التي تدفع الإنسان وتتطلب منه الإشباع، فيتحرك ـ قولاً أو فعلاً ـ لتحقيق هذا الإشباع. ولذا كان السلوك متوقفاً على الطاقة الحيوية.

إلاَّ أنَّ ما يعيّن سلوك الإنسان هو المفاهيم، لا الأفكار فقط، فالأفكار لا تؤثر على السلوك، إلاَّ إذا صدّق بها الإنسان وارتبط هذا التصديق بالواقع، فعندها تصبح الأفكار من المفاهيم. من هنا فإن سلوك الإنسان يكون ـ قطعاً ويقيناً ـ بحسب مفاهيمه.

والفكر يتأتّى عن العقل، كما يتأتّى السلوك عن الطاقة. ولذلك كان السلوك غير الفكر، وكان التفكير غير الميل، وكانت العقلية غير النفسية. إذاً هنالك في الإنسان طاقة تتطلب الإشباع، وهنالك فيه أيضاً عقل يفكر ـ وهما أمران مختلفان ـ فإن ارتبطا وحصل سلوك بحسب الأفكار كانت الشخصية. وإذا لم يرتبطا وظلا منفصلين كانت هنالك ميول، وكانت معها أفكار. إلاَّ أن مخالفة السلوك للفكر أكثر ما تكون في الجزئيات، ولا يؤثر ذلك على الشخصية، وإنما يؤثر على بعض التصرفات، في بعض الأحيان. ففي إحدى غزوات الرسول ﷺ، المعروفة بغزوة بني المصطلق، ثارت في نفوس الأنصار والمهاجرين نعرة العصبية بسبب نفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول الذي أراد أنْ يشعل فتنة بين صفوف المسلمين.. في تلك الحالة، وقد وقف الأنصار يتنادون، ووقف المهاجرون يتنادون ـ بدعوة العصبية ـ انفصل السلوك عن الفكر، مع أنَّ مفهوم الأخوة في الدين الذي يناقض

العصبية ـ مهما كان شكلها ـ كان واحداً عند المهاجرين والأنصار. ولكن ذاك المفهوم الإسلامي لم يعد، في الوقت الذي جرى فيه التنادي مفهوماً لأنه انفصل عن الارتباط بالطاقة، أي بالسلوك الإسلامي، فتصرف كل من هؤلاء وهؤلاء بحسب ميولهم السابقة لا بحسب أفكارهم الجديدة، ولكن من دون أيِّ تغيير يذكر في حقيقة شخصيةِ الأنصار، أو شخصية المهاجرين، إذ إنهم ما لبثوا جميعاً أنْ عادوا أخوةً ـ يغلب عليهم مفهوم الأخوة في الدين ـ بعد أنْ وضع الرسول الأعظم ﷺ الأمور في نصابها. ولذلك يمكن القول بأن انفصال السلوك عن الفكر لا يؤثر، في بعض الأحيان، على الشخصية. وكذلك يكون خطأً القول بأنَّ للإنسان وجهتي نظر في الحياة، إذ لا يكون للإنسان إلا فكرٌ أساسيٌّ واحدٌ عن الحياة تحوّل إلى مفهوم. فإذا وجد فكر غيره فإنه يبقى مجرد فكرٍ ولا يتعداه إلى مفهوم...

العقلية والنفسية

العقلية هي الكيفية التي يُربط فيها الواقع بالمعلومات، بقياسها إلى قاعدةٍ واحدة أو قواعد معينة. ومن هنا تختلف العقليات وتتنوع، فتقول هناك عقلية إسلامية، أو عقلية شيوعية، أو عقلية رأسمالية، أو عقلية فوضوية، أو عقلية رتيبة... أما النفسية فهي الكيفية التي يجري بها إشباعُ الغرائز، والحاجات العضوية، أي هي الكيفية التي تُربط فيها دوافع الإشباع بالمفاهيم، فهي مزيج من الارتباط الحتمي الذي يجري طبيعياً في داخل الإنسان: بين دوافعه النفسية، والمفاهيم الموجودة لديه عن الإشباع.

والكلام عن النفس يعني البحث عن العقل وأحكامه، والقلب وغرائزه. فعندما نتكلم عن الغرائز والحاجات العضوية التي تتمثل بالطاقة الحيوية وما ينبثق منها جميعاً من دوافع للإشباع نكون قد تكلمنا عن النفسية فقط، لأن تلك الدوافع للإشباع إنما تحدد سلوكاً معيناً، أي نفسية معينة..

وعندما نتكلم عن العقل فقط نكون قد تكلمنا عن قسم من النفس، لأن العقل هو ما يشتمل على ملكة التمييز أو الإدراك أو التفكير، وهو الذي يعطي الحكم على الوقائع، والأحداث، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالعقل وعمله..

ومن النفسية والعقلية تتكون الشخصية.. وبها جميعها ككل متكامل يظهر الإنسانُ بهذه الشخصية أو تلك؛ فالعقل أو الإدراك، وإنْ كان فطرةً، ووجوده حتميٌّ لدى الإنسان المميِّز، إلاَّ أنَّ تكوين العقلية يكون بفعل الإنسان نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى إشباع الغرائز والحاجات العضوية، فهي وإن كانت فطريةً، ووجودها حتمي لدى كل إنسان، إلا أنَّ تكوين النفسية يجري أيضاً بفعل الإنسان.. فإن تطابقَ تكوينُ العقلية مع تكوين النفسية، كانت للإنسان شخصيته المميزة. وإن حَصَل تباينٌ بين التكوينَيْنَ، كانت عقلية الإنسان غير نفسيته، لأنه حينئذٍ يقيس ميوله على ما في أعماقه، فيربط دوافعه بمفاهيم غير المفاهيم التي تكونت بها عقليته، فيصبح شخصيةً غير متماسكة، لأنَّ أفكارَهُ غير ميوله، ولأنه يفهم المعاني، ويدرك الواقع على وجه يختلف عن ميله للأشياء.

الإنسان، في المفهوم الإسلامي، كائن حيوي متميّز بخصائص عديدة. وقد عالج الإسلام أحوالَهُ النفسية والفيزيولوجية معالجة تتوافق مع تكوينه وفطرته. فهو يرى أنَّ الجسم له حاجاته العضوية مثل الغذاء، والنوم، والراحة، كما يرى أنَّ النفس لها غرائزها التي تحتاج فيها إلى الأجواء والمناخات التي تلائمها، ولا سيما منها الإيمانية، فتتشوق إلى معرفة حقيقة وجود الله تعالى، والقيام بعبادته وطاعاته، والإقدام على الأعمال الصالحة.. أو قد تنحرف نفسُهُ عن طريق الإيمان ومستلزماته وتهوي في مستنقع الكفر والرذيلة والأعمال السيئة.. من هنا قد ينشأ صراع داخل الإنسان بين حاجات الجسم العضوية والغرائز من ناحية، ومتطلبات النفس وأحوالها من ناحية ثانية، وقد يكون لهذا الصراع آثاره الهامّة على سلوك الإنسان، وعلى شخصيته.. وقد رأى الإسلامُ ذلك كله فتعامل مع تكوين الشخصية الإنسانية على أسس سليمةٍ قائمةٍ على الأحكام الشرعية المنبثقة من العقيدة، أي إنه نَظَرَ إلى الغرائز والحاجات العضوية فدعا إلى ضرورة إشباعها، إنَّما بالاعتدال في كل شيء، بحيث لا يطلق الإنسان لغرائزه العنانَ، ولا يكبتها كلَّ الكبت، ولا يتبع متطلبات الجسد ويتخلّى عن متطلبات النفس، أو العكس.. ولذلك قامت تلك الحالة التوفيقية التي ترتكز على إشباع الغرائز والحاجات العضوية دون إفراط أو تفريط. فالمنطلق إذاً هو العقيدة الإسلامية، والأساس هو هذه العقيدة أيضاً، وذلك لتحقيق التوازن في الشخصية كما يأمرنا بذلك رب العالمين. يقول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(١). ويقول رسول الله ﷺ: «**ليسَ بِخيرِكُم مَنْ تَرَكَ دُنْياهُ لآخِرَتِهِ وَلاَ آخِرَتِهِ لِدنْيَاهُ حَتَّى يُصِيبُ مِنهُمَا جَمِيعاً فَإِنَّ الدُّنْيَا بَلاَغٌ إلى الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا كَلاًّ على الناسِ**»(٢).

وبذلك يكون الإسلام قد جعلَ تكوينَ الشخصية الإسلامية منوطاً بالعقيدة الإسلامية نفسها التي تنطلق من الإيمان بالله تعالى والعمل بأصول الدين والأحكام الشرعية، والمفاهيم الإسلامية التي بها جميعاً تتكون عقليته، وبها تتكون نفسيته. ولذلك يدعو الإسلامُ الإنسان ليقيس الأفكار التي يكتسبُها أو ينشِئُها، كما يقَيس الواقع على العقيدة، بحيث تتكوّن لديه من ذلك وهذا، ما يجعل عند الإنسان المسلم عقليةٌ إسلامية ونفسية إسلامية، ويكون هذا الإنسان بهما معاً صاحب شخصية إسلامية، بغض النظر عن كونه عالماً أو جاهلاً. لأنَّ كل من يفكّرُ تفكيراً إسلامياً، ويجعل سلوكه تَبَعاً للإسلام يكون ذا شخصية إسلامية.

وقد أمر الإسلام بالاستزادة من الأفكار والمفاهيم الإسلامية وبذلك تنمو لدى الإنسان عقلية إسلامية تكون قادرة على احتواء كل فكر من الأفكار. كما أمرَ بأشياء ونهى عن أشياء تقويةً للنفسية الإسلامية لتصبح قادرة على ردع كل ما من شأنه أن يخالف الإسلام. وبمقدار الالتزام بالإسلام: عقيدةً دينية ومنهجاً حياتياً، أو الابتعاد عن هذا الإسلام، يأتي التفاوت في الشخصيات الإسلامية، وفي العقليات الإسلامية، والنفسيات الإسلامية. ولذلك يخطئ كثيراً أولئك الذين

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) كشف الخفاء، حديث رقم ٢١٣٩.

يتصورون الشخصية الإسلامية على أنَّها مَلَكٌ سماويٌّ، فهم يبحثون عن المَلَك بين البشر فلا يجدونه مطلقاً، ومن الطبيعي ألاَّ يجدونه في أنفسهم، فييأسوا، ويبدوا عجبهم من الإسلام، بينما هم لم يدركوا حقيقة الإسلام، ولم يعرفوا طريق الإسلام، وما اهتدوا إلى هُداهُ أبداً.. إنهم خياليّون يتصورون أنَّ الإسلام روحانيَّة صرفة، وأنه مستحيل التطبيق في واقع الحياة؛ مع أنَّ الإسلام ـ في حقيقته ـ تسيير عملي، مطابقٌ لمنهاج الله تعالى خالٍ من أيِّ تصوّرٍ خيالي، بل هو أحكامٌ وقواعدُ صالحة للتطبيق في كل زمانٍ ومكانٍ.. بمعنى أنَّ من يعرف الإسلام يجده واقعياً بكل معنى الكلمة، لأنه يعالج الواقع بشرعٍ سمحٍ لا يصعب تطبيقه، وهو في متناول كل إنسان، مهما بلغت درجةَ التفكير لديه من القوة أو الضعف، ومهما بلغت غرائزه وحاجاته العضوية أيضاً من القوة أو الضعف. فكل إنسان يمكنه أن يطبق الإسلام في حياته، وعلى نفسه بسهولة ويسر. والمسلم الذي يطبق الإسلام على نفسه يكون صاحب شخصية إسلامية، ويصبح مؤهلاً للقيام بجليل الأعمال، أو بأصغرها، فهو تلميذ ومعلم، جندي وقائد، في آنٍ معاً، يجمع بين الرحمة والشدة، بين الزهد ومتعة العيش، ويفهم الحياة فهماً صحيحاً، فيحوز الحياة الدنيا بحقها، وينال الآخرة بالسعي لها. ولذا، لا تغلب على الشخص المسلم صفة من صفات عُبّاد الدنيا، ولا يأخذه الهوس الديني ولا التقشف الهندي. وفي الوقت الذي يكون سَرِيّاً يكون متواضعاً، ويجمع بين الإمارة والفقه، وبين التجارة والسياسة. وأسمى صفةٍ من صفاته أنه عبد الله تعالى خالقِهِ وبارئِهِ.

والمثال البارز على الشخصية الإسلامية هو رسول الله ﷺ،

الذي حباه الله تعالى من الصفات، ومنحَهُ من المزايا ما جعله إنساناً كاملاً في شخصيته، يفيض بالحيوية الجسدية، فيعيش حياته البشرية كغيره من الناس، وتشفُّ نفسه بعبادة ربه، فيرتقي إلى أسمى المعارج في تقديس الله تعالى وطاعته والامتثال لأوامره ونواهيه. فهو الإنسان الكامل، والشخصية النموذجية التي أمَرَ الله تعالى الناس أنْ يقتدوا بها: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

وفي القرآن الكريم تصوير للشخصية الإسلامية، كما فيه تصوير للشخصيات غير الإسلامية. ونتلمّس هذه الشخصيات من تصنيف القرآن للناس ـ على أساس العقيدة الدينية ـ إلى ثلاثة أصناف، أي المؤمنين، والكافرين والمنافقين وأهمية هذا التصنيف تكمن في تأثير العقيدة الإسلامية على تكوين شخصية الإنسان، وعلى إبراز صفاته التي تميزه عن غيره من الناس، إنْ في حياته الخاصة، أو في علاقاته مع الآخرين.

وسوف نحاول إبراز الصفات العامة لكل من هذه الأصناف الثلاثة لبني البشر، أي الصفات التي تتبيَّنُ من خلالها شخصيةُ المؤمن أو الكافر أو المنافق، وذلك بعد أنْ نفهم حقيقة الإيمان.

الإيمان والمؤمنون

قال رسول الله ﷺ: **«ليس الإيمان بالتمنّي ولا بالتحلّي، ولكنْ هو ما وقَرَ في القلبِ وصدَّقه العمل»**(٢).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) رواه البخاري، باب المغازي. ص١٢.

هذا هو الإيمان كما أوضحَهُ لنا رسول الله ﷺ. إنه ما انطوت عليه النفس، وما ظهر على حقيقته بالعمل. فيجب أنْ يكون هنالك توافق وتلاق ما بين باطن الإنسان وظاهره. فالباطن هو هذه النفس بجميع مركباتها وأحوالها، إنه مجمع العقل والقلب وما ينبعث عنهما من أحوال نفسية. أما الظاهر فهو السلوك أو التصرف الذي يصدر عن الإنسان، والذي يكون في حقيقته، مرآةً صادقةً لما انبعث من داخل النفس، وعبَّر بأمانةٍ عن مكنوناتها.

ومن يتقصَّ حقائق القرآن الكريم يجدْ أنَّ الإيمان أفضل مزايا الإنسان وأعلاها مقاماً. فعندما يخاطب الله تعالى المؤمنين إنما يخاطبهم بصورة مباشرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. وهذا شرف رفيع، وتكريم عظيم لهم، لأنَّ مخاطبة الله تعالى لهم، ترفع من قيمتهم الشخصية، وتسمو بهم إلى المرتقى الأعلى من مراتب الإنسانية..

وعندما يتحدَّث الله تعالى عن المؤمنين إنما يقرنُ إيمانهم بالعمل الصالح، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[1]. أفرأيت أيها الإنسان هذا الوصف الكريم لهؤلاء المؤمنين ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. إنهم خير الناس جميعاً.. ومَنْ هذه صفتهم، فلهم الجنةُ نزلاً بما كانوا يعملون في هذه الدنيا، يقول الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

إنها مزايا ثلاث يخصُّ بها الله تعالى هذه الفئة المؤمنة من الناس: الإيمان، العمل الصالح، الجنةُ منزلهم. أما الإيمان، فهو

---

(١) سورة البينة، الآية: ٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٩.

ليس مجرد كلام ينطلق من اللسان، بل هو ما وقَرَ في الصدر، ولامَسَ شغاف القلب، واختزنَ في قرارة نفس الإنسان فاستقامت على الإقرار بأنْ لا إلَهَ إلا الله وحده لا شريك له، الإلَهُ الكبير المتعال، الذي تفرّد بالألوهية وبالربوبية؛ إنه التصديق الجازم بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث، والحساب، والجنة والنار.

وهو التصديق الجازم أيضاً بحقيقة بعث محمد ﷺ رسولاً للناس كافةً، وخاتماً للنبيين، وأنه حمَلَ الإسلام عقيدة دينيةً ودنيويةً، وخاتمةً للرسالات السماوية وأكملها؛ فكان بشيراً ونذيراً، مثلما كان رحمةً للعالمين...

ومن هذا الأساس المتين: لا إلَهَ إلا الله، محمدٌ رسولُ الله: تنطلق جميع المقاييس والمناهج والسبل والقيم والمثل في مسيرة الإنسان على الأرض، وفي مصيره في الآخرة..

وأما العمل الصالح، فأول ما ينبثق منه عبادة الله تعالى، التي تظهر بأداء الفرائض من صلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وحجٍّ وجهادٍ في سبيل الله، مع ما يقترنُ بها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تستقيم العلاقات والمعاملات بين الناس، ثم الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، والتوكل عليه في كل أمر وشأن.. وقد يكون أجرُ الإيمان وما ينبثق منه من الأعمال لخير المؤمن ونفعه، ولكنّ العمل الصالح لا يقتصر خيرُه على الإنسان الذي يقوم به، بل يجب أنْ يطالَ الآخرين من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، بل ويجب أن يكون في سبيل الناسِ أجمعين.

ثم إن العملَ لا يقترن فقط بوجهه الإيجابي، بل يجب أنْ يتَّصفَ بالابتعاد عن أي جانب سلبي، حتى يكون صالحاً.

وأما الجنة، فهي كما يصفها الله تعالى في قرآنه الكريم، خير مقامٍ ومستقرٌّ للمؤمن في الحياة الدائمة، حياة النعيم والخلود.. وذلك هو الفوز العظيم الذي يفوز به المؤمنون بعد رحلة حياتهم على الأرض، وقيام يوم الساعةِ والحساب..

والإيمان إنّما يخاطب النفس الإنسانية ليرى المؤمن من آيات ربه ما يجعله متفكراً في خلق الله تعالى، ساعياً إلى طلب العلم والمعرفة، ليهتدي إلى بعض أسرار نفسه، أو بعض أسرار هذا الكون، فيجد من نعمة الله تعالى، ومن عجيب صنعه وخلقه، ما يثبت عقيدته الدينية ويرسخها في نفسه، وما ينطلق به في الحياة على أنوار الهداية والخير، التي تجعله قادراً على مواجهة المصاعب بعزم وثبات، وبصبر واحتمال...

ولكي يميّز الله تعالى المؤمنين عن بقية الناس الآخرين، من الأمم والشعوب جميعها، يبيّن القرآنُ الكريم الصفات التي يُعرفون بها، وتدلُّ عليهم كما تدلُّ المناراتُ على السُّبل وتهدي التائهين، وتلك الصفات يمكن لكل إنسان أنْ يكتسبها، وأنْ يدخل في صنف هؤلاء المؤمنين، بمشيئة الله تعالى وهدايته. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[(١)].

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢ ـ ٤.

هذه هي أهمُّ سمات المؤمنين كما يبرزها لنا ربُّ العالمين في هذه الآية المباركة، أي إنها تبرز لديهم في الأمور التالية:

ـ وَجَلُ القلوب عند ذكر الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾.

فالقلب المؤمن هو الذي يخشع لذكر الله تعالى، ويغشاه جلاله فيتمثل عظمته وقدسيته. والإنسان المؤمن يخاف الله تعالى لمجرد الذكر، أكان في نفسه شعور بالتقصير والذنب، أو ندم على فعل مضى قد أتاه في ساعة غفلة.. لأنه يستشعر بالذكر العظيم أليمَ عذاب الله وشدته، وطول البلاءِ ومدّته..

ـ التأثر القلبي بآيات الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

فالقلب المؤمن تزيده آيات القرآن إيماناً فوق إيمانه. والتلاوة لا تكون مجرد قراءة وحسب، بل تكون تقصّياً للمعاني، وتدبّراً للأفكار التي تحتويها النصوص. وكلما تقصّى المؤمن فهم القرآن وما تنطوي عليه آياته من المعاني والعظات الجليلة حول خلق الإنسان وحياته الدنيوية والأخروية، وارتباط هذا الإنسان بخالقه، وعلاقته بالأرض التي يحيا عليها، وتوافق هذه العلاقة مع النظام الكوني بأسره، كل ذلك وغيره يجعل المؤمن يدرك الحقيقة الثابتة والأكيدة، وهي أنَّ الله تعالى على كل شيء قدير، كما يدرك حكمة المولى الكريم في الصنع والتدبير، فيزيده ذلك إيماناً وتصديقاً.

ـ التوكل على الله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فالمؤمن يعرف أنَّ الله ـ تعالى ـ هو ربُّهُ، وربُّ العالمين، ربُّ

السماوات والأرض وما فيهنَّ، وما بينهنَّ، مالك الملك، المتصرف في ملكه فلا شريك له ولا معقِّب لحكمه. والمؤمن يعلمُ أنَّ ما شاء الله تعالى كانَ، وما لم يشأ لم يَكُنْ، إذنْ على مَنْ يتوكَّلُ المؤمِنُ بعد ذلك؟ إنه على ربِّهِ يتوكَّلُ، لا يرجو ولا يقصد سواه، ولا يطلب حاجة إلا منه سبحانه.. إنَّ المؤمن يعمل ويجهد في حياته، ولكن مهما عمل وسعى يبقَ في نفسه يقينٌ قاطعٌ بأنَّ الأمر كله متروكٌ إلى الله تعالى، وحده سبحانه يُنشئُ الأسبابَ، ويُنشئُ النتائج. وفي شعور المؤمن لا علاقة بين السبب والنتيجة، أي إنه يقوم بواجباته ويترك الأمور والنتائج لمشيئة الله تعالى. وهذا منتهى الشعور بالاطمئنان والقناعة والرضا.

- **إقامة الصلاة:** ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

وإقامة الصلاة هي أول الطاعات والعبادة عند المؤمن. إنها شعور دائم يرافقه، فلا يرتفع صوت المؤذن في ليل أو نهار، ولا يحين مجيءُ وقت الصلاة، إلاَّ ويلازم قلبه شعورٌ بالواجب الثقيل إذا لم يؤدِّ صلاته بوقتها. وحين يؤديها بوقتها ينزاح عن قلبه ذاك الثقل ويغمره الاطمئنان والارتياح.

والمؤمن لا يقيم صلاته مجرد تلاوة أو قراءة، بل يجدها فريضةً أتاحتْ له ملاقاةَ ربه تعالى، بخشوعٍ وتقوى، وبقلب متَّعِظ ونفس صافية. إنه، وهو في الصلاة، يتخلَّى عن الدنيا وأعبائها، ويتوجَّهُ بكليَّتِهِ إلى خالقه وبارئه، يعبدُهُ لأنه أهل للعبادة، ويتضرَّع إليه خوفاً من ناره، وطمعاً في جنّته.

وتبقى الصلاة في مظهرها المادي عنواناً لنظافة البدن، وشاهداً

قائماً على الإيمان لدى المسلم، ورسول الله ﷺ يقول: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا صلاة له**»[1]. .

ـ الإنفاق من رزق الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

فالمؤمنون ممَّا رزقَهُم ربُّهم ينفقون، سواء في الزكاة أو في وجوه الإنفاق الأخرى مثل النفقات العائلية والصدقات والحسنات للمحتاجين، وبناء المؤسسات الخيرية أو المساهمة فيها، وما إلى ذلك من سبل الإنفاق العديدة؛ فهم يعلمون أنَّ الأرزاق هي من الله تعالى، وأنَّ عملهم للحصول على الرزق الحلال ليس هو السبيل الوحيد لكسب الرزق، بل ويؤمنون بأنَّ المولى الكريم يرزق من يشاء بغير حساب. يقولُ الإمامُ عليٌّ (كرَّمَ الله وجهَهُ): «الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك». ولذلك جعل الله فيه نصيباً لمن يستحقونه من عباده: ذوي القربى واليتامى والمساكين، والسائل والمحروم وابن السبيل، وكل من هو بحاجة إلى مساعدة أو عون مما يتفضَّل به الله تعالى على عباده المؤمنين، وييسر لهم سبل تحصيله ونيله. .

والإنفاق من رزق الله تعالى يجب ألاَّ يكون للتباهي والتفاخر، والمصانعة أمام الناس في سبيل الجاه، إنه في هذه الحالة يفقد معناه، ويصبح عطاءً لغايةٍ دنيويةٍ غيرِ محمودةٍ عندَ الله ورسولِهِ، بل يجب أنْ يكون الإنفاقُ سبيلاً لتزكية المالِ والنفس، ووسيلةً للتضامن مع إخوانهم في الدين وفي الإنسانية، وتعاونٍ على البر والتقوى. . هذا هو الإنفاق الذي يتصف به عمل المؤمنين فيما يعطون أو يبذلون أو يقدمون من مالٍ أو عمل أو مساعدة مادية أو معنوية. .

---

(١) كنز العمال، حديث ٥٤٩٧.

وهذه الصفات التي ميَّزَ الله تعالى بها المؤمنين، في هذه الآية المباركة، تنطوي على الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، والاستجابة الوجدانية لذكره، والتأثر النفسي بآياته، والتوكل عليه وحده، وإقامة الصلاة والتعبد له، والإنفاق من أرزاقه على أنفسهم وعلى غيرهم. . .

وبالإضافة إلى تلك الصفات، فقد أسبغَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده المؤمنين، صفة «المتقين» التي وردت في مطلع سورة البقرة ـ وفي غيرها ـ من قرآنه الكريم، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١]. فهذه الصفات وتلك هي مما يجدها المؤمنون حقاً في نفوسهم، وفي أعمالهم. . وتترتب على التحلي بهذه الصفات عاقبة حسنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢]. فيا لها من عاقبة: الهداية من ربهم، والفلاح والفوز في جنات النعيم. ومن حظي بهذا المقام كانت له مغفرة عظيمة وأجر كبير. . والعاقبة دائماً للمتقين.

جاء في الحديث عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحتَ يا حارثُ؟». أجابَ: «أصبحت مؤمناً حقاً». فقال له الرسول ﷺ: «انظر ماذا تقول، فإنَّ لكل شيء حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانك؟». قال الحارث: «عزفت نفسي عن الدنيا

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩.

فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها»، فقال له الرسول ﷺ: «يا حارثُ، عرفْتَ فالزَمْ». قالها ثلاثاً...

إنَّ المؤمنين يجب أنْ يتحركوا، اليومَ، بتلك الصفات في نفوسهم وأعمالهم. وسلاحهم القرآن، فهو يهدي للتي هي أقوم. وأمامهم عمل واسع وكبيرٌ جداً، لاستئناف حياة إسلامية عملية، من أجل إقامة أحكام هذ الدين القيم في واقع الحياة العملي، وخاصة بعدما غلبت على حياتهم في هذه الدنيا الجاهلية المادية العمياء، التي طغت على الأرض جميعاً، وأورثت فيها الشرور والمظالم والمفاسد... إلاّ أن قلوب المؤمنين يعمرها دائماً الإيمانُ الصادق، الذي لا يكون بالتمني أو بالتحلي، بل هو ذلك الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل، كما قال رسول الله ﷺ.

تلك حقيقة الإيمان، وحقيقة المؤمنين الذين منَّ الله تعالى عليهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فانطلقوا في الحياة يميّزون بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، ورائدُهُمْ عبادةُ الله تعالى، والعملُ الصالح لأنفسهم، وأهليهم، والناس من حولهم.. وهم الذين هداهم الله تعالى لأنْ يتفكّروا في أنفسهم، فيدركوا ما يميّزون به بين نور الإيمان وظلام الكفر وما في خلق الإنسان من دقة الصنع التي هي غاية في الإعجاز،

(١) يتضاغون معناه: يتذلّلون، يتخاونون، يصرخون من العذاب. كنز العمال، حديث رقم ٣٦٩٨٨.

وما في تركيب الكون وانتظامه من الآيات التي تُذهل البصائرَ، وتُدهش العقول..

إنها عظمة الله تعالى في الخلق..

وفي الاكتشافات التي تتقدم يوماً بعد يوم، أكبر دليل على ما بثَّ الله تعالى في الوجود البشري، وفي الكون بأسره، من آيات دالّة على قدرة الله تعالى، وأنه الصانع الحكيم، والمدبر العليم...

وكم تمتلئ نفوسُ المؤمنين بالاطمئنان، وهم يرون، ويبصرون هذه الآيات، وكم تعمر قلوبُهُم بذكر الله، فيسبحون الخالقَ البارئ، ويعبدونه حق عبادتِهِ، وكم تستبينُ لهم عظمة الخالق، وقوةُ إحكامه، فيعلمونَ علم اليقين بأنه سبحانه على كل شيء قدير. إنهم آمنوا بالله العلي العظيم استجابةً للفطرةِ التي فطرهم الله تعالى عليها، فاهتدوا إلى الحق وجهدوا لئلاَّ يحيدوا عن سبلِهِ ومقاصدِهِ..

الكافرون

وبخلاف المؤمنين، نجد الكافرين والمشركين قد عاندوا الفطرة، فعاشوا في غيابة الجهل والظلام، يكذّبون النبيين، ويقاتلون المرسلين، ويسخرون من كل بشير ونذير.. وكم أهلك الله تعالى من القرون السالفة، وأنزل بها من أنواع العذاب، لتكون كلُّ أمةٍ عبرةً لغيرها من الأمم اللاحقة، إلاَّ أنَّ الناس ظلوا ـ على ما يبدو ـ يوغلون في الجهل والضلال، وينأون عن الوعي والهدى، ويناصرون الباطل على الحق، ويسيرون وراء الشرّ، دون أنْ يخلو عصرٌ من الجرائم والفساد.. وإلاَّ فما بال الأمم، والدول اليوم، التي تسودُها أوضاع الشقاء والبؤس والقلق ويكتوي بنارها غالبية الناس؟! وما الأسباب الكامنة وراء المفاسد والشرور والمظالم التي تعم العالم بأجمعه؟! وكأنَّ الإيمان بالبعث والحساب أصبح نسياً منسياً، فما من مرتدعٍ عن غيٍّ، وما من مرتدٍّ عن ضلال، وما من منقلب على نفسه، مُنكرٍ لما يجري على مسامع الدنيا وأبصارها؟!

إنه الابتعادُ عن الله تعالى، والجنوحُ إلى الماديةِ القاتلة، والمجدُ

الدنيوي الزائل!.. هذه هي مكامن الداء التي توصل إلى الهلاك، ولا من يفكر أو يدري - إلا من عصم الله - إلى أين المصير، ومدى خطورة ما سوف يلاقي طلاب الدنيا من عذاب الله الأليم!.. ولئن كفر الإنسان من قبل، وعبَدَ آلهة مزيفة ابتدعها، أو اتخذ من الأصنام والأوثان آلهةً تقربه إلى الله زلفى، فما بالُ الإنسان اليومَ، والإسلام بين يديه، لا يفتح بصيرتَه على هذا الدين الذي يجد فيه الخلاص من آلامه النفسية، ويهديه إلى السبل التي تمكّن من محاربة الفوضى، والغطرسة، والظلم، والكذب، والاستغلال وغيرها من الشرور التي يخطّط لها أتباعُ الشيطان في أوكارهم السرّية، وينشرونها في دنيا الأرض، وفي ظنّهم أنها تحقق أحلامهم الجهنميّة؟!..

إنها المادية التي طغت على الأنفس، وجعلتها ترتمي في أحضانِ جاهليةٍ أعتى وأشد ظلماً من الجاهليات القديمة كلها، لأنَّ ما يُشاهَدُ في حياة كثيرٍ من الناس هو الكفر والشرك بعينه، ولكن في صور وأشكال جديدة، إنَّما لا تختلف في مضمونها عمَّا كانت عليه الأقوام والقرون الغابرة.. وهذا هو مثار العجب والدهشة من هذا الإنسان الذي بلغ درجة عالية من النضوج الفكري، والتقدم العلمي، أنْ يتفلَّت، ولو قيد أنملة، من قضية الإيمان التي تبقى هي المقياس الصحيح والوحيد لكل تقدم أو تطور أو ارتقاء..

وكم يجب أنْ يكون العمى ضارباً على بصيرة أي منكر أو ملحدٍ أو كافر حتى لا يهتدي إلى حقيقة وجود الله تعالى، ويقيم وجوده الإنساني على أساس هذه الحقيقة. أفلا يرى أيُّ إنسان من هؤلاء اسمَ خالقه موقعاً على كل قسيمةٍ من قسائم تكوينه، وعلى كل صفحة من

صفحات هذ الكون الفسيح، وآثار الله تعالى وآياتِهِ باديةً وظاهرةً على كل شيء في الوجود؟!

ولو عاد الكافر أو الملحد أو الضالُّ إلى نفسه فماذا يجد فيها غير الضياع والشتات، وغير القلق والاضطراب؟! ألا يجد أنه أبعدُ خلق الله عن سكينةِ النفس، وراحة الضمير، وطمأنينة القلب؟ ولو أنَّه خَلاَ بين الفينة والفينة إلى نفسه، وأجرى جردة حسابٍ لكل ما يفكر فيه، ويقوم به، لوجَدَ أنَّ غايتَهُ القصوى هي هذه الحياة الدنيا، أنَّه لا يعبأ بشيءٍ اسمه الموت، أو بشيءٍ اسمه الحساب يوم الدين.. أمَّا أنَّه لا يفعل شيئاً من ذلك فكان من المقدَّر أن يندفع وراء الشهوات واللذائذ، ويرتمي في أحضان الطمع والجشع، وغالباً ما تؤدي به كثرةُ انشغالاته إلى أنْ ينهك قواه الجسدية والنفسية، حتى يصير عرضةً للأمراض والهموم.. ولو أن مثل هذا الإنسان أغمض عينيه يوماً فوجد راحة ما، لكن حياته كلها شقاء.. ولو أنَّ مثل هذا الإنسان أغمض عينيه عن الدنيا، وفكَّر بكلِّ ما هو فيه، وما هو عليه، وقدَّر ما سوف يصير إليه في آخر عمره، حيث يترك كلَّ شيءٍ لغيره، ولو كانوا أقرب المقربين إليه، فسوف يجدُ أنَّ كل جهوده، وكل ما بناهُ وجناهُ لن تجديَهُ نفعاً عند حسابه بين يديْ ربّه ـ عزَّ وجلَّ ـ... أما إذا لم يفكّر بلقاء ربه تعالى، وظلَّ همُّهُ الدنيا فإنه سوف يصل إلى سن الشيخوخة التي لا مندوحة له بعدها من مفارقة هذه الدنيا، ولعلَّه في تلك المرحلة من عمره قد يخالجه التأسّي والحسرة على نفسه، وتلك الحالة التي صارَ عليها من الوهن والضعف وقلة الحيلة حتى في هذه الحالة، وفي تأسّيه قلق إضافي له، وغمٌّ يزيد من أعبائه وهمومه الكثيرة..

هكذا هي نفوس الكافرين: شقية، متعبة، يأكلها الضنى، ويقتلها التمسك بأهداب الحياة الزائلة... وهي نفوس قلقة حائرة لأنها ابتعدت عن سنن الله تعالى في الخلق، وجافت منهج الله تعالى في الحياة، فلم تحفل بمعاني الفضائل والمثل، وفي مقدمها التمسك بالدين، والقيم الروحية التي تبقى خير معين للإنسان على عبور هذه الدنيا إلى دار الأمان والاطمئنان، إلى دار الخلود والنعيم، ـ التي يجب أن تبقى غاية الإنسان بعد رضوان الله تعالى ـ. وقد يتوهم الكافرون أنَّ سعادتهم هي هنا، في هذه الدنيا، وأن شقاءهم سوف يدفن معهم في قبورهم. وهذا منتهى عمى البصيرة، وضلال النفس عن الحق، كما هو منتهى الجهل الذي يوقع في الخسران المبين.. لأنّ الحقيقة التي يجب أنْ يؤمن بها كل إنسان ويوقن بها يقيناً قاطعاً، هي أنَّ حياتَهُ لا تنتهي بموته، ومفارقة هذه الدنيا، بل هنالك بعثٌ يوم القيامة، وهنالك حسابٌ لا مفر منه على ما قدَّم في دنياه، ووفق ميزان هذا الحساب، الذي هو ميزان الحق والعدل، يتوقف مصير الحياة الأبدية للإنسان: فإما نعيمٌ مقيمٌ، وإما عذابٌ دائمٌ.. ومسكين هذا الإنسان الذي كفرَ أو أشرك بربه، مسكين هو لأنَّ أبوابَ الهداية قد شرَّعها له الإسلامُ من أجل توبته وخلاصه، ولكنه أصرَّ وعاند واستكبر، وسوف يلقى جزاءه على كفره، وإعراضِهِ عن دين الله تعالى...

إنها دعوة مخلصة للإنسان، أينما وجد على هذه الأرض، وإلى أية جماعة أو دولة ينتمي، وبأي عقيدة يعتقد... إنها دعوة صادقة له كي يعود إلى الحقيقة التي تناسب فطرته، وتتوافق مع وجوده الإنساني، وهي الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث والحساب، والجنة والنار...

وليست هذه الدعوة إلاَّ من قبل الحرص على الإنسان، والأخذ بيده إلى الطريق الصحيح. لأن الله تعالى يريد لهذا الإنسان الخير، والرأفة، والرحمة، والعفو والمغفرة. وقد توسعت، وأبانت، وفصّلت، وعقّبت، وأوجزت آيات قرآنه الكريم سبل الهدى والضلال، ومصائر المؤمنين والكافرين... ولعلَّ في توضيح معاني بعض الآيات، ما يوضح صفات الكافرين، ويرسم صورة صادقة لأعمالهم، فنعرف كم هي مكروهة تلك الصفات، وكم هي مذمومة هذه الأعمال.

فمن صفات الكافرين: تقليد الآباء والأجداد دون تفكّرٍ أو تدبّر، ومن سماتهم الغرور والاستكبار، واتباع الأهواء والفجور والفسوق، ومن معتقداتهم إنكار البعث والحساب، وأنْ لا جنّة، ولا جهنَّمَ بل هي الحياة الدنيا ويحيون فيها ويموتون؛ ومن أفعالهم الإعراض عن آيات الله تعالى ومحاربة الإسلام، حتى وصَلَ بهم الفعلُ الشنيعُ إلى تدنيس القرآن، كتاب الله، وحجته على العباد...

١ ـ تقليد الآباء والأجداد

إنَّ من يطّلع على الرسالات السماوية، وما أنزلَ الله تعالى في التوراة والإنجيل والقرآن، يجدُ أنَّ الله سبحانَهُ وتعالى كان يبعث، وعلى مدار الأزمان، النبيين والمرسلين لهداية الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، كما يجدُ أنَّ ما من نبيٍّ أو رسول إلاَّ وكان الملأ من بني قومه أول من يتصدون له، ولدعوته، حفاظاً على عباداتهم الموروثة، واستمساكاً بالنهج الذي ألفَوْا عليه آباءهم.. وفي القرآن المجيد خيرُ الأدلة والشواهد على ذلك:

فهذا إبراهيم عليه السلام يرى أباه آزر وقومه في ضلالٍ مبينٍ لعبادتهم الأصنام فيجابه ضلالهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. و﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[2] ولكنْ، ماذا كان جوابهم: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[3].

وكذلك نوح عليه السلام إذ نصَحَ لقومه وهو يقول لهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[4]. ولكنَّهم أبوْا النصحَ والإرشادَ، فتنادَوْا بألاَّ يتخلَّوْا عن آلهتهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[5].

وكذلك هود عليه السلام، فقد بعثَهُ الله تعالى إلى قومه عادٍ يدعوهم إلى عبادة الله الذي لا إلّه غيره، وهو ما يثبتُهُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾[6]، فاحتجّوا زوراً بأنّه لم يأتهم ببيّنة، وبأنهم ليسوا بتاركي آلهتهم ولا بمؤمنين له، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[7].

وكذلك صالح عليه السلام وقد أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود يهديهم إلى عبادة الله الذي لا إله غيره، وإلى أنْ يستغفروه ويتوبوا إليه، وهو

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٣.
(٤) سورة هود، الآية: ٢٦.
(٥) سورة نوح، الآية: ٢٣.
(٦) سورة هود، الآية: ٥٠.
(٧) سورة هود، الآية: ٥٣.

ما يصدّقه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1]. ولكنَّهم تهجَّموا عليه وهو ينهاهم عن عبادة ما كان يعبدُ آباؤهم، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[2].

هذه هي واحدة الحقائق والبينات الساطعة التي يثبتها القرآن الكريم.. إذ إنَّ أولئك الأقوام الكافرين قد ألفَوا آباءهم يعبدون الأصنام والتماثيل التي زيّنتْها لهم عقولهم، فاتخذوها آلهةً مدعاةً، ما أنزل الله بها من سلطان، فعبدوا تلك الآلهة بفعل التقليد الأعمى، ولم يأبهوا لدعوة الحق التي كانَ رسلُ الله يدعونهم إليها. لسبب أساسي وهو أنهم لا يريدون التخلي عن عقيدة الآباء والأجداد، حتى ولو كانت تلك العقيدة تقوم على عبادة تماثيل من حجارة أو أخشاب يصنعونها بأيديهم، أو على عبادة كواكب تطلع عليهم في الفضاء، وما إلى ذلك من تلك العبادات الضالَّة..

إنها إحدى أهم معايب الكافرين التي تدل على قصر النظر، وعلى عمى البصيرة.. لقد أعماهم التقليد فلم يروا في آلهتهم جماداتٍ حقيرةً لا تنفع ولا تضر بشيء. ولم يجدوا في تقليدهم التعصبي للآباء هدراً لكرامتهم الإنسانية. إذْ من المشين بالإنسان ـ وقد وهبه الله تعالى العقل والتفكير، ومنحه القدرة على التمييز والاختيار ـ أنْ يعكف على عبادة شيءٍ حقيرٍ، تافهٍ ـ يصنعه هو بيديه

---

(١) سورة هود، الآية: ٦١.
(٢) سورة هود، الآية: ٦٢.

أحياناً ـ ويترك عبادة الله الواحد الأحد، الذي خلقه، وأمدَّه بكل مقومات الحياة الأرضية، التي من شأنها ـ فيما لو تدبَّرها ـ أنْ تجعلهُ أكرمَ خلق الله ، على الله ربّه . .

٢ ـ الغرور والاستكبار

إنَّ قصص الأنبياء في القرآن الكريم، تبيّن كيف كان الغرور والاستكبار من السيئات التي غلبت على نفوس الكافرين، ولعلَّ المثال الصارخ يبرز في قول فرعون للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] أو قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[2]. أي ادعاؤه الربوبية والألوهية ـ مثل سائر الفراعنة ـ ليس بفعل الجبروت والطغيان في نفسه وحسب، بل وليحكم الناسَ بالاستعلاء والظلم والقهر. . . والحجج التي كان يبتدعها المستكبرون كثيرة ومتنوعة، ومن قبيل ذلك أنَّ قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا يكذِّبونه ويستكبرون عليه لأنَّه بشرٌ مثلهم، ومن يحمل رسالة سماوية حسب ظنهم يجب أن يكون مَلَكاً، وتلك الحجةَ التي لا أساس لها في الوجود البشري يبرزها قوله الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[3]، أو اعتمادُ أهل انطاكية الحجة نفسها، ليكذِّبوا المرسلين إليهم، كما يتبيّن ادعاؤهم من قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[4]. . أو كانوا يبرّرون عدم الاستجابة للنبيِّ

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٢٧.

(٤) سورة يس، الآية: ١٥.

المبعوث من ربه بحجة انضمام المساكين والفقراء إليه وتصديق هؤلاء برسالته منذ بداية دعوته، كما في قول قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾(١) أو قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾(٢) أو كانوا يتكبّرون على نبيهم لاختياره ملكاً عليهم وهو ليس من الشرفاء وذوي الجاه والمال فيهم، كما فعل الملأ من بني إسرائيل مع النبيّ صموئيل، وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾(٣). وحتى لو كان، من بعثهُ الله تعالى، من أصحاب المال والسلطان ـ كما كانوا يتمنَّوْن، ويصرّحون به علناً ـ فهم لا يرتضون أنْ يكون له فضلُ النبوّة. التي ترفع من شأنه عليهم.. وكلُّها عواملُ غرور واستكبار لأنَّ نفوسهم تائهة عن الحق، ولا تريد الاستجابة لدواعي الإيمان.

٣ ـ اتباع الأهواء والفجور والفسوق

فالأهواء أمراضٌ في القلب، وهي التي تفرض على الإنسانِ اتباعَ الفجور والفسوق، ولذلك تعتبر من الموبقات التي تلازم حياة الكافر في كل زمانٍ ومكان، بدليل أنه شخص استهوته الدنيا بمتاعها، فانقلب يغرف من ملذاتها، ويوغل في شهواتها، حتى أبعدتْ عنه أيَّ تأمّلٍ أو تفكير في نواميس الحق، والعدل، والصدق، وصرفته عن أي سبيلٍ من سبل الهداية، واتباع السلوك القويم.. أما علَّتُهُ ـ في

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

الأساس ـ فتدور في رحى كفره وتكذيبه بآيات الله تعالى؛ ولعلَّ المثالَ المشهورَ في القصص الديني على هذا النموذج من البشر كان بلعم بن باعوراء، أحد علماء بني إسرائيل، الذي رُوي أنه كان عالماً، زاهداً، داعيةً إلى الصلاح.. ولكنْ، ويا للأسف، أنصاع لغُلاةِ بني قومه، فراح يتقوَّل على النبي موسى عليه السلام بما ليس فيه، مقابل ما أغروهُ به من الذهب والفضة.. ولذلك أنزلَ الله تعالى، في معرض الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل في سورة الأعراف، الآية الكريمة التي تحمل خبرَ ذلك الرجل، وفيها الأمرُ إلى رسوله محمد ﷺ أن يتلو نبأه على اليهود حتى يكونَ لهم شاهداً وعبرةً.. قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].. فالواضح من النص القرآني أنَّ إيمانَ بلعمَ بن باعوراء كان إيماناً باللسان فقط، أي لم يكن مبنياً على الإخلاص لله تعالى، فلم تصاحبْهُ مُثُلٌ رفيعةٌ تهمُّهُ، ولا قيم أخلاقية تربطه، فما إنْ زُيِّن له عَرَضٌ من أعراض الدنيا حتى تحلَّلَ من مصاديق العلم والمعرفة التي آتاه إيَّاها الله تعالى، فتنَصَّل منها، وانسلَّ من رحابها، كأنه ينسلخ من تلك الآيات الربانية كما تنسلخ الحية من جلدها.. ولكنْ إلى أين، وقد أدركه الشيطان، يُزين له أعماله، حتى أرداه، فانزوى في ظلمات الطمع والشهوة، وتمنطق برداء الضلال والكفر والنفاق، ليس له من شيء إلاَّ التلقّي مما يليه عليه الشيطانُ،

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ ـ ١٧٦.

فكان من الغاوين. . ولو شاء الله ـ تعالى ـ لجعلَ له مكاناً بالآيات التي تعلَّمها، ولكنْ، يبدو أنَّه كان في علم الله السابق، ما تهفو نفسه إليه من السوء، فأركسه ربُّهُ تعالى في الحضيض، فركن ـ باختياره ـ إلى وحل الأرض وخبيثها، حتى انعدمت في نفسه كل معاني الحق والخير، وغلبت عليه كل أفاعيل الباطل والشرّ، فانخرط في صفوف هؤلاء الكافرين الظالمين، الذين يعيثون في الأرض فساداً، وهم يدورون في غياهب الأهواء، وينزلقون في متاهات الضلالات بلا هادٍ لهم في الدنيا، ولا ناصر لهم من عذاب الله في الآخرة. . والعبرة في التعقيب: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهو ما أمَرَ به الله تعالى رسولَهُ ﷺ، بأن يقصَّ على اليهود خبرَ ذلك العالم، وأخبارَ غير مما يتناوله القصص القرآني، لعلَّهم يتفكّرون فيها، فيرتدعون عن غيِّهم؛ ويبقى أمرُ ربِّنا ـ جلَّ وعلا ـ نافذاً، لكي يقصَّ المسلمون على مسامع الكافرين ما جاءَ به القرآنُ من القصص، التي تحمل العظات البالغة، لعلَّهم يتدبَّرون تلك العظات، فيقبلون على الإسلام وينهلون من القرآنِ ما فيه هدى ورحمة. .

٤ ـ إنكار البعث والحساب

على الرغم من أن العدل من المقومات الأساسية في الوجود البشري، وقد أنشأت دول العالم جميعها المحاكم العدلية والجزائية ـ بل والدولية ـ لمحاكمة المتهمين، وعلى الرغم من القناعة التامة لدى كل إنسانٍ عاقلٍ بأنَّ العدلَ ضرورة لا غنى عنها حتى تستتب الأوضاع، ولاسيما الأمن في ربوع أي بلدٍ من البلدان. . على الرغم من ذلك، فإنَّ كثيراً من الناس لا يؤمنون بالعدل الإلهي، وسبب ذلك إنكارهم

البعث والحساب، إذْ يتوهمون أنَّ الإنسان تنتهي حياتُهُ بالموت، فلا حياة بعدَه، ولا آخرة.. مع أنَّ كل الكتب السماوية، قد حفلت بالآيات البيّنات التي تتحدث عن يوم القيامة، وأنَّ الله تعالى يبعث من في القبور، وإليه النشور، حتى يلاقي كل إنسان جزاءه، وإلاَّ فأيُّ عقلٍ يقبَلُ بأن يفلتَ كثيرٌ من المجرمين من عدالة الأرض فلا يطالهم عقاب الله ـ تعالى على جرائمهم؟ بل وأيّ عاقلٍ يقبلُ بأن تطغى فكرةُ إنكار البعث والحساب على النفوس حتى تسود شريعة الغاب بين الناس؟! ولو أنَّ المستكبرين، والظالمين يتفكرون بأعمالهم لكان جديراً بهم أن ينصفوا أنفسهم أولاً، فيبتعدوا عن أعمالهم، وأنْ ينصفوا من ثَم الآخرين فلا يبقى الناس عرضةً للقلق، والهمّ، والتعاسة التي يورثها الظلم في حياتهم، ولا يبقى المؤمنون عرضةً للهجمات التي يشنونها عليهم تحت ستار ذرائع لا أساس لها من الصحة!.. ونحن نقول ذلك لأنَّ الموتَ حقيقة راهنة، فلا يمكن أحداً أن ينكرها، بل ونقول ذلك لأننا نؤمِنُ بأنَّ البعثَ حقيقةٌ يقينية مثل الموت، وبأنَّ الحسابَ لكل إنسانٍ آتٍ لا محالة، ولأننا نؤمن تبعاً لذلك بأنَّ الجنة حق، وأنَّ النارَ حقٌّ ولكل إنسانٍ ما سعى.. فهلاَّ يعود المنكرون إلى رشدهم ويتفكرون في أنفسهم بتلك الحقائق؟!

وهنالك حقيقة أخرى لا تقل أهميةً، وهي أنَّ الذين يؤمنون بالبعث إنَّما يعتنقون عقائد، أو يتخذون مذاهب فكرية، غالباً ما تجعلهم يعرضون عن الحق المبين، الذي وحده يقيم الموازين الحق، ويهدي للتي هي أقوم.. بل ويحاربون الحق المنزَّل من الله تبارك وتعالى، ولذلك كان من معين القرآن الذي لا ينضب، توكيده مراراً وتكراراً، ليس على حقيقة البعث والحساب وحسب، بل وشدّ انتباه

الإنسان إلى عدل الله ـ تعالى ـ الذي يجازي كلَّ إنسان على ما يستحق من الأجر العظيم، أو العذاب الأليم.

أضف إلى ذلك أنّ الكافرين ـ وقد أعرضوا عن حقيقة وجود الله تعالى، وعن حقيقة القرآن ـ لا يقيمون وزناً ولا اعتباراً لعدالة آتيةٍ لا محالة ـ بعد البعث ـ ولذلك نجدهم يجحدون النعم التي منَّ الله تعالى بها على عباده، ويعتبرون ما هم فيه من النعم من عندهم، من صنع أيديهم، وينكرون، تبعاً لذلك، أنْ يكون القرآن منزَّلاً من عند الله ـ تعالى ـ وأنَّ محمداً ﷺ هو رسول الله، وخاتم النبيين!..

والقرآن يعطي عن هؤلاء الكافرين صورة واضحة، يستقيها من واقع حياتهم هنا، في هذه الدنيا، ليبيّن لهم أنَّ إنكارهم للبعث، والحساب هو ضد مصلحتهم، وضد المنطق الذي به يدّعون، والعقل الذي به يتميزون. وهذه الصورة يُظهرها القرآن الكريم في سؤالِ أهلِ الجنة للمجرمين عن الأسباب التي أدخلتهم في النار؟! فيقرّون بجرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا، سواء بحق أنفسهم، أم بحق الناس الذين ظلموهم، وبخاصة تركهم للصلاة تعبّداً لله تعالى، وعدم الاهتمام بالمساكين.. وأكبرُ من ذلك الاعتراف بجريمتهم النكراء وهي الخوض والمشاركة في الدسّ على المؤمنين، وتكذيبهم بيوم البعث والحساب.. وهذا بعضُ ما نفهمه من قول رب العالمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[1] ويوم الدين هو يوم الحساب، واليقين هو الموت.

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٢ ـ ٤٧.

٥ ـ الإعراض عن آيات الله تعالى

يقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾(١).

ومن هم المعرضون عن ربهم، والمعرضون عن الاتعاظ بآيات قرآنه المبين، غير الكافرين وأمثالهم.. قد يعترفون ـ ولو عرضاً ـ بحقيقة وجود الله تعالى، ولكنهم يخالفون، في واقع حياتهم كله، أوامره ونواهيه..

ويأتي النص القرآني ليدلَّ ببلاغة ما بعدها بلاغة، وبتصوير دقيق ورائع، على حالة الإعراض عن آيات الله تعالى وعن الاتعاظ بها، وذلك عندما يشبه هؤلاء المعرضين كأنهم في إعراضهم مثل حُمُرٍ وحشيّةٍ تفرُّ لرؤية الأسد خوفاً من افتراسه.. وهذا التشبيه لأنَّ آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هي الفيصل القاطع لكل معتقدٍ منحرف، وهي كفيلة بالقضاء عليه بتاتاً، ولذلك هم يعرضون عنها، خوفاً من أنْ تقضي على معتقداتهم وأطماعهم الدنيوية، كما تخاف الحمر الوحشية على حياتها من الأسد!..

وهذا التشبيه أو التصوير من بديع القياس التمثيلي لأنَّ الإعراض عن آيات الله تعالى هو دليل الجهل والضلال، فكأنهم مثل هذه الحيوانات البريّة المستوحشة لا يعقلون..

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٩ ـ ٥٦.

ولكن لماذا هذا الإعراض عن الإيمان، وعن ذكر الله تعالى وآياته؟ بل ماذا يريد أهل الكفر والإلحاد؟ وكأننا بكلِّ امرئ منهم يريد أنْ يُنزَّل عليه كتابٌ من السماء يدعوه إلى الإيمان، أو يقول له هذا هو القرآنُ، كتابُ الله المبين فاتّبعه. أو كأنَّ كل امرئ منهم يريد أنْ تُنزَّلَ عليه صحيفةٌ فيها براءةٌ وعفوٌ له عن كفره وإلحاده، وعن العقاب المعدّ له، حتى يؤمن، أو كأن كلَّ امرئٍ منهم يريدُ أنْ يدخل جنة نعيم بلا منةٍ ولا رحمة من الله ـ والعياذ بالله ـ حتى ولو كان من المعرضين عن آيات الله ! . . . ؟

كلا! لن يكون لأحدهم شيء من ذلك. . بل هم لا يخافون الآخرةَ ولا يذكرونها أبداً؛ وكيف لهم أنْ يؤمنوا بالآخرة، وقد أعرضوا عن آيات الله التي تؤكد أنها حقيقة ثابتة، وتذكرهم بما فيها من الجزاء؟! كلا، أيها المعرضون إنَّ الحقّ حق، وليس كما تتصورون أو تتوهمون، فهذا القرآن تذكرة لكل عبد منيب، فيه آيات منزلاتٌ، وعظات بينات، فمن شاء آمنَ بأنَّهُ عند الله تعالى، فأقبل عليه يقرأه، ويفهم معانيه حتى يتّعظ، ويسير على هديه. . وما يؤمنون بهذا الكتاب المجيد، وما يتذاكرون آياته، ويتدبرونها بعقولهم وقلوبهم إلاَّ أنْ يشاءَ الله تعالى ذلك؛ فهو سبحانَهُ صاحب الشأن، وبيده ناصية كل إنسانٍ، ومن واسع رحمته أنْ أنزل القرآن، وجعلَهُ آيةً معجزةً بين أيدي الناس، حتى يقبلوا عليه فيؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنةٍ. . أما أنَّ الناس لا يفعلون ذلك فأعرضوا عن كتاب الله، فإنَّهُ سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عبادِهِ، أهل بذاته لأن يُتقى ويُعبد، وهو سبحانه أهل لأن يغفر لمن تذكّرَ، فذكر اسم ربه فصلّى واتّقى. .

هذه «الصفات» التي تطبع نفوس الكافرين ـ وأمثالهم ـ بأمراض

النكران والجحود لرب العالمين، هي التي تزين لهم أعمالهم في الدنيا، فيرضون ـ واهمين ـ عن تلك الأعمال، في حين أنها ـ في الحقيقة ـ سراب خادع تشدهم أكثر إلى الابتلاء حتى يكون العقاب أشد وأقوى!.

وما درى الكافرون ـ والمعرضون عموماً ـ أنهم وهم أحياء على هذه الأرض كأنهم موتى في إصرارهم على الكفر والإعراض عن آيات الله تعالى، واستكبارهم عن الإيمان الحق.. ويصوِّر القرآن كل واحدٍ من هؤلاء بمثابة الميت لقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]. نعم، الموت والحياة هما أهمُّ حدثين في الوجود البشري، وذلك لأنَّ فيهما البداية والنهاية للإنسان على هذه الأرض، وكلَّ ما يقوم به أو يُجريه، وما يجري عليه خلال مدة العمر التي تتعقَّبه بينهما.. أمَّا أهمية الحياة فلأنها تجسّد وجود الإنسان ككائن حي، يطمع ـ منذ تفتح وعيه ـ لتحقيق أمانيه وطموحاته المادية والمعنوية، التي قد ينالُ قسطاً وافراً منها، أو قد لا ينال إلا شيئاً زهيداً ممَّا تمنَّى وعمل له!..وأما أهمية الموت فلأنَّه أمر حتمي على رقبة الإنسان ولا مفرَّ، أو محيدَ عنه، يحلُّ به لينتزع وجوده من على هذه الأرض، فلا يبقى له من أثر أو ذكر إلاَّ من ثلاث: صدقه جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له، كما هو مرويّ من حديث رسول الله ﷺ.

وأما المجرمون ـ من بين هؤلاء الناس فإنَّ التاريخَ يذكرهم،

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

ويحفظ جرائمَهم، ليكونوا مثالاً للشر، والباطل، والشرك والكفر الذي أتوه، وليكونوا أيضاً عبرةً للأجيال لعلَّ فيما اجترحوا من السيئات ما يجعل أمثالهم يتعظون، فيرعوون!..

ولذلك فإنَّ القرآن الكريم في تركيزه على قيمة الحياة الإنسانية، أول ما يجعل الأساس المتين ـ بل الجوهر ـ الذي تقوم عليه هذه الحياة هو الإيمان الصادق، وهو يقرّب هذه الحقيقة إلى أذهاننا بمثالٍ حيٍّ عن الكافر الذي يعتبر ميتاً في قيمته المعنوية، حتى يهديه الله تعالى إلى الإيمان، فتكون هذه الهداية هي القيمة المعنوية الجديدة التي تهبه حياةً طيبةً جديدة، ويكون إيمانُهُ النورَ الذي يمشي به بين الناس.. ومثل هذا الإنسان الذي صار حيّاً بإيمانه ليس كمن هو في ظلمات الكفر ليس بخارج منها، ومن هنا كان تشبيهُ القرآن للإيمان على أنه حياة ونور ـ وهو كذلك فعلاً ـ وتشبيهُهُ للكفر بأنه موت وظلام ـ وهو كذلك فعلاً.

صورتان متقابلتان ـ متضادتان ـ تعرضهما الآية القرآنية الكريمة: الصورة الأولى تمثل إنساناً ميتاً فأحياه الله ـ تعالى ـ من جديد.. ولكن استخراج المعاني للصورة يبين أنَّ مثل هذا الإنسان كان غارقاً في الكفر، حتى سيطر على نفسه، وجعله بمثابة الميت، إلى أن امتدت يدُ الله ـ تعالى ـ له بالرحمة والهدى، فقذف في قلبه نور الإيمان الذي انتشله من الكفر ووهبَهُ حياةً جديدة بذلك الضياء الذي ملأ جوانب نفسه، وشعشع سبل عيشه بين الناس؛ وهذا النور هو القرآن الكريم، وأنواره وإشعاعاته هي الحكمة والعلم والعظة والبيان والخُلُق والفضيلة، وكل ما فيه خير الإنسان وصلاحه... مع الإشارة إلى أنَّ تسمية القرآن بالنور قد جاءت في آيات كثيرة مبينة.

الصورة الثانية: إنسان حي ولكنه يعيش في الظلمات التي تحيط به من كل جانب، فلا يملك أية قوة أو وسيلةٍ ليخرج منها. ولكن ما هي هذه الظلمات؟ إنها ظلمات النفس التي تختزن في طياتها كل حالك أسود من همّ، وقلق، واضطراب، وتعاسة وشقاء.. وهي ظلمات العقل الجاهل، المنحرف، الضال، الجاحد، المنكر، المستكبر.. وهي كذلك ظلمات السلوك الضّار، القاتل، المهلك..

ظلماتٌ فوقَ ظلمات يعيش في دياجيرها مثل هذا الإنسان، ولِمَ؟.. لأنه كافرٌ ضالٌ.. إذْ لا شيء غير الكفر الذي يجعل الإنسان يقبع في ظلمات الجهل، والضلال والغي والفساد، وغيرها من المعميات حتى لا يعود يميّز معنىً للنور، ولا يرتقب معنىً للهدى!. وهو مع ذلك قد يستمرئُ أوضاعه ويستحبُّ عماه، فسيان عندَه ما يسمونه «إيماناً» أو «كفراً»، وسيَّان عنده إنْ أشارَ الناسُ إلى بعض الأمور والقضايا فقالوا عنها «حقائق»، أو قالوا عنها «أباطيل».. مقياسُهُ الوحيد أهواؤه، ومطامعه!. وإنسانٌ من هذا القبيل هل يمكن أنْ نتصور أنه قد يهتدي إلى حقيقة الإيمان، ونورها الوضاء؟ أبداً. لأنّ الحقائق لا تعيش إلا في النور، وهو يعيش في ظلمات فوقها ظلمات!..

وإذا كانت هذه أحوال الكافرين، فماذا عن أعمالهم؟ أو على الأصح كيف ستكون عليه تلك الأعمال في ميزان العدل الإلهي؟

قد يجني الكافرون ثمارَ جهودهم في الحياة الدنيا، وقد يحققون المآرب التي يصبون إليها، ولكنّها جميعاً عند الله ـ عزَّ وعلا ـ لا تعدو أنْ تكون بمثابة هباءٍ منثورٍ، أو رمادٍ تذروه الرياح العاصفة، يقول الله

تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[1].

ذلكَ أنَّ أعمال الإنسان من شأنها أنْ تعكس ما في نفسه، حتى قيل: «الأعمال مرآة النفس».. فالنفوس المؤمنة الصافية، من شأنها أنْ تُشيع الأعمال الخيّرة، بينما النفوس الكافرة المضطربة لا بُدَّ وأنْ تعكِسَ الأعمال الشرّيرة؛ وما ذلك إلاَّ لأنَّ أعمالَ الإنسان هي بمثابة السبل التي تقوده إلى الغايات التي يرومها، فتراه يجهد، ويشقى ويعقد الآمال ويبني الأحلام، وليس له ـ في الحقيقة ـ إلاَّ ما قدَّرَ الله تعالى له في دنياه وآخرته، وهذا بالذات ما يغيب عن بال الكافرين، فيظلون في غيِّهم يعمهون.. إلاَّ أن القرآن الكريم يحذِّرهم من هذا الغي، عندما يبيّن لهم أنَّ أعمالهم لا جدوى لها، ولا نفع منها في ميزان الحق، إذْ يشبِّهُ أعمال الكافرين، ومآلها ونتائجها كرماد، والرماد يكون هشاً خفيفاً قابلاً للانتشار بسرعة، فكيف إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف. ورياح الأيام العاصفة قد تقتلع كل ما يعترض اندفاعها من شجر، وبناء، وجسور، فكيف بالرماد حيث تذروه وتبعثره ذراتٍ خفيفة بحيث لا تعود ذرة متماسكة مع أخرى، فينعدم وجوده بتاتاً!.. هكذا أعمال الكافرين هي مثل هذا الرماد الذي جاءته ريح عاتية قوية وشديدة، فلا بُدَّ وأن تذهب يومَ الحساب أدراج الرياح، وكأنها لم توجد بتاتاً.. ما يعني أنَّ كلَّ مكاسب الكافرين وثرواتهم، وأمجادهم، وكلَّ أعمال الغطرسة، والتكبّر ـ بل وأعمال الخير التي قد يؤتونها ـ كل ذلك سوف يكون بلا فائدة، ولا يقدر الكافرون أن يجنوا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

منها أيّ ربح أو فوزٍ يوم الحساب، بل كلما زادت أعمالهم وآتت ثمارها، كان ذلك وبالاً عليهم، لأنَّ الأعمالَ، إنْ لم يكن فيها شيءٌ لله أو شيء يرضي الله تعالى، فإنَّها باطلة من أصلها.. وأعمالُ الكافرين ما كانت إلاَّ لمجدهم الدنيوي، فلا حسبانَ لها عند الله تعالى، إذْ يكفي أنهم نالوا ممراتها في الدنيا حتى لا يكون لها ثوابٌ في الآخرة.. هذا ما أرادَ أن يبيّنه المثل القرآني.. فالمثالُ واضحٌ، والطريق واضح.. فما كان من أعمال الإنسان خالصاً لوجه الله تعالى، موافقاً لشرعه، نافعاً للحياة، كان مقبولاً ونالَ الإنسانُ عليه الثواب. وما كان لغير الله ـ عزّ وجلّ ـ ومخالفاً لشرعه، ومضراً بالحياة، كان غير مقبول، وهو لن يتبدَّد ويتحسَّر عليه صاحبه وحسب، بل ويؤدي به إلى نار جهنم المستعرة وما فيها من ألوان العذاب الشديد..

ويعقب القرآن على أعمال الكافرين بما يتوافق والسبل التي طرقوها للقيام بها، والنهاية التي قادتهم إليها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾. الضلال عن إدراك الحقيقة، والضلال عن الإيمان، والضلال عن الفائدة الشخصية، والضلال الذي يقود إلى الوقوع في مهاوٍ سحيقة مُحْرِقة..

هذا هو شأنُ القرآن الكريم، فهو واضح، وضوح الشمس، في تبيان ما يترتب على أعمال الناس من نتائج حتمية. وما على الإنسان إلا أنْ يتأمل في آيات هذا الكتاب المبين، وأنْ يدرك حقيقة معانيها، ثم يقرر ما عليه القيام به.. وطريق الرجوع إلى الله تعالى نافذٌ أبداً ومستقيم، وهو التوبة الخالصة التي شرَّعَ الرحمنُ أبوابُها لعباده.. أجل يا عبادَ الله، إنَّ بابَ التوبة مفتوح دائماً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد.

المنـافقون

المنافقون وصفاتهم

من أسوأ العادات وأنكرها، التي تأنفها الطباع الصادقة، عادة النفاق. وهي عادة ذميمة تولد مفاسد كثيرة مثل الكذب، والحيلة، والمراوغة، والمداهنة، والمراءاة، وما إليها من صفات سيئة، وأعمال شنيعة...

وطبيعة الإنسان، بالفطرة السليمة، ليس فيها نفاق في الأصل. ولذلك فإن النفاق لا يولد مع الإنسان، بل هو يكتسب في الحياة اكتساباً، تدفعه إليه عوامل نفسية إطارها الضعف والهوان، وتشده إليه منافع مادية دائرتها الخبث والدهاء. وبما أنَّ الإنسانَ عليه التزامات متنوعة تجاه ربه، ونفسه، وعائلته، ومجتمعه، والإنسانية بأسرها، فعندما يتفلّتُ من هذه الالتزامات، أو يمتنع، ويتقاعس عن القيام بما هو مطلوب منه بصدق وإخلاص ـ وهذا ما يفعله كثيرون في أيامنا هذه ـ حينها يكون النفاق قد دخل قلب هذا الإنسان، وعشش السوء في نفسه. ومع الزمن يمرد على النفاق فيصبح طبعاً متأصلاً فيه، هو الذي

يتحكم بتصرفاته، ويسيّره وفق الرغائب، والشهوات، والأهواء، التي تظهر أكثر ما تظهر في الظلم: ظلمه لنفسه وللآخرين. .

إنّ المنافق عندما يبدأ بمخالفة التزاماته، الخاصة منها أو العامة، فإنه يحاول التملّص من اللوم، أو التخلّصَ من الشعور بالذنب، أو العقوبة التي قد تطاله، بانتحال الأعذار الكاذبة، ثم يتمادى في الكذب، فلا يعود يَصدُق بعدها في قول أو فعل، حتى يغدو خائناً لنفسه، وواجبه. ومع الأيام يستمرئ ما قام به، فتحلو له أكاذيبه، ويستسيغ طعم خيانته، فيمرد على النفاق، ويمارس كلّ أسلوب من أساليب المراوغة والمخادعة، ويسلك كل سبيل من سبل الالتواء والتلاعب. هكذا ينشأ النفاق، وهكذا يكتسبه الإنسان، ذو النفس الأمّارة بالسوء.

وهذا النفاق قد يطال بآثاره كل الناس الذين يعرفهم المنافق، أو يتعامل معهم. . لأنَّ خداعَهُ غالباً ما ينطلي على الآخرين، فيما يُظهر لهم من التقرّب، والمودّة، والبذل والعطاء ـ أحياناً ـ وبما يمالئهم به من مشاركة، وتعاون، وما إلى ذلك من المشاعر والأساليب التي تكون في أساسها، كذباً بكذب، إلاَّ أنه يبرع في ممارستها. . والعجيب في الأمر أنَّ مِنَ الناس مَنْ قد يعتبرونه حاذقاً ذكياً، أو شهماً كريماً ولذلك تنطلي عليهم ألاعيبُهُ، وتغرّهم أكاذيبُهُ. . تلك هي أولى صفات المنافقين، أي الكذب، التي يشهدُ عليها ربُّ العزة والجلال من فوق العرش العظيم، بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(١).

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ١.

والمنافق مخلف لوعده وعهده. وهذه أيضاً قاعدة عامة وثابتة يفترق فيها المنافق عن غيره من الناس. .

ذلك أنَّ المنافق يُظهر، عادةً، غيرَ ما يبطن للوصول إلى أغراضه وتحقيق مآربه. فهو لا يتورع كي يُخلفَ بالوعود التي قطعها على نفسه عن استخدام أية وسيلة، لأنَّ الغاية عنده تبرر الوسيلة، فيمكن أن يتآمر، ويدبر المكائد، وقد يضحّي بأمور مادية وغير مادية كثيرة، وقد يتوسل أو يتذلل، وقد يستخدم أساليب إجرامية معيّنة من أجل الوصول إلى مطامعه الدنيئة، ولذلك تراه دائماً يفتش عن اختلاق الأعذار لكي يتهرب من وعدٍ قطعه، أو ينكث بعهد التزم به، بل ولا يتوانى عن الحنث بما يحلف أو يقسم به، ولو حلَفَ أو أقسم بأقدس المقدسات! .

والنموذج لهؤلاء المنافقين، الذين ينقضون العهود، ويحنثون بالوعود، يبرز في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[1]. وإذا كان هذا حال المنافقين مع الله - عز وجل - مالك الملك، القدير على كل شيء، الذي يعلم ما تسرُّ القلوب، وما تخبئ الصدور، . . وذلك بما يُخلفون من الوعود التي يقطعونها على أنفسهم، ويتولون ويعرضون عن الوفاء بعهودهم مع ربهم! . . فكيف يفعلون مع الناس، مع عباد الله الذين لا يملكون حولاً ولا

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥ - ٧٨.

طولاً من قدرة الله تعالى ومشيئته؟!.. فسبحان الله الذي أعقب المنافقين نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ما وعدوه، وبما كانوا يكذبون.

اتّباع الشيطان...

ومن صفات المنافقين: اتباع الشياطين: شياطين الجن والإنس، والسفاهة، والاستهزاء، والضعف، والوهن عن اتخاذ المواقف الحاسمة، والإفساد في الأرض..

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[1].. أجل ذلك فعلُ الشيطان في ملاحقة أعداء رسول الله ﷺ ليوغر صدورهم بالحقد عليه وعلى المسلمين.. إذْ كما هو ثابت، فقد هاجر النبيُّ ﷺ من مكة إلى يثرب بأمر من ربه تعالى؛ وهناك أعزَّ الله تعالى الإسلام، فلم يبقَ في المدينة بيت إلاَّ دخله الدينُ الجديد. ولكنْ يبدو أنَّ الذين دخلوا في هذا الدين، لم يدخلوا جميعاً عن قناعةٍ واختيارٍ، بل كثير منهم خاف على نفسه وعلى مكانته في قومه، فاضطر للتظاهر بالإسلام، بينما كان في دخيلة نفسه كارهاً لهذا الدين، معادياً لرسول الله ﷺ الذي يدعو إلى دين الله . وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق والشرك، وكبير المنافقين في المدينة، بحيث لم تظهر فتنةٌ في ذلك الحين، إلاَّ ويكون له ضلع فيها، إنْ لم يكن هو مدبِّرَها.. ولشدة ما استشرى النفاق، فإنّنا نجدُ هذا التركيز على ذِكرِ المنافقين،

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

ووصفِ دسائسهم، والتنديد بمؤامرتهم وسلوكهم، في كثيرٍ من السور التي أنزلها الله تعالى في المدينة المنورة، ومثاله ما وردَ في الآيتين المذكورتين آنفاً، حيث نرى صورة أولئك المنافقين وهم يرتدّون عن الإسلام، بعدما تبين لهم أنه الهدى من الله تعالى،وأنّه الدينُ الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور.. وحركة الارتداد تلك ترتدي طابعها الحسي في التعبير بالارتداد على الأدبار، أي بحركة الرجوع إلى الوراء ـ بالنفاق ـ بدلاً من التقدم إلى الأمام ـ بالدخول في الإسلام ـ وهو تصوير لا يتسنَّى إلاَّ للقرآن المبين إبرازُهُ بالحركة والفعل وما انطوى وراءهما من غايات؛ فالارتداد عن الإسلام هو بخلاف التقدّم تماماً، وفي هذا ما يكفي لبيان هذا الارتداد وآثاره.. ثم إنَّ وراء كلِّ ابتعادٍ عن دين الله يكمن ـ دائماً ـ الشيطان، الذي كان يوسوس في صدور المنافقين، ويسوِّل لهم، ويملي عليهم بأنْ لا يطمئنّوا للإسلام، لأنَّه يعلم في قرارة نفسه أنه للهدى، والخير والسعادة، وهو لا يريد ببني الإنسان إلاَّ الضلال، والشرَّ والشقاء، فكان من نهجه، ودأبه أنْ يُملي عليهم النفاق، وهو يزيّن لهم الاغترار بمكانتهم، ومعاداة الإسلام للحفاظ عليها، وأن يشحن نفوسهم بالكراهية لهذا الدين ورسوله، بما يتوافق مع توجهاتهم ومآربهم.. ولقد نجح الشيطان بما زيّن لهم، فاغتروا فعلاً حتى غلب عليهم النفاق الذي جرَّهم إلى الانحراف عن الحق، والارتداد عن الهدى..

ويوضح النص القرآني هنا حالة واحدة من تلك الحالات التي كان الشيطان يملي فيها على المنافقين، وذلك بأنَّهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل الله: سنطيعكم في بعض الأمر...

والذين كرهوا ما نزَّل الله تعالى هم المشركون عموماً، واليهود

خصوصاً. فاليهود كانوا يتوقعون ـ ويتمنَّون ـ أن يكون النبيُّ الموعود، الذي أطلَّ زمانُهُ والذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، من بني يهود.. فلَّما رأوا محمد بن عبد الله ﷺ، من قبيلة قريش، سيدة العرب، ومن أبناء مكة المكرمة، البيت المقدس عند العرب حتى في جاهليتهم.. لم يصدقوا، بل ولم يقبلوا، وكأنَّ الأمر بيدهم!!.. ولم تكن توجهات وتطلعات المشركين بأقلَّ عداوة للإسلام والنبيِّ وإن اختلفت بعض الشيء في مقاصدها عمَّا عند اليهود، فتوافق الطرفان على العداوةِ، للإسلام ورسوله؛ ولكنَّ ضعفهم عن مقاومة المسلمين جعلهم يُخبتون، وينصرفون إلى الدسائس والمؤامرات، والكيد للإسلام وأتباعه. فاتخذوا من المنافقين مطيَّةً لتنفيذ مآربهم، فكانوا يجتمعون في السرّ؛ ويعطونهم التعليمات التي يتّبعونها، فإذا كانت ممَّا لا يطيقه المنافقون، قالوا لهم: سنطيعكم في بعض أوامركم، وليس جميعها، حتى لا يفتضح أمرنا من المسلمين!.. وعلى هذا الدأب سار أعداء الإسلام في المدينة المنوّرة.. ولكن غاب عن بال جميع الذين كرهوا ما نزَّل الله تعالى، أنَّ الله يعلم إسرارهم، وما يحوكون في السر والخفاء، وأنه علاَّم الغيوب لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء!.. فتلك الحالة من الطاعة والامتثال لأوامر رؤوس الشرك ودهاقنة اليهود، تبيِّن حقيقة نفوس المنافقين، إذْ كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويعيشون بين المسلمين، بينما هم ـ في قرارة أنفسهم وفي اجتماعهم مع أهل الغي والضلال ـ كانوا ألد أعدائهم، لأنَّهم أعوان الشيطان وأتباع الأهواء؛ فقبحاً لأولئك المنافقين الذين يؤثرون ما يسوّل لهم، وما يملي لهم الشيطانُ على طاعة الرحمن، وطاعة رسوله الرحيم!.

ومن صفات المنافقين أيضاً السفاهة والاستهزاء. .

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

ويظهر القرآن الكريم، في سورة البقرة المباركة بعضاً من طبائع المنافقين: إنهم سفهاء. وإنهم مستهزئون. ذلكما مبلغ ما يمكن أن يصل إليه المنافقون من الصفاقة، فهُمُ الذين يقرّون، ويعترفون، فيقولون عن أنفسهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾. . ومن يدرك معنى الاستهزاء يعرف مدى ما يحمل من حقارة ودناءة. .

ولنلاحظ هذا التلوّن في السلوك الذي كان يعيشه المنافقون:

فالمؤمنون يدعونهم إلى الإيمان الصادق، المتجرد عن الهوى. يدعونهم لأن يسلموا وجوههم لله تعالى، ويسلّموا مقاليد أمورهم لخالقهم. ويدعونهم لأنْ ينضووا تحت راية الإسلام فيطيعوا الرسولَ الكريم الذي يحمل هذا الدين نورَ هداية لهم وللناس كافة. . والدعوةُ للإيمان من شأنها أنْ تحمل في طياتها إبعادَ الناس عن الخصائص الحيوانية، والارتقاء بهم إلى الكمال الإنساني، ولكن ماذا كانت ردة الفعل عند المنافقين: كانت اغتراراً واستعلاءً واستكباراً بغير حق.

قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾. .

وهل يقصدون بـ«السفهاء» إلاَّ الأوس والخزرج، الذين كانوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣ ـ ١٥.

أهلَ الدار والإيمان، فرفع العليُّ العظيم من عليائه مقامَهم فسماهم: الأنصار؟! أوِ الفقراء والمستضعفين الذين دخلوا في الإسلام مختارين، مسلمين وجوههم وقلوبهم لرب العالمين؟! أم أولئك السادة والأشراف من قريش، وهم الذين تخلوا عن كل شيءٍ في موطنهم مكة، وهاجروا مع رسول الله ﷺ هرباً بدينهم، وتخلُّصاً من فتنة المشركين لهم؟!.

وجاءهم الرد الحاسم، والتقرير الجازم من السميع العليم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أجل! إنهم هم السفهاء بنفاقهم وخداعهم وكذبهم.. أما الذين يتهمونهم ـ ظلماً وعدواناً ـ بأنهم السفهاء، فهم المؤمنون بإسلامهم، وصدقهم وإخلاصهم.. والأدهى من السفاهة عند المنافقين ذلك الجهل الذي كان يلفُّ عقولهم حتى جعلهم لا يعلمون أنهم هم السفهاء. ومتى كان السفيه يعلم أنه سفيه، ومتى كان المنحرف يدرك أنه يميل عن الطريق المستقيم؟

وعلى نسق السفاهة، كانت حياتهم تقوم على الذبذبة في المواقف، والخداع في التنقل ما بين المؤمنين والكافرين.. فإذا لقوا المؤمنين، قالوا: آمنّا.. وإذا انتقلوا إلى الناحية الأخرى، إلى الخلوات التي كان يعقدها أعداء الإسلام، وهي تجمع المشركين، والكافرين والمنافقين والعرافين والكهان واليهود ـ الذين يصفهم الله تعالى بالشياطين، لشدة كفرهم وشركهم ونفاقهم ـ.. أجل، إذا خلوا إلى أولئك الشياطين، قالوا: إنّا على دينكم، إنما نحن نستهزئ بأصحاب «محمد»، ونسخر منهم عندما نقول لهم: آمنا...

ولكنَّ القرآن الكريم ما يكاد يحكي فعالهم وأقاويلهم تلك، حتى يصبَّ عليهم من التهديد ما يهدّ الرواسي: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وما نفع حيلهم ومكائدهم ونفاقهم وخداعهم، وجبار السماوات والأرض يستهزئ، بل ويمدُّهُم بأسباب الحيلة والمكر، ومواقف الكفر والذبذبة والنفاق، حتى تصل إلى حد الطغيان الذي يعمي بصائرهم، ليبقى الضَّلالُ يحيق بنفوسهم، ويبعدهم عن طريق الهدى.. فهم في الحيرة والتردّد قد وقعوا، وعن طاعة الله ورسوله قد انحرفوا.. يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلاَّ أنفسهم ولكن لا يشعرون.. ولسوف يظلون كذلك حتى يُقادوا إلى مصيرهم المشؤوم، فتمتد إليهم أيدي زبانية النار لتلقي بهم في جهنّم وبئس المصير.

الضعف عن اتخاذ المواقف الحاسمة...

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

لقد بات واضحاً أَنَّ في رأس الأمراض المنطبعة في قلوب المنافقين ـ حتى لا يدخلها الإيمان ـ يأتي الخداع.. ومن كان في طبعه الخداع فلا يمكن أن يتبع مسلكاً سوياً، ولا منهجاً معروفاً.. ثم إنَّ من جهالة المنافقين العمياء غلبة الظنّ عليهم أنهم يخادعون الله

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢ و١٤٣.

تعالى، وذلك بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحموا أنفسهم ومصالحهم من بأس المؤمنين، . . فما أجهلهم وما أحقرهم في هذا الظنّ والله ـ عزَّ وجلَّ ـ بيده أسرار القلوب وخفايا النفوس! إنَّ من يحاول أن يخادع الله ربَّهُ، وخالقه، وهو ذو الفضل عليه والرحمة، لا بد وأنَّ تكون نفسه قد تاهت في غيابة السوء والجهل والغفلة. . ولكن خسئ المنافقون وهم يتوهمون أنهم يخادعون الله تعالى. . فقد أوكلوا الأمور إلى نفوسهم، وما حسبوا أنه سبحانه يستدرجهم، ويتركهم في غيهم يعمهون، فلا يوقظهم من غفلتهم، ولا يوقع بهم بلاءً ينبّههم، حتى تحل بهم القارعة ويسقطوا في الهاوية بحيث يأتي جزاؤهم من جنس عملهم، فيفتضحون في الدنيا، قبل أن يساقوا إلى العذاب في الآخرة. .

ومن قبيل خداعهم ما يتعلق بركن أساسي من أركان الإسلام، هو الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. . فقد أوجَبَها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فريضةً على المؤمنين، يؤدُّونها خمسَ مراتٍ في اليوم، فكان المنافقون إذا حانَ وقت الصلاة لا يقومون لأدائها، إلاَّ وهم كسالى، متثاقلين كمن يحمل على ظهره عبئاً ثقيلاً. . مما يدلُّ على كراهيتهم للصلاة، وإنما كانوا يراؤون الناس ويمالقونهم ويخادعونهم في مشاركتهم القيام بها. . وحتى فيما يراؤون الناس به، كانوا لا يذكرون الله تعالى إلاَّ قليلاً، فلا يصلُّون كل الأوقات، ولا يحافظون على الفرائض ـ إجمالاً ـ إلاَّ قليلاً. . لقد غلب على سلوكهم الزيف والخداع بما جعلهم مترددين بين الكفر والإيمان لا يتخذون موقفاً ثابتاً ونهائياً من أحدهما. . يتقلّبون بين صفوف المؤمنين تارة، وصفوف الكافرين تارة أخرى، مذبذبين بين ذلك، لا إلى المؤمنين يتمون، ولا

إلى الكفار يتسبون. . . وهذا كله دليل على الضعف والهوان في نفوسهم، بحيث لا يقدرون على الاختيار بين عقيدة الإيمان، ومعتقد الكفر، ولا يسلكون منهجاً واضحاً، أو ينتحون ناحيةً محددة. . دأبهم التلوّن، وسيرتهم الذبذبة، ونهجهم الخداع، وعقيدتهم النفاق. . وهذا هو الضلالُ بعينه، ومن يُضلل الله فلن تجد له سبيلاً لهدايته، ولا طريقة لتقديم اعوجاجه، فيعيش على الذبذبة والنفاق! . . ومن نعمة الله تعالى على المسلمين في بداية العهد المديني أنه أنزل على رسوله الأمين من الآيات القرآنية ما يكشف عن سرائر المنافقين، ويفضح نياتهم الخبيثة، اتقاءً لشرور فعالهم، فصاروا يتقزّزون منهم قرفاً، ويتحاشون الجلوس معهم، أو معاشرتهم ظنّاً بإيمانهم. . بينما نحن اليوم نمالئ المنافقين ونداهنهم، وقد نسير في ركابهم، معلنين الولاء لهم! . . فأي مفارقة هذه التي يعيشها المسلمون اليوم خلافاً لدينهم؟! . .

الإفساد في الأرض. . .

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]. هنا يكشف الله تعالى عن حقيقة المنافق في كثير من تصرفاته المشينة: فهو لا يترك وسيلةً في

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

القول إلاَّ ويتبعها، ليظهر غير ما يبطن، ويعلن غير ما يُسرّ، فهو مثل كثير من الناس، ممَّنْ يكون حذقاً في كلامه، فيعجبك قوله، وذلاقة لسانه، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح والإخلاص! . .

ـ وهو عندما يتحدث يشدِّد في قسمه، ويشهد الله تعالى على أنه صادق القول والنية، لأنه «يخاف الله تعالى»! ! . . فحذارِ أنْ يخدعك مَنْ يكون على هذه الشاكلة بينما هو ـ في الواقع، وفي حقيقة نفسه ـ كذّاب، مراوغ لا يعرف شيئاً من برٍّ أو صلاحٍ أو خير، بل غالباً ما يكون أشد الخصام لأهل الحق والخير والإيمان! .

ـ ومثل هذا الإنسان ما أنْ يدير لك ظهره وينصرف عنك، حتى يعود إلى جبلّته التي اكتسبها، فيسعى إلى الفساد، وارتكاب المعاصي، فلا يضرب في مكان في الأرض إلاَّ ليفسد فيها. . فلا يستنكف، من أجل مصلحته، عن إتلاف البيئة، بما فيها من الزرع والنبات والثمار، إنْ أمكنه ذلك، ولا يقف أذاه عند هدم مناظر الطبيعة من حوله، بل يطاول النسل الذي يمثل امتداداً للحياة البشرية. وإهلاك النسل هنا كناية عما يعتمل في نفس هذا المخلوق من الحقد والشر والغدر والفساد، أي كل ما فيه ضرر وأذى لبني البشر! .

ـ وإذا كُشِف أمر هذا المخلوق العجيب، في سعيه للفساد وإهلاك الحرث والنسل، وقيل له: اتقِ الله يا هذا! . . ألا تعلم أنَّه تعالى خبيرٌ بنياتك، عليم بأفعالك، يسمع ويرى كل شاردة وواردة تقوم بها؟! إذا قيل له ذلك أخذته العزّة بالإثم، فثار غاضباً، مستكبراً، مستقوياً بالأعمال الآثمة من الجرائم والذنوب والمعاصي التي يرتكبها، ويفاخر بها! .

وقد يعتز المنافق بإثمه، إلا أنَّ في مواجهةِ ذاكَ الاعتزاز تهديدَ العزيز الجبّار: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. . إذ يكفيه مصيراً أنْ يكون مستقرُهُ في الآخرين جهنَّمَ التي وقودها الناس والحجارة، ولبئسَ المهاد في مقرٍّ أبديٍّ ليس أشد منه بؤساً وعذاباً. . لقد دعي المنافق لأنْ يتَّقِيَ الله تعالى، ويخاف عقابَهُ، فيترك النفاق في حياته، ولكنه استكبر وأخذته العزّة بالإثم فاستحق مصيرَهُ المشؤوم. قال الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن من الذنوب التي لا تغفر أن يقال للرجل: اتقِ الله . فيقول: عليك بنفسك».

وأنت أيُّها الإنسانُ، يا مَنْ يخاطبك القرآنُ، إذا فكَّرتَ وتأمَّلتَ في تصرفات الناس من حولك، ألا تَجِدُ كل يوم كثيراً من هؤلاء المنافقين الذين يخادعون الناس بالمظاهر، ويضارّونهم بالفعال؟!.

وفي الحديث عن النفاق لا يجوز أنْ نغفل دور النفاق اليهودي القديم والحديث في محاربة الإسلام والكيد للمسلمين فقد شنَّ اليهودُ أعتى الحملات على الإسلام، بشكل خاص، بعد معركة بدر. وذلك بما اتبعوا من نفاق وكذب، لتضليل المسلمين، وحملهم على التنكر لدينهم، من أجل إعادتهم، بالتالي، إلى الشرك والكفر. . ولكنَّ الله سبحانه وتعالى حذّر المسلمين من أضاليل اليهود وخداعهم، فأنزل قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وأهل الكتاب الذين يشير إليهم النصُّ هم اليهود. لقد ثبت لهم أنَّ الإسلام هو خاتمة الرسالات السماوية، وتبين لهم أنَّ محمداً ﷺ

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

هو خاتم النبيين. وهذا هو الحق من ربهم. ولكنهم لم يرتضوا ذلك لسببٍ كامنٍ في نفوسهم وهو: الحسد، ولذلك كانوا يجهدون، بدوافع ميولهم، وحبهم لأنفسهم، لو يردّون المسلمين بعد إيمانهم كفاراً. إلاّ إنهم فشلوا بفضل الله تعالى، وتحذيره ـ سبحانه ـ المسلمين من دسائسهم، وكيدهم وحسدهم..

ويبيّن الله تعالى وجهاً آخر من دسائس اليهود ومكائدهم على المسلمين، وذلك من خلال ما شُحِنَتْ به نفوسهم من خبثٍ ودهاءٍ، ومن رياءٍ ونفاق، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

إنها طريقة أخرى من طرق اليهود الرخيصة، ووسيلة أخرى من وسائلهم الخبيثة، فقد حاولوا، وجرَّبوا كثيراً ليعيدوا المسلمين كُفَّاراً، حسداً من عند أنفسهم.. لكنَّ جميع محاولاتهم وتجاربهم، للنيل من المسلمين، لم تفلح بشيء. ولذلك ابتدعوا هذا الأسلوب المخادع، علَّه يوقع بذوي النفوس الضعيفة من الاضطراب والبلبلة ما يجعلهم يرجعون عن دينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم؛ وهذا واضحٌ في النصّ القرآني، إذ كانت طائفةٌ من أحبارهم، وعلمائهم، ومن وجهاء قبائلهم يدعونهم أنْ يَدْخُلوا في الإسلام وضَحَ النهار، بحيث يراهم الناسُ يجتمعون مع المسلمين، وهم يظهرون الإيمان.. فإذا انصرم النهارُ تفرّقوا في الليل، فرادى وجماعاتٍ، على مجالس بعض المسلمين، وعلى مجالس العرب، ممَّن لم يدخلوا بعدُ في الإسلام، مدَّعين أنّ ما قيل لهم عن الإسلام لم يكن إلاّ أضاليل يريد المسلمون أن يغشوا بها

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

الناس، وأنَّ «دينهم اليهودي» هوأحق باتباعه!.. وهذا ـ والله ـ إظهارٌ للكفر الصراح.. أجل هذا ما كان اليهود يفعلونه لعلَّ فيه ما يحقق مآربهم في إرجاع بعض المسلمين عن دينهم.. ولكن والحمد لله لم ينجح ذلك الأسلوب الخادع، وظل المسلمون جميعاً على عهدهم باقين، يعمر الإيمانُ قلوبهم، ويقدمون الولاء والطاعة لله ورسوله، حتى كتب الله تعالى لهم النصر على أعدائه وأعدائهم.

ولا تزال خدعة اليهود وأعداء الإسلام تمارس حتى اليوم في شتى الصور والأساليب التي تتناسب وتطور الأحداث في كل جيل. وها هي الخديعة الكبرى تتمثل بما تجنِّد قوى اليهود الشريرة من العملاء للنفاذ إلى العقيدة الإسلامية وإضعاف المسلمين، وذلك من خلال الأبحاث والعلوم والآداب والفنون والصحافة وغيرها.. التي يستخدمها العملاء وأسيادهم للنيل من شأن الشريعة الإسلامية وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق، والقول المتواصل برجعيتها وعدم ملاءمتها لروح العصر.

إنها حرب الافتراء، معلنةً ومستترة، التي يشنها أعداء الإسلام بصورة دؤوبةٍ لإبعاد الناس عن الإسلام، وإبعاد الإسلام عن الحياة تحت شعار: الإشفاق عليه من الحياة، أو الإشفاق على الحياة منه!!..

إنها الحرب اللئيمة المبتدعة لتشويه حقائق الإسلام المطلقة، وقيمه الروحية والأخلاقية..

والعجيب في الأمر أن يكون من أولئك العملاء والمأجورين مَنْ يحملون أسماء إسلامية، أو ينتسبون ـ فقط ـ إلى الإسلام، وما هم

من الإسلام في شيء، بل وأكثر عجباً أنْ يشهروا سلاح أعداء الأمة الإسلامية، ليثيروها حرباً شعواءَ على المسلمين، ودعوةً سافرةً إلى الضلال.. وهؤلاء، مع غيرهم من مختلف البلدان والجنسيات باتوا يشكلون نوعاً من الجيش المتخفي، الذي أنعم عليه أسياده بالوظائف، أو الجنسيات، أو غيرها من لُعاعة هذه الدنيا، حتى يرتكب أفراده الجرائم النكراء التي تظهر في طباعة أسمائهم على كتب أقل ما يقال عنها أنها عناوين للقباحة والسوء واللعنة على أصحابها[1].. أوليس هؤلاء العملاء والمأجورون مما ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾... إنهم يَظهرون أمام الناس بلباس الإسلام، وبكلامٍ عن الإسلام وبمطبوعات عن الإسلام.. ولكن ما أنْ تحلّ مواعيد الاجتماعات، وتنعقد المجالس السريّة وغير السريّة، ويخلون إلى شياطين الكفر والإلحاد، حتى يخلعوا رداء الزيف، ويقدموا ولاء الإذعان للكفّار والدولار!. إنهم يقومون بالدور نفسه الذي قامت به تلك الطائفة من أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ.. ولا يزال الأمر يتعاقب، ولا تزال المؤامرة تحاك، والخديعة تسري، ولا يتغير إلا الشكل والإطار، مع تغير الأشخاص والفجّار، بحكم الزمن.. وهكذا تظهر صفات المنافقين.. وما مثل الذين مردوا على النفاق إلا كمثل إبليس مرد على مخالفة أمر الله تعالى وطاعته حتى أعقبه الله تعالى حرمان التوبة،

---

(١) وقد ظهر في أواخر القرن الماضي أحد هؤلاء العملاء المدعو سليمان رشدي، بوجهه السافر بما ألّف ونشر في بريطانيا من افتراءات كاذبة على النبي ﷺ والإسلام. وإنا على يقينٍ من أنه قد ينعم بأوامر أسياده الإنجليز في هذه الدنيا، أما في الآخرة فسوف يرجع إلى ربه، وحسابه على الله العلي القدير الذي ارتضى الإسلام ديناً لعباده.

فسلبت منه القدرة على هذه التوبة، فهو على الضلال قائم، وعلى البغي باق، وعلى الفساد عامل إلى اليوم الذي يلقى فيه مصيرَهُ المحتومَ في نار السعير..

والمنافقون قد يخادعون الله تعالى، وقد يخادعون الناس، ولكنَّ خداعهم لا يكون إلاَّ لزمنٍ محدودٍ؛ لأنه مهما عظم النفاقُ وأهله، فلا بُدَّ أنْ يكشفَ الله تعالى الغطاءَ عن أعين وبصائر المضلَّلين، واللاهثين وراء المناصب والمال، فيروا مدى فداحة الجرم الذي يوجههم إليه المنافقون لمحاربة الإسلام.. وهذا مرهون بمشيئة الله تعالى، الذي يعلم أعمالكم أيها المنافقون، وأعمال عملائكم ومستخدميكم، كما يدلُّ عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1].

وقال الشاعر المؤمن:

ثوبُ الرِّياء يَشفُّ عمَّ تَحتَهُ　　فإنِ التَحفْتَ بِهِ فإنَّكَ عارِ

فحذارِ أيها المسلم من المنافقين، وبخاصة من هؤلاء الذين يُظهِرون من عقيدتِهم غير ما يبطنون، فإنهم شر خلق الله على عباده المؤمنين. فلا يخدعنك منافق بقول أو دعوة أو عطاء، ولا تسمح له أن يسلك بك سبل إبليس حتى لا تكون مع المنافقين والكفار في نار جهنم التي وعدهم الله تعالى بها: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[2].

وصدق رسول الله ﷺ وهو يلخِّصُ صفات المنافقين بقوله:

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٨.

«صفات المنافق ثلاث: إذا حدّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1].

وبقوله ﷺ الكريم: «إنّي لا أخَافُ على أُمّتي مُؤْمِناً ولا مُشرِكاً. أمّا المؤمِنُ فيَمْنَعُهُ الله تَعالى بإيمانِهِ، وأمّا المشرِكُ فيقمَعُهُ الله بِشِرْكِهِ. ولكنّي أَخافُ عليكُمْ كلَّ مُنافِقِ الجَنانِ، عالِمِ اللِّسانِ، يقَولُ ما تَعرِفُونَ، ويَفعَلُ ما تُنكِرُونَ»[2].

---

(١) صحيح البخاري، باب الشهادات، ص٢٨.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الأول، ص٢٢.

المبحث الثاني

التقليد والتبعية والعادة

التقليد والتبعية

القَلْد هو الفتل، وقلَّدْتُ الحبل فهو قليد أي مفتول. والقِلادة: المفتولة التي تجعل في العنق من خيط أو فضة أو غير ذلك. وبها شُبّه كل ما يُتَطوَّق به، أو كل ما يحيط بشيء، فيقال: تقلَّدَ سيفَهُ، على نسق: توشَّح سيفه، تشبيهاً بالوشاح.

والتقليد هو اتِّباعُ الغيرِ دونَ تأمُّل. يقالُ: قلَّدَهُ في كذا: تَبِعَهُ من غير تأمُّلٍ ولا نَظَرٍ. والتقليدُ شرعاً هو العملُ برأي الغير من غير حجّةٍ مُلْزِمَةٍ.

وأما عن التبعية، فيقال: تبعَه، واتّبعَهُ، أي قَفَا أثرَهُ بالإرادة تارة، وتارة بالائتمار. يقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، أي فمن آمَنَ بي وعملَ بطاعتي، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة، فيدخلون الجنة آمنين مطمئنين، راضين مرضيين بهذا الفوز العظيم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

وأمَّا قول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١). فهو ما قاله حبيب النجار، أحد سكان إنطاكية، على ما يُروى، وكان بيته في المدينة؛ وبحسب النصوص القرآنية فقد أرسلَ الله تعالى إلى أهل تلك المدينة اثنين من الرسل فكذبوهما، فعزَّزَ تعالى موقفهما بثالث وكان الناس كذَّبوا أولئك المرسلين، فجاء ذلك الرجلُ من أقصى المدينة يسعى لاتّباع رسل الهداية وكان قد آمن بدين التوحيد وبالرسل المبعوثين من قبلُ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢)... فالاتباع، هنا، معناه الدخول في الهداية..

وعلى الرغم من أنَّ الرسالات السماوية كانت تترى على الأرض بصورة دائمة، فيبلغها المرسلون تبياناً لهدى الله تعالى، ودعوةً لاعتناق عقيدة التوحيد، ـ بديلاً عن الكفر والشرك ـ إلاَّ أنَّ معظم الناس كانوا لا يؤمنون برسالات ربهم، بل يؤثرون البقاء على عبادة آلهةٍ من تماثيل، أو من تصورات خرقاء لا طائل فيها، متَّبعين في ذلك ما ألْفَوْا عليه آباؤَهم من تلك العبادات..

وأهمية البيان القرآني أنه يثير في الإنسان مكامن التفكير ليوقن ثلاثة أمورٍ:

الأول: أنَّ ما عبَدَ الناسُ من الأوثان والتماثيل كان فعلاً آلهةً مزعومة، لأنه لا إله إلاَّ الله..

والثاني: أن تلك المعبودات التي زعموا أنَّها آلهةٌ، سوف يُنطقها

(١) سورة يس، الآية: ١٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٢٠.

الله تعالى ـ على الرغم من أنها جمادات ـ لتشهد يوم القيامة على أنّها براء من كل الذين اتبعوا عبادتها. .

والثالث: أنَّ أهل البدع والضلال سوف يتبرَّأون كذلك، يوم القيامة، من الذين اتبعوهم. . ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة نجد التقليد، أو الاتِّباع بأجلى مظاهرهما. .

ذلك أنَّ الإنسانَ يمكن أنْ يكتسب كثيراً من المعلومات التي تقع عليها حواسُّهُ، في المرحلة المبكرة من حياته، عن طريق تقليد والديه وإخوته، ومعلميه، ورفاقه، وكل من يحيط به في البيئة التي يعيش فيها. . فهو، مثلاً، يبدأ تعلُّم اللغةَ بمحاولة محاكاة والديه وإخوته في النطق ببعض المقاطع الصوتية التي يكررونها أمامه عدة مرات، كما يبدأ تعلمه المشي بمحاولة تقليد والديه وإخوته فيما يقومون به من حركات وأعمال. وهكذا يتعلم الإنسان كثيراً عن طريق تقليد أفراد أسرته، ثم ينتقل إلى المدرسة، فالجامعة، فالمجتمع وجميعها يؤثر في تكوين عقليته، وشخصيته، وسلوكه. . .

ولما كان الإنسان يميل بطبيعته إلى التقليد، ويكتسب كثيراً من

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٦٥ ـ ١٦٧.

سلوكه عن طريق اتباع ما يألفُهُ، كان للقدوة الحسنة أهمية كبيرة في التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد. وقد كان النبي ﷺ قدوة حسنة للصحابة ﷺ، يقتدون به ويتعلمون منه، ليس شعائر العبادات فحسب، وإنما كانوا يتعلمون منه كذلك حسن السلوك، وآداب التعامل مع الناس. وقد أوصانا القرآن الكريم بالاقتداء برسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

وكما يكون التقليدُ نعمةً في بعض الأحيان، إلاّ أنه في كثير منها يُعَدُّ نقمةً، خصوصاً عندما يكون فيه تعطيل لنعمة العقل، وأسْرٌ لموهبة الإدراك. ولذلك فإنَّ المقلّدين غالباً ما يعطلون أفهامهم ومداركهم، فيقودهم ذلك إلى عدم التفكّر في خلق السماوات والأرض، وعدم البحث والاستقراء ليتوصلوا إلى الاعتقاد الجازم، والإيمان المكين. أي إنَّ تعطيل خصائص الإنسان النفسية والذهنية يميت فيهم التكوين المتأثّر والمؤثّر في المجالات الحيوية للإنسان، وفي طليعتها مجال الإيمان والعقيدة الدينية.. وفي هذا الصدد تجدهم قد صمّوا آذانهم عن سماع دعوة الحق سماع تدبّر وتبصّر وتفهّم، وسُلبوا النعمة التي خصَّ الله تعالى بها الإنسان (التمييز والاختيار)، ولم يتجاوبوا مع دعوة الداعي بل قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٢)... فلن نحيد عن معتقداتهم، ولن نخرج على عاداتهم وتقاليدهم.. فالمقلّدون الذين قالوا ـ أو يقولون ـ إنّا ألفَيْنا آباءَنا على دينٍ، ونحن على آثارهم مقتدون، لم يحاولوا أنْ يعرفوا الإسلام، أو

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

أنْ يطَّلعوا عليه، ليدركوا حقيقة هذا الدين، فيشعَّ ـ مِنْ ثَمَّ ـ نورُهُ في قلوبهم، لقد اكتفوا بظاهر إيمانهم، فابعدوا أنفسهم عن الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده.. ولذلك فإنَّ الاقتناع باعتناق دين الآباء، دون البحث عن الدين الحق، إنما يعدُّ تبعية لا يقبلها الله تعالى من الإنسان، الذي وهبَهُ ميزة العقل وخاصية الإدراك، ثم أمره بالتكاليف التي توجب عليه تقصّي الحقيقة في كل شيءٍ حتى تكون أعماله مقبولةً عند ربه. وفضلاً عن هبة العقل، الذي به الاختيار والتمييز لمعرفة الحقائق، ولكي لا يكون للناس على الله حجةٌ، فقد بعث تعالى الرسل والنبيين بالتعاليم التي تخاطب الإنسان بلغة العقل، وتدعوه لعبادة الله الواحد الأحد، وترك عبادة الأنداد التي تقوم على الشرك والكفر، بحيث لا تكون العقيدة الدينية مبنية على التقليد الأعمى، والجهالة الحمقاء.. ولذلك ضرب الله تعالى، للمقلدين والأتباع في قرآنه المبين أمثالاً تبيّن صفاتهم وأحوالهم، يراها الناس ـ في كل زمان ومكان ـ مجسَّدةً بأولئك الذين يتخذون من دون الله ـ جلّ وعلا ـ أصناماً أو أشخاصاً أو كائنات معينة أو أهواء يعبدونها، فيقعون في الشرك والضلال، لأنَّ كلَّ تلك الأنداد إنّما هي شِركٌ ظاهرٌ أو خفيٌّ، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله تبارك وتعالى، أو إذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ـ والعياذ بالله من ذلك ـ.. فكيف إذا نزع المرءُ حبَّ الله ـ تعالى ـ من قلبه، وأفرَدَ تلك الأنداد بالحبِّ الذي لا ينبغي أن يكون إلاَّ للخالق العظيم؟! وتلك هي حال المشركين ومن تبعهم..

أما المؤمنون فلا يغيضُ في قلوبهم حبٌّ على حب الله تعالى، لأنَّ حبَّهم لمولاهم أشدُّ من حبِّهم لأنفسهم، وأهليهم، وأصدقائهم، وأيِّ شيءٍ قد يحبونه مهما عظم شأنهم، وسما نفوذهم، ولا يقيمون

وزناً أو يعطون قيمة لما يجري وراءه الناس إزاء حبّهم لله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ خالقهم، وهاديهم، والمنعم عليهم. وحبهم له سبحانه يكون خالصاً، مطلقاً من كل قيد، ومتجهاً إليه تعالى دون سواه، لأنهم أدركوا عن طريق تفكيرهم حقيقة وجود الله، وسناء عظمته، وجلال شأنه، وعظيم فضله عليهم، فعبدوه حبّاً، وطاعةً وقناعةً، وشكراً، وامتناناً وثناءً. . .

إذن فأين هُمُ الذين اتَّخذوا أنداداً أو أرباباً من دون الله، يحبونهم مثل حب الله، ويخلصون لهم الودَّ والطاعة؟، بل أينَ أولئك من المؤمنين الذين صدقوا في حبهم لله تعالى، وأخلصوا له الإيمان والطاعة؟ إنَّ حب المؤمنين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أشدُّ من حب غيرهم، من وجهين:

الأول: إخلاصهم في العبادة والتعظيم لله الواحد الأحد، والثناء عليه، وتسبيحه وإجلاله، وتنزيهه عن الإشراك به. .

والثاني: إيمانهم الصادق بأنَّ الله رَبَّهم هو المنعمُ ابتداءً، وأنَّ فضله العظيم إنّما يكون بما هو أصلح لهم في التدبير، فكان حقّاً عليهم أنْ يعبدوهُ عبادةَ الشاكرين، ويرجوا رحمته رجاء المتَّقين، ومن كانت هذه صفاتهم فلا بدَّ أنْ يكون حبهم له أخلصَ وأشدَّ.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾. ومن هم الذين ظلموا؟ هم الذين اتخذوا أنداداً من دون الله، فظلموا بذلك أنفسهم، وظلموا معهم غيرهم من الذين ساروا وراءهم، واقتدوا بهم. . لو يرى هؤلاء الظالمون عذاب الله الذي سينزل بهم، لأدركوا أنَّ القوة والبأس، والشدة والجبروت، والعظمة،

كلها ـ على حقيقتها ـ لله تعالى الواحد القهَّار. ولو رأوا ذلك لرأوا مضرَّة فعلهم وسوء عاقبتهم، ولَعَلِموا عندئذٍ أن الله شديد العقاب. . إذن فتقدير المعنى: أنَّهم لو علموا في الدنيا ـ ويا ليتهم يرون ويعلمون ـ شدَّة عذاب الله، وأنَّ القدرة له تعالى وحده، فلا يملك أحدٌ غيره أسبابَ القوة، لما اتخذوا من دونه أنداداً، ولا أشركوا به شيئاً، ولتركوا تقليد آبائهم، ولرفضوا عباداتهم، بل وأية عبادة لا تقوم على الإيمان بعقيدة التوحيد، المبنية على الدين الحق.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ وهـذا يـكـون يـوم الحساب. . حيث يتبرأ الآباء وعلماءُ الدين، والمرشدون، والدعاة ـ والآلهةُ والأربابُ المزعومون ـ وسائرُ المتبوعين من الذين اتَّبعوهم في معتقداتهم، وفي دعواتهم وإرشاداتهم وتعاليمهم التي كانوا يلقّنونهم إياها. . ولا يكتفون بالبراءة منهم، بل وينكرون عليهم ضلالهم باتّباعهم، ويكون ذلك حين ﴿رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أي التابعون والمتبوعون جميعاً، حين حلَّ بهم العذابُ الأليم، بعد أنْ تقطَّعت بينهم كل أسباب القرابة والأرحام والمودة، أو الحلف أو العهد، وكل الصلات التي كانت تربطهم في الدنيا. . . بحيث لم تعد تنفعهم بشيء في الآخرة، لأنَّ مدار النفع والثواب والأجر لن يكون إلاَّ عمل الإنسان وحده، وما كسبت نفسه في دنياه. . .

أجل، هذا الذي يحصل يوم الدين، يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين. . يوم يحصل التبرؤ، وتنقطع الأسباب والصلات، ويقعون جميعاً في العذاب: تابعين ومتبوعين. ولكن هل من شيء بعد؟ أجل، بعد ذلك يأتي دور مُلْفِتٌ للتابعين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾، أي لو أنَّ لنا عودةً إلى دار الدنيا، وبكل

التكاليف التي فرضها الله على عباده، فإننا سوف نتبرَّأ هناك من الذين اتبعناهم من قبل، كما تبَّرأوا هم منا هنا اليوم، ولن نقتدي بهم، ولن نعود إلى اتباعهم أبداً. . فيا له من مشهد مؤثر: مشهد التبرّؤ، والتعادي، والتخاصم بين التابعين والمتبوعين، فكلٌّ يريد أن يتنصَّلَ من تَحمُّل وِزر الآخر، ومن إضلاله له. . ولكن هيهاتِ أنْ تكون لهم عودة، فقد أُحضروا إلى الآخرة التي لا رجوع منها إلى دار الدنيا. .

وكما بدت للتابعين سيّئاتُ أعمالهم باتّباع الضالين المضلّلين، وكما بدت للمتبوعين خبثُ نياتهم، وأفاعيلُ إضلالهم فكذلك يريهم ـ جميعاً ـ الله تعالى أعمالهم حسراتٍ، وندامات تختنق بها أنفسهم: فهم يتحسرون على أعمالهم التي ارتكبوا فيها الشرك والمعصية، وتركوا التوحيد والطاعة، ويتحسَّرون بشدّةٍ ولوعةٍ أكثر وهم يرون مقدار الثواب الذي كان ينتظرهم لو قاموا بالطاعات في الدنيا، وقد تكون حسرةُ قلوبهم على فوات ذلك الثواب العظيم، أشدُّ من حسرة نفوسهم على الوقوع في العذاب الأليم وإن كانت حسراتُهم بذاتها هي من جنس ذلك العذاب الذي منه يعانون. ولكنها حسرة لا تفيدهم بشيء، لأن مصيرهم النار يخلدون فيها وبئس المصير.

وعن الركون إلى التقليد، دون إعمال العقل واستعمال الحواس لمعرفة الحق واتباعه، يضرب الله تعالى مَثَلَ الذين كفروا، بعدم الاستجابة لداعي الإيمان، وبلاغ المرسلين فيشبههم بالبهائم التي يصرخ فيها الراعي فلا تفقه منه شيئاً، بل تسمع صراخه أو نَعيقه أو دويَّ صوته، ، ولكن من غير أي إدراكٍ لما تسمع. .

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ

﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. أجل، إنَّ الكفار الذين اتبعوا دين آبائهم، وقلَّدوهم في عقائدهم وعباداتهم، يمثلهم القرآن الكريم بالسوائم أو البهائم التي يقودها صراخ الراعي الحاد، فتنقاد إلى حيث يوجهها، لأنها لا تملك إلاَّ سماع الأصوات والنداءات التي تستجيب إليها بحكم الغريزة، فتتحرك إلى هذه الناحية أو تلك وفقاً لما يريدُ راعيها.. وهكذا هم التابعون، يسيرون على منهج التقليد الذي ألفوا سماعَ دعواته ونداءاتِهِ حتى لكأنهم في اتباع ما أَلِفُوا: صمٌّ عن الاستماع لنداء الإيمان، بُكمٌ عن النطق بكلمة الحق، عميٌ عن التبصُّر بآيات الله تعالى المبثوثة في كلِّ شيء... أي إنَّهم عطَّلوا كل خصائص الإنسان في نفوسهم، فلا يعقلون الحقيقة التي يجب أن يدركوها، ولا يهتدون إلى الطريق السويِّ الذي يجب أن يسيروا عليه، فتاهوا في مجاهل الكفر والضلال. وكان مصيرهم إلى النار وما هم بخارجين منها..

العادات

العَوْدُ: الرجوعُ إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إما انصرافاً بالذات، أو بالقوة، أو بالعزيمة. ومنه قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[2].

إنَّ هذا الطلب الرجائي هو من الذين زادت السيئات التي عملوها في الدنيا على حسناتهم، فأدخلوا في النار خالدين فيها، حتى إذا حاق بهم عذابُها، لم يكن لديهم أية حيلة إلاَّ أنْ يَرْجوا الله ربهم أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧.

يخرجهم منها، ملتمسين بذلك ذريعة وهي توكيدهم على أَنهم لو ردّوا إلى الحياة الدنيا لما عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وتكذيب النبيين والمرسلين، وإنكار آيات الله تعالى.. بل ولكانوا من المؤمنين الصادقين في إيمانهم!..والنكتة في هذا الرجاء أَنَّهُ لا يمكن العودُ، بعد الموت، إلى الحياة الدنيا، فكيف إذا جرى الحشر والحساب، وتفرّق الناس جميعاً إلى مصيرهم في الحياة الآخرة؟! ولكنَّ شدة العذاب في جهنم هي التي تدفع الذين دخلوها لأنْ يسألوا ربَّهم إخراجهم منها، وإعادتهم إلى حياتهم السابقة، لينهجوا نهج الإيمان.. وإلاَّ، فإنْ عادوا سيرتهم الأولى في اجتراح السيئات فإنهم لظالمون، ويستحقون النار من جديد!. ذلك رجاؤهم.. ولكنَّ الله تعالى يعلم أسرار نفوسهم، وما تكنُّ صدورهم من البغي والطغيان والظلم، ولذلك يقول رب العزة والجلال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(١). نعم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾... ولكنَّ الموقف المرعب على النار، هو الذي أنطقَ ألسنتهم بذلك الوعد الكاذب، بل والوعد الموهوم لأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك، وهم في الحياة الدنيا، أنَّ ما من أحدٍ ماتَ، وعادَ بعدَ موته إلى الحياة!!...

ويقال: إعادة الشيء، مثل إعادة الحديث، أي قوله مرة ثانية.. وإعادة الفعل عندما يكرر مرتين أو أكثر، كما في قول الله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(٢).

والعادة: اسم لتكرار الفعل والانفعال حتى يصير تعاطي ذلك

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٢١.

سهلاً كما لو أنه من داخل الطبع، ولذلك قيل: العادة طبيعة ثانية، ويماثلها في التكرار العرف، إلاَّ أنَّ العادة هي العمل المكرر من الفرد، والعرف هو العمل المكرر من الجماعة.

والعادة تتأتّى عن النفس، ولذلك يقال عنها بأنها ظاهرة نفسية. وقد قسم بعض الباحثين العادات إلى أنواع ثلاثة: العادات الحيوية، والعادات الحركية، والعادات النفسية المحضة.

١ ـ العادات الحيوية

العادة الحيوية هي التي تزيل الشعور بالمؤثرات الخارجية أو تخفِّفُهُ، كما يتعود الإنسان قساوة الحر أو البرد، أو كما تتعود العين الظلام. وذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا: إنَّ المناعة عادةٌ حيويةٌ، بمعنى أن الكرويات البيضاء في الدم تتعود قتل الجراثيم والتغلب عليها وعلى سمومها. ومنهم من يعلِّل هذه المناعة بنوع من تطبيع (الكرويات البيض)، ومنهم من يعللها بالتوازن الفيزيائي الكيماوي، وهم يسمون هذه العادة «العادة الحيوية»، ويجعلونَ نطاقَ دراستها «علم الحياة».

٢ ـ العادات الحركية

العادة الحركية تنتج من استعدادٍ يكتسبه الإنسان من تكرار بعض الحركات، والقيام ببعض الأفعال. ومن هذه الأفعال ما يكون بسيطاً مثل الحركات الطبيعية التقليدية التي تصدر عن الإنسان كالتثاؤب، أو الإشارات التي يقوم بها كالإيماء. ومنها ما يكون مركباً كالحركات التي نقوم بها وقت الأكل أو عند ارتداء الملابس. ومنها ما يتطلب التدريب كركوب الخيل أو الدراجة أو قيادة السيارة أو الطيارة، أو

العزف على آلة موسيقية أو حفظ الكلام نثراً أو شعراً. . وهي تتولد من التكرار والتعلم الإرادي، إلا أنها بعد مضي مدة من الزمن تصبح غير محتاجة إلى شحذِ الإرادة أو تعمق في التفكير، ولذلك يمكن أن تقود السيارة وأنت تفكر بشيءٍ آخر، أو أنْ تردِّد ما حفظتَ من آيات القرآن دونما جهد في قراءتها. .

٣ ـ العادات النفسية المحضة

وهذه العادات هي أيضاً استعدادات مكتسبة تحمل الإنسان على الإحساس بالصورة نفسها التي رآها من قبل، أو إعادة التفكير بشيءٍ عرفه الإنسانُ من قبل، أو القيام بعمل أدَّاهُ سابقاً. ومن عادات التفكير: تنسيق الأفكار، التأني أو السرعة في الحكم، حصر الانتباه، الاستدلال إلخ. . . ومن عادات الإحساس: ضبط النفس، كظم الغيظ، محاربة الهوى، الرضا، العفة، المروءة، وغيرها من العادات السامية. ويعتبر البعض أن هذه العادات هي عادات انفعالة أو إرادية، تنبثق من كوامن النفس، ومن تربية الإرادة أو إهمالها.

والسؤال: كيف تكتسب العادات، أو ما هي العوامل المؤثرة في اكتسابها؟

يذهب كثيرون إلى أنَّ العادة تنشأ عن التكرار. ولذلك قيل: «العادة بنت التكرار». فالتكرار، بنظرهم، عامل أساسي في تكوين العادة، لأنه لا يمكن أنْ تتكون العادة لمجرد القيام بعمل مرة واحدة. فالعادات الحيوية، والعادات الحركية تحتاج كلها إلى التكرار. ولكنه في العادات الحيوية ليس تكراراً حقيقياً، بل هو تمديد للمؤثر.

على أنَّ البعض يقول بأنَّ العادة لا تحتاج إلى التكرار عدة

مرات، إذ قد يتم اكتسابها من أول مرة، وعلى ذلك فالتكرار ليس ضرورياً لاكتساب العادة، بل هو ضروري لتقويتها وضبطها، وتسهيل الحركة. ويقولون: إنَّ كل فعل هو بداية عادة، فإن لم يبق للفعل الأول أثر في النفس، فلا يمكن أنْ تتكون العادة حتى ولو تكرر الفعل مئة مرة. ويُبنى هذا الرأي على أنَّ الأثر الذي يبقى في النفس هو في الحقيقة تغير يطرأ على هذه النفس، فإذا كان هذا التغير عميقاً، أدَّى إلى ترسيخ العادة، لأنَّ التغيُّرَ الذي تتقبلُهُ النفس باهتمام وانتباه، أو بلذةٍ قويةٍ من أول مرة، قد يكفي لتكوين عادة تبقى ما بقيت حياة صاحبها.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ للعقل والإرادة والانتباه تأثيراً هاماً على اكتساب العادات، ولا سيما الحركية منها، لأنَّ هذه العادات خاصة بالإنسان، في حين أنَّ العادات الحيوية مثلاً، لا يكون في كثير منها أثر للفاعلية الذهنية في اكتسابها، وهي موجودة لدى الإنسان كما لدى الحيوان. وقد ردَّ البعض الآخر على ذلك بالقول إن التأثير قد يكون خارجياً، ولا دخل للعقل أو الإرادة في حصوله حتى يؤدي إلى تكوين عادة.

ويبقى الرأيُ الغالب القائل بأنَّ العادة تنشأ عن التكرار، واكتسابها يكون بالتمرين، لأنَّ تكرار التمرين، والحصول على شيء من النجاح فيه، يقوّي بعض الأفعال، مما يشكل آليةً لاكتساب العادة.

وتصل العادة، من خلال التمرين، إلى حالة من النضج يسمى النضج الحيوي أو العضوي، وذلك عند استقرارها، وانتظام عناصرها، واتساقها. وقد دلت التجارب التي أجراها بعض العلماء

على أنَّ العادة يمكن أنْ تصل بنفسها إلى حالة من التقدم أو النضج، وذلك بعد الانقطاع عن التمرين. فقد يحب الإنسان ممارسة لعبة رياضية، وقد يتمرن على ذلك فترة من الزمن، دون أنْ يتعلم هذه اللعبة، كما لو تمرن أحدهم مثلاً على السباحة دون أن يتعلم كيف يسبح، فيترك ذلك مدة من الزمن، قد تصل إلى شهور، وربما سنوات، ثم ما أن يستأنف تلك اللعبة، أو يحاول السباحة من جديد، حتى يجد نفسه قادراً على ذلك، فـ«قانون نضج العادة هو الذي يوضح كيفية تولد العادة من الفعل الأول».

ولا بد في اكتساب العادة من تقسيم الفعل على مراحل متعددة، بحيث يتعلم الإنسان في كل مرحلة جزءاً من الفعل، ومن ثم وفي المرحلة الأخيرة تجمع الأجزاء إلى بعضها بعضاً، وتستقر العادة. والمثال على ذلك تعلم الكتابة، إذ يرسم الطفل أجزاء الحروف على شكل خطوط، ثم ينتقل إلى مرحلة تكوين الحروف، ومنها إلى جمع الحروف لتأليف الكلمات. ومثل ذلك ممارسة لعبة كرة القدم، أو الكرة الطائرة وما إلى ذلك..

وإذا كان القيام بالفعل يصطدم ببعض الصعوبات، فيجب لاكتساب العادة ألا يتكرر الفعل كله دفعة واحدة، بل تكتسب حركاته بالتدريج من السهل إلى الصعب، فالعادة الحيوية تحتاج إلى هذا التدريج، كما لو أراد الإنسان أنَّ يعتاد التسلّق في الجبال العالية، فلا يكون له ذلك إلاّ إذا تدرج في الارتفاع شيئاً فشيئاً. وكذلك العادة الحركية تحتاج أيضاً إلى تدريج التمارين بعد تقسيم الفعل إلى حركات بسيطة، لأنَّ العادة لا تتولد من تكرار الفعل على نمط واحد، بل يجب في كل مرحلة من مراحل التدريب أنْ يُبدَّلَ تركيبُ الحركات،

بضمّ الحركات التي تلي إلى الحركات التي تسبق. وعلى ذلك فإن تعلم الكتابة مثلاً ليس تكراراً للحركات الأولى على نمط واحد، وتعلم السباحة ليس تكراراً من غير تصحيح وتنظيم وتنسيق.

ومما يسهل اكتساب العادات عند الإنسان العوامل النفسية المحضة: كالاهتمام، والجهد، والإرادة، والانتباه. وتركيز الانتباه ضروري كل الضرورة في بداية الفعل، لأنه يوفر كثيراً من الجهد، ويغني عن كثير من الحركات الزائدة على الحاجة. وكلما كان الانتباه أقوى كان الاكتساب أسهل، لذلك كان التكرار الذهني أصلح للاستظهار من القراءة العلنية عدة مرات.

نتائج العـادة

تؤثر العادة تأثيراً كبيراً في حياة الفرد لأنها تؤلف جزءاً هاماً من سلوكه، وتجسد مشاعره، وأفكاره، وتحفظ أفعاله. كما تؤثر في المجتمع لناحية تنظيمه، وحفظ أوضاعه على أنماط معينة بدلاً من التغيرات المفاجئة. ويمكن أن تنحصر نتائج العادة في الأمرين التاليين:

أ ـ العادة تؤدي إلى آلية الفعل حيث يتضاءل فيها شعور المرء، ويقل إحساسه وانتباهه، وتخف أحواله الانفعالية شيئاً فشيئاً. إذ كلما تمكن المرء من العمل، وحذق به، خف اهتمامه وانتباهه له، كما لو اعتاد الإنسان شم رائحة معينة من العطور أو اعتاد على المشي أو الكتابة، أو ركوب الدراجة. . . ففي جميع هذه الأمور ينصرف الجهد الإرادي، والانتباه عن الحركات الجزئية ليستقر الفعل في المراكز العصبية السفلية، وتتوقف المراكز العصبية العالية عن الاشتغال به.

وهذا ما يؤدي إلى حالةٍ من تخفيف الشعور. قال أحد العلماء: «إنَّ العادة تخفف من شدة الحساسية، وتمنع تدخل الشعور في الأعمال العادية الآلية، لأنَّ تدخله فيها يعرقلها، ويشوش نظام آليتها». . وهذا ما ينطبق على جميع الإحساسات كإحساس اللمس، والشم، والذوق. فالعادة تقلل من إحساسنا بالحرارة أو الرطوبة، أو بالملوحة والحلاوة، أو بالرائحة التي نتطيب بها.

وعلى عكس ذلك فقد اعتبر كثيرون أنَّ العادة كثيراً ما تقوي الشعور بالشيء بدلاً من أن تنقصه، فهي مثلاً تزيد في قوة الذوق لدى الطباخ، وفي قوة تمييز الألحان عند الموسيقار، والألوان عند المصور، والروائح عند الكيميائي. فهي إذن لا تنقص الإحساس، بل تقلل الانتباه. وهكذا فإن الطفل عندما يتعلم الكتابة، أو السباحة مثلاً، فإنه يقوم بجميع الحركات اللازمة للفعل بكل ما أوتي من انتباه، ويبذل كل جهد يملكه، ولكنه بعد اكتساب العادة يقوم بالفعل من غير جهد، ويقل انتباهه له، وتزيد سرعته فيه، وتقل أخطاؤه، حتى تصبح حركاته في النهاية آلية تماماً. وهذه الآلية هي نتيجة تؤدي إليها أنواع العادات جميعها من حيوية، وحركية، ونفسية.

ب ـ العادة تؤدي إلى التكيّف. ولكنَّ هذا التكيف في العادات الحيوية لا يتم إلا بجملة من ردود الفعل الداخلية، وفي العادات الحركية يظهر في التكامل التدريجي الذي يتصف به الفعل حتى يصبح أسهل من ذي قبل. ويكفي أن تحدث الحركة الأولى بإرادة حتى تجري الحركات الأخرى من ورائها بصورة آلية. وكثيراً ما تحدث الحركة الأولى بدون إرادة كما هي الحال لدى المدخِّن، الذي يقوم بفتح علبة السجائر لمجرد إحساسه بالحاجة إلى التدخين، ثم يتناول

سيجارة منها ويشعلها من غير أن يكون لإرادته في ذلك أثر يذكر. وهذه الآلية في العادة هي التي تسهل القيام بالفعل، وتزيد في سرعته، وتقلل الخطأ، والتعب، وتجعل العادة متقنة ومحكمة. حتى لقد قيل إنَّ العادة تتقدم بالتهديم، كما تتكامل بالإنشاء، فهي تحذف من الفعل كثيراً من الحركات الزائدة، وتصحح القديم بما تضمه إليه من الحديث. مثال ذلك: إنَّ الطفل الذي يتعلم الكتابة تصدر عنه في البداية حركات لا علاقة لها بإنجاز الفعل كإخراج اللسان، وتقطيب الحاجبين، وإمالة الرأس. ولكنه بعد اكتساب ملكة الكتابة تتوزع حركاته على الأعضاء التي تقوم بتلك الحركات. وهكذا، فإنَّ العادة تحرر فاعليتنا من القيود الزائدة، لأنها تعهد في القسم الأكبر منها إلى الآلية، وتجعلنا نوجه انتباهنا إلى أمور أعلى منها.

والعادات النفسية تولد أيضاً النتائج نفسها التي تولدها العادات الحركية، بل والحيوية، لأنها تؤلف آليات فكرية. فعادة التفكير تؤدي إلى سرعة الفهم، وسهولة استعمال البراهين، وتجعل المفكر يختار الحجة الأحسن، والنتيجة الأدق، بعيداً في ذلك عن العمليات الفكرية الزائدة. ولذلك اعتبرت عادة التفكير من عوامل التقدم، لأنها تحرر الفكر من ربقة الاتباع، وتوجهه إلى الغاية الصحيحة.

قيمة العادة وفوائدها

للعادة أثر كبير في حياة الإنسان، فهي التي تحفظ الماضي وتهيِّئ للمستقبل، سواء في حياة الأفراد، أو في حياة المجتمعات. فالعادات القديمة قد تشكِّل تراثاً للأمة إذا كانت تعبر عن مآثرها، ومفاهيمها، وتطلعاتها نحو المثل والأهداف السامية، وتكون دافعاً للحفاظ على هذا التراث وتعزيزه بمآثر جديدة.

أما في حياة الفرد فإن العادة توفر عليه كثيراً من الجهد الفكري، فلا يحتاج في بعض الأفعال إلى شدة الانتباه، لأنه يأتيها آلياً، فيصرف انتباهه واهتمامَهُ إلى غيرها، بحيث يمكنه القيام بعملين في وقت واحد: الأول يكون عادة راسخة، ينجزه بصورة آلية، بينما يوجه نفسه للعمل الآخر، وهذا ما يوفر عليه جزءاً من الوقت، ويخفف من تعبه، ويثبت سلوكه، ويكسبه المهارة، والسرعة في الإنجاز وفي اتخاذ القرار.

ولكن بمقابل هذه الفوائد فإنَّ هنالك مساوئ عديدة قد ترافق العادة، إذا ما أصبحت سبباً للركود والجمود، بحيث يصعب تغييرها أو استبدالها. وإذا ما حاول المرء مثل هذا التغيير فقد يعجز عن ذلك لأنَّ العادة تستبدّ به حتى يصير عبداً لها، وتجعل حياته تسير على نمط واحد تغلب عليه الآلية بدلاً من الحيوية. ولذلك قيل: «خير عادات الإنسان أنْ لا يتعود شيئاً».

والعاداتُ الخُلُقية إمّا أَنْ تغلّب الفضيلة في حياة المرء، أو أنْ تجعل الرذيلة نَمَطاً لحياته؛ لأنَّ المرء يمكنه أنْ يتعوَّدَ أيَّ شيء.. ولكنْ يجدر بالإنسان أنْ يوطِّنَ نفسَهُ على الابتعاد، أو ترك الأمور التي تقف حائلاً دون تقدمه، وتحقيق نجاحه. وهذا ما يدفع إلى اكتساب العادات الصالحة، التي تشكل قوة دافعة للإنسان نحو التكامل، وتحول بينه وبين التباعد عن إنسانيته. ولعل أفضل السبل لذلك هو اكتساب العادات الفاضلة والتخلي أو الابتعاد عن العادات السيئة. وقد قيل: «يجب على المرء لاكتساب عادة جديدة، أو للتخلص من عادة قديمة، أن يغتسل كل يوم بماء جديد، وأن يُشعِرَ نفسه بالإقدام والقوة

والعزم، وأن يجمع الأسباب الباعثة على العمل، ويربط نفسه بوعود علنية».

ويجب على الإنسان أنْ لا يتراجع إلى الوراء أمام داعي الإرادة، إذ خير له أنْ يقطع صلته بالعادات السيئة دفعة واحدة، وأنْ يتخلى عنها بصورة نهائية بدلاً من التمنّي أو العمل على تركها تدريجياً، لأنَّ نيران الشهوة، كما يقولون، سرعان ما تخمد لعدم إضرامها. والتخلص من العادات السيئة يقتضي قتلها سريعاً، لاكتساب عادة فاضلة مضادّة لها، والتمرن على العادة الحسنة الجديدة تمرناً متتابعاً. وقد قيل: «لو عرف الشباب أنهم سيصبحون يوماً من الأيام كتلةً متحركةً من العادات لانتبهوا لسلوكهم وهم في نضارة الحياة. فالمرء ينسج أقداره بيديه، وسواء أكان ذلك خيراً أم شراً، فإنَّ خيطه المنسوج لن يحل». وقد قال العلماء: «إنَّ آثار أفعالنا لا تمحى، فينبغي للشاب أنْ يدأب في الحياة من غير أنْ يفكر في النجاح، وأنْ يتعود العمل المستمر، لأنَّ النجاح ليس صفة ذاتية مقومة للعمل، وإنما هو نتيجة خارجية تنضم إليه كما تنضم اللذة إلى الفعل».

نصائح تربوية حول العادة

على المربي أنْ يعلمَ ما للعادة من تأثير هام في حياة المرء. وعليه أنْ يكافح العادات السيئة منذ ظهورها، فمثلاً ترويضُ الطفل على العادات الطّيبة يجب أنْ يبدأ منذ سني حداثته الاولى، لكي تنطبع في ذهنه، ويستمرَّ على ممارستها خلال مراحل حياته كلها؛ ففي سني الطفولة يمكن ترسيخ العادات أو التخلص منها بسهولة أيسر من أيام الكبر. فالشيخ يحبُّ أَنْ يحافظ دائماً على الأنماط القديمة في حياته،

ويتمسك بقوة بعاداته، ومن العسير إقناعه بتغيير ما تعوَّده، لهذا كان الشباب عماد التقدم، وكان الشيوخ عماد الاحتفاظ بهذا التقدم.

والطفل يكتسب أكثر عاداته بالتقليد، والتلقين، والإيحاء، والتدريب، فكانت تبعةُ الآباء والمربين من جراء ذلك عظيمةً جداً. وبقدر ما تكون العناية بتربية الأطفال جيدة، بقدر ما تؤدي إلى حثّ مشاعرهم على الاعتياد بتحمل المسؤولية، وفي ذلك إنماء لمواهب الطفل، وتكوين شخصيته تكويناً سليماً من شأنه أنْ يرتدَّ بالنفع على المجتمع الذي يعيش فيه؛ لذلك وجب أن ينصبَّ اهتمام المعنيين، ولا سيما المرشدون والموجهون على غرس العادات الطيبة في النفوس ـ ولاسيما الأطفال والتلامذة ـ أكثر من اهتمامهم بحشو عقولهم بالمعلومات، ولا سيما العلوم، لأنَّ قسماً كبيراً من هذه العلوم ينساه التلميذ بعد مغادرة المدرسة، بينما تبقى العادات الطيبة ظاهرة في تفكيره، وسلوكه، لأنها تلازم الإنسان مدى حياته.

انتهى المجلد الأول

من هذا الكتاب

ويليه المجلد الثاني والأخير

بعون الله وتوفيقه

الفهرس